دراسات تراثية

في البلدان والتراجم وأدب الرحلات

الجزء الأول

د. عماد عبد السلام رؤوف



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذه مجموعة من الدراسات اخترتها مما كتبته في خلال حقبة امتدت خلال نحو أربعة عقرد من السنين، نشر أغلبها في دوريات علمية وثقافية مختلفة، منها في العراق مجلات المجمع العلمي العراقي، والحكمة، ودراسات تاريخية، والأستاذ، والمشكاة، والاكاديمية الكردية، والمورد، والمكتبة العربية، وميزوو الكردية، ورديا كلدايا (المثقف الكلداني) الكلدانية، وبين النهرين، وآفاق عربية، والسِّبط، والبلاغ، ومنها ايضاً الأديب البيروتية، والمجلة التاريخية المغربية، ومواقع ألكترونية مختلفة، ومواطن أخرى، بل منها ما لم يُنشَر أصلاً، وبات الوصول الى بعضها اليوم متعسراً تماماً، وقد رأيت أن جمعها بين دفتي كتابٍ واحد في مجلدين سيُيسِّر على الباحثين، وعامة القراء الاطلاع عليها.

ونظراً لطول هذه الحقبة فمن الطبيعي أن لا يكون ثمة إطار واحد يُعيِّن موضوعات ما كُتب خلالها، فهذه الموضوعات تترامى على عصور زمنية مختلفة، وتتبنى جوانب متعددة من التاريخ والتراث، في العراق وأنحاء من الوطن العربي، ومن هنا فلم نجد عنواناً واحداً ينتظمها، إلاّ أن يكون عنواناً عاماً، وهذا ما اخترناه بالفعل.

على أنه إذا كان التنوع هو سمة هذه الدراسات، فإن المشترك بينها إتباعها منهجاً واحداً تقريباً، هو منهج البحث التاريخي، الذي يميل الى استخدام الوثائق غير المنشورة، ونصوص المخطوطات، كما يعتمد على نقد هذه المواد وتحليل معطياتها بحسب طبيعة كل موضوع. وأكثر الدراسات ذو جانب خططي واجتماعي وثقافي، وأقلها ذو جانب سياسي، وليس ذلك لقلة أهمية هذا الجانب الأخير، ولكن لتصورنا بأن التاريخ غير السياسي لما يَزل في حاجة الى مزيدٍ من البحث المتأني قياساً الى ما يحظى به التاريخ السياسي من اهتمام.

ومع كل التنوع الذي يبدو على هذه المجموعة من الدراسات، فقد أمكننا أن نقسمها الى عددٍ من المحاور الرئيسة، فعدا المحور الأول الذي يضم ثلاث دراسات

عن كتابة التاريخ وتحقيق التراث العلمي، فثمة محور تال تدور دراساته حول المدن والنواحي والمعالم الخططية، منها دراسة عن اكتشاف بقايا لقصر عباسي يرقى الى القرن الثاني للهجرة نعتقد انه قصر المنصور العباسي حيث المركز الاول لمدينة السلام بغداد، بينما تتناول الدراسة الثانية الباب الوسطاني، وهو الباب الوحيد المتبقي من أبواب سور بغداد العباسية، فضلا عما كان يحيط به من معالم ترقى الى ذلك العصر ثم دُثرت، أو تبدَّلت وظائفها في العصور التالية، بل نُسِيت أسماؤها نفسها. وتتناول الدراسة التالية تاريخ دير قديم في جتوب بغداد، لا يُعرف أصله، ووردت أخباره في عصر سبق الإسلام، وازدهر في العصور التالية، حتى نمت حوله مدينة عامرة، واشتهر بأنه المكان الذي صُرع في مشارفه الشاعر المتنبي، ومع كل هذه الشهرة، فإن الدير دثر في العصور التالية، وصار أثراً بعد عين، وقد عثرنا على وثيقة في المحكمة الشرعية ببغداد، تشير اليه بعد دثوره وعدد كبير من المواضع حوله، فأمكن بذلك تعيين موقعه اليوم. وثمة دراسة ثالثة تناولت مئذنة قديمة قرب مدينة اليوسفية جنوب بغداد أيضاً، ترقى الى العصر العباسي، وهي تومئ الى وجود مدينة مهمة كانت تحيط بها، ولكنها اليوم تختفي تحت أكوام من الأتربة. وتتناول الدراستان التاليتان قرى ديالى ونواحيها، فأولاهما تبحث في الأصول اللغوية والإجتماعية والجغرافية لتسميات المئات من القرى في نواحي ديالى، أما الأخرى فتتناول هذه القرى نفسها في القرون المتأخرة في ضوء الوثائق الوقفية، وهي منجم يضم معلومات مهمة عن مثل هذه الشؤون. وتعرِّج الدراسة السادسة الى تاريخ بلدة سامراء في العصر العثماني، من حيث تكويتها الإجتماعي، ونشاطها الاقتصادي والثقافي وعمرانها بوجه عام، بينما تتناول الدراسة التالية مدينة تكريت، لاسيما أحوالها الاقتصادية في ذلك العصر، وبالطبع فقد اعتمدت هاتان الدراستان على كتب الرحلات بوجه خاص، فضلا عما توفر لدينا من وثائق ومصادر أخرى. وتناولت الدراسة الثامنة في هذا المحور مدينة كربلاء إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحسب وثائق المجموعة المعنونة (دفاتر مهمة) المحفوظة في الآرشيف العثماني باستانبول، أما الدراسة التالية في هذا المحور فتتناول النشاط الزراعي والتكوين الاجتماعي لقرية عنكاوا القريبة من اربيل في ضوء البيانات التي يقدمها (دفتر مفصل) الخاص بولاية أربيل في القرن السادس عشر. بينما تتناول الدراسة الاخيرة في المحور رؤية

المؤرخين العراقيين لمصر في العصر العثماني وما أصابها من تغيرات في ضوء ما كتبوه من مؤلفات خطية نشرنا بعضها في العقود الماضية.

وتناول المحور الثالث نماذج لسير عددٍ من العلماء الذين برزوا في الوطن العربي إبان العصور الإسلامية، في محاولة لتقديم الأوجه غير المعروفة من تلك السير، بالإعتماد على وثائق ومخطوطات جديدة. وأول دراسة في هذا المحور تناولت شخصية مهمة طالما اكتنفها الغموض، هو ابا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب (ع) الذي برز دوره في المرحلة الحرجة من تاريخ الدعوة العباسية، واكتنفت سيرته مجموعة من الروايات المتناقضة، فحاولت الدراسة أن تحلل هذه الروايات لتنفذ الى الدور الحقيقي لصاحبها، وما ارتبط به من صلات بشخصيات ذلك العصر، لا سيما مسألة تنازله عن الإمامة إلى محمد بن علي بن عبد الله العباسي، لتبدأ من بعده الدعوة الصريحة لإقامة دولة بني العباس.

وتتناول الدراسة التالية فكرة (التوارث الدولي) كما تبدت في كتابات ابن نجيم المصري الحنفي، الذي ناقش التداعيات الفقهية اللفتح العثماني لمصر ونهاية استقلال بلاده.

بينما تنتقل الدراسات الآتية في هذا المحور إلى تناول عدة نماذج لشخصيات مهمة برزت في العراق في العصر العثماني، وكان لها أدوار سياسية مهمة لم يتناولها مترجموهم المعاصرون، وذلك من خلال وثائق ونصوص غير منشورة. وتعقب تلك الدراسة سيرة لعالم بغدادي كبير متنوع الاهتمامات، هو محمد أمين السويدي، الذي وقف داره مدرسة على طلبة العلم، وشاء قدره أن يتوفى في بريدة من نواحي نجد وهو في طريقه عائدا من رحلة حجه. تليها دراسة عن مثقف بغدادي، هو خليل ونَّة، غادر بلاده في رحلة طويلة بلغ بها الأناضول شمالاً وبلاد الجزائر غرباً، وسجل وقائع حياته وخلاصة تجاربة في مخطوطات عثرنا عليها مصادفة في بيت حفيدٍ له في بغداد، تلى ذلك دراسة عن مؤرخ موصلي رائد هو سليمان الصائغ من خلال كتابه (تاريخ الموصل)، مع اهتمام خاص ببيان منهجه في كتابة التاريخ. وتتناول الدراسة التالية السيرة الأدبية والعلمية لأديب شاعر طبيب، هو محمد امين بك آل ياسين المفتي، معتمدين على معطيات ديوانه المخطوط، وكتاب مهم ألفه في الطب، وهو مخطوط ايضاً. وتخرج الدراستان

الأخيرتان في هذا المحور عن نطاق العراق الى بلاد الشام، فتناولت أولاهما التكوين الاجتماعي والاتجاهات العلمية لعلماء بيت المقدس في القرن السابع عشر في ضوء تحليل سيرهم ومؤلفاتهم، بينما بحثت آخرهما في سيرة راهب شاعر، من خلال إعادة ترتيب قصائد ديوانه على الطريقة الحولية، ونعتقد أنه يمكن اعتماد هذه الطريقة في الكشف عن مكنونات سير الشعراء بل وتصحيح ما أورده معاصروهم الى حد كبير.

ويختص المحور الرابع بأدب الرحلات، من خلال سبع دراسات مختلفة الموضوعات، فالأولى تناولت رحلة قام بها رحالة تركي، عرف بمُطراقي زاده، كان في حملة السلطان سليمان القانوني على العراق سنة 1534، وتتمثل أهمية هذه الرحلة في أنها احتوت على عدد من الرسوم الملونة الدقيقة للمعالم التي مر بها هذا الرحالة الفنان، منها صورتان لجانبي مدينة بغداد، فعمدت الدراسة الى تحليل هاتين الصورتين تحليلاً خططياً يفيد في تقديم معلومات غير معروفة عن معالم المدينة في ذلك العصر الذي عزت فيه المصادر. وتناولت الدراسة الثانية رحلة قام بها أحد قضاة الموصل وعلمائها الى دياربكر، وهي رحلة لما تزل حبيسة مخطوطة غير معروفة للباحثين، وهكذا الامر في الدراسة التالية فإنها تناولت رحلة مخطوطة قام بها عالم بغدادي الى القسطنطينية في اواخر القرن التاسع عشر، ووصف في خلالها ما مرَّ به من المدن والنواحي، وتتجلى أهمية هذه الرحلة في تسجيلها التحولات التي جرت على الطرق المؤدية من بغداد الى العاصمة العثمانية. واستعرضت الدراسة التالية، وهي الرابعة في هذا المحور، رحلة قام بها مسؤول عثماني، هو عالي بك، الى بغداد مقدماً صورة مهمة عن أحوالها العمرانية والإجتماعية في أواخر ذلك القرن أيضاً، وذلك من خلال ترجمة مخطوطة لم تُعرف. وتناولت الدراسة الخامسة رحلتين شيقتين قام بها رحالة دمشقي نابه هو فضل الله المحبي، قصد في أولاهما بلاد الاناضول وصولاً الى القسطنطينية حيث وصف مراحل الطريق إليها وصفاً جميلاً ينم عن دقة في الملاحظة، وقصد في الثانية مصر، فنزل القاهرة ليسجل مشاهداته عن هذه المدينة، وليترجم لمن التقى به من علمائها. وتناولت الدراسة التالية رحلة قام بها مثقف مقدسي غير معروف، هو عبد القادر آل أبي السعود، من نابلس الى القسطنطينية سنة 1841 وصف

فيها مراحل الطريق فضلا عن مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية في العاصمة العثمانية مما سجله في رحلته بدقة ملحوظة وعبارة موضحة. وتأتي الدراسة السابعة لتتناول أهمية كتب الرحلات العربية بحسبانها مصدرها أساسياً للبحث في العمارة العثمانية في بلاد الشام إبان العصر العثماني، من المساجد والمدارس والمشاهد والخانات والحمامات والقلاع وغير ذلك. أما الدراسة الثامنة فاختصت برحلة أول شرقي، هو الياس الموصلي، الى القارة الامريكية سنة 1668، وذلك من خلال تحليل ألفاظ هذه الرحلة وما ورد فيها من مصطلحات دخيلة وعامية انفردت بها. ومثلها الدراسة الاخيرة، فانها تناولت رحلة اخرى قام بها موصلي نابه، هو خدر الكلداني، الى روما سنة 1724، واقام فيها حتى وفاته سنة 1751، وقد ورد في رحلته العديد من تلك الالفاظ والمصطلحات، وبعضها فريد ومبتكر، مما كان موضوعاً للدرس والتحليل.

اما المحاور الثلاثة المتبقية فقد أجلنا نشرها إلى الجزء الثاني من هذا الكتاب.

والله تعالى من وراء القصد.

عماد عبد السلام رؤوف

11 تشرين الثاني 2016

من هو المؤرخ؟

1- بَذل المؤرخون وفلاسفة التاريخ، منذ أن عرف الإنسان كتابة التاريخ، جهوداً جَمّة في مجال تعريف (التاريخ) وتوضيح حدوده، و تعيين هويته ووظيفته، ومع ذلك فإن جُهدا مماثلاً لم يبذل في تعريف (المؤرخ) نفسه، وهو الكاتب للتاريخ. من هو، ما صفاته، ما تميزه، ما هي الاستعدادات الواجب توفرها فيه قبل أن يكون مؤرخاً. مع أن التاريخ بوصفه علما هو نتاج عمل المؤرخ، وثمرة جُهده. ومما زاد هذه الإشكالية إشكالاً أن مصطلح (المؤرخ) أي رجل التاريخ ينصرف إلى مَعنَيَين لا معنى واحد، أولهما أنه من يقوم بتسجيل الحدث ساعة وقوعه، والثاني من يكتب التاريخ مستندا إلى شهادات أولئك (المُسجِّلين). ولا يتسع تعريف المؤرخ للمعنيَين معاً، فالمؤرخ بمعنى (المُسجِّل للتاريخ) هو شاهد عيان لا أقل ولا أكثر، يكتب شهادته عما رآه أو سمع به ويمضي، والمؤرخ بالمعنى الآخر هو باحث في شهادات غيره، لا يحق له أن تكون له شهادته بين الشهود، فهو قاض يقضي مستنداً إلى ما بين يديه من شهادات، ولا يحق له أن يترك منصته فيفقد حَيدته حين يدلي بشهادته مثل سائر الشهود، ولو فعل لما أصبح قاض أصلا، أو بمعنى آخر لا يصبح مؤرخاً بذلك المعنى الذي ذكرنا.

2- إن اتساع مصطلح المؤرخ ليشمل نوعين من المؤرخين يختلف دور كل منهما عن الآخر، من شأنه أن يخلط بين الدورين خلطاً عجيباً، من ذلك أن جميع من كتب عن علم التاريخ حدد مواصفات المؤرخ (الشاهد) على نحو لا يمكن أن ينطبق إلاّ على المؤرخ (الباحث)، دون غيره، فهم يطلبون منه أن يكون محايداً حَيدَة مطلقة تجاه الحدث الذي جرى تسجيله، نزيهاً عن الغَرَض، سليماً في حواسه وفي ميوله، ودقيقا في وصفه، متحلياً بخلق عال قد لا يوجد إلا في الأنبياء والندرة النادرة من أهل التقى والصلاح، وهذه الأوصاف لا يمكن أن تنطبق على الشاهد ولا ينبغي أن تنطبق عليه، لأنهم يتناسون أنه قبل أن يكون شاهداً هو مجرد إنسان انفعل بحدث يَعنيه فسَجَّله، ولو لم ينفعل به لما سَجَّله أصلا، والانفعال يعني ضمناً التحيز لطرف أو لأطراف فاعلة للحدث، وأن يتأثر بها وبموقفها، بل أن يكون

مشاركاً في صنع الحدث نفسه، فالتاريخ علم الإنسان، أو علم ماضي الإنسان، وكل منهما نتاج لانعكاس صورة الآخر عليه، فلا يمكن أن يكون الشاهد قاضياً محايداً بأية حال وإلا يكون خارج إطار انسانيته وهو مُحال.

3- أما المؤرخ الباحث في التاريخ، فهو قاضٍ يقف خارج الحدث بمسافة زمنية تقيه من مَغبّة التحيز إلى أي من أطراف الحدث، وهو كالقاضي عليه أن يترجَّل عن منصة القضاء إن وجد نفسه، أو وجده الناس، متحيزاً غير مُنَّزهٍ في متابعة القضية المطروحة أمامه، وعلى خلاف ما أبيح للشاهد، فإن القاضي، أو الباحث هنا، باحث عن الحقيقة، فهو الذي عليه أن يُطالَب بالحَيدة والنزاهة والصدق إلى غير ذلك من صفات القضاة الحميدة. إنه يستقصي شهادات الشهود، أصحاب الروايات المعروضة أمامه، يقارن بينها، ويتأمل جزئياتها ببرودة أعصاب، ليتوصل إلى الحقيقة، فلا يختلف عمله هنا عن عمل القاضي إلاّ بفارق واحد، وهو أنه يتعامل مع شهادات مات أصحابها، فلم يعد ممكناً مراجعتهم فيما شهدوا به، ولكنه مع ذلك قادر على أن يتفحصها ويتعرف على ما هو صحيح أو أقرب إلى الصحة منها، أو نبذها أحيانا، إن اتبع في ذلك قواعد علم التاريخ، أو ما سُمِّي منهج البحث التاريخي. وهو مثل القاضي يستطيع أن يفتح ملف اي قضية تاريخية إذا توفرت له من الوثائق والمصادر الجديدة ما من شأنه أن يغير نتائج الأحكام، أو القناعات السابقة.

4- الباحث في التاريخ، بعد رحيل الشهود، هو ما نحتاج إلى التعرف على هويته، وخصائصه، وملكاته الموهوبة، او استعداداته الفطرية، لأنه هو الذي يقرر الأحكام، وحين يقال: أن فلانا أو فلانا هو في ذمة التاريخ، فالمقصود أنه في ذمة القضية التي ينظرها المؤرخون بعد حين لا نعرفه، فيستنطقون الشهادات، ويقارنون بينها، ويستعينون بقواعد العلم علَّهم أن يصلوا إلى ما يقرب من حقيقة ما حدث فعلاً. ومن المؤكد أن رجلا يتولى هذه المهمة لابد أن تجتمع فيه من الخصائص والمواهب والاستعدادات ما يستحق البحث، وهو ما نعتقد أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من الجهد، يساوي الجهد الذي بذل في درس التاريخ نفسه.

5- من هو هذا المؤرخ إذن، انه في نظرنا ليس رجلا درس التاريخ، أو حتى قضى عمره في دراسته، وكفى، إنما هو رجل ملك من الاستعدادات النفسية ما

جعله مؤهلا للكشف عن خفاياه، وتقرير أحكامه. إن المؤرخ هنا (تكوين خاص) لا يشبهه فيه أحد من أولي الاختصاصات الأخرى، وإن هذا التكوين في أساسه فطري، موجود فيه قبل أن يتجه إلى درس التاريخ على أي مستوى من مستويات الدرس. وأتذكر أن أحدهم سأل استاذه: ماذا أفعل لأكون مؤرخاً، فقال له ذلك الأستاذ: عليك بقراءة كذا وكذا من كتب المؤرخين، مع أننا نعلم أن السائل لو فعل ذلك، وقرأ كل كتب المؤرخين السالفين ما صنع ذلك منه مؤرخاً بأي حال، وكان الأولى بالأستاذ أن يسأله قبل كل شيء: وهل تملك استعداداً فطرياً لكي تكون مؤرخاً؟ هذا حتى يجنبه تضييع وقته وتبديد جهده في قراءة الأسفار المطولة دون جدوى.

6- إن أول هذه الاستعدادات أو المواهب أن يكون الباحث في التاريخ ذا رؤية أو بصيرة نافذة، قادرة على النفاذ إلى الماضي، فالتاريخ ليس إلا علم دراسة الماضي، ومن يعجز عن تحقيق ذلك النفاذ لن يكون مؤرخاً مهما فعل، انه يستطيع أن يجمع الروايات التاريخية، أوشهادات الشهود، في بحث أو كتاب لكنه لن يتجاوز ذلك الجمع إلى فهم ما وراءه، ومن ثم لا يستطيع التوصل إلى أي قناعة أو تقرير أي حكم. وبالطبع فإن المؤرخ، كسائر البشر، محدود بزمانه، فتجاوزه حدود زمانه إلى زمان مضى، ليتصوره ويتخيله، لابد له من قدرات فائقة لا تتوفر لدى غيره من الناس.

7- ربما كانت كلمة (الماضي) توحي بمضي الحادثة الماضية (والحادثة هي الوحدة الصغرى في التاريخ) فمُضي الشيء ذهابه وزواله، ولكن الماضي من الحوادث لا يذهب ولا يزول، مهما باعدت المسافة الزمنية بيننا وبينه، إنما هو يتوارى وراء الواقع من الحوادث الحاضرة، والتي تتراكم عليه لحظة بلحظة حتى لا يعود يُرى، والماضي لا يمضي وإنما يبقى حاضراً من خلال ما يعقبه من حوادث، بمعنى أنه يعطينا شكلنا وسلوكنا بل ويحدد اتجاهات مستقبلنا، ذلك أنه كامنٌ فينا، بل كامن في كل شيء حولنا، لا تحجبه عنا إلا قشرة رقيقة من (الحاضر) فالحاضر لا يكون حاضراً لو لم يستند إلى ماض، وهذا الحاضر نفسه سيكون (ماضياً) في كل لحظة تمر بنا، ومهمة المؤرخ هي ازالة هذه (القشرة) لينفذ بنظره إلى ما تستند إليه من ماض كامن.

8- ليس من فرق إذن بين الماضي والحاضر سوى (لحظة) من زمن، وحتى هذه اللحظة ليست متولدة من داخل التاريخ، أي ليست نتاجاً له، وإنما هي نتيجة الساعة الخارجية للزمن، فالتاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله أيضاً، تجربة واحدة لا تنقسم ولا تتجزأ، وهو موجود فاعل مؤثر، حتى لو لم يعد الناس يرونه .

9- يستطيع المؤرخ إذاً أن يرى ما لا يراه الآخرون، لأن أي قشرة من الحاضر لا تعجزه عن إنفاذ بصيرته إلى ما وراءها، قَرُب ما وراءها عنه أو بَعُد. وربما قال بعضهم أن أي انسان يستطيع أن يفعل ذلك إذا أحاط علماً جيداً بالماضي، عن طريق استقصاء (شهادات) الماضين ودراستها على وفق منهج البحث التاريخي، ونقول أن جزءا من هذا القول صحيح فعلاً، إذ لابد للمؤرخ أن يبدأ عمله متبعا قواعد هذا المنهج، بل لا طريق له سواه، فهذا المنهج قد استقر عبر تجارب المئات من المؤرخين، ولكن سلوك الطريق لا يؤدي إلى غايته، إلاّ إذا توفر شيء يختص به المؤرخ ويوجد فيه وحده الاستعداد له.

10- وأول هذه الاستعدادات أن يكون ذا خيالٍ واسع، وقد تصدم هذه الكلمة القارئ، لتصوره أن انضباط المؤرخ بالنص، أي شهادات الشهود التي بين يديه، يتقاطع مع انطلاقة الخيال، ولكنه هنا خيال منضبط تماماً، خيال مختلف عن الخيال السائب، لأنه لا ينطلق إلا بعد استنفاذ منهج البحث قواعده، من درس دقيق لكل تفاصيل الحدث، فينطلق ليرى الحياة قد دبت في الصورة الجامدة للماضي مما توصل إليه عبر ذلك المنهج، وإن لم ير مؤرخُ الحياة وهي تتحرك في شخوص الماضي، لن يستطيع أن يرى الماضي وهو يتحرك، ومن ثم يبقى ما جمعه مجرد معلومات، حتى لو كانت صحيحة في ذواتها، لكنها تفتقر إلى اللُحمَة، أو العلاقات، التي تصل بينها وبين بعضها لتكون صورة مُفعَمة بالحياة قابلة لوصفها وتسجيلها. الحياة إذن هي الغاية التي يسعى المؤرخ لإدراكها في الصورة التي يتوصل إليها من خلال اتباعه المنهج، ولكن هذا المُدرَك يبقى بعيداً لأن هذه (الحياة) أمر لا يمكن أن يُدرَك إلا بقوة خيال نافذ ينطلق إلى نص لا حِس فيه فتتمثل شخوصه أحياء يتحابون ويكرهون، يتعاونون ويتباغضون، وتحركهم سائر النوازع الإنسانية، فيفهم حين ذاك مبررات أفعالهم وردود أفعالهم، بل وسلوكهم كله، فيؤدي به هذا إلى فهم حركة التاريخ، أو إن شئت: روح التاريخ لا قشرته. وإذا

كان الخيال ضرب من (الخلق) كما قال بعض الصوفية المسلمين، فإن المؤرخ بتخيله للماضي يقوم بإعادة (خلق) شخوصه، وظروفه، وعلاقاته، لأنه لو لم يفعل، لايمكنه أن يَرى، وأن يصف ما يراه. وكلما تمتع مؤرخ بخيال أكثر قوة وتركيزاً، أصبح أكثر قدرة على رؤية موضوع درسه، فيكتب عنه وكأنه حاضر أمامه، وبذا يستطيع أن ينقل صورته إلى قرائه، وإن لم يفعل تلاشت هذه الصورة، أو بَدَت باهتة في أحسن تقدير، لأنها ستكون مفتقرة إلى الحياة نفسها، وبتعبير آخر لا روح فيها. وإذا كانت الطائرات لا تقلع إلاّ بعد أن تستنفد آخر متر في (مَدرَجاتها) ثم تنطلق محلقة بعده، فكذلك هو المؤرخ، إنه يستنفذ قواعد المنهج كله حتى آخر قاعدة فيه، فيجمع ويقارن وينقد ويحلل ويجتهد ويستنتج ويصوغ، ثم يجلس ليتأمل بهدوء ما فعله، فإذا ما حلق عالياً، انقشعت أمام بصيرته حُجب الزمن، فيرى ما درسه وهو ماثل أمامه، ولا يكون ذلك إلا بقدرة هائلة على البصر، وذلك ما يتمتع المؤرخ به دون الناس جميعاً.

11- فإذا ما تراءى له الماضي حياً متحركاً أمامه، أمكنه أن يتجاوز مجرد (الرؤية) إلى (الإحساس) بهذا المرئي. وهذا بدوره موهبة، او استعداد آخر يختص به، إذ كيف يمكن لإنسان حاضر أن (يَحِس) بماضٍ يبدو أنه قضى، ما لم تتوضح صورته أمامه حتى تبدو وكأنها تتنفس الحياة. فالمؤرخ له قدرة على الاحساس بالأموات وكأنهم أحياء أمامه، لسبب بسيط، هو أنه تجاوز موتهم إلى حياتهم، فالفرق بين الحياة والموت عنده فارق ضئيل لا يكاد يُحَس، وهو حين يدرس شخصية قائد أو عالم أو مجرم أو انسان عادي، مات منذ عشرات، أو مئات السنين، فإن صورة هذا الإنسان تنهض (حية) أمامه وكأنه قد عاش معه، أو كأنه لم يفارق الحياة إلا قبل دقائق أو ساعات، وبمعنى آخر تلاشت أمامه حُجُب الزمن ليرى ما وراءها من حياة دافقة، وحينئذ فقط يستطيع أن يفهم ذلك الإنسان على نحو قريب من حقيقته، وما اتصل به من حوادث على نحو أقرب إلى ما جرى. فنحن لا نتصور أن يفهم مؤرخ إنساناً أو حدثاً ما لم يكن قد حقق نوعاً من الرؤية له، تصل أحيانا إلى حد (الحس) به، فإذا كتب عن الحياة في مدينة بغداد مثلا في العصر العباسي، توضحت له، بعد درس دقيق وتأمل نافذ، دروبها وقصورها ومساجدها ومدارسها، وأحس بحركة الناس يسعون بين معالمها، وسمع أصوات

الخلفاء في قصورهم ومحافلهم، والعلماء في مدارسهم ومجالسهم، بل والباعة في اسواقهم، وإذا كتب عن القاهرة في عهد المماليك، توضحت له هذه المدينة بخططها وحاراتها وأبوابها وأسواقها، وتجلى أمام ناظريه المماليك وهم يمتطون شامخين صهوات جيادهم، وتلامعت أمامه زينات أزيائهم الفخمة، ووصل إلى سمعه أصوات سنابك الخيل وهي تضرب على أديم المدينة، وتراءت له في الوقت نفسه فئات من طبقات السكان الأخرى، تجاراً وعلماء وصناعاً وشحاذين، يتحدثون ويتجولون ويمارسون حياتهم العادية، فـ(يتجلى) أو (يتمثل) شيء مما أحس به من هذا كله في بحثه، وإلا سيكون ما يكتبه اثباتا لنصوص جامدة لا حياة فيها، ومن ثم تبقى ناقصة لأنها تفتقر للحياة.

12- وإذا كان للمؤرخ قدرة على الاقتراب من الصورة التاريخية إلى هذا الحد، فإن له قدرة عجيبة على أن يبقى بعيداً عن تلك الصورة لئلا يصل به القرب إلى حد الاندماج بها، فيكون طرفاً فيها، وهذا ما يمكن أن يتحقق لدى القارئ العادي، فالخيال قد يؤدي بهذا القاري، الخالي من الاستعداد الفطري للمؤرخ، إلى أن يُسقط عصراً رآه بخياله وحسِّه على العصر الحاضر الذي يعيش فيه، عاداً نفسه أحد الموجودين في ذلك العصر، تاركا لنفسه أن تتشرب قيمه ومفاهيمه وربما شكله ومظهره، فتراه يتحمس لما انحاز إليه تحمساً هائلا، ويعادي من لم يجد نفسه منحازاً إليه، نظير ما صوره لنا الأديب الإسباني سِرفانتس في رائعته (دون كيخوته)، وهذا ما نسميه (إسقاطا)، وهو ليس إلا سوء فهم قبيح للماضي، حتى لو حقق شيئا من الاقتراب منه. أما المؤرخ فهو وإن كان قادراً على النفاذ إلى ذلك العصر والاقتراب منه والإحساس به كما مر بنا من قبل، لكنه، وهذا استعداد آخر فيه، قادر على ضبط المسافة بينه وبين موضوع درسه، أي أن لا يصبح جزءا من الصورة التاريخية. إنه يرى الصورة بوضوح، ويحس بها مفعمة بالحياة، لكنه لا يستطيع أن يكون مجرد جزء منها، أو طرف فيها، لسبب واحد، هو أنه لو أصبح جزءا منها لما استطاع أن يرى إلاّ ما أمامه من جزء، ولانحاز إلى هذا الطرف أو ذاك، فيفقد قدرته على الإحاطة بالعلاقات التي تصل بين سائر أجزائها، ومن ثم رؤية الصورة رؤية شاملة محيطة بخطوطها وكتلها وألوانها كما يقول التشكيليون، انه سيرى لوناً دون سائر الألوان، وخطّاً بعيدا عما يشتبك به

من خطوط، وكتلة لا صلة بها بما يتداخل معها من كتل، وسيُحرم -من ثم- من فهم الصورة كلها او جزءاً منها .

13- وإذا كانت المسألة تبدو معقدة، وربما مستحيلة، لدى الناس العاديين، فإنها ليست كذلك لدى المؤرخ، لأنه كالقاضي يستطيع أن يحقق اقتراباً متفهماً من كل من يمثل أمام منصته من المتهمين والشهود، وفي الوقت ذاته في وسعه أن يحتفظ بنفسه بعيداً عن الانحياز إلى أي طرف ماثل أمامه. على ان المؤرخ فوق هذا قادر على أن يغوص في الصورة التاريخية فتعيش فيه ويعيش هو فيها في نوع من اتحاد صوفي، وفي الوقت نفسه، تجده يحلق فوقها بارتفاع يمكنه من الاحتفاظ برؤية واضحة ومستوعبة للصورة بكل أبعادها، انه يختزل هنا المسافة بين القرب والبُعد، ولا يشبهه في ذلك إلا الفنان التشكيلي، فهو حين يرسم لوحة تجده يعيش في تفاصيلها يكاد يلتصق بها، وتعيش هي في وجدانه قريبة من أعماقه، أو مُعبِّرة عنها، وهو في الوقت نفسه تجده يقف بين حين وآخر بعيداً عنها ليتأمل ملامحها وليكتشف العلاقة بين مكوناتها من خط وكتلة ولون، وإذا كان ثمة فرق بين صنيع التشكيلي والمؤرخ، فهو أن المؤرخ لا يحتاج إلى أن يغادر موقعه بين حين وآخر، قرباً وبُعداً، وإنما هو يعيش اللحظتين معاً، فهو قريب ، وهو بعيد، في آن واحد . وعلى سبيل المثال فإنه لو كان يبحث في تاريخ الأحزاب في بلد ما، ووجد نفسه ميالاً إلى أحد هذه الأحزاب، فَقَدَ حَيدَته، لأنه لم يعد يرى إلا هذا الحزب الذي انتمي إليه في وجدانه. وللمؤرخ استعداد لأن يختزل المسافة بين الذات والموضوع، فهو يمكن أن يكون ذاتياً وموضوعيا في آن واحد، ذاتيا في قدرته على استبطان الموضوع من داخله، ليكون أقرب فهما له، وموضوعياً في قدرته على رؤية الذات من خارجها ليتبين علاقاتها مع الذوات الأخرى، وبحسب قدرة المؤرخين على اختزال المسافة بين الأمرين، تتباين مُكنتهم في كتابة التاريخ جودة وضعفاً .

14- ولا يمكن للمؤرخ إلا أن يكون هادئاً بطبعه، بعيداً عن الإنفعال، وهذا الهدوء هو في حقيقته استعداد آخر في شخصيته لدرس التاريخ، وفي اتخاذ أحكامه، وفي فهمه للجزئيات التي تتجمع أمامه، فالتاريخ علم انساني، ومجرد فهمه يعني أن على المؤرخ أن يكون قريبا من تجربة الناس الذين يكتب عنهم، فهذا القرب شرط لاحترامه إياهم، والاحترام بدوره شرط لتفهم سلوكهم في الماضي،

ومن ثم كتابة تاريخهم. وكما أن القضاة يتفهمون السلوك الذي أدى بالمذنب ليرتكب ما ارتكبه، فإن المؤرخ يتفهم بيسر ملحوظ سلوك شعب في لحظة من تاريخه بما أدى به إلى نصر محقق أو هزيمة منكرة. فلو كتب مؤرخ تاريخ الصين مثلا كان عليه أن يدرس البوذية والكونفوشيوسية لأنه دون فهم هاتين الديانتين لا يمكن أن يحقق اقترابا من سلوكيات الإنسان الصيني في الماضي، وهكذا الحال إذا درس اي شعب في العالم. على أن استعداده كمؤرخ يأبى عليه أن يكون طرفاً، ضد أو مع، هاتين الديانتين، فاقترابه هذا لا يعني أن يكون له موقف شخصي من أتباع هذه الديانة، وذلك الشعب، وإنما مجرد فهم أعمق لسلوك كل منهما. ولذلك كان المؤرخ بطبيعته بعيداً عن التحيز، والتطرف، وهو أميل إلى الهدوء في اتخاذ الأحكام، والاتزان في تكوين القناعات، وقد ينسحب هذا الهدوء والاتزان على سلوكه في حياته كما ذكرنا. ربما كان الإعلاميون والسياسيون أكثر الناس انفعالا في أحكامهم، لأنهم يعيشون في الحاضر وحده، بأزماته وحروبه وصراعاته ومشاكله، إلا أن المؤرخين هم أهدأهم، وأبعدهم عن التعصب، فهم لا يبحثون في الحدث وقت حدوثه، ومن ثم لا ينفعلون، ولا يتأثرون، وإنما يصبرون عليه حتى إذا ما برد تماماً، ولم يعد له تأثير على حاضرهم، تناولوه بالبحث بأيدٍ هادئة، وتدبروه على وفق منهج علمي محدد، ثم مضوا في تأمله بهدوء ايضا للنفاذ إلى حقيقة ما حدث لا أكثر ولا أقل. فالإنسان العصابي او الانفعالي لا يمكن أن يكون مؤرخا بأي حال.

15- وعلى الرغم من الهدوء الذي يتحلى به المؤرخ، إلا أنه ميال إلى الشك فطرة فيما يقرأ ويسمع، فهو بخلاف كثيرين لا يميل إلى تصديق كل رواية، والأخذ بكل نص. والشك بوجه عام يسعده، لأنه سبيله إلى احساسه بذاته أولاً، فثقته بذاته لا تتحقق إلا بنقص ثقته بما يرويه الآخرون، مما يشكل دافعا اساسيا لنقده مصادره، فهو لا يتورع عن اتهام شاهد بالكذب، أو التزوير، أو الجهل، وهذا ما سماه المعنيون بمنهج البحث بالنقد التاريخي، وصحيح أن مصطلح النقد ظهر في الدراسات التاريخية قبل قرنين، ووصل إلى بلادنا في مطلع القرن الماضي فقط، إلا أن النقد نفسه كان موجودا منذ أن بدأت كتابة التاريخ، أخذ به المؤرخون عمليا في كتاباتهم في كل العصور، ودليلنا على ذلك أن اقتصارهم على تسجيل روايات

بذاتها كان لثقتهم برواتها، ويعني هذا أنهم تركوا غيرها مما لم يثقوا به وبرواته، فلا يكون المؤرخ مؤرخاً ما لم يكن يملك من الجرأة ما يدفعه إلى طرح رواية لشكه بقائلها، أو أن ينتخب منها ما يراه صدقا ويلقي ما عداه لقلة ثقته بذلك. ونعتقد أن النقد يمثل أحد الاستعدادات الفطرية لدى المؤرخ، فما أن تروي رواية إلا فاجأك بسؤال يعلن فيه عن شكه، مثل: ومن قال لك ذلك؟ وكيف لك أن تعرف ذلك، فالشك مجبول في طبيعته، وهو يمارسه في عمله طالما أن عمله سينتهي إلى اصدار أحكام، وتوصل إلى قناعات.

16- ونظرا لأن المؤرخ يميل إلى الهدوء والحيدة في أحكامه، فهو كالصوفي لا يفرحه ولا يحزنه ما جرى أمامه من حوادث الماضي، ولا تهمه النتائج إلا بوصفها مقدمات لنتائج أخرى تنبني عليها. إنما تكمن سعادته بتتبعه حركة التاريخ بحد ذاتها، وربما اعتراه وهو يتابع هذه الحركة، اقترابا تارة، وبعدا وتحليقا تارة أخرى، تسارعاً مرة وتباطؤا مرة غيرها، ما يشبه حالة من الوجد الصوفي، حالة استغراق ممتع، يقطعه عما حوله من حاضر. وهو في ذلك يشبه المتابع لفيلم يشاهده، يستهويه ويبهره، بغض النظر عما في الفيلم من مشاهد تدعو إلى الفرح أو إلى الألم. إنها نشوة نادرة ربما لا يحسها إلا المؤرخ وحده، وهذه النشوة هي المكافأة السخية التي يحصل عليها لما يبذله من جهد مضني في مجال عمله الذهني.

17- والمؤرخ لا يكتفي بأن (يرى) الماضي المختبئ وراء قشرة الحاضر فحسب، وإنما هو يسعى- سعيداً- إلى إشراك قارئه بهذه الرؤية، بتقديم ما رآه على هيئة (صورة) يمكن أن يراها أي قارئ، ولهذا فهو هنا يمتلك استعدادا خاصا لأن يكون (تشكيلياً)، بغض النظر عن طبيعة ما يشكله، فهو قادر على أن يعيد تشكيل شخوص الماضي، بل الماضي نفسه، دون أن يتعارض هذا مع تقيده بمنهج البحث التاريخي، بل ينسجم معه إلى حد بعيد، لأننا ما دمنا كنا نتحدث عن صورة تاريخية، فإن هذه الصورة لا تتكون إلا باعادة تشكيل الشخوص المكونة لها، والفارق الوحيد بين عمل الفنان التشكيلي وعمل المؤرخ، أن الأول يرتب ألوانه على لوحة خاصة بيده ويشرع بمزج الألوان على النحو الذي يريد أن تظهر فيها الصورة الفنية التي يرسم، أما المؤرخ فأنه يمزج بين الحقائق التي دله عليها منهج البحث، أي يكتشف العلاقات بينها، ليشكل منها الصورة التاريخية التي يكتب.

فهذا المؤرخ لا يملك استعداداً فطرياً لأن يكتشف العلاقات المركبة بين مكونات الماضي، فحسب، لكنه يمتلك استعداداً آخر ليعيد تشكيل هذه المكونات بجرأة الفنان وهو يضرب بفرشاته على قماش لوحته متوخياً إن تأتي الصورة على وفق رؤيته للواقع الذي يراه، بأي صورة من صور الرؤية. فالجرأة في (التشكيل) تمثل واحداً من أهم استعدادات المؤرخ الفطرية، ومن دونها لا يستطيع أن يشرك الآخرين، وهم قراؤه، في رؤية ما يراه هو، وما يحسه. ومن هنا فإنه يمتلك استعداداً كامنا لتصور أكثر من بداية للحدث، وأكثر من نهاية، وأكثر من مسار واحد، وبذا فإنه يمتلك قدرة على اعادة تشكيل الصورة التاريخية الواحدة غير مرة، وهو هنا يقرب من أن يكون كاتب سيناريوهات عدة لقصة واحدة، وهو يقدم في النهاية لقرائه السيناريو الأكثر اقناعاً بأنه القريب مما حدث فعلاً.

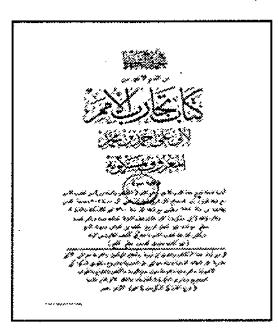
18- وبالطبع، ليس كل انسان له استعدادات مما ذكرنا، هو بالضرورة مؤرخ، ولكن بدونها لا يصبح الإنسان مؤرخاً، ولا يتفاضل المؤرخون إلا بها. وعلى الإنسان أولا أن يكتشفها في نفسه قبل أن يفكر بأن يكون مختصا بهذا النوع من الدراسة.

رؤية في كتابة التاريخ

تحضير التجربة التاريخية!

فرض التاريخ نفسه في العصر الحديث علماً بما له من مناهج وطرائق بحث وشروط محدودة استقامت بعد جهود وافرة بذلها علماؤه ونظريات استنبطها مؤرخون وفلاسفة إبان القرنين الأخيرين بخاصة، أي أنه استوى علماً بما له من وسائل في تقصي أحداثه وتفسيرها، دون أن يكافئ ذلك تفسير للنشاط العقلي للمؤرخ الذي يتولى عملية تفسير الأحداث نفسها.

ونتيجة لضعف تحليل ذلك النشاط او (العملية الذهنية) التي يقوم بها المؤرخ، عدّ مؤرخون وباحثون عديدون التاريخ ضرباً من الأدب، او الفن، أو مجرد (معرفة) لا علوم منضبطة بقواعد وحدود، مستندين الى استحالة (تجريب) الحدث التاريخي، لاختلاف العوامل الناجم عن تطور المجتمع الانساني الدائم، وحتى الذين عدّوه (علماً) استندوا في ذلك الى ما له من مناهج مستقرة نسبياً في التواصل الى الحقيقة، مع علمهم باستحالة التجربة في التاريخ أيضاً.



ومع ان استخدام لفظة (التجربة) في التاريخ القديم، سبق اليه ابن مسكويه في القرن الرابع الهجري، إلاّ أن اللفظ ظل تعبيراً مجازياً أو اخلاقياً في أقصى حد، فالتجربة هي من مصطلحات العلوم البحتة، وهي تفاعل بين أشياء لها خصائصها النوعية، سواء أكانت عناصر كيميائية، أم أرقاماً رياضية، وهي لذلك ممكنة في كل زمان ومكان، فإمكان حدوثها (مطلق)، أما التاريخ فلا يبدو كذلك لأن التجربة فيه، اي اعادة تشكيل احداثه، مستحيلة بسبب أن عوامل تلك الأحداث تتغير بسرعة هائلة، فلا يمكن استخدامها في (تحضير) التجربة نفسها، فالحدث

التاريخي – كما يبدو- محدود بزمان ومكان معينين، أي أنه نسبي خلافاً لما هو الحال في التجربة الكيميائية والعملية الرياضية مثلاً.

إن إثبات مطلقية الحدث شرط أساس لإمكان التجربة التاريخية، وبديهي أن ذلك يعني تجاوزه حدود زمانه ومكانه، فإذا قلنا بأن هذه الورقة محدودة مكاناً، فلا يعنينا أن نبحث عنها خارج حدودها المكانية، وكذا إذا كانت محددة زماناً فلا يعنينا أن نبحث عن وجودها قبل تاريخ صنعها أو بعد إتلافها مثلاً، فهل ينطبق هذا على الحادث التاريخي؟ اي هل يعفينا علمنا بأن حادثاً ما حدث في سنة محددة، من ان نبحث في عوامل هذا الحادث قبل ذلك التاريخ بمدة او مدد قصيرة او بعيدة؟ الجواب : لا طبعاً، لأنه يستحيل على الساعي لفهم حدث ما، أن يضع خطاً زمنياً بداية لبحثه في عوامل ذلك الحدث، وإلاّ فأين هو الخط الزمني الذي نبدأ منه البحث في عوامل حدث معين، كاحتلال المغول بغداد سنة 656 هـ .

وإذا تركنا جانباً الطريقة الآلية المدرسية في حصر العوامل وتعدادها، فهل يكفي، لفهمنا، أن نبتديء في بحثنا من الخمسين سنة الاخيرة التي سبقت الاحتلال؟ أليس الحادث إلا لحظة في سياق تدهور مستمر معقد شمل جميع مرافق الدولة والمجتمع منذ عهود بعيدة، أدى الخلفاء والسلاجقة والبويهيون والترك والفرس وغيرهم (بسياق تراجعي) أدواراً مختلفة أدت اليه؟ وربما بدأت بذوره خفية منذ عهد القوة والازدهار؟. ومن ناحية اخرى، هل انتهت آثار هذا الحادث؟ ومتى انتهت، ألم يكن هو نفسه لحظة من سياق تدهور تلاه، وأدى المغول والصفويون والعثمانيون والبريطانيون ادواراً مختلفة نتجت عنه؟. ومن حيث المكان، هل قفز المغول ليحتلوا بغداد سنة 656 هـ، أم أن هذا الحادث جاء استمرارا لتداعٍ مكاني (كتساقط قطع الدومينو إن وضعت الواحدة تلو الاخرى، ودُفعت) شمل مساحات شاسعة من الارض، وربما كان مركز دفعها اواسط اسيا او الصين وامتد ليشمل مناطق المشرق الاسلامي كله ليمر في لحظة زمنية بالعراق، مسقطاً بغداد بيد المغول في ذلك التاريخ؟.

وإذا قيل أن هذه عوامل، وليست الحدث نفسه، فهل يستطيع المؤرخ ان يفصل بين الحدث (النتيجة) وعوامله (الأسباب) اذا ما توخى فهمه والاقتراب منه . إن العوامل جزءٌ مندمج بالحدث نفسه، وليس الاخير الا مظهر لها، ولقد أفسد اهل المنطق التاريخ حينما صوروه مجرد متوالية من الأسباب والنتائج، فقد أوجدوا فاصلاً

بين طرفي العملية الذهنية للمؤرخ، فهذا سبب وذاك نتيجة له، وقد يكون هذا الفصل صحيحاً في علوم أخرى، لكنه في التاريخ خطأ فادح، اذ ليس في هذا العلم أسباب منفصلة عن نتائج، بل ليس ثم تصنيف لهما، وانما هناك حركة دائبة هادرة قوامها الانسانية كلها، قد تدق جزئياتها عن العين الفاحصة، فتسميها عوامل او أسباب، وتخضعها للبحث والتحليل، وقد تظهر بارزة واضحة، فتدعوها احداثاً او نتائج، وتخصها بالوصف والتحديد. مع ان الجميع يشكل كلا متحركا واحداً، لا يمكن، إن ضربنا صفحاً عن المقاييس المستمدة من العلوم الاخرى، أن نصنف أجزاءه أو نميزها.

التاريخ.. والحادث المطلق

احتلال بغداد اذن لا ينفصل عن عوامله، لأنهما يمثلان كلا واحداً. وعليه فان هذا الاحتلال لم يحدث سنة 656 وحدها، وانما هو (أخذ يحدث) منذ قرون عديدة لايعرف مبدؤها، و (سيستمر بالحدوث) قروناً اخرى لايعرف منتهاها، فهو اذن حادث (مطلق) لا يحده زمان او مكان محددان.

إن اتخاذ المؤرخ مرحلة، او حادثة، من الماضي لدرسها وتحليلها، لا يعني بحال انها بدأت في تاريخ محدد وانتهت بمثله، وانما يشبه عمله عمل عالم الطبيعة الذي يفحص جزءاً صغيراً من شجرة ضخمة في مجهره، لا لشيء إلا لأن المجهر لا يسع حجم الشجرة كلها، اي انه (يحدد) الحقبة، لا لأنها نسبية لها حدود. (فالعملية الذهنية) التي يقوم بها لا تتسع للماضي كله، فلا بد له اذن من انتزاع جزء منه واخضاعه لعمليات الدرس والتحليل.

بيد انه مثلما كان فهم عالم الحياة للجزء الخاضع لبحثه، لا قيمة له إلا بإدراكه موقعه من الكل الذي انتزعه منه، فان تحليل المؤرخ الجزء موضوع الدرس لا قيمة له، بل هو مستحيل تماماً، اذا لم يدرك المؤرخ موقعه من السياق العام للتاريخ كله، وكلما ازداد ادراكاً لذلك وتحسساً له، اقترب من حقيقته، الى الحد الذي يصبح فيه جزءاً منه، يعيش في ذهنه، ويصبح المؤرخ نفسه جزءاً منه، يتمثله، ويعيشه ويلتحم به، في نوع من الاتحاد. فتصبح جزئيات المرحلة والحدث مطلقة لانها تجاوزت حاجز الزمن، فاتحدت به، رغم زمانها السحيق، وتعدّت حاجز المكان، فاتصلت به رغم مكانها القصي، فاذا ما تم ذلك، اصبحت استعادة الماضي ممكنة على نحو يماثل ما يقوم به الكيميائي حينما يعيد تحضير (التجربة) الكيميائية، والفرق الوحيد ان المؤرخ (يُحضِّر) التجربة في ذهنه، بينما يُحضِّر الكيميائى تجربته على طاولة مختبره.

تحقيق المخطوطات العلمية

إن الكتب المؤلفة في علم تحقيق المخطوطات استمدت قواعدها، في الغالب، من تجارب مؤلفيها في عالم التحقيق، فإذا كانت هذه التجارب تختص بالمخطوطات الأدبية، جاءت تلك القواعد لتعالج طرق تحقيق هذا النوع من المخطوطات، وهكذا الحال فيمل يتعلق بالمخطوطات الباحثة في حقول المعرفة الأخرى.

صحيح أن ثمة قواعد ثابتة تعد قواسم مشتركة للتحقيق، على اختلاف ضروب الكتب المحققة، من قبيل جمع النُسَخ المخطوطة، وتحديد النسخة الأم من بينها، ومقابلتها على غيرها، وما إلى ذلك، إلاّ أن تطبيقات تلك القواعد تختلف - إلى حد ليس بالقليل - بين ضرب وآخر. ومن الملاحظ أن جميع ما أُلف في قواعد التحقيق، جاء - إلى حد الآن - ليُلبّي حاجة المحققين في العلوم الأدبية، واللغوية، والتاريخية، والفقهية، وماهو داخل في نطاقها بوجه عام، بيد أن ثمة ضروباً من العلم لمّا تزل بحاجة إلى قواعد تراعي خصوصيتها، وتستجيب للاختلافات، وإن كانت يسيرة أحياناً، بينها وبين غيرها من العلوم، وبخاصة العلوم البحتة، مثل الكيمياء، والطبيعة، والحساب، والهندسة، والفلك، والطب، والصيدلة، وعلم الأرض، والحيَل (الميكانيك)، والعلوم العسكرية وغيرها. وتبتدئ هذه الاختلافات من مرحلة انتقاء المخطوط، مشروع التحقيق، وحتى آخر مراحل إخراجه للقراء.

وسنحاول فيما يلي أن نأتي - بسرعة - على بيان بعض ما يختص به عمل المحقق لمثل هذه العلوم، وذلك على النحو الآتي:

1- اختيار المخطوط:

ثمة مخطوطات كثيرة جداً في كل مجال من مجالات العلم، فلابد من تحديد معيار واضح يجري على أسسه اختيار المخطوط الذي سيُعنى به المحقق، فإن لم يجد مثل هذا التحديد، ضاعت جهود كبرى في أعمال ضئيلة القيمة، وتبدّد وقتٌ طويل فيما لا طائل تحته، ونعتقد أن أسس هذا المعيار في الاختيار هي:

أ- أن يقدم المخطوط إضافة جديدة للمعرفة، كأن يتضمن فكرة أو أفكاراً لم يسبق أن تناولها مؤلف من قبل، أو ألمح إليها عالم في المجال الذي تبحث فيه.

ولا يعنى هذا أن تكون كل أفكار الكتاب جديدة، أو رائدة في بابها، فأمر كهذا بعيد عن التصور، ولا يتوفر إلاّ في النادر من الكتب، ولكن قد يضم الكتاب فكرة واحدة تستحق، لجدَّتها، أن يُبذل الجهد في تحقيقه كله، فكتاب (شرح تشريح القانون) لابن النفيس (المتوفي سنة 687هـ/ 1288م) يتألف من خمسة بحوث، لم تلق من اهتمام الأطباء المسلمين ما لقيته مؤلفات طبية أخرى، إلاّ أن بضعة نصوص منه اثارت اهتمام الاطباء المُحدثين إلى الحَد الذي جعل اسم ابن النفيس يفرض نفسه على أوساط العلماء في كل مكان، وهذه النصوص هى التى وصَفَ فيها الدورة الدموية في الرئة، وتقريره بأن عضلات القلب تتغذى من الأوعية المبثوثة في داخلها لا من الدم الموجود في أجوافه، فهذه النصوص على قصَرها النسبى جعلت من الكتاب واحداً من أبرز المؤلفات الطبية في العالم.

وكتاب (منافع الأحجار) لعُطارد الحاسب البغدادي (المتوفى سنة 243هـ/ 857م) أكثر فيه مؤلفه «من العزائم والرُقى فاسترذل» على حد تعبير البَيِّرونى (الجماهر ص 217) ولكنه مع هذا انفرد بسَبقين عالميين، هما اكتشافه لخاصية الدَسامة Oilness في الحجر، وخاصية الصلادة Hardness فيه، فهذان الاكتشافان يكفيان في تقديرنا أن يكونا مبرراً لتحقيق الكتاب ونشره على الرغم مما اعتَوَر الكتاب من هنات كما تقدم. وكثيرة هى كتب الكيمياء التى خصصت معظم فصولها لوصف طُرق موهومة لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب أو فضة، وليس في هذا جدَّة بالطبع، إلاّ أن المهم فيها يكمن في جوانب، أو ربما فقرات متناثرة، تناولت موضوعات كيميائية علمية حقيقية، لم يقصد مؤلفو تلك الكتب أن تكون من غايتهم.

ب- أن يؤكد الكتاب على فكرة علمية صحيحة قال بها بعض العلماء في عصر مضى، ولكنها نُسيَت، أو تنوُسيَت، في العصور التالية لأسباب مختلفة. من ذلك مثلاً أن ظاهرة انفجار النجوم الضخمة وتحويلها إلى شظايا مادية وإشعاعات وغازات تندفع بعيدا عن مركزها، كانت على الدوام من الظواهر التى أهتم بها الأقدمون بوصفها تجلب النحس للإنسان، إلاّ أن نصا واحدا في وصف هذه الظاهرة، أورده على بن رضوان (المتوفي سنة 460هـ/1067م) في كتابه (شرح المقالات الاربعة في القضايا بالنجوم لبطليموس) جعل من هذا الكتاب مهماً، ليس بوصفه كتاب طب فحسب، ولكن بصفته يحتوي على معلومات دقيقة، وان لم تكن جديدة، لإحدى أهم الظواهر الفلكية في الكون.

ومثل هذا أن فكرة دَوَران الأرض حول الشمس كانت معروفة في بعض الأوساط العلمية في بلاد الإغريق القديمة، لكنها تنوسيت في العصور الوسطى بتأثير الكنيسة، وشاعت بدلها فكرة معاكسة تماماً، تقول بثبات الأرض ودوران الشمس حولها، فإذا وجدنا مخطوطاً عربيا أكّدَ، ولو في فقرة واحدة تلك الفكرة الصحيحة، فان أهمية هذه الفقرة، ورغم عدم جدَّتها، تكمن في أنها أثبتت مَيزة الحضارة الإسلامية في أنها رَعَت هذه الفكرة في عهود التخلف لتصل بها إلى العصر الحديث، وتلك ميزة كبرى تستحق أن تكون سببا في تحقيق المخطوط كله، حتى لو كانت معلوماته الأخرى عادية تماماً.

جـ - وربما لم يحو مخطوط شيئا من ذلك كله، لكنه ازدان بصُوَر أو أشكال هندسية أو جداول رياضية، وضَّحَت ما أراد المؤلف أن يقدمه للقارئ، فمثل هذه الوسائل يمكن أن يكون سبباً رئيسياً لجعل المخطوط يغدو مهما، فقد تساعد هذه الاشكال والصور والجداول على فهم فكرة ما، بما تقدمه من بيانات دقيقة، أو أنها تصلح أن تكون، لوحدها، موضوعا لدراسة مستقلة. مثال ذلك أن مخطوطة (منافع الأحجار) لعطارد الحاسب (نسخة باريس) احتوت على نحو خمسين صورة لبشر وحيوان في أشكال وأزياء مختلفة، وسبب وجودها في المخطوط هو ما اعتقد مؤلفه أنها تملك تأثير سحرياً إذا ما نقشت على بعض الأحجار الكريمة، والفكرة في حد ذاتها لا تقوم على أساس علمي مفهوم، ولكن الصور نفسها ذات قيمة فنية عالية، تصلح ان تكون موضوعا لدراسة فنية قيمة.

ومثل هذا ما رأينا في مخطوطة (خواص الأحجار) لحُنيّن بن اسحق، فالمخطوط (نسخة باريس) يكاد يكون نسخة منقولة عن نص عُطارد، فلا أهمية تذكر فيه، إلاّ أن الصُوَر التي حواها اختلفت في تفاصيلها عن الصور سابقتها، وإن اتفقت معها من حيث الموضوعات، وفي دراسة تلك التفاصيل مادة مهمة، كانت موضوعاً لدراسة (الأزياء) في القرن الثالث للهجرة، بالمقارنة بين المخطوطين المذكورين. وهنا لا بد أن يلاحظ المحقق ما إذا كانت هذه الصور والأشكال من أصل نص المؤلف ام أُضيفت اليه في وقت تال للتوضيح.

د- ومن مبررات اختيار مخطوط لتحقيقه، ما يتضمنه من مصطلحات علمية تساعد على فهم معانٍ غامضة، أو تجارب مختبرية قصّر دون فهمها الجهل بتلك

المصطلحات، وقد يكون قد أُلّف أصلاً لتيسير الوقوف على هذا الجانب المهم، مثل كتب الخوارزمي في (مفاتيح العلوم) وحسين بن نوح القُمّري في (التنوير في المصطلحات الطبية)، والقرطُبي في (شرح أسماء العقار)، وابن الأكفاني في (إرشاد القاصد)، والسيد الجرجاني في (التعريفات)، ومحمد بن يوسف الهَرَوي في (جواهر اللغة) في المصطلحات الطبية (ويلكم بلندن) وغير ذلك، أو ان يكون الكتاب مما تكثر فيها المصطلحات المشروحة، أو المُوَضِّحة، فيفيد منها محقق المخطوطات التي تتناول حقولاً معرفية لا تفهم مضامينها إلاّ بها.

هـ- ومن تلك المبررات أيضا، أن يكون المخطوط شرحاً، أو حاشية، على كتاب علمي مهم، فتأتي شروحه وتعاليقه موضحة للأصل، مُبيِّنة لَمراميه، وهو أمر متوقع من شارح قريب زمناً من عهد مؤلف الأصل، ومن ثمَّ هو أقدر على فهم لغته ومصطلحاته وأفكاره من باحثين متأخرين عليه بمُدَد متطاولة، وعلى سبيل المثال فإن كتاب (تقدُمَة المعرفة) لأبقراط الذي نقله حُنين بن إسحاق إلى العربية، توجد منه مخطوطتان، أولاهما بشرح ابن أبي صادق النيسابوري (باريس)، وأخرى بشرح الدخوار الدمشقي (أيا صوفيا وبودليانا).

وبالمقابل فإن بعض المخطوطات تكتسب أهميتها من أن مؤلفيها ضَمَّنوها ردوداً علمية على كتب لمؤلفين سابقين، فبينوا بذلك شخصياتهم العلمية، ومدى استقلال تفكيرهم، وما أصاب الفكر العلمي من تطور بعد أن وضع السابقون مؤلفاتهم. مثال ذلك مافعله ابن النفيس في شرحه لكتاب التشريح من كتاب القانون لابن سينا، وقد ألمعنا إلى ما أضافه إلى هذا الشرح من ملاحظات مهمة، وشرح محمد بن فخر الدين الآقسَرائي لكتاب (الموجز في الطب) لابن النفيس (ويلكم بلندن والمركز الوطني للمخطوطات ببغداد)، وشرح عز الدين السُويدي (المتوفى سنة 692هـ/ 1292م) للكتاب نفسه (دار الكتب المصرية، وويلكم بلندن)، وهما مخطوطتان لم تطبعا لحد الآن، فمثل هذه الشروح تقرِّب الأصل إلى إفهام أهل هذا الجيل إلى حد كبير.

و- وربما خلا مؤلف المخطوط العلمي من أهمية في ذاته، ولكن كتابه يبقى - مع ذلك - جديرا بالتحقيق، نظراً لأنه نقل نصوصاً من كتب ضائعة حَوَت ريادة في بعض حقول المعرفة العلمية، أو أنه أشار إلى ترجمات مبكرة لكتب علمية ما كنا

نعلم بها، أو بترجمتها، في تلك العهود أصلاً. وكتاب (تذكرة أولى الألباب) لداود الإنطاكي (المتوفى سنة 1008هـ/ 1599م)، يستمد جانبا من أهميته من نقوله المُطوَّلة من كتب عديدة لم تصلنا، ومثله كتاب تلميذه ابن عوَض المغربى (القرن 11 هـ/17م) المسمى (قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار) (القادرية ببغداد، وحققته بروين بدري توفيق، بغداد 1990) فإنه اعتمد فيه على كتب عديدة، بالعربية وغيرها، لم يحفظها لنا الزمان، بل لم تصلنا عنواناتها.

فمثل هذه الكتب، وإن لم يُظهر مؤلفوها باعاً في التجريب والملاحظة، لكن نُقولهم هذه تجعل مؤلفاتهم، إن كانت مخطوطة، جديرة بالتحقيق. وفي كل الأحوال يجب على المحقق أن يوضح، في مقدمة التحقيق وجه الأهمية العلمية في المخطوط الذي يقدمه لقرائه، كأن يكون في جدَّة اكتشافاته، أو طبيعة مصطلحاته، أو شرحه لنص علمي سابق عليه، أو قدَم تأليفه في موضوعه، أو منهج مؤلفه في البحث والتجربة والملاحظة، وغير ذلك من شؤون.

2- الخلفية العلمية للمحقق:

هل يكفي لَمن يتصدى لمخطوط علمي، أن يقف في علمه عند ضبط النص كما وضعه مؤلفه متذرعا بتعريف مهمة التحقيق بأنها الإتيان بلفظ المؤلف كما نص على ذلك المشتغلون في هذا العلم، ام أن يتجاوز هذه المهمة إلى مهام أخرى لا تقل أهمية، من شرح للفظ، وتقريب لمعنى، وتفسير لمصطلح، وما إلى ذلك؟. وأقول: إن أسباباً قوية تجعلنا نرى أن من واجب المحقق أن يمضي في عمله، بعد ضبطه للناس، ليتناوله بالتوضيح الضروري لفهمه، إذ لا يكفي ان تزدحم أرفف خزائن الكتب بكتب يتعسّر على أغلب الباحثين والقرّاء فهمها على نحو سليم.

إن تحقيق التراث رسالة حضارة يُقصد بها خلق وعي علمي، أو إنماؤه، قبل أن تكون حرفة لمحترف، وإذا كان بعض المحققين، من الأوربيين غالبا، قد اكتفوا من النص بضبطه على نسخ عدة، فذلك لأنهم ما كانوا يخاطبون بصنيعهم هذا إلاّ عدداً من المختصين أمثالهم، وفي دوائر استشراقية ضيقة، ولم تكن مهمتهم، بأي حال، تتجاوز ذلك إلى خلق وعي عام لدى أجيال من الناس بقيمة تراث أمتهم، ودورها الحضاري الذي ينبغي لها أن تستعيد.

وهنا تواجه محقق المخطوط العلمى مشكلة فنية قد لايواجه مثلها من يتصدى لتحقيق المخطوطات الأدبية والتاريخية وغيرها، فهذه الكتب لا تحتاج إلاّ إلى متخصص بالتراث، متدرب على فن التحقيق، مُراع لقواعده المستقرة، أما المخطوط الطبى مثلاً فهو يتطلب من محققه أن تكون له ثقافة طبية خاصة إلى جانب ثقافته التراثية العامة، وهكذا الحال بالنسبة للمخطوطات الرياضية والفلكية وغيرها. ومَكمَن هذه الحاجة أن التراثى له القدرة على إنجاز الخطوات الاولى في تحقيق المخطوط، من مُقابَلة، وفهرَسَة، وتقديم، وما إلى ذلك، لكنه غير قادر على فهم مواطن الجدّة في المادة العلمية نفسها، فضلاً عن تقدير أهمية المخطوط نفسه من النواحى التى ألمعنا اليها. وبالمقابل، فإن طبيباً واسع العلم في حقل اختصاصه، لا يقدر على تحقيق مخطوط طبّى، ذلك لأنه غير مطلع على منهج التحقيق، ولا دُرْبة له على التعاون مع نص تراثى قديم، فضلاً عن ضعف تقديره للتراث الطبى كله، لأنه ربما وجد فيه شيئا بالياً تجاوزه علمه منذ عهد بعيد، فلم يعد فيه ما ينفع الناس عمليا.

وفي تقديرنا فإن حل هذه المشكلة يمكن أن يكون بأحد أمرين:

أ- ان يقوم تعاون بنّاء بين مختصيَن، أحدهما بالتحقيق بوصفه علما قائما بذاته من علوم التاريخ، والآخر بالموضوع العلمى الذي يتناوله المخطوط نفسه، فيتولى الأول تحقيق النص العلمي من جوانبه الفنية، فيستقصى نُسَخَه المتوفرة، ويحدد العلاقات بينها وصولاً إلى أقدمها وأكثرها إتقانا، ويقابل بين هذه النسخة وغيرها بدقة، فيثبت أوجه الاختلاف في الهوامش، وهو عمل يقوم به المحقق لأي كتاب تراثى، مهما كان موضوعه ومجاله. ويتولى الآخر تقدير أهمية هذا النص، مستخرجاً مكامن الجدّة فيه، ومُعلقا على الجوانب العلمية البحتة بما يقرِّبها إلى أذهان القرّاء المعاصرين، فيضفى على المخطوط المُحَقق قيمته العلمية، فضلاً عن قيمته التراثية. وتيسيراً لمثل هذه المهمة، صار من واجب المراكز العلمية التراثية في الجامعات ان تتولى تحقيق هذه التعاون بما تملكه من علاقات مع أوساط علمية مختلفة، وما توفره من أجواء تعاون بناء بين مختلف الإختصاصات العلمية والأدبية.

وحيث لا يتوفر هذا التعاون، لابد للمحقق إن كان تراثياً أن يُوسِّع من مداركه في العلم الذي يتولى تحقيق نص تراثي فيه، وأن ينمّي ثقافته العامة بتاريخ ذلك العلم، بل

أن يسعى لأن يجعل منه شاغله الأساس، حتى يتمكن من أن يُوفي بمتطلبات التعليق النافع على المادة العلمية التي يضمنها ذلك المخطوط، مثال ذلك تحقيق الأب أنستاس ماري الكرملي لكتاب (نخب الذخائر في معرفة الجواهر) لابن الأكفاني السنجاري (بغداد، 1939)، والدكتور صالح أحمد العلي لكتاب (ما يحتاج اليه الصانع من علم الهندسة) للبُوزجاني (بغداد 1979)، وكاتب هذه السطور لكتاب (الجواهر وصفاتها) ليَحيى بن ماسَوَيْه (القاهرة دار الكتب 1977، وأبو ظبي 2001)، وغيرهم. أما إذا كان المحقق مختصا بالموضوع نفسه كأن يكون طبيباً أو رياضياً أو مهندساً، فلا بد له من الدُرّبة على قراءة المخطوطات التراثية، والقدرة على فهم ألفاظها، ثم المعرفة التامة بقواعد التحقيق نفسه، والمُكنَة على تطبيقها. وقد وجدنا أن من هؤلاء المختصين من ضاهى التراثيين أنفسهم في القدرة على تحقيق النصوص التراثية القديمة، وفهمها، أمثال الدكتور كمال السامرائي والدكتور داود سلمان علي في تحقيقهما لكتاب (أدب الطبيب) لإسحاق الرّهاوي (بغداد 1992)، والسامرائي نفسه في تحقيقه (النافع في كيفية تعليم صناعة الطب) لابن رضوان (بغداد 1997)، والدكتور سلمان قطاية في تحقيقه (كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها) لابن الجزّار القيرواني (بغداد 1980)، والدكتور حازم البكري والدكتور مصطفى شريف العاني في تحقيقهما (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار) لابن قاسم الإشبيلي الحريري (بغداد 1979)، والبكري أيضا في تحقيقه لكتاب (تدبير الحُبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم) لابن البَلَدي (بغداد 1980)، وكتاب (من لا يحضره الطبيب) للرازي (بغداد 1991)، ومقالة يحيى بن ماسوية في الجنين، والدكتور رزوق فرج رزوق في تحقيقه (حقائق الاستشهاد في الكيمياء) للطغرائي (بغداد 1982). وغير هؤلاء ممن يضيق المجال عن ذكرهم. ولن تتوفر لهؤلاء القدرة على تحقيق تلك النصوص العسرة غالبا، إلاّ لأنهم عُنوا بالتاريخ عامة، وبتاريخ العلوم التي اختصوا بها، فألفوا فيها دراسات معمقة من قبل أن يتجهوا نحو تحقيق نصوصها.

3- المصطلحات العلمية:

تحتل المصطلحات العلمية أهمية خاصة لدى محقق النصوص العلمية البحتة حتى تكاد تكون إحدى اهم المشاكل التي يواجهها في اثناء عمله، وربما لا يعاني

محقق النصوص الأدبية والتراثية عامة من مثل هذه المشكلة، فالألفاظ في كتب العلوم تحمل معاني اصطلاحية خاصة لا يفطن اليها إلاّ المحقق الماهر، والقاعدة القائلة بأن على المحقق أن يشرح مغاني الألفاظ بالرجوع إلى المعاجم الرئيسية المعتمدة، مثل القاموس واللسان والتاج ونحوها، لا تصح - البتة - عند تحقيق النصوص العلمية، بل أن الرجوع الى كتب اللغة والمعاجم في هذا المجال من شأنه أن يُفقد العمل قيمته، أو يفسده تماما. لنتصور أن محققاً وقف، عند تحقيقه كتابا في الكيمياء، على ألفاظ مثل (الأرواح) و (الأجساد)، ففسَّرها في ضوء معطيات اللغة بمعانيها المعروفة، فماذا ستكون النتيجة، إنه سيُفسد النص تماما، وسيضلل القارئ عن غير قصد منه، فالأرواح هنا هي غازات محددة، والأجساد هي سبعة من المعادن حصراً.

وإذا وقف محقق لكتاب في الرياضيات على الفاظ مثل (السطح) و (الميزان) و (الوفق)، ولم يعلم معانيها الاصطلاحية بدقة، بأن السطح هو العدد المُركب، والحاصل من ضرب عدد بعدد، وأن الميزان هو تحقيق صحة الحل، وأن الوفق هو أكبر عدد ينقسم عليه عددان، ضلَّ عن فهم النص ضلالاً بعيدا. وهكذا الأمر في جميع العلوم، ومن هنا باتت المعاجم، على ضخامة موادّها، غير مُوفية بمتطلبات محقق عقد العزم على فهم نص علمي ليكشف عن مكامن الإبداع فيه، وصار واجباً عليه الرجوع الى مناجم معلومات أخرى علّه يستعين بمعطياتها في حلِّ هذه المشكلة.

وعلى وفق قاعدة تفسير القرآن بالقرآن نفسه، فإن على المحقق أن يستعين على فهم معنى مصطلح وارد في النص مشروع التحقيق بمعانيه الأخرى في النص نفسه، فإن لم يجد مُبتغاه، فإن عليه أن يجد ضالته في الكتب المعاصرة لذلك النص، مما أُلف في العلم نفسه، ثم بما يلي ذلك زمنا من المؤلفات.

وكنا قد أشرنا الى أهمية الشروح والحواشي العلمية في تقريب الأذهان من فحوى نص علمي معين، ونقول أن مكمن هذه الأهمية يتمثل، في أحد جوانبه، بتقريبه معاني المصطلحات التي استخدمها مؤلف الأصل. إن الإدراك الصحيح لمعنى مصطلح ما ربما يكون سببا في اكتشاف حقيقة مغيبة، أو العثور على سبق خطير في ذلك العلم موضوع التحقيق، وبالمقابل، فإن إدراكا سيئا لما يَعنيه مصطلح

مُعيِّن، من شأنه أن يضيع على القارئ فرصة التعرف على فكرة مهمة من أفكار النص المحقق، أو على تجربة رائدة من تجارب مؤلفه العلمية.

إن المُصطلحات إذن تشبه هنا أن تكون مفاتيح العلم، فمن واجب المحقق أن يُولي هذا الجانب ما يستحقه من عناية واهتمام، وإلاّ لبث المخطوط الذي حققه مغلقا في وجه القراء والباحثين والمحققين التالين الذين يسعون من خلال فهمهم لهذا النص فهم نصوص أخرى يتولون تحقيقها. وكم يكون مفيداً إذا ما ألحَق المحقق بتعريفه لمعنى مصطلح ما ما يقابله من المصطلحات الحديثة المستعملة في مجال العلم موضوع النص المذكور، إنه، إن فعل، سيكون قد وفر على الباحثين فرصة فهم النص فهما عصرياً.

4- أسماء المواد الداخلة في نطاق العلم:

وبالإضافة إلى مشكلة المُصَطلح العلمي، فإن على المحقق أن يجهد نفسه في حل مشكلة أخرى تتصل بها، لا تقل عنها صعوبة، وهي ضبط المئات بل الآلاف من أسماء المواد الداخلة في نطاق العلم الذي يحقق مخطوطة فيه، ويزيد الأمر صعوبة أن عدداً كبيراً من تلك الأسماء من أصول لغوية غير عربية، كاليونانية واللاتينية والفارسية والهندية وسواها من اللغات السائدة في العصور الماضية، ومثل تلك الأسماء يصعب ضبطه إلا بجُهد جهيد، لأن نُسَّاخ المخطوطات يجهلون بالطبع طريقة تلفظها، فيُصَحِّفون حروفها تصحيفا بَيِّناً يصعب اكتشاف حقيقته إلا بالرجوع إلى أصل اللغة التى أخذ منها المصطلح نفسه، وقد فعل بعض المحققين ذلك فتوصلوا إلى نتائج مهمة، منهم الأب أنستاس الكرملي في تحقيقه (نُخَب الذخائر)، إذ أعانته معرفته بالعديد من اللغات القديمة على تحديد معانى بعض أسماء الأحجار الكريمة والثمينة، وعلى ضبطها ضبطاً محكماً. ومنهم أيضا الدكتور أدوار القش في تحقيقه لكتاب (القانون) لابن سينا (طبعة بيروت 1987)، فإنه أورد أسماء الأدوية المأخوذة عن الإغريقية بصورتها التى عليها بهذه اللغة، فحلَّ بذلك ما أوجده النُسّاخ من إشكال.

وهكذا، فعلى المحقق أن لا يَركُن في ضبطه للفظ معين، إلى صورته في بعض ما يقع تحت يديه من كتب، وإن اشتهرت بين الناس، لأنه يجوز أن يكون الطابع، أو

الناشر، قد اعتمد نسخة كتبها ناسخ غير مختص، وهو في الغالب كذلك، فتسلل الخطأ إلى هذه الطبعة، وربما مُسخت الأسماء مسخاً فلم يَعُد ممكناً التوصل إلى حقيقتها إلاّ بجُهد جهيد، ومراجعات كثيرة. وهنا أرى مناسبا الإشارة إلى أننا حينما شرعنا بتحقيق الجزء الخاص بالأحجار والنبات من موسوعة ابن فضل الله العمري المعنونة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) هالنا ما لاحظنا من نقل المؤلف جميع مادة كتابه تقريبا من كتاب (الجامع لقوى الأدوية المفردة) لابن البيطار، ولكننا لما أخذنا بمقابلة المخطوط على النسخة المطبوعة من (الجامع)، وجدنا ثمة اختلافات غير قليلة بين أسماء الأحجار والنبات الوارد في (المسالك)،وبين ما يماثلها في كتاب أبن البيطار، ولم نتوصل إلى صحة أي من اللفظين إلا بعد إن استعنا بكتب تراثية أخرى، فضلا عن مقابلته على لفظه غير العربي الوارد في كتب أخرى، مثل (معجم أسماء النبات) للدكتور أحمد عيسى وغيره.

ومن المفيد جدا إن يُرفق المحقق الاسم القديم بما يقابله من الأسماء الحديثة، وبخاصة منها الاسم العلمي الذي هو في الغالب مأخوذ من اللاتينية، لأن في هذا الإرفاق ما يُسهّل على القارئ، إن كان باحثا، تحديد مكونات ذلك المسمى، سواء أكان حجرا، أو نباتا، أو ظاهرة..الخ، من ثم يسهل عليه فهم مضمون النص المحقق فهما علميا معاصرا.

ولسائل أن يسأل: أين يضع المحقق مثل هذه الشروح لمئات من الألفاظ التي قد يتضمنها المخطوط العلمي الذي يقوم بتحقيقه؟ ونقول: إذا كانت عادة المحققين قد استقرت في الوقت الحاضر على وضع شروحهم عند ورود الألفاظ المُبهمة في المتون مباشرة، فان محققي المخطوطات العلمية لم يتفقوا بعدُ على طريقة واحدة في وضع مثل تلك الشروح، ومكان وضعها، فهم في هذا الأمر على رأيين رئيسين، هما:

أ- أن توضع شروح الألفاظ والمصطلحات العلمية عند ورودها لأول مرة، أسوة بعمل المحقق للكتب الأدبية والتاريخية، وذلك ليسهل على القارئ أن يدرك منذ الوهلة الأولى معانيها، فييسر له ذلك فهم النص العلمي أينما ورد من بعد. ومن الأمثلة على هذه الطريقة ما فعله محقق الطبعة البيروتية الجديدة لكتاب

القانون لابن سينا، فانه حرص على شرح كل لفظ في الهامش عند وروده في المتن. وما قام به الحكيم محمد سعيد والدكتور وانا احسان الهي الباكستانيان حينما فضلا تزويد كتاب (الصيدنة) للبيروني (باكستان 1969) بهوامش عديدة تضمنت كتابة أعلام اليونانيين بالحروف اللاتينية، وكتبه الأسماء بالأدوية باللغات الأوربية الحديثة. ومن ذلك أيضا كتاب (النافع في كيفية تعليم صناعة الطب) لابن رضوان، فإن محققه الدكتور كمال السامرائي، فضل أن يشرح غوامضه من الألفاظ العلمية في هوامش مناسبة تناثرت في صفحات الكتاب.

ب- أن تجمع هذه الشروح وترتب على هيئة معجم هجائي يوضع بصفة ملحق بالكتاب المحقق، وذلك ليرجع إليه القارئ كلما مَرَّ عليه هذا اللفظ، اذ يصعب عليه، حتى لو كان متخصصا، أن يتذكر مضمونه عند وروده بعد صفحات عديدة من الكتاب، وحتى يفيد منه الباحثون، وبضمنهم المحققون، عند البحث عن معنى اللفظ متى ما ورد في كتاب آخر، فلا يتطلب الأمر حين ذاك غير مراجعة هذا المعجم، دون قراءة الكتاب كله، والبحث عن ضالتهم في ثناياه. ولعل مافعله الدكتور حازم البكري في تحقيقه لكتاب المنصوري في الطب يأتي نموذجاً جيداً على هذه الطريقة من العمل، فهو أضاف إلى الكتاب سبعة ملاحق، سمّاها فهارس وليست كذلك، لأنها - في الحقيقة - معاجم متكاملة بالألفاظ النادرة وأسماء الأدوية والأمراض والحيوان والأطعمة والأدوية المركبة والأوزان والمكاييل الواردة في تضاعيف الكتاب مع شروح إضافية لها، وقد تضمنت هذه الشروح وصف كل مادة وأعراضها إذا كانت مرضا، أو أطوارها إذا كانت كائناً حيا، ووجه الفائدة الطبية منها، ولكنه لم يذكر الأسماء العلمية لهذه المواد من نبات وحيوان إلاّ عرضا.

وتوسط فريق من المحققين بين الطريقين، فوضع شروحه في هوامش المتن، حيثما ورد اللفظ العلمي، ولكنه رتب معجما بهذه الالفاظ اقتصر على ما يقابلها من الالفاظ العلمية العصرية، منهم الدكتور البكري نفسه والدكتور مصطفى شريف العانى في تحقيقهما لكتاب (نهاية الأفكار ونزهة الأبصار) للاشبيلى وقد تقدمت الإشارة إليه، والدكتور سلمان قطاية في تحقيقه كتاب (في المعدة) لابن الجزار، فإنه اكتفى بصنع معجم بالألفاظ العلمية وما يقابلها من لفظ علمي عصري، دون شرح

أصلاً، وهي طريقته في تحقيقه لكتاب (الكفاية في الطب) المنسوب لابن رضوان فانه وضع معاجم بأسماء الأدوية النباتية المفردة، وآخر بأنواع الأدوية المركبة، وثالث بأنواع الأوزان والمكاييل الصيدلانية، وزاد فوضع مقابلات كل لفظ عربي باللاتينية والفرنسية والإنكليزية. ونظير هذا ما صنعه حسين الحموي في تحقيقه كتاب (منافع الأغذية ودفع مضارها) لأبي بكر الرازي (دمشق 1984) فإنه أضاف شروحاً لمعظم الكلمات الواردة في هوامش المتن، حتى فاقت هذه الشروح مادة الكتاب مرات عدة، ومع ذلك فانه ألحق بالكتاب ملحقا كبيراً تحدّث فيه عن قيمة كثير من المواد الغذائية الواردة فيه، وما لم يَرد فيه أيضا لعدم معرفة الناس به في عصر تأليفه، مثل الشاي والقهوة، وربما كان في هذه المعلومات شيء من تطويل، لكن لا مشاحّة في أنها تفيد في فهم هذا النص العلمي المهم.

5- الصور والأشكال التوضيحية:

أشرنا - فيما تقدم - إلى أن من المخطوطات العلمية ما يستمد أهميته مما يحتجنه من رسوم ومخططات وجداول، فعلى محقق هذا الضرب من النصوص أن يُولي هذا الأمر جانباً كبيراً من عنايته، وذلك بأن يحرص على نشر جميع الرسوم الملونة بألوانها التى رُسمت بها ما أمكنه ذلك، لأن من شأن نشرها مُجرَّدة من تلك الألوان أن يفقدها جانبا من أهميتها العلمية، فضلا عن أهميتها الفنية، فإن هذه الرسوم تمثل -غالبا- نبات طبى، أو حيوان، ونشرها بصورتها الأصل يضمن -في أقل تقدير- إمكان التعرف عليها، ومعرفة خصائصها التى من أجلها وضعها المؤلف في كتابه.

أما الأشكال التوضيحية، وغالبا ما تكون في مجال الهندسة والفلك، ففى وسع المحقق أن يُعيد رسمها بدقة توفرها له وسائل الرسم الحديثة، على أن لا يخرج على ما أراده المؤلف من شكل. مثال ذلك ما فعله رامزي رايت عند ترجمته لكتاب (التفهيم لاوائل صناعة التنجيم) للبيرونى (لندن 1933)، فإنه أعاد رسم جميع الأشكال الهندسية بوسائل وقياسات أكثر اتقاناً، فحقق بذلك ما أراده المؤلف وقصرت دونه وسائله المتاحة له في عصره. وما قام به الدكتور أحمد السعيد دمرداش في تحقيقه كتاب (إستخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني عليها) للبيروني أيضا

(القاهرة) فقد أعاد رسم جميع الأشكال الهندسية المثبتة في الأصل رسما جديدا متقنا، مما وضّح النص وأبان عن أفكار المؤلف على نحو أكثر دقة، وهذا ما فعله الدكتور أحمد يوسف الحسن عند نشره نموذجاً من تحقيقه (كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيَل) لابن الجَزَري (مجلة تاريخ العلوم العربية، حلب مج 1، عدد1،1977) فإنه بعد أن نشر صور الكتاب من نسخه المخطوطة، بألوانها الأصلية، أعاد رسم الآلات الميكانيكية الواردة فيها رسما هندسيا دقيقاً، ملتزما بالأصول الخطية التي أوردت صور تلك الآلات.

وربما رأى محققٌ أن يضيف أشكالاً من عنده لتوضيح المعنى الهندسي للمسألة، فهذا أمرٌ حسن في ذاته، على أن يصرح بجلاء تحت هذا الرسم أنه من (رسم المحقق)، وخير مثال ذلك ما فعله الدكتور علي إسحق عبد اللطيف حينما حقق رسالة (مساحة الأُكر بالأُكر) للسَّجزي (مجلة المورد، مج 16، عدد2، 1987) فإنه أضاف رسوماً مجسمة الى النص ليوضح ما أراد ان يُبيِّنه المؤلف بصورة أفضل، لكنه ذكر أن هذه الإضافة هيَ له، وبَيَّن سببها. وكان أكثر المؤلفين العرب يميلون إلى كتابه قيام الأعداد في أشكالهم وجداولهم بطريقة الحروف لا الأرقام، ونرى أنه في وسع المحقق أيضا أن يعيد كتابة هذه الأقيام رقما لتغدو مفهومة من القارئ، على أن يُنبِّه إلى ذلك في مقدمة التحقيق.

6- الاستعانة بالترجمات القديمة:

الترجمة التي يقوم بها مترجم لنص علمي تُعبِّر عن فهمه له، لفظا ومعنى، فإذا ما وجد محقق للنص الذي يتولى تحقيقه ترجمة قديمة قام بها مترجم إلى لغة أخرى، كان لابد له من الاستعانة بهذه الترجمة في فهم مضمون النص المذكور، وفي تحديد معاني ألفاظه ومصطلحاته أيضاً. ومن المعلوم أن كثيراً من الكتب اليونانية ترجمها العرب إلى العربية والى السريانية معاً، فوجود إحدى الترجمتين يفيد في تحقيق الترجمة الأخرى، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها كتب جالينوس وأبقراط في الطب، فكتاب جوامع مقالات جالينوس في التدبير المُلطِّف (مخطوط في آيا صوفيا) هو في حقيقته مقالة واحدة ترجمها حُنين بن إسحاق إلى اللغتين معا، ومثله (كتاب الصناعة) لجالينوس، و(ثمار تفسير جالينوس لكتاب

قاطيطريون) لأبقراط، و(كتاب طبيعة الإنسان) لأبقراط أيضاً الذي ترجمه حنين الى السريانية وترجمه عيسى بن يحيى الى العربية، والرسالة الطبية المعروفة بكُنّاش أهْرُن التي ألفها الطبيب أهْرُن بن أعْيَن للسريانية، ترجمها ماسرجوية البصري في العهد الأموي، ثم ترجمها فيما بعد ابن ماسَوَيه وحنين معاً، وكتاب (تقدُمَة المعرفة) لأبقراط فسَّره جالينوس، فترجم حنين النص اليوناني لأبقراط إلى العربية (طبع النجف بتحقيق صادق كمُّونه). أما تفسير جالينوس فترجَمَه عيسى بن يحيى (باريس وآيا صوفيا وشتاينشتايدر وبلدية الإسكندرية). والأمثلة على هذا النوع من الكتب لا مجال لذكرها هنا لكثرتها، فأي كتاب له ترجمةٌ إلى غير لغته تكون تلك الترجمة مفيدة في تحقيق الكتاب المعني إلى حد كبير.

ومن ناحية أخرى فإن جملة وافرة من الكتب العربية تُرجمت في عصر الترجمة الأوربية إلى اللاتينية والقشتالية وغيرها، فهذه الترجمات تفيد أيضا تحقيق النص العربى إذا لم تتوفر نسخ مضبوطة يطمئن المحقق اليها، أو أنه يستعين بها لتحقيق فهم أفضل للنص المذكور. وعلى سبيل المثال فان كتاب (تقدُمَة المعرفة) المشار اليه هنا قد ترجم من العربية الى اللاتينية على يد قسطنطين الأفريقى في القرن الحادي عشر للميلاد، كما ترجمت كتب طبية أخرى على يد هذا المترجم، وترجمات حنين لكتب جالينوس ترجمها الى اللاتينية ماركوس الطُليطُلى، كما ترجم إسطفيان السَّرقسطى (اقراباذين ابن الجزار) إلى اللاتينية أيضا، وغير ذلك كثير.

7- الملاحق:

يسعى محقق المخطوطة العلمى الى كل ما من شأنه خدمة النص بما يوضحه للقارئ بالشرح والتوضيح، فإذا ما وَجَد أن المادة العلمية تستوجب مزيداً من الجُهد لتوضيح أمر ما، وأن هوامش المتن تضيق بمثل تلك الجهود، لجأ الى اصطناع الملاحق الضرورية لتحقيق هدفه، وتختلف أغراض هذه الملاحق بحسب طبيعة المخطوط نفسه، وجدَّة الموضوعات التى يتناولها، من ذلك أننا وجدنا مناسباً أن نلحق (كتاب الجواهر وصفاتها) لابن ماسَوَيْه، بملحق يتضمن معجماً مُوسَّعا بأسماء الأحجار، ويضمنها التى ذكرها ابن ماسويه، وبعض المعلومات الضرورية عنها: ألوانها، وصلادتها، وموطنها، وتركيبها الجزيئي، وبعض خصائصها الأخرى.

ووضع محققا كتاب (الحاوي في الحساب) لابن الهائم (بغداد 1988)، وهما الدكتور رشيد الصالحى وخضير المنشداوي، ملحقا مهما تضمن مقارنة بين طريقة ابن الهائم في حل بعض العمليات الرياضية وطرق حديثة أخرى في حلها، وهو ما يشبه صنيع الدكتور على اسحق عبد اللطيف في تحقيقه (مساحة الاكر بالاكر) للسجزي، فإنه أضاف شروحا مهمة تضمنت إعادةً حديثةً لحل مسائل الرسالة الهندسية، مبينا ما أصاب به مؤلفه، وما أخطأ فيه. وأضاف الدكتور محمد يوسف حسن والدكتور محمود بسيونى خفاجى لتحقيقهما كتاب (أزهار الأفكار في خواص الأحجار) للتيفاشى (القاهرة 1977)، ملاحق عديدة، تضمنت دراسات عن الأوزان التى أوردها المؤلف المذكور، وأقيام الجوهر وثمنه، ومدلول الإصطلاحات الاقتصادية الواردة في الكتاب، والموزونات، وجداول مقارنة بين العملات المستعملة، ومواد كاملة في تاريخ كل حجر وَصَفه التيفاشى وخصائصه، وجداول جيولوجية في الأحجار كما وردت لدى بعض الباحثين المُحدثين. وفي هذه الملاحق من الجدَّة ما زاد في قيمة الكتاب لأنه كشف عن جوانب الإبداع والابتكار لدى العلماء المسلمين في هذا المجال الدقيق من مجالات العلم.

ووضع محققا (أدب الطبيب) ملحقا ببعض المصطلحات الطبية الواردة في الكتاب، بينما أضاف الدكتور رزوق فرج رزوق ثبتاً إلى كتاب (حقائق الإستشهاد في الكيمياء) للطغرائى، ضمّنه الألفاظ والرموز والمصطلحات الكيماوية التى وردت في الرسالة، كما أضاف مُلحقين لرسالة (ذات الفوائد) للطغرائى أيضا (المورد، مج3، عدد3، 1974) تضمن أولهما تعريفاً جيداً بالحكماء والعلماء الذين ورد ذكرهم في الرسالة، من العرب والهنود واليونانيين وغيرهم، وتضمن الآخر الألفاظ والرموز الكيماوية الواردة في الرسالة المذكورة. ومثل هذه الألفاظ والرموز يفيد في فكِّ معان مُبهَمة في هذا العلم بخاصة، فإن مؤلفى كتب الكيمياء تعمدوا إخفاء أسرار صنعتهم وراء كلمات لا يعرفها إلاّ أهلها، ولا يمكن فهم هذه الكلمات إلاّ استنتاجا من وصف عدد من العمليات الكيماوية.

8- الفهارس:

إن إضافة فهارس تفصيلية هجائية إلى كتب التراث المحققة من مُكمِّلات عمل المحقق أياً كان موضوع النص الذي يقوم بنشره، ولكن في الكتب العلمية

يأخذ بعداً أكثر خطورة، لان من شأن النص العلمي أن يتضمن أسماء لمواد نباتية ومعدنية وحيوانية وكيميائية وأدوية مُفرَدة ومُركّبة وغيرها، ومصطلحات ذات معان خاصة، وأوزان مستعملة في العمليات المختبرية، وعنوانات لكتب اعتمدها مؤلف النص المذكور، وأسماء مؤلفين من العلماء الذي سبقوه في موضوعه، وما إلى ذلك من شؤون. ومن دون فهارس تشمل كل هذه المواد وغيرها يصبح من الصعب على القارئ والباحث الإفادة من النص المحقق. وربما أفرد محققون مجلداً خاصاً بهذه الفهارس، حينما يكون الكتاب المحقق على جانب من الضخامة والأهمية، كفعل الدكتور أدور القش، إذ صنع فهارس عدة لكتاب القانون لابن سينا اشتملت على الأطباء، والأدوية المفردة، والأدوية المركبة، والأوزان والمكاييل، والنباتات والحيوانات، والكلمات الفارسية الأصل والكلمات اليونانية.

خاتمة:

إن مصاعب من النوع الذي أشرنا اليه يجب أن لا تكون مثبطا لهمَم المشتغلين في تحقيق التراث العلمي، بل الأمر على الضدّ من ذلك تماماً، فإن تحقيق نص علمي فيه كشف جديد، من شأنه أن يخلد اسم محققه، فليس كالعلم شيئاً تدين البشرية له بما بلغته من تقدم، ووصلت اليه من آفاق. واذا كان جانبا مهما من إسهامات المسلمين العلمية قد بُخس حقه في دراسات الباحثين المحدثين، فليس ذلك إلاّ لعزوف المحققين عن تحقيق نصوص التراث العلمي بسبب ما ألمعنا اليه في هذا البحث من صعوبات قد لا يلقاها من يُعنى بتحقيق نصوص في علوم ومعارف أخرى، وقد آن الأوان لتصحيح هذا المسار، وتبديد تلك الفكرة القائلة بتقصير المسلمين في البحث العلمي، فعلوم الطب والرياضيات والهندسة والفلك والأرض والكيمياء والطبيعة وغيرها كانت جميعاً تمثل مجالات اهتماماتهم وبحوثهم وتجاربهم وتآليفهم، وهو ما تدين له البشرية بكل ما أنجزت من تقدم في العصور التالية. وإن خزائن المخطوطات العديدة في أرجاء الخافقين لمّا تزل بانتظار المحققين الجادّين، ينفضون غبار القرون عن مكنوناتها من تراثنا العلمي الزاهر، ويكشفون بصبرهم في البحث عما أضافت هذه الأمة، إلى الانسانية، من جليل المآثر.

معالم ومدن

اكتشاف مركز المدينة المدورة

دعوت غير مرة، فيما حاضرت وكتبت، الى أن تقوم الجهات الآثارية بجهد خاص لاكتشاف موقع مدينة المنصور، أو المدينة المدورة كما صارت تسمى من بعد، من ذلك مثلا أنى كتبت في جريدة الاتحاد، التى يصدرها اتحاد الصناعات العراقى، سنة 1998، مقالا عن هذا الموضوع بعنوان (أين مدينة المنصور؟) أكدتُ فيه هذه الدعوة، وقلت "لقد شاءت العناية الإلهية أن تبقى على مساحة كبيرة من الأرض التى كانت تقوم عليها مدينة المنصور خالية من البناء حتى اليوم، ومن ثم ليس مستحيلا في عراق لم يعرف المستحيل قط، أن توظف الجهود العلمية، وتوفر الإمكانات الفنية، للقيام بحملة مكثفة، وطويلة النفس، للبحث عن أسس المدينة المدورة، أو عن أي من مرافقها التليدة، وإننا على يقين بأن الأجيال المقبلة ستذكر لأبناء هذا الجيل، بكل فخر، أنه هو الذي نفض التراب عن مدينة الأجداد عبر القرون، وأنقد رمز بغداد الخالدة من مطاوي النسيان، وأكد، مرة أخرى، على نبل إحساسه بالماضى، ووفائه لبناة حضارته رواد العالم في تلك العصور". وكان مما قلته أيضا "إذا ما علمنا أن المدينة بأسوارها الدائرية، ومركزها المتوسط، تتخذ شكلا هندسياً منتظماً، فإنه يصبح ممكناً إذا تم العثور على أي جزء منها، رسم سائر حدودها، ومعرفة شكلها على نحو يطابق ما كانت عليه، أو قريبا منه في الأقل، واعتقد أن اكتشافاً كهذا سيكون له شأن، وأي شأن، في العالم كله".

ولم تكن (الجهات المعنية) معنية بالأمر، فلم تحرك ساكناً، ولكن الصدفة، والصدفة وحدها، كانت وراء اكتشاف ما أخفته القرون تحت أديم هذه الأرض من أسرار، وما اختبأ بين عروق نخيلها، وشاطئها، وصخورها، من عجائب الماضى وغرائبه التى طواها النسيان.

بدأت أمانة بغداد بمشروعها بتكسية شواطئ بغداد بالحجر، سنة 1999-2000 وكانت ثمة بعثة آثارية مكلفة بإجراء مسوحات آثارية سريعة عند ضفاف دجلة قبل إكسائه بتلك المادة، علها تجد قبل أن تجثم الصخور على صدر تلك الضفاف، ما يعنى به الباحثون عادة من آثار قديمة أياً كان عصرها ونوعها، وفجأة تصايح أعضاء البعثة متعجبين حينما لاحظوا أن الجرافات العملاقة التي

كانت تعمل في هذا المكان، قد اصطدمت بشيء صلب قد استقرت أسسه في أسفل الشاطئ، إنها أسس بناء إذن، وهو بناء بالغ القدم لأنه يقبع في أعماق الأرض. ولأن هذا البناء كان يختفي وراء أكوام من الأتربة والطمى والأنقاض التى تخلفت عن العصور المتعاقبة التالية، فقد جرى رفع ذلك الركام بالجرافات ذاتها، وأخذ ملامح الأعماق تتجلى رويداً رويداً، وإذا بالأنظار تشخص إلى جدار أثري مغمور بالماء دل على وجود استيطان أثرث قديم، فما كان من رئيسة البعثة الآثارية، إلاّ أن اتصلت بالهيئة العامة للآثار مخبرة إياها بالمعلومات المهمة التى تكشفت لها، وقد وافقت الهيئة على العمل فوراً في هذه النقطة من أعمال التكسية، فباشرت البعثة في أعمالها، بعد أن أوقفت الشركة التى كانت تقوم بأعمال التكسية عن العمل، وتم تخصيص مبلغ من المال لكى تجري البعثة التنقيب في المنطقة.

وما أن باشرت البعثة بالعمل، حتى أخذت الأرض تُحدِّث أسرارها، وتكشف عن خفايا ما استقر في رحمها، فقد عُثر- وقد وصل الحفر إلى عمق نحو ستة أمتار- على لُقى أثرية مُتحفية جميلة جداً من القوارير المصنوعة على وفق تقنية عالية راقية، وهى من الزجاج الرقيق المُموَّه بالمينا، وبعضها صغير جداً كانت تُحفظ فيها العطور النفيسة لتوضع في طيّات عمائم الطبقات المترفة. وهو ما عُرف عن الخلفاء العباسيين خاصة.

وعثر أيضاً على أوان مطلية بطلاء أصفر اللون، تبين للمعنيين أنه الزُعفران، كما عُثر على نماذج كثيرة من الكسَر الفخارية المزخرفة بالزخارف المُحزَّزة، وجرار متنوعة لكنها ذات طينة جيدة جداً، ورقيقة جداً، وبعضها مُزخرف بزخارف نباتية وهندسية تنم عن الذوق الرفيع لصانعيها، ولمن قُدِّمت إليه من أهل الدولة والسلطان عهد ذاك. وربما كان أجمل ما تم العثور عليه قنينة عطر من الزجاج الرقيق جداً، ارتفاعها سانتيمتران، ملونة بألوان زاهية، وعلى بَدَنها زخارف هندسية جميلة، وبعض هذه الزخارف يصعب رؤيته بالعين المجردة.

ودلت الكميات الكبيرة والمتنوعة الأشكال من المقابض الفخارية التى رسمت عليها زخارف نباتية بالغة الجمال، على المستوى المترف لسكنة هذا الموقع، فهذه المقابض كان ولا شك لجرار، وأوان كثيرة، حوت، فيما حوت، أنواعاً من النفائس والنوادر التي تليق برقي مستوى ساكنيه.

ومع مضي أعمال التنقيب تكشّفت أسرار أخرى، ففي بعض زوايا المكان تم العثور على مجموعة من المسكوكات، منها العُملة التي كانت تعرف بالدوانيق، والتي اشتهر بها الخليفة المنصور، مؤسس بغداد، حتى عرف بالدوانيقي، وقيل أنه كان يتخذها وسيلة لدفع أجور العمال الذين عملوا في بناء مدينته. كما وجدت نقود معدنية أخرى ترقى إلى عهود سابقة على تأسيس المدينة، إي إلى الحقبة المبكرة من التاريخ الإسلامي، من بينها مسكوكة تعود إلى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وهي واحدة من العملات التي كانت تستخدم في الدولة الإسلامية قبل تأسيس الدولة العباسية وقيامها بضرب النقود باسمها.

وكانت مفاجأة سارة فعلاً، حينما عثر المنقبون على مسكوكة نادرة مؤرخة في سنة 157، وعليها كتابة تشير إلى أنها ضُربت في مدينة السلام، وتحمل اسم الخليفة التي ضُربت في عهده، واسمه (عبد الله بن محمد) وهما الإسمان الأولان للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، كما جرى العثور على قطعة من الفخار دائرية الشكل حفرت عليها مجموعة من الأشكال الهندسية عددها (15) شكلاً بيضوياً ومربعاً ومستطيلاً ودائرياً، وفي داخل كل شكل هندسي عبارة مكتوبة بخط دقيق جداً لا يُرى بالعين المجردة، وبالخط الكوفي البسيط الذي كان شائع الإستعمال في القرنين الأولين للإسلام، يتضمن اسم (عبد الله بن محمد) وهو اسم الخليفة المنصور كما ذكرنا، ويوجد داخل كل شكل هندسي عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) و(بسم الله الرحمن الرحيم) ؛ و(الله أكبر)، وهذا القُرص الدائري جُمعت فيه أختام الخليفة المنصور كلها وربما رسائله الخاصة، ومن الراجح أنها جمعت لكي يصعب تزوير أختام الخليفة.

إذن فنحن أمام أقدم بناء يُعثر عليه في بغداد يحمل في طيّاته أثر الخلافة العباسية، فمن المعروف أن الخليفة المنصور، تولى الخلافة من سنة 136، وتوفي سنة 158 هجرية، واتخذ في السنين الأولى من حكمه مدينة الهاشمية الواقعة في جوار الكوفة عاصمة له، إلاّ أن ثورة الراوندية عليه في سنة 140هجرية، وأسباب أخرى، جعلته ينفر من الهاشمية فاختار موضعاً كان قريباً من سوق محلية صغيرة عند جانب دجلة الغربي، كان يعرف بسوق بغداد، ليؤسس في مكان غير بعيد عنه

مدينة جديدة ستكون عاصمة الدنيا الإسلامية خلال وقت قصير، ولتلبث قبة للإسلام، ومنارة مشعة للحضارة يعم خيرها العالم كله لعدة قرون. وكان واضحاً أن المكان ظل مأهولاً حتى ما بعد عصر هذا الخليفة فقد وجدت فيه مسكوكات أخرى، في الموضع نفسه، تعود إلى فترة تالية، قريبة من عصر المنصور، منها مسكوكة مؤرخة في سنة 166للهجرة، ضربت في خلافة الخليفة المهدي بن المنصور.

وحينما مضت أعمال الحفر ورفع الأنقاض عن أسس البناء القريبة من النهر، تكشفت للبعثة الأسس الضخمة لجزء من البناء، فإذا به بقايا قاعة كبيرة، مُزيَّنة بلون ذهبي، وتشبه أن تكون قاعة عرش في قصر بالغ الروعة والضخامة.

نحن إذن هنا أمام قصر فخم شيد في عهد المنصور، أي في عهد تأسيس بغداد نفسها، ولكن يبقى السؤال المحير، الذي أثار نقاشاً علمياً في حينه، أي قصر هو من بين قصور المنصور التي أنشأها في داخل مدينته المدورة وفي ضواحيها؟ والسؤال يكتسب أهميته من الناحية الخططية من حيث أن تعيين حقيقة القصر سيؤدي إلى تعيين كثير من المواقع المندثرة التي وردت أوصافها في كتب التاريخ ونجهل اليوم معالمها بسبب عدم وجود إحداثيات خططية تعين الباحث على تعيين مواقعها في أرض تبدلت وظائفها وطبيعتها مرات عدة.

وجاءت الحفريات، على العُجالة التي جرت بها، لتقدم الدليل الواضح، الذي لا يقبل الشك، على أن هذا القصر ليس إلاّ قصر المنصور الرئيسي، ومقر حكمه الرسمي، الذي كان يتوسط المدينة المدورة، مدينة السلام، تماماً، وهو القصر الذي عرف في التاريخ العباسي بقصر باب الذهب، ذلك أنه عثر تحت القصر على قناة تحت الأرض معقودة من الداخل بالطابوق الأحمر، وكذلك الجدران، أما الأرضية فكانت مبلطة بالطابوق الفرشي ذي القياس 25× 25×4 سم، وبطابوق ذي القياس 33×33×7 سم، والجص والرماد والنورة، تتجه نحو جهة الشمال الغربي، أي باتجاه ضواحي الكاظمية الغربية، لمسافة ما لم تعرف بسبب توقف الحفريات نفسها. وكانت هذه القناة، تتصل بين مسافة وأخرى بآبار، لها فتحات خارجية، فهذه القناة العجيبة هي التي أنشأها الخليفة المنصور تحت قصره، في خبر أورده

المؤرخون، لتصل بين قصره وبين مجري نهر كرخايا، الآخذ من نهر الفرات، في الشمال الغربي من المدينة المدورة، والتي قَدَّر المنصور نفسه طولها بنحو فرسخين[1]. وكانت هذه القناة المعقودة قد اتخذها المنصور لغرضين، أحدهما دفاعي، وهو إيجاد مخرج للمحصورين في المدينة المدورة إذا ما حاصرها عدو، وأحاطوا بأسوارها العالية، فلم يُمكِّنوا أحداً من مغادرتها لأي سبب، وثانيهما إروائي، وهو اتخاذ القناة سبيلاً لتزويد المدينة بالماء المتدفقة من نهر كرخايا، الآخذ من الفرات كما ذكرنا[2]. إذن فقد طابقت المعطيات الآثارية النصوص التاريخية الخاصة بقصر باب الذهب تطابقاً تماماً لم يعد فيه مجال لاجتهاد أو رأي، وهكذا أنهى هذا الاكتشاف جدلاً طويلاً بين المعنيين بخطط بغداد منذ نحو قرن كامل حول مكان المدينة المدورة.

ولا تنحصر أهمية هذا الاكتشاف في معرفة واقع القصر كونه المقر الرسمي الوحيد للخلافة العباسية في عهودها الأولى، وإنما لأن بواسطته يمكن تحديد مواقع المؤسسات الرئيسة لمدينة السلام في تلك العهود والعهود التالية أيضاً، ذلك لأننا نعلم أن هذه المدينة كانت تتخذ شكلاً دائرياً كامل الاستدارة، ويقع قصر باب الذهب في نقطة مركزية على قُطرَيها المتعامدَين، فمعرفة هذه النقطة من شأنها معرفة مكان حدود المدينة نفسها، ويمكن تحديد موقع سورها وأبوابها الأربعة، باب خراسان، وباب الشام، وباب الكوفة، وباب البصرة، كما يمكن تحديد عقودها وطيقانها وأسواقها ومؤسساتها الأخرى، وهى التى يفصلها عن القصر أرض خالية من البناء كانت تسمى (الرحبة).

وإذ صرح المؤرخون بأن البناء الوحيد الذي كان يجاور القصر هو جامع المدينة عهد ذاك، وهو المسمى بجامع القبة الخضراء، فإن معرفة حدود القصر تفيد أيضاً في معرفة موقع هذا المسجد الجامع الذي كان أول مسجد شيد ببغداد، وكان رمزاً لعزِّها ومجدها لعدة قرون. لقد أفاض المؤرخون في وصف قصر المنصور هذا، وقالوا أن في وسطه القبة الخضراء التي كانت ترى من أطراف

(1) ابن الساعي: مناقب بغداد، تحقيق د. محمد عبدالله القدحات، عمان دار الفاروق 2008 ص43.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج1 ص79.

بغداد، وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس في يده رمح، وكان تحت القبة مجلس بمستوى الأرض مساحته عشرون ذراعاً في مثلها، ويرتفع عقده من الأرض بنحو عشرين ذراعاً، وعليه مجلس أقيمت عليه القبة الخضراء التى يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً فوق سطح الأرض، وكان في صدر المجلس إيوان عظيم عرضه عشرون ذراعاً وارتفاع قوس الإيوان عن الأرض ثلاثون ذراعاً، فهذا المجلس إذن هو ذاته ما جرى العثور على أسسه الضخمة عند أسفل شاطئ دجلة على عمق أكثر من ستة أمتار من مستوى سطح الأرض، وهو ما سمته البعثة الآثارية، عن حق، بقاعة العرش، فهذه هى نفسها وظيفة القاعة كما نص عليها المؤرخون السابقون[1].

والعجيب الذي سكتت عنه كتب التاريخ كلها، وكشفت عنه الحفريات، أن القصر كان يقع فوق آثار مقبرة تعود إلى ما يسمى بالعصر الفرثى، أي إلى المدة الممتدة منذ ثلاثة قرون قبل الميلاد إلى ثلاثة قرون بعده، فقد عُثر، على عمق يناهز الاثنى عشر متراً، على بعض القبور المنشأة على وفق النوع السائد في تلك القرون، ويمكن وصفه بأنه يشبه آنية طولية من الفخار، تغطى فوهتها، حيث رأس الميت، بغطاء من الفخار أيضاً.

لقد شهد هذا القصر المدهش فصولاً حافلة من تاريخ بغداد، فإنه كان المقر الرسمى للمنصور وللخلفاء الأوائل الذين تولوا الحكم بعده، ومع أن الرشيد لم يبق فيه، فقد عاد إبنه الأمين فاتخذه بلاطاً له، وأضاف إليه قسماً جديداً، وكان الأمين قد احتمى بهذا القصر في أثناء محاصرة جيوش أخيه المأمون له في سنة 198 هجرية (814 ميلادية) وتحصَّن رجاله بأسوار المدينة المدورة، وكان من جرّاء ذلك أن أصاب القصر كثير من التدمير بالمجانيق التى نصبها طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون في أرياض المدينة. أما القبة الخضراء التى كانت تعلو قاعة عرشه فقد ظلت قائمة حتى سقط رأسها في سنة 329هجرية (941م) وكان في أثناء سقوطها مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد، ومع ذلك فقد بقيت جدران القبة قائمة إلى أواخر أيام الدولة العباسية، وسقطت نهائياً في سنة 653هجرية

---

(1) لابد ان اذكر هنا السيدة رئيسة فريق التنقيب التي تعاطفت مع دعوتي الى اتمام عمليات التنقيب وقدمت لي – مشكورة– الصور المرفقة بهذا البحث.

(1255م) أي قبل ثلاث سنوات فقط من احتلال المغول بغداد وزوال الخلافة نفسها .

إن العثور على قصر المنصور هذا من شأنه أن يُصحِّح تصورات سابقة حول موقع المدينة المدورة، فهي بموجب هذا الاكتشاف كانت أعلى من الموقع الذي سبق أن حدده باحثون من قبل معتمدين على المعطيات الأدبية والتاريخية وحدها، وأن موقعها الجديد يأتي منسجماً مع موقع الرصافة، وهي الأعظمية حصراً في ذلك العهد، التي أنشأها الخليفة المهدي العباسي في وقت قريب من عهد إنشاء المنصور مدينته، حيث كان الجسر يربط بين الجانبين في خط مستقيم يصل باب خراسان، أحد أبواب المدينة، بباب خراسان الكائن في سور الرصافة من الجانب الشرقي.

إن قصر المنصور، بموقعه الذي جرى كشفه عند شاطئ دجلة، في منطقة العطيفية الحالية، يكشف، بجلاء ووضوح، مقدار إزورار نهر دجلة الذي استمر في القرون التالية حتى جرف نصف المدينة تقريباً، فنصف هذه المدينة يقبع الآن في قاع دجلة، في المنطقة التي تفصل بين العطيفية والأعظمية، ومن الراجح أن جزءً من الأعظمية، حيث كورنيش الأعظمية الحالي، كان يؤلف جزءاً من الجانب الغربي، يوم كانت المدينة المدورة تترامى على أرض واسعة لم تكن مياه دجلة قد جرفت شيئاً منها بعد . أن وجود القصر على نهر دجلة، وقصر المنصور كان يقع في وسط المدينة المدورة بالضبط، فهذا لأن دجلة جرف نصف المدينة المدورة تدريجيا فلم يبق الا نصفها الغربي، أما النصف الشرقي فما زال يقبع في قعر دجلة، وقد استعنت لاثبات هذا التغيير في مجرى دجلة بدلائل عدة، أهمها صور (التحسس النائي) التي التقطتها الأقمار الصناعية لمجرى النهر، وحصلتُ على دلالاتها من خلال عون مشكور قدمه في حينه الدكتور جعفر ضياء جعفر

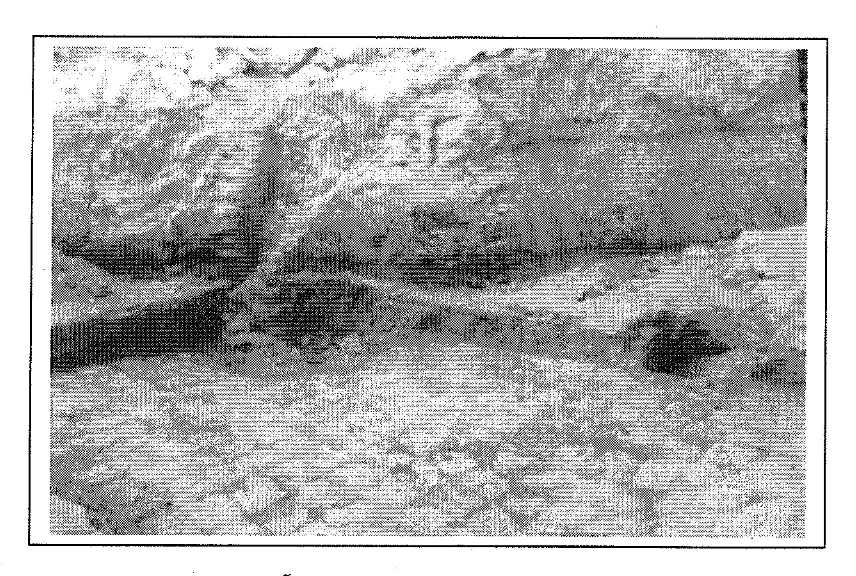
لقد كان يمكن لهذا الاكتشاف أن يكون اكتشاف القرن، ليس على مستوى العراق فحسب، وإنما على مستوى الإنسانية كلها، فليس قليلاً على الإطلاق أن يجري اكتشاف اللبنة الأولى في مدينة اقترن اسمها بالحضارة والثقافة والنظم والإدارة لخمسة قرون عاشتها يوم كانت بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ولقرون ثمانية قرون تالية، تقلبت فيها بغداد بين مختلف الظروف، وتحدَّت فيها كل أنواع

الكوارث البشرية والطبيعية، لتثبت للعالم، وبجدارة، على أنها الأقدر على مواجهة أقسى التحديات وأعتاها.

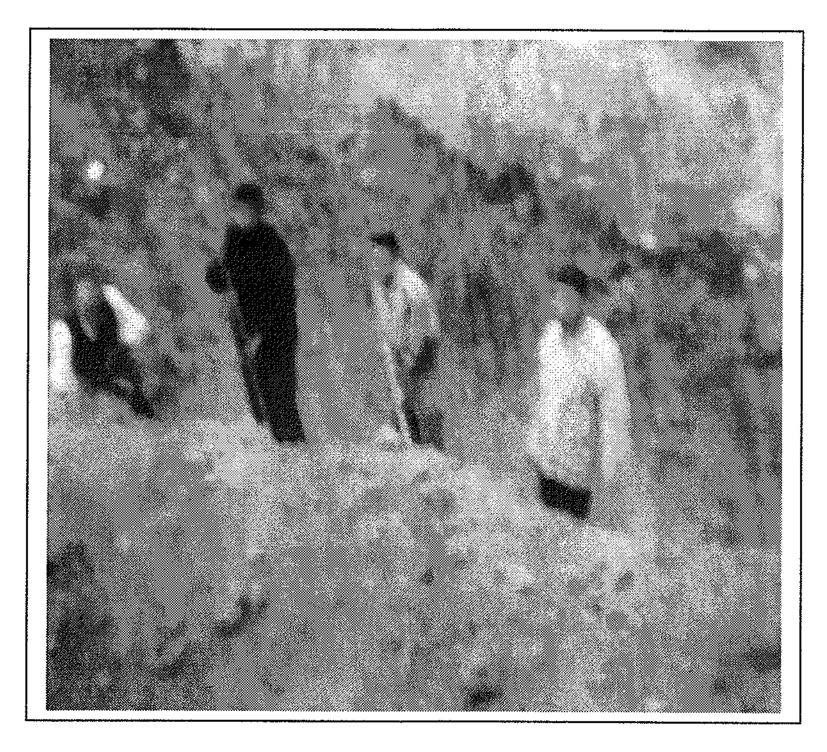
وكان مؤملاً، في تقدير الباحثين والخططيين أن تستمر دائرة الآثار بالعمل من أجل إتمام ما بدأت بعثتها التنقيبية من كشوف مذهلة، إلاّ أن مفاجأة غريبة خيبّت الظنون وأحبطت الآمال، فقد أوقف المعنيون في هذه الدائرة أعمال البعثة على نحو مفاجئ مثير للريبة، وجرى لَوم بعض أعضائها ممن صرَّح للصحافة بما جرى الكشف عنه، وحينما أخذ خبر الإكتشاف بالذيوع في الأوساط العلمية، وارتفع معه صوتها بالتساؤل المشروع عن الأسباب الكامنة وراء إيقاف العمل، ومبررات إحاطة الاكتشاف بكل هذا الصمت، أضطر المعنيون في دائرة الآثار في يومها الى تحريك (شَفلاتهم) ليس من أجل المضي في الحفر هذه المرة، ولكن من أجل إهالة أطنان الأتربة على ما جرى اكتشافه، وهكذا تم دفن ما قدَّر الله ظهوره، وتوقف المعنيون عن الإدلاء بأي تصريح عن سبب ذلك التصرف العجيب الذي يخالف قانون الآثار الذي يدعو إلى التنقيب عن الآثار وابرازها والعناية بها والمحافظة عليها بمختلف الوسائل العلمية والفنية. وحينما نشرت إحدى المجلات الأسبوعية[1] مقالاً تساءل فيه صاحبه عن أسباب دفن القصر ذي الأهمية التاريخية والإنسانية الفريدة، كان رد الدائرة المعنية، ويا للغرابة، بأن ذلك التصرف هو من حقها، وأن دفن الحُفر الناجمة عن التنقيب، يحمي المنطقة من خطر تكاثر البعوض والذباب، فما أعجبه من سبب لدفن ما سماه الباحثون باكتشاف القرن الواحد والعشرين!. وبالطبع فإن السبب المعلن لم يقنع أحداً على الإطلاق، بل دفع آخرين بالتهامس عن حقائق أكثر إقناعاً مما قيل[2].

(1) الصحفي سلام الشماع في مجلة ألف باء

(2) حينما راجع سلام الشماع دائرة الاثار لم ير إلا وجوها عوابس، وتهديدات مبطنة باغلاق الموضوع وعدم طرحه في الصحافة. وحينما أبلغتُ الأمر الى وزير الثقافة والأعلام لم يكن رد فعله بأفضل من رد فعل دائرة الاثار، وأشيع في حينه أن موقع القصر كان قريباً من أرض كانت تستحوذ عليها امرأة ذات نفوذ وحظوة، ولم يكن مرغوباً أن تجري أعمال تنقيب قريبة من أرضها والله اعلم



جانب من قاعة العرش مبلطة بالآجر الكبير



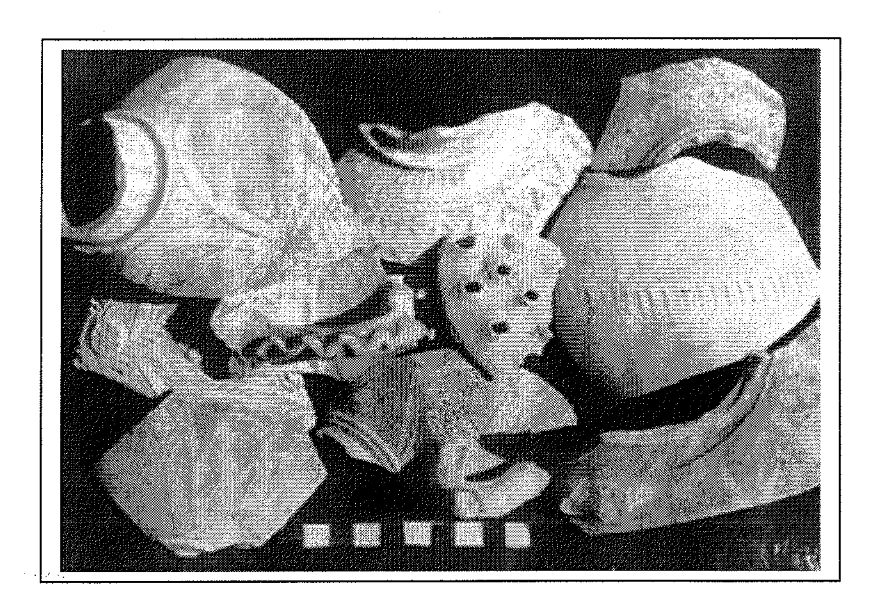
من اعمال رفع الاتربة والانقاض في الموقع



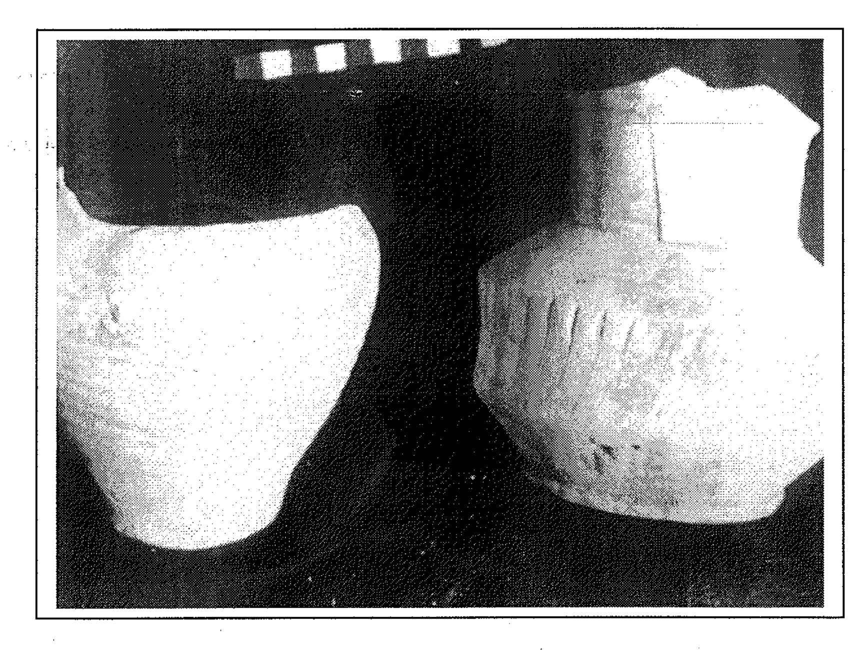
تنظيف احد الابار في القناة المؤدية الى القصر



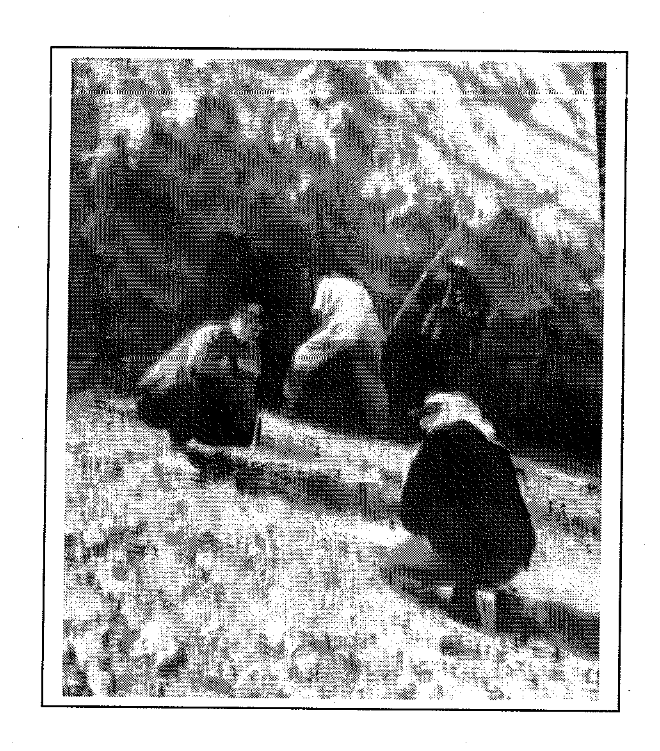
من بقايا القصر



كسر من فخار يعود الى عهود اسلامية مبكرة



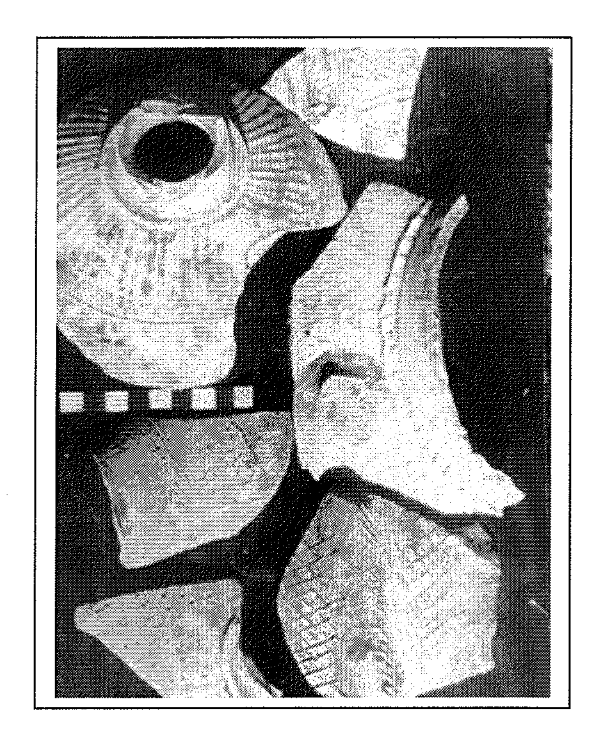
جرار من الفخار عليها زخارف



تنظيف احدى الكوات في جدار القناة المؤدية الى القصر



مشهد عام لموقع القصر قبل البدء بعملية التنقيب



كسر لأوان من الفخار عثر عليها في الموقع



ازاحة التراب عن بقايا القصر

الباب الوسطاني وما حوله

أسوار بغداد وأبوابها الأولى:

«لابد للباحث في تطور المداخل المحصنة لمدينة بغداد أن يجعل من أسوار مدينة السلام، ونعني بها مدينة المنصور تحديداً، منطلقاً له، فهذه المدينة التي أسسها الخليفة المنصور في منتصف القرن الثاني للهجرة، كانت تمثل، فيما يظهر، خلاصة خبرات العرب في مجال بناء المدن في عهود قبل الإسلام، وما بعده، إضافة إلى خبراتهم المستمدة من واقع ما شاهدوه من مدن حصينة أخرى قُدِّر لهم فتحها. وفي الواقع فإن هذه المدينة وتحصيناتها، ظلت تمثل أنموذجًا حياً للعمارة العباسية في بغداد إبان القرون التالية، ويعود سبب ذلك في تقديرنا إلى أن طبيعة البيئة فرضت استخدام مواد متماثلة تقريباً، كما أن الموقع نفسه فرض أنواعا متشابهة من الحلول لمشكلة الدفاع عن الذات على رغم تعاقب العصور.

أسس المنصور مدينة السلام في الجانب الغربي من بغداد الحالية، في منطقة العطيفية تقريباً، عند قرية ترقى إلى عهود سحيقة عرفت باسم بغداد، وأحاطها بسورين، يحاذي أولهما (من الخارج) مسناة وخندق، ويبلغ عرض السور من أسفل 50 ذراعاً[1] (والرقم مبالغ فيه إلاّ إذا أضيف إليه عرض الخندق)، ومن أعلاه 20 ذراعاً، وقدر ارتفاعه بين 24و28 ذراعاً، وللسور دُعامات تزيده قوة. وله أربعة أبواب كبيرة متعامدة، متناظرة، ينفذ كل منها على نحو منحرف (زاوية قائمة) إلى دهليز طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، وكل هذا الانحراف، أو الازورار يقصد به إمكان السيطرة على المداخل من قبل المدافعين، أو الحيلولة دون استخدام المهاجمين آلآت لغرض كسر الأبواب، وهو اسلوب شاع استخدامه فيما بعد في المنشآت العربية وغيرها، والراجح أن العرب كانوا أول من ابتكره.

وثم سور داخلي ينفذ إليه هذا الدهليز، سمي بالسور الأعظم، وهو أكثر ارتفاعاً من سابقه، وقد اختلف المؤرخون في ارتفاعه والراجح أنه 35 ذراعاً، وكان ثمة 28 برجاً حصيناً، كل منها على هيأة نصف اسطوانة، بين كل باب وآخر من أبواب المدنية الأربعة: باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة، فيما عدا ما بين بابي البصرة والكوفة، فقد كان بينهما، بسبب غير معلوم لنا، 29

برجاً، وتقدر المسافة بين كل برج وآخر بنحو 136 ذراعاً. وبين السورين الأول والأعظم، فضاء (فصيل) يمكن استخدامه لأغراض الدفاع. وينفذ من كل باب إلى دهليز آخر طوله 20 ذراعاً، وعرضه 12 ذراعاً، في آخره رحبة مربعة طول ضلعها 20 ذراعاً، تعلوها قبة عالية، ويتصل بضلعي الرحبة الجانبيتين بابان، أما الباب الرئيس فيفضي إلى رحبة المدينة نفسها[2]. ويشبه هذا الأسلوب في بناء المداخل المحصنة ما وجد في حصن الاخيضر، فثم مدخل يؤدي إلى رحبة، وعلى جانبيها حجرتان مستطيلتان للحرس، وتفضي الرحبة إلى دهليز (بطول 13متراً)، ومنه إلى الرحبة تعلوها قبة، تخرج منها ثلاثة عقود، الشرقي والغربي يؤديان إلى مجاز كبير سقفه قبو، والجنوبي يفضي إلى البهو، إلاّ أن مدخل الأخيضر يتميز بأن له باب حديدي ينزلق رأسياً ويرفع بواسطة الحبال[3]، بينما لم نعلم أن لمداخل مدينة السلام مثل هذا النوع من الأبواب.

اقتضت الضرورات الدفاعية، فضلاً عن مقتضيات التوسع المديني، تأسيس مدن أخرى، بعضها في جوار المدينة المدورة، وبعضها على مبعدة منها، حملت جميعاً، رسمياً، اسم مدينة السلام، وعرفت على المستويات الأخرى باسم بغداد، تلك القرية الصغيرة الواقعة إلى الجنوب من مدينة المنصور.

وكانت أولى تلك المدن، الرصافة، التي أسسها المهدي العباسي بأمر من أبيه المنصور في الجانب الشرقي من دجلة، إزاء المدينة المدورة، وتحتل أرضها حالياً محلات الاعظمية، بامتداد جنوبي لا يتجاوز محلة رأس الحواش. ومن المؤسف أن المؤرخين سكتوا عن أوصاف أسوار هذه المدينة الجديدة، وأبوابها، والذي نرجحه أنهم ما فعلوا ذلك إلاّ لأنهم لم يجدوا فيها ما يختلف عن المدينة السابقة بشيء، ومعنى هذا إن تحصينات الرصافة، بخندقها، وأسوارها، وأبوابها، حذت حذو النموذج الأول الذي وصفناه، فلم يجرِ فيه من التغيير ما استدعى لفت انتباه المؤرخين، وهم الذين يسجلون عادة ما يلفت انتباههم، لا كل ما هو موجود فعلاً. وفي الواقع فان المتغير الوحيد في هذه المرحلة هو ما فرضه الموقع الجديد، فالرصافة، كانت –خلافاً لمدينة السلام– تقع على شاطئ دجلة مباشرة، وهذا يعني أن سورها الشاطئي كان يستند إلى مسناة ضخمة عالية تختلف عن المُسَنيات التي تقع عند الخنادق الصناعية، ولكن أحداً لم يزد هذه الناحية تفصيلاً.

وكان توسع السكن في بغداد جنوباً، لا سيما في جانبها الشرقي، قد فرض على الخلفاء التالين تشييد أسوار جديدة تحمي التجمعات السكنية الآخذة بالنمو المطرد، حتى باتت تؤلف مدناً بذاتها، وان لم تسمى بذلك. ففي سنة 251هـ/ 865م أنشأ الخليفة المستعين بالله سورين ضمّا معظم التجمعات السكنية في الجانبين الشرقي والغربي في عهده، فكان السور الأول يضم محلات الشماسية والرصافة والمُخَرِّم، وهذا يعني أن السور بلغ من الطول ما يحيط بمنطقة تمتد من أعلى الصليخ إلى الصرافية والعلوازية حالياً، أما في الجانب الغربي فقد أحاط سور المستعين بجميع المحلات التي نشأت حوالي المدينة المدورة، وهي تمتد اليوم من انعطاف دجلة بأعلى العطيفية شمالاً، وحتى جامع قُمرية في الكرخ جنوباً. وتمدنا مصادر ذلك العصر بأسماء عدد من الأبواب التي كانت على هذين السورين، إلا أنها تسكت عن وصف تلك الأبواب وتحصيناتها الدفاعية، والراجح عندنا أن طول هذه الأسوار، وكثرة أبوابها، إزاء السرعة التي أنجز بها بناؤها، ثم اندثارها السريع نسبياً، يدل على أنها لم تكن بالمستوى الذي لاحظناه من إتقان البناء، وضخامة الأُسس، وروعة التصميم. والراجح أنها لم تخرج في تصميمها العام، وهيئتها، عن الأنموذج العباسي الأول الذي تجلى في مدينة المنصور قبل قرن واحد من تاريخ إنشائها، إلا أنه لا يستبعد ظهور تطورات محددة في تصميم البوابات، دليلنا إلى ذلك أن أسوار المستعين كانت تفصل بين مساحات مسكونة سكناً طبيعياً، أو فضاءات لم تسكن بعد، فهي تالية لها، بينما كانت أسوار المدينة المدورة جزءاً أساسياً من المدينة نفسها، أنشأت معها، وعدت جزءاً هاماً من تكوينها العماري، فلا نتوقع أبواب سور المستعين إلا أن تكون جزءاً ظاهراً في السور، كهيئة برج مربع أو مستدير، تعلوه قبة الباب. ولنا أن نلاحظ إن هذا التصميم هو الذي سيجري اتخاذه، وإن بأشكال مختلفة، في المرحلة التالية. ويفهم مما ساقه المؤرخون انه كان لبعض هذه الأبواب شدّاخات بعرض الطريق، فيها العوارض والألواح والمسامير الطوال الظاهرة، ولبعضها الآخر باب معلق بمقدار الباب ثخين، قد أُلبسَ بصفائح الحديد، وشد بالحبال كي إن وافى أحد ذلك الباب أرسل عليه الباب المُعلق، وقتل من تحته، وجعل على الباب عرّادة، وعلى الباب الخارج خمسة مجانيق كبار وانه جعل لكل باب دهليزاً بسقائف تسعمائة، فارس

ومائة رجل»[4]وواضح أن اتخاذ سقائف على كل دهليز، يدل على أن هذا الدهليز كان مكشوفاً، وهو بهذا يشبه أن يكون ممراً محصناً بجدارين عاليين، ربما زوِّدا بفتحات لغرض رمي السهام، ومواد أخرى، وسنرى أن هذا التصميم للمداخل سيجد تطبيقاً في القناطر المكشوفة التي لبعض أبواب سور بغداد الشرقية، ومنها باب الظفرية (الباب الوسطاني).

أسوار بغداد الشرقية وأبوابها:

إن ظاهرة تسوير الأحياء والمحلات في بغداد، كانت ملازمة لحالات الفوضى التي تتعرض إليها بين حين وآخر، ومن الطبيعي أن تكون المحلات التي تنشأ فيها قصور الفئة العليا في المجتمع، أو مؤسسات الدولة الرئيسية، أكثر مدعاة للتسوير والتحصين. وكان قصر اتخذه المأمون متنزهاً له على شاطئ دجلة، في جنوب المُخرم، قد أصبح بمرور الوقت المقر الرسمي للخلفاء المتأخرين، ثم عُرف بقصر التاج نسبة لهيئة أواوينه التي يقف بعضها فوق بعض كهيئة التاج (ويقدر موقعه اليوم في منتصف شارع النهر على دجلة)، وسرعان ما أنشأ الخلفاء والأمراء وأفراد من البيت العباسي قصورهم حوله، واقتضى وجود الخليفة وكبار موظفيه في هذا المكان أن تنقل مؤسسات الدولة المهمة إليه كالوزارة والمخزن وبيت المال وغيرها، فأصبحت هذه المنطقة -التي عرفت بدار الخلافة- مركز ثقل الدولة كلها، وفيه تجمعت ثروات الخلفاء الشخصية وثروة الدولة على حدٍ سواء، فاقتضى الأمر تسويرها بسور عالٍ حمايةً لها من أي احتمال طارئ، بينما تجمعت حوالي هذا السور محلات ناشئة، كانت يوماً بساتين وحقول، ضمت التجمعات التجارية والسكنية، وتخللتها دروب وأسواق وطرقات، وهكذا نما السكن في الجانب الشرقي مما كوَّن، إبان القرنين الخامس والسادس للهجرة، محلات كثيفة متكاملة الوظائف، حتى وصفت كل محلة منها -على حد تعبير ياقوت- بأنها تقرب أن تكون مدينة كاملة[5]. ومن الثابت انه كانت بين دار الخلافة وما حولها أبواب محصنة تفتح يومياً لمختلف الأغراض، وتغلق ليلاً، ومن المؤسف أننا لا نملك وصفاً دقيقاً لأي منها، إلا أننا نستطيع من تحديد وظائف كل باب منها أن نتصور تصوراً عاماً، شكلها. فباب الغَرَبة، وهو أول أبواب دار الخلافة من أعلاها (شريعة شارع

أسامة ابن زيد) وصف بأنه شاهق البناء، وباب بدر (ساحة مرجان) كان في أعلاه منظرة (مجلس في شرفة عالية)، وكان لباب العامة أبواب من حديد ضخمة، وباب البستان كان عليه، هو أيضاً، منظرة تطل على البساتين المجاورة. إن هذه الأوصاف، على قلتها، تذكرنا ببعض ما كانت عليه أبواب مدينة السلام، حيث لكل باب من أبواب المدينة التي على السور الأعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس ومترفقات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به، وأما أبواب الحديد، فتذكرنا بما نقله المنصور إلى مداخل مدينة من أبواب من النوع نفسه، وبما أنه لم يكن ثم فصائل، لعدم وجود غير سور واحد، فمن المعقول أن أبواب دار الخلافة كانت تقوم على هيئة أبراج اسطوانة عالية منفردة، داخلها سلالم يصعد منها إلى شرفاتها التي في أعلاها، وترتكز هذه الأبواب، من جانبها، على جدار السور نفسه.

ونتيجة لكثافة السكن حوالي دار الخلافة، ورغبةً في إحاطة دار الخلافة بسور خارجي آخر، فقد بوشر في مستهل حكم الخليفة المستظهر بالله 487–512هـ/ 1094– 1118م بإنشاء آخر أسوار بغداد، ليحيط بجميع المحلات الناشئة حوالي دار الخلافة، كان الشروع في إنشاء هذا السور في سنة 488هـ/1095م، واستمر العمل في عهد المستظهر، ولم يمكن انجاز العمل كله في عهده، لضخامة السور، وطوله، وتعدد أبوابه، وأبراجه، فتواصل بناؤه في عهد خلافة المسترشد بالله 512– 529هـ/1118–1135م، ثم أنشأت مسناة حول خندقه في عهد الخلفاء التالين، أسوة بما عرفته أسوار مدينة السلام، والرصافة في العهود السابقة.

وكان للسور عدد من الأبراج اختلف المؤرخون في تقديرها، فهي بين 114برجاً و150 أو 163برجاً، ونعتقد أن سبب هذا الاختلاف يكمن في أن السور لم يتخذ شكل مستقيم منتظم، وإنما كانت فيه بروزات في أماكن معينة، وقد عدها بعضهم أبراجاً بينما لم يفعل آخرون ذلك. وقدروا طول هذا السور في القرن الثامن عشر بـ12400أو 12200ذراعاً ثم قدر –على نحو أدق– في القرن التاسع عشر بـ(10600ياردة = 9692متراً)[6].

وقد وصف ابن الجوزي هذا السور فقال:خرج الوزير عميد الدولة أبو منصور محمد ابن جهير في سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة فخَطّ السور على الحريم وقلده

(كذا والصحيح: قدّره)، وتقدّم (أي أمر) بجبايات المال الذي يحتاج إليه من عقارات الناس ودورهم، وأذن للعوام في الفرجة والعمل، فحمل أهل المحال السلاح وجاءوا بالأعلام والبوقات والطبول ومعهم المعاول والسلات وأنواع الملاهي، فعملَ أهل باب المراتب فيلاً من البواري المُقيَّرة، وتحته قوم يسيرون به، وعملوا زرافة كذلك. وأتى أهل (محلة) قصر عيسى بسميرية (وهي ضرب من السفن) كبيرة وفيها ملاحون يجدفون، وهي تجري على هاذور (بمعنى: أهزوجة) قد عملوه، وأتى أهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الأسواق، وعمل أهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها الغلمان يضربون بقسي البندق، وأخرج قوم عنزاً على عجل وفيها حائك، والخبازون جاءوا بتنور وتحت ما يسيره، والخباز يخبز ويرمي إلى الناس. وكان بناء السور مائة قامة (أي طول ما بني منه في عهد هذا الخليفة)، فلم يزل كذلك (أي أن البناء توقف عند هذا الحد) حتى عزم المسترشد على بنائه في سنة سبع عشرة وخمسمائة، فتقدم بجباية العقار الذي للناس فحصل منه مال كثير، فضج الناس (أي اعترضوا) فأعيد عليهم، وأنفق عليه من ماله، وأذن للناس في الخروج للفرجة والبناء فخرجوا على تلك القاعدة، فكان كل أسبوع يعمل أهل محلة، وجعل للسور أربعة أبواب، وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً، ثم أن دجلة زادت زيادة عظيمة في سنة أربع وخمسين (وخمسمائة) في خلافة المقتفي لأمر الله، وانفتح القورج (وهو نهر كان شمالي بغداد) وأحاط الماء بالسور، وانثلمت منه ثلم عجزوا عن سدها، فاتسعت فتهدم معظم محال بغداد، فتقدم المقتفي بعمل مسناة حول السور فعمل بعضها وتوفي، وولي المستنجد فعملوا منها قطعة وتوفي، وولي المستضيء فعمل بمقدار ما عمل في زمن الخليفتين[7]. قلنا: وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله هذا السور وشيد باب الظفرية وباب الحلبة على ما سنذكر فيما يأتي.

يتضح من هذا النص ما يأتي:

1-إن السور الذي يتحدث عنه هو سور بغداد الشرقية. ومن ثم فلا يمكن أن تحمل عبارته «فخط السور على الحريم» على محمل انه يعني حريم دار الخلافة، وهو سور داخلي يفصل بين دار الخلافة وسائر محلات بغداد.

2- إن عمل السور استغرق مدة خلافة سبعة خلفاء عباسيين، هم على التوالي:

أ-احمد المستظهر بالله بين المقتدي (487- 512هـ/1075- 1094م).

ب-الفضل المسترشد بالله ابن المستظهر (512- 529هـ / 1118- 1135م).

جـ-منصور الراشد ابن المسترشد (529-530هـ/1135- 1136م).

د-محمد المقتفي لأمر الله ابن المستظهر (530- 555هـ/1136- 1160م).

هـ-يوسف المستنجد بالله ابن المقتفي (555- 566هـ/1160- 1170م).

و- احمد الناصر لدين الله ابن المستضيء (575- 622هـ / 1180- 1225م).

3-إن عدد السنين التي استغرقتها أعمال البناء بلغت نحو 134 سنة، تتخللها مدد توقف العمل فيها.

4- إن وضع أعمال بناء السور تحت إشراف الوزير، وهو بمعنى رئيس الوزراء في الوقت الحاضر، يدل على أن فكرته وبناءه، وتزيينه، جرى من قبل مسؤولين، عالي الخبرة في مثل هذه المجالات، يرتبطون بالخليفة مباشرة، وهو ما يماثل عمل الدوائر الهندسية المرتبطة برئاسة الدولة في العصر الحاضر.

5-إن العمل في بناء السور كان تطوعياً بحتاً اضطلع به أهل المحلات بغداد، ولذا فقد كان العمل يجري وسط احتفالات شعبية حافلة.

6-إن عرض السور بلغ 22 ذراعاً، أي 11 متراً، وواضح انه قصد به عرض قاعدته، وبضمنها الخندق وهو رقم يقل-على أي حال- عن عرض أسوار مدينة المنصور المدورة، بيد أن لنا أن نلاحظ إن مواد بنائه كانت جميعاً من الآجر والجص، بينما كان الآجر المصنوع من اللبن غير المشوي يدخل في أسوار المنصور.

7-إن للسور خندق حُفر معه، إلاّ أن هذا الخندق كان خلواً من مسناة تدعم السور وتحميه من مياه الخندق وما يتدفق إليه من مياه أخرى بسبب ارتفاع مناسيب دجلة، مما أدى إلى إلحاق الضرر ببعض أجزاء السور في فيضان سنة 554هـ، وقد أضيفت مسناة له في نهاية عهد المقتفي، بعد أكثر من ستين عاماً، والفارق بيوالتي سبقتها أنها أنشأت بعد حفر الخندق بمدة، بينما كانت تلك المسنيات جزءاً من السور نفسه، تنشأ مع إنشائه، وهذا يعني أن إضافات

مستحدثة كانت قد زيدت على كل باب من أبواب السور لتناسب المسناة المستجدة، ولكن هذه الإضافات ما كانت لتغير من التصميم العام للأبواب بسبب أن الأخيرة كانت قد شيدت على خندق حفر كنوع من الدفاعات المستضافة إليه، ومن ثم فإنها جزء من ذلك التصميم.

8-لا يوضح النص الجزء الذي شيده المسترشد (وهو أقدم الأجزاء بناءاً) من السور، وإنما يكتفى بالقول انه بلغ مائة قامة، أي 200 متراً تقريباً (القامة هي الباع= 199,5 سنتمتراً) ويصعب التكهن بموقع هذا الجزء، والذي نتصوره انه كان القسم الأعلى (الشمالي) من السور، ابتداءاً من ضفة نهر دجلة قرب مبنى وزارة الدفاع حالياً وحتى باب السلطان (باب المعظم) أو ما بعده بقليل. يدلنا على ذلك أن الباب السلطان هو أول الأبواب ذكراً في مصادر العصر، وان معظم التجمعات السكنية عنده، بينما كان السكن في الأجزاء الجنوبية في ذلك العهد غير كثيف، حيث تكثر البساتين والمزارع هناك.

أبواب السور:

وكان للسور أربع أبواب، فالباب الشمالي سمي بباب السلطان (وقد عرف فيما بعد بباب المعظم، وموقعه في وسط شارع الرشيد إزاء جامع الازبك اليوم)، ويوجد بينه وبين شاطئ دجلة الأعلى 12 برجاً، والباب الثاني عرف بباب الظفرية (وهو الذي سمي في العهود المتأخرة بالباب الوسطاني، وسيأتي الكلام عليه) يوجد بينه وبين الباب الأول 24 برجاً، والباب الثالث هو باب الحلبة، سمي بذلك لوجود حلبة للسباق هناك قبل إنشاء السور (وعرف بباب الطلسم، وقد أزيل في الحرب العالمية الأولى، ويقع بقرب طريق محمد بن القاسم السريع)، وبينه وبين الباب الوسطاني 26 برجاً، والباب الرابع، وهو الأخير، باب البصلية، أو باب كلواذى (وهو الباب الشرقي، وكان يقع في مدخل شارع الخلفاء، وبين باب الحلبة 36 برجاً، وبينه وبين شاطئ دجلة 4 أبراج، وكان يسلك منه إلى قرية كلواذى الواقعة عند ساحة الحرية حالياً)[8].

وقد لبثت هذه الأبواب شاخصة حتى ما بعد نقض السور نفسه في عهد والي بغداد مدحت باشا سنة 1870، ثم أزيل تدريجياً حتى لم يبق منها في الوقت

الحاضر إلا باب الظفرية (الباب الوسطاني). ففي 11 آذار سنة 1917 نسف الجنود العثمانيون المنسحبون من بغداد باب الحلبة (باب الطلسم) بسبب خشيتهم من أن يقع ما خزنوه فيه من بارود بيد القوات البريطانية المتقدمة لاحتلال المدينة، وفي عشرينات هذا القرن جرى نقض باب السلطان (باب المعظم) وفي أيار 1937م هدمت أمانة العاصمة باب كلواذى(الباب الشرقي) تماشياً مع نزعة التحديث على ما فهمها المسؤلون عن خدمات بغداد عهد ذاك، فلم يبق من هذه الأبواب التاريخية غير صور فوتوغرافية التقطت لها من قبل مصورون هواة وسياح، وذلك قبل أن تجري لها أي دراسة أثرية أو معمارية، ففقدت بذلك بغداد أكثر معالمها جمالاً وأهمية تكشف دراسة الصور والرسوم الخاصة بأبواب بغداد عن أنها مثلت عدداً من أنواع التحصينات الدفاعية للمداخل، ومع أنها بنيت جميعاً بمواد متماثلة هي الآجر الكبير، والجص، والنورة، فان كل باب منها يختلف عن الأخر من حيث التصميم اختلافاً ملفتاً للنظر، فباب الحلبة (باب الطلسم) الذي شيده الخليفة الناصر لدين الله كما دلت كتابة كانت تزين مدخله، سنة 618هـ/ 1221م، يتمثل بكونه برجاً اسطوانياً ضخماً، له بابان، الأول ينفذ إلى خارج السور، وله قنطرة طويلة بموازاة الخندق، وملتصقة بحافته الخارجية، والأخر ينفذ منه إلى داخل المدينة، وهو مشابه تماماً للباب الوسطاني[9]باستثناء الحلي البنائية التي تعلو بابه الداخلي (ومنها اكتسب اسمه في العهود المتأخرة، إلى ما اعتقد انه طلسم يزين أعلاه)[10]. وكان ثمة برج يقع قريباً منه، عرف ببرج العجمي، دخل منه المغول بغداد محتلين في شتاء سنة 656هـ/ 1258م، وربما كان وصف المؤرخين لبرج العجمي بالضعف يعود، في جانب منه، إلى تصميمه البسيط، وعدم وجود ما يدعمه من تحصينات ساندة، فما كان منه إلا أن انهار على يد الغزاة.

أما باب السلطان (باب المعظم) فالصور التي وصلتنا له، تدل على انه اتخذ شكل حصن صغير، مستطيل الشكل، يتوسطه باب له عقد بشكل نصف دائرة، وفوق الباب من خارجه شرفة صغيرة للدفاع عنه، وفي جانبيه حجرتان أو حجرات للحرس، ويتقدم الباب من الجانبين، ويتصل به، برجان عاليان، لهما مزاغل لرمي السهام ونحوها[11]. ويصفه بعض من عاصره بأنه بشكل إيوان طويل مفتوح الجهتين، ذو أربع أطواق، بين هذين عضادات نصف كروية، لا يشبه الأبواب

الأخرى[12] .ويذكر عبد الحميد عبادة أن تحت مبني هذا الباب سرداب مظلم كبير على قدر مساحة الباب المذكور، كانت توجد في قعره ثلاثة قبور مبنية بالآجر والجص[13]، ومن الصعب تفسير وجود هذا السرداب الكبير تحت مبنى الباب مباشرة إلا أن يكون مخزناً للسلاح ونحوه، ويلاحظ خلو الباب الوسطاني من سرداب مثله. هذا بينما يظهر باب كلواذى طويلا، وعلى جانبيه حجرات عدة، وله سلالم يصعد بها إلى أعلاه حيث تجري عمليات الرصد والمدافعة برمي السهام ونحوها، ويظهر أن سعة المكان ومتانته هي التي كانت وراء اختيار البريطانيين له لان يكون كنيسة خاصة بهم في مدة احتلالهم للعراق. ولا يعلم في أي من الخلفاء جرى تشييد هذا الباب، وإذا كان افتراضنا ان العمل بالسور قد بدأ من نقطة في أقصى المدينة الشمالي، صحيحاً، ففي وسعنا القول بأن بناء باب كلو أذى، على النحو الذي ظل قائماً في العهود التالية، كان في مرحلة أخيرة من مراحل بناء ذلك السور.

باب الظفرية (الباب الوسطاني):

يرجح انه من أنشأ الخليفة الناصر لدين الله، مثله في ذلك مثل باب الحلبة (باب الطلسم) الواقع في الجهة نفسها من سور بغداد، والمشابه له في التصميم والشكل العام، والدعاء الوارد جزء منه على هذا الباب يشبه أدعية أخرى قيلت في هذا الخليفة، وهو ثاني أبواب بغداد، بعد باب السلطان (باب المعظم)، نسب إلى محلة كان يقع بقربها تسمى الظفرية، كانت قد نشأت عند بستان سميت قراح ظفر، والقراح اصطلاح بغدادي- بحسب نص ياقوت- يعني البستان، وظفر اسم رجل من مماليك الخلفاء،[14]وواضح من هذا إن الباب أنشئ أصلاً عند بستان لرجل هذا اسمه، ولما كان مستحيلاً أن تسقى هذه البستان إلا من بعض فروع الأنهار المستمدة من نهر (بين) الآخذ من نهر الخالص، فإن من المنطقي أن يكون البستان مما يرقى إلى عهد سابق على إنشاء سور بغداد الشرقية يوم كانت بساتين هذه النواحي تُسقى من تلك الفروع.

يتألف الباب الوسطاني من برج ذي مظهر اسطواني الشكل من الخارج، بينما له ثمانِ أوجه من داخله، وفي كل وجه منها دخلة في الجدار، بعمق 75،. متراً، عدا

الدخلة المقابلة للمدينة، وهي في الجهة الجنوبية الشرقية، فثم فتحة الباب المُطل عليها، والدخلة المقابلة للفضاء الخارجي، وهي في الجهة الشمالية الغربية، حيث توجد فتحة الباب الخارجي، ويعلو كل من هاتين البوابتين (قوس إنائي معقود ذي رأس مدبب، ويبلغ نصف قطر هذا البرج من الداخل بزخارف هندسية جميلة بارزة في الآجر، كما زُيِّن جانباً الباب بصورة أسدين جالسين نحتت بشكل بارز على الآجر أيضاً. ويعلو البرج من الأعلى، من جهته الشرقية، شريط من الكتابة بخط النسخ الجيد، تقرأ منه العبارة الآتية (.. ولازالت دعوته الهادية للدين قواماً وللإسلام نظاماً ولدولته القاهرة سكينة وللأمة عصاماً ومنزلته للسلام بإشراق أنوار سعد..). وهو مبني بآجر بمقياس (16× 16× 5سم)، ويستقر على أسس متينة بعمق 3أمتار. ولما كان هذا البرج يقع وسط مساحة مائية كبيرة نسبياً، وهي قسم من خندق المدينة، فقد أضيفت إليه قنطرتان لكل منهما فتحتان على هيئة أواوين معقودة، تكفيان لانسياب المياه من تحتهما، والقنطرة الرئيسية التي تصل بين المدينة والبرج محصنة بجدارين عاليين في أسفلهما صفان من أواوين، ستة في كل جانب، ويعلو هذين الصفين ممران مكشوفان لاستخدامها من الجنود الذين وكل إليهم أمر الدفاع وذلك برميهم النشاب من فتحات خاصة (مزاغل) تقع في أعلى كل ممر. ويبلغ عرض القنطرة مترين، وهي أكثر ارتفاعاً من القنطرة الأخرى، المُوصلة إلى الفضاء الخارجي، وذلك- فيما يبدو- لجعل الجنود فيها يسيطرون على حركة الداخلين إلى المدينة.

وتتصل القنطرة من جانبيها بسور بغداد، ويبلغ عرضه 2,5 متراً، وهو مبني بالآجر المربع (الطابوق الفرشي) المرصوص، لغرض إعطائه المتانة الكافية للمحافظة عليه من احتمالات النقب المعادي، أو من تأثير وجود المياه في الخندق المجاور، ويبلغ طول قطعة السور التي كشف عنها، في أعمال الصيانة التي أجرتها المؤسسة العامة للآثار والتراث سنة 1979، نحو 100متراً، وللسور أبراج كبيرة، تم الكشف منها في السنة المذكورة عن أحدهما، فإذا هو يتخذ شكل نصف اسطوانة مجوفة، طول قطرها 8متراً.

وتحيط بالخندق، من على مسافة 32,5 متراً عن الركن الأيمن لمدخل الباب الخارجي، مسناة تأخذ شكل قوس كبير، مكوناً نصف دائرة قطرها 7,13 متراً.

ويبلغ عرض هذه المسناة مترين ونصف، معززة بإحدى عشرة دعامة بين كل دعامة وأخرى حوالي 7,83متراً، ويبلغ عمق المسناة نحو 3,5 متراً، وهي مبنية بآجر بقياس (23×23×7سم) ولكنها شيدت على مصطبة مدرجة تتألف من سبع درجات ارتفاع كل منها بارتفاع قطعة آجر البناء(5سم) وبعرض (20سم) أي أنها تبرز 70سم عن وجه الجدار، وبارتفاع يناهز 50 سم، وثمة صفوف من الآجر بمقاييس مختلفة وهو ما يدل على إجراء عدد من الترميمات عليه في الحقب المتأخرة. وتصل القنطرة الخارجية بين الباب الخارجي للبرج والحافة الشرقية (اليسرى) لهذه المسناة، وهي تتصل بهذه الحافة اتصالاً وثيقاً بطريقة (الشد والحل)، وفيما عدا هذا التقوس الذي أريد به إحاطة برج الباب بالماء من كل اتجاه فإن المسناة تأخذ شكلاً موازيا للسور نفسه.

والملاحظ أن تصميم هذا الباب وموقعه جعله أكثر أبواب بغداد حصانة وقدرة على الدفاع، فالباب يمثل تطويراً لفكرة البرج الأسطواني المقبب، الذي يرقى إلى قبته بسلالم ليشرف منها على الفضاء المجاور، إلا انه زاد عليها بأن جعل مدخله الداخلي يتعامد، على شكل زاوية قائمة، مع مدخله الخارجي، فهو إذن قد راعى أيضاً أسلوب المداخل المزورة التي عرفتها مدينة السلام منذ تأسيسها في القرن الثاني للهجرة، وزاد مصمم هذا الباب من حصانته بأن قدم للباب من الداخل بقنطرة عالية مكشوفة كما أن إحاطة برج الباب بمساحة مائية واسعة زاد من هذه الحصانة إذ لم يكن ممكناً الوصول إلى السور إلا بعد اجتياز قنطرتين، على التعاقب.

إن تصميم باب الظفرية المركب من عدة أفكار بنائية في تحصين مداخل المدن، يجعله يحتل أهمية عالية بين أبواب مدينة بغداد الأخرى، والمعاصرة له من حيث زمن الإنشاء، وهو تصميم يتيح لمستخدمي الباب، ببرجه وقنطرته الحصينة، ومواضع الرصد والرمي فيه، وخندقه العريض، قدرة عالية في الدفاع والمطاولة وإلحاق أكبر الأذى في القوات المهاجمة، كما من شأنه ستر حركة المدافعين عنه من رصد المهاجمين. ولذلك ففي وسعنا القول، أن هذا الباب يمثل ذروة ماتفتق عنه ذهن المهندس العراقي، من وسائل دفاعية، ليس في مدينة بغداد فحسب، وإنما في غيرها من المدن التي تقع في سهول منبسطة، حيث تنعدم العوارض الطبيعية، إلا

مايشاد فيها من خنادق وأبراج. ولابد لنا هنا أن نسجل إعجاب الرحالين الأوربيين الذي مروا به بحسن تصميمه وجودة مواده البنائية، فهذا بكنكهام يذكر، في أوائل القرن التاسع عشر، أنه كان يتميز بالفخامة، وبجودة الآجر الذي شيد به، وأن دقة تركيبه يضارع أي بناء قديم كان قد شاهده قبلاً[15].

موقع الباب في العصر العباسي:

أشرنا إلى أن باب الظفرية كان يجاور محلة الظفرية، واليها نُسب، وان هذه المحلة كانت قبل أن تعمر بستاناً، فلنا أن نتصور المنطقة، في عهد إنشاء الباب، قد توزعت فيها البساتين، فإلى الجنوب من الباب كان ثمة قراح ابن رزين، وقراح القاضي وقراح أبي الشحم، وهذه كلها بساتين غناء، تجاورها بيوت الناس، وتقع في حوافها القصية مقابرهم.

وكانت ثمة مقبرة كبيرة، واسعة، تعترض الذهاب من وسط بغداد الشرقية إلى الباب، عرفت بباب أبرز، أو بيبرز، ومن الصعب تصور حدود هذه المقبرة الآن، بسبب انها لم تكن مُسوَّرة، بل تتصل بفضاءات عدة، وجدت فيها مقابر أخرى، فقد اعتاد سكان محلات الجانب الشرقي دفن موتاهم في النواحي القاصية من محلاتهم، وكانت تلك النواحي تتصل بفضاء واحد متصل يفصل بين المحلات من جهة وسور بغداد عند إنشائه من جهة أخرى. وتمتد تلك المقابر جنوباً حتى مقبرة اليهود القديمة (ساحة النهضة اليوم) ومقبرة الغزالي حالياً. ويبدد منها وحشة تلك المقابر منظر نهر كان يتفرع من نهر (بين) الآخذ مياهه من نهر الخالص، يسمى نهر المُعلّى، نسبة إلى أحد كبار القادة في عهد الرشيد، وكان هذا النهر «يدخل البلد» ويمضي إلى (باب بيبرز) أو باب أبرز، ومن هناك يمر بين الدور إلى باب سوق الثلاثاء (قرب جامع مرجان الحالي)، ثم يدخل قصر الخلافة المسمى الفردوس، في دور فيه ويصب في دجلة[16].

وكان يمكن للذهاب من وسط بغداد الشرقية إلى باب الظفرية أن يسلك طريقاً يجتاز به عدداً من المحلات والبساتين، حتى يفضي به الى مقابر باب أبرز المذكورة آنفاً، وهناك يسلك سبيلاً وسط تلك المقابر وما انتشر بينها من بيوت حتى يصل إلى قراح ظفر، حي يرتفع قبالته سور بغداد، ويشمخ أمام ناظريه برج باب الظفرية المذكور.

وقد وصف ياقوت هذا الطريق على نحو ظاهر الدقة، فقال: «إنك تخرج من رحبة القصر (وهو جامع الخلفاء) مشرقاً، حتى تتجاوز عقد المصطنع (عند قاضي الحاجات في الشورجة)، وهو باب عظيم في وسط المدينة، فهناك طريقان، أحداهما يأخذ ذات الشمال مقدار رمية سهم إلى درب يقال له درب النهر عن يمين القاصد إلى قراح ابن رزين، ثم يمتد قليلاً ويشرق فحينئذ يقع في قراح ابن رزين، فإذا سار في وسطه فمن يمينه درب النهر واللوزية، وعن يساره المحلة المقتدية التي استحدثها المقتدي بالله، ثم يمر في هذه المحلة، اعني قراح ابن رزين، نحو شوط فرس جيد، فحينئذ ينتهي إلى عقد هناك وباب، فإذا خرج منه وجد طريقين، احدهما يأخذ ذات الشمال، يفضي إلى المحلة المعروفة بالمختارة، فيتجاوزها إلى مقبرة باب ابرز وطولها غالباً للشمال، فإذا انتهت المحلة وقع في محلة تعرف بقراح ظفر...

فإذا ما نقلنا هذا الوصف إلى لغة خطط بغداد اليوم، قلنا أن الذهاب إلى باب الظفرية، كان يخرج من الرحبة المحيطة بجامع الخلفاء في شارع الخلفاء الحالي، لينفذ منها إلى عقد قاضي الحاجات في وسط سوق الشورجة، فيجد أمامه طريقان، الجنوبي منهما هو عقد القشل وصبابيغ الآل بامتداد يصل إلى محلة باب الشيخ، والشمالي منهما يمضي فيجتاز محلة قنبر علي فالتوراة وأبي سيفين، ثم يمضي في طريقه مجتازاً محلات الفضل والمهدية والسيد عبد الله وقمر الدين، حتى ينتهي إلى شارع الشيخ عمر فيجتازه إلى حيث جامعه ومقبرته، ومن هناك ينفذ إلى الباب المذكور. وليس من المحدد تماماً ما إذا كان الباب سبباً في يتخذ هذا الطريق امتداده حتى يصل منطقته، مجتازاً معظم محلات القسم الشمالي من بغداد الشرقية، أم أن اختيار مكان الباب جرى أصلاً لأنه يقع على طريق المذكور. ويمكن القول بأنه لا تزال ثم معلومات خططيه كثيرة تنقصنا في فهم العلاقات بين التجمعات السكنية ومواقع الأبواب في ذلك العصر.

وفي عهد قريب تال لتاريخ إنشاء باب الظفرية، شهدت المنطقة تشييد مَعلم جديد، سيكون له حظ من العناية والاهتمام، على المستويات الرسمية والشعبية في القرون التالية، ذلكم هو مرقد الإمام الشيخ أبي حفص عمر البكري السهروردي، المدرس في مدارس بغداد، والسفير لدى دار الخلافة، المتوفي سنة 632هـ. وقد ذكر

صاحب كتاب الحوادث انه «دفن في الوردية في تربة عملت له هناك على جادة سور الظفرية»[17]، وإذ ذكر ياقوت أن الظفرية محلة تقع في غربي باب ابرز[18]فتكون جادتها، هي بالتحديد، الشارع المتفرع من شارع الشيخ عمر والمنتهي إلى الباب الوسطاني، وتكون الظفرية مقابلة لجامع الشيخ عمر السهروردي، بينما يكون قراح ظفر، ومقبرة باب أبرز هي الأرض التي شيد عليها الجامع المذكور، وما نشأ حولها من مقبرة واسعة تنسب إليه.

المنطقة في العهود التالية:

يظهر أن ضرراً ملموساً لم يلحق بباب الظفرية في أثناء اقتحام المغول بغداد بسبب أنهم لم يدخلوها منه أصلاً، وفي سنة 656هـ/1266م اختار حاكم العراق علاء الدين عطا ملك الجويني أرضاً وصفت بأنها بظاهر بغداد، تجاه باب الظفرية والحلبة ليبني عليها قصراً ورواقات وحماماً، واستجد حوله بستاناً عظيماً غرس فيه أنواع النخل والأشجار والأثمار حتى الفستق، وغرم عليه مالاً كثيراً[19]إلاّ أن إهمال سلطة الاحتلال صيانة السور، وتعرضه المستمر إلى خطر الفيضان، كلما زاد منسوب المياه في دجلة، أدى إلى تضعضعه، فحينما غرقت بغداد غرقها الفادح سنة 775هـ/1373م، تعرَّض هذا السور إلى ضرر كبير، مما اضطر السلطان أويس الجلائري، حاكم العراق عهد ذاك، إلى عمارته[20]، وفي الواقع فإن سور بغداد الشرقية كان يؤدي مهمتين معاً، أولاهما عسكرية دفاعية، والأخرى لحماية بغداد من أخطار الفيضان، والمهمة الأخيرة هي التي أدت بالولاة العثمانيين المتأخرين، بعد إزالة أجزاء كبيرة منه، إلى التعويض عنه بإنشاء السدة الشرقية، التي لبثت إلى أواسط الستينات من القرن العشرين.

ونتيجة لتقلص المساحة المسكونة داخل أسوار بغداد الشرقية، ومن ثم زوال المحلات القاصية عن مركز المدينة، كقراح ظفر والظفرية وما يجاورهما من محلات، فقد نسي-تدريجيا- اسم باب الظفرية، وأخذ يعرف باسم جديد هو الباب الوسطي[21]، والباب الوسطاني، وذلك لأنه كان يتوسط المسافة بين باب كلو أذى (وقد عرف في العصور المتأخرة بالباب المظلم لاندثار كلواذى نفسها) وباب السلطان (الذي عرف أيضا بباب المعظم)، وهذا بعد أن أغلق العثمانيون باب الحلبة (باب الطلسم) القريب في الجهة نفسها بعد سنة 1048هـ/1638م.

وكان الباب قد عرف في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد) باسم جديد هو (اغجه قابو) ويعني الباب الأبيض[22]، ويظهر أن سبب هذه التسمية يعود إلى لون الجَص الذي شيد به، وتمييزاً عن باب كلواذى، الذي عرف في هذا العصر أيضا بقرانلق قبوسي، أو قره قابي، أي باب السواد، أو الباب الأسود[23]، وذلك لحريق وقع فيه -فيما يظه- فأسوَد لونه بتأثير الدخان. وفي العصر العثماني عرف الباب بتسمية جديدة، هي (باب سفيد)، وتعني الباب الأبيض أيضاً[24]. وقد شهد الباب، كما شهد السور نفسه، ترميمات مختلفة في القرون التالية، ففي سنة 980هـ صدر فرمان إلى أمير أمراء بغداد «يتعلق بتعمير وترميم أسوار بغداد التي أصابها الخراب في بعض أقسامها من جرّاء فيضانات شط دجلة في عام 977هـ بصورة لم يسبق لها مثيل»[1] فلاحظ الرحالة بكنكهام أن السور الذي يحيط ببغداد يحمل من الدلائل ما يبرهن على انه قد تم تشييده وإصلاحه في فترات عديدة متباينة، وإن أقدم جزء فيه هو أفضل الأجزاء،[25]وكان قد ذكر بأن أفضل تلك الأجزاء هو بُرجا من الباب الوسطاني وباب الطلسم.

ومن ناحية أخرى، شهد القرن الذي أعقب احتلال المغول بغداد اهتماماً متزايداً بمرقد الشيخ السهروردي المجاور للباب الوسطاني، ففي سنة 735هـ/1335م جدد الوزير غياث الدين محمد بن الوزير فضل الله الخواجة رشيد الدين عمارة هذا المرقد تجديداً شاملاً، ولا يعلم على وجه اليقين ما إذا كانت القبة المخروطية من بنائه، أم انه اكتفى بتجديدها، ولكن من الراجح أن الجامع الكبير الذي بجواره أضيف إلى المرقد في عهد تال، وان هذا الجامع شهد معظم توسعاته وإضافاته في العهود العثمانية، ومنها أن أميراً من سلالة عباسية، هو إسماعيل باشا[26]أمير العمادية وأعمالها، أضاف إليه طارمة في الجهة الشمالية منه، وطاق مرتفع مشرف على الصحراء[27]، والذي نذهب إليه إن هذا الطاق هو واجهة الجامع الخارجية التي لما تزل قائمة اليوم. وفي سنة 1320هـ/1902م أعيدت عمارة الجامع وأقيمت منارته الحالية، ثم تعددت تعميراته في السنين التالية ومازال يحظى بنوع من اهتمام.

---

(1) الآرشيف العثماني باستانبول، دفتر مهمة 21 ص27 بتاريخ 10 رمضان 980هـ.

ومن المنشآت المهمة التي شهدها المكان، في أوائل عهد الدولة العثمانية في العراق مشروع كبير لمياه الشرب، أنشأه سنة 1084هـ/ 1673م والي بغداد حسين باشا السلحدار (1083-1085هـ)، وكان هذا المشروع يتمثل في رفع قناة على عقود عديدة تتصل بدولاب تحركه الدواب (كَرْد) يرفع المياه إليها من عند شريعة الميدان (بين نادي الضباط الأعوان المندثر وبيت الحكمة حالياً)، وتمضي هذه القناة المرفوعة فوق محلات بغداد، لترفد في الماء عدداً من السقايات المنتشرة في القسم الشمالي من بغداد، حتى تنتهي إلى جامع السهروردي، فتغذي سقايته بالماء، وما يتبقى يذهب إلى بستان وارف الظلال كان عند الجامع، أنشأه هذا الوالي[28]، وكان هذا البستان يمثل المساحة الخضراء الوحيدة في تلك المنطقة التي خلت من العمران إلاّ من المقابر، وآخر ما يمر به من الخارج من بغداد، قبل أن يجتاز الوسطاني، متخذاً طريقه إلى نواحي شرقي بغداد وما بعدها، وورد الإشارة في وقفية حسين باشا السلحدار إلى الباب الأبيض (وهو الباب الوسطاني نفسه) بوصفه أحد حدود الأرض التي أوقفها على الساقية المذكورة[29]، وقد ظهر البستان في صورة لبغداد رسمها السائح الهولندي دابر، في أواخر القرن السابع عشر، ولبثت بقايا هذه القناة ماثلة حتى أواخر القرن التاسع عشر.

اتخذ العثمانيون من موضع قريب من الباب الوسطاني مخزناً للبارود، عرف (بالبارود خانة)، ووردت الإشارة إليه في وقفية حسين باشا السلحدار المؤرخة في سنة 1084هـ، وفي خارطة بغداد سنة 1324هـ/1908م للسيد رشيد الخوجة، تعيين لموقع (البارود خانه)، فإذا بها قريبة من سور بغداد الشمالي، إلى الغرب من جامع الشيخ عمر.

زود الباب في العصر العثماني بعدد من المدافع، قدر عددها بين 6-7 مدافع، وكان من بينهما مدافع ضخمة لها دور في الدفاع عن بغداد في أثناء حصار نادر شاه لها سنة 1156هـ/1743م، ولكن جرى سحبها في ما بعد لتحتل مواضع دفاعية أخرى[30].

وتشير النصوص التاريخية المرتقية الى العصر العثماني الى وجود عدد من الربايا (التوابي) العسكرية قرب الباب الوسطاني، أهمها تابية الفتح، وتعرف أيضاً

بتابية الشيخ عمر، وهي تبعد عن جامع الشيخ السهروردي بمسافة تسعين متراً، على الطريق الموازي للسور الشمالي، ومنها ايضاً تابية الآغا، وتابية التراب، وكانت على بعض هذه التوابي بطارية مدفعية أقامها والي بغداد أحمد باشا بن حسن باشا (حكم من 1136 إلى 1147هـ/1723-1747م للدفاع عن بغداد لتلك الناحية[31]. وقد وردت مواقع هذه التوابي في خوارط السياح ابان العهود العثمانية[32].

ونتيجة لتوسع الدفن حوالي جامع السهروردي، وعدم اتخاذه شكلاً منتظماً، ربما لعدم وجود مناطق سكنية مجاورة، فقد أخذ الناس بدفن موتاهم حوالي الباب، وعلى اكتاف خندقه، وفوق بقايا السور المتصل به، ومع أن وجود آجر هذه المنشآت كان يوفر مادة بناء متاحة دائماً لبناء الأضرحة، إلاّ أن دفن الموتى في هذه الأماكن أدى، من جهة أخرى، إلى حفظها من النقض والهدم، على خلاف ما حدث لأجزاء السور الأخرى التي نقضت بأمر من والي بغداد مدحت باشا سنة 1288هـ/ 1870م. لأن وجود القبور عليها كان يمنع الطماعين بالتنقيب عن قطع الآجر ونقلها لاستخدامها في بناء المساكن، وهو ما كان يجري عادة المدن والأحياء التي يتصادف وجودها قرب مدن أثرية داثرة، ولذا فليس غريباً أن تبقى أجزاء من السور ماثلة حتى يومنا هذا تحت ركام من بقايا القبور، ففي وسعنا ان نقول أن الأموات نجحوا في حفظ ما عجز عن حفظه الاحياء!.

الباب الوسطاني ومنطقته اليوم:

على الرغم من توقف الدفن على بقايا سور بغداد، حوالي الباب الوسطاني، منذ عدة عقود من السنين، إلاّ أن المنطقة لم تكتسب من مظاهر التطور شيئاً، اللهم إلاّ بعد أعمال الصيانة المتقطعة التي قامت بها مديرية الاثار القديمة، منذ الثلاثينات، لجسم الباب نفسه، والتي استمرت في مواسم تنقيبية مختلفة، واتخاذ الباب متحفاً عسكرياً بعض الوقت، بيد ان هذه الأعمال انصرفت- بالضرورة- إلى ترميم الباب ومسناته وخندقه، ولم تشمل العناية بالمقتربات الاخرى فضلاً عن المنطقة بصورة شاملة. وبالمقابل فان هذه المنطقة فقدت، إبان العقدين الأخيرين،

الكثير من ملامحها الجمالية، فقد أقيم على مبعدة عشرات الامتار من الباب طريق سريع مرفوع على أعمدة خرسانية، فبدد هذا الطريق من هدوء المكان، وقضى على ما كان يحيط بالباب من فضاءات تمنح المشاهد مجالاً رحباً لتأمل الباب والشواخص المختلفة من حوله. كما أن هذا الطريق، بشياته وقواعده، أوجد امكنة جديدة استغلتها فئة من الناس لجمع القمامة أو فرزها، مما حول المنطقة الى مكان موحش تجمع فيه مختلف المواد التي يتم الحصول عليها عن هذا السبيل وغيره.

مقترحات ختامية:

وفي ختام بحثنا هذا نود أن نتقدم ببعض المقترحات على النحو الآتي:

1-ضرورة العمل على ترميم الباب الوسطاني ترميماً شاملاً، وبمواد قريبة من مواصفات مواده البنائية الأصلية.

2-العمل على نقل رفات الموتى الذين دفنوا حول الباب، من عقود عدة، الى مقابر أخرى.

3-إظهار السور المتصل بالباب من جهتيه، وبخاصة في الجزء الشمالي، الذي يستدير فيه، باتجاه باب المعظم، والكشف عن قواعد الابراج الكبيرة هناك.

4-اكمال بناء السور وأبراجه في تلك الجهات ليصل الى ارتفاعه المفترض، ويمكن الاهتداء الى ذلك بالصورة الفوتغرافية والرسوم التي نفذها سياح ومصورون مروا بالمنطقة.

5-الكشف عن بقايا خندق بغداد، وإخلائه مما تراكم فيه من أتربة وبقايا قبور، وبناء مسنياته.

6- إخلاء المنطقة كلها من المتجاوزين عليها من الفئات المشار اليهم، وتنظيفها من مخلفاتهم.

7- تبليط المساحة الممتدة من جامع الشيخ عمر السهروردي، الى الباب الوسطاني وما حوله، بالطابوق الفرشي الكبير، وتسويرها، لتكونا حَرَماً مشتركاً للمبينين، وتخصيص أماكن كافية لوقوف السيارات.

8-العمل ما امكن على دراسة وضع الدور التي شيدت على نحو سريع، مقابل جامع الشيخ عمر السهروردي، للنظر في استملاكها واضافتها للحرم المذكور.

9- اقامة متحف صغير، في داخل برج الباب، يضم نماذج مختلفة لاسلحة ومعدات وملابس عسكرية، لتمكين الزوار من استعادة الجو التاريخي الذي كان عليه هذا المبنى في العصور السالفة.

10- اظهار التوابي القريبة من الباب، بإزالة ما عليها من بقايا قبور، ويحبذ وضع نماذج من مدافع قديمة عليها، لتستعيد وضعها السابق بوصفها قواعد متقدمة لحماية بغداد من أعدائها.

11- اقامة منظومة اضاءة كاملة تشتمل شواخص المنطقة بوصفها وحدة تاريخية واحدة، وبضمنها الباب الوسطاني، ومسناته، والخندق، والربايا (التوابي)، وواجهة جامع الشيخ عمر السهروردي، وقبته المخروطية، ومئذنته.

12- يمكن الافادة من تطوير المنطقة على النحو الذي وصفنا في اقامة عروض صوت وضوء، تحكي بالكلمة والمؤثرات الاخرى تاريخ بغداد، وبخاصة تاريخها العسكري، وما خاضهُ أهلها، وجيشها، من معارك ضدة الغزاة الطامعين، وتلقي الضوء على جوانب مشرقة من حضارتها وفنونها المعمارية. كما يمكن ان تتحول المنطقة الى مركز جذب للزوار، من أهل بغداد، ومن السياح العرب والاجانب، فضلاً عن تنظيم رحلات مدرسية لتعريف الناشئة بجانب مهم من الحضارة الاسلامية. ويمكن بهذا الصدد يمكن تقديم خدمات سياحية شعبية، مثل اقامة خيم سياحية، وتقديم وجبات سريعة، مما يعيد روح (الكسلة البغدادية) التي كان البغداديون يتخذونها في العهود السالفة، وفي ذلك كله مما يحقق ايرادات مالية لادامة المكان والإنفاق على مرافقه.

13- اتخاذ منطقة الباب الوسطاني موقعاً لإقامة احتفالات رسمية وشعبية بمناسبة بمرور 800 سنة تقريباً على بناء باب الظفرية (الباب الوسطاني)، وعده رمزاً لصمود بغداد بوجه اعدائها. ويمكن اصدار طابع بريدي يخلد المناسبة، ووسائل تعريفية واعلامية مختلفة، ومن المناسب أن يخصص الاحتفال السنوي

بيوم بغداد، بعد أن تفرغ الجهات المعنية من العناية الشاملة بالمنطقة، لإحياء هذه الذكرى المهمة.

خاتمة ودعوة!

إن العناية بآثار الأمة الماضية يحمل في معاناة التقدير العميق لقيمها الخالدة، ويرمز الى همة هذا الجيل، والأجيال المقبلة، المقابلة، للنهوض بها، لتؤدي دورها الحضاري والانساني من جديد. ولا نشك في ان احياء الباب الوسطاني، مظهراً وتاريخاً، ورمزاً، سيكون نقطة انطلاقة فذة لإيلاء اهتمام مماثل بآثار بغداد العظيمة الداثرة واهمها- على الاطلاق- القيام بحملة عملية شاملة يستعان من أجل انجاحها بالوسائل التقنية المتطورة، من اجل العثور على بقايا الاسس المدورة في الجانب الغربي، وهي مدينة السلام، وهي قبة الاسلام، التي شيدها الخليفة أبو جعفر المنصور قبل نحو اثني عشر قرناً مضت، ولا شك في أن العثور على بقايا هذه المدينة وهي النواة الاولى لبغداد التي كانت مركز العالم المتحضر في العصور الوسطى، سيكون له دوي حضاري وإعلامي كبير، وربما سيكون الحدث الأكثر أهمية في تراث الإنسانية في هذا العصر.

ملحق مسرد بأهم الحوادث التي شهدها باب الظفرية (الباب الوسطاني) وما حوله:

488هـ/1095م البدء بأعمال بناء سور بغداد الشرقية بإشراف الوزير عميد الدولة ابن جهير.

517هـ/1123م استئناف الخليفة المسترشد بالله أعمال البناء في سور بغداد الشرقية.

552هـ/1156م سور بغداد الشرقية يصمد في وجه حصار السلطان محمد السلجوقي على عهد الخليفة المقتفي بأمر الله، ويتمكن البغداديين بإفشال هجوم الجيش المعادي الذي حاول تسلق السور بنحو أربعمائة سلم، وسد الخندق بغرائر وأزقاق محشوة حصى ورملاً. خروج جيش الخليفة من باب الظفرية وتعرضه على الأعداء مرات عديدة.

554هـ/1158م انثلام سور بغداد الشرقية بسبب ارتفاع مناسيب المياه في نهر القورج القريب من باب الظفرية.

568هـ/1172م إصلاح سور بغداد الشرقية.

569هـ/1173م تفطر سور بغداد الشرقية وحدوث ثغرات فيه بسبب ارتفاع مياه نهر القرج.

618هـ/1221م تجديد الخليفة الناصر لدين الله للسور وبناء باب الحلبة، والراجح انه انشأ باب الظفرية أيضاً في التاريخ نفسه.

632هـ/1128م وفاة الشيخ الزاهد عمر السهروردي ودفنه على جادة محلة الظفرية تجاه باب الظفرية، وبناء قبة مخروطية على ضريحه.

665هـ/1266م تشييد حاكم العراق عطا ملك الجويني قصراً ضخماً وسط بستان عظيم استجد بظاهر بغداد تجاه باب الظفرية والحلبة.

735هـ/1335م تجديد عمارة ضريح الشيخ عمر السهروردي.

850هـ/1447م اقتحام قوت جلائرية يتقدمها القائد رستم ترخان وأميرانشاه وأمير شيء الله بغداد، من ناحية باب اغجا قابو (باب الظفرية)، وكسروا بابه.

1048هـ/1638م تكليف السلطان العثماني مراد الرابع الوزير الاعظم محمد باشا باقتحام الباب الوسطاني، وتشديد الجيش العثماني هجومه على الحامية الصفوية المستمكنة وراءه ودك تابية الباب الوسطاني وتسويتها بالأرض، وكذلك التابيات المجاورة.

1084هـ/1637م انشاء والي بغداد حسين باشا السلحدار مشروعاً لنقل الماء من دجلة الى سقاية جامع الشيخ السهروردي، ثم لسقي بستان هناك قرب الباب الوسطاني.

1146هـ/1733م أقام والي بغداد احمد باشا بطاريتين مدفعيتين قرب الباب الوسطاني للدفاع عن بغداد إزاء حصار نادر شاه.

1175هـ/1761م ترميم قائم مقام بغداد عثمان أفندي بن علي بن مراد العمري الموصلي سور بغداد.

1249هـ/1833م تعمير والي بغداد علي رضا باشا اللاظ جامع الشيخ عمر السهروردي.

1273هـ/1856م بناء الأمير إسماعيل باشا العباسي واجهة جامع الشيخ عمر السهروردي المقابلة للباب الوسطاني.

1287هـ/1870م نقض والي بغداد مدحت باشا سور بغداد الشرقية، وتحويل الباب الوسطاني مقراً لسرية الدباغة من (فوج الأعمالات) الذي أسسه مدحت باشا آنذاك.

1921م اتخاذ الباب الوسطاني سجناً للخارجين عن القانون.

1938م بدء مديرية الآثار القديمة بصيانة الباب الوسطاني.

1939م تحويل الباب الوسطاني إلى متحف للأسلحة القديمة، وافتتاحه في 10 حزيران من ذلك العام.

1957م- 1958 قيام مديرية الآثار بتعلية برج الباب الوسطاني وصيانته.

1960م قيام مديرية الآثار بتوزيع المسطبة الأمامية التي يقوم عليها الممر الغربي (القنطرة الموصلة إلى الباب من جهة المدينة)، و(توزير) أكتاف القناطر التي تقوم عليها ممرات البرج، وإحاطة البرج وممراته برصيف من الخرسانة.

1961م الكشف عن مسناة الخندق المحيط بالباب الوسطاني، وأسسه وطريقة اتصاله بقنطرة الباب الخارجية.

1965م ردم المستنقع المجاور، وتسييج أرض الباب وبناء الجدار لعزل المنطقة عن المقبرة المجاورة، وإجراء ترميمات عامة في أعالي البرج من الخارج، وتصليح بياض القبة والجدران من الداخل.

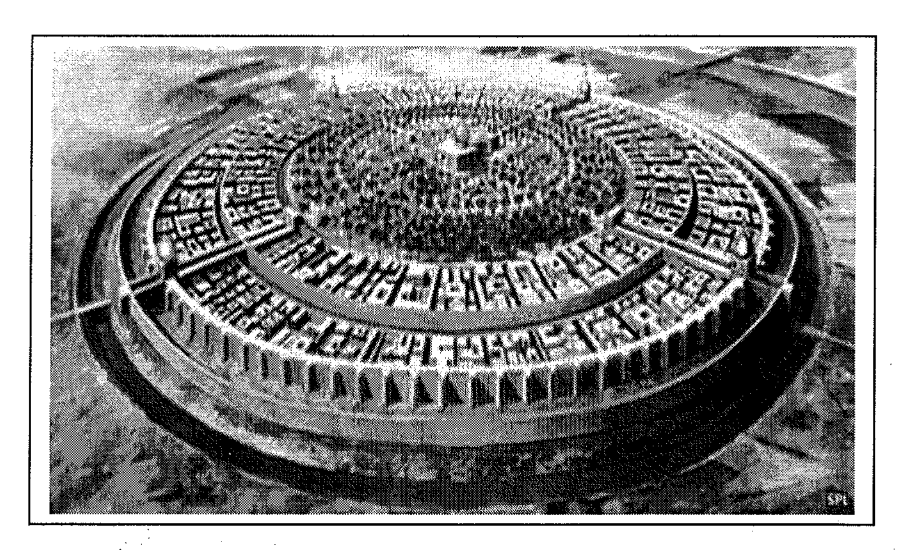
1965م إخلاء الباب الوسطاني من متحف الأسلحة القديمة.

1969- 1970م التنقيب عن جدار الخندق، والكشف عن امتداد الجدران، وأجزاء من السور واحد الأبراج. واستظهار السور الداخلي والخارجي في هذه المنطقة وأجزاء من الخندق.

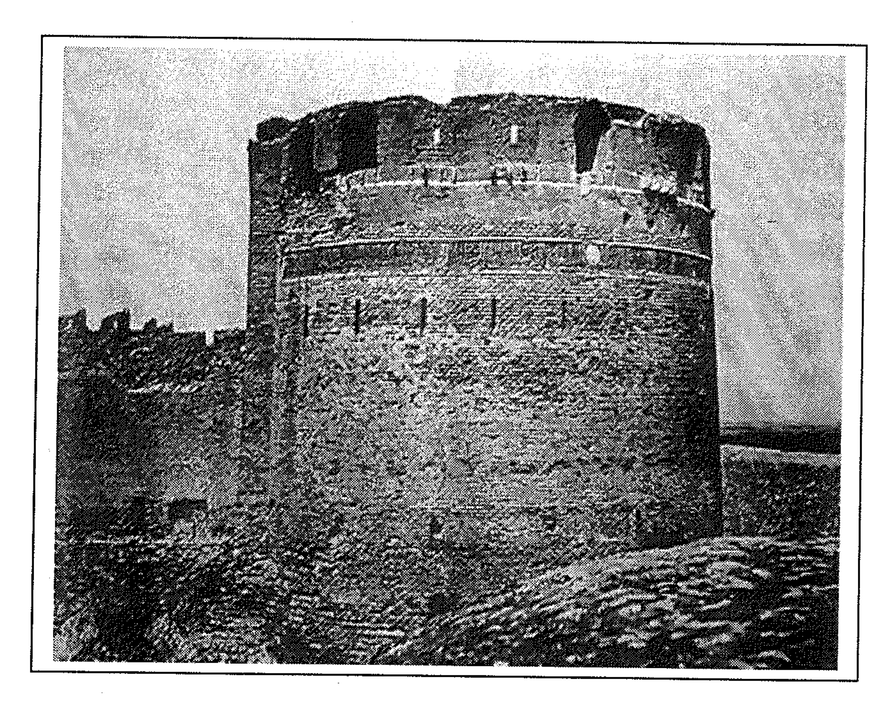
1977-1978م استظهار أسس القنطرة الكبيرة من كلا الجانبين، ثم بناء الأجزاء المتبقية منها بالأسلوب القديم نفسه، والقنطرة المجاورة، والمباشرة بتكملة

أجزاء السور الذي يعلوهما والاستمرار بصيانة السور الخارجي من جهته اليسرى، وترميم وإصلاح الفتحات العليا (المزاغل) في أعلى البرج، وتبليط سطحه بالطابوق الفرشي الحديث. وصيانة عشرين متراً من السور المحيط بالبرج، والبالغ طوله 100متر. وأعمال صيانة مختلفة أخرى، وصبها بمادة الاسمنت المقاوم، والتنقيب عن سور بغداد الشرقية من نقطة اتصاله ببرج الباب الوسطاني، باتجاه باب الطلسم المندثر، وقد تم الكشف عن أسس هذا السور ودعاماته لمسافة خمسة عشر متراً، إضافة إلى الكشف عن أسس هذا السور من الجهة الشمالية باتجاه باب المعظم لمسافة عشرين متراً، واكتشاف أحد الأبراج الكبيرة للسور وصيانته، وصيانة العقود المدببة في القنطرة الخارجية للباب الوسطاني.

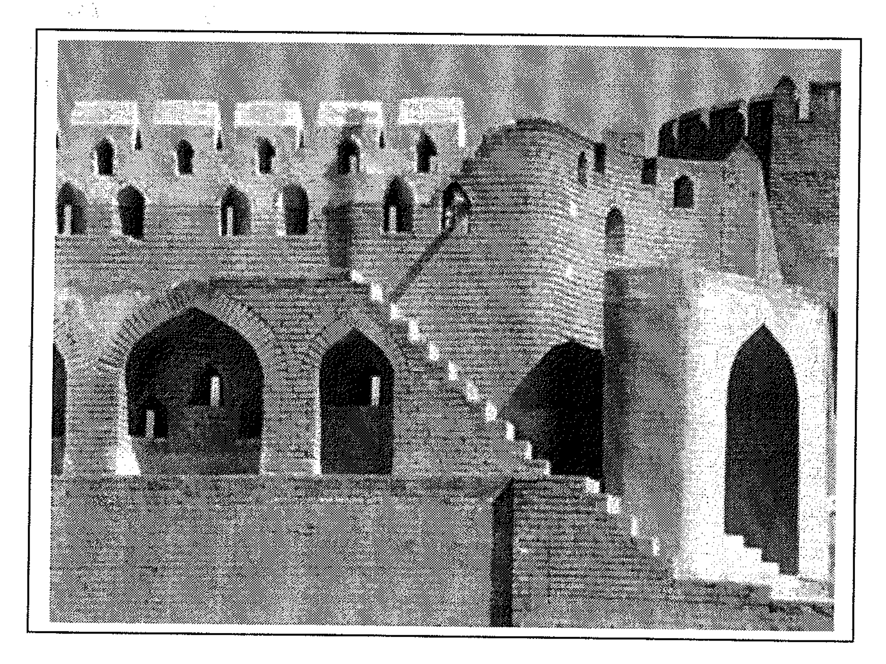
1985 استمرار أعمال الصيانة في سور الباب وبرجه، وبناء 123متراً مربعاً خلف نقاط العمل، وتطبيق 78 متراً مربعاً بالطابوق الفرشي، وأعمال بناء في السور الدائري المحيط ببرج الباب من الجهة الجنوبية.



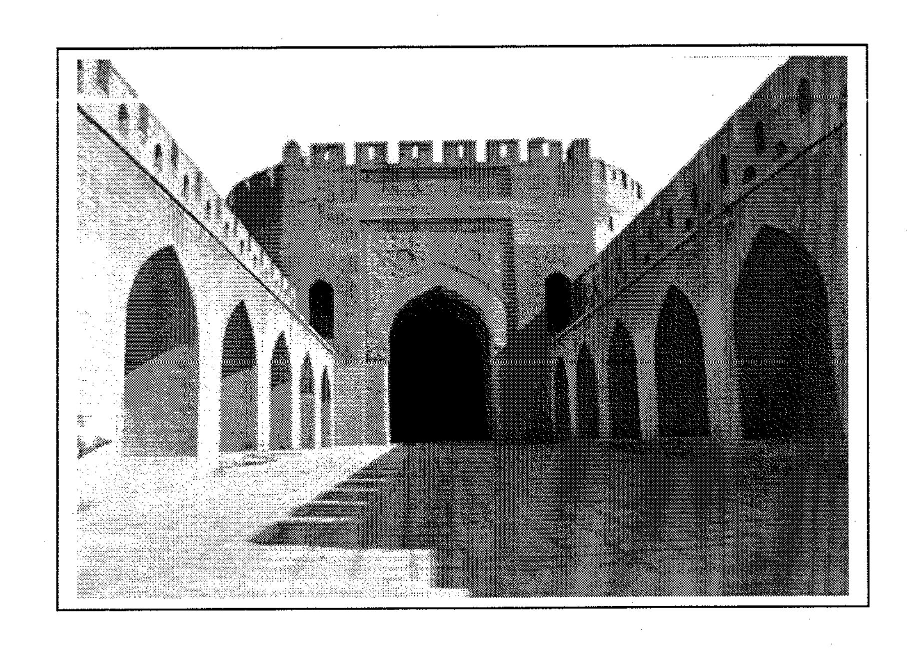
المدينة المدورة وتظهر فيها أبوابها المحصنة



المدينة المدورة وتظهر فيها مداخلها المحصنة المزورة



الباب الوسطاني سنة 1952



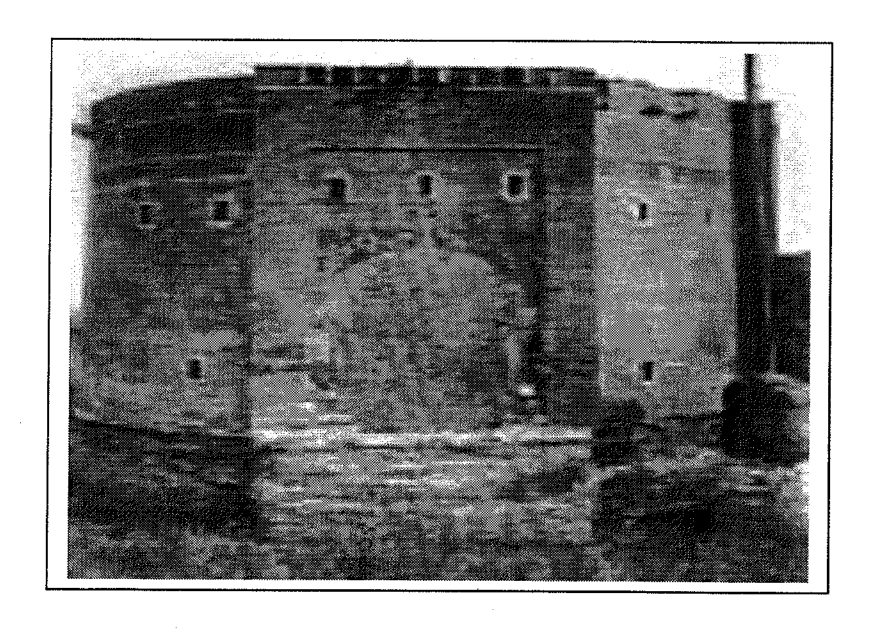
جانب خارجي من الباب الوسطاني



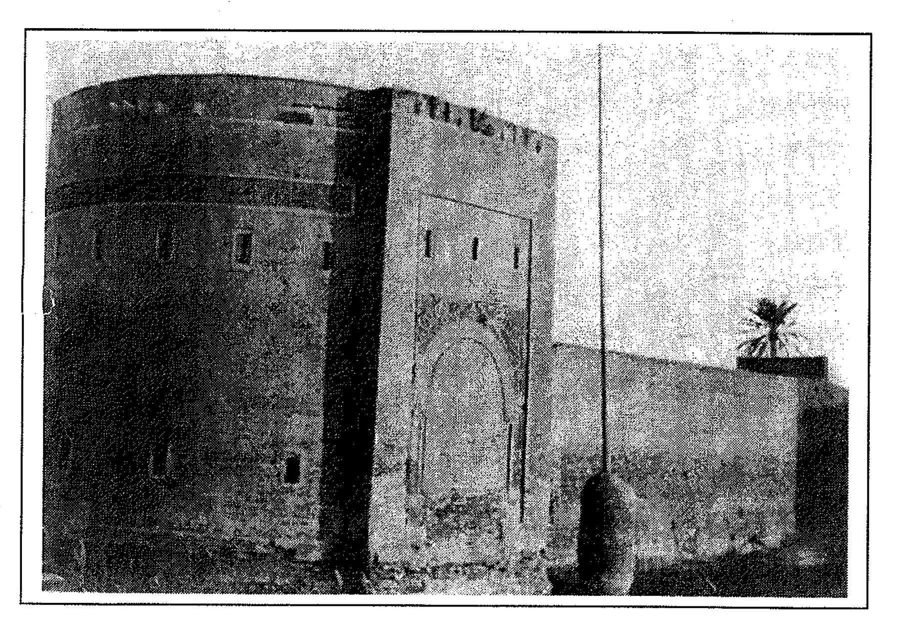
برج الباب الشرقي ببغداد ويسمى باب (كلواذي) وباب الحلبة وباب الخليج

AL-BAB AL-SHARQI (THE SOUTHERN GATE) OF BAGHDAD BE-
FORE ITS DESTRUCTION

الباب الشرقي (باب كلواذى)



المدخل المغلق لباب الطلسم



جانب من باب الطلسم

[1] جميع الإشارات هنا إلى الذراع يقصد بها الذراع السوداء العباسية= 54,04سم

[2] اليعقوبي: البلدان ص18.

[3] يراجع علي مهدي محمد: الاخيضر، بغداد 1969.

[4] الطبري: تاريخ ج3 ص 1551طبعة ليدن.

[5] معجم البلدان، مادة قراح.

[6] ينظر سعاد هادي العمري: بغداد كما وصفها السياح الأجانب ص15.

[7] ابن الجوزي: مناقب بغداد 17، والمنتظم ج9 ص81 و244.

[8] حاجي خليفة: جهان نامه، نقلاً عن بغداد كما وصفها السواح الأجانب ص 15.

[9] محمد رؤوف الشيخلي: مراحل الحياة في الفترة المظلمة ج1 ص 55.

[10] في أثناء القيام بحفر أسس قواعد طريق محمد ابن القاسم الدائر حول بغداد الشرقية سنة 1979- 1980، عثر على أسس بناء متين على هيئة قوس كبير من الآجر، فظن البعض أنه أسس باب الحلبة (باب الطلسم)، وقامت المؤسسة العامة للآثار والتراث باستظهار 85٪ من هذه الأسس البالغ طولها 100 م، لتبدو شاخصة للعيان، وبما أن هذه الأسس بلغت من الطول ما لايناسب والمعلومات المتوفرة عن حجم باب الطلسم، وهو لايزيد أن يكون برجاً اسطوانياً مثله مثل الباب الوسطاني، فقد ذهبت الهيئة العامة في الموقع في تقرير لها إلا أن هذه الأسس هي للمسناة الخارجية التي كانت تحيط بالخندق الذي يقع برج الباب في وسطه.

[11] صورة الباب كما رسمها بيكنكهام سنة 1816.

[12] محمد رؤوف الشيخلي: مراحل الحياة للفترة المظلمة ج1 ص55

[13] العقد اللامع في آثار بغداد والمساجد والجوامع، بتحقيقنا، بغداد 2004، ص114.

[14] معجم البلدان، مادة قراح،

[15] رحلة بكنكهام سنة 1816 ترجمة سليم طه التكريتي ج1 ص192

[16] ابن الجوزي:مناقب بغداد، بغداد 1342، ص19.

[17] الحوادث المنسوب لابن الفوطي، ص103، بتحقيقنا بالمشاركة، بيروت 1997.

[18] ج4 ص61

[19] كتاب الحوادث ص389

[20] عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج2 ص133.

[21] أحمد الغرابي: عيون أخبار الأعيان، نسخة باريس، الورقة 210.

[22] عبد الله بن فتح الله الغياث البغدادي: التاريخ الغياثي، تحقيق طارق الحمداني، بغداد 1975، ص248.

[23] أحمد سوسة ومصطفى جواد: دليل خارطة بغداد، بغداد 1958، ص272.

[24] عبادة: العقد اللامع ص102.

[25] رحلة بكنكهام، ترجمة سليم طه التكريتي ج1 ص191.

[26] هو إسماعيل باشا الثاني بن محمد طيار باشا، آخر امراء العمادية وأعمالها، انتهى حكمه بسقوط إمارته سنة 1258هـ/ 1842م. ينظر كتابنا: المعجم التاريخي لإمارة بهدينان، أربيل 2010، ص39-44.

[27] محمود شكري الآلوسي: مساجد بغداد وآثارها، بغداد 1924، ص!

[28] مرتضى آل نظمي: كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد 1971، ص277

[29] كتابنا: معالم بغداد في القرون المتأخرة بغداد 2000، ص279..

[30] رحلة نيبور إلى العراق، ترجمة محمود الأمين، بغداد 1966، ص31.

[31] عبد الرحمن السويدي: تاريخ حوادث بغداد والبصرة، بتحقيقنا، ط:2، بغداد 1987، ص97.

[32] انظر اطلس بغداد للدكتور أحمد سوسة، بغداد 1951، خوارط نيبور، وجونز، ورشيد الخوجة ص 14،15،16.

دراسات تراثية

في البلدان والتراجم وأدب الرحلات

دراسات تراثية في البلدان والتراجم وأدب الرحلات- الجزء الاول

المؤلف: د. عماد عبد السلام رؤوف

الطبعة الاولى ٢٠١٩م- ١٤٤٠هـ



مكتب التفسير

للطبع والنشر

أربيل - الشارع الثلاثيني قرب المنارة المظفرية

+964 750 818 08 66

www.al-tafseer.com

tafseeroffice@yahoo.com

/TafseerOffice

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مكتب التفسير

رؤوف، عماد عبد السلام

دراسات تراثية في البلدان والتراجم وأدب الرحلات ، د. عماد عبد السلام رؤوف(المؤلف)

٧٥٨ ص.

١٧* ٢٤ سم

١-التاريخ .٢-الرحلات. أ.العنوان. ب.السلسلة

ISBN: 978-9922-620-30-5

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة - إقليم كوردستان (٢٤٥) لسنة ٢٠١٩

خط الغلاف : نوزاد كويي

جامع القبلانية
وريث مدرسة الطب المستنصرية

جامع القبلانية جامع قديم يرقى الى اواخر القرن الحادي عشر للهجرة، أنشإه والي بغداد مصطفى قبلان باشا، وإليه نسب، وشغل موقعاً مهماً ﻓﻲ الجانب الشرقي من بغداد، حيث يتوسط منطقة الأسواق المحيطة بالمدرسة المستنصرية، ويلقي تاريخه ضوء على هوية ما كان بشغل موقعه ﻓﻲ العصر العباسي، وما يحيط به من منشات .

فأين كان موقع هذا الجامع من محلات ذلك العصر التالد؟

يقع الجامع ﻓﻲ أرض محلة كبيرة من محلات الجانب الشرقي من بغداد، عرفت بمحلة سوق الثلاثاء، تشتمل على عدد من الدروب التي ألف كل منها محلات قائمة بذاتها، وتؤلف قوساً كبيراً قاعدته نهر دجلة، وتحده من الشمال محلة سوق السلطان (سوق الميدان وشارع القشلة وسوق السراي وشارع المتنبي حالياً)، ومن الشرق درب الخبازين (محلة العاقولية) ومحلة فراشا (سوق باب الآغا). وبمضى هذا القوس جنوباً حتى ينعطف ﻓﻲ درب كان يعرف بدرب المسعودة (سوق الصفافير)، وهذا ما يتضح من قول ابن عبدالحق ﻓﻲ المراصد ﻓﻲ مادة المسعودة «وأما الذي ﻓﻲ عقار النظامية فهو درب نافذ يعرف بدرب المسعودة ينفذ الى درب دينار الصغير»[1]، ويتصل درب المسعودة ﻓﻲ نهايته بدرب يتعامد معه كان يعرف بدرب السلسلة وهو المعروف ﻓﻲ العهود المتأخرة بدرب الزنجير (وحالياً بدرب الزنجيل). ويؤلف هذا الدرب حداً من حدود المدرسة النظامية، بينما تطل المدرسة من الجهة الأخرى على درب عريض كان يعرف بعقار المدرسة نسبة إليها، ويتصل هذا العقار بدرب طويل مواز لنهر دجلة عرف ﻓﻲ العصر العباسي بدرب دينار الصغير، وهو ما قصده صاحب المراصد. وهذا الدرب هو ما عرف ﻓﻲ العهود المتأخرة بسوق الخفافين وسوق البزازين ويحاذيه سوق الهرج (سوق السرجخانه)، وكانت تطل عليه منشآت مهمة هي على التوالي مسجد الحظائر ثم المدرسة المستنصرية فدار قرآنها (جامع الآصفية)، ويتصل الدرب هناك على نحو متعامد

(1) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الاطلاع ص 370 (حجر ايران).

بدرب كان يعرف بدرب دينار الكبير، وهو يتصل من جهة الشمال، أي من جهة النهر، بمشرعة درب دينار، ومن جهة اليمين يمضى مشرقاً باتجاه قلب بغداد (ساحة الرصافي حالياً وما بعدها)، اي أنه كان في أرض شارع المأمون الحالي (الدنكجية وعقد الصخر في أوائل القرن الماضي) وهذا ما يتفق ووصف ياقوت لهذه المحلة بقوله «هي في الجانب الشرقي قرب سوق الثلاثاء بينه وبين دجلة»[1]. وقول ابن عبدالحق عن دار دينار أنهما «محلتان ببغداد يقال لإحداهما الكبرى وللأخرى دار دينار الصغرى»[2]. ومما يعين موقع مشرعة درب دينار قول ابن الدبيثي في ترجمة محمد بن عبد الرحمن اللمغاني، أنه «درس بالمدرسة التتشية بمشرعة درب دينار»[3]، فمن الثابت – بدلالة عدد كبير من النصوص[4]، ان تلك المدرسة كانت في أرض جامع الوزير الحالي، وأن المشرعة المذكورة كانت في محل جسر الشهداء على ما تقدم، وهناك كان ملتقى درب دينار الصغير بدرب دينار الكبير .

ومن المؤكد أن درب دينار الصغير الذي عينا موقعه فيما تقدم، كان يختلف في شكله وسعته عما عليه سوق الهرج وسوق البزازين اللذين لبثا يشغلان أرضه حتى نقض أولهما في سبعينات القرن الماضي، ونرجح أن يكونا مدمجين ببعضهما خاصة في العصور العباسية الاخيرة، وذلك لأنه من المستبعد ان يكون السوق الذي تطل عليه المستنصرية بجدرانها العالية الفخمة، بالضيق الذي كنا نراه في سوق الهرج المجاور لها. كما أن من البعيد أن يكون هذا السوق موجوداً أمام باب المدرسة، لأن من شأنه أن يحجب منظر ذلك الباب العالي الفريد في فنه وزخارفه، وإلا فما قيمة هذا الباب ان لم يكن بينه وبين ما يقابله من دكاكين فسحة تسمح بالتمتع برؤيته (يبلغ ارتفاعه حوالي 7،8 متراً)، وعليه فمن الطبيعي أن تكون أمام الباب فسحة كافية تتناسب وأهميته، وتمتد فتشمل ما يقابله من سوقي الهرج (السرجخانه)، والبزازين، حتى موقع جامع القبلانية الحالي، وهذا ما ينطبق على

---

(1) ياقوت: معجم البلدان ج2 ص419 (بيروت 1956)

(2) المصدر نفسه

(3) الذهبي: المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي، بتحقيق مصطفى جواد (ج2 ص315 المستدرك).

(4) انظر مقالة الدكتور مصطفى جواد في مجلة الثقافة الاسلامية 3 ج7 (1958) وكتابنا: مدارس بغداد في العصر العباسي ص48 – 49

جدران المدرسة الخارجية الأخرى. ومن المعروف أن المدرسة المستنصرية كانت قد أنشئت على أرض محلة صغيرة تسمى حظائر الشوك، نسب اليها مسجد الحظائر القريب من المدرسة (جامع الخفافين الحالي). وأن هذه المحلة تعرضت للتغيير عند إنشاء المستنصرية، وذلك لكي تحاط هذه المدرسة الجديدة بطرق عريضة تحل محل الأزقة القديمة لتلك المحلة، فقد حفظ لنا التاريخ بعض أسماء تلك الأزقة، منها درب دينار الصغير المذكور آنفاً، ودرب محاذ لها يبدو أنه كان ملاصقاً لحظائر الشوك (موقع المستنصرية) وينفذ الى سوق المدرسة التتنشية (سوق السراجين الحالي قرب جامع الوزير) ومن الراجح أن يكون درب دينار الصغير قد أصابته توسعة عند بناء المستنصرية فشمل ذلك الدرب، أي انه شمل أرض سوقي الهرج والبزازين الحاليين تقريباً، وهذا يفسر عدم ورود أي إشارة الى درب يتصل بدرب دينار الكبير غير درب دينار الصغير منذ تشييد المسنصرية في الثلث الاول من القرن السابع للهجرة، بل حتى قبل ذلك العهد أيضاً[1] ، أما الشكل الحالي لسوق الهرج (قبل نقضه) والبزازين فنعتقد بأنه من نتاج الحكم العثماني في بغداد، حيث يذكر مرتضى نظمي زاده ان الوالي حسين باشا السلاحدار أنشأ سوقاً في باب المدرسة المستنصرية. ومما يؤكد ذلك كون هذا السوق قد غطى جانبا كبيرا من جدار المدرسة الخارجي وانه اضاع الكثير من النقوش والكتابات التي كانت تزين ذلك الجداروهذا ما لا يمكن أن يرتقي الى عصر بناء المدرسة.

وهكذا توضح أن موقع جامع القبلانية كان مقابلاً لمدخل المدرسة المستنصرية، لا يفصل بينهما فاصل، الا درب دينار الصغير. ومن الصعب التوصل الى ما كان يشغله هذا الموقع في ذلك العصر، فقد حفل هذا الدرب، ومحلة دار دينار، بعدة منشآت شهيرة نجهل -لقلة النصوص- تحديد مواقعها، منها مسجد سديد الدولة الجلائري المشيد على أنقاض كنيسة قديمة[2]، ومدرسة أبو الفرج

---

(1) انظر ابن الجوزي: المنتظم، طبعة حيدر أباد ج10 ص 245

(2) شيد هذا الجامع سنة 734 هـ حين قام سديد الدولة الجلائري بهدم كنيسة كبيرة في درب دينار وتشييده في مكانها، قال ابن الوردي في حوادث السنة المذكورة: "وشرع في عمارة جامع بدرب دينار وكانت بيعة كبيرة جداً" وكل ما نعرفه عن هذه البيعة (الكنيسة) أنها كانت من الاتساع بحيث وسعت يوم دخول هولاكو بغداد سنة 656هـ/1258م جميع نصارى المدينة، كما أنها ضمت في أرضها، رفات عدد كبير من كهنة النصارى، منهم المطران كيوركيس

ابن الجوزي، ومسجد الشريف ابي الحسن علي بن أحمد العلوي الزيدي، وإيوان الطب الشهير التابع للمدرسة المستنصرية، فأما المنشأة الأولى فلم نجد ما يحدد موقعها من درب دينار على الرغم من اتساعها وضخامتها التي نوه بها المؤرخون، وبالتالي لم نجد ما يحملنا على ترجيح كونها أصل للقبلانيةاً، وهكذا الأمر بالنسبة لمدرسة ابن الجوزي، واما المنشأة الثالثة، وهي مسجد الشريف الزيدي فقد ذهب المرحوم الدكتور مصطفى جواد في الى انه هو جامع القبلانية[1].

ولمناقشة هذا الرأي لابد من عرض ما ورد من نصوص عن مسجد الزيدي، على النحو الاتي:

1- قال يوسف سبط ابن الجوزي (ت 654هـ) في ترجمة علي بن أحمد الزيدي المتوفى سنة 584هـ أنه اشترى «داراً بدرب دينار الصغير، وبناها مسجداً، واشترى بباقي الذهب كتباً ووقفها في المسجد ينتفع بها وهي باقية هلم جرا، ، ودفن في المسجد المذكور»[2] .

2- وقال محمد بن سعيد ابن الدبيثي (ت 637هـ/1239م) في تاريخه «وقف الزيدي كتبه قبل موته على المسلمين كافة وجعلها في موضع مسجده الذي كان يؤم به الناس في أوقات الصلوات بدار دينار الصغير بسوق الثلاثاء من شرقي بغداد وشركه فيه رفيقه صبيح بن عبد الله عتيق نصر بن العطار في وقفه لها أيضاً، وكانت كثيرة انتفع الناس بها .. وتوفي في منزله المجاور لمسجده ودفن فيه»[3] .

والجثالقة يشوعاب الخامس (ت 1175م) وايليا الثالث (1190م) وكيخا الثاني ونحا (ت 1281م) وغيرهم، مما يشير الى أهميتها آنذاك، وكانت تعرف ببيعة سوق الثلاثاء، بحسبان ان سوق الثلاثاء كان يشمل محلة دينار وما فيها، أو بيعة دار دينار، وما تواتر عنها من أخبار لا يكفي لتحديد موقعها، وبالتالي موضع الجامع الذي قام على أنقاضها. انظر دليل خارطة بغداد ص198 -199 ورفائيل بابو اسحق: احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية ص84 — 85.

(1) انظر له مثلاً: الاخاء في الثقافة ووقف الكتب، في مجلة الحضارة 33 و 34 السنة 1945م، خارطة بغداد المفصل ص174-175، والذهبي: المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ج2 ص115 وتلخيص مجمع الآداب بتحقيقه ايضاً ج4 ق2 ص665 و 744 وبغداد مدينة السلام لكوك (الترجمة العربية) ج1 ص57 وتابعه ترجيحاً الاستاذ كوركيس عواد في مقالة (خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي) في مجلة سومر 1 (1946م) ص229.

(2) مرآة الزمان ج8 ص227 (طبعة شيكاغو).

(3) كوركيس عواد: خزانة كتب الوقف في مجلة سومر (1946م) ص229.

3- وقال المؤرخ نفسه في ترجمة صبيح بن عبد الله المذكور في النص السابق «وشارك صبيح الشريف أبا الحسن الزيدي في وقف الكتب الكثيرة بالمسجد وكان يتولى خزنها وإعارتها الى حين وفاته (سنة 584هـ) وكان خيراً»[1].

4- وقال محب الدين محمد بن النجار (ت643هـ/1245م)، سمعت أبا الفضل عبد الله محمد بن عبد الله العليمي يقول لما كان اخي (عمر بن محمد بن عبد الله) ببغداد يسمع الحديث عاهد الشريف ابا الحسن الزيدي وصبيحا النصري ان يوقف كتبه وأجزاءه ويرسلها الى بغداد لتكون في خزانتها فلما مرض مرض الموت أوصى الي بذلك، فلما توفي (سنة 574 بدمشق) انفذتها الى بغداد، الى مسجد الشريف الزيدي، قال مجد الدين: وصلت الكتب الى بغداد بعد وفاة الزيدي فتسلمها صبيح وهي الآن (سنة 643هـ) في خزانة الزيدي رحمة الله عليهم جميعاً»[2].

5- وذكر ابن خلكان في ترجمة ياقوت الحموي الرومي البغدادي ما نصه «وكان ياقوت قد وقف كتبه على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد وسلمها الى الشيخ عز الدين ابي الحسن علي بن الاثير صاحب التاريخ الكبير فحملها الى هناك»[3].

6- ويمكن إكمال هذا النص أو اصلاحه بما ذكره القفطي في (انباء الرواة)، قال عند الكلام على كتب ياقوت ووقفها «وقبل موته أوصى بأوراقه ومجموعاته الى العز بن الأثير الموصلي وكان مقيما بحلب، وعهد اليه أن يُسيِّرها الى وقف الزيدي ببغداد ويسلمها الى الناظر فيه الشيخ عبدالعزيز بن دلف»[4].

ويبدو مما ذكره سبط ابن الجوزي (النص رقم 1) ان مسجد الشريف الزيدي كان أصله داراً، إن الذي ابتناه مسجداً هو الزيدي المذكور، وأنه وقف الكتب التي اشتراها في المسجد أي دون أن يكون لها دار خاصة بها، ولما توفي الزيدي دفن في المسجد نفسه، بمعنى أن ليس هناك غير هذا المسجد، وهو ما يفهم أيضاً مما ذكره المؤرخ ابن الدبيثي في النص رقم (3).

---

(1) المختصر المحتاج اليه للذهبي حاشية ص12 ج2.

(2) مصطفى جواد: الاخاء في الثقافة، في مجلة الحضارة ج34 (1945م).

(3) وفيات الاعيان وإنباء أبناء الزمان ج2 ص318.

(4) قال ابن رجب (ذيل طبقات الحنابلة ج2 ص218) في ترجمة عبد العزيز بن دلف هذا "وولي نظر خزانة الكتب بمسجد الشريف الزيدي" وكانت وفاته سنة 637هـ.

واما نص ابن الدبيثي رقم (3) فيتبين منه أن للزيدي داراً مجاورة للمسجد، وأنه دفن في هذا الدار، وهذا يعني أن له اضافة الى المسجد الذي أنشأه ووقف فيه الكتب، داراً لسكنه الخاص.

ويظهر من النصوص (4-6) انه كان لكتبه الموقوفة خزانة خاصة بها، على أن ذلك لايعني ان تكون هناك دار خاصة تحتويها، وعلى اية حال فمن الواضح انه كان لهذا المسجد وكتبه شهرة في ذلك العصر.. وقد ذكره النسابة احمد بن علي الحسني المعروف بابن عنبة (المتوفى سنة 828هـ)، وقال «الشريف الزيدي المحدث صاحب الوقف ببغداد»[1].ولا ندري الى اي عهد بقي هذا المسجد بعد ذلك.

على أن هناك مؤسسة مهمة أخرى، نرى انها اكثر احتمالاً لأن تكونٍ أصل جامع القبلانية، تلك هي (ايوان الطب) التابع للمدرسة المستنصرية، فقد ذكر غير واحد من المؤرخين أنه كان مقابلاً للمدرسة المذكورة، وهو وصف ينطبق تماماً على موقع جامع القبلانية[2]، فإنه يقابل بابها الرئيس، وتتضح أهمية هذا الإيوان من وصف المؤرخين له، فقد أجمعوا على أنه كان أعجوبة عصره في الفن، حيث احتوى على ساعة مركبة لمعرفة الوقت ومدرسة لتعليم الطبابة، وصيدلية لحفظ الأدوية والعقاقير. قال صاحب الحوادث في حوادث سنة 633هـ/1233م مانصه «وفيها تكامل بناء الإيوان الذي أنشئ مقابل المدرسة المستنصرية، وعمل تحته صُفَّة يجلس فيها الطبيب، وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب، ويقصده المرضى فيداويهم، وبنى في حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك، وجعل فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة، وفي الدائرة بازان من ذهب وراءهما بندقيتان من شبه لا يدركهما الناظر، فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات والباب من ذهب، فيصير حينئذ مفضضاً، وإذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى

---

(1) ابن عنبه: عمدة الطالب في أنساب الى أبي طالب ص296 (الحيدرية 1381هـ/1961م).

(2) كنا قد توصلنا الى هذا الرأي في بحثنا (جامع القبلانية) المنشور في مجلة الرسالة الاسلامية، بغداد 1071، ثم أننا حققنا في سنة 2006 كتاباً مخطوطاً تأليف السيد محمد سعيد الراوي في أخبار مساجد بغداد، ولم يضع له عنواناً، فوجدناه يذهب إلى الرأي نفسه، وقد حققنا الكتاب فيما بعد ونشرناه، بغداد 2013 بغنون (خير الزاد في تاريخ جوامع ومساجد بغداد)

مواضعهما، ثم تطلع أقمار (كذا ولعلها شموس) من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية، وتدور مع دورانها، وتغيب مع غيبوبتها فاذا جاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم يبتدئ في الدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة، ونظم الشعراء في ذلك أشعاراً، منها قول أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، من أبيات مدح بها الخليفة (وذكر شعراً)[1].

ويؤيد هذا ما ذكره عبد الرحمن سنبط بن قنيتو الاربلي (ت717هـ) إذ قال: «وجعل (المستنصر) فيها طبيب حاذق ماهر، وأثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه في علم الطب، وجعل لهم الأكحال السائلة، وبنيت لهم صفة فاخرة مقابلة للمدرسة، يجلس فيها الطبيب فيقصده المرضى فيداويهم»[2]، ثم ذكر ما يشبه نص صاحب الحوادث عن الساعة العجيبة، فلا حاجة لنقله. وذكر ابن الفوطي في ترجمة علاء الدين الإربلي (مار الذكر) أنه «حصل له الجلوس في إيوان الطب تجاه المدرسة المستنصرية»[3].

يتضح مما تقدم من نصوص أن هذا الايوان «المقابل للمدرسة المستنصرية» كان مدرسة لدراسة الطب، وكان من واجبات الطبيب المشرف عليه علاج المرضى من طلاب المدرسة وغيرهم الى جانب قيامه بتدريس الطب، وأنه ألحق بهذا المعهد الطبي صيدلية تصرف الدواء بالمجان[4]، وأشهر من درس فيه: أبو منصور الصباغ المنعوت بالشمس (ت 683هـ) ومجد الدين عبدالمجيد ابن عبد الله المعروف بسنجر (ت 715 هـ) وعلاء الدين علي الإربلي (ت؟) ويوسف المعروف بأبن الكتبي الشافعي (ت755هـ)[5].

ولا ندري الى اي عصر بقيت هذه المؤسسة النافعة ، الا ان تأكيد المؤرخين على انها كانت مقابلة للمستنصرية يدفعنا الى القول بأنها هي أصل جامع القبلانية الحالي كما قدمنا، فهذا الجامع تجاهها تماماً، أو بأتجاه بابها الرئيس على وجه

(1) الحوادث المسمى بالحوادث الجامعة، بتحقيقنا وبشار عواد معروف، بيروت 1997 ص 112

(2) خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ص 287.

(3) تلخيص مجمع الآداب ق1 ج4 ص1062 — 1063.

(4) انظر حسين أمين، المدرسة المستنصرية ص 55– 57.

(5) ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية ص243 — 249.

الدقة. أما (مسجد الشريف الزيدي) فلا نعلم من مكانه الا أنه كان في درب دينار الصغير، وهو تحديد عام شامل يعسر تعيين أرضه حسب المواقع الحالية.

أن استبعاد أن يكون مسجد الزيدي هو نفسه جامع القبلانية، يعني أن القبر الموجود في الأخير، ليس هو قبر الشريف الزيدي، فمن صاحب القبر الحقيقي اذن؟ والحق أننا لم نجد نصاً يشير الى دفن أحد المشاهير في (إيوان الطب) المذكور، في حين أن هناك عدة أقوال -بعضها قديم- تذهب الى نسبة القبر الى بعض الأولياء والصلحاء، نناقشها كما يلي:

اولاً- جاء على اللوح الرخام الذي على باب المرقد من جهة بيت الصلاة كتابة من سطرين، نصها (﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] **هذا المرقد الشريف مرقد الشيخ محمد مؤلف القدوري وشيخ محمد الوتري**).

ويصعب تحديد عمر هذه الرخامة على وجه الدقة إلا أنه يفهم مما ذكره المؤرخ مرتضى نظمي زاده (المتوفى سنة 1133هـ/1720م أو سنة 1136هـ/1723م) أن نسبة القبر الى المتسمى بمحمد القدوري كانت شائعة منتشرة قبل تجديد الجامع سنة 1088هـ/1677م على يد الوالي مصطفى قبلان باشا، فقد جاء في كتابه، (كلشن خلفا) بالتركية، أن الباشا تعلق نظره بجامع الشيخ محمد القدوري، وفيه مرقده الأنور، الكائن في سوق السراجين[1]. يؤيده ما ذكر المؤرخ نفسه في كتابه الآخر المسمى (جامع الأنوار في تراجم الأبرار -او الاخيار-)، وهو بالتركية أيضاً، فقد نقل فيه ترجمة الشيخ أحمد بن محمد القدوري عن تاريخ ابن خلكان، مضيفاً إليها أن «مدفنه كائن في سوق السرجخانة، تزوره الأنس والجان».[2] وفي النسخة المعربة من الكتاب ما يشبه كلامه مع إضافة سنذكرها بعد قليل، كما ذكره في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) المؤرخ الموصلي ياسين بن خير الله العمري إذ قال«مرقد القدوري في بغداد متصل بالسراج خانة»[3] وفي كتاب مختصر المستفاد لأصفر إشارة له ايضاً[1].

---

(1) كلشن خلفا، بالتركية، ظهر الورقة 103.

(2) جامع الانوار وجه 68 (مخطوط نسخة الأوقاف)

(3) غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ص36 ، بغداد 1968

وتنص الرخامة على أن المدفون هو (شيخ محمد مؤلف القدوري)، وهو نفس الاسم الذي ذكره مرتضى نظمي زاده في كتابيه (كلشن خلفا)، و(جامع الانوار) واسم القدوري، مؤلف المختصر المشهور، هو أحمد بن محمد، فهل يمكن أن يكون القبر لأحمد القدوري صاحب الترجمة التي نقلها مرتضى عن ابن خلكان؟ هذا ما سنحاول تبيانه فيما يلي من سطور.

ولد أحمد القدوري سنة 362هـ، وتوفي سنة 428هـ وكان قد «انتهت اليه رياسة الحنفية بالعراق، وكان حسن العبارة في النظر، وسمع الحديث، وروى عنه أبو بكر الخطيب صاحب التاريخ، وصنف في مذهبه المختصر المشهور».[2] وعلى الرغم من كثرة مترجميه فأن أحداً منهم لم يذكر مدفنه بالقبلانية أو موقعه. جاء في ترجمته كما رواها الخطيب أنه «مات القدوري في يوم الأحد الخامس من رجب سنة ثمان وعشرين واربعمائة، ودفن من يومه في داره بدرب أبي خلف»[3] وزاد ابن خلكان أنه «نقل الى تربة في شارع المنصور ودفن هناك بجنب أبي بكر الخوارزمي الفقيه الحنفي»[4]. وشارع المنصور هذا كان من شوارع الجانب الغربي، في نواحي مدينة المنصور المدورة، قريباً من الكرخ[5] ، أما درب أبي خلف ، فهو[6] من دروب غربي بغداد أيضاً، فضلاً عن تصريح المؤرخين بأن موقع قبر ابي بكر الخوارزمي (آنف الذكر) كان في سويقة غالب[7] وهي سويقة ثبت انها كانت في غربي بغداد[8].

وحاول بعض الكتاب المتأخرين أن يصل بين شارع المنصور، وجامع القبلانية، على الرغم من وقوع كل منهما في جانب من بغداد، وفي عصر مختلف، فذكر الشيخ صفاء الدين عيسى البندنيجي (ت1283هـ/1866م) في تعريبه لكتاب جامع

---

(1) مختصر المستفاد من تاريخ بغداد ص 165 (مخطوط نسخة الدار العراقية للمحطوطات).

(2) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج1 ص60 الترجمة 29.

(3) تاريخ بغداد ج4 ص 277.

(4) وفيات الاعيان ج1 ص60.

(5) قال الخطيب (تاريخ بغداد ج1 ص113) عند كلامه على نهر يمر الى دار كعب ثم يخرج الى باب الكرخ).

(6) انظر : محمد بن عبد الملك الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ج1 ص182.

(7) الجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي ج2 ص135.

(8) تاريخ بغداد ج1 ص88 ولسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية ص 67.

الانوار لمرتضى نظمي زاده، عند ترجمة القدوري ما نصه «قلت: ومدفنه يومئذ كان مشهوراً بشارع المنصور، وفي عصر المؤلف (يعني مرتضى نظمي زاده) حدث بجنبه سوق للسراجين فلذلك قال: مدفنه في سوق السراجين. والآن ذلك السوق هو سوق الهرج الذي يباع فيه الأمتعة والعروض بقرب الجسر، وقبره في الجامع الشهير بالقبلاني، الواقع في السوق المذكور، بناه أحد الوزراء المبعوثين»[1]، ومثله ما ذكره السيد محمود شكري الالوسي في أوائل هذا القرن إذ قال «وفي هذا المسجد مرقد أبي الحسين أحمد القدوري الفقيه الحنفي الشهير، وكان من رؤساء المذهب، توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ودفن في بيته، ثم نقل منه في جوار الفقيه أبي بكر الخوارزمي الحنفي في شارع المنصور في جانب الرصافة، وهو اليوم هذا المسجد، ومعه جمع من قبور بعض الصالحين»[2].

والاحتمال الذي نتصوره لهذه النسبة أن هناك من لقب بالقدوري، ودفن في الجامع، أو في أرضه قبل أن يحري إنشاؤه، فغلب على الناس انه مؤلف المختصر المشهور، وهذا الخلط في نسبة اصحاب القبور كثير الحدوث في خطط بغداد، فلا نستبعده هنا ايضاً.

ثانياً: في الرخامة القديمة المثبتة على باب الحجرة، ما يشير الى وجود دفين آخر، على الرغم من أن الحجرة لا تضم إلا قبراً واحداً فقط، فقد جاء فيها ما نصه: «.. هذا المرقد الشريف مرقد الشيخ محمد مؤلف القدوري وشيخ محمد الوتري».

ولم يذكر مرتضى نظمي زاده هذا الاسم الثاني في خبره عن تجديد قبلان مصطفى باشا للجامع سنة 1088هـ، الا انه ذكره في كتابه (جامع الانوار) حيث قال« الشيخ محمد الوتري انه كشاف الحقائق، حلال الدقايق، صرف أكثر أوقاته في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) ..الخ، ثم ذكر أن مزاره ببغداد في سوق السراجخانة قرب الشيخ محمد القدوري»[3]. وقد عرَّب صفاء الدين عيسى البندنيجي هذا الكلام بصورة حرفية تقريباً، وقال: «توفي في بغداد، ودفن في سوق السراجين في مرقد الشيخ احمد القدوري، قلت: وقد سبق في ترجمة أحمد

(1) جامع الانوار في تراجم الوجوه والاعيان ص 481 (مخطوط).
(2) الالوسي: مساجد بغداد وآثارها ص 59 (بتهذيب الاثري).
(3) جامع الانوار، ظهر الورقة 88 (مخطوط باللغة التركية).

القدوري بيان ذلك السوق والمكان الذي دفن فيه»[1] وقال المؤرخ ياسين العمري (المتوفى في الثلث الاول من القرن الثالث عشر للهجرة) ما نصه « مرقد محمد الوتري في سوق السراجين في بغداد»[2]. ونقل جبرائيل حنوش اصفر عنه نفس العبارة في كتابه (مختصر المستفاد أو منتجع المرتاد)[3] على الرغم من أن اسم السوق تغير في أيامه، وصار مباءة للبزازين ومن يتعلق بهم، ولم يبق من السراجين الا بقية في الجزء الشمالي من سوق الهرج الكبير، وهز السوق المحاذي لسوق السراي ويعرف أيضا بسوق (القندرجية).

وفي نسخة خطية لدينا من القصائد الوترية وهي منظومة الشيخ محمد الوتري التي اشتهر بها ونسب اليها، اضافة من عند الناسخ مُدخلة في آخر المقدمة، ركيكة الأسلوب، جاء فيها «وعند الشيخ محمد الوتري مدفون مألف (كذا) كتاب القدوري أبو حسن[4] محمد القدوري البغدادي و.. وعند الشيخ محمد الوتري والشيخ محمد القدوري قريب ضريح الشيخ برهان الدين معلم لشيخ المشايخ محمد ابن الشيخ محمود قطب الاقطاب وخليفة سلطان الاولياء الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ محمد الوتري والشيخ القدوري والشيخ برهان الدين مدفونون ببغداد دار السلام عند مدرسة المستنصر[5] بالله والدجلة قدس الله سرهم[6].

ومحمد الوتري هذا هو الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد المعروف بالوتري، ولد في الموصل سنة 820هـ/1417م وقرأ وتخرج على والده الشيخ أحمد، فلما بلغ مبلغ الشباب هاجر إلى بغداد حيث التحق بخدمة الشيخ سراج الدين المخزومي الرفاعي، دفين جامع الشيخ سراج الدين ببغداد، فاشتهر صيته، وتوفي سنة 901هـ.[7].

---

(1) جامع الانوار ، بتعريب البندنيجي ص 603 (مخطوط).

(2) غاية المرام في تاريخ محاسن دار السلام ص 34 (مخطوط).

(3) مختصر المستفاد من تاريخ بغداد ص 167 (مخطوط).

(4) ان كنية الشيخ أحمد بن محمد القدوري هي ابو الحسين لا ابو الحسن.

(5) في الاصل (المنتصر) وهو غلط نسخ واضح.

(6) الوترية في مدح خير البرية، مخطوطة ضمن مجموعة مجلدة كانت من محتويات مكتبتنا وهي اليوم في الدار العراقية للمخطوطات الورقة 3.

(7) العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع، بتحقيقنا، بغداد 2005 ص336.

ونجد في إضافة ناسخ القصائد الوترية إسماً لدفين آخر قرب مدفني الشيخ محمد القدوري، والشيخ محمد الوتري، هو (الشيخ برهان الدين) الذي ذكر عنه انه (معلم لشيخ المشايخ عبدالقادر الكيلاني) فمن هو برهان الدين هذا؟، واذا ما تفحصنا القصائد ذاتها، وجدنا ان خطها يرتقي الى القرن الحادي عشر للهجرة، ويمكننا ان نستنتج من عدم تعيين الكاتب مواقع القبور بالنسبة لجامع القبلانية، الذي يضمها، واكتفائه بقوله: «عند مدرسة المستنصر بالله والدجلة» أن تاريخ نسخ الكاتب كان قبل تجديد الجامع واشتهاره باسم مجدده الوالي قبلان مصطفى باشا سنة 1088هـ، بمعنى أن وجود هذا القبر كان معروفاً قبل السنة المذكورة، الا ان مرتضى نظمي زاده لا يذكر في كتابه (جامع الأنوار) ضريح برهان الدين هذا، وكذلك معرب الكتاب البندنيجي، ولكن الأول يذكر من اسمه (ابن برهان)،[1] وقد نوه عباس بن رجب البغدادي به فقال «ومما يلي بابه من جهة الصفارين، مسجد الشيخ أبي الفتوح أحمد بن علي الشهير بابن برهان الدين، من فقهاء الشافعية ومدرسي المدرسة النظامية». وهذا هو أحمد بن علي بن برهان، وكان فقيهاً مؤلفاً، درس في النظامية ثم عزل، وتوفي ببغداد سنة 598هـ/1124م، وكان قبره معروفاً قرب المدرسة المستنصرية قبل بناء جامع القبلانية، ثم دخل فيه[2].

رابعاً: ويذهب البعض الى أن صاحب القبر الحقيقي هو (علي بن محمد السمري) أحد السفراء الأربعة للامام الثاني عشر صاحب الزمان، وهو الاخير. ولا

---

(1) وفيات الاعيان ج 1ص82 ومما يلفت النظر ان مرتضى نظمي زاده، رغم تصريحه بأنه ينقل عن ابن خلكان، فإنه أغفل ذكر كتابه الوجيز، وذكر بدلا منه انه ألف كتاب (مجمع البحرين) في الفقه في حين ان هذا الكتاب ليس له، بل لفقيه آخر هو احمد بن علي تغلب المعرف بابن الساعاتي، لان أباه كان قد عمل الساعات في إيوان الطب التابع للمدرسة المستنصرية، والمقابل لها، كما كان هو نفسه (أي الابن) مدرساً فيها، وقد صحح معرب الكتاب عيسى البندنيجي عبارة مرتضى بنقله من وفيات ابن خلكان مباشرة، وذكر اسم الكتاب الحقيقي، على انه بعد نقله لكلام ابن خلكان الذي فيه انه "مات سنة 520 ببغداد" عقب بقوله "قلت: ولم أقف على موضع دفنه منها"، ولم نجد لهذا المسجد ذكراً في قائمة فيلكس جونس عن معالم بغداد، ولا في فوائت مساجد بغداد ص140، ولا في قائمة المساجد والمشاهد في دليل خارطة بغداد المفصل ص 296– 311.

(2) عباس بن رجب البغدادي: فصل من مخطوطة نيل المراد غبي أحوال العراق وبغداد) . نشرناه في كتابنا (مساجد بغداد في كتابات الاجداد) بغداد 1905 ص37.

صحة في ذلك، لأن قبره كان في الجانب الغربي من بغداد، دليلنا على ذلك ما نقله المجلسي (ت 1110هـ/ 1698م) عنه إذ قال «وأخبرني الحسين بن ابراهيم عن أبي العباس بن نوح عن ابي نصر هبة الله محمد الكاتب أن قبر ابي الحسن السميري (السمري) رضي الله عنه في الشارع المعروف بشارع الخلنجي[1]، من ربع باب المحول، قريب من شاطئ نهر أبي عتاب، وذكر أنه مات رضي الله عنه سنة 329»[2].

وباب المحول، ونهر ابي عتاب، كانا من معالم غربي بغداد، عند الكرخ. فقد ورد في كتاب العيون والحدائق «فبنى الناس الكرخ وباب الشام وباب الشعير وباب المحول فكان الجماعة يسمون الكرخ ولزم هذا الاسم»[3]، أما (نهر أبي عتاب) فكان الفرع الأول من فروع نهر كرخايا الأربعة، الذي كان يخترق ربض الكرخ[4]. منذ القرون الاولى من تاريخ بغداد.

اعمار مصطفى قبلان باشا

ترجم له محمد ثريا وشمس الدين سامي ومرتضى نظمي زاده ، وبذكر شمس الدين سامي أن المترجم كان شجاعاً، برز في الحروب التي شنتها الدولة ضد المجر، مما أدى الى زواجه بابنة الصدر الأعظم أحمد كوبريلي، كما أنه تولى بعد ذلك إمارة البحر سنة 1076هـ-1665م فحارب في (كريت) وفي أجزاء أخرى من أوربا، وفي القرم، وبعد توليه ديار بكر اشترك في حرب مع الروس، وفي سنة 1090هـ، 1679م عاد أميراً للبحر[5]، ولا يذكر سامي شيئاً عن ولاية المترجم في بغداد، لا سيما بعد توليه ديار بكر، الا أن محمد ثريا يذكر انه كان قد تولى بغداد

---

(1) وقد تصحف في (إلزام الناصب) ص 427 الى (شارع الخلخي).

(2) المجلسي: بحار الانوار ج13 ص98 (حجر ايران)، وانظر: الشيخ اليزدي الحائري: الزام الناصب في اثبات الحجة الغائب ص 427 (النجف سنة 1383هـ/1963م)، والسيد لطف الله الصافي الكلباكاني: منتخب الاثر في الامام الثاني عشر ص399-400 (مط الحيدري 1373هـ) وكلهم ينقل عن البحار، وانظر عن السمري 1: ابو علي: الرجال ص 223 واعيان الشيعة للامين ق2 ج4 ص340.

(3) العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، لمجهول ص266.

(4) انظر عنه، لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية ص 60 ودليل خارطة بغداد المفصل ص 80.

(5) قاموس اعلام ج5 ص3601.

سنة 1060هـ/1650م، وبعدها تولى (وان)، وفي سنة 1072هـ/1661م صار والياً على قونية والشام، ثم عين أميراً للبحرسنة 1076هـ، وبعدها تولى حلب، وديار بكر، واردن، سنة 1086هـ/1675م، وفي صفر سنة 1087هـ/1676م تولى بغداد ثانية، واستمر واليا فيها حتى رمضان سنة 1088هـ/1677م، ثم عاد بعدها الى ولاية ديار بكر، وبعد ذلك ولي إمارة البحر ثانية، وهو في هذا يتفق مع مؤلف قاموس اعلام، ويزيد عليه أنه توفي في أزمير في ذي القعدة سنة 1091هـ/1680م[1].

وسكت مرتضى نظمي زاده عن تولي قبلان مصطفى باشا بغداد للمرة الاولى سنة 1060هـ[2] ، كما تخلو قائمة ولاة بغداد التي أعدها الرحالة نيبور من هذه الولاية ايضا[3]، لان سنة 1060هـ المذكورة تقع على ما ذكر محمد ثريا ضمن سني ولاية الوزير ارسلان باشا (1059-1060هـ) والوزير حسين باشا (1060-1061هـ)، أما نيبور فيجعلها من سني الوالي ملك أحمد باشا.

ويشمل الخلاف ولاية قبلان مصطفى الثانية، وهي التي تتصل بإنشاء الجامع، فقد رأينا ان كلا من مرتضى، ومحمد ثريا[4] يجعلان ابتدائها في صفر سنة 1087هـ، (وفي كلشن انها في 27 منه) كما يتفقان على أن انتهائها كان في رمضان سنة 1088 (وفي كلشن أنها في 3 منه)، أما نيبور فيجعل إنتهائها سنة 1089هـ، وفي غاية المرام لياسين العمري انها بدأت سنة 1086هـ، وانتهت سنة 1087هـ[5] وما ورد في كلشن، وسجل عثماني اكثر ضبطا ودقة. حيث يذكر الاول ان تعمير جامع القبلانية كان في السنة الاخيرة من ولايته، اي في سنة 1088هـ/1677م[6].

---

(1) محمد ثريا: سجل عثماني ياخود تذكرة مشاهير عثمانية ج4 ص53. وعبادة: العقد اللامع ص326-327.

(2) انظر (كلشن خلفا) الورقتان 83 و 84.

(3) رحلة نيبور، مجلة سومر (20-1964م-ص59).

(4) لاحظ ان (زامباور) يعتمد في قائمته على سجل عثماني فقط، دون التواريخ الاخرى (معجم الانساب والاسرات الحاكمة ج2 ص259).

(5) غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، بغداد 1968، ص 175

(6) كلشن خلفا ظهر الورقة 103.

وكانت ثمة كتابة تذكارية على رخامة في الجامع، قرأها الالوسي وعبادة، تنص على ان اتمام التعمير كان سنة 1090هـ/1679م، بمعنى ان البناء استغرق زهاء سنتين، وقد جاء فيها ما نصه[1]:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء 115]، قد أمَرَنا من أمره مطاع في العراق، نادر المثيل في الآفاق، وارث المكارم عن آباء كرام، وأسلاف أعزة فخام، والي الخطة العراقية، ومتولي ما فيها من الأمور الكلية والجزئية، من عظمت حسناته، وعمَّت بركاته ومبراته، مصطفى باشا والي ايالة بغداد الشهير بقبلان، تقبل الله تعالى منه صنائعه الحسان، بإقامة هذا المسجد العديم النظير، وعمارته بأحسن تعمير، فمن الله تعالى بالختام حسب المطلوب والمرام وذلك سنة التسعين بعد الألف من هجرة خير الانام عليه أفضل الصلواة وأكمل السلام).

ولنا أن نلاحظ أن سنة 1090هـ/1679م تقع في سني ولاية الوزير عمر باشا، الذي حكم من 30 رمضان سنة 1088 الى جمادى الاولى سنة 1092 هـ[2]، فموضع الشك في نص الرخامة آنف الذكر تصريحه بأنه كتب زمن ولاية مجدد الجامع قبلان مصطفى باشاً، فعبارة (قد أمرنا من أمره مطاع في العراق) و (والي الخطة العراقية، ومتولي ما فيها من الأمور الكلية والجزئية) الخ تؤكد أنها دونت بأمر والي بغداد فعلا، وهو ما جعل السيد محمود شكري الآلوسي ولاية هذا الوالي بين سنتي 1088هـ و 1092 هـ[3]، مع أن هذه السنين هي من سني ولاية عمر باشا المقدم ذكره.

ولا تفسير لهذا الامر –فيما نرى– إلا أن تكون الكتابة قد رُقمت أيام الوالي قبلان مصطفى باشا وبأمره، سنة 1088 (وهي سنة تعمير الجامع) ثم ترك مكان كتابة التاريخ فارغاً ليكتب فيه فيما بعد تاريخ إتمام البناء، فلما انتهى التعمير في ولاية عمر باشا، رقم تاريخ الاتمام (وهو سنة 1090هـ) دون تغيير سائر الكتابة.

---

(1) انظر، الآلوسي: مساجد دار السلام بغداد ص 40 (مخطوط) وص58 (بتهذيب الاثري).
(2) مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا، ظهر الورقة 104.
(3) الآلوسي: مساجد دار السلام بغداد ص40 (مخطوط).

وقد عرف الوزير قبلان مصطفى باشا، الى جانب شجاعته، بميله الشديد لزيارة مراقد الأولياء، فقد زار -قبيل عزله- مرقدي الامامين الحسين وعلي (ع) وقضى عندهما بضعة ايام[1]، ولا شك ان اهتمامه بتعمير جامع السرجخانه (أو جامع القبلانية) هو لميله الشديد للتبرك بمراقد الاولياء والصالحين.

ولا نعلم شيئاً عن هيئة جامع السرجخانه قبل أن يتولاه قبلان باشا باهتمامه، باستثناء ما كان يضمه من قبور، وتصميمه وقدمه يرقيان الى القرن الحادي عشر، فهو يشبه جامع الخاصكي (المشيد في سنة 1056) وجامع حسين باشا السلاحدار (المشيد سنة 1086). وكان الرحالة التركي اوليا جلبي الذي قدم الى بغداد سنة1058هـ/1648م، و 1066هـ/ 1655م[2]، قد نوه بجامع سماه (جامع السراجخانه) ونرجح أنه المكان الذي ضم مثوى أولئك الصالحين، لعدم وجود جامع غيره في هذا السوق، وفي هذه الحال فإن عمل قبلان باشا كان تعميراً للجامع المذكور، او اعادة إنشاء له. وذكر الشيخ محمد صالح السهروردي أن أحد أجداده وهو (الحاج رشيد) الذي كان معاصرا لدخول السلطان مراد الرابع بغداد سنة 1048هـ/1638م، كان واعظاً في جامع القبلانية[3]، فيكون هذا أول واعظ فيه، إن صح الخبر على هذه الصورة، لأن تسمية الجامع بالقبلانية كانت بعد دخول السلطان مراد لبغداد بأربعين سنة.

إعمار الوالي سليمان باشا الكبير سنة 1205هـ/ 1800م

ابتدأت ولاية هذا الوالي على بغداد في 15 شوال سنة 1193 هـ/1780م واستمرت حتى وفاته في 8 ربيع الآخر سنة 1217هـ/ 1802م[4]، أي انه تولاها نحو أربع وعشرين سنة، أنجز خلالها عدداً من المشاريع الخيرية والخدمية ، منها تعميره لسور بغداد الشرقية، وانشاؤه سورا لغربيها، كما جدد بناية السراي، وعدة قناطر خارج بغداد، كما عمر مدينة الكوت، وسور البصرة، وقرية الزبير، وسور

---

(1) كلشن خلفا، ظهر الورقة 103 ومحمد ثريا: سجل عثماني ج4 ص53.

(2) اوليا جلبي سياحتنا مه سي ج4 ص419.

(3) مقالة (هدم جامع الحظائر) في جريدة العراق 15 تشرين الاول سنة 1930.

(4) انظر مطالع السعود ص (مخطوط) ومختصره للحلواني ص30 والكركوكلي: دوحة الوزراء ص218.

الحلة، وغيرها، هذا فضلاً عن عنايته بالمساجد القديمة، فعمر جامع الفضل، وجامع الخلفاء، وجامع القبلانية –مدار بحثنا–، وأنشأ في كل منهما مدرسة، وخزانة كتب، كما أنشأ مدرسة مستقلة عرفت بالسليمانية(1).

وذكر عبادة أنه لما « كادت أن تتداعى أركانه، ويهوى بنيانه» أمر سليمان باشا الكبير بتجديده(2).

وقد صرح رسول حاوي الكركوكلي (ت1242هـ/1826م) وعثمان بن سند البصري (ت 1250هـ/1834م) بخبر تعمير سليمان باشا للجامع، وإنشائه فيه مدرسة، إلا انهما لا يذكران تاريخ القيام بالتعمير او إتمامه، وكل ما لدينا من معلومات مستمد من أبيات كتبت على رخامة فوق باب بيت الصلاة الرئيس ونصها :

بنى الجامع الأعلى سليمان ذو العلى   فأضحى بحمد الله أزهر ساطعا

تقوم رجال فيه لله أخلصوا   فلم تلق إلاّ ساجداً فيه راكعا

ولما أعدت للصلوة صفوفه   وقام بأولاها الإمام مسارعا

هناك دعا داعي الفلاح مؤرخاً   (سليمان قد شدت للوحي جامعا)

ومجموع شطر البيت المذكور، بحساب الجمل، هو (1208)(3)، وهو تاريخ يتفق وسني ولاية سليمان باشا الكبير وقيامه بأعماله العمرانية، وكان السيد محمود شكري الآلوسي قد ذكر ان تاريخ هذا التعمير هو سنة 1205هـ/1790م، على الرغم من نقله للأبيات الأربعة وفيها بيت التاريخ، فقال «في سنة خمس بعد المائتين والالف من الهجرة جدد عمارته والي بغداد يومئذ وهو سليمان باشا الكبير عليه الرحمة كما نطق بذلك الشعر المكتوب على الحجر في باب المصلى الأوسط، وهو هذا على ما نقلناه من محله»(4). ومثله في قراءة عبدالحميد عبادة.

وفي النسخة المطبوعة من كتاب (مساجد بغداد) للآلوسي، بتهذيب الشيخ محمد

---

(1) دوحة الوزراء ص 219 ومطالع السعود.

(2) العقج اللامع ص 324

(3) حساب الشطر: سليمان (191)، قد (104)، شدت (704) للوحي (84)، جامعاً (115).

(4) مساجد دار السلام بغداد ص40 (من المخطوط).

بهجة الاثري، اختلاف عما هو في المخطوط (الذي نقلنا منه) فقد ورد فيها شطر التاريخ بالصورة التالية:

(سليمان قد شيدت للوحي جامعا)[1]، بإضافة (ياء) الى (شدت)، فيصبح مجموع حساب الشطر (1208) وهذا هو الصحيح، وقد فرأه على هذه الصورة عبدالحميد عبادة[2].

اعمار الوالي سعيد باشا سنة 1230هـ/1815م

هو ابن سليمان باشا الكبير المقدم ذكره، ولد سنة 1205هـ، وتولى ولاية بغداد في 15 شوال سنة 1228هـ/1813م واستمر والياً فيها حتى مقتله في 10 ربيع الآخر سنة 1232هـ/1816م[3] وكان «حديث السن والعهد، قليل الخبرة في تصريف الأمور وتركه الحبل على الغارب»[4] فلم نقرأ أنه قام بأي عمل عمراني، والشاهد الوحيد على قيامه بتعمير الجامع، هو قطعة من القاشاني الملون، مربعة الشكل، عليها عبارة (جامع القبلانية)، يليها تاريخ (1230هـ)، كنا قد رأيناها على بابه الخارجية النافذه على السوق عند زيارتنا اياه في سنة 1970، وهذه هي السنة الثانية من سني ولاينه، ولم بلتفت اليها احد من المؤرخين، ولا تخلو هذه الكتابة من جمال، فهي محاطة بعدة أغصان مورقة مزهرة، ذات ألوان بهيجة.

مدرسته وخزانة كتبه

كان لهذا الجامع أثره في الحركة العلمية في بغداد ، ففيه ثمة مدرسة أنشأها والي بغداد سلبمان باشا الكبير، نوه بها السيد محمد سعيد الراوي يقوله «كانت فيه مدرسة وخزانة كتب»[5]. ومن أشهر من درس فيها الشيخ ابراهيم بكتاش امين الفتوى، نائب المحكمة الشرعية ببغداد، وقد درس فيها منذ أول ايام الوزير علي

---

(1) المطبوع ص58، وهو لا يتفق مع النسختين الخطيتين وهما برقم 1120 و1064 في الدار العراقية للمخطوطات فلعله من عمل مهذب الكتاب.

(2) العقد اللامع ص 325

(3) انظر: الكركوكلي: دوحة الوزراء ص260-276 وسليمان فائق: مرآة الزوراء ص49-57 وتاريخ المماليك الكوله مند ص42-43.

(4) الكركوكلي: دوحة الوزراء ص 269 ومحمد ثريا: سجل عثماني ج3 ص38

(5) خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، بتحقيقنا ، بغداد 2013ص 90.

رضا باشا اللاز سنة 1247هـ/1832م[1]، كما درس فيها في العهود الاخيرة، السيد يوسف العطا، مفتي بغداد، والشيخ قاسم القيسي مفتي بغداد أيضاً (ت1375هـ/1955م)، والشيخ نجم الدين الواعظ[2].

ومن خطباء الجامع ومدرسيه الشيخ سليمان بن أحمد الذي عين خطيباً فيه بموجب الفرمان المؤرخ في غرة شعبان سنة 1257هـ/1841م[3]، والحاج مصطفى بن محمد، الذي تولى التدريس والإمامة والخطابة في عدة مساجد، فضلاً عن وعظه في جامع القبلانية ظهر كل يوم من شهر رمضان[4] ومنهم أيضاً، الشيخ نعمان بن أحمد الاعظمي، حيث كان يلقي فيه الوعظ خلال شهر رمضان[5]. وملا مصطفى الطويل[6].

كما كان يضم أيضاً خزانة كتب حافلة، وقفها عليه سليمان باشا أيضاً، وقد أعد السيد محمود شكري الآلوسي في حدود سنة 1317هـ/1899م فهرساً لما تبقى في خزانة المدرسة من مخطوطات، فبلغ (205) محطوطا، منها ما هو نادر ونفيس، وتتوزع موضوعاتها بين كتب التفسير والحديث والفقه ومجموعات الفتاوى والنحو وبعض علوم اللغة، والأدب، ودواوين الشعر، والتاريخ والتراجم، وبعض كتب الهيئة. إلا أن هذه الكتب لم تسلم من الضياع على مر السنين، وقد نبه بعض البغداديين سنة 1287 الى أن خزانة الكتب هذه لم يبق منها ولا كتاب واحد[7]، كما نوه السيد محمود شكري الآلوسي (ت 1342هـ/1924م) بما أصاب هذه المخطوطات من فقدان، فقال: «وفي هذا المسجد مدرسة وخزانة كتب، غير انها اليوم لا مدرس فيها ولا تدريس، وليس فيها أيضاً الكتب التي كانت موقوفة على المدرسة فقد لعبت بها أيدي السراق، حتى أفنتها على الاطلاق»[8]، وقال السيد محمد سعيد الراوي «والمكتبة اسم بلا رسم، إذ لا كتاب ولا خزانة ولا مكتبة»[9].

---

(1) الاستاذ عباس العزاي: تاريخ الادب العربي في العراق ج2 ص232.

(2) ابراهيم الدروبي: البغداديون ص47 و 174 و 314.

(3) البغداديون ص381.

(4) محمد صالح السهروردي: لب الالباب ج2 ص408.

(5) البغداديون ص176.

(6) العقد اللامع ص91

(7) محمد أمين زاده، في جريدة الزوراء البغدادية 12 شباط، السنة 1287هـ/1867م.

(8) مساجد دار السلام بغداد الورقة40 (من المخطوط).

(9) العقد اللامع ص91

وكانت دائرة الأوقاف قد اقتطعت المدرسة وجعلتها قيصرية تستغلها، وفي أيام عمرت الأوقاف في الجامع مدرسة ووفرت لها الكتب اللازمة، وكلفت المدرس يوسف العطا بالتدريس فيها[1].

الجامع في العهود الاخيرة

لم يتطرق الى الجامع علماء الآثار والعمارة من الأوربيين الذين وفدوا الى بغداد، ووصفوا شيئا من مبانيها القديمة، امثال زاره وهرزفيلد الالمانيين، وفيوله وماسنيون الفرنسيين ، ويمكننا أن نشير هنا الى ان الكوماندر (جيمس فيلكس جونس) ذكر في معرض إحصائه لمعالم بغداد، عقدا بأسم (عقد كبلانية) فيه (جامع كبلانية) وعده ضمن معالم محلة عقد الصفافير[2] وذلك سنة 1846م/ 1265هـ مع انه بعيد عن هذه المحلة ولا يعد من معالمها.

وفي سنة 1888م/1306هـ قام الرحالة البريطاني السير والس بدج بتسجيل اسم الجامع ضمن قائمة مساجد بغداد الشرقية، على أنه اخطأ في تاريخ بنائه، فذكر أنه بني سنة 1134هـ/1721م في حين أنه جدد قبل ذلك بوقت طويل كما مر بنا ذلك[3].

وفي عام 1325هـ/1907م زار السيد محمود شكري الآلوسي جامع القبلانية فوصفه قائلاً: «هو جامع رحب الفناء، رصين البناء، واسع المصلى، أنيق مزين مُحلَى، وهو في جوار المدرسة المستنصرية، واقع منها في الجنوبية ليس بينهما سوى جادة السوق، وقد كانت على جدرانه كتابات كثيرة إندرست لما كان فيه من التبديل والتغيير»[4].

ووصفه محمد سعيد الراوي في سنة 1924 فكان مما قاله «هو جامع واسع الفناء، رصين البناء»[5].

---

(1) العقد اللامع ص91

(2) مساجد دار السلام. الورقة 40

(3) رحلات الى العراق، ترجمة فؤاد جميل ص48.

(4) مساجد دار السلام بغداد ص39 (مخطوط).

(5) العقد اللامع ص89

ووصف عبدالحميد عبادة عمارته ونوه بالموضع الذي ضم قبور الأولياء المدفونين فيه، فقال «وفي داخل مصلاه حجرة صغيرة معقودة بالحجارة والجص، وبجدارها القبلي نوافذ وشبابيك مطلة على السوق، فيها قبر أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان الحنفي المعروف بالقدوري، وبجنبه قبر الشيخ محمد الوتري»[1].

وفي 1330هـ/ 1920 أنشأت فيه دائرة الأوفاف مدرسة جديدة، وكان خلف الجامع من جتوبيه دار معدة لسكتى الإمام فأخذتها دائرة الاوقاف وجعلتها مستغلا للوقف[2]. وفي سنة 1927م/1345هـ قامت بترميم عدة مواطن من الجامع[3]. وفي 1932 أجرت الدائرة ترميمات واسعة وأضافت اليه دار للفتوى في الجهة الشرقية الشمالية من ساحة الجامع، وافتتحت في اوائل تموز من ذلك العام، بمشهد حافل من علماء الدين، وعين الشيخ يوسف العطا المدرس في مدرسته مفتياً[4]، ولبثت بناية الدار قائمة حتى سبعينات القرن الماضي، الا أن منصب الافتاء ألغي منذ سنين قبل ذلك.

وكنا قد زرنا هذا الجامع غير مرة في مطلع عقد السبعينات من القرن الماضي فوجدناه يتصف بسعة ظاهرة، له مصلى يأخذ شكلاً مستطيلاً، وله قبة مرتفعة تقوم على أربعة أواوين معقود، يستند الإيوان الخلفي منها على جدار القبلة، بينما تستند الأواوين الثلاثة الأخرى على عمودين ضخمين مربعي الشكل، من الآجر. وللمصلى منبر أنيق مزين بقطع الرخام، تعلوه قبة مضلعة مخروطة، على الطراز تركي، وهو نمط نادر في منابر بغداد. وللجامع مصلى صيفي، له محراب مزين بالآجر المزجج. وعلى الرغم من متانة بناء هذا الجامع وقوة أركانه، وكونه يمثل أنموذجاً لريازة المساجد البغدادية في القرن الحادي عشر للهجرة (17م) فقد قرر ديوان الأوقاف في سنة 1975 نقض الجامع تماماً وإزالته عن بكرة أبيه، غير مقدرة لقيمته الأثرية والتاريخية، ثم أنها شيدت على أرضه سوقاً تجارياً من طابقين،

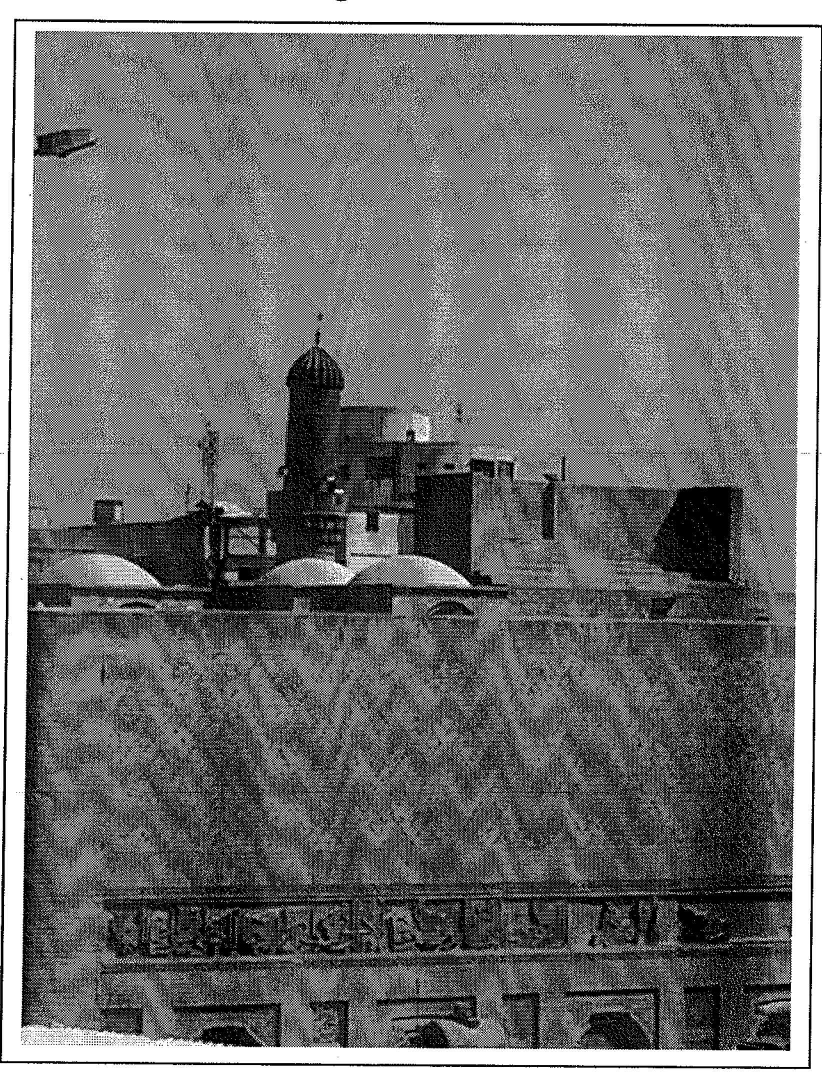
(1) العقد اللامع ص 325- 327.

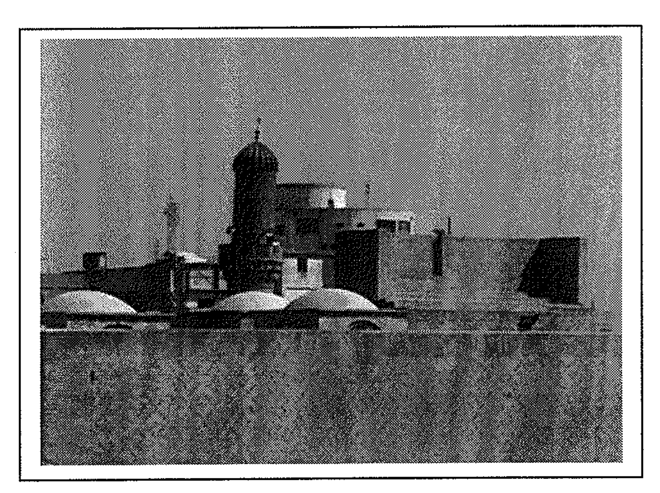
(2) العقد اللامع ص91

(3) مجلة لغة العرب (السنة 1927م) ص317.

(4) محمد صالح السهروردي: لب الالباب ج2 ص229.

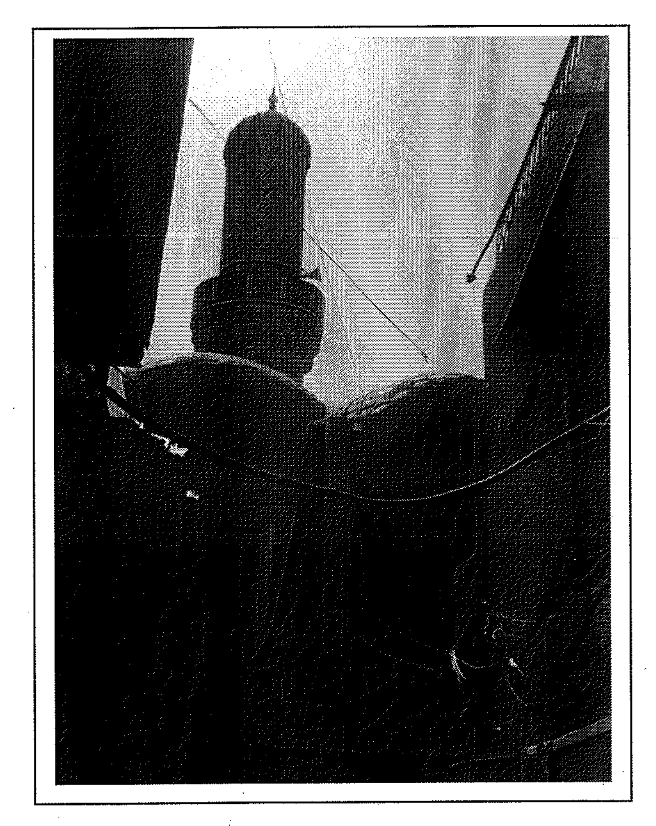
عرف بسوق القبلانية، وخصصت في أعلاهما جناحاً صغيراً ليكون جامعاً باسمه، وأثبتت على بابه الذي في السوق لوحة تعريفية تحمل اسم الجامع الزائل. ولم يبق من عمارة الجامع الاصلية غير مئذنته العالية، وهي لما تزل محتفظة بهيئتها وهيبتها، تزين بدنها وحوضها قطع الآجر المزجج، ولها قمة محززة عمودياً على الطريقة التقليدية التي اتبعت في كثير من جوامع بغداد التي ترقى الى عصرها وما بعده، على أن شيئاً من التصدع أصاب، في العقود الأخيرة، قسمها العلوي مما بات ينذر بتداعيها وتساقط قطع آجرها، فعسى أن تقوم الجهات المعنية بصيانتها بوصفها تمثل كل ما تبقى من عمارة ذلك الجامع التليد.





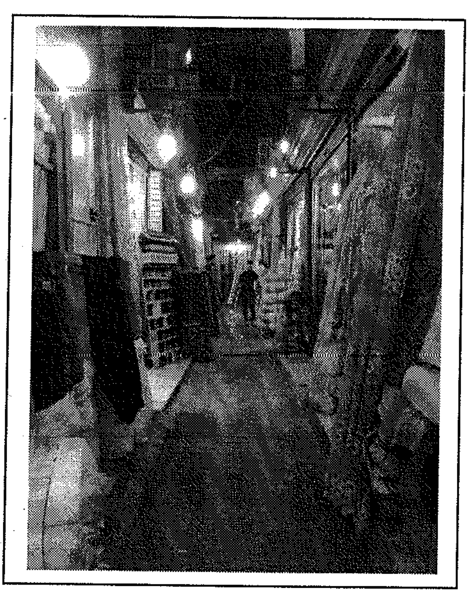
مئذنة جامع القبلانية كما تبدو مقابلة للمدرسة المستنصرية

(بعدسة السيد زين النقشبندي)



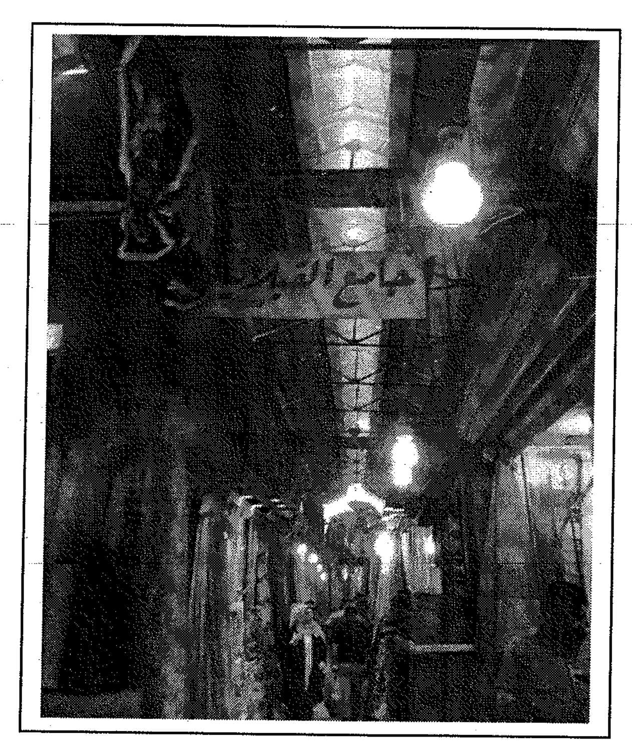
مئذنة جامع القبلانية كما تبدو من السوق المجاور

(بعدسة السيد زين النقشبندي)



سوق القبلانية المشيد على أرض الجامع المندثر

(بعدسة السيد زين النقشبندي)



لافتة تحمل اسم الحامع في السوق المنسوب اليه الان

(بعدسة السيد زين النقشبندي)

تاريخ بجوي

مصدرا لمعالم بغداد في القرون المتأخرة

مقدمة

يفتقر الباحث في خطط بغداد الى المعلومات الضرورية لفهم ما أصاب هذه المدينة العتيدة من تغيرات في العهود التي تلت زوال الخلافة العباسية، فبعد أن كانت المصادر التاريخية في عهد هذه الخلافة تهتم بالكتابة عن معالم المدينة من القصور والدروب والجسور والقناطر والمدارس والمساجد والربط والمارستانات والمشاهد وحتى المقابر، نجدها تسكت سكوتاً مطبقاً عن ذكر هذه المعالم في العهود التالية، فلا ندري ما آل إليه حال هذا القصر، وما صارت اليه هذه المدرسة، وما أنشئ فيها من منشآت حادثة غير ما ورثته عن العهود السابقة، لاسيما بعد انتهاء عهد المؤرخين الذين خضرموا العهدين العباسي الأخير، والمغولي الايلخاني، أمثال ابن الساعي، وابن الفوطي، وابن الكازروني، ومؤلف كتاب الحوادث، المسمى بالحوادث الجامعة، فأدى ذلك الى انقطاع شبه كامل في معلوماتنا عن تطور خطط مدينة بغداد لعدة قرون خلت، وبات الباحث في خططها عهدذاك كمن يمد قدميه في ظلام حالك، يتلمس بهما ما يدله على طريق لم يسبق له ان سلكه من قبل.

وفضلا عن قلة المؤرخين المحليين، بل انعدامهم في بعض العهود، فإن ما كتبه المؤرخون العثمانيون والايرانيون جاء فقيراً في تناولهم أحوال المدن العراقية، لاسيما منها مدينة بغداد، وذلك بسبب نظرتهم اليها، بل الى العراق كله، على انها مجرد ساحة صراع دام بين الطرفين، فلم يولوا معالم المدينة العرافية ما تستحقه من اهتمام.

وكان أن وجدنا، ونحن نبحث عما يمكن أن نسد به هذه الثغرة، معلومات ذات اهمية خاصة، لم يسبق أن لفتت اهتمام الباحثين من قبل، أوردها مؤرخ عثماني حسن الإطلاع، عاصر جانباً مما سجله من أحداث، هو سليمان افندي بجوي.

وقد جاء أكثر ما ساقه من روايات في سياق كلامه عن حادثتين مهمتين شهدهما العراق عصر ذاك، أولاهما فتح السلطان سليمان القانوني مدينة بغداد

سنة 941هـ/1534م بعد أن كانت قبله بيد الصفويين، وثانيهما استعادتها على يد السلطان مراد الرابع سنة 1048 هـ/1638م بعد أن كان الصفويون قد احتلوها من قبل، فقد تطرق في أثناء وصفه هذين الحدثين الى ما آل اليه حال بعض المنشآت المهمة التي ورثتها بغداد من العصر العباسي، واختفت اخبارها بعد ذلك العصر.

ومؤلف هذا التاريخ هو سليمان افندي الملقب ببجوي ، نسبة الى مدينة (بج)، من بلاد المجر، يوم كانت جزءاً من الدولة العثمانية، وكان قد ولد فيها، من أسرة امتهنت الحياة العسكرية لعدة اجيال، فجده داود بك بن جعفر جلبي دخل شاباً في معية قادة عسكريين كبار، وشارك في معارك عدة في اوربا، وفي العراق، نال على اثرها منصب (أمير آلاي)، ثم نال لما أبداه من بلاء حسن براءة سلطانية (سند ملكية) لاقطاع من نوع (تيمار)[1]، و أصبح هو كاتباً في بعض الفرق العسكرية، وأسند اليه السلطان احمد الأول بعض المناصب الرفيعة تقديرا لكفاءته، ثم تقلب في وظائف مالية عدة، من اهمها منصب دفتردار ديار بكرثم دفتردار توقات ، فدفتردار طونه، وعُيِّن والياً على (بلغراد)، ودفتردارا للبوسنة، وأخيرا عُيِّن دفترداراً لـ(طمشوار)، وبعدها انزوى عن الخدمة في الوظائف وتفرغ لكتابة تاريخه هذا، وكانت وفاته سنة 1061 ودفن في مسقط رأسه بج.

يقع تاريخه في مجلدين كبيرين يزيد عدد صفحاتهما على الألف صفحة[2]، كتبهما بالتركية العثمانية، يتناول اولهما تاريخ الدولة العثمانية من عهد السلطان سليمان القانوني حتى عهد السلطان سليم الثاني، بينما يتناول المجلد الثاني تاريخها من عهد السلطان مراد الثالث الى نهاية عهد السلطان مراد الرابع.

اعتمد في كثير مما سجله لا سيما في المجلد الاول على روايات أبيه، فقال مثلا «وطبقاً لما سمعته من المرحوم والدي»[3]، و«سمعت عدة مرات من المرحوم والدي»[4]، وعلى شهود عيان ذكر أسماء بعضهم، فقال مثلا «هذا هو ما سمعته

---

(1) ج1 ص130وص143

(2) ترجمه الى العربية ناصر عبدالرحيم حسين ، وصدر عن المركز القومي للترجمة في القاهرة سنة 2016 وعلى الرغم من أن لغته الاصلية هي التركية، فقد كتب عليه انه ترجم من اللغة الفارسية خطأ.

(3) ج1 ص130

(4) ج1 ص128

من المرحوم ترياكي غازي حسن باشا»، وقال «سمعت من لسان المرحوم الشيخ علي دده نفسه»[1]. كما اعتمد على مؤلفات مؤرخين عثمانيين سابقين ، ذكر منهم جلال زاده نشانجي مؤلف كتاب (طبقات الممالك) وتاريخ (عالي بك) وتاريخ (محمد افندي الكاتب) مؤلف كتاب (جامع التواريخ) و(حسن بك زاده افندي) في تاريخه[2] وغير ذلك، هذا فضلا عن مصادر لم يسمها كقوله «ويروى عن بعض الثقات»[3]. كما رجع ايضا الى تواريخ كتبها مؤرخون أوربيون، يسميهم (كفاراً)، فقال مثلا «وسنرى في الترجمة التي تأتي فيما بعد كيف كتب الكفار هذه الغزوة في تواريخهم»[4]، وقال «ذكرت تواريخ الكفار هذا الحدث على هذا النحو»[5]، و «وقد كتب الكفار في تواريخهم»[6] وغير ذلك من الأقوال التي دلت على اطلاعه الواسع على وجهات النظر المختلفة والروايات المتنوعة لمؤرخين أجانب..

ولما كان يجوي قد عاصر كثيراً من الحوادث المهمة التي جرت في أيامه، وكانت له معرفة بشخوص تلك الحوادث، فإنه اعتمد على مشاهداته الشخصية مصدرا لما كان يرويه من أخبار، من ذلك قوله «واتفق الى هذا الحقير (يعني نفسه نواضعاً)قد شاهدت أمراً من العجائب وهو أن ساطورجي محمد باشا كان سرداراً عظيماً أثناء حصار قلعة وارات..الخ»[7]، وقوله عن حروب المجر «ففي هذه المرة التي التحقنا بها وشاهدناها لم تبق قلعة ولا مقاطعة دون أن يخربها وينهبها الكفار»، وقوله «ونحن شاهدنا عدة مرات أن فقراء الرعايا تضرعوا بالدعاء واستغاثوا قائلين..الخ»، كما تحدث عمن كانت له به صلة من القادة كقوله مثلاً «وانني هذا الحقير التقينا في ذلك المكان بالقرب من (ايلجي خاني) بأحد أغوات بولاد زاده وزير مصطفى باشا»، وقوله «في أحد الأيام دخلت على مجلسه مع دفتردار زاده ابراهيم افندي أمين الترسانه في ذلك العصر..الخ»[8].

---

(1) ج1 ص130
(2) ج2 ص381
(3) ج2 ص386
(4) ج1 ص228
(5) ج1 ص282
(6) ج1 ص274
(7) ج2 ص243
(8) ج2 ص489

ولابد من القول أن تأليفه لتاريخه هذا لم يكن تلبية لطلب أحد، وإنما استجابة لميل طبيعي في نفسه، لشغفه الشديد بالتاريخ فقال: «وإنني هذا الحقير (يعني نفسه) قليل البضاعة قد صرفت كل عمري في تتبع حركة التاريخ، ولما لم يكن لعبد قاصر مثلي نصيب من العلوم العالية، فقد كانت رغبتنا الطبيعية تتجه نحو التاريخ، فنظرت في هذا القدر من التواريخ، واطلعت وعايشت غزوات وفتوحات معظم سلاطين أهل الإسلام»[1].

ومع أن بغداد بلغت في عصره دركاً من التدهور والخراب بسبب تعاقب الغزاة عليها ، منذ أن احتلها المغول، وكثرة ما داهمها من الكوارث الطبيعية، من غرق ووباء، إلا أن بجوي، كأكثر المؤرخين العثمانيين، أظهر لها احتراما خاصاً وتقديراً عالياً ليس بسبب ما آل إليها حالها في عصره، وإنما لمكانتها التاريخية حينما كانت حاضرة الخلافة العباسية وبوتقة الحضارة الاسلامية، فهي عنده «أرض الجنان، ومقر الخلفاء العظماء»، و«إرم ذات العماد»، و«الجنة العامرة».

وفي كلامه عن هذه المدينة فوائد خططية ندرجها فيما يأتي:

دار الخلافة العباسية

ذكر بجوي في معرض حديثه عن فتح السلطان سليمان القانوني بغداد سنة 941 أنه «دخل السلطان صاحب السعادة في اليوم السابع والعشرين من الشهر المذكور الى القصر عالي البهجة الذي كان داخل سور بغداد، والذي كان مأوى ومنزل الخلفاء السابقين واستراح فيه». ولم يبين موقع هذا القصر بأكثر مما ذكر، ولكن وصفه بأنه عالي البهجة يدل على فخامته المميزة، وكون السلطان اختاره منزلا له، يدل على انه كان بالفعل أحد قصور الخلفاء العباسيين،، وأن نزوله فيه اراد به ان يرمز الى تورثه شرعية اولئك الخلفاء، نظير ما فعل الشاه اسماعيل الصفوي الذي لقب واليه على بغداد بخليفة الخلفاء، ولا خلفاء ببعداد الا بنو العباس، وفي هذه الحال فإن قصور الخلفاء كانت تقع في ضمن ما كان يعرف بدار الخلافة العباسية، وهي منطقة حصينة كانت تحتل جزءا مهماً من وسط بعداد، وتحفل بالقصور الرسمية، ومنها قصر التاج، وقصر المثمنة، وقصر الفردوس، وغيرها، ويعد قصر التاج المقر الرسمي

---

(1) ج2 ص136

لجميع الخلفاء العباسيين المتأخرين، وهو من ثم الأكثر احتمالا لأن يكون المكان الذي اختاره السلطان العثماني لنزوله، ومن المؤكد أن تغييراً مهما أجرى على تصميم القصر في فترة سابقة على مجيء السلطان سليمان، يتمثل بفصله على شاطئ دجلة بسور حصين ذي أبراج ومُسنيات يبدأ من الزاوية الشمالية لسور بغداد وينتهي بالزاوية الجنوبية، أو الشرقية، حيث الباب الشرقي، فقد ظهر هذا السور جلياً في صورة الجانب الشرقي مما رسمه مطراقي زاده كما تقدم بنا، فهذا السور صار يحجب الواجهة الفخمة للقصر عن دجلة، او الطابق الأسفل منه في أقل تقدير. ومن المهم القول أن ما أورده بجوي يعد النص الوحيد الذي يكشف لنا عن أن قصور دار الخلافة ظلت ماثلة عامرة ينزلها المحتلون حتى القرن العاشر للهجرة، أي بعد ثلاثة قرون من زوال الخلافة العباسية نفسها. ويشير بجوي أيضا في أثناء حديثه عن حصار السلطان سليمان لمدينة بغداد الى ما يسميه (قصور بكتاشي خان)[1]، وهذا هو الحاكم الصفوي للمدينة، ونرى أن هذه القصور لم تكن الا بقايا دار الخلافة العباسية، بدلالة ما ذكره بجوي نفسه من أن قصفها بالمدفعية كان يجري من قلعة الطيور التي كانت «تجاه بغداد»، على حد تعبيره، وهو يقصد تجاه الجانب الشرقي منها، قائمة في المحلة التي عرفت فيما بعد بالكريمات، ومن المعلوم بحسب خطط بغداد ان هذه المحلة، التي كانت تعرف في العصر العباسي برقة ابن دحروج، كانت تقابل قصور دار الخلافة من الجانب الغربي المقابل[2].

القلعة

تحتل قلعة بغداد، التي عرفها العثمانيون بـ(إيج قلعة)، اي القلعة الداخلية، أرضا واسعة على شكل مَعيني تقريبا يمثل ضلعه الشمالي قسماً من سور بغداد نفسها يمتد من شاطئ دجلة الى باب المعظم، وهو باب السلطان في العصر العباسي، ، وترقى هذه القلعة الى أواخر القرن التاسع الهجري[3]، وتخلو مصادر العصر العباسي من الاشارة الى أي قلعة في بغداد، لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر، بل لا تشير الروايات الخاصة بوقائع احتلال هولاكو بغداد الى قلعة

---

(1) ج2 ص513

(2) المصدر نفسه

(3) التاريخ الغياثي، حوادث سنة 974، ص336

أيضاً، ولكن المؤرخ بجوي ينفرد في الروايات التي ساقها عن وقائع ذلك الاحتلال برواية جديدة تفيد بوجودها إذ قال« قام الخليفة أيضا بإخراج الوزير (ابن العلقمي) من باب القلعة »[1]، فواضح من النص أن باب القلعة كان يفضي الى الفضاء الذي يحيط ببغداد مباشرة، حيث يتخذ جيش هولاكو معسكره هناك. ثم أنه ذكر في حديثه عن حال اهل بغداد بعد واقعة الاحتلال أن الناس كانوا «يعمرون بُروج القلعة وينظفون أيضا أطرافها» ، فهل كانت هي نفسها (ايج قلعة) او القلعة الداخلية العثمانية، او أصلا لها، ذلك ما يصعب الجزم به لعدم وجود نصوص أخرى تدعم رواية بجوي المهمة هذه، ولكن يفهم مما ذكره أنه كان للقلعة أبراج وجدران تطل على داخل المدينة، لاسيما على ميدانها الخارجي، إذ قال أنه حينما دخل الجيش العثماني بغداد سنة 941 «تم تزيين بروج وجدران قلعتها بأعلام المسلمين».

ويورد بجوي إشارة تدل على انه كان للقلعة الداخلية باب صغير نفذ منه القزلباش (الصفويون) الى بغداد سرا في الليلة التي احتلوا بها بغداد في 12 ربيع الأول سنة 1032هـ/1613م. فذكر أن ابن بكر صوباشي قام «بفتح الباب الصغير للقلعة الداخلية ويدخل القزلباش الى القلعة»[2]. وهذا الباب هو نفسه الذي سماه احمد بن عبدالله الغرابي بباب السر، إذ قال «ففتح له باب السر التي في جانب الشط، فدخل منها نحو عشرة آلاف شخص»[3].

ويظهر أنه كان ثمة تحصينات خارجية تتقدم قلعة بغداد، وتحول دون وصول المهاجمين الى أسوارها، ولذا فهي تبعد عنها بمسافة ما، والراجح أنها كانت بمثابة (توابي) أو (ربايا) يتولى الجند القائمون عليها مهمة الدفاع عن هذه القلعة، أو حراستها، وتظهر صورة للجانب الشرقي من بغداد كان قد رسمها نصوح افندي المطراقي زاده، وهو المرافق لحملة السلطان سليمان القانوني سنة 941، وجود برج عال تحيط به أسوار أدنى ارتفاعاً منه، يتقدم باب السلطان (باب المعظم)، مما يرجح أن تكون رَبِيَّة عسكرية كاملة [4]. كما أن الخرائط التي رسمها سياح اوربيون

---

(1) سكتت المصادر المعاصرة للحدث عن تعيين الباب الذي خرج منه الوزير. ينظر كتاب الحوادث المنسوب لابن الفوطي، بتحقيقنا مع د. بشار معروف، بيروت 1997، ص356

(2) ج2 ص482

(3) عيون اخبار الاعيان، نسخة باريس ذات العدد 6677، الورقة 207

(4) كتابنا: العراق كما رسمه المطراقي زاده، بيروت 2014، ص39

في القرن الثالث عشر (التاسع عشر للميلاد) تظهر مثل تلك التوابي محيطة بجانب من سور بغداد لاسيما الجانب الشمالي منه. والنص الذي أورده بجوي يدل على أن الجيش العثماني بقيادة الصدر الاعظم ابراهيم باشا الذي كان يحاصر بغداد، سنة 1042هـ/1632م اتخذ من هذه التحصينات مواضع لمهاجمة اسوار القلعة الخارجية بالمدافع التي نصبت عليها ، قال «تم الدخول الى التحصينات أمام قلعة بغداد، وحوصرت القلعة، وضربت ليل نهار على مدى أربعين يوما بالتمام». وهو يسميها (القلعة الكبيرة) مع انه لا يشير الى قلاع أخرى في الجانب الشرقي غيرها[1].

الأبراج

ذكرنا أن سور بغداد كان مُدعماً بعددٍ من الأبراج الحصينة التي شيدت مع تشييد السور نفسه في أواخر العصر العباسي، وكان الرحالة مطراقي زاده هو أول من رسم هذه الأبراج، ورسمها من بعده رحتاون أوربيون عديدون في القرون التالية، وأشار بجوي الى أحد هذه الأبراج في أثناء حديثه عن حصار هولاكو لبغداد فذكر أن المغول «أقاموا بلاط هولاكو (يقصد مخيمه) تجاه برج عجمي»[2] (يريد برج العجمي)[3]، ثم أشار اليه مرة أخرى حينما عين مواضع المتاريس النى نصبها القادة العثمانيون حوالي أسوار بغداد إذ قال أن امير امراء ديار بكر «وضع أربعة مدافع من نوع (باليمز) تجاه البرج الكبير المشهور بعجم برجي (اي برج العجم)[4]، ثم أنه تناول شيئا من تاريخ البرج وأورد رواية تقول انه سمي باسمه هذا يسبب طول اقامة الشيخ عبدالقادر الكيلاني فيه معتكفاً متعبداً[5].

أبواب بغداد

وعلى الرغم من أننا نعلم بوجود أربعة أبواب في اسوار بغداد، هي باب السلطان، وباب الظفرية (الباب الوسطاني)، وباب الحلبة (باب الطلسم الزائل)،

---

(1) ج2 ص531

(2) ج2 ص546

(3) في كتاب الحوادث ص356 أن المغول «اجتمع منهم خلق كثير على برج العجمي»، ولم يقل ان مخيم هولاكو كان بإزائه

(4) ج2 ص513

(5) ج2 ص517

وباب كلواذى (الباب الشرقي)، إلا أن بجوي لم يشر الا لبوابة واحدة، يسميها (قراكلق قبو) وهي تسمية تركية تعني الباب الأسود او المظلم، يعني به باب كلواذى الذي نسب الى قرية كُلواذى القديمة التي كان يفضي الى طريقها، وهو المسمى أيضاً بباب البصلية نسبة الى محلة البصلية المجاورة حيث تشغل أرضها اليوم محلة السنك، وكان يزرع فيها البصل،. وكان عدد كبير من الجنود القزلباش قد لجأوا الى هذا الباب وتحصنوا في داخله أثناء دخول القوات العثمانية الى بغداد سنة 941، مما دل على سعته، ولكنهم اضطروا أخيرا الى فتحه خِلسة والخروج منه خوفاً من بطش تلك القوات والهروب الى نواحي ديالى[1].

وكان يحيط بأسوار بغداد خندق واسع عريض يأخذ مياهه من دجلة عند أعلى القلعة، ويصبها فيه في أدنى الباب الشرقي ، وقد أشار بجوي الى هذا الخندق في حديثه عن حملة حافظ احمد باشا سنة 1035هـ/1625م لاسترداد بغداد من أيدي الشاه الصفوي، ويفهم مما ذكره أنه كان يمثل حاجزا عسكريا مهما، حيث لم يستطع أي من الجيشين الإيراني والعثماني اجتيازه على الرغم من أن حصار المدينة دام، بحسب روايته- مدة تسعة اشهر كاملة، فقال «كان الشاه موجوداً في مكان قريب من القلعة وكان لا يخلو من التضييق على عسكر الإسلام (يعني العثمانيين) في معظم الجهات، ولكنه لم يجرؤ هو شخصياً أن يهجم على عسكر الاسلام، ولم يستطع عبور الخندق والدخول الى الجيش الهمايوني، وعسكرنا أيضا لا يستطيعون القيام بحرب القلعة كما ينبغي».

الجوامع

عُني بجوي في اثناء حديثه عن فتح السلطان سليمان بغداد سنة 941 بأعمال هذا السلطان في تعمير جامع الإمام الأعظم ابي حنيفة بعد أن أصابه التخريب على يد القوات الصفوية، فقال أنه «أمر ببناء قلعة متينة في نواحيه، وقد وضعت المدافع الميدانية والمدافع من نوع (ضربزن) بداخلها، وعين عليها عسكر حراسة من أجل الحماية»[2].

---

(1) ص513

(2) ج1 ص229

وقال في موضع آخر «تم تجديد قلعة متينة وجامع شريف وعمارات لطيفة وتربة عالية ودار الضيافة»

كما نوه بالعناية الفائقة التي أبداها السلطان المذكور بقبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني وجامعه، فقال «وكذلك تم تجديد القبة العالية .. وتم تعمير وترميم جامعه المبارك من جديد، كما تم تجديد عماراته العالية، وسائر خيراته، وقد عينت عليه الاوقاف بالقدر الكافي»[1]. ولما تزل القبة التي أنشأها فوق مصلى هذا الجامع قائمة حتى اليوم.

قلعة الطيور

سماها قلعة (قوشلر) وهي تسمية تركية لقلعة الطير التي كانت قائمة في الجانب الغربي من بغداد، ولا نظن أنها من منشآت العصر العباسي لخلو مصادر ذلك العصر من اشارة إليها، وعرفتها مصادر القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) بقلعة الزركشي (التي تشغل أرضها اليوم السفارة البريطانية في محلة الكريمات) ، وأشير اليها في القرن العاشر باسمها التركي المذكور[2]. وقال بجوي أن القوات العثمانية نصبت عليها، في أثناء حصار السلطان مراد الرابع لبغداد سنة 1048هـ/1638م، المدفعية الثقيلة بهدف قصف مقر الحاكم الصفوي بكتاش خان، وقد قصفته بالفعل نحوا من ثمانية وثلاثين يوما ليلا ونهاراً ليل نهار»[3].

---

(1) ج1 ص463

(2) ذكر امير البحر التركي سيدي علي عند زيارته بغداد سنة 956هـ/1553م انه حينما اراد مغادرة بغداد الى الحلة والنجف وكربلاء أنه » مر من قبالة قلعة الطير، حيث وصل الى ما يسميه قلعة البئر، ومن هناك انطلق في طريقه مغادراً بغداد». كتابنا: رحلة القائد العثماني سيدي علي التركي، بيروت 2010، ص12

(3) ج1 ص463

مدرسة جامع السلطان

(دورها وتعيين موقعها)

مقدمة

كان تأسيس مدرسة الإمام أبي حنيفة في 18 صفر من سنة 459 بداية عهد جديد من تاريخ التعليم في الحضارة الاسلامية، إذ احتضنت هذه المدرسة جيلاً جديداً من طلبة العلم والعلماء ما كانوا يجدون قبل تأسيسها مجالاً للدرس والبحث إلاّ حلقات المساجد هنا وهناك، أو في بيوت العلماء أحياناً[1].

وجاء تأسيس المدارس النظاميات ليعزز هذا الإتجاه الجديد، فخفتت أصوات الداعين الى التعليم على وفق الطرائق القديمة[2]، ولقيت المدارس تأييد أهل العلم إن كان بتأسيسها، أو بالوقف عليها، أو بالإنتظام في سلكها، وسرعان ما انتشرت المدارس في العالم الإسلامي، مُبرهنة على أنها الأقدر على استيعاب حركة العلم والتعليم، بما أرسته من قواعد وتقاليد، فلم تعُد المدرسة دار تعليم ، يلتقى في رحابها الطلبة بأساتيذهم من العلماء فحسب، وإنما مركز بحثٍ حقيقي، فيها تؤلف المتون وتُملى وتُشرح وتُحشّى، حتى يمكن أن يقال أنها نجحت في استقطاب حركة التأليف أيضاً بمن استقطبتهم من كبار العلماء ونابهي الطلبة عصر ذاك.

وكانت مدرسة الإمام أبي حنيفة، بوصفها المدرسة الأولى والأم للفقه الحنفي، الأنموذج الأمثل الذي حذت حذوه المدارس التي وقفها الواقفون لتدريس هذا النوع من الفقه، في بغداد أولا، ثم في غيرها من الحواضر الإسلامية. ولعل أهم تلك المدارس وأطولها عمراً، مدرسة جامع السلطان في بغداد، وإن سبقتها مدارس اخرى إلا أنها لم تبلغ مبلغها في الشهرة والمكانة العلمية.

تأسيس دار السلطنة

وإذ نسبت هذه المدرسة العتيدة إلى جامع السلطان فلابد لنا من التعريف به، فأما السلطان فهو ملكشاه الأول بن ألب أرسلان، أشهر سلاطين السلاجقة الذين

(1) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، بيروت ص96

(2) حينما أنشأ الوزير نظام الملك المدارس النظاميات العشر أقام علماء ما وراء النهرمآتم للعلم معترضين على فكرة إنشائها.

قيض لهم القضاء على الدولة البويهية في العراق، وكان هؤلاء السلاطين قد اتخذوا لهم مقاماً ومستقراً في حي حصين حفيل بالقصور الفخمة على شاطئ دجلة، سمي بدار السلطنة السلجوقية، ووصفت هذه الدار بأنها تقع في محلة عرفت بالمُخرِّم، وقد عرفت المحلة باسمها هذا قبل أن تؤسس بغداد نفسها، حيث نزل في أرضها ، حين فتح المسلمون سواد العراق، من يُدعى مُخرِّم بن يزيد بن شريح بن مخرم بن مالك بن ربيعة بن الحارث بن كعب، فعرفت به، ولم تكن أرضها حينذاك الا بساتين ومساكن، قدرت مساحتها بنحو سبعين جريباً. أما موقعها فقد عيَّنه ياقوت بقوله في مادة المخرم «هي محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المُعلى»[1]. فالرصافة هنا هي الأعظمية اليوم تحديداً، وليست الجانب الشرقي من بغداد كما عرفت في العهود المتأخرة. أما نهر المعلى فهو أحد أنهار بغداد الشرقية يأتي بمياهه من نهر (بين) الذي يأخذ من نهر الخالص، وقد ازدهرت العمارة في جنوبي هذا النهر في القرن الخامس للهجرة، مما أدى الى نشوء المحلات السكنية هناك. وحينما جرى تسوير هذه المحلات بسور حصين ذي أبراج وأبواب، يبتدئ من نهر دجلة ويمضى شرقاً حتى يلتقى بذلك النهر، ومنه ينحرف الى الجنوب فينتهى بنهر دجلة مرة أخرى، صار نهر المعلى يخترق هذا السور من شماله الشرقي، أي قرب باب الظفرية (الباب الوسطاني اليوم)، ويسير في نفق طويل تحت محال بغداد حتى يدخل دار الخلافة العباسية عند قصر الفردوس، ثم يصب في دجلة تحت قصر التاج (على شاطئ دجلة في منتصف شارع المستنصر حالياً) حيث مقر الخلافة الرسمي. وهكذا انحسرت محلة المخرم لتغدو خارج باب المعظم، ولتشمل محلة العيواضية الحالية وما يقرب منها. فهناك كانت قصور السلاجقة تحديداً، حين اختار السلطان أرطغرل السلجوقي (دخل بغداد سنة 447 وتوفي 455هـ) أن يشيد أول قصورهم، وتلا ذلك تشييد قصور أخرى. وسرعان ما أحاطت بهذه القصور الأسواق والخانات والدروب والدور، فنشأت من ذلك محلة جديدة سميت بمدينة طغرلبك، حتى إذا بلغ السلاجقة أوج قوتهم وهيمنتهم، في عهد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (دخل بغداد سنة 480 وتوفي 485هـ)، أمر في محرم 485 بإنشاء سور حول هذه القصور، وجدد خانات المدينة الناشئة وأسواقها ودورها، وأنشأ داراً لضرب السكة هناك[2].

---

(1) معجم البلدان ، القاهرة ج6 ص342

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد 1359هـ ج9 ص60

تاسيس المدرسة

وكان من أهم ما أمر بإنشائه، جامع كبير وسيع، هو الذي عرف بجامع السلطان، قال مُختصِر مناقب بغداد «وتقدم ملكشاه بإنشاء خانات الباعة هناك وسوق ودروب، وبنى جامعاً هناك»[1]. وقدر الرحالة الاندلسي ابن جبير المسافة بينه وبين جامع الامام ابي حنيفة بنحو ميل واحد[2]. والميل الاسلامي عند الحنفية يعدل 4000 ذراعاً، اي نحو 1855متراً.

وبلغ من عنايته بهذا الجامع ما ذكره ابن الجوزي من أنه تولى «تقدير الجامع بنفسه، وبدرهم[3] منجمه، وجماعة من الرصديين، وأشرف على ذلك قاضي القضاة أبو بكر الشامي، وجلبت أخشابه من جامع سامراء»[4].

وقال ابن جبير في وصفه إياه «وجامع السلطان خارج البلد (اي خارج باب المعظم اليوم) يتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً معروف بشاه شاه (يعني ملكشاه بن الب ارسلان)، وكان مُدَّبر أجداد هذا الخليفة (الناصر لدين الله)، وكان يسكن هناك، فابتنى الجامع أمام مسكنه»[5].

بيد أن وفاة السلطان ملكشاه في شوال من تلك السنة، أوقفت أعمال البناء فجأة، فلبث ما بدأ به ناقصاً ومهملاً، ومنها جامعه الكبير، حتى إذا ما حلت سنة 502 أخذ بهروز[6] أبو الحسن، الخادم الأبيض، مولى السلطان غياث الدين السلجوقي (المتوفى سنة 540) بإكمالها، على أن المهم في الأمر أنه أنشأ في ذلك الجامع مدرسة كبرى لتدريس الفقه الحنفي، فكانت تلك المدرسة إمتدادا لمدرسة الإمام ابي حنيفة، ومركزاً متقدما من مراكز الفقه الحنفي في بغداد.

---

(1) مختصر مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجة الأثري، بغداد ص23.

(2) رحلة ابن جبير، بغداد 1356هـ ص282

(3) في ابن كثير: البداية والنهاية، حوادث 485 اسمه (إبراهيم).

(4) ابن الجوزي: المنتظم ج9 ص60

(5) رحلة ابن جبير ص282

(6) في ابن كثير: البداية والنهاية اسمه (هارون الخادم) وقال أنه هو الذي أتم بناء الجامع في سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

مدرسو المدرسة

استقطبت هذه المدرسة عدداً من كبار العلماء الأحناف ببغداد، درّسوا فيها وأفادوا وانتفع الطلبة بهم، ومنهم من تولى التدريس فيها وفي مدرسة أبي حنيفة معاً، فضلا عن التدريس في مدارس الحنفية الأخرى ببغداد، وقد بلغ عددها، عدا مدرسة أبي حنيفة، سبع مدارس في الأقل، كما أن منهم من تولى مناصب رفيعة في سلك القضاء، فكان منهم القاضي وأقضى القضاة، مما دلّ على غزارة علمهم والمواصفات الرفيعة التي كان يتصف بها من يجري اختياره للتدريس فيها. ومن بين هؤلاء العلماء:

- مجدالدين أبو الخير مسعود بن سعد، أبو الحسن اليزدي[1] الحنفي. ولد سنة 505 وتفقه وأفتى وناب في القضاء ودرس في مدرسة أبي حنيفة ومدرسة جامع السلطان، ثم خرج إلى الموصل، رسولاً من الخليفة المستنجد بالله في أمر لم يذكره المؤرخون، فأقام فيها ما تبقى من عمره، يدرس وينوب في القضاء، وتوفي بها في جمادى الآخرة من سنة 571. وأثنى عليه القاضي تاج الدين يحيى بن قاسم التكريتي في تاريخه فقال «كان شيخاً لطيفاً فيه دعابة» وذكر انه كان يدرس بالمدرسة المغيثية، التي أنشأها مغيث الدين محمود بن محمد السلجوقي المتوفى سنة 525هـ، وكانت تعد من أبرز مدارس الحنفية في القرن السادس للهجرة[2]. وقال القرشي «أحد الفقهاء الكبار على مذهب أبي حنيفة- رضي الله عنه- وأحد المدرسين ببغداد، وأحد القضاة والمفتين بها. وذكر زين الدين قطلوبغا أنه صنف كتاب (التقسيم والتشجير في شرح الجامع الصغير)»[3].

- عز الدين أبو الحسن علي بن المرتضى بن محمد العلوي الأصبهاني البغدادي، المعروف بالأمير السيد العلوي. ولد في بغداد سنة 521هـ، وتفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وسمع من أبي سعد أحمد بن محمد البغدادي وغيره[4]. قال قال ابن الجوزي في حوادث سنة 566 «وفي يوم السبت رابع عشرين الشهر (يعني رجب) ولي الأمير السيد العلوي التدريس بجامع السلطان مكان اليزدي». وذكره عماد

---

(1) في المنتظم (أبو الحسين) وتصحف في الجواهر المضية في طبقات الحنفية، حيدر آباد 1332هـ، إلى (البريدي).

(2) كتابنا: مدارس بغداد في العصر العباسي، بغداد 1966، ص55- 61.

(3) ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية ص 76

(4) زكي الدين المنذري ج1 الترجمة 169

الدين الكاتب الأصبهاني فقال «مولده ومنشؤه ببغداد، ووالده من أصبهان، كان في خدمة الخاتون [فاطمة خاتون] زوجة المقتفي، وتفقه ولده هذا وبرع على مذهب أبي حنيفة، ووجد الكرامة الكبرى من الخليفة وأهل الرتب الشريفة والمناقب المنيفة، فلم يَمل إلاّ لطلب العلم ونشره، ولم يرغب إلا في الفقه المؤذن برفع قدره، وله إلمام بنظم أبيات من الشعر تدل على إبرازه بالبر. وهو مدرس حامع السلطان بمدينة السلام، مشتمل على الإفادة مشمول بالإكرام»[1]. وذكره ابن الفوطي في تلخيصه، وقال أنه توفي ليلة الجمعة ثاني عشر رجب سنة 588 ودفن في مقابر قريش[2]»[3].

• ومنهم أيضاً الشريف أبو المجد علي بن علي بن يحيى المعروف بابن ناصر العلوي الحسيني الفقيه الحنفي، كان من أعيان فقه الحنفية ببغداد[4]. ولد في محلة مشهد الإمام أبي حنيفة سنة 515هـ وسمع الحديث عن القاضي أبي بكر محمد بن أبي بكر، والقاضي أبي نصر بن عبد الباقي الأنصاري وغيره. وحدث وسمع منه الحافظ أبو المحاسن الدمشقي. وقال المنذري «وكانت له معرفة بمذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ودرَّس بجامع السلطان»[5] وقال ابن الجوزي في حوادث سنة 566 هـ «وفي رجب ولي ابن ناصر العلوي التدريس بمدرسة السلطان التي كان فيها اليزدي فحضر درسه قاضي القضاة وغيره». وتوفي سنة 594هـ.

وكان في المدرسة مجلس خاص بالمناظرة، يتناظر فيه العلماء في شأن من شؤون العلم، فهو يشبه ما يُعرف بمجالس (السمينار) التي تعقد في الأقسام العلمية في جامعات اليوم، وممن اشتهر من علماء مجلس المناظرة بهذه المدرسة، الفقيه أبو زكريا يحيى بن المظفر بن الحسن بن بركة بن محرز البغدادي. قال ابو الوفاءالقرشي «تفقه على مذهب الإمام (أبي حنيفة) وسمع من أبي المعالي محمد بن محمد بن محمد بن النحاس بن العطار وغيره، وحدث وأفتى ودرس، وكان من أعيان الفقهاء، له مصنفات، وكان ذا لسان وعبارة، وله نظم ونثر»، ونقل عن المنذري قوله أنه «حدث وأفتى ودرَّس،

---

(1) العماد الأصبهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، ج1 ص195

(2) هي التي عرفت في العصور التالية بالكاظمية

(3) تلخيص مجمع الآداب ج4 ص226

(4) ابن أبي عذيبة: إنسان العيون في مشاهير سادس القرون، الورقة 157 نسخة دار المخطوطات العراقية

(5) زكي الدين المنذري ج1 الترجمة 431 والقرشي: الجواهر المضية ج2 ص224

وكان من أعيان الفقهاء الحنفية، وله مصنفات مولده سنة 536 وتوفي في ثالث عشرين من ذي الحجة سنة 625 رحمه الله تعالى»[1].

لبثت دار السلطنة السلجوقية عامرة بقصورها ومرافقها العديدة، حتى سنة 587، ففي هذه السنة أمر الخليفة الناصر لدين الله (575- 622م) بنقضها بقصد القضاء على آخر رموز دولة السلاحقة في بغداد، بعد أن أزاح سلطانهم السياسي إثر ما عرف باسم صحوة الخلافة، إلا أن النقض لم يشمل جامع السلطان ومدرسته، فظلت المدرسة عامرة بمدرسيها وطلبتها، على ما يفهم من كلام ياقوت[2]، وقد وجدنا أن ممن تولى التدريس فيها بعد ذلك التاريخ عدداً من المدرسين، منهم:

- يوسف بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن الحسن بن بشير بن منكو اللمغاني الحنفي، وهو من بيت مشهور بالفقه والعدالة. ولد سنة 518 وتفقه على أبيه وعمه، وكانا عالمَين ايضاً، حتى برع في المذهب والخلاف، وأخذ الحديث عن عدد من علماء عصره، وقرأ كثيراً من علم الكلام على مذهب المعتزلة، وكانت له فيه يدٌ قوية، وناظَرَ على إثبات خلق القرآن. ثم تولى التدريس بمدرسة جامع السلطان بعد وفاة مدرسها أبي الحسن العلوي سنة 588، وناب في التدريس بمشهد أبي حنيفة، وانتهت إليه رياسة أصحابه في وقته، وتوفي في ليلة الحمعة سنة 606 هـ. قال عنه ابن النجار «كان غزير الفضل ذا أخلاق لطيفة وكيس وتواضع»[3].

- ومن مدرسيها أيضاً في هذه المرحلة من تاريخها أقضى القضاة كمال الدين عبدالرحمن بن عبدالسلام بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن عبدالسلام بن الحسن اللمغاني، ولد سنة 564، وقرأ الفقه والخلاف، ودرس في المدرسة الزيركية، وهي من مدارس الحنفية في بغداد، بعد وفاة أبيه، وناب في الحكم والقضاء عن القاضي محمود بن أحمد الزنجاني، ثم عن قاضي القضاة عبدالرحمن بن علي. وفي سنة 633 قلد القضاء ببغداد، وولي التدريس في مدرسة جامع السلطان، ثم في مدرسة الإمام أبي حنيفة، وفي سنة 635 رتب مدرساً للحنفية في المدرسة المستنصرية، ثم استصفاه

---

(1) محيي الدين القرشي: الجواهر المضية ج2 ص218

(2) معجم البلدان ج8 ص342

(3) ابن الساعي: الجامع المختصر ج9 ص 195 والمنذري: التكملة لوفيات النقلة ج2 الترجمة 179 والقرشي: الجواهر المضية ج2 ص212

المستنصر إلى آخر أيامه، وكانت وفاته سنة 640، وقد صلي عليه في جامع القصر ودفن في مقبرة الإمام أبي حنيفة[1].

• ومنهم القاضي عز الدين أبو عبدالله بن إبراهيم بن منصور المعروف بابن زريق الكوفي. ترجم له عبدالرزاق ابن الفوطي فقال «قدم بغداد واشتغل بالفقه والأصول، ورتب معيداً بالمدرسة المستنصرية، ثم رتب مدرساً بمدرسة جامع السلطان، ظاهر مدينة السلام، ثم ولي القضاء بها، وتردد الشهود إلى خدمته، وجرت أموره على أحسن نظام لنزاهته وعفته وزهده ولين كلمته، وهو حسن المروءة، مقبل على شأنه»[2].

وقدِّر لجامع السلطان أن ينجو من التخريب، مرة أخرى، في أثناء احتلال المغول بغداد سنة 656 هـ. دليلنا على ذلك أن الخطبة لم تنقطع عنه بعد حوادث ذلك الاحتلال، ففي سنة 674 هـ عُيِّن الشيخ محيي الدين محمد بن مُحيًّا العباسي خطيباً في الجامع[3]، يقول صاحب الحوادث «وفيها عُيِّن الشيخ محيي الدين محمد بن محيا العباسي خطيباً بجامع المدينة المعروف بجامع السلطان.. ولم يخطب في بالعراق بعد الواقعة خطيب هاشمي سواه». كما خطب فيه أيضاً شمس الدين محمد بن عبيدالله الهاشمي الكوفي الواعظ ، وكان أديباً فاضلاً عالماً شاعراً، أورد صاحب الحوادث شيئا من شعره الرائق[4].

وورد ذكر الجامع في حوادث سنة 690هـ[5]، وآخر من ذكره الرحالة ابن بطوطة سنة 767 على أن ما ذكره منقول من رحلة سابقه ابن جبير[6]. ولم نقف على ذكر المدرسة في ذلك التاريخ، ومن الراجح أنها ظلت عامرة في وقت كان

---

(1) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب، تحقيق مصطفى جواد، دمشق 1962 ج4 ص226.

(2) تلخيص مجمع الآداب ج4 ص114

(3) ابن رافع السلامي: منتخب المختار ، تحقيق عباس العزاوي، ص283 وابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد ص1349هـ ج2 ص89

(4) كتاب الحوادث، بتحقيقنا والدكتور بشار عواد معروف، بيروت 1997 ص 363 و463 و424

(5) كتاب الحوادث ص505

(6) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان ومصطفى القصاص، بيروت 1987، ج1 ص235.

الجامع عامراً، فهي ملحقة به، أما بعد أن غابت أخباره فلا نعلم مصيرها، وفي أي وقت توقف التدريس فيها.

تعيين موقعها اليوم

علمنا من نص ابن جبير أن السلطان ملكشاه «ابتنى الجامع أمام مسكنه»، أي أمام دار السلطنة السلجوقية، وإذ علمنا أن هذه الدار كانت تحتل بقصورها وبساتينها شاطئ دجلة، فيكون معنى قوله أن الجامع يقع أمامها أنه يتقدمها بالنسبة للقادم الي تلك الناحية من جهة الشرق، ويؤيد هذا ما ذكره ياقوت من أن «الدار التي يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية خلف الجامع المعروف بجامع السلطان»[1]، فهي خلفه بالنسبة للقادم اليه من جهة الغرب، حيث دار السلطنة المذكورة.

وإذ علمنا أن الجامع كان مجاوراً لمقبرة عرفت بالمقبرة السهلية، توضّح لنا أن هذه المقبرة هي التي عرفت في العصر العثماني بمقبرة باب المعظم، وهي لما تزل موجودة الى اليوم، بيد أن حدودها الأصلية غير معلومة، بسبب إنشاء الدور السكنية في أجزاء واسعة من أطرافها، وشق الطرق في داخلها، لا سيما من جهتها الشرقية، حيث شق شارع الإمام الأعظم بأرصفته ومقترباته.

وعليه فلا نستطيع تعيين موقع المدرسة أكثر من هذا، وكنا نظن أنها كانت في قرب موضع جامع الوصي (المسمى جامع الحرية بعد 1958) الواقع في أدنى تلك المقبرة، الا أننا سُعدنا حينما وقفنا على نص جديد يعين موقعها على نحو أكثر دقة وتحديداً، فقد ذكر الشيخ محمد أمين بن عبد الرحمن العباسي السهروردي (المتوفى سنة 1312هـ/1894م) في كتابه المخطوط الذي عنونه (نزهة الأدباء في تراجم علماء ووزراء وأشراف مدينة السلام الزوراء)[2] في حوادث سنة 1247هـ/1831م ناقلاً عن مخطوط لجده مخمد عبدالمحسن، واصفاً الحوادث الدامية التي رافقت دخول القوات العثمانية المكلفة بانهاء حكم المماليك في بغداد، بقيادة والي بغداد المعين علي رضا باشا اللاظ أن والي بغداد المذكور لما أمر بقتل قادة المماليك الذين كان لهم حكم العراق قبله «أمر بحفر حفرة كبيرة خلف قلعة

---

(1) معجم البلدان ج8 ص346

(2) حققناه، وصدر عن دار الزمان بدمشق 2016، ص44

القرنتينة التي أشادها مدحت باشا 1285 مدة ولايته على بغداد[1] بالقرب من السدة، فوضعوا فيها جميعاً...وأهيل عليهم التراب بألبستهم. وكانت القرنتينة يومئذ مقبرة كبيرة، وفيها من آثار مدرسة ورباط وغيرهما قديمة، يرجع تاريخها الى بني العباس» فالقرنتينة، او الكرنتينة، هي المحجر الصحي الذي شيده مدحت باشا في جانب من ثكنة السوارية (الخيالة) وذلك لحجز القادمين الى بغداد خشية نقلهم الأمراض المعدية، ومكان هذه الثكنة معروف تماماً لأبناء الجيل الماضي، فقد شهدت في أول عهد الحكومة العراقية تأسيس أول تشكيلات الجيش العراقي، ثم شغلت بعض أجنحتها بعض الدوائر العسكرية والمدنية، والحوانيت العسكرية، وهي تقع مقابل مدرسة متوسطة الغربية ووزارة الاوقاف سابقاً. فهناك في موضع من هذه الثكنة كان جامع السلطان، وهو ما سماه السهروردي رباطاً، ومدرسته، وكان صائبا في قوله انهما يرتقيان الى العصر العباسي، اذ لم تكن ثمة جامع ومدرسة في ذلك العصر في هذه الناحية من ضواحي بغداد سواهما.

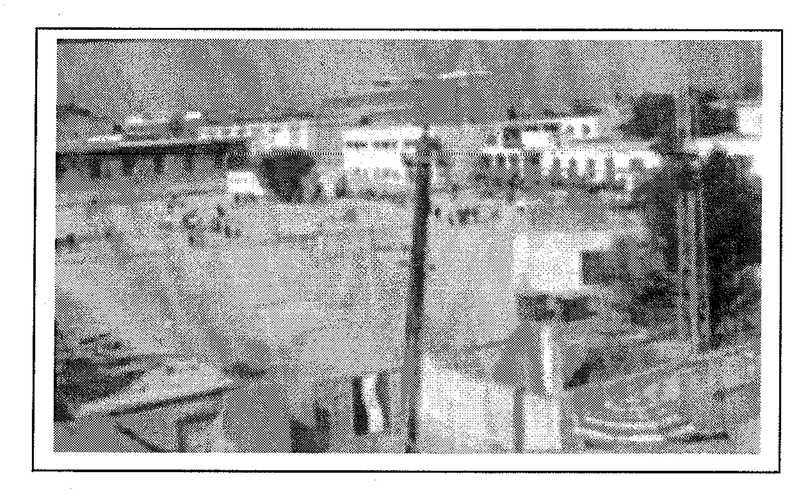
وهكذا عيَّن النص موقع هذه المدرسة بعد أن دُثرت لقرون عديدة، وبذا تعين موقع الجامع الكبير الذي نسبت اليه، كما تكشفت حدود دار السلطنة السلجوقية، فإذا بها تحتل الأرض الممتدة من شاطئ دجلة حتى تلك الثكنة، مجتازة شارع الإمام الأعظم. أما المقبرة السهلية فصارت تمتد لتشمل لتحيط بالجامع ومدرسته، وأذكر اني سألت بعض العمال الذين كانوا يحفرون أسس مبنى حديث يجري تشييده في ارض تلك الثكنة، في تسعينات القرن الماضي، عما لفت إنتباههم في أثناء حفرهم تلك الأسس، فكان جوابهم أنهم عثروا على بقايا قبور عديدة منتشرة في هذه الأرض.

خاتمة

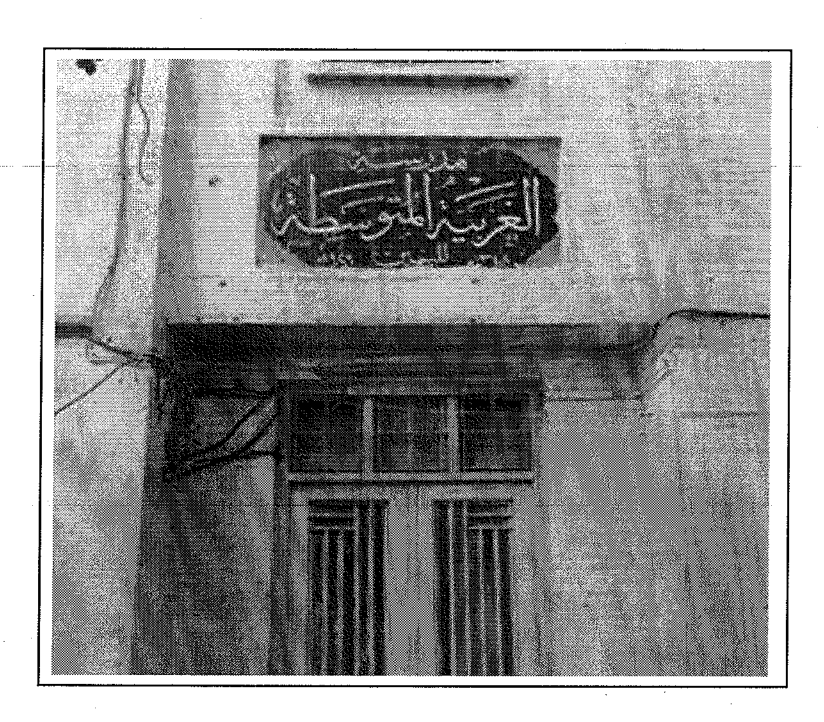
إن مدرسة جامع السلطان هي واحدة من أهم مدارس الفقه الحنفي في بغداد في العصر العباسي، بل أنها تعد، في نشاطها الفقهي والفكري، إمتداداً لتلك المدرسة الأم، مدرسة الإمام أبي حنيفة، وقبساً من شعاعها، فقد تولى التدريس فيها مدرسون سبق أن تخرَّجوا منها ودرَّسوا فيها، ناقلين اليها تجربتهم وخبرتهم. ومع أن مدارس اخرى للفقه الحنفي أنشئت في بغداد في العصر العباسي، منها

(1) هذا التاريخ لا يتفق مع ولاية مدحت باشا في بغداد، فقد تولاها من 18 محرم 1286إلى أول ربيع الأول 1289هـ/ 9 أيار 1869-8 أيار 1872م.

مدرسة باب الطاق والمدرسة التتشية والمدرسة المغيثية إلاّ أن شهرة مدرسة جامع السلطان ظلت متميزة، وأن دورها العلمي استمر حتى ما بعد الاحتلال المغولي في منتصف القرن السابع للهجرة.



ارض الكرنتينة الداثرة حيث انشئت مدرسة جامع السلطان



مدرسة الغربية التي كانت تقابل مبنى الكرنتينة الداثر

مئذنة اليوسفية

بقية من مدينة عباسية مندثرة

في وسط حقل فسيح مترامي الأطراف، مطل على طريق ترابي يصل بين ناحية اليوسفية، ومنطقة بغداد الغربية[1]، وعلى نحو عشرة كيلو مترات من بلدة اليوسفية ذاتها، تقف مئذنة عتيقة وحيدة تصارع الرياح وعوادي البيئة. ليس حولها أي بناء، كما ليس لها من إسم سوى ما أطلقه عليها أهل تلك الناحية، وهو المكيطيمة، تصغير (المكطومة)، أي (المقطومة) دلالة على شكلها الناقص. ولا يعرف أهل المنطقة عن هذه المئذنة سوى خرافة لا يعتد بها على أية حال. ولكنهم أطلقوا، منذ عهد بعيد، اسمها على جَدولَي ماء يمرّان على جانبيها، هما جدول المكيطيمة الشرقي وجدول المكيطيمة الغربي وكلاهما يأخذ من نهر اليوسفية الحديث[2].

وعلى الرغم من خلو الجزء المتبقي من المئذنة من أية كتابة أثرية يستدل بها على سنة تأسيسها فإننا نستطيع أن نستدل من نوع أجرها وتكوينها المعماري المميز وزخارفها البنائية البديعة، على أنها ترتقي إلى القرن السادس أو السابع للهجرة (الثاني عشر أو الثالث عشر للميلاد) وأنها تشابه عدة مآذن عراقية عباسية أخرى، منها على سبيل المثال مئذنة جامع سنجار الأثرية (521 هـ/1127م) ومئذنة جامع داقوق قرب كركوك (سنة 608هـ/1221م) والمئذنة المظفرية في ظاهر أربيل (بين 586-630هـ/1190- 1233م[*]).

إن جميع ما تبقى من المئذنة مبني بالجص والأجر، وتبلغ أبعاد كل من نوعي الآجر المستخدم في البناء 24، 20 سم بثخن يبلغ 6 سم.

ولقد ذهبت عوادي الزمن المختلفة بالقسم العلوي من المئذنة بضمنه حوضها، فلم يتبق منها حالياً سوى ما ارتفاعه ستة أمتار و45 سنتيمتراً، والظاهر أنها كانت أعلى بكثير بدلالة ضخامة قاعدتها وسعة محيطها، وكان بعض أهل تلك الناحية

---

(1) اليوسفية بلدة قديمة في وسط العراق، نسبت إلى اسم خان قديم فيها، وهي مركز لناحية تابعة لقضاء المحمودية من أقضية محافظة بغداد.

(2) إن المعلومات التي نوردها في هذه الدراسة تستند إلى معطيات عدة زيارات قمنا بها إلى هذه المئذنة في صيف سنة 1967م.

قد أخبرني سنة 1967 أنها كانت أكثر ارتفاعاً عما هي عليه الآن بحوالي المتر أو أكثر، على ما شاهده قبل روايته هذه بسنين عدة. وبمقارنة ما تبقى من هذه المئذنة الآن والمآذن الأخرى المرتقية إلى عصرها، مما أشرنا إليه، نستطيع القول أن ارتفاعها كان يتجاوز الثلاثين متراً.

وللمئذنة قاعدة ترتفع عن الأرض مسافة 65، 2 م (31 صفا من الآجر تقريباً) وهي مُضلَّعة الشكل ذات خمسة أوجه غير منتظمة الأبعاد تماماً، يتراوح عرض كل واحد منها بين 85 سم، و105 سم، وسبب هذا الاختلاف هو موقعها من الجامع الزائل، وكونها متصلة ببنائه وعقوده سابقاً، حيث يتصل بأحد هذه الجوانب جزء من جدار ضخم يبرز عن بدن القاعدة المذكورة بنحو 70 سم، ويبلغ ثخنه 56،1م، وهو يتقوّس من الأعلى ليكون عقداً مدبب القمة ضخماً يمثل مدخل الجامع نفسه، بيد أن بقية العقد زالت بفعل عوادي الزمن، ومن المؤكد أن أسس الجدار المقابل موجودة تحت طبقة مرتفعة قليلاً من الأتربة التي تعلو أنقاض الجامع الزائل، وليس بمستبعد أن تكون هناك، تحت تلك الأتربة، أسس عمد وجدران، يمكن أن تظهر عند رفعها والعناية بالموقع.

ويعلو قاعدة المئذنة الجزء الأسطواني منها (ويسمى محلياً بدن المئذنة)، وارتفاعه وحده 80،3 ويبلغ محيطه نحو 5 أمتار وثخن جداره 35 سنتمتراً. له مدخل من جهة الشمال، ذو عقد مدبب أحيط أعلاه بشريط من الآجر، ويبلغ ارتفاع هذا المدخل 75،1 متراً وبعرض 80 سم، ينفذ منه إلى سلم حلزوني يلف داخل البدن على النمط المعروف محلياً بـ(الفحل)، وثمة إحدى عشرة درجة لمّا تزل سليمة منه، إرتفاع كل منها 30 سم. وعرضها 70 سم، وليس لما تبقى من المئذنة نوافذ أو كُوى مما هو معتاد في أكثر المساجد. وواضح من ارتفاع مدخل المئذنة أن المؤذن لم يكن يصعد إليها من أرض المسجد مباشرة، كما في المئذنة المظفرية في إربل، وإنما عن طريق شرفة تتصل بالطابق العلوي من المسجد، كما هو الحال في مئذنة جامع القصر (جامع الخلفاء) في وسط بغداد.

ويمكننا أن نرى في المئذنة عدة ملامح فنية عراقية واضحة تساعدنا على تحديد تاريخ إنشائها، ففي أعلى القاعدة المضلعة شريط بنائي جميل بارتفاع 30 سم، يتشكل من قطع الآجر المتداخلة عمودياً. وهي ميزة نجدها في أغلب المنشآت

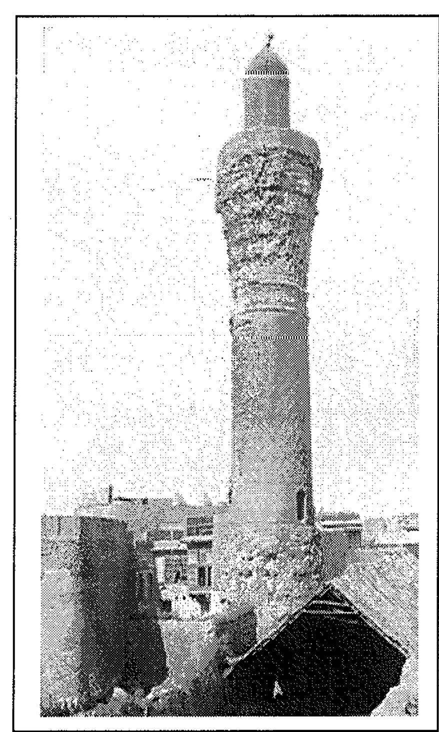
العراقية التي ترقى إلى العصر العباسي، كمئذنة جامع سنجار ومئذنة جامع القصر أو جامع الخلفاء المبنية بعد سنوات قلائل من نهاية ذلك العصر سنة 678هـ/ 1289م وغير ذلك. وأول ما ظهر هذا الاسلوب في دار الامارة بالكوفة، وهو على ما يبدو مبالغة في تحصين البناء وتقويته فضلاً عن تشكيله، في الوقت نفسه، حلية بنائية بين صفوف الآجر.

وفي الجزء الاسطواني أيضاً، بعد نحو 30 قطعة آجر، شريط آخر مماثل للشريط مار الذكر، تعلوه حلية بنائية جميلة تتكون من رصف لقطع الآجر على شكل XXX مؤلفة من الأسفل عدة مثلثات تستند قواعدها على الشريط الآجري الأول الذي يعلو عقد باب المئذنة مباشرة، ثم تعلوها عدة مربعات كاملة تقف على إحدى زواياها، ثم مُلئت دواخل كل مربع برصف عمودي لقطع آجر أخرى بالحجم نفسه، وثمة قطع صغيرة مربعة ومزخرفة من الآجر تفصل بين نوعي الرصفين، وفي وسط كل تشكيل توجد واحدة من هذه القطع الصغيرة، فيشكل ذلك كله منظراً هندسياً جميلاً. وهذا النمط من البناء مشابه جداً لما هو موجود على بعض جدران المدرسة المرجانية (جامع مرجان) ببغداد، ولا يختلف عنه إلاّ بزيادة تلك القطع الآجرية المزخرفة. كما توجد في أعلى الجزء المتبقي من العقد المتصل بقاعدة المئذنة، مساحة مثمنة الاضلاع كانت تحتوي- فيما يبدو — زخارف أو كتابات قبل ان تسقط بفعل عوادي الطبيعة.

ولما كان بناء مئذنة ضخمة على نحو منفرد وسط البرية مما لا يعقل أصلاً، وانما يكون لجامع رئيس وسط مدينة زاهرة، فرجعنا إلى المنطقة نفسها نفتش فيها عن جواب، فلاحظنا أن ثمة تل أثري قريب من المئذنة يكاد يتصل بها لولا أن يفصله عنها جدول المكيطيمة الغربي، وبما أن هذا الجدول، كمُحاذيه الشرقي، هو من الجداول الحديثة اذا ما قيست بمجاري الانهار القديمة في المنطقة، فإن لنا أن نقول بأن هذا التل ليس الا بقايا تلك المدينة المندثرة. وتبلغ المساحة التقريبية للتل نحو ستة دونمات[3]، ويغطي هذه المساحة ما لا يمكن عده من قطع الآجر والخزف الفاخر وأنواع الفخار الملون العائد إلى العصر الاسلامي. ولا نشك في أن أعمالاً تنقيبية فيها من شأنها أن تكشف عن مدينة عراقية عباسية مهمة.

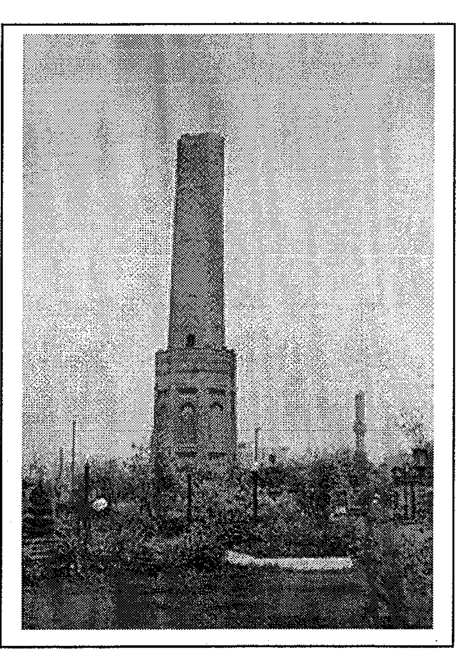
---

(3) الدونم يعادل 2500 متر مربع

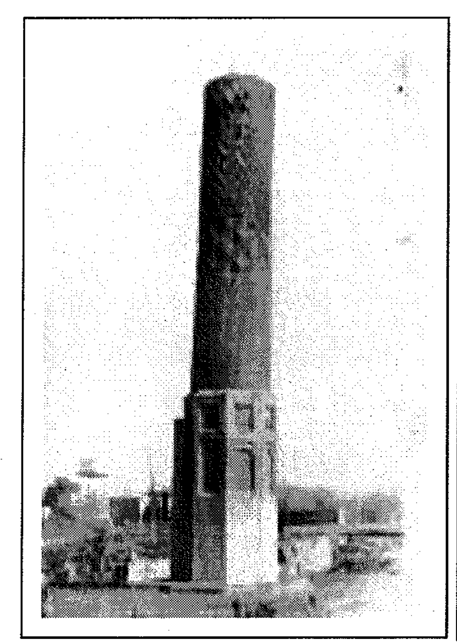


ما تبقى من مئذنة جامع سنجار

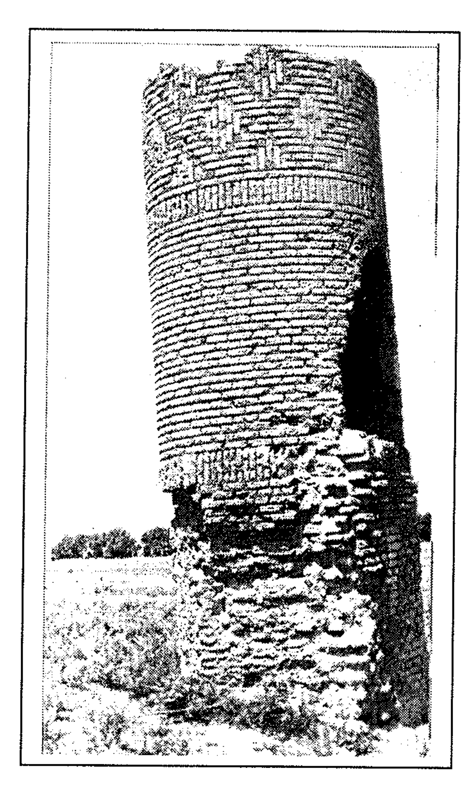
مئذنة جامع الفصر ببغداد 1911



ما تبقى من المئذنة المظفرية في إربل



ما تبقى من مئذنة جامع داقوق



ما تبقى من مئذنة اليوسفية

من الصعب في الوقت الحاضر التوصل إلى اسم هذه المدينة العباسية، لا سيما وإنا نعلم بوجود عدد من المدن والقرى الزاهرة في هذه المنطقة التي تمثل طريق الحاج التاريخي بين الكوفة وبغداد، وقد مرَّ به عدد من الرحّالين فوصفوا كثافة السكن فيها واتصال القرى ببعضها وكثرة ما يخترقها من جداول وما يصل بينها من حقول وبساتين. ولعل أبرز من وصف هذا الطريق الرحالة الأندلسي ابن جبير، وذلك حين مرَّ به متوجهاً من الكوفة إلى بغداد.

ومما يؤكد وجود بقايا هذه المدينة تحت ركام التل وترابه، أن آثار مجرى نهر واسع نسبياً يمكن تتبعها الآن، كانت تصلُ إلى هذا الموقع، مبتدئة من مجرى نهر اليوسفية القديم المندثر، وهو يقع إلى الجنوب من نهر اليوسفية الحديث، فهذا النهر كان يروي تلك المدينة بمياهه. ويبلغ عرض النهر المندثر الآن، بقياس ما بين كتفيه، نحو عشرة أمتار، ويمضي الطريق الترابي الموصل إلى موقع المكيطيمة حالياً في عقيقه.

ومن المؤسف حقاً ان هذه المدينة ومسجدها ومدينتها بقيت حتى يومنا هذا بعيدة عن أية عناية أثرية. وكل ما في الامر ان مديرية الاثار القديمة العامة (المؤسسة العامة للآثار والتراث فيما بعد) سجلت المئذنة (أثراً) سنة 1937. أما التل الاثري المجاور فلم يسجل كأثر حتى الان رغم ما يحفل به سطحه من لُقى أثرية متنوعة واتصاله بالمئذنة ذاتها. ومن الغريب أن اشارة إلى هذه المئذنة لم ترد في الاطلس الذي نشرته مديرية الآثار العامة بعنوان (أطلس المواقع الأثرية في العراق) (بغداد 1975 خارطة رقم 27) مع أنها مسجلة أثراً منذ أمد بعيد على ما ذكرنا.

إننا هنا ندعو المؤسسة (الهيئة) العامة للاثار والتراث إلى العناية بهذا الموقع الأثري المهم، فترمم مئذنته، وتكشف عن أسس جامعها، وتجري التنقيبات اللازمة في مدينته المندثرة، فذلك كله من الأمور الممكنة حالياً، ولكنه لن يكون كذلك اذا ما امتد العمران إلى المنطقة بازدياد عدد القرى المجاورة واستغلال سكانها ما تحتويه من قطع آجرية ومخلفات أثرية أخرى[4].

(4) كتبنا هذا البحث سنة 1967 وصورناه سنة 1980 ولا ندري ما آل إليه حال هذه المئذنة وما حولها بعد ذلك التاريخ.

اكتشاف قبر الخليفة المستعصم بالله العباسي

في ليلة 19 شباط من سنة 1258م (14صفر 656هـ) كان القمر قد أكتمل بدراً، وشرع يُرسِل ضياءه الخافت إلى بغداد الجريحة، بعد أن دخلتها عساكر المغول، فدمَّرت وخرَّبت ما شاء لها التخريب، ولم يبق من رموز عهد زاهر مضى عاشت فيه مدينة السلام نحو خمسمائة سنة غير الخليفة العباسي المستعصم بالله الذي أمسى سجيناً بيد قوات الاحتلال منذ عشرة أيام قبل ذلك التاريخ، حينما خرج- مع أبنائه- في يوم الأحد، الرابع من صفر إلى معسكر هولاكو مستسلماً، محاولاً محاولته الأخيرة لدفع خطر الموت عن أبناء شعبه.

ولم تُجدِ مساعي الخليفة نفعاً، بل أُرسل مخفوراً إلى معسكر أحد قادة الجيش المغولي وصهر هولاكو هو (كيتو بوقا)[1]، وكان هذا المعسكر يقع في جنوب المدينة، في ظاهر باب كلواذى (الباب الشرقي كما عرف فيما بعد)[2]، وأقيم للخليفة ولأبنائه وأتباعه خيَماً، بما يشبه معسكر إعتقال، حيث عُهد بحراستهم إلى عددٍ من الجند المغولي[3]. وفي أثناء ذلك، وبالتحديد في يوم الأربعاء 7 صفر (12 شباط) هجم المغول، دفعة واحدة على بغداد في اكثر أيام هذه المدينة نحساً وأسى[4]. وفي يوم الجمعة 9 صفر (14 شباط) دخل هولاكو بغداد، فنزل في الدار المثمَّنة (أحد قصور دار الخلافة على شاطئ دجلة)[5] حيث جرى الإحتفال

---

(1) ويكتب اسمه أيضاً بشكل (كتبغا) وقد لقى مصرعه على يد الجيش المصري في معركة عين جالوت في يوم 25 رمضان سنة 658/ 3 أيلول 1260م كتابنا: معركة عين جالوت، (منشورات مركز البحوث والمعلومات، بغداد 1986) ص48-49.

(2) كان هذا الباب واقعاً قرب ساحة الباب الشرقي حالياً.

(3) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ المجلد 2 الجزء 1، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين (القاهرة بلا تاريخ) 290-291 وابن العبري: غريغوريوس: تاريخ مختصر الدول (بيروت 1958) 271.

(4) الهمذاني: المصدر السابق 291، وابن العبري 272.

(5) تصحف اسم هذه الدار في الهمذاني إلى (الميمنة) وهو المصدر الوحيد التي أشار اليها، والدار من ابنية الخليفة المسترشد بالله، جرى افتتاحها سنة 518هـ، وكانت تقع قرب باب الغَرَبة، وهو الباب الشمالي لدار الخلافة العباسية على شاطئ دجلة أي في المنطقة المحصورة اليوم بين عمارة الدفتردار وشاطئ النهر.

بالنصر، وفي هذا القصر استُدعي الخليفة من معتقله ليُستَجوَب عن خزانة أموال دار الخلافة، وبعد الفراغ من الإستجواب كانت اللحظة الأخيرة من حياة الخليفة الأخيرة قد حانت، وكان الظلام قد أخذ يسدل سُدُله على بغداد، في مساء ذلك اليوم الحزين الرابع عشر من صفر (19شباط 1258م) فاقتيد إلى حيث وضع في غرارة، وهي كيس يوضع فيه التبن عادة[1] ورُفُس حتى مات شهيداً[2]، وبموته زال آخر رمز لوحدة العالم الإسلامي ولإستقلال العراق نفسه على حد سواء، لتبدأ بعده فصول من الفوضى والإضطراب والإنحطاط.

وبمجرد أن وُري جثمان الخليفة الثرى، حتى بدأت حملة منظمة أريد بها تشويه صورته ومسيرته في أعين الناس، فأتهم بالاستبداد، مع أن مكمَن ضعفه ركونه إلى أراء مشاوريه (غير الأكفاء)، وبلغ برشيد الدين فضل الله الهمذاني المؤرخ الرسمي للمغول إلى القول بأن عدد نسائه بلغ سبعمائة زوجة وسَريّة وألف خادمة[3]، بينما يذكر مؤرخ بغدادي واسع الاطلاع ومعاصر هو ابن أنجب الساعي أنه "كان له جاريتان قبل الخلافة، له من إحداهما ثلاثة بنين وبنت، ومن الأخرى أربع بنات، فلما أفضت الخلافة إليه لم يتغير عليهما ولا أغارهما بل راعهما حفظاً لعهدهما، ثم طلبت منه أم البنين أن يعتقها ويتزوجها ففعل ذلك، فلما ماتت استجد بأخرى وحَظيت عنده فلم يعترض بغيرها وجاء منها بولد ذكر، وطلبت منه أيضاً أن يعتقها ويتزوجها ففعل ذلك، هذا فيما يرجع إلى حسن العشرة وحفظ العهد ومراعاة الصحبة والوفاء"[4]. فأنظر إلى مدى تجاوز الإتهام كل حدود المعقول وقِس على ذلك كثيراً مما سواه من الإتهامات التي كيلت إلى هذا الخليفة.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب مادة غرر.

(2) ابن الفوطي عبد الرزاق (منسوب إليه): كتاب الحوادث، ص357 وتذكر رواية مغولية، رددها الهمذاني وابن العبري أن قتل المستعصم كان في أول مرحلة من مراحل عودة هولاكو إلى همذان وتحديداً في قرية (وقف) ونعتقد بعدم صحة هذا الرواية فصاحب كتاب الحوادث – وهو معاصر- أشار إلى أن قتله جرى في بغداد صراحة، وان رحيل هولاكو عن بغداد لم يحدث إلا في جمادى الأولى من تلك السنة. ومن المرجح ان يكون مبعث الرواية المغولية رغبة المحتلين في قطع أية صلة تُذكِّر البغداديين بخليفتهم وبمصيره المؤلم.

(3) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ترجمة يحيى الخشاب ص291.

(4) الاربلي، سنبط بن قنيتو: خلاصة الذهب المسبوك (بغداد1964) ص291 نقله عن شيخه ابن الساعي.

ويكفي أن نسوق هنا شيئاً مما نقله ابن قنيتو الإربلي عن ابن الساعي، لنتبين بعض مزاياه وفضائله، يقول: «وأما سيرته فكان فيه أوصاف لم تجتمع في غَيره ممن مضى من آبائه وأجداده- رحمهم الله- فأنه كان حافظاً للقرآن المجيد، عاكفاً على تلاوته، مواظباً على الصلوات في أوقاتها وصوم الاثنين والخميس من كل شهر، وصوم شهر رجب دائماً، لا يُخل بذلك مدة خلافته وقبل خلافته»[1]. وقال مؤرخ بغدادي معاصر أيضاً، هو ظهير الدين بن الكازورني «كان. قدس الله روحه- جميل الصورة حسن الوجه، كامل المحاسن، أسمر اللون، حسن العينين، مسترسل شعر الوجه، ظاهر الحياء، كثير التلاوة للقرآن المجيد، صالحاً ديناً لا يتعرض بشيء من المنكر ولعله لم يَرَ صورته ولا يعرفه، وكان ليِّن الأكناف صالحاً ديناً شريف النفس كريم الطباع.. صبر على الشدائد والأمور المستعصيات فأن عساكر المغول دهمته ونزل بين الكُشك العتيق والملكية في سابع عشر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وستمائة، فتلقاهم بعزم شديد ورأي سديد، وأخرج إليهم إقبالاً الشرابي بعسكر الديوان وثبت لهم إلى الليل، ثم لاحت لهم إمارة قوة عسكر بغداد فانهزموا ليلاً ولم يلاقوهم، وعادت عساكر بغداد منصورة محروسة من العدو ببركته»[2]. كان هذا قبل احتلال المغول بغداد سنة 656 فلما احتلت إنقلب «عزمه الشديد» عند أولئك المؤرخين- إلى عجز وتفريط و «رأيه السديد» إلى استبداد وعدم الإستماع إلى نصح الناصحين.

سعى المغول إلى محو كل ذكرى لهذا الخليفة العباسي أو تشويهها، ومن ذلك ما فعلوه بجثمانه بعد قتله، يقول صاحب كتاب الحوادث المعاصر للحدث، «ودُفن وعُفي أثر قبره»[3] ومثله ما ذكره ابن الكازروني[4]، أما ابن طباطبا فقد سكت عن الإشارة إلى قبره[5]، ليس عن جهل منه به، لأننا سنجده يصرح به في كتاب آخر له كما سيأتي، وهو ما يؤكد أن تغييب مدفنه كان مقصوداً أريد به إسدال النسيان على تاريخ الخلافة العباسية كلها[6].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) ابن الكازروني: مختصر التاريخ، تحقيق د. مصطفى جواد (بغداد 1970) ص 268.

(3) الحوادث ص 357.

(4) مختصر التاريخ ص 274.

(5) انظر ابن طباطبا الطقطقي: الفخري بن الأدب السلطانية (القاهرة بلا تاريخ) ص272.

(6) ابن بطوطة: تحفة النظار (القاهرة 1928) ج1 ص142.

ولطالما تساءل الكثيرون عن مدفن هذا الخليفة، فلم يجدوا بين النصوص ما يمكن أن يهديهم إلى ذلك، وهكذا بقي قبره مطوياً مجهولاً عن أكثر الناس. ونقول أكثرهم لأن الرحالة المغربي ابن بطوطة أشار في زيارته لبغداد سنة 716هـ إلى أسماء الخلفاء الذين لهم قبور في محلة الرصافة ببغداد، فذكر بينهم قبراً للمستعصم، وعلى الرغم من أهمية هذه الإشارة إلا أنها لم تلفت نظر أحدٍ من الباحثين ليتخذها مفتاحاً يستجلي به حقيقة الأمر، بل أن باحثاً جليلاً هو المرحوم الدكتور مصطفى جواد ذهب بعد أن نقل خبر ابن بطوطة إلى أنه "قول مبنى على الخيال لأن المغول لما قتلوا المستعصم أخفوا جثته مع جثتي إبنيه أحمد وعبدالرحمن ولم يُعلم لواحدٍ منهم قبر صحيح بين القبور، والذي قيل في ذلك اختراع وابتداع»[1]. فبدل أن تتخذ هذه الشهادة سبيلاً للبحث في الأمر، والتدقيق فيه، أهيل عليها تراب التجاهل التام، بل عُدَّ مجرد القول فيه "اختراع وابتداع" مع أن سكوت المصادر لا يقوم- دوما- حُجّة، لا سيما وأن الأمر لا يخلو- كما رأينا- من دوافع سياسية مقصودة.

وشاء الله أن لا تضيع شهادة ابن بطوطة بَدَداً، ففي أواخر القرن التاسع للهجرة (القرن15م) أعاد مؤرخ بغدادي كبير عُرف بدقة روايته وسعة اطلاعه هو عبد الله بن فتح الله الغياث البغدادي، هذا الخبر مع شيء من التعيين الجغرافي، فقال عن مدفن المستعصم: «اختفى قبره، وقيل بمشهد عبيد الله بن عمر الأشرف»[2]. وهكذا اجتمعت لدينا إشارتان خططيتان مهمتان، الأولى أنه في الرصافة، وهي إشارة ابن بطوطة، والأخرى في مشهد عبيدالله المذكور في نص الغياثي، وكلتا الروايتين يكمل بعضها بعضاً، فالرصافة هنا هي الأعظمية الحديثة وكانت تضم إبان العصر العباسي قبور الخلفاء، وتعرف بـ (تُرب الرصافة)، تؤكد ذلك نصوص ودلائل خططية عديدة، منها ما ذكره ابن جبير في رحلته إذ قال: «وبأعلى الشرقية (أي الجانب الشرقي) خارج البلد محلة كبيرة بازاء محلة الرصافة، وفي تلك المحلة مشهد حَفيل البنيان.. فيه قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وبه تُعرف المحلة»[3]. ومنها ما ذكره ياقوت الحموي في وصفه تلك الأنحاء، إبان القرن السابع الهجري (13م) قال: «وخربت تلك النواحي كلها ولم يبق إلا الجامع (يعني جامع المهدي بالرصافة) وبلصقه

---

(1) أحمد سوسة ومصطفى جواد: دليل خارطة بغداد المفصل (بغداد 1958) ص204.

(2) التاريخ الغياثي، بتحقيق طارق الحمداني (بغداد 1975) ص 278.

(3) ابن جبير: تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار (بغداد 1356) ص18.

مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف وفراشون برسم الخدمة، ولولا ذلك لخربت وبلصقها محلة أبي حنيفة وفيها قبره»[1].

فهذان النصّان وغيرهما من القرائن العديدة؛ يدلان على أن البحث عن موضع دفن المستعصم ينبغي ألا يتجاوز في نطاقه محلة الأعظمية الحالية، فإن أردنا تحديد هذا النطاق أو تضييقه وجب علينا التوقف عند الدلالة الثانية أعني: مشهد الإمام عبيد الله[2].

ينسب هذا المشهد إلى من عُرف بعبيد الله العلوي، وقد سماه البغداديون قبر النذور «لأنه ما كاد يُنذر له نذر إلاّ صَح»[3]. وكان عند هذا المشهد مصلى البغداديين في أيام الأعياد، لذا فقد عرف أيضاً بمصلى العيد، ولبث كذلك حتى أنشئ مصلى جديد قرب دار الخلافة سنة 279هـ (في أرض جامع القصر أو جامع الخلفاء) فعرف المصلى الأول حينذاك بالمصلى العتيق[4].

ونظراً لاحترام البغداديين هذا المكان، فقد دفنوا حوله عدداً من أبناء الخلفاء والصلحاء أبرزهم أبو العباس أحمد بن الخليفة العباسي هارون الرشيد المتوفى سنة 184، والمعروف بالسَبتي[5]، وقد ظل قبره مزار البغداديين حتى أواخر العصر العباسي ويعرف بقبر السَّبتي، كما دُفن فيه أيضاً عدد من كبار علماء بغداد وصلحائها في ذلك العصر التالد. وكان من مظاهر عناية الأسرة العباسية بمشهد النذور، أن قامت السيدة المحسنة زُمُرد خاتون المتوفاة سنة 599هـ، وهي زوجة الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566- 575هـ) وأم الخليفة الناصر لدين الله (575- 622هـ) بإنشاء رباط للزُهاد والعُبّاد بقربه، وتولى ابنها الناصر تعمير المشهد،[6] ولبث هذا الرباط عامراً حتى هُدم، والمشهد أيضاً، بالغرق الذي داهم بغداد سنة 646هـ[7]، فأعيد تعميره 650هـ، قال صاحب كتاب الحوادث في حوادث هذه السنة «وفتح

---

(1) ياقوت: معجم البلدان (بيروت 1956) ج4 ص254.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (القاهرة 1931) ج1 ص125.

(3) ياقوت: معجم البلدان ج4 ص305.

(4) الخطيب: تاريخ بغداد ج1 ص 109- 110 وابن الجوزي: المنتظم (حيدر آباد 1359) ج6 ص43.

(5) سوسة و جواد: دليل خارطة بغداد المفصل، 320

(6) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج8 ص627

(7) الحوادث ص237.

الرباط الذي أمرت بتجديده أم الخليفة الناصر مجاور مشهد عبيد الله عليه السلام، وعمل فيه دعوة، وكان قد تشعَّث منذ الغرق وأُجري على ما كان عليه أولاً»[1].

ومثلما أهملت شهادة ابن بطوطة، أهملت رواية الغياث البغدادي فلم يتخذها أحد من الباحثين دليلاً هادياً لتعيين موضع قبره الآن، بل لم يُسعفها أحد من المؤرخين بتعليق يؤيد ذلك أو ينفيه، ولعل سبب ذلك يكمن في أن ظاهر النص يوحي بوجود روايتين مختلفتين، الأولى تفيد اختفاء قبره، والثانية تشير إلى وجوده في المشهد المذكور، وهو اختلاف من شأنه إضعاف الرواية الأخيرة بأية حال. وكان يمكن أن يبقى الأمر غامضاً عند هذا الحد، لولا أن أسعدنا الله بالوقوف على نص جديد ذي أهمية خططية وتاريخية فائقة يحل هذا الإشكال التاريخي، فيوضح أن المستعصم دُفن أولاً في مكان لم يكن يعلمه إلاّ القلة، وهو ما يفسر اعتقاد بعض المؤرخين أنه «عفي أثره». ثم أن جثمانه أخرج من هذا المكان بعد حين وأعيد دفنه عند مشهد عبيد الله العلوي فلا اختلاف بين الروايتين كما نرى.

إن هذا النص المهم والفريد لم يُنشَر بعد، ومازال حبيس نسخة خطية ضاع أصلها وبقيت مصورتها التي كان يحتفظ بها الدكتور حسين علي محفوظ في مكتبته (وقد تكرَّم بالسماح لي بأخذ صورة عنها) وعنوان الكتاب هو (الأصيلي)، وهو من تأليف محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (توفي بعد سنة 701هـ) ألفه باسم أصيل الدين بن الخواجه نصير الطوسي، والأخير- أعني نصير الدين- هو الذي أشار على هولاكو بقتل المستعصم في فتوى شهيرة تناقل خبرها أهلُ التاريخ، فمن غير الممكن أن يصطنع رواية، ويقدمها الى شاهد كان حاضراً مقتل الخليفة، أو سمع بها- في الأقل- من أبيه، ومن هنا تأتي ثقتنا بروايته أولاً[2].

والكتاب- في منهجه وشكله- مشجرٌ كبير ضم أنساب الطالبيين والعباسيين ألفه مؤلفه بطلب من أصيل الدين المذكور، وقد ضم إلى أسماء بعض الأعلام الواردة في سياق المشجر نبذاً قصيرة ومركزة في تراجمهم نقلها من مصادر معاصرة لهم، وحين الإطلاع على ما ذكره عن الخليفة العباسي المستعصم وجدناه

---

(1) المصدر نفسه ص305.

(2) ذكر لي الدكتور حسين علي محفوظ ان مخطوطة الكتاب الاصلية موجودة في احدى المكتبات الشخصية في منطقة البقاع في لبنان وقد فقدت في أثناء الفتن الاهلية هناك. حقق السيد مهدي الرجائي الكتاب ، قم 1318هـ، لكنه حذف القسم الخاص بأنساب العباسيين.

يقول صراحة ما نصه: «ورأيت في التواريخ لابن أنجب وغيره، واخبرني من أثق به، أن رجلاً من أهل الخبرة بذلك أخبره (وساق خبراً عن أم المستعصم وعن بعض أوصافه ثم قال) ولم تر له جثة، ولا قبره اليوم معروف ولما حضرت خطبة زوج ولده الأكبر على علاء الدين عطا ملك الجويني، صحبته إلى بغداد، وتفحصت عن جثة[1] المستعصم، فقيل أنها وجدتها فنقلتها إلى قريب مشهد عبيد الله وبنت عليه قبة وحولها رباط، وليس هذا يثبت، وهذه صورة الحال في مدفن المستعصم[2].

ولابد من التوقف هنا عند المصدر الذي ينقل عنه ابن طباطبا هذا الخبر، وهو المؤرخ البغدادي تاج الدين علي بن أنجب الساعي (المتوفى سنة 674هـ) وكتابه الذي يشير إليه مختصراً هنا باسم (التواريخ) هو (ذيل كامل التواريخ) الذي أرخ فيه واقعة بغداد،[3] وكان ابن الساعي- كما تدل سيرته- قريباً بالفعل من عطا ملك الجويني، صاحب ديوان العراق (حاكمه من قبل المغول بين سنة 657 وسنة 683) الذي حضر خطبته تلك ووثيق الصلة بالأسرة العباسية أيضاً، مطلعاً على خفاياها ووثائقها فمعلوماته عن هذه الأسرة، أو بقاياها، صحيحة تتسم بالضبط والدقة بحيث اعتمدها المؤرخون المعاصرون له، أمثال ابن الكازروني، وابن قنيتو الاربلي، فضلاً عن ابن طباطبا نفسه. وولده (يريد ولد المستعصم) الأكبر، هو الأمير أبو العباس أحمد[4]، وقد استشهد على يد المغول مع أبيه[5]، وكان قد تزوج حفيدة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهي الأميرة شمس الضحى شاهلبني الايوبية بنت عبد الخالق بن ملكشاه بن صلاح الدين، وقد خطبها بعد استشهاد الامير أبي العباس احمد، حاكم العراق علاء الدين عطا ملك الجويني[6]، وهي الخطبة التي حضرها ابن الساعي -كما مر بنا من قبل- فهذه السيدة هي التي نقلت جثمان المستعصم بالله إلى قريب مشهد عبيد الله (مشهد النذور).

---

(1) في الاصل جثت.

(2) الأصيلي: الورقة 126.

(3) الحاج خليفة: كشف الظنون.

(4) انظر ترجمته في مقدمة كتابه (نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء) لمحقق الكتاب د. مصطفى جواد (القاهرة- دار المعارف بمصر).

(5) الحوادث 357 وابن الكازروني 274.

(6) الحوادث ص357.

إن تدمير المحتلين المغول لمقابر الخلفاء العباسيين في الرصافة (عند إعدادية الاعظمية للبنات اليوم) هو الذي جعل السيدة شمس الضحى الأيوبية تختار مشهد عبيد الله موضعاً لدفن والد زوجها السابق أبي العباس أحمد، إذ يذكر صاحب الحوادث أنه مما جرى في أثناء احتلال بغداد أن «نبشت قبور الخلفاء، واحرقت تلك الأماكن، وأبرزت العظام والرؤوس»[1]. فبات منطقياً أن تبحث السيدة المذكورة عن موضع لم تمسَّه يد التخريب فكان مشهد عبيد الله القريب، على ما يذكر المؤرخ ابن طباطبا في النص المقدم.

ومما يؤكد هذا النص ويعززه، أن هذه السيدة اختارت مشهد عبيد الله نفسه موضعاً لدفنها، وبالغت في العناية به، فأنشأت عنده - بعد ربع قرن من احتلال بغداد- رباطاً للصوفية، ربما كان تعميراً لرباط زمرد خاتون السابق، ومدرسة كبيرة، تشبه من حيث نظمها المدرسة المستنصرية وعيَّنت لها المدرسين، وفوّضت الإشراف عليها إلى قاضي القضاة ببغداد، وعُرفت هذه المدرسة بالعصمتية، نسبة إلى لقبها عصمة الدين أو ذات العصمة وجرى افتتاحها سنة 671هـ[2]. والمهم أنها بنت إلى جوار مدرسها تربة (أي مدفناً) لها، دفنت فيها فعلاً سنة 678هـ[3]. ومن المعلوم أن الإنسان يحب أن يدفن إلى جانب أفراد من أسرته، ولّم يصلنا نص يشير إلى دفن أحدٍ من أسرتها في هذا الموضع، سوى ما ذكره ابن طباطبا في نصَّه المذكور عن دفن الخليفة المستعصم بالله، فهذه قرينة قوية تعزز النص كما قلنا. والرباط الذي أشار إليه صاحب الحوادث بقوله أنها أنشأت إلى جانب مدرستها «تربة لها ورباطاً للمتصوفة»[4] هو نفسه الرباط الذي ورد في نص ابن طباطبا حيث ذكر أنها بَنَت على قبر المستعصم «قبة وحولها رباط»[5].

وعلى الرغم من محاولة ابن طباطبا، وقد كتب كتابه برسم ابن مَن أفتى بقتل المستعصم، التشكيك بنص ابن الساعي، بعد أن ساق خبر الدفن بقوله «ليس هذا يثبت» فإن الخبر ظل يتردد عدة أجيال تالية، سجله ابن بطوطة في أوائل القرن

---

(1) الحوادث364.

(2) الحوادث 408.

(3) الحوادث 446.

(4) الحوادث408.

(5) الأصيلي الورقة 126.

الثامن للهجرة، والغياث البغدادي في أواخر القرن التاسع للهجرة كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وكان للسيدة شمس الضحى الأيوبية بِنتٌ من زوجها السابق الشهيد أبي العباس احمد بن الخليفة المستعصم بالله تدعى رابعة[1]، تزوجها شرف الدين هارون الجُوَيني (حاكم بغداد بين سنتي 682و683هـ) سنة 670هـ فلما توفيت سنة 685هـ «دفنت في تربة والدتها التي بمشهد عبيد الله»[2] فالمستعصم وحفيدته رابعة، وكَنَّته حفيدة صلاح الدين الأيوبي وهي المعروفة بأم رابعة، مدفونون جميعاً- بدلالة هذه النصوص- في تُرب، أي مدافن أعدت عند مشهد عبيد الله المذكور، وبمرور الزمن أصبح موضع هذه التربة يعرف بأم رابعة، من باب إطلاق اسم الجزء على الكل، وذلك لمحبة البغداديين إياها، بوصفها كنّة آخر خلفائهم، وحفيدة أعظم سلاطين المسلمين، وأنها على ما وصفها مصدر معاصر «كثيرة الصدقات والإحسان والمبرات، وكانت تحب أهل بغداد وترعى مصالحهم وتقوم في حوائجهم وتساعدهم»[3].

ولقد ظل مشهد أم رابعة، التي صار علامة دالة على مشهد عبيد الله القديم نفسه، مزار البغداديين لقرون عديدة، يزورونه في يوم الأربعاء الذي يعقب أيام عيدي الفطر والأضحى، ومن المحتمل أن تكون زيارتهم إياه امتداداً وصلة لشهود الناس صلاة العيدين في هذا الموضع، الذي عرفناه قديماً بـ (مصلى العيد)

تعرف المحلة التي يقع فيها مشهد أم رابعة اليوم باسم محلة (النصَّة) (سُميت بذلك لانخفاض أرضها) من محلات الأعظمية الحديثة، وقد قمت بزيارة هذا المشهد سنة 1988[4]، فلاحظت مدى انطباق وصف ابن الساعي لقبر المستعصم بالله على القبر الموجود فيه. فالقبر تعلوه قبة فعلاً، وهي مبنية بقطع الآجر القديم، وعن يمينه يقع قبر السيدة أم رابعة. ولقد نسب القبر في القرون المتأخرة إلى صوفي يدعى حماد بن مسلم، وعند مراجعة ترجمته التي أوردتها المصادر

---

(1) وكانت ولادته سنة 655هـ ابن الكازروني 274.

(2) الحوادث 485.

(3) الحوادث446.

(4) يجدر التنويه بفضل الأخ الكريم وليد عبد الكريم الاعظمي رحمه الله الذي تكرم بمرافقتي في هذه الزيارة ومعاونتي في ضبط قياسات المشهد وما فيه من قبور.

التاريخية ظهر عدم صحة هذا الإدعاء، حيث أنه دفن عند وفاته سنة 525هـ، في المقبرة الشونيزية، أي مقبرة الشيخ جنيد في الجانب الغربي من بغداد(1).

يتألف المشهد- كما يُرى اليوم- من بناء طولي يواجه الجانب الطولي منه الشارع المتفرع من شارع الإمام الأعظم (والمقابل لشارع المقبرة الملكية تقريباً) ويبلغ طول هذا البناء 14.4م، وعرضه 5 أمتار، وارتفاعه 3 أمتار، وهو يتألف من حجرتين مقببتين ضلع كل منهما 3.5 متر، ويفصل بينهما رواق مقبب أيضاً بعرض 1.45 متر، وبطول 5أمتار، ويُدلف من هذا الرواق، شمالاً إلى باب معقود إرتفاعه 2.53 متر، ينفذ إلى حجرة القبر، أما الحجرة الأخرى المقابلة، فلا منفذ لها اليوم، ولكنها مفتوحة على الجهة الخلفية من البناء، ومن الواضح أن إغلاقها جرى في وقت متأخر لغرض أن تُتّخذ سَكناً لبعض المقيمين في المكان المذكور، فقبتها تقوم على عقود متقابلة على هيأة حجرة القبر نفسها، وقد سُدَّ الإيوان المسامِت للرواق بقطع الآجر كما ذكرنا.

يتوسط القبر قبته تماماً، مما يدل على أنها بُنيت من أجله أصلاً. ويعلو القبر صندوق من الخشب، ذو زوايا حديدية، وهو مما يرقى إلى أواخر القرن الماضي، وتبلغ مساحته 2.05×1.25م وارتفاعه 1.57 متر، وليس عليه شيء من الكتابات، ولكن توجد في داخله لوحات رخامية لشواهد قبور أثرية يظهر أنها وضعت فيه لحفظها بعد إزالة القبور نفسها، ولهذه الشواهد أهمية في حد ذاتها.

والى يمين القبر، في الجدار الشمالي للقبة، توجد كوة بعمق الجدار نفسه، تضم قبر من (تدعى أم رابعة) وهي- في الحقيقة- السيدة أم رابعة شمس الضحى الأيوبية كما ذكرنا، ومكان هذا القبر يدل على أنه أعِد ضمن تصميم القبة لا بعدها، مما يعزز نص صاحب كتاب الحوادث المتقدم بأنها أعدَّت تربتها قرب المنشآت التي شيدتها هناك وقبل وفاتها بعدة سنين. يبلغ ثخن الجدران 90سم، وهي مبنية بقطع الآجر القديم بمقياس 30×30×5سم ولا يبعد أن تكون القبتان قد أعيد بناؤهما في وقت لاحق على إنشائها أول مرة، لكن بالآجر المستخدم نفسه، ويلاحظ أن في أعلا داخل القبة المجاورة لحجرة القبر، زخرفة بقطع الآجر المزجج، لكنها طليت بطبقة كثيفة من الجص ضَيّعَ على المشاهد دراسة ما عليها

---

(1) ابن الجوزي: المنتظم ج10 ص302.

من معالم. كما يوجد على يمين باب الرواق من خارجه مستطيل غائر في الجدار يشير إلى موضع وجود لوحة رخامية إلا أنه غُطّي بالجص فضاعت معالمه هو أيضاً.

تذييل

ولما كان موضع كهذا يضم رفات المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين وحفيدته من إبنه الأكبر، وهو ولي عهد الدولة العباسية، وزوجته حفيدة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وابنتها السيدة الصالحة رابعة، ومن قبلهم جميعاً أبا العباس أحمد بن هارون الرشيد، فضلاً عن كونه مصلى البغداديين في أعيادهم، وما كان يضمه من منشآت مهمة: رباط أنشأته زوجة الخليفة الناصر، وهي جدة المستعصم لأبيه، ومدرسة كبرى أنشأتها زوجة إبنه الشهيد، لجدير أن يلقى من العناية والإهتمام ما يستحقه، فقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الرسالة الاسلامية التي تصدرها وزارة الاوقاف في عددها المزدوج (261-262) الصادر في السنة السابعة والعشرين من سني صدورها، بتاريخ ذي القعدة- ذو الحجة1414هـ/ نيسان- أيار 1994م

الصادر، وأرفقتها بجملة من المقترحات على النحو الاتي:

1- استملاك الدور المجاورة لقبة أم رابعة وهي التي في الأصل وقف على القبر نفسه، ثم أستملكها شاغلوها ملكاً صرفاً، وتعويضهم عن ملكيتهم وفقاً للقانون.

2- إزالة هذه الدور المستحدثة، والكشف عن المنطقة آثارياً، للتوصل إلى أسس المنشآت التي كانت تشغل الأرض المجاورة للقبة، والتي نعرف منها، رباط زمرد خاتون، والمدرسة العصمتية، وإعادة بنائها وفق تلك الأسس ما أمكن ذلك، ويمكن الاستفادة من هذه المنشآت بعد أحيائها في مختلف الأغراض الثقافية وتوظيف بعضها بما يشبه أن يكون متحفاً يُعرف بالأسرة العباسية التي حكمت العراق، والعالم الإسلامي، نحواً من خمسة قرون وربع القرن.

3- ترميم قبة الضريح، والقبة المجاورة لها، ترميماً شاملاً وفق الطرائق العلمية المتبعة في ترميم الآثار.

4- إحاطة المكان كله بسور له باب عال فخم، مبني وفق الريازة العربية الإسلامية المستخدمة في العصر العباسي الأخير، وعلى نحو لافت لنظر المارين

والزوار، خاصة وأنه يقع في مكان قريب من جامع الأمام الأعظم والمقبرة الملكية مطل على شارع رئيسي كبير هو شارع الأمام الأعظم.

5- وضع لوحة بارزة وفق تصميم عربي إسلامي، تؤرخ للمكان وتعرف بما هو عليه من أحداث وبمآثر الثاوين فيه.

6- الاحتفاء بهذا المشهد، والتعريف به إعلامياً، وإصدار كراس خاص بذلك.

فما كان من الجهات المسؤولة العليا إلا أن عُنيت بالأمر، وأرسلت بالدراسة مع النصوص المرفقة بها الى عدد من المؤرخين، منهم الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي، رئيس المجمع العلمي العراقي، والأستاذ الباحث عبد الحميد العلوجي، لاستطلاع رأيهما العلمي، فجاء رأيهما مؤيداً لما انتهت اليه الدراسة، وعليه كلفت الدائرة الهندسية في ديوان الرئاسة، ووزارة الاوقاف، بإنشاء مبنى يليق بالمكان ليُعيِّن هوية دفينه، وقد اقترحتُ اضافة الهيئة العامة للاثار والتراث لتقوم بعمل مجسّات آثارية لاكتشاف أسس المباني التي كانت تشغل أرضه، وهكذا بدأ العمل، وكنتُ أمثل وزارة الاوقاف في الإشراف على مجرياته، لا سيما ما يتعلق بالمجسّات المذكورة، وقد ظهر عند حفر الأرض وجود ثلاثة قبور على عمق كبير، كبيرة المساحة، متساوية في حجمها وأحجام قطع الآجر المبنية بها، الأول هو في وسط القبة، تحت البناء الظاهر فوق الأرض، والآخر تحت الجدار المجاور تحت قَدَمي القبر مباشرة، والثالث خارج القبة. وقدَّرت البعثة الآثارية التي قامت بالحفريات عمر هذه القبور بأنها ترقى الى العصر المغولي المبكر، وتتطابق هذه النتائج مع معطيات النصوص التاريخية بصفة مطلقة، فهذا العصر هو نفسه الذي شهد دفن المستعصم وكَنَّته وحفيدته، كما أن وضع القبور يطابقه وصف تلك النصوص أيضاً، على ما قدمنا. وبعد أن جرى التأكد من ذلك كله تمت صيانة القبتين بحسب وضعهما السابق، وأضيف شاهد في القبة الرئيسة يشير الى هوية دفينها، وهو الخليفة الشهيد المستعصم بالله، وأقيم على المكان بناءٌ عال معقود بالآجر، كتبت عليه بالآجر المُزجَّج آيات من القرآن الكريم، وأحيط المكان كله بجدار عال ذي أواوين كُتبت فيها أسماء الخلفاء العباسيين، ثم أضيف الى المبنى جامع أنيق. وهكذا أعيدت الى المكان هويته والحمد لله .

دير العاقول، حيث صرع المتنبي

دراسة تاريخية طبوغرافية



تاريخه قبل الإسلام

ليس في النصوص التاريخية ما يدل على تاريخ إنشاء (دير العاقول) واسم مؤسسه، خلافاً للعديد من الديارات المعاصرة له[1]، ويبدو انه اكتسب اسمه من شكل مجرى نهر دجلة القريب منه، فالعاقول، كلمة آرامية- عربية تعني منعطف النهر والوادي[2]. أما اسمه الحقيقي، فليس ببعيد أن يكون مشتقاً من اسم مؤسسه، أو منسوباً – كما جرى به العرف - إلى احد القديسين أو الشهداء، بيد أن معلوماتنا غير كافية لتوضيح هذا الأمر.

يرتقي تاريخ دير العاقول إلى عهود ما قبل الإسلام، فقد وردت الإشارة إليه في أخبار السنين الأولى للحكم الإسلامي في العراق. قال الدينوري المتوفى سنة 282هـ/895م عند حديثه عن فتنة الخوارج سنة 39هـ/659م «فاخذوا على

(1) من الجدير بالملاحظة انه بينما يسهب صاحب (اخبار فطاركة كرسي المشرق) في وصف دير قنى، ويترجم لمؤسسه، ويحصي اخباره، نجده يسكت تماماً عن كل مايتعلق بدير العاقول، رغم ان المسافة بين الديرين ما كانت تزيد على بضعة كيلو مترات، وليس في كتاب (الديارات) للشابشتي أي ذكر له.

(2) الفيروزابادي: القاموس المحيط مادة (عقل) وستريك في دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) مادة دير العاقول 9/361.

الانبار، وتبطنوا شط الفرات حتى عبروا من قبل دير العاقول»[1]. على أن من الغريب حقاً، إن ليس للدير أي ذكر، باسمه هذا، في مدونات المؤرخين النصارى طيلة القرون الأولى لانتشار النصرانية في العراق، مما يبعث على التساؤل فيما اذا كان للدير اسم آخر عرف به قبل الإسلام.

وفي الواقع فانه يفهم مما أوردته المصادر التاريخية النصرانية أن منطقة دير العاقول هذه كانت حافلة بعدد من الديارات المهمة، وقد ذكر منها ايشوعدناح مطران البصرة في القرن الثالث (التاسع للميلاد) دَيرَين يبدو أنهما كانا قريبين من موضع دير العاقول إلى حد كبير. قال في ترجمته للقديس مار دوسا «أسس دير بيت آرامايي (بلاد الآراميين ويريد السواد) بجوار مدينة بيت اشكفيل، ويدعى دير بحزايي حتى اليوم» ثم ذكر أنه أسسه هو، وأخ له في الرهبنة، اسمه يوحنا «عند قرية اشكفيل التي بجوار دورا قوني»[٢]. وعلى الرغم من عدم ورود أية إشارة إلى (بيت اشكفيل) هذه في بلدانية العراق القديمة، كما أن أحدا لم ينوه بدير بحزايي المذكور، فان دورا قوني بقيت معروفة تماماً طيلة العهود الإسلامية، بسبب اشتهارها بالدير المعروف قُني (أو قوني) نسبة إليها. وبما أن الأخير لم يكن يبعد عن دير العاقول – كما سنلاحظ في بحثنا – سوى بضعة كيلو مترات فقط، يكون دير بحزايي هذا اقرب المواضع إلى موقع دير العاقول، بل قد يحتمل القول بأنه ليس إلا دير العاقول نفسه، بيد أن الأمر يبقى مجرد ظن طالما لم تظهر نصوص جديدة تؤكده، لا سيما وان كاتب الترجمة لم يذكر لنا أي شيء يمكن الاستدلال به على عصر مار دوسا المذكور.

أما الدير الآخر الموصوف بقربه من دير قني، فهو الذي أسسه مار كبرييل (جبرائيل) الكشكري. وقد ذكر ايشو عدناح أنه أسس ثلاثة أديرة في أماكن مختلفة من العراق، واحد منها (بقرب دورا قوني)، وأشار في ترجمته له أنه أقبل الى «دورا

---

(1) ابو حنيفة الدينوري: الاخبار الطوال، ص205 (القاهرة 1960). وكان نهر الفرات يتصل بمنطقة دير العاقول عن طريق عدد من الانهار، منها نهر الزاب الاعلى (وهو غير النهر المعروف بالاسم نفسه في شمالي العراق) ومصبه عند بلدة همانية الى الجنوب قليلا من دير العاقول، والظاهر انهم سلكوا طريق هذا النهر، ومنه عبروا الى دير العاقول المذكور.

(2) الديورة في مملكتي الفرس والعرب، تعريب القس (البطريرك) بولس شيخو (الموصل 1939) عدد 86، ص62.

قوني حيث شيد ديراً بجوار قرية كرسا، ودعي دير كرسا حتى اليوم، واجتمع فيه الى مائتين (كذا) أخ (راهب)»[1]. والظاهر أن هذا الدير هو الذي عرفه ايليا برشنايا (توفي 438 هـ/1046م) باسم (عمر[2] مار جبريال د كرسا)[3]. وليس لكرسا هذه أو ديرها أي ذكر لدى البلدانيين العرب، على أن وفاة كبرييل المتأخرة (سنة 121 أو 122/ 738-739) تؤكد أن تأسيس الدير كان بعد دير العاقول بفترة طويلة.

دير العاقول في العهود الإسلامية:

كثرت الإشارات إلى دير العاقول في كتب المؤرخين والبلدان وأهل الأدب، على حد سواء، منذ القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد). ويفهم من تلك الإشارات أن بلدة كبيرة كانت تقوم بجواره. وإذ كنا نجهل تأريخ تأسيس الدير نفسه، فأنه يصبح من المتعذر تحديد زمن نشوء هذه البلدة. وفي رواية متأخرة نقلها ابن طولون ألصالحي الدمشقي (المتوفى سنة 953هـ/ 1546م) إن قرية في نواحي الصلح الأعلى فوق الجانب الشرقي من واسط كانت تدعى في النصف الأول من القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) باسم (العاقول)[4] وأغلب الظن أنها نشأت بعد تأسيس الدير، لأنها انتسبت إليه، فعرفت باسم (قرية أو بلدة أو مدينة دير العاقول)، ولو كان وجودها سابق عليه، لانتسب الدير إليها بطبيعة الحال.

ويبدو ان لوقوع الدير في منطقة خصبة غناء، تحدها دجلة من الغرب، وتغذيها فروع النهروان من الشرق، أثره في ازدهار تلك المدينة وازدياد أهميتها، حتى أصبحت المركز الرئيس لطسوج النهروان الأوسط[5]. وعدت من أكبر مدن

---

(1) المصدر نفسه. العدد 122، ص73.

(2) العُمر، بضم أوله والسكون ثانيه، لفظة سريانية (عمرا) بمعنى البيت والمنزل، وهي هنا الدير.

(3) تاريخ ايليا برشنايا، تعريب الدكتور يوسف حبي (بغداد 1975) ص 77.

Fiey, J. : Mossoul Chretienne, Beyroth 1959, p. 127-128.

(4) ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، بغداد 1959، ص 128 نقلاً عن مخطوطة (الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية) لابن طولون، الورقة 148 نسخة لندن.

(5) كان النهروان يتفرع من شرقي دجلة في جوار سامراء، فيمتد بمحاذاة دجلة من جهة الشرق اكثر من مائتي كيلو متر، حتى يلتقي بدجلة ثانية بالقرب من ارض الكوت الحالية، ثم اصبح يأخذ مياهه في العهود العباسية المتأخرة من نهر ديالى، فتروي فروع منه جانب بغداد الشرقي، وتنحدر فروع اخرى حيث تروي ثلاثة طساسيج (الطسوج منطقة زراعية كبيرة) وهي المُسمّيات: النهروان الاعلى، والنهروان الاوسط، والنهروان الاسفل. ويشمل الاوسط

منطقة النهروان بأسرها. وقد وصفها اليعقوبي بقوله أنها «مدينة النهروان الأوسط، وبها قوم دهاقين أشراف»[1]. ولاحظ المقدسي أن «ليس على دجلة من نحو واسط مدينة اجل من دير العاقول، كبيرة عامرة آهلة»[2]. وذكر ابن رستة أن «بدير العاقول مسجد جامع وأسواق ومآصرة، وبها أصحاب السيّارة (ضرب من السفن)، ومآصر على دجلة»[3]. ووصف هذه المآصر فقال «تشد سفينتان من احد جانبي دجلة، وسفينتان من الجانب الآخر، أو تشد السفن على الشطين، ثم تؤخذ قلوس (حبال) على عرض دجلة، وتشد رؤوسها الى السفن لئلا تجوز السفن بالليل». وكان اتخاذ هذه المآصر وسيلة للتحكم في سير السفن، وجباية الضرائب منها واخذ العشور[4]. وهذا كله يؤكد أهمية مدينة دير العاقول وخطورة شأنها في ذلك العهد.

وبسبب هذه الاهمية المتزايدة، فقد تكرر اسم الدير ومدينته في مصادر تلك الفترة. ففي سنة 201هـ/816م نزل به أحد أعوان الحسن بن سهل، وهو محمد بن خالد المروزي، ثلاثة أيام، وذلك في أثناء الاحداث التي رافقت ولاية المنصور بن المهدي ببغداد[5]. وفي عام 262هـ/875م هبط دير العاقول يعقوب ابن الليث الصفار قاصداً حرب الخليفة المعتمد العباسي. وطارت شهرة الدير عندما دارت معركة كبيرة في قرية اعلاه تعرف باسم (اضطربد) «انكسر فيها جند يعقوب شر كسرة»[6]. وتكرر ورود اسم دير العاقول في أثناء تحركات الجيوش العباسية للقضاء على ثورة الزنج بوصفها محطة مهمة على الطريق[7]، كما ورد اسمه أيضاً في أثناء احداث سنة 319هـ/931م[8] و326هـ/937م[1].

منها منطقة وسيعة طولها 40 كم على جانبي النهروان، تقع الآن مدن الصويرة والعزيزية والنعمانية. انظر ياقوت: معجم البلدان (بيروت 1965) 325/5 وأحمد سوسة: ري سامراء 399/2-423 (بغداد 1949).

(1) البلدان ص78 (النجف 1957) والدهاقون: كبار ملاكي الاراض الزراعية.

(2) احسن التقاسم في معرفة الاقاليم ص122 (ليدن 1877).

(3) الأعلاق النفيسة ص186(ليدن 1891)

(4) انظر عن المآصر، ميخائيل عواد: المآصر في بلاد الروم والاسلام. (بغداد 1948).

(5) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 546/8 (بتحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم)

(6) الطبري: 517/9 والمسعودي: التنبيه والاشراف 319 (القاهرة 1938) ومروج الذهب 200/4 (القاهرة 1958) وابن الاثير: الكامل 6/ (القاهرة 1353هـ).

(7) الطبري: 558/9 وابن الاثير 26/6.

(8) مسكويه: تجارب الامم 213/1 (باعتناء آمدروز – القاهرة 1914) ومجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق ج4 ق1 ص353 (بتحقيق نبيلة عبد المنعم- النجف 1972).

تفيدنا الاخبار بأن (مدينة دير العاقول) هذه كانت محاطة بعدد كبير من القرى الغناء والبساتين النزهة، وردت اسماء بعضها في كتب البلدانيين العرب، مثل دير قني، والجديدة، والصيادة، واضطربد، وسيب بني قوما، وبنارق وغير ذلك. وقد وصف البحتري[٢] تلك النواحي الزاهرة وما تحفل به من مزارع النخيل والزيتون وصفا شائقاً، في قصيدة له يمدح فيها ابن الفياض، وكان كاتباً أديباً من أهل دير العاقول:

نزلوا ربوة العراق ارتيادا	أي أرض أشف ذكرا وأسنى[٣]
بين دير العاقول مرتبع يشـ	رف محتله الى دير قنى[٤]
حيث بات الزيتون من فوقه النخـ	ـل عليه ورق الحملم تغنى
ما الساعي الا المكارم ترتا	د، والا مصانع المجد تبنى[٥]

وليس أدل على ازدهار هذه الناحية وحسن منظرها، من قول أحدهم[٦] يصف ما بين الديرين: العاقول، وقنى:

بين الدَيرَين جنة دنيا	وصفُها زائدٌ على كل وصف

وبرز من دير العاقول جملة من أهلها محدثين وعلماء، وردت تراجمهم في كتب التاريخ والتراجم منذ القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وحتى نهاية القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد)[٧].

---

(1) العيون والحدائق ج4 ق2 ص62 (لغداد 1973)

(2) ديوان البحتري ص 2143 (بتحقيق حسن كامل الصيرفي- القاهرة 1963) وابن فضل الله العمري: مسالك الابصار في ممالك الامصار 357/1 (بتحقيق أحمد زكي- القاهرة 1924).

(3) في مسالك الأبصار: أشف دارا.

(4) في مسالك الأبصار: أشرف محتله

(5) في مسالك الابصار: ما المعالي الا المكارم تزداد..

(6) معجم البلدان 521/2

(7) منهم: عبد الكريم بن الهيثم بن زياد بن عمران القطان الدير عاقولي، وكان محدثاً ثقة، توفي سنة 278هـ/900م (معجم البلدان 521/2 وابن الجوزي: المنتظم 120/5) وطلحة بن أحمد بن طلحة الكندي العاقولي، وكان فقيها، توفي بعد 516هـ/ 1122م، والطيب بن أحمد بن الطيب الشاهد الدير عاقولي، وكان ثقة صالحاً (السمعاني: الانساب ص 279، ليدن 1912) والاسرة الشهيرة بآل العاقولي، والتي برز منها جمال الدين عبد الله ابن العاقولي (المتوفى

على الرغم من كثرة أخبار مدينة العاقول، وتعدد إشارات الرحالين والبلدانيين إليها، فان دير العاقول نفسه، بقي كما كان، بعيداً عن جلبة الحياة في هذه المدينة النامية، منعزلاً عنهما بحياته الخاصة. ومثلما لف الغموض تأسيس هذا الدير، فقد صاحب تاريخه طيلة القرون التالية، وحتى اندثاره. فلم يعرف شيء عن رهبانه، ونظمه، ولا عن أهميته في الحياة النسكية لنصارى العراق، ولم يرد اسم أحد من رؤسائه أو خبر عن قاطنيه.

بقي دير العاقول قائماً عامراً طيلة العصر العباسي، أما مدينته فقد أخذت بالتدهور والانكماش نتيجة الخراب المتصل الذي أخذ يزحف على مجموعة أنهار النهروان وقنواته، وهو ما أدت اليه الفوضى العسكرية التي عانت منها البلاد في أواخر العصر العباسي[1]، فخلت بعض القرى القريبة من الدير من سكانها تماماً[2]، وعندما وصف ياقوت الحموي دير العاقول في الثلث الاول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) أشار الى أنه «كان عنده بلد عامر وأسواق أيام كون النهروان عامراً، فأما الآن فهو بمفرده في وسط البرية»[3]. وفي اوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) وصف المستوفي القزويني هذه البلدة بما يدل على أن الحياة ما تزال تدب فيها، ملاحظاً أن هواءها عطن بسبب ما

سنة 728هـ/ 1327م) والمدفون في جامعه في محلة العاقولية ببغداد. وسيأتي ذكره في هذا البحث.

(1) قال ياقوت عند حديثه على النهروان «وهو الان خراب، ومدنه كان كل ملك لا يحتفل بالعمارة إذ كان قصده أن يحوصل وقراه تلال يراها الناس بها والحيطان قائمة، وكان سبب خرابه اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضا في أيام السلجوقية.. وكان أيضا ممر العساكر، فجلا عنه أهله، واستمر خرابه» (معجم البلدان 325/5)

(2) ذكر ابو بكر النحوي البنارقي سبب هجر قومه قريتهم بنارق، وكانت تقابل دير قنى القريب من دير العاقول على دجلة، فقال «ان عساكر السلجوقية كثرت بطرقهم على قريتنا، والقرية لاسور لها، كلما جاءوا دخلوا وثقلوا علينا، فأجمعنا على مفارقتها» ثم قال «ان الانهار فسدت، وما يفرغ الملوك لاصلاحها، وبقيت القرى الى الآن خراباً، وذلك سنة خمس واربعين وخمسمائة» (زكريا القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص158- 159 دار صادر — بيروت). قلت: وتوجد اليوم آزاء العزيزية من الجانب الغربي أرض تعرف باسم (برنيج) تحريف (برنيق). ومن المحتمل أن يكون الاسم مقلوباً، مع بعض التحريف، من (بنارق) المذكورة.

(3) معجم البلدان 520/2.

يحيط بها من نخيل[1]، ولعل سبب تلك الظاهرة يعود الى اهمال طرق الري وعدم تصريف مياه السقي كما كان الحال سابقاً.

وأشار الى الدير في الثلث الاول من القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) الجغرافي ابن فضل الله العمري، فذكر أن الى جانبه قرية كبيرة، وأنه يبعد عن المدائن بمسافة 12 فرسخاً، الا ان كلامه على هذا الدير اختلط بما ذكره عن دير قنى المجاور، فذكر انه راكب على دجلة، مع أن ياقوت صرح ببعده عنها، ويفهم مما ساقه من أشعار أن هذا الوصف متعلق بدير قنى دون غيره[2]. وليس في إشارة ابن عبد الحق (ت749هـ/1348م) إلى الدير في كتابه (مراصد الاطلاع) أي جديد، فأنه نقلها عن ياقوت. والظاهر أنه لم يزره بنفسه لشكه في الجهة التي يقع فيها. قال «وأظنه من شرقي دجلة». مع أنه كذلك فعلاً[3].

وبعد هذا التاريخ لم نعد نسمع أي خبر من دير العاقول ومدينته. وأغلب الظن أن المدينة سارت في طريقها إلى الزوال، كغيرها من المدن والقرى المجاورة. أما الدير نفسه فكان من المعتقد انه زال بزوال مدينته، فلم يبق منه سوى اسمه في كتب التاريخ وغيرها من المظان.

موقعه:

اهتم البلدانيون العرب بتحديد موقع دير العاقول بالنسبة إلى مايحيط به من مواقع، كالمدن والقرى والديارات، وذلك نظراً الى ان دير العاقول كان يمثل محطة عن طريق المسافرين الى واسط والبصرة. فذكر ياقوت أنه «بين مدائن كسرى والنعمانية، بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخاً»[4] والفرسخ يساوي ثلاثة أميال، أي نحو ستة كيلو مترات، فيكون بعده عن بغداد بمسافة 90 كيلو متراً تقريباً[5].

---

(1) حمد الله المستوفي القزويني: نزهة القلوب، المقالة 3ص41 (بالفارسية، ليدن 1913).

(2) معجم البلدان 2/521.

(3) مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع ص 435 (طبعة ليدن 1853).

(4) معجم البلدان 2/520.اليعقوبي: البلدان ص78 وتبعد عن النعمانية المذكورة بمسافة 5كم عن النعمانية الحديثة، وتعرف خرائبها اليوم باسم تل النعمان. ري سامراء 2/447.

(5) فالتر هنتس: المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ص94-95 (ترجمة د. كامل العسلي. عمان 1970).

واتفقت معظم الخرائط العربية القديمة على أن اقرب مدينة اليه من ناحية الشمال، على دجلة، هي المدائن، حيث كان الدير يمثل المرحلة الاولى من طريق المدائن- واسط، تليه بعدها (جرجرايا) فالنعمانية[1]، وانفرد البلخي (ت322هـ/934م) بأن وضع بين دير العاقول والمدائن، في خريطته، بلدة سماها (السن) تتوسط المسافة بينهما[2]. ونحن نرى أن الاسم جاء مصحفاً عن (السيب)، وهي بلدة صغيرة سميت بـ(سيب بني قوما، أو كوما) تمييزاً لها عن غيرها، ووصفت بانها تبعد عن دير العاقول بثلاثة فراسخ[3]. أما من ناحية الجنوب، على دجلة، فقد وضعت الخرائط القديمة مدينة (جرجرايا) كأقرب مدينة الى دير العاقول[4]. ووصف ياقوت هذه المدينة بأنها «بلد من أعمال النهروان الاسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي»[5]. ويوضح ابن حوقل هذا الامر حين يجعل جراجرايا واقعة على كتف النهروان لا دجلة[6] .

وأما مايتعلق بموقع دير العاقول من دجلة، فقد ذكر ياقوت أنه «على شاطئ دجلة مقدار ميل»[7،8]. ولم يحدد ياقوت العهد الذي كانت فيه دجلة قريبة من الدير، والظاهر أن بعدها عنه قديم، فقد ورد موضعه في (صورة العراق) لابن حوقل (القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد) بعيداً عن دجلة بمسافة ملحوظة. والذي نرجحه أن يكون الدير في الطرف الاقصى من مدينته، التي كانت تقع على شاطئ النهر مباشرة (وهو ما أدى الى اتخاذها مركزاً لجباية الرسوم على السفن) والظاهر أن خراب المدينة أو تدهورها في عهد ياقوت (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) جعل الدير يبدو منعزلاً نسبياً في نظر سالكي النهر.

---

(1) اليعقوبي: البلدان ص78، وتبعد النعمانية المذكورة بمسافة 5 كم عن النعمانية الحديثة، وتعرف خرائبها اليوم باسم تل النعمان.

(2) صورة العراق للبلخي. نشرها د. أحمد سوسة في اطلس (العراق في الخوارط القديمة ص12 (بغداد 1959).

(3) انظر ليسترنج: بلدان الخلافة العباسية، ص55 (بغداد 1954).

(4) البلخي، المقدسي، الجيهاني في أطلس العراق الذي تقدمت الاشارة اليه.

(5) معجم البلدان 2/ 123..

(6) صورة العراق لابن حوقل في كتابه: صورة الارض ص309 واطلس العراق المتقدم ص22.

(7) معجم البلدان 2/520.

(8) الشابشتي: الديارات ص265 ومعجم البلدان 2/528.

ومما ذكره البلدانيون العرب في تعيين موقع هذا الدير، قولهم أنه كان قريباً منه دير آخر شهير هو (دير قنى) (ويعرف بدير ماري السليح)[1]. وصفه الشابشتي، وعنه نقل ياقوت، بأنه «على ستة عشر فرسخاً من بغداد منحدراً بين النعمانية، وهو في الجانب الشرقي معدود من أعمال النهروان، بينه وبين دجلة ميل ونصف (وعند ياقوت: ميل فقط)[2]. واذ ذكر ياقوت أن بعد دير العاقول عن بغداد هو خمسة عشر فرسخاً، يكون دير قنى مما يلي دير العاقول، من الأسفل بفرسخ واحد (6 كيلو مترات) باتجاه واسط[3]. يؤكد هذا ما ذكره ياقوت عن دير قنى انه معدود من أعمال النهروان بدجلة. وقد مر بنا أن هذا المصب كان في جنوب دير العاقول بدلالة وقوع جراجرايا عليه فضلاً عن آثاره الباقية الى يومنا هذا. وذكر ياقوت أيضاً أن على دجلة مقابله أي مقابل دير قنى مدينة صغيرة يقال لها الصافية، واذا ما قرأنا ما كتبه عن هذه المدينة، نجده يقول «بليدة كانت قرب دير قنى في أواخر النهروان قرب النعمانية»[4]. فهي اذن في أسفل دير قنى، في الطريق الى جرجرايا (على النهروان) والنعمانية، وسنذكر فيما يأتي أن اسم هذه المدينة لم يندثر باندثارها مما يساعد على تحديد موقع قنى، فدير العاقول في أعلاه.

آراء ومناقشات:

ان اعمالا تنقيبية، أو كشوفاً أثرية، لم تجرَ لحد الآن للبحث عن هذه المواضع التي وصفها لنا البلدانيون القدامى، فليس أمامنا الا أن نستدل بالمعلومات الخطيطية المتوفرة لدينا، على تعيين موضع دير العاقول ومدينته، وتكمن صعوبة هذا العمل في أن معظم اسماء تلك المواقع القديمة، قد زال بزوال مسمياتها

---

(1) السليح: لفظة سريانية (شليحا) بمعنى الرسول (الديارات، حاشية 265)، وكانت عند هذا الدير قرية قديمة، لعلها اقدم عهداً من الدير نفسه، عرفت بدور قنى، وكان الدير يقع على مشرعة فيها تعرف بمشرعة الكحال. بطاركة كرسي المشرق ص152 و 158.

(2) الشابشتي: الديارات ص265 ومعجم البلدان 2/528.

(3) ذكر الشابشتي (الديارات ص265) عن دير قنى أن «بينه وبين دير العاقول بريد» والبريد يساوي 4 فراسخ أي نحو 24 كم (هنتس: المرجع السابق ص82) قلنا: وفي هذا مبالغة، لأننا سنلاحظ فيما يأتي أن القرى في هذه الناحية متقاربة جدا، ودير قنى كان يعد أقرب إلى دير العاقول من غيره من القرى والمواضع، وسنجد أن بعض تلك المواضع ما زال محافظا على اسمه القديم، بما يثبت أن المسافة بين الديرين لم تزد على فرسخ واحد.

(4) معجم البلدان 3/389.

نفسها، فلم يبق منها سوى مجموعات متناثرة من التلال تحمل- في الاغلب- أسماء أخرى لا صلة لها بما كانت عليه في ماضيها الزاهر.

ولقد أثار البحث عن موقع دير العاقول ومدينته مناقشات وآراء شتى، حيث لوحظ وجود تلول أثرية كبيرة متجاورة تعرف باسم (تلول الدير) قريبة من دجلة، في أعلى العزيزية، تبعد عن بغداد بنحو 80 أو 90 كم، بحسب الطريق المسلوكة اليه . فدفع هذا الكوماندر فيلكس جونز الى القول في ابحاث له اجراها في المنطقة في منتصف القرن التاسع عشر، بأنها ان هي الا آثار دير العاقول نفسه. وافترض، بناء على هذا القول، أن يكون موقع دير قنى في التل المعروف بتل (القماز)، الواقع عن بعد نحو أربعين كيلو متر من جنوب شرقي موضع تلول الدير[١]. مع أن المسافة بين الديرين لم تكن تزيد في تقدير ياقوت عن فرسخ واحد (6كم).

وعلى الرغم من ان جونز لم يقدم لدعم افتراضاته أي دليل، فقد ايده فيما يتعلق منها بدير العاقول المستشرق غي ليسترانج (المتوفى سنة 1933م) وذكر ان الخارطة الحديثة مازالت تشير الى آثاره، وهو يعني بذلك تلول الدير المشار اليها[٢].

وحينما اثير النقاش حول موضع مصرع الشاعر المتنبي قرب دير العاقول، في اواخر الثلاثينيات، أيد آخرون، هم الدكتور عبد الوهاب عزام[٣]، ويعقوب سركيس[٤] راي جونز وليسترانج المتقدم. فقال سركيس «بما ان موضع دير العاقول هو في الاراضي المسماة بالدير اليوم لاتفاق كلام ياقوت على بعده من بغداد بخمسة عشر فرسخاً مع المسافة التي نجدها اليوم بينه وبين بغداد وقد قدرها الدكتور (عبد الوهاب عزام) بنحو ثمانين كيلو متراً، فقد عين موضع دير العاقول، ومن ثم دير قنى، والصافية، بصورة تقريبية لا يشوب ذلك شك». وهذا الرأي، على الرغم من جزم صاحبه به، فقد كان مثار شك آخرين، بسبب عدم

---

(1) انظر: Jones, F.: Selection from the record of Bombay Government. P. 74. وخارطة القاطول الكسروي والنهروان.

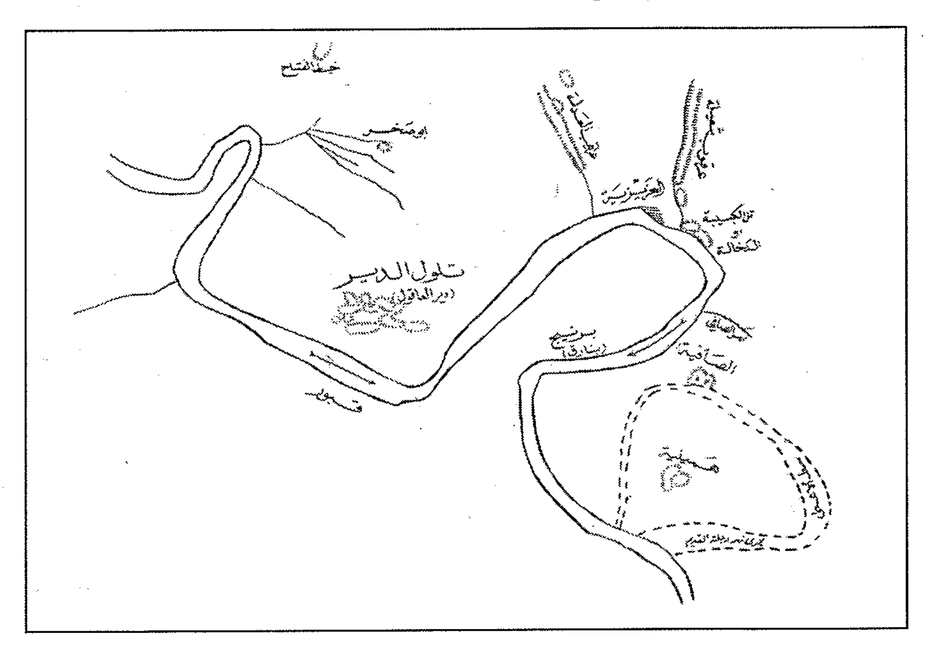
(2) ليسترانج: بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد- بغداد 1954) ص54.

(3) في كتابه: ذكرى ابي الطيب بعد الف عام. بغداد 1936.

(4) مجلة الاعتدال النجفية (موضع مقتل المتنبي) (ج4 و5 السنة 1937) وأعيد نشره في مباحث عراقية ج2 ص81 (بغداد 1955).

استناده الى ادلة خططية سوى مسألة بعد الدير عن بغداد بالمسافة المذكورة، أما دير قنى والصافية فقد بقيا دونما أي تحديد.

وخالف الدكتور احمد سوسة هذا الرأي، ورأي فيه «تساهلاً كبيراً لعدم انطباقه على الاوصاف التي دونها لنا المؤرخون، وهي الاوصاف التي تؤيد وقوع دير العاقول في شمال دير قنى»[1].



خارطة توضح موقع دير العاقول وما كان يجاوره من المعالم في العصر العباسي

معيداً النظر فيما رآه جونز وليسترنج وغيرهما بشأن تلول الدير، هذا مع أن احداً من أولئك الباحثين لم يختلف في وصف الاقدمين لموقع دير العاقول من دير قنى، وان تركوا الاخير دون تحديد، باستثناء جونز فانه اختار لموقعه (تل قماز) وهو في الجنوب فعلاً من تلول الدير، ولكن المسافة بينهما بعيدة جداً على ما أشرنا اليه من قبل. وفي الواقع، فان ثمة افتراضين اساسيين لمعرفة موقعي هذين الديرين، أولهما أن يكون دير قنى هو تلول الدير الحالية، فيقتضي البحث- عند ذاك- عن موقع دير العاقول شماله، وثانيهما أن يكون الأخير هو تلول الدير، فيوجب أن يكون دير قنى في جنوبه، وذلك استنادا للأوصاف التي ذكرها المؤرخون

---

(1) ري سامراء 420/2.

من كون دير العاقول في شمال دير قنى ببضعة كيلو مترات. وبما ان الدكتور سوسة قد اختار الفرض الاول، فقد ثبت موقع دير العاقول في الموضوع الاثري المعروف بتل ابي صخر (او ابي صخير) الى الشمال من تلول الدير بنحو خمسة كيلو مترات. وقال «ان موضع دير العاقول يمكن تعيينه في التل المعروف اليوم باسم تل ابي صخير، وهو التل الواقع شمال تلول الدير بحوالي خمسة كيلو مترات، ويبعد موقع هذا التل عن ضفة نهر دجلة الحالي كيلو مترين (والاصح: ثلاثة كيلو مترات) وتوجد في جنوب غربي تل ابي صخير آثار ابنية قديمة يرجح انها من بقايا مدينة دير العاقول[1]. ان هذه النتيجة سليمة اذا ما كان الفرض الذي تستند إليه سليماً، ولكن الدكتور لم يبين سبب اختياره لهذه الفرض دون الآخر، فان الاستناد إلى الأوصاف التي تؤيد وقوع دير العاقول في شمال دير قنى لا يكفي لترجيح هذا الفرض وحده، بل من الممكن ان تتحقق هذه الاوصاف بالفرض الثاني ايضاً، خاصة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار أن تل أبي صخير هذا محدود المساحة إلى درجة لا ينطبق عليها ما ذكر المؤرخون عن دير العاقول من أن عنده مدينة زاهرة فيها مسجد جامع وأسواق ومرافئ وغير ذلك. كما أن أولئك المؤرخين ذكروا بان مدينة دير العاقول كانت تقع على شاطئ دجلة مباشرة، وهو ما ينطبق على تلول الدير، في حين يبعد تل ابي صخير عن دجلة بنحو ثلاثة كيلو مترات- على ما تقدم- خالية من أي اثر لبناء سابق، والأرض بين أبي صخير ودجلة مرتفعة ارتفاعا طبيعيا يحول دون رؤية المنطقة من نهر دجلة، في الوقت الذي كان فيه الدير مرئياً للسالكين طريق النهر في عهد ياقوت على ما لاحظنا. ومن ناحية أخرى فأن ما ورد عن دير قنى، من انه يبعد عن دجلة بمسافة ميل أو ميل ونصف (كيلو مترين أو ثلاثة) يجعل من المستبعد أن تكون آثاره اليوم هي تلول الدير، فان هذه الآثار لاتبعد عن دجلة بأكثر من خمسمائة متر على أكثر تقدير.

ومما يؤكد هذا الرأي ما ذكره ياقوت عن دير قنى من أنه «على دجلة مقابله مدينة صغيرة يقال لها الصافية، وبالقرب منه (أي دير قنى) دير العاقول» وقد نقلنا من أقوال البلدانيين القدامى ما يفهم منها أنها كانت أقرب إلى مصب النهروان، أي في جنوب دير قنى. ومن حسن الحظ أن اسم هذه المدينة لم يندثر،

---

(1) ري سامراء 2/420+.

فما زال يحمله نهر صغير، يعرف بالصايخ، يبعد عن مدينة العزيزية الحالية جنوباً نحو خمسة كيلو مترات، وفي أسفله مباشرة آثار قرية أو مدينة داثرة تقع على مجرى دجلة القديم المسمى اليوم بشط الاعمى، وهي على ما يدل الاسم والموقع[1] آثار مدينة الصافية القديمة المذكورة. وتعيين موضع هذه المدينة يقتضي أن يكون دير قنى في أعلاها، وعلى مقربة منها ، لما نص عليه الاقدمون، أي ان يكون في منطقة العزيزية، جنوبها أو غربها، بمسافة محدودة. وبعيد جدا أن يكون في منطقة تلول الدير، لأن بعد هذه التلول من الصافية يقدر بسبعة عشر كيلو مترا تقريباً، في اتجاه منحرف بانعطاف نهر دجلة في تلك النواحي.

وليس من اليسير تحديد موقع دير قنى بأكثر مما ذكرنا، فانه فقد معالمه كدير منذ انتهاء أخباره في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) إذ نوه ابن عبد الحق (ت739هـ/1338م) بأن الخراب كان مستولياً عليه في زمانه[2]، ولم نعد نسمع أي ذكر له، بعد ذلك، على الإطلاق.

في حين بقي دير العاقول معروفاً باسمه هذا حتى وقت متأخر، وعلى التحديد في منتصف القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد)، وربما بعد هذا التاريخ أيضاً، على ما سنفصله بعد قليل. وبما انه ليس ثمة أي موقع أثري في المنطقة يعرف بالدير سوى (تلول الدير) المذكورة، فأنه يصبح منطقياً القول بأن هذه التلول إن هي الا بقايا دير العاقول ومدينته.

تحديد موضع مصرع المتنبي

يتضح للقارئ الآن ان الصافية كانت اقرب الى دير قنى منها الى دير العاقول، وان المسافة بين الديرين تصل الى ستة كيلو مترات أو تزيد، فليس صواباً اذن ما نقله ابن خلكان (ت681هـ/1282م) في نصه المضطرب عن موضع مصرع المتنبي سنة

---

(1) ويؤكد موقع الصافية هذه ما ورد عن قربها من قرية همانية (أو همينيا) وكانت هذه قرية كبيرة في الجانب الغربي من دجلة، إلى الجنوب من الصافية (معجم البلدان 10/3 ومراصد الإطلاع 322 وبلدان الخلافة الشرقية 55 وري سامراء 421/2) وما زالت آثار هذه القرسة ماثلة في الجانب الغربي من مجرى دجلة القديم/ أي شط الأعمى (وهي في شرقي دجلة الآن) وتعرف باسم هميمية نفسه، وتقابلها من الجهة الشرقية من المجرى القديم آثار مدينة الصافية.

(2) مراصد الإطلاع 427.

354هـ/964م من أنه «قتل في موضع يقال له الصافية، وقيل جبال (الصواب: حيال) الصافية من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهما مسافة ميلين» وموضع الخطأ- فيما نعتقد- تحديد المسافة بميلين، وهي أطول من ذلك على ما قدمنا. وقال ابن الجوزي (ت597هـ/1200م) «فقتل بالطريق بالقرب من النعمانية.. وكان قتله بشط دجلة في موضع يعرف بالصافية»[1].

وبما ان موقع الصافية قد تحدد تماماً، فيمكن القول بان مصرع المتنبي كان فيها او عندها، والظاهر أنه كان في قرية من قراها تدعى (بيزع) استنادا الى ما ذكره ياقوت عن هذه القرية من أنها «بين دير العاقول وجبل (مدينة في أعلى الكوت الحالية بقليل) بها قتل ابو الطيب المتنبي»[2]، فبيزع اذن كانت اعلى الصافية، على طريق الصاعد الى دير العاقول (وهذان الموضعان قد عينا بدقة في هذا البحث) واذ كانت ثمة دلائل عديدة تشير الى ان المقتل كان في (ضيعة) على الطريق، يكون المتنبي قد قتل وهو خارج عنها، في طريقه الى دير العاقول لكونه مدينة مشهورة ومحطة مهمة على طريق واسط- بغداد[3] أما الرواية القائلة بأنه قتل في الجانب الغربي، حيال الصافية فلا اهمية لها، اذ انها ضعيفة نوه بضعفها ياقوت نفسه[4] (معجم البلدان 257/1) كما ان طريق واسط- بغداد الذي سلكه المتنبي كان على الجانب الشرقي، ويعد دير العاقول، كما ذكرنا، أهم محطاته. على أن من الغريب المؤسف ان يتجاهل بعض الكتاب المعاصرين كل هذه الحقائق ومنها مواقع ما زالت أسماءها الاصلية، فيتوجه نظرهم الى قبر مجهول يبعد عن مدينة النعمانية الحالية بنحو كيلو متر واحد شمالاً وعن النعمانية الحالية بنحو كيلو متر واحد شمالاً (وعن النعمانية القديمة وهي تل النعمان اليوم بخمسة كيلو مترات) في الجانب الغربي من دجلة، يعرف بقبر (ابو سوره)، ويتنادون بتكريم المتنبي باقامة نصب شامخ له هناك (مع ان موضع مقتله امسى معروفاً قرب الصافية على ما ثبتناه، وهو موضع يبعد عن قبر أبي سوره المزعوم بأكثر من 65كم على

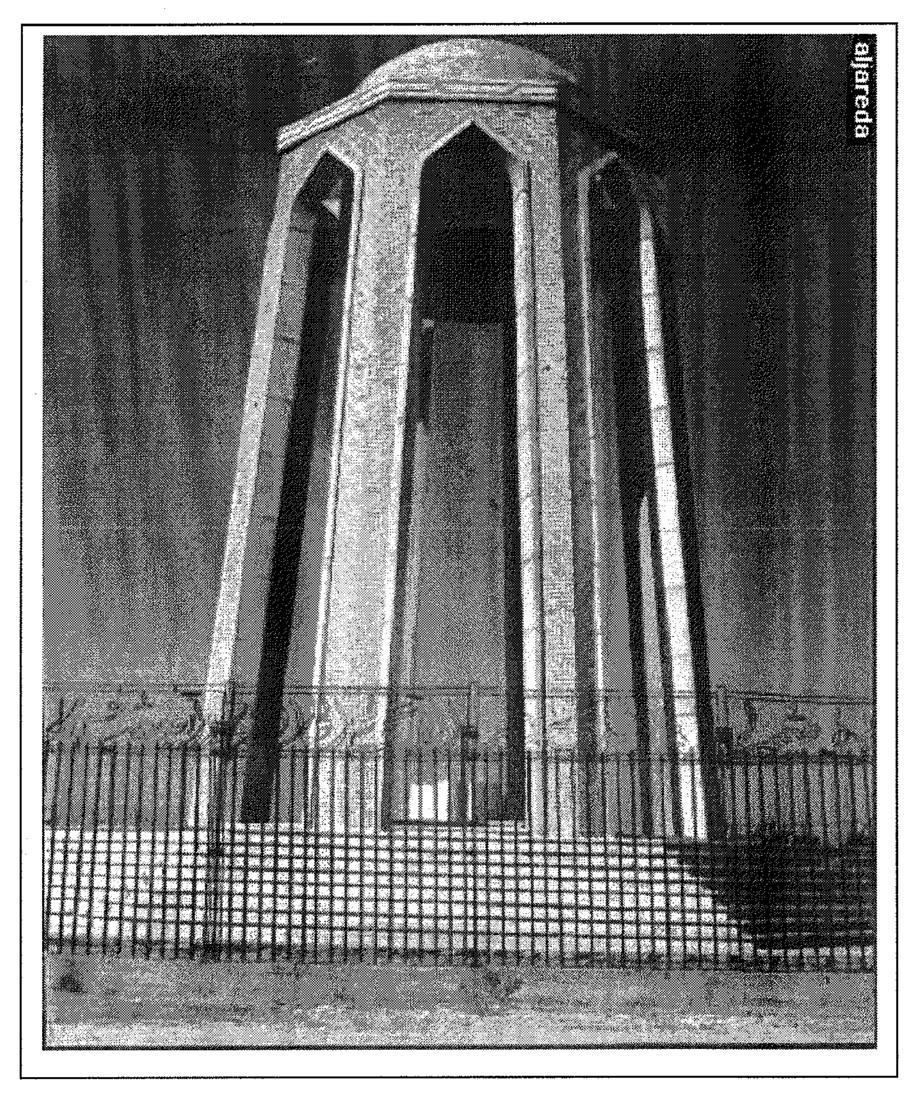
(1) المنتظم 27/7.

(2) معجم البلدان 527/1

(3) انظر مباحث عراقية 70/2-82.

(4) معجم البلدان 257/1.

الاقل). وليس ثمة أي دليل او اثر يمكن الاستدلال به على العلاقة بين هذا القبر ومصرع المتنبي، فلا هو حيال الصافية (ان هم أخذوا بالرواية الضعيفة التي نقلها ابن خلكان) ولا هو في طريق المتجه من واسط الى بغداد، أما ابو سورة فلا يعرف عنه شئ يستدل به على هويته، لكن يلفت النظر ان موقعه قريب من مأخذ نهر سورا القديم المتصل بالفرات، فلعله اكتسب اسمه من قربه من هذا النهر الشهير[1]



هيكل اقيم على قبر من يدعى أبو سورة على زعم أنه قبر ابمتنبي

---

(1) (انظر عنه البلدان لليعقوبي 68 وبلدان الخلافة الشرقية 111).

وقفية دير العاقول:

كنا قد عثرنا عند بحثنا في بعض الوثائق القديمة المنقولة عن سجلات المحكمة الشرعية ببغداد، على وثيقة نادرة فريدة تكشف بوضوح عن بقاء هذا الدير القديم حتى تاريخ كتابة الوثيقة نفسها في منتصف القرن السابع عشر، كما أنها تساعد على تعيين موقعه بحسب المواقع الحالية، فأن كثيراً مما ورد فيها من أمكنة وبقاع ما زال معروفاً باسمه، أو محرفاً عنه، حتى يومنا هذا. والوثيقة عبارة عن وقفية شرعية كتبها عناية الله الصائغ ابن الشيخ علي المعروف بالعاقولي، ووقف فيها أراض شاسعة جداً في جنوب بغداد ونواحي الكوت (وفيها دير العاقول) على ذريته ببغداد. ومما هو جدير بالملاحظة، أن الوقفية تدعو دير العاقول باسم دير ابن العاقولي، (المفتي ببغداد والمدرس بالمستنصرية، المتوفى سنة 728هـ/1327)[1]، بمعنى أنها تنسب الدير إليه، والحقيقة أن جمال الدين عبد الله ابن العاقولي منسوب إلى الدير، وليس الدير منسوباً إليه. ولم نقف على أحوال هذه البقعة حين ان وقفها عناية الله المذكور على ذريته، وإنما يفهم مما ورد في الوقفية ذاتها ان معظمها كان متروكاً مهجوراً، تكثر فيه الاهوار، والتلول، والقرى المندرسة.

وتنفرد رواية متأخرة أوردها ابن طولون الصالحي المتوفى (سنة 953هـ/1546م) بأن قرية في هذا الموضع، تدعى العاقول، كانت اقطاعاً لآل العاقولي، وهم قوم لخميون من أحياء اليمن، نزلوا المكان، وابتنوا به بعد أن مَنّ الله بالاسلام، وان الذي اقطعهم اياه هو الامام علي بن ابي طالب، وكتب لهم ذلك بخطه، فحفظوا الخط، حتى كان زمن السلطان جلال الدين ملكشاه، فأخذه منهم ليتبرك به، وكتب لهم نسخة منه، وبقي «الاقطاع بأيدي أولادهم الى الآن»[2]. أي

---

(1) كان عالما فاضلاً، ولد سنة 638هـ/1240م ومهر في العلم والفتيا ودرس بالمستنصرية، وافتى اكثر من ستين سنة، ورتب مدرساً في مدرسة زمرد خاتون ببغداد ثم تولى القضاء والحسبة معاً. ولما توفي دفن بداره، وكان وقفها على شيخ وعشرة صبيان يتلقنون القرآن بمحلة درب الخبازين، فتحولت هذه الدار الى جامع شهير عرف بجامع العاقولي، كما نسبت اليه المحلة فدعيت بالعاقولية. وما زال قبر مؤسسه موجوداً فيه، ولقد شهد هذا الجامع تعميرات متعددة، وبخاصة في العصر العثماني. انظر محمود شكري الآلوسي: مساجد بغداد وآثارها ص146 (بتذيب بهجة الاثري- بغداد) وكتابنا مدارس بغداد في العصر العباسي ص 128-129 (بغداد 1966).

(2) تاريخ علماء المستنصرية ص128-129 (بغداد 1966).

حتى عهد ابن طولون في النصف الاول من القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد) ومن المؤسف ان لا تقدم لنا السجلات العثمانية عن اراضي العراق الموضوعة في القرن المذكور ما يوضح صلة العاقوليين بهذه الارض قبل تاريخ الوقفية، كما اننا لم نجد فيها أية اشارة، قبل ذلك التاريخ، لاراض موقوفة على جامع العاقولي في تلك الجهات[1]

والوقفية مؤرخة في 26 جمادي الآخرة سنة 1053هـ (12تشرين الاول 1643م) أي في عهد ولاية حسن باشا الصغير (كوجك) الثانية على بغداد (محرم 1052- محرم 1054هـ/نيسان 1642- حزيران 1644م)[2,3]. وقد صادق على صحة الوقف اذ ذاك قاضي بغداد السيد محمد مخلص الشهير بملا زاده. وهي مسجلة في المحكمة الشرعية ببغداد، وفي مديرية اوقاف بغداد تحت الرقم 7 صفحة 108. وفيما يأتي نصها:

(إن الموفق لفعل الخيرات، المؤيد بتوفيق صاحب الهبات، سلالة العلماء العاملين والفضلاء الزاهدين عنايت الله الصائغ ابن الشيخ علي المعروف بالعاقولي زاده، قد وقف أراضي الكرود السبعة الواقعة على الدجلة العظمى من شرقي بغداد بقرب سلمان عليه الرحمة. أولها كرد باوي والمتصل به، والصافي وشرقيه وغيره، والاهوار: الأول هور الكبير غربي من الاهوار متصل بالصافي، وهور أبو برادع، وأبو غرب، وأبو قصب من غربي تاج العارفين عليه الرحمة، ومن نحو شرقيه الهور المسمى بالتاج والقطنية وهور القاطون، والقواطيل المفتحة من الدجلة إلى الأرض المنخفضة، وأرض الفتاح والدير المعروف بدير أبن العاقولي مفتي الأنام عليه الرحمة جد الواقف المزبور، وهور ابو سمك والمتصل به، وهور العدلية والمنفصل عنه، وغير ذلك. فالجميع محدودة ومن الطرف الشرقي بالتلول التي هي في أسفل الدخالة مشيرة إلى نحو دجلة متصلة بالنهروان ، والحد الثالث بالدجلة العظمى ، والحد الرابع بكتف المتأخر من النهروان ، مشتملة على شواطئ ومزارع وآبار ودور منهدمة ومندسة وغير ذلك. ووقف ايضاً نصف مزرعة ارض

---

(1) الآرشف العثماني، استانبول: سجلات ولاية بغداد ذوات الأرقام 386، 1028، 1049.

(2) مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا، ترجمة موسى نورس، ص237.

(3) وتعرف منطقة اليوم باسم (خر التاج)، وفيه آثار قديمة.

الصافي مع كل البئر المسماة برميض، الواقعة على الدجلة العظمى من شرقي بغداد المحدودة بمزرعة ابن شجاع، وفيها تلول كبار، وبالرفة المعلومة، وبالدجلة العظمى. ووقف الجميع على حياته، ومن بعده على أولاده، وأولاد أولاده، نسلاً بعد نسل، وبطناً بعد بطن، للذكر مثل حظ الانثيين. وبعد الانقراض يعود الوقف للحرمين الشريفين. وشرط التولية على هذا الوقف للمتولى على وقف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره العزيز، وجعل الناظر الخطيب في جامعه الشريف وجعل لهما عُشر الغلة، وطلب تسجيل الوقف بشروطه، وبعد الترافع بالوجه الشرعي، حكم القاضي الموما اليه بصحة الوقف ولزومه، وسجله في 26 جمادي الآخرة سنة 1053 من الهجرة)

وكان القاضي المذكور قد كتب بخط يده في صدر الكتاب ما نصه (حكمت بصحة هذا الوقف ولزومه، بخصوصه وعمومه، عالماً بالخلاف القاضي بمدينة بغداد المحروسة)[1]..

(1) كان من المفروض، بموجب شرط الوقفية، أن يتولى متولو الاوقاف القادرية ادارة هذه الاوقاف، الا انه بعد انقراض ذرية الواقف المذكور، وضع متولي جامع سليمان الفارسي (وهو الشيخ احمد العتيكي المنصوب متوليا بموجب فرمان السلطان مراد الرابع سنة 1048هـ/1638م) يده على الموقوفات المذكورة وذلك في سنة 1072هـ/1661م زاعما ان العقارات والانهر والاهوار المذكورة موقوفة على لوازم جامع سلمان الفارسي والفضلة تعود لمن يتولى ادارة الجامع المذكور، وقد استمرت هذه الحالة لكل متول يتولى ادارة الجامع المذكور الى ان آلت التولية الى عبد الوهاب بن مصطفى آل المتولي، فاستحصل من والي بغداد داود باشا سنة 1236 هـ/1820م براءة (بيور لدى) تتضمن أن العقارات والاراضي والانهر المذكورة تعود الى أوقاف جامع سليمان الفارسي، ودام الحال كذلك حتى آلت التولية على الموقوفات الى محمود أفندي بن رؤوف افندي الى المتولي، ولحدوث نزاع بينه وبين ابن عمه احمد أفندي المتولي، وضعت مديرية أوقاف بغداد يدها على الموقوفات والجامع مدعية ان التولية كانت بيد محمود أفندي ومن سبعة من المتولين عن طريق الحسبة لا عن شرط واقف. وأخذت تتولى ادارتها بنفسها، وفي سنة 1327 هـ/ 1909م اقام محمود أفندي الدعوى في محكمة شرعية بغداد امام الفاضي اذ ذاك السيد ابو بكر حلمي مدعياً أن التولية مشروطة للرشد فالرشد من المتولي واولادهم واولاد اولادهم، وأقام بينة متواترة على دعواه هذه فحكم له بذلك، وعند تمييزه في مجلس التدقيقات الشرعية المتشكل في المشيخة الاسلامية في استانبول اعيد القرار منقوضا بسبب عدم توجه الخصومة في هذه الدعوى. وفي سنة 1349هـ/1930م أقام محمود أفندي الدعوى مجددا في ايام قاضي بغداد السيد محمد نافع المصرف فحكم له بما ادعاه، غير ان وزارة المالية وضعت يدها على

تحليل الوقفية:

على الرغم من أن عدداً من المواضع التي تذكرها هذه الوقفية قد تغير اسمه، حتى لم يعد من المستطاع تحديد مكانه على الواقع، فان في إمكاننا أن نحلل محتوياتها على النحو الآتي:

تتألف وقفية ابن العاقولي من وقفتين مدمجتين، تقف اولاهما الارض الواقعة بين المدائن شمالاً وحتى دير العاقول (تلول الدير فوق العزيزية) جنوباً. وتشمل سبعة كرود (جمع كرد وهو آلة رفع المياه) عند مرقد الصحابي سليمان الفارسي، ثم تمتد جنوباً فتصل الى (الصافي) وهو منعطف في دجلة يبعد عن تلول الدير بنحو عشرين كيلو متراً (ولا علاقة له بنهر الصافي الذي في جنوب تلك التلول)، ثم تمتد بعرض أوسع، فتشمل منطقة الاهوار المحاذية للنهروان، وأولها الهور المتصل بالصافي المذكور، فهو ابي براع، وأبي غريب، وأبي قصيب، حتى تتصل بمنطقة قبر تاج العارفين[1] (ويعرف حاليا باسم تاج الدين) القريبة من دجلة، ومن ثم تمتد فتشمل هور التاج، وما زال محافظاً على اسمه القديم الى يومنا هذا[2]، وهو قريب من قبر تاج العارفين

الاراضي المذكورة مستندة الى المضبطة المصدقة في عهد مدحت باشا والي بغداد وذلك سنة 1292هـ/1875م وبعد مرافعات عديدة في المحكمة الشرعية حكمت برد دعوى المالية ولكن محمود افندي توفي قبل ان ينفذ الحكم الذي استحصله فراجع من بعده ابنه السيد جمال المحكمة الشرعية ايام قاضي بغداد السيد عبد الحميد أفندي الشيخ علي واقام الدعوى على مديرية اوقاف بغداد لاثبات التعامل المحكوم به لابنه سابقا فحكم له بذلك، ولكن مجلس التمييز الشرعي نقض الحكم المذكور ، وبقيت الموقوفات بيد مديرية أوقاف بغداد تديرها وفق احكام قانون الاوقاف في سنة 1350هـ

(1) يقع هذا القبر عند الجدول المعروف بنهر الحفرية قريبا من طريق بغداد- الكوت الحالي، وقد مر به سنة 1139هـ/1726م الرحالة مصطفى بن كمال الدين البكري الدمشقي عند سفره من بغداد إلى البصرة (كشف الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما جاورها من البلدان، الورقة 77)، وأشار إليه فيلكس جونز في دراسته عن القاطول الكسروي والنهروان في منتصف القرن التاسع عشر (Jones,F.,Op.Cit.P.273) ونحن نعتقد أنه قبر الشيخ تاج الدين أبي الوفاء (توفي بعد 500هـ/1106م) من معاصري الشيخ عبد القادر الكيلاني، وكان من أعيان شيوخ العراق "وكان من أعيان شيوخ العراق" (الشطنوفي: بهجة الأسرار، القاهرة 1330، ص143).

(2) انظر الخارطة.

المتقدم، وربما اكتسب اسمه منه. ويشمل، من بعد ذلك، القطنية[١،٢]، فهور القاطون (المحرف اسمه من القاطول) حيث تتجمع المياه الفائضة من نهر القاطول المتصل بمجرى النهروان في شرقي دجلة[٣]. ثم يقرب (الوقف) من دجلة، بدليل شموله على (القواطيل المفتحة من الدجلة الى الارض المنخفضة) ومن المعروف أن القواطيل هي من توابع النهروان لا دجلة، فالظاهر أنه أراد الارض المنخفضة الواقعة عند عراقيب سالم في الشمال من تلول الدير، جنوب المجرى القديم المعروف بخط الفتاح لانه يذكر بعدها أرض الفتاح نفسها، وتبعد هذه عن تلول الدير بنحو 6 كيلو مترات[٤]، وآخر تلك الاوقاف دير العاقول نفسه في الموقع المعروف بتلول الدير عند شاطئ دجلة. فتشكل حدود هذه الارض قوساً كبيراً يمتد من جنوبي المدائن شمالاً وحتى تلول الدير جنوباً، وهي مساحة متسعة من الارض، يبلغ طولها زهاء ستين كم، في حين يتراوح عرضها بين 10و15 كم.

وتقف ثاني هاتين الوقفتين المدمجتين، ارضاً فسيحة حدودها الجنوبية هور ابي سمك، وهو المنخفض الواقع حوالي تل ابي سمك في أعلى تلول الشاعورة عند مصب النهروان الاخير في دجلة، ثم تمتد شمالاً بخط مستقيم حتى تتصل بهور العدلة (العدلية) وارض هذا الهور مازالت معروفة باسمها عند تلول العدلة ونهر العدلة، الى الشمال قليلاً من العزيزية. ويلاحظ ان الواقف وضح هذا التحديد بشئ اكثر من التفصيل، فذكر ان حدود هذه الارض تبدأ بالتلول (التي هي أسفل الدخالة[٥] مشيرا الى نحو الدجلة متصله بالنهروان) وهذا الوصف الدقيق ينطبق بالكلية على اسافل عرقوب الشعيلة عن ارض العدلة، وهي آثار قناة قديمة كانت تصل بين النهروان ودجلة. اما قوله بان حدودها تنتهي (بكتف المتأخر من

---

(1) وتعرف منطقته اليوم باسم (خر التاج) وفيه آثار قديمة.

(2) هي غير نهر القطنية الواقع عند منعطف دجلة في الجنوب من عراقيب الشاعورة، والقطنية التي تذكرها الوقفية موضع مر به الرحالة مصطفى الصديقي الدمشقي بعد مروره بتاج العارفين (كشط الصدا، الورقة 77)، ووردت في خارطة القاطول الكسروي والنهروان لجونز على أنها في أسفل تاج العارفين.

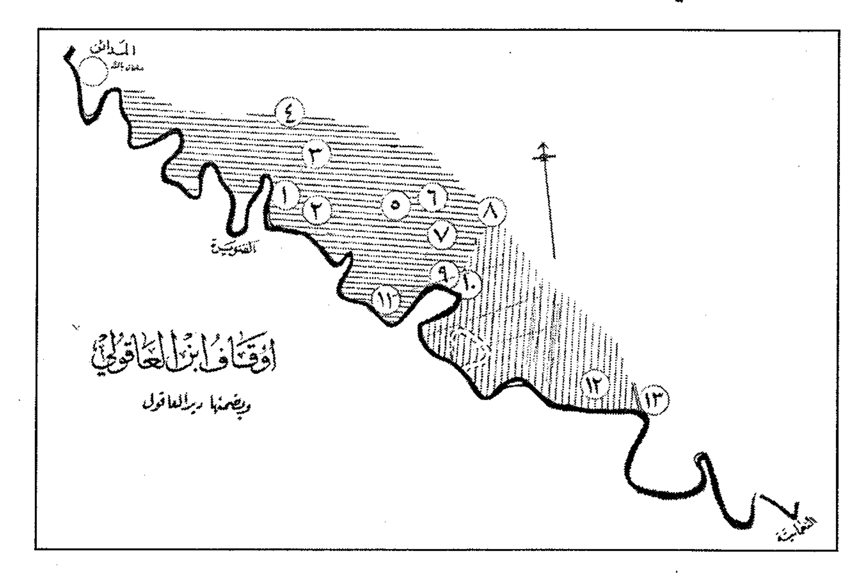
(3)

(4) انظر الخارطة

(5) تل الدخالة يعرف أيضا بتل الكبيبة، وهو قريب من العزيزية.

النهروان) فيعني به اخر مصب للنهروان في دجلة (تلول الشاعورة حالياً). وهي أرض واسعة من النهروان الاسفل بقيت تؤدي وظيفتها حتى عهد متأخر. ويبلغ امتداد هذه الارض طول نحو 20 كم، بعرض يتروح بين 6 و12 كم.

وهكذا يتضح لنا بصورة جلية، ان اسم دير العاقول كان لايزال معروفاً مشهوراً كعلم يستدل به على غيره من المواضع، حتى تاريخ هذه الوثيقة في منتصف القرن السابع عشر، مما يدل على ان معالمه كدير بقيت ظاهرة ماثلة للعيان الى وقت متأخر. ولعل كشوفا اثرية تجري على بقاياه لتزيدنا علماً بتاريخه، ولتلقى ضوءاً على تلك المدينة الداثرة التي ازدهرت في جواره في عهد مضى.



دليل خارطة الاراضي التي وقفها ابن العاقولي وفيها الدير

1- قبر تاج العارفين.

2- القطنية.

3- التاج.

4- الاهوار: الكبير، ابو برادع، ابو غرب، ابو قصب.

5- أرض الفتاح.

6- هور القاطون.

7- نهر العدلة (العدلية).

8- هور العدلة.

9- العزيزية.

10- تل كبيبة أو الدخالة.

11- دير العاقول.

12- هور أبي سمك.

13- المتأخر من النهروان (تلول الشاعورة).

أصول تسميات القرى في ديالى

في تاريخ ديالى جوانب عديدة، غنية، جديرة بأن يقف نفرٌ من المؤرخين حياتهم من أجل استجلائها، والتنقيب في تفاصيلها، والبحث في أصولها، فهذه الأرض تتميز بقِدَم قراها، ووثاقة علاقاتها الاجتماعية، ووفرة مياهها، وكثرة مشاريعها الإروائية، وتعدد مواضعها الأثرية، وما أداه أهلها من أدوار تاريخية، مما يجعل أي من هذه الجوانب موضوعاً لكتاب، أو اطاراً تستجليه جُملة من الدراسات، أو عنواناً لدراسة جامعية، أو بحثاً ذا شأن في مجال البحوث التاريخية.

وكنت قد عُنيت، منذ زمن، ببعض هذه الجوانب، واقتضت مني تلك العناية القيام بجولات عديدة في قرى تلك المحافظة وربوعها، أسجّل ملاحظات عن هذه القرية، وأفتش في غيرها عما يمكن أن تخلف من ركام الماضين وآثارهم، وأدوّن روايات المعمرين هنا، وأبحث في المصادر وكتب الرحلات عما يُعد شاهداً على وجود موضع هناك، وأقوم بجرد ما تحتويه الوقفيات القديمة، والصكوك الشرعية، والحجج الوقفية، بحثاً عما يلقي ضوءاً على تاريخ تلك المعالم الشاخصة، والآثار المندرِسة، على حد سواء. ومع أني كنت أخرج بعد كل جولة من تلك الجولات بحصيلة علمية طيبة، تشجع المرء على المضي في سبيل البحث والدرس، إلاّ أن صورةً فقيرةً ومؤلمة مانت تبدو لي كلما قطعتُ شوطاً في ذلك السبيل، صورة مؤرخينا وباحثينا وهم يحجمون عن دراسة هذا الكم الهائل من الشواخص والأصول والروايات الغنية، أو إهمالهم إياها، حتى بات أكثرها مهدداً بالضياع، ناهيك بما ضاع منها واندرس فعلاً، دون أن يجد له من يسجله ويحفظه في دراسة أو كتاب، وربما كان سبب هذا الإحجام، أو الإهمال، الوقوع تحت تأثير فكرة مفادها أن تاريخ المدن الرئيسة في العراق، ولا سيما بغداد، يعبر – بشكل أو بآخر– عن تاريخ العراق بأكمله، وأن دراسة ما جرى في بغداد في القرن السادس عشر يمثل ما حدث في العراق كله، في ذلك القرن، وهي فكرة خاطئة إلى حدٍ بعيد، كانت سبباً في إهمال دراسة الريف، بقراه ومجتمعاته وعلاقاته الإنسانية، وكأن ليس للقرية الزراعية تاريخ أصلاً جدير بالبحث والدرس. والصحيح أنه لا يمكن دراسة تاريخ المدينة، من أي جانب كان، دون دراسة أوسع لتاريخ ريفها، فهي

القاعدة التي توجد فيها، وتمارس- من خلالها- نشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية، وتتأثر بها، وتؤثر فيها، على سبيل التفاعل الإنساني المستمر. والعجيب أن بعض الأجانب استهواه تاريخ هذه الأرض، ولم يكن من أهلها، ولم تربطه بهم أدنى صلة، فكتب روبرت ماك آدمز، الأستاذ في المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو كتاباً ضخماً سماه (أطراف بغداد- تاريخ الاستيطان في سهول ديالى) وترجمه ثلاثة من الفضلاء إلى العربية، إلاّ أن هذا الباحث لم يَزُر القرى بنفسه إلاّ لماماً، واعتمد على خرائط سابقة لم تكن دقيقة في معطياتها دائماً، وهكذا فإنه وقع في أوهام مثل ظنه أن باجسرا هي بُهرُز الحالية، مع أن كلا من الناحيتين كان معروفاً منذ عهود ما قبل الإسلام وما زالا كذلك.

أما الكتب التي ظهرت في العراق، فإن جهود مؤلفيها- وهي محمودة في كل حال- استهدفت التعريف بمناطق المحافظة بوجه عام، فسجلت أسماء بعض القرى وأهملت الأسماء الأخرى، وتناولت عدداً من مراكز الأقضية والقرى المهمة القريبة منها، وتركت ما عداها، على أن بعض ما تركته له من التاريخ ما ليس لمركز القضاء نفسه، أو أنه يضاهيه في الأقل، ومن هنا كانت عنايتي منصرفة إلى كتابة تاريخ تلك القرى التي ظلت بعيدة عن اهتمام الدارسين، لكنها جاثمة- في الوقت نفسه- على ركام ضخم من الماضي الزاهر.

ولست هنا لأعرض نتائج بحثي في هذه الجوانب، وإنما سأقتصر على واحد منها فحسب، وهو المتعلق بأصول تسميات المئات من القرى التي توجد في سهول ديالى، بهدف التوصل عن طريق رصدها وتحليلها إلى طبيعة تلك التسميات ومبررات إطلاقها، ودلالاتها الاجتماعية والاقتصادية والبيئية. وأظن أن كثيرين لفتت أنظارهم - كما لفتت نظري- تنوع تسميات هذه القرى وقدمها وغرابة بعض الأسماء أحياناً. وربما ذهب بعضهم مذاهب شتى في تفسير هذا الاسم أو ذاك، لا لسبب إلاّ لأنه لم يجد له معنى يفهمه، أو تفسيراً سهلاً يتقبله. ولقد اعتمدت في دراستي بالدرجة الأولى على القائمة المفصلة بأسماء المدن والقرى لمحافظات القطر، التي أعدتها لجنة متخصصة في وزارة الحكم المحلي الملغاة، وكنت عضواً فيها، وقد رصَدَت هذه القائمة أسماء 642 قرية في محافظة ديالى وحدها، وأضفتُ أنا إلى هذه الأسماء ما توصّلتُ إليه في أثناء جولاتي في المنطقة، وما سجَّلته الكتب التي صدرت للتعريف بها، بما

يرفع العدد إلى نحو 700 اسم، أو أقل قليلاً، وإني سعيد أن أضع بيد يدي القارئ الان، بعض ما جد لي من ملاحظات في هذا الصدد .

ويمكننا أن نحلل أسماء تلك المئات من القرى إلى ثلاث مجموعات رئيسة، هي القرى المنسوبة إلى أعلام الناس، والقرى المنسوبة إلى الأقوام والجماعات، والقرى المنسوبة إلى مفردات البيئة الجغرافية، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: القرى المنسوبة إلى أعلام الناس

وتمثل هذه المجموعة في ديالى نسبة عالية إذا ما قارناها بتسميات القرى في عدد من المحافظات الأخرى، حيث تصل هنا إلى نحو نصف التسميات كلها، وسنفصل القول في أسباب هذه الظاهرة فيما يلي، على أنه يمكن القول بأن هذه المجموعة تنقسم- هي أيضاً- إلى الفئات الآتية:

1- قرى منسوبة إلى زرّاع رواد:

تنسب هذه المجموعة إلى الأشخاص الذين كان لهم دور بارز في إعمارها وزراعتها واستيطانها، مما أدى إلى ارتباط أسمائهم بأرضها إرتباطاً وثيقاً أبقى عليه الزمان، مثال ذلك قرى: عبد الله الحسوني، والسيد جابر، وعبد الحميد، وشطب، وعلوان العنفوص، وصبار منهل، وزعيطر، وحسين جاعد، ومرعيد، وملا عيد، وجلوب، وجواد البشو، وحسين عناد، وأسطه أحمد، ومصطفى، وإبراهيم المذكور، وأحد الحسون، وعبد الجبار، وحسين حمادي، ومحمد رضا، وسيد عواد، وعبد الكريم، ولطيف حمدي، وأحمد مزبان، وعباس جاسم، وفارس طارش، ومشخال حمزة، وعزيز همالة، وحميد السبع، وخضيذشر عباس، وفليِّح حسن الجاري، وحامد سلمان السعدون، وسلمان وطه العلوان، وسلمان الوَروَر، وعبد الكريم جاسم، وحامد حميش، ومهدي الفتَّه، وعبد الحسن الحاجم، وحميد إبراهيم، وحسب الله الناصر، وكامل جاسم، وحمود الرشيد، وجواد كاظم ذنون، وأحمد خلف حسين، وكريم ناصر، وابراهيم الضاحي، وحسين خليل علي، ومحمود الزكِم، وغني مساعد، وحميد محمود شناوه، وحمادي سلطان سعيد، وكريم عباس، وكيطان الدرب، وسلمان وطه العزاوي، وإبراهيم مهدي صالح، وعلي مذري،ورشيد الكيطان، وسعود ذياب، وإبراهيم يحيى، وإسماعيل محيميد، وجمال جاسم حسين، وطه جميل، وحيدر عربيد، ومحمد عبد الكريم، وغيرهم كثير.

وأكثر هذا النوع من التسميات يوجد في مركز قضاء مركز بعقوبة، بينما يقل في الأقضية الأخرى، وذلك لأن قسماً من هؤلاء الزراع الرواد حصلوا على أراضيهم التي قامت عليها قراهم فيما بعد، بموجب قوانين تسوية الأراضي التي طبقت في المحافظة ابان العقود الأخيرة من القرن الماضي، إلاّ أن ذلك يجب أن لا يدفعنا إلى تصور أن هذه الظاهرة هي نتيجة تطبيق تلك القوانين وحدها، لأننا لاحظنا وجود الظاهرة في العصور السابقة أيضاً، وقبل العمل بالقوانين بآمادٍ بعيدة، وسبب ذلك يكمن في تقديري في البيئة الزراعية للمحافظة، ففي منطقة يغلب عليها الانتاج الزراعي، وتسود فيها العلاقات الزراعية، تكون للمبادرة الفردية، أو الأسَرية في أكثر تقدير، الدور الرائد في أي عمل يتعلق بذلك النوع من الإنتاج، وهذا الأمر يؤدي- من ثم- إلى إستقرار ملحوظ في ملكية الأرض، ووجود قواعد مرعية لهذه الملكية- حتى في ظل عهود الفوضى الإدارية- من شأنها أن تشجع زُرّاعاً رُوّاد على استصلاح الأرض، أو إحيائها وفقاً للمصطلح الفقهي، تمهيداً لتعميرها بالزرع وبالناس أيضاً.

وكانت طبيعة المنطقة المعتمدة على الري السَّيحي، والكثيفة الزرع، والحافلة بالتجمعات البشرية، تحفز على قيام الملكية القروية الصغيرة نسبياً، وهذه الملكيات تكتسب أسماءها- بسهولة- من أسماء رواد زراعتها ومنشئي تجمعاتها، وليس من أسماء القبائل الكبرى كما هو الحال في مناطق أخرى من العراق، وبتقادم الزمن أصبحت ذُريّات هؤلاء المُعمِّرين الأوائل هم سكان القرية حصراً، مما خلق لدى الأحفاد نوعاً من الاعتزاز بأسماء جدودهم، التي هي في الوقت نفسه أسماء قراهم أيضاً. ومع أن أكثر هذه القرى لا يحمل إلاّ الاسم الأول، أو الإسمين الأوليَن لمؤسسيها، فإن الأسماء نفسها تدل دلالة قاطعة على أن أصحابها ينتمون جميعاً إلى القبائل التي نَزَحت إلى المنطقة خلال عهود متعاقبة، وامتهنوا الزراعة لظروف خاصة بهم، ولظروف بيئتهم الجديدة أيضاً، وكل ما في الأمر أن العلاقات الزراعية بينهم غلبت على العلاقات القبلية، فلم تذكر أسماء قبائلهم بعد أسمائهم إلاّ قليلاً، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن قرية (بودجة) من أعمال المقدادية، والمعروفة بهذا الاسم منذ القرن التاسع للهجرة (15م) تنسب أيضاً إلى من يدعى (كيطان)، وليس كيطان هذا ألاّ اسماً متوارثاً منذ عهود عدة، حمله في

عهدٍ ما مؤسس القرية، الذي هو من قبيلة خولان اليمانية التي استقرت في المنطقة منذ عهد الفتوح الإسلامية، فجميع سكان القرية هم خولانيون يمانيون، وإن لم تنسب قريتهم إلى قبيلتهم نفسها.

2- قرى منسوبة إلى أعلام الأولياء والصلحاء

ثمة قرى عديدة تنسب إلى أعلام الأولياء وأهل الصلاح الذين دفنوا في تلك النواحي، فنسبت القرى القريبة من أضرحتهم ومشاهدهم إلى أسمائهم أما تبركاً بها، وأما لشهرتها بين سكان القبائل المجاورة. وشيوع هذه الظاهرة في ديالى يثير الانتباه فعلاً، وهو دليل آخر على الطبيعة المستقرة للملكية الزراعية، وما يقوم عليها من مستوطنات حيث تكون هذه الأضرحة بمثابة مزارات دينية لسكان القرية، أو القرى القريبة، ومكاناً لاجتماعهم في المناسبات الدينية والإجتماعية، ومدفناً لهم أحياناً، وهي تُعبِّر – من ثم- عن وراثة كل جيل لما يعده الجيل السالف موضع تقديسه واحترامه، وهذا ما يفسر كثرة الأضرحة والمقامات المنتشرة في أعماق ريف ديالى، والتي أعطت أسماءها للقرى هناك، مثل قرية أبو فياض في قضاء بعقوبة، وقرية الإمام، وقرية اللقمانية، وقرية الشيخ عمر في قضاء الخالص، وقرية الامام ويس، وقرية السيد سلطان علي، وقرية إمام عباس في قضاء المقدادية، وقرية إمام منصور، وقرية إمام عسكر في قضاء مندلي (ناحية مندلي التابعة إلى قضاء بلد روز) وغيرها. وربما تقاسمت عدة قرى اسم ولي من الأولياء، وصالح من الصلحاء، فجيزاني الجول، وجيزاني ثعيلب، وجيزاني الإمام، ثلاث قرى تنسب جميعاً إلى الامام كمال الدين الجيزاني، المنسوب إلى مدينة جيزان في اليمن، والذي قدم إلى المنطقة في زمن ما حيث دُفن فيها. ومثل هذا قرى شوهاني حمدان، وشوهاني داود سلوم، وشوهاني علي العبد لله، وشوهاني حبيب الخيزران، ولا نعلم لهذه الظاهرة مثيلاً في مناطق أخرى. وتدل تلك الأسماء على أن أصول هؤلاء الناس، أو ما يعتقد أنها أصولهم، فهم أما من بيت النبوة، أو من قادة الفتح الإسلامي، مثل القبر المنسوب إلى المقداد الكندي[1]، وقبر إمام

(1) نشأت المقدادية عند قبر من يدعى الشيخ مقداد، وهو أحمد الصوفية من أهل القرن الخامس للهجرة، وردت أخباره في تضاعيف سيرة أبي الوفا تاج العارفين. ينظر أحمد بن عبد المنعم الواسطي: تذكرة المقتفين في مناقب أبي الوفا تاج العارفين، بتحقيقنا مشاركة مع الدكتور زرار صديق، أربيل 2005 ص77-78.

عسكر (الذي يظن أنه قبر القعقاع التميمي)، أو لعلماء بارزين من العصر العباسي، مثل قبر علي بن إدريس البعقوبي، قرب بُهرز، وقبر السيد أبي الغيث بن جميل في بهرز، وقبر السيد أبي خميس قربها أيضاً، وغيرهم كثير.

3- قرى منسوبة إلى بعض المالكين السابقين

نُسبت قرى عديدة في ديالى إلى أسماء بعض مالكيها السابقين، ومنهم من ترك آثاره فيها، بشق نهر، أو إحياء أرض مَوات، أو زراعة محاصيل جديدة، من ذلك مثلاً قرية بازول أحمد بك، وقرية الوزيرية، وقرية الضابطية، وهي من قرى بعقوبة، وقرى يوسف بك، ومحمد شير بك، وإبراهيم بك، وقادر بك، وصالح آغا في قضاء خانقين، وبكر آغا، وجديدة الأغوات، وكهيه (وظيفة تعني نائب الوالي ومساعده) ومخلص بك، وأمجد باشا، والمشيرية (رتبة عسكرية عثمانية) في قضاء الخالص. وتدل الألقاب الوظيفية الرسمية لهؤلاء الملاك (بك، باشا، ضابط، كهية) على أنهم من الفئة المعروفة باسم الملاك الغائبين، أي أنهم كانوا يقطنون المدن الكبيرة، ويتولى معاونونهم ادارة ما يملكون، بل أن بعض القرى منسوبة إلى أسر مدنية معروفة، مثل قرية السُويدي، نسبة إلى أحد أفراد الأسرة السويدية العباسية التي انحدرت من الدور إلى بغداد في القرن الثامن عشر، وقرية الزهاوي نسبة إلى الأسرة الكردية التي قدمت من مدينة السليمانية واستوطنت بغداد في القرن التالي. وشيوع هذه التسميات في ديالى يدل على بعض أشكال الملكية الزراعية انتشر في تقديرنا منذ منتصف القرن الثامن عشر نتيجة نمو المدن وهيمنتها الادارية والحضارية على الأرياف المجاورة حينذاك، وتوفر حد أدنى من الأمن يكفل لذوي النفوذ فيها إدارة ممتلكاتهم خارجها مع اكتفائهم بالإقامة في مدنهم، على أنه تجب الملاحظة أن أكثر أولئك الملاكين كانوا من السكان المحليين كما رأينا، وحيازتهم على ألقاب ادارية أو عسكرية مما شاع استخدامه في المؤسسات العثمانية لا يدل على أنهم ينتمون إلى أصول خارج ذلك النطاق، فمن المعلوم أن فئة الموظفين والعسكريين العثمانيين كانت- على محدودية عدد أفرادها- تتبدَّل على الدوام بغيرها، مما يحول دون تملك أكثرها الأراضي وإدارتها، لا سيما في خارج المدن التي يقطنون.

ثانياً: المدن المنسوبة إلى الأقوام والجماعات

1- قرى منسوبة إلى القبائل والعشائر والبيوتات

نزلت سهول ديالى، منذ عهود ما قبل الإسلام، وخلال العهود الإسلامية المتعاقبة، قبائل وعشائر عديدة، كان لبعضها مساهمات جُلّى في حركة الفتوح الإسلامية في البلاد الآسيوية التي عرفت فيما بعد بالمشرق الإسلامي، فمن القبائل والعشائر التي استقرت في هذه النواحي نذكر: طي، وتميم، وبنو سعد، وخولان، وكنانة، وشيبان، والدليم، وقيس، وبنو زيد، والجبور، وربيعة، والمعامرة، وخفاجة، وألبو جواري، والداينية، وبنو لام، وبنو وَيس، والنعيم، واللهيب، وآل بدير، والمهدية، والعكيدات، وبنو عِز، والعُبيد، وشمَّر، والمجمَّع، فضلاً عن عدد من العشائر الأخرى. وإذا كانت هذه القبائل والعشائر قد انفردت في مناطق أخرى من العراق بـ (ديرات) مستقلة، فإنها في أقسام واسعة من ديالى قد تعايشت مع غيرها من القبائل في المنطقة الواحدة، وسبب هذه الظاهرة يكمن في أمرين، أولهما أن سهول ديالى تعد آخر امتداد للعراق من جهة الشرق، فالقبائل التي تضطر إلى ترك مواطنها الأولى في غربي الفرات، وفي منطقة الجزيرة، إزاء دفع القبائل الأخرى القادمة من الجزيرة العربية، لا تجد أمامها إلاّ الإنسياح في المناطق الواقعة في شرقي دجلة حيث لا مفر من التعايش مع فروع القبائل التي سبقتها – للسبب نفسه– إلى هناك، إذ ليس بعد هذه المناطق أرض يمكن أن تنفرد بها وحدها. ومن ناحية أخرى فإن مجتمعاً يعتمد في زراعته على الري السَّيحي المنظم لا بد له من تحقيق التعايش، بل والتعاون، بين السكان، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية المختلفة. وهكذا فإننا نجد فروعاً من القبيلة الواحدة تتفرق في نواحي شتى من ربوع ديالى حيث تساكن هناك فروعاً أخرى من قبائل غيرها، وعلى سبيل المثال فإن في قضاء بعقوبة وحده نحو عشرين عشيرة، وفي ناحية كنعان (مَهروت قديماً) نحو أربعة عشر عشيرة، وفي قضاء الخالص خمسة عشر عشيرة، وفي ناحية المنصورية (دِلّي عباس سابقاً) نحو سبع عشائر، وفي كل من ناحيتي هِبهِب والعظيم مثلها، وهذه المعايشة تعد إحدى أهم سمات المنطقة وخصائصها، وهي التي أكسبتها عبر العهود الماضية روحاً من التسامح والتعاون والتجانس الإجتماعي الفريد. ونظراً لتفرق القبيلة في عشائر بل وبيوت متعددة، فإنه لم يبق

من مجال لإنتساب القرى إليها، ومن هنا فإن النسبة إلى القبائل جاءت قليلة نسبياً، ومن أبرزها قرى: الخزارجة، والدليم، والغوالبة، والصقور، والخزرج، واللهيب، والبوجواري، والسواعد، والعوادل، والغزية، والهلالية، والحديد، والبوعكلة، والبو عواد، والغريرات، والبواديش، والجبابلة، وبنو زيد، والمراسمة، وشيبان، وغيرها .

2- قرى منسوبة إلى الجماعات الحِرَفية

واشتهرت بعض القرى بمزاولة حرفة معينة، حتى غلبت تلك الحرفة على نشاطات السكان الاقتصادية الأخرى، فنسبت إليها، مثال ذلك: قرية النحّالة، نسبة إلى نشاط سكانها في تربية النحل، وقرية الدبّاغية، نسبة إلى ما يمتهنه أهلها من دباغة الجلود، حيث تكثر الحيوانات الصالحة لهذا الأمر. وفي الواقع فإن وجود حرَفيين في قرية زراعية منعزلة، أمر له ما يبرره تماماً بوصفه يحقق نوعاً من الاكتفاء الذاتي في بعض مجالات الصناعة والخدمات، أما أن تشتهر قرية بحرفة معينة، بحيث تغلب على نشاطاتها الأخرى، فتعرف بها، فهذا ما لم يُعهد في القرى الزراعية عادة، وهو يدل على تطور الوظيفة الاقتصادية للقرية الزراعية في ديالى بما يمثل نوعاً من التخصص.

ثالثاً: القرى المنسوبة إلى مكونات البيئة الجغرافية والاقتصادية

اعتاد الناس، منذ عهود بالغة القدم، على تسمية مدنهم وقراهم بأسماء مكونات البيئة التي توجد فيها، من تضاريس وأنهار ونتاج زراعي وحيوان وغيرها . وفي بيئة جغرافية واقتصادية غنية بالظواهر كبيئة سهول ديالى، كان طبيعياً أن تنسب بعض القرى إلى مثل تلك الظواهر، من انهار جارية ومندرسة، وتلول طبيعية وصناعية، ونباتات ومزروعات مختلفة، وحيوانات مستأنسة وغير مستأنسة، وذلك على النحو الآتي:

1- قرى منسوبة إلى ألوان الأرض

تتسم أرض ديالى بالتنوع الملحوظ في مكونات تربتها، مما ترك آثاره على هذه الأرض بتباين ألوانها بين مكان وآخر، كما أن كثرة أنهارها وما تتركه مياهها من طمى، وتنوع ما ينبت فيها من نبات، له دور آخر في تلوين أرضها بأكثر من لون

واحد. ولقد اكتسبت قرى عديدة في ديالى أسماءها من هذا التباين اللوني الفريد، منها مثلاً قرى: تل أسمر، وتل أحمر، وتل أبيض، والأحمر، وتل الأميلح، والأجيحل (الأكيحل)، وتل خشم الأحمر، والأسود، وصفيرة، وغير ذلك.

2- قرى منسوبة إلى تضاريس الأرض

وتكتسب القرى أسماءها أيضاً من شكل تضاريس الأرض التي توجد فيها، وما يعلو سطحها من صخور وغيرها. وتكشف أسماء قرى ديالى عن أشكال الأرض على نحو بالغ الدقة، يصل إلى حد تقديم وصف مُعبِّر عن أكثر الظواهر التضاريسية في المنطقة انتشاراً. فقرية أبو حصيوة مثلاً اكتسبت اسمها من الحصى الذي يرسب في مجرى نهرها، وقرية الأرميلات منسوبة إلى ما يرسب في نهرها من رمل، أو ما يوجد على أرضها اليابسة منه، وهكذا الأمر لقرية صخر، حيث تكثر الصخور على أرضها، وقرى الدحلة، وعنك (أي عنق) الدحلة، والدحيلة، التي اشتقت اسماؤها من لفظ (الدحل) العربية، وهي الممر الضيق المدخل المتسع فيما بعد، والذي قد ينبت فيه شجر (السِّدر) أو هو المدخل تحت الجُرف، كما نص على ذلك صاحب القاموس المحيط وغيره من أصحاب المعاجم. ومنها قرية (الركَّة) المأخوذة من (الرِّقة) وهي — كما في القاموس- كل أرض إلى جنب وادٍ ينبسط الماء عليها حيناً من الوقت، وقرية (الحفاير) التي يشير اسمها إلى شكل الأرض فيها، وربما عُرفت بهذا الاسم لكثرة ما يحفر فيها لاستخراج الآجر القديم قربها مما يعاد البناء به، وقرية جيزاني الجول منسوبة إلى الجول (بالجيم المثلثة وأصلها بالجيم الموحدة) وهو — لغة- التراب، والأرض كثيرة التراب، وقرية (دَوخَلة) مؤلفة من كلمتين هما (الدَو) وهو — في المعاجم- الأرض الفضاء، و(خَلا) وتعني الخالية من السكان، وقرية (قرارة) مأخوذ اسمها من القرار، التي هي المطمئن من الأرض، أي السهل الذي لا عوج فيه، ومثل هذا كثير، بل أن بعض الأسماء ظل تحتفظ به قرى في ديالى، بينما ترك استعماله في اللغة المتداولة بين الناس، ولم أحد يذكر معناه إلاّ بالبحث غي معاجم اللغة.

وقد تنسب القرى إلى الأنهار وما تتركه في مجاريها عادة من تعرجات، وما تخلفه من تضاريس، فقرية (دورة الوقف) منسوبة إلى دوران النهر عندها، وقرية (الهُوَيرة) سميت بذلك لوجود هور صغير عندها، وقرية (أبو دِهلاية) يدل اسمها

على كثرة الدهلى، وهو الطمى المتخلف عن مجرى النهر، وقرية (الزوية) منسوبة إلى زوايا النهر الحادة، وقرية الجزيرة وقرية العويجة نسبة إلى اعوجاج مجراه، وكذا الحال بالنسبة إلى القرى المنسوبة إلى الشاخة، والبدعة، وكلاهما بمعنى النُهير، وتلك المنسوبة إلى النهر، مثل قرى نهر سلطانية، ونهر الكبير، ونهر المجرة، ونهر حريريز، وبلدة الخالص، وقرية الخويلص (وهو تصغير للاسم الأول) منسوبتان إلى وصف لماء النهر ويعني النقي من الشوائب، وقرية جرف الندّاف منسوبة إلى حوافي نهرها العالية، وهكذا.

3- قرى منسوبة إلى المشاريع الإروائية والعمرانية

تعبر هذه المجموعة من التسميات عن جانب من جهود الإنسان في ديالى في مجالات العمارة والبناء، فلقد شهدت أراضي هذه المنطقة عبر التاريخ انشاء العديد من المشاريع الإروائية المعقدة، وها هي آثار هذه المشاريع، من جداول دوارس، وسداد، وجسور، وقناطر، تدل على عِظَم ما بذله أصحابها من جهد وخبرة في هذه المجالات، فليس غريباً أن تجد من القرى ما ينسب إلى بعض تلك المشاريع، فقرية (السِّكرانات) بكسر السين، في قضاء بعقوبة منسوبة إلى جمع غير مألوف للفظ (سِكر)، وتعني – بحسب المعاجم – ما يسد به النهر، والمسناة، والقرى المسماة إحداها بـ (العبّارة) والمنتشرة في غير موضع من ديالى، تشير أسماؤها إلى ضرب من المجاري المائية يعبر من فوق مجرى مائي آخر، بواسطة عقود مبنية بالآجر أو غير ذلك، وهذا الضرب من المشاريع الهندسية شاع انشاؤه في المنطقة منذ عهود ما قبل الإسلام في الأقل، وقرية (التحويلة) منسوبة إلى مشروع لتحويل المياه من مجرى لآخر، والقرى المسماة بـ(الدولاب) و(الدواليب) تشير إلى احدى الطرق التي اتبعها انسان المنطقة في رفع المياه من المجاري العميقة إلى مستوى الأرض المزروعة، ومثلها القرى المسماة بـ (البازول)، وهي المنسوبة إلى مشاريع البزل العديدة المنتشرة هناك، والتي تدل على مدى عناية الانسان باصلاح أرضه، وهكذا الأمر في قرى أخرى، مثل: المحولة، والكهريز، وغيرها.

ومن ناحية أخرى فإن ثمة قرى تشير أسماؤها إلى أنواع مختلفة من أشكال الاستيطان البشري في المنطقة، وضروب من أسباب التجمعات السكانية فيها، فقرية الحويش (في قضاء الخالص) أخذت اسمها من تصغير لفظ (حوش)، وهذا

اللفظ أوردت المعاجم معناه، وهو يتراوح بين التجمع والجماعة من الناس، وقد تطور معناه حتى غدا المسكن أو القصر، وقيل الحظيرة الواسعة المسيجة التي تقع خلف جماعة من الدور يسكنها الفلاحون في أكواخ لهم، على ما أثبته دوزي في تكملته للمعاجم العربية، وعليه فإن اسم القرية وحده يكشف عن ظروف نشأة القرية، بأنها تجمع لدور عدد من الفلاحين حول دار أحد الملاكين، أو زعماء المنطقة القدماء، اتسع على مر الزمن ليغدو قرية زراعية قائمة بذاتها، ومثل هذا القرى المسماة بالقلعة، أو المبتدئة أسماؤها بهذا اللفظ، والقرية المسماة بـ(القصيرين) والمجاورة للحويش، ربما نسبت إلى قصرين كانا هناك، والقصر – لغة– المنزل، أو كل بيت من حجر. ومثل هذا قرية (القُبة) وقرية (القُبية) اللذان يشير إسماهما إلى ضرب من الأبنية المعقودة بالآجر، وهكذا الأمر بالنسبة إلى التسميات الأخرى.

4- قرى منسوبة إلى البيئة النباتية

تشتهر سهول ديالى، منذ عهود قديمة، بالزراعة، حيث تتوفر فيها المياه الوفيرة والتربة الجيدة، وحفلت الكتب الجغرافية والتاريخية القديمة بإشارات مهمة إلى تميز ديالى بالإنتاج الزراعي، وما كانت تصدره إلى بغداد من محاصيل، وما ينبت فيها من مختلف أنواع النبات. وكان طبيعياً – في بيئة كهذه– أن تجد بعض القرى نسبتها إلى ما اشتهر في أرضها من نبات سواء أكان طبيعياً أم مستزرعاً. ونظرة إلى أسماء هذه القرى توضح بجلاء عناصر هذه البيئة ومكوناتها، فالنخلة– وهي أشهر ما في المنطقة من شجر– كان سبباً في كثير من تلك التسميات، مثل قرى: أبو نخل، وأم التمر، والفسيلة، والشويخرات، وهو – لغة– عذوق التمر، والأسيود، وهو التمر نفسه، والهويدر، المأخوذ اسمها من (الهدر) وهو طلع النخل كما في المعاجم العربية، وقرية (كوصَري) تحرف اسمها من لفظ (قَوصَرة) وهو – كما في المعاجم– وعاء التمر.

وحيث تكثر في بعض أنحاء ديالى أجَمات القصب، تجد من القرى ما اسمه (قصب) و(قُصيبة)، بل أن قرية واحدة، هي المسماة (المخيسة) يحمل اسمها صورة المنطقة ووظيفتها في العصور السالفة، فالمخيسة مشتقة من الخيس، وهو على ما أفاد صاحب القاموس المحيط "الشجر الملتف، أو ما كان حلفاء وقصب"، ويفهم

منه أيضاً أن المخيس هي الأرض التي يكثر فيها القصب دون غيره، وهذا التعريف ينطبق على صفة القرية تماماً، فهي كثيرة الشجر، يحف بها هور أبي صيدا بقصبه وحلفائه، ويمكننا أن نستدل من قرب بلدة أبي صيدا منها أنه كان حوالي القرية أماكن يكثر فيها الحيوان الصالح للصيد، فأبي صيدا اسم محرف من اللفظ الآرامي القديم (باصيدا) ويعني بيت الصيد أو مكانه. ويؤكد هذا المعنى صاحب القاموس إذ يقول: ان الخيس هو موضع الأسد، فلا تعيش الأسود إلاّ في الأجمات الملتفة الشجر، وكان لصيدها في العصور السالفة هُوّاة وطُلاب، فهذه الإشارات اللغوية تدل جميعاً على قدم القرية وعراقتها. وقرية (العواشق) يدل اسمها على ما ينبت حولها من نبات، فالعشقة شجرة وصفها صاحب القاموس المحيط بأنها تخضر ثم تَدُق وتصفَر، ولما يزل هذا النبات يرى بكثرة هناك، ومثلها قرية (وادي العَوسَج) وهو شجر شوكه معروف فيها، وقرية (البَرداية) أي البردية، وهو ضرب من القصب، وقرية (الحلفاية) أي الواحدة من الحلفاء، النبت المعروف، وقرية (ابو عاكول) وهو الشوك الذي يكثر في براري العراق، وقرية (الشوك) وغيرها.

وثمة قرى تدل أسماؤها على ما يزرع في بساتينها من أنواع الفاكهة، مثل قرية (سِدر) وهو شجر النبق، وقرية (ابو تينة) وقرية (التينة) وقرية (أم الرمان) وقرية (عنيبة) مصغر (عنبة) حيث تكثر الكروم، وقرية (السِّندية) وهو البرتقال الذي تشتهر به محافظة ديالى، وربما نسبت قرى إلى محاصيل تختص بها، مثل قرية (دُخُن) وقرية (نهر التتن) وقرية (أبو فجل) أو على أشجار هناك، كقرية (سيسبانة) وغير ذلك.

5- قرى منسوبة إلى الحيوان والطير

وفي ديالى قرى عديدة منسوبة إلى أجناس الطير والحيوانات مما تحفل بها بيئتها الطبيعية، وأسماء هذه القرى بجملتها تشكل صورة متكاملة عما وجد في ربوعها وآجامها وبساتينها من تلك الأجناس المختلفة، سواء أكانت مستأنسة، مثل قرى (أم جمل) و(أم الحوالي) و(أم الصخول) و(الغزلانيات) و(وادي الغزلان) و(أبو الخنازير) و(وادي الحصان)، أو وحشية، مثل قرى (أبو خميس) وهو الأسد، و(أبو السباع) و(ذابة) جمع ذئب، و(أبو ضبع) و(خر الوحش) ، أو أن تكون منسوبة إلى

الطير، مثل قرى (أم الحمام) و(أبو جراد) و(الشقراق) وهو نوع نادر من الطيور يمتاز بكثرة ألوانه، وغير ذلك.

ملاحظات عامة

في وسعنا أن نخرج من مجموع ما تناولناه في هذا البحث بجملة من الملاحظات العامة، نجملها بما يأتي:

إن أغلب أسماء القرى مشتق من جذور لغوية قديمة، ومن ثم فإن من شأنها أن توثق مفردات غادرها التداول العادي، أو خلت منها المعاجم، ومن هنا تأتي أهميتها.

ويلاحظ أن بعض قرى ديالى ونواحيها يحمل أسماء آرامية قديمة، ترقى إلى عصر ما قبل الإسلام، إذ كانت هذه اللغة هي السائدة في أنحاء المشرق، مثل: بعقوبة، وأبو صيدا، وأبو جسرا، وبركنية، وزاغنية، وقد تحرفت عن أصولها الآرامية: باعقوبا، وباصيدا، وباجسرا، وزغونى.

وقد أثبت انسان ديالى أنه الأكثر تمسكاً باسم قريته تعبيراً منه عن اعتزازه بشخصيتها المتميزة، فقرية (العبارة) التي في قضاء بعقوبة، تبدل موقعها، خلال القرون الخمسة الأخيرة ثلاث مرات، ومع ذلك فإن أهلها احتفظوا باسمها في كل مرحلة وحتى يومنا هذا، وقرية (دَوخَلة) التي عرف اسمها منذ أكثر من ستة قرون، حافظت على هذا الاسم إلى اليوم، مع أنها بدلت موقعها نحو ثلاث مرات أيضاً، وهكذا الأمر بالنسبة إلى قرى عديدة. وربما توسعت القرية الواحدة وانتقل بعض أهلها إلى موضع جديد بسكنونه ويعمرونه، إلاّ أنهم لا يسمون هذا الموضع بغير اسم قريتهم القديمة نفسه، وهكذا فإن كثيراً من القرى القديمة المندرسة تحمل أسماءها قرى أخرى تفرعت منها في عصر لاحق.

قرى ديالى ونواحيها في العصر العثماني
دراسة في وثائق عثمانية

إذا كان القولُ بأن التاريخ ليس إلاّ تاريخ مدنٍ صحيحاً إلى حد ما، فإن مبررات قوية تدعو الباحث اليوم إلى العناية بتاريخ ما هو خارج أسوار المُدن أيضاً، من ريف زراعي وتكوينات قبلية وتجمعات بشرية، وذلك لما لهذا الريف من أثر بالغ في تاريخ المدينة نفسها، فمنه تستقبل المدن مهاجريها، وبخاصة بعد الأزمات الحادة التي تمر بها، فتتجدد به حيويتها، وتستمد منه من ثم وجودها، كما يؤثر النشاط الزراعي للريف في الاستقرار الاقتصادي للمدينة، وهو الإستقرار الذي يكون سبباً للاستقرار الاجتماعي أيضاً بما يؤديه من آثار سياسية وثقافية وروحية.

إن النقص الفادح في الدراسات التاريخية لأحوال الريف، واقتصارها بشكل مطلق تقريباً، على دراسة المدينة، قد أقام جملة من الفروض غير الدقيقة عن واقع الحياة الحضارية في المدينة، فضلاً عن واقعها في الريف نفسه، فالتصور بأن الريف كان يمثل كياناً منغلقاً على نفسه، أو محافظاً على مظاهر حياته الاجتماعية والروحية، في مقابل حالة الانفتاح التي تعيشها المدينة، لم يكن تصوراً دقيقاً في كثير من الأحيان، ففي أحيان كثيرة كان انتشار الأفكار الوافدة التي من شأنها أن تُغيِّر جملة من المفاهيم الموروثة، يبدو في الريف أيسر أمراً مما يحدث في مدينة كبيرة، بل أن هذه الأفكار تنتقل إلى المدن بانتقال السكان الريفيين إليها، والعيش في جيوب حولها، ثم بالتسلل إلى داخل نسيجها الاجتماعي. فما كان يبدو مقبولاً في الريف لم يكن بالضرورة مقبولاً بنفس المستوى في المدن، ومن ناحية مقابلة، افتراض أن النظام القبلي في الريف، هو نظام بسيط لأنه يعتمد على العلاقة الأبوية، افتراضٌ غير دقيق هو أيضاً، ذلك أن هذا النظام هو طبقي في جوهره، وإن كان أبوياً في مظهره، بل أنه الفوارق الطبقية بين مكونات القبيلة، هي أكثر حدة وثباتاً، مما يكون عادة في المدينة، وهكذا لا يكون للطبقات الأدنى في الهرم القبلي إلاّ أن تتقبل مفاهيم يمكن أن تعبر عن مصالحها، ومن ثم يفسر هذا الأمر سرعة تقبل الريف لدعاوى ومفاهيم ما كان يمكن أن تجد انتشاراً لو كانت تتخذ من المدينة مجالاً لانتشارها.

ويمكن تفسير قصور الباحثين المحدثين في دراسة تاريخ الريف، أو تاريخ القرية الزراعية، على وجه التحديد، على أساس قلة ما هو متوفر من المصادر التي أرخت لهذا الشأن، فالمؤرخون عادة هم أبناء مدن، فهم يؤرخون لمدنهم، بوصفهم جزءاً من نسيجها الاجتماعي، وهم لا يتطرقون إلى أحوال القبيلة والريف، إلاّ في حالات قليلة، تتمثل في وجود أزمة ما بين الزعامات القبلية المهيمنة على شؤون الريف، وبين سلطات المدينة، كقمع هذه القبيلة، و(تأديب) تلك، وتوجيه الحملات لجمع الضرائب، وما إلى ذلك من أمور. لم يصف لنا المؤرخون إذن أحوال القرى في عصرهم، وربما لم يجدوا في تاريخها ما يستحق أن يُكتب أصلاً، وفي الغالب فإنهم لم يكونوا معنيين بتتبع هذا التاريخ، متصورين أن التاريخ كله، ليس إلاّ تاريخ مدنهم فحسب، وأن المدينة وحدها هي التي تصنعه، وهكذا لم يجد الباحثون بين أيديهم، بين روايات المؤرخين، إلاّ نُتفاً صغيرة، لا يمكن أن تشكل صورة المشهد الذي كان آخذاً بالتحول في ذلك العصر.

ولقد شهد ريف العراق، في العصر العثماني، تحولات مهمة أثرت على تأريخه، وعلى وجه أدق، تاريخ مدنه، وتفصيل ذلك، أن هذا الريف كان يستقبل، منذ بداية العصر، في القرن السادس عشر، هجرات قبلية عربية تصدر عن بوادي نجد والشام المجاورتين، وكانت هذه الهجرات تهدد، على نحو منتظم، التحالفات القبلية التي كانت قد أقامتها قبائل عربية سبقت في الوصول إلى بوادي العراق، وبزوال هذه التحالفات، تتشرذم مكوناتها، من القبائل، والأفخاذ، بل حتى الأسر، لتتحول في غالبها إلى طبقة أدنى في النظام القبلي- الريفي، وهو طبقة المزارعين المستقرين، الذين يرتبطون بالأرض، لا باتحاداتهم القبلية ذات القيم العسكرية، أو بمغادرة هذه المجموعات الصغيرة، مواطنها الأولى، مخلية تلك المواطن للمجموعات القبلية الكبيرة الوافدة، ومنتقلة إلى أماكن أخرى تكون الحياة فيها أكثر ملائمة لها وأمناً.

وكانت منطقة ديالى، التي طالما عُرفت في العصور العباسية وما تلاها بالأعمال الشرقية، أكثر المناطق ملائمة لتعايش الجماعات القبلية التي انفلتت من كيانات قبائلها ، نتيجة قهر الظروف المستجدة التي ذكرنا، فخصوبة الأرض، ووفرة المياه فيها، وقابليتها للنشاط الزراعي، وأهم من ذلك كله، كونها آخر مناطق السهل الرسوبي، أو السوّاد، شرقاً، إذ ليس بعدها إلاّ الهضبة الإيرانية، ومقدمات

جبالها، وهو ما يجعل التعايش، والعمل، صنوان لا يمكن للحياة أن تستمر بدونهما . وهذا الأمر يفسر لنا ، من ناحية، وفرة القرى في ديالى، وهي القرى التي تتخذ من النشاط الزراعي الكثيف مصدر رزقها ومن ثم وجودها، كما يوضح من ناحية أخرى الأعمار الطويلة لهذه القرى، على صغرها غالباً، فأكثرها يرقى إلى قرون سبقت الميلاد، ومنها ما يرقى إلى أزمان سحيقة قبل ذلك، تكشف عن قدَمه الآثار واللقى المكتشفة، والتي يجري اكتشافها دائماً، في التلال التي تقف عليها، وكلها تلال أثرية صنعتها تراكمات الأتربة على المستوطنات القديمة. بيد أن من المؤسف أن أكثر تلك القرى لم نعرف له اسماً في العصور الإسلامية، باستثناء ما تناوله بعض البلدانيين بسبب من خرج منها من العلماء الذين نسبوا إليها، مثل زاغونى، وباعقوبا، وباصيدا، وبهرز، وبندنيجين، وهذا الذي تناولوه قليل، كما أن حديثهم لم يزد على أن يكون وصفاً عادياً لها في عصرهم، دون أن يكون تاريخاً حقيقياً لها، يبين أصولها، وأزمان نشوئها، وأهم المراحل التي مرت عليها، وأهلوها، وما يتصل بهذا من نواحٍ مهمة.

وتمثل منطقة ديالى، بالنسبة لمدينة بغداد، وبخاصة في العصر العثماني، سلّة الطعام القريبة، والمتنوعة، فهذه المنطقة، خلافاً للمناطق الأخرى البعيدة، لا يفصلها عن بغداد عائق، وهي تتصل بها بطرق ثابتة آمنة نسبياً لوفرة ما يكتنفها من قرى غير متباعدة، كما أنها تضم بساتين نخيل جيدة، تصلح أن تقدم للمدينة، ما تحتاجه من خشب وسعف يصلح للبناء، فضلاً عما تقدمه من منتجات زراعية متنوعة.

ومن نافلة القول أن لا تاريخ من غير وثائق، والريف الزراعي يفتقر في علاقاته الزراعية إلى وثائق إلاّ نادراً، فأكثر العقود، ومنها عقود الملكية والمغارسة والمساقاة، تجري شفاهاً، أو تقيد في وثائق تنتقل من يد إلى أخرى، عبر أجيال عدة، حتى تفقد، وقليل منها ما يجد طريقه إلى التسجيل في المحاكم، أو في سجلات الأراضي. وهكذا بات صعباً، بل متعذراً في أحيان كثيرة، دراسة تطور الملكية الزراعية، ومعرفة أصول المالكين، وأماكن إقامتهم، حاضرين أو غائبين في مدن أخرى، وطبيعة الرسوم والضرائب المفروضة، والمستويات المعيشية للفلاحين، ونوع العلاقات التي تربطهم بالمالكين، ونحو ذلك.

من هنا، فإننا عمدنا في هذه الدراسة إلى استقصاء كل ما من شأنه أن يلقي ضوءاً على تاريخ هذه القرى، وبخاصة في العصر العثماني، معتمدين جملة وافرة من الوثائق التي لم توظف- فيما نعلم- في دراسة عنها من قبل.

وتأتي الوثائق الوقفية، المتمثلة في الآلاف من الوقفيات، والحجج الوقفية، والإعلامات الشرعية، مما تحتفظ به وزارة الأوقاف سابقاً، لتقدم مادة جديدة تماماً تفيد الباحث من حيث تسجيلها لأسماء عدد آخر من القرى، ومقادير ضرائب البعض منها، وتعيين حدودها بدقة، ومن تلك الحدود أنهار وبساتين وقرى أخرى، ما كنا لنعلم به لولا ذلك التحديد، وبعض الوقفيات يكشف، في ثناياه، عن ظروف تأسيس هذه القرية أو تلك، أو يسجلها بأسمائها القديمة، التي نسيت وحلت محلها أسماء جديدة أخرى، فكشف من ثم عن بعض مراحل حياة تلك القرى. ومن ناحية أخرى، فإن هذا النوع من الوثائق حريص على تسجيل أسماء أصحابها من المالكين الذين وقفوا ما لهم من عقارات هناك، بل تسجيل أسماء من يختارونهم لتولي الوقف من بعدهم، والجهات التي ترصد لها هذه الأوقاف، إن كانت ذرية أو خيرية عامة، وهي بهذا مفيدة لدراسة تطور ملكية الأرض الزراعية، وتعيين أصول المالكين، ريفية كانت أو عسكرية أو مدينة.

وتوضح بعض الوثائق الوقفية نوع الرسوم المستحصلة من القرى، وهي من ثم تكشف عن طبيعة الانتاج الزراعي والحرَفي أحياناً الذي تختص به تلك القرى، فالفرمان الصادر بتاريخ أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1570م، يوضح تلك الضرائب على النحو الآتي: في قرية (جديدة) تكون (مقاطعة بُويه خانه)، أي الالتزام القطعي للرسوم المفروضة على مصبغة القرية، ومحصول البساتين والحنطة والشعير. وفي قرية عبد الرزاق، تكون الرسوم كالآتي: رسم تعداد الخانات، رسم سَر تغار كيالية، وهو رسم يستوفى على كل تغار من الكَيل، فضلاً عن رسم الحنطة والشعير. وفي قرية الشيخ دقلي، تتألف الرسوم من محصول البساتين عن شلب ورز وحنطة وشعير، مما يشير إلى أن السجلات كانت تميز بين الرسوم بحسب تنوع الحاصل الزراعي كما نرى.

إن جميع القرى التي تذكرها سجلات الأوقاف كانت موقوفة على مؤسسات دينية أو خيرية أو على ذرية الواقفين أنفسهم، وكان متولو هذه الأوقاف يمنحون

هذه القرى وما يتبعها من مزارع وحقول وأنهار ومستغلات أخرى على سبيل الالتزام مدى الحياة، وهو ما تعرفه الوثائق نفسها باسم (مالكانة)[1]. وقد شمل هذا النظام الأراضي الموقوفة في العصر العثماني، كما شمل أيضاً تلك الأراضي التي جرى وقفها في العصور السابقة، مثل البساتين التي كان قد وقفها أمين الدين مرجان على مدرسته المرجانية ودار الشفاء سنة 760هـ/1358م. وبالطبع فإن ما تذكره هذه السجلات ليس هو جميع ما في ديالى من قرى، وإنما هو يمثل جانباً مهماً منها.

وبحسب القوانين العثمانية المبكرة في العراق، تعد منطقة ديالى ضمن سنجق (لواء) بغداد، وهو اللواء المركز لإيالة بغداد، التي تتألف من ثمانية عشر لواءاً، ولهذا الوضع مبرراته العسكرية، على أساس أن المنطقة تعد الحاجز الأهم لأي تَعرُض عسكري تقوم به إيران، وهي الممر الأقرب إلى بغداد، كما أن له مبرراته الاقتصادية أيضاً، بوصف منطقة ديالى تعد المورد الرئيس لإحتياجات بغداد، وبخاصة الجانب الشرقي منها، من الغذاء. ولا تكشف لنا قائمة عين علي أفندي المعنونة (قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان) عن أسماء الوحدات الأدنى التي يتألف منها هذا اللواء، وإذ تكتفي بالقول أن الراتب السنوي لأمير اللواء (وهو برتبة مير ميران، أي أمير الأمراء) يكون على شكل (ساليانة)، أي أنه يقدم دفعة واحدة سنوية من الخزينة المركزية مباشرة، يصبح مفهوماً أن اللواء لم يكن مُقسَّماً إلى وحدات إقطاعية عسكرية بموجب نظام التيمار العثماني، وهي الوحدات التي كان عليها دفع جزء من وارداتها بصفة ضرائب يستوفيها القادة العسكريون، الذين يتولون مهاماً إدارية، عادة. كما أننا لم نلمح، فيما راجعناه من وثائق، أسماء لوحدات من هذا النظام، خاص، وزعامت، وتيمار.

ولنا أن نلاحظ أن الوثائق الوقفية التي راجعناها تسمي جميع التجمعات السكانية في اللواء (قرى)، فهي بذلك لا تميز بين أنواع هذه التجمعات، من حيث الكثافة أو المساحة أو الأهمية الإدارية. وتسجل الحجج الوقفية والإعلامات الشرعية المتأخرة أسماء قرى جديدة في مواضع حددتها الوقفيات المبكرة، وإن لم

(1) ينظر: جب وبوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة 1971، ج2 ص84.

تشر إلى وجود تلك القرى في زمن تلك الوقفيات، ففي الفرمان الذي حصل عليه السيد علي أفندي نقيب الأشراف ببغداد، من السلطان محمود الثاني، المؤرخ في أوائل شهر جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م، نقرأ أن عدداً من القرى كان مدوناً في الدفتر العتيق باسم (نَفَرات)، أي جماعات فلاحين لا أكثر.

وتنقسم منطقة ديالى، في العصر العثماني، إلى ثلاث وحدات، تسمى كل منها (ناحية)، وهي ناحية خراسان، أو خريسان، أو طريق خراسان، وناحية شهربان (المسماة فما بعد بالمقدادية)، وناحية مهرود(المسماة كنعان)، بيد أن تبعية القرى لكل من هذه النواحي غير ثابت تماماً، فأبو جسره مثلاً كانت تعد في القرن العاشر للهجرة (16م) من أعمال مهرود، بينما عُدت، في منتصف القرن الثالث عشر (19م) من أعمال طريق خراسان. وبعقوبة كانت تعد في القرن العاشر للهجرة من توابع خراسان، بينما عدت في أوائل القرن الحادي عشر من توابع شهربان. هذا بينما نجد دفاتر الأراضي المعدة في أوائل عهد الدولة العثمانية في العراق تسمي كل ناحية من هذه النواحي، باسم (بلوك)، فثمة بلوك خالص، وبلوك طريق خراسان، وبلوك مهرود (دفتر 1028 الورقة 29- 30). والبلوك مصطلح تركي عسكري بمعنى الفَوج، فيكون ثمة فوج من الجنود الإنكشارية في مركز كل واحدة من هذه النواحي.

وتقديراً لأهمية هذه الجوانب، فقد عمدنا إلى استقصاء المادة التاريخية المشتتة في هذه الوثائق الوقفية، مما يمكن أن يلقي ضوءاً على تاريخ القرى في منطقة ديالى، في الحقبة الممتدة من أوائل العصر العثماني وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وهي الحقبة التي لما تزل في حاجة إلى مزيد من البحث والدرس. وذلك على النحو الآتي:

أبو جِسْرَه

هي (باجِسْرا) كما في المصادر الإسلامية، بلدة قديمة يدل اسمها الآرامي (الذي يعني: بيت الجسر) على أن وجودها سبق العصر الإسلامي بمدة ليس من المستطاع تحديدها. وصفها ياقوت (القرن السابع للهجرة) بقوله « بُلَيدة في شرقي بغداد، بينها وبين حُلوان، على عشرة فراسخ من بغداد، وهي عامرة نزهة كثيرة النخل والأهل».

غاب ذكر باجسرا في القرون التالية، وأول وصف لها، ولمنطقتها، ورد في وقفية السيد زين الدين القادري المؤرخة في 15 رجب سنة 978هـ/ 1570م. ويلاحظ أن اسمها، كما في الوقفية، هو (نهر باجسرا)، فكأنها نُسبت إلى النهر الذي تسميه الوقفية نفسها (عامود باجسرا). ويفهم من هذه الوثيقة أن القرية كانت تُعد من أعمال مهرود، وأنها اتصفت بالسعة، وثمة تفاصيل مهمة عن أنهار القرية، وحدودها، وبساتينها ومزارعها، والقرى المحاددة لها، مما لا نجد مثله في المصادر التاريخية غالباً. وفيما يأتي نص ما ورد بشأنها « وذلك جميع الأراضي والمزارع الواقعة في القرية الكبيرة المعروفة بنهر باجسرا، من أعمال ناحية مهرود، الواقعة بغربي شط مهرود، المحدودة بحدوده الأربع (كذا والصحيح أربعة). الحد الأول: أراضي حَربَتيله، والحد الثاني إلى أراضي الزاوية، ويتم الحد إلى عامود بناجسرا (كذا وربما هو تحريف باجسرا) ولها فيه نهر ينزع الماء من شط مهرود، يعرف ببطونيا، وإلى نهر المحولة، والحد الثالث: إلى نهر ساطي، ويتم إلى أراضي أبي طابة والأراضي الخاتونية، والحد الرابع: أراضي تلمسير (= تل مسير)، ويتم الحد إلى أراضي بدنية وتعرف بمَخيسة، بجميع حدودها وكافة حقوقها وتوابعها ولواحقها وأراضيها ومزارعها وأهوارها وأنهارها وسواقيها ومساقيها وشروبها ودروبها .. الخ».

وأكدت سجلات أراضي ولاية بغداد، التي أعدت في مطلع الحكم العثماني في العراق، هذه الوقفية، إذ أشارت إلى أن من أوقاف الشيخ عبد القادر (باجسرا) (دفتر 1028 ص405). ونقرأ في الفرمان السلطاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م ما يفيد بأن مجموع الرسوم المستحصلة من مالكانة القرية ورسومها يبلغ 25830 آقجة، وأنها تابعة إلى ناحية طريق خراسان.

ويطلق اسم أبو جسره اليوم على عدة قرى متقاربة، هي: أبو جسره الحَساوية، وأبو جسرة السعيدات، وأبو جسره أبو جريش، وركبة أبو جسرة. وكان الشيخ محمد صالح السهروردي قد زار أبوجسرا في 26 تموز سنة 1941، فذكر أن بساتين أبو جسره « هي وقف القادرية»، ونوّه بأسماء عشائرها، وقال « وبساتينهم تربو على الستين بستاناً، وفيها شجر العنب، وأهلها أهل دين وأهل قرى، وهم أهل سنة وجماعة وشيعة، بينهم المحبة، ولا مسجد فيها.. ويستوفى من حاصلات الشتوية والصيفية العشر وثلاثة عشر فلساً من كل نخلة.. وغرب أبو جره مقام

محمد الصبر داخل البساتين، ومقام جابر بن علي الهادي شرقي أبو جسره، وفي بساتين علي الحسن وكاظم الناصر تل كبير قديم».

أبو صَيْدا

تحرف اسمها من اللفظة الآرامية (باصيدا) وتعني (بيت الصيد) أو موضعه، وعرفت باسمها الآرامي هذا في المصادر الإسلامية. وسماها ياقوت (بصيدا)، ورسم حروفها كالآتي (بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة ودال مهملة، مقصور)، وعدها « من قرى بغداد ».

وفي وقفية السيد زين الدين القادري المؤرخة في 978هـ/1570م، نجد أن أبوصيده تعد قرية من أعمال ناحية خراسان، وتُفصِّل الوقفية في ذكر حدود هذه القرية فتقول « ومن الأملاك التي ما هو ملكه وحقه بلا مانع، وفي يده وتصرفه بلا منازع، وذلك النصف التام من جميع الأراضي والمزارع والرقاقات (جمع رقة، وهي الأرض المنخفضة الكثيرة المياه) الواقعة في أراضي قرية أبي صيده من أعمال ناحية خراسان، المحدود بحدود أربع: الحد الأول: قرية الزهيرات، والحد الثاني: شط ديالى، والحد الثالث: قرية القبة، والحد الرابع: شط جلولاء، بحدودها وكافة حقوقها وتوابعها .. الخ».

وتشير الوقفية في موضع آخر إلى إحدى تلك الرقاقات، وهي (رِقَّة الرحى)، وتعين حدودها بدقة مما كشف عن أسماء بعض الأماكن في القرية المذكورة، فنقول « ومن الأملاك التي ما هو حقه وملكه بلا مانع.. وذلك جميع أراضي ومزارع رقة الرحى الواقعة في أراضي قرية أبي صيده من أعمال ناحية خراسان المحدودة بحدود أربعة، الحد الأول: ساور الكليلة، والحد الثاني: ديالى، والحد الثالث: رقة المخيسة، والحد الرابع: بجرف الدائر من ساور الكليلة إلى رقة المخيسة بجميع حدودها وكافة حقوقها وتوابعها .. الخ».

وفي 18 محرم سنة 1193هـ/1779م قدم متولي الأوقاف القادرية علي أفندي عريضة إلى ديوان بغداد تضمنت «أن البساتين الحاوية على أشجار التوت في أراضي النهر المعروفة بأراضي كليلة الواقعة في قرية أبو صيدا الكبيرة، من قرى الأوقاف، تعود ملكيتها إلى السيد عثمان، والسيد عبد القادر، والسيد إسماعيل،

والسيد أبو بكر، والسيد عبد الله، والسيد أحمد، والسيد محمود، والسيد محمد، والسيد عبد الرزاق، والسيد سلمان، والسيد إبراهيم، من ذرية الشيخ عبد العزيز من أولاد عزيز الكرام المشار إليه، وإن خُمس ميري هذه البساتين يعود إلى جانب الوقف والعقد الملكية، وربع الحاصل تعود لهم، وبمرور الأيام قد صار أكثر من ثلث البساتين المذكورة في حالة التلف والخراب، وصار الفلاحون في حالة يرثى لها، وإن السادة المذكورين قد تعهدوا بالسقي لتعمير كافة البساتين المذكورة، وبداء بدل خُمس الميري، وهو مائة غرش رومي سنوياً لجانب الوقف، فيرجى توجيهها إلى المومى إليهم قبل سَراية (سَرَيان) الأضرار إلى القسم الباقي، وذلك حفظاً للوقف من الضرر، وترفيهاً لحال الرعاية (الرعية)؛ وعليه فقد صدر الأمر من محافظ بغداد صاحب الدولة حسين باشا (حسن باشا) بتوجيهها إلى السادة المومى إليهم، على أن يؤدوا مائة غرشاً رومياً مقطوعاً سنوياً بدل الخمس الميري لجانب الوقف، وتسجيله في محله، وإعطاء تذكرة الديوان، لذا قد جرى التوجيه بموجبه وسجل بمحله وأعطيت بيدهم تذكرة الديوان، وعليه فإن السادة المومى إليهم، بعد أن يؤدوا المبلغ المذكور، وهو بَدَل خُمس الميري كافة البساتين لجانب الوقف، أن يتصرفوا بها، وليس لأحد من المتولين أو الآخرين أن يعارضهم في نظرهم. تحريراً في 18 محرم سنة 1193 للهجرة».(سجلت هذه الوثيقة في مديرية أوقاف بغداد، السجل 14 ص88).

وفي الفرمان السلطاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م ما يفيد بأن قرية أبو صيدا الكبرى وقرية أبو صيدا الصغرى، مع عدد من القرى والأنهر« تعطى بالالتزام كلها معاً».

وتبعد أبو صيدا عن مركز قضاء المقدادية (شهربان سابقاً) بنحو 25 كيلومتراً، وهي مركز ناحية تابعة للقضاء المذكور.

أبو طابة

قرية عامرة تتبع إدارياً ناحية أبو صيدا. سكتت عن ذكرها المصادر التاريخية، وورد اسمها أول مرة في وقفية السيد زين الدين المذكورة، إذ أشارت هذه الوقفية إلى أن من حدود باجسرا « الحد الثالث إلى نهر ساطي، ويتم إلى أراضي أبي طابة والأراضي الخاتونية».

أبو كرمة

في الإعلام الشرعي المؤرخ في ربيع الأول سنة 1260هـ/1844م إشارة إلى « قرية المَخيسة المحدودة أولاً بأرض أبو كرمة، وثانياً بأرض العلوان، وثالثاً بأرض الدائر، ورابعاً بديالى، والحدود الثلاثة من أوقاف حضرة الشيخ قدس سره أيضاً».

وتأكد هذا التحديد بموجب الفرمان الصادر في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م.

إمام جيزاني

قرية عامرة من أعمال الخالص. وقف فيها والي بغداد داود باشا (1232-1247هـ/1816- 1831م) «باغجة (حديقة) جديد»، ولم تحدد الوقفية هوية جديد هذا، ولكنها تذكر الاسم في موضع آخر بشكل (الجديد)، حيث تحدد هذه الباغجة بأنها « المحدودة من جهة ببستان الجديد، ومن جهة ببستان التُكّي، ومن جهة بقرية جيزاني، ومن جهة بساقية قصب، ومن جهتين بالطريق العام»، وذلك على مصالح المدرسة الداودية التي أنشأها في جامع الحيدرخانة ببغداد في 3 رمضان 1235هـ/1819م.

وفي وقفية زمزم خاتون بنت محمد آغا، على ابن زوجها وذريته، المؤرخة في 16 ربيع الثاني سنة 1284هـ/1867م نقرأ أن من حدود السندية، أراضي جيزاني.

بدورية

قرية من أعمال ناحية خراسان. أشارت إليها وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م بوصفها من حدود قرية دورة من أعمال تلك الناحية. وفي سجلات أراضي ولاية بغداد، التي أعدت في مطلع الحكم العثماني في العراق، نقرأ أن من أوقاف المدرسة الأصفهانية ببغداد، وهي مدرسة غابت أخبارها تماماً، (مالكانة قرية بدورية، تابعة طريق خراسان) وأن محصول الوقفية كان يبلغ 9800 آقجة[1]

بَركنية

أشارت السجلات العثمانية (دفتر 1028) إلى هذه القرية باسم (قرية برقانية)، بوصفها من القرى التي كانت تدر مالاً لخزينة بغداد، وترددت الإشارة

(1) دفتر 1028 ص405.

إليها في الوقفيات المتأخرة بوصفها من أعمال مهروت (مهرود). وكان السيد عبد العزيز أفندي متولي الأوقاف القادرية ونقيب الأشراف، قد «قدم عريضة إلى ديوان بغداد، خلاصتها أن أربعة فُدُن، شتوي وصيفي، من قرية برقنية التي هي من أوقاف العزيز المشار إليه (يريد السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني) على الوجه المعاف، وإن ثلث نهر خرِ السَّمك التابع للوقف الشريف مسجلة باسم السيد صالح، ونظراً لوفاته فقد طلب المتولي المومى إليه توجيهها إلى أولاده الصُلبيين: حسين، والسيد حسين فيض الله، والسيد عبد الرحمن، باعتبارها من محلول المتوفى المرقوم، ولدى النظر في السجلات المحلية، قد تبين من التحشية أن الأربعة فُدُن الشتوي والصيفي من قرية بَرقنية، هي من أوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الجيلي، وأنها مسجلة بوجه المعاف مع ثلث نهر خر السمك، البالغ مقطوعها عبارة عن شتوي ثلاثة وزنات وثمانية قيات حنطة، وستة وزنات ومَنَّين وأربعة قيات شعير، وصيفي ثمانية وزنات حنطة، وانها مسجلة باسم السيد صالح، وعليه فقد صدر بيورلدي محافظ بغداد دار السلام، الدستور المكرم، والمشير المفخم، نظام العالم، الوزير النقي الضمير، آصف نظير، مشتري تدبير، صاحب الدولة والعناية، حضرة داود باشا، أدام الله تعالى إجلاله، ومضمونها توجيه معافيه الأربعة فُدُن مع ثلث الحصة المقطوعة المُعيَّنة من النهر المذكور إلى المرقومين بوجه الاشتراك، لأنها محلول أبيهم، وصدر الأمر العالي بتسجيلها في محلها، وإعطاء تذكرة الديوان، وبموجبه توجهت إليهم، وبعد التسجيل في محله أعطيت بيدهم هذه تذكرة الديوان، وفيما بعد فإن السيد حسين والسيد فيض الله والسيد عبد الرحمن، يجب عليهم أن يضبطوا ويتصرفوا بالمعافية وبالمقطوع المعينين من ثلث النهر المذكور على وجه الاشتراك، وأن لا يتداخل أحد، لا من قبل المتولين، ولا من قبل الآخرين بالمعافية والمقطوعية العائدة لهم، حرر في 16 ر سنة 1244» [1828م]

ونقرأ في الفرمان السلطاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م ما يفيد بأن مجموع الرسوم المستحصلة من برقانية، التابعة لناحية مهروت، بلغت 62313 آقجة، وأن الثلثين منها وقف باسم الشيخ شهاب الدين السهروردي، وربع واحد تصرف كتخُدا فلاح، وسهم واحد من 12 سهم «في تصرف مولانا شمس الدين بن عبد الله وفقاً للحجة الشرعية، وقد دوِّن في تحت ذلك بأن حصة الوقف تبلغ 2140 آقجة، أما حصة الآخرين فتبلغ 1068 آقجة».

بَروانة

قرية تتبع مركز قضاء المقدادية، كثيرة النخيل والكروم، وتستمد مياهها من نهري ديالى وخريسان. يرقى تأسيسها إلى الثلث الأول من القرن الثامن عشر، ففي وثيقة مسجلة في المحكمة الشرعية ببغداد، مؤرخة في سنة 1254هـ/1838م، نقرأ أن الأرض الكائنة بقرب خرق البَروانة، كانت قبل الحصار، أي حصار نادرشاه مدينة بغداد سنة 1156هـ/1743م، من الأوقاف المرصدة على خدمة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد، ومع ذلك فإنها خربة وخالية من المحصولات، فقام رجل يدعى حمدان، بقطع ما فيها من قصب، وزرعها وعمرها، مما أدى إلى تسمية الأراضي المذكورة باسم الحمدانية نسبة إليه. وتشير الوثيقة إلى أن إهمالاً أصاب الأرض بعد ذلك، فعادت خالية، غير عامرة، حتى نهض المدعو خضر، فاستأذن الجهات الوقفية بتنظيفها من الأعشاب الضارة، وزرعها، وغرس البساتين، ولما أذنت له، قام هو، بماله ورجاله، بتعميرها تعميراً بديعاً، على النحو الذي وعد به، وذلك مقابل دفعه عشر حاصلات البساتين إلى جهة الوقف، ثم طلب من والي بغداد آنذاك، أحمد باشا(الذي تولى منصبه من 1136-1147هـ/1723- 1734م ومن 1149 إلى 1160هـ/1736-1747م) أن يصادق على هذا العمل، فصدر أمر الوالي بذلك على أن يقوم خضر المذكور بحضر النهر، أي كري نهر خريسان، وقطع الزور، وزراعته على وفق الأصول، على أن يؤدي العُشر إلى متولي الوقف في كل عام.

ويسمي الفرمان الصادر في أوائل ذي الحجة سنة 1261هـ/1845م هذه القرية باسم (بروانة حمدانية)، نسبة إلى مؤسسها حمدان المذكور.

وهكذا ولدت بروانة، فقد أقام فلاحو الأرض الزراعية الذين استقدمهم خضر للعمل فيها في دور، سرعان ما أصبحت نواة لتجمع فلاحي صغير، أخذ بالنمو لتصبح قرية زاهرة.

بعقوبا

بلدة كبيرة تعد اليوم مركز محافظة ديالى،ومن المؤكد أن اسمها آرامي قديم، وإن لم يكن من المحدد معناه تماماً. ولقد تردد اسمها في مصادر العصر الإسلامي بوصفها من أغنى قرى شرقي بغداد. قال ياقوت « قرية كبيرة كالمدينة، بينها وبين

بغداد عشرة فراسخ، من أعمال طريق خراسان، وهي كثيرة الأنهار والبساتين، واسعة الفواكه، متكاثفة النخل، وبها رُطَب وليمون، يُضرب بحسنها وجوتها المثل، وهي راكبة على نهر ديالى من جانبه الغربي، ونهر جلولاء يجري في وسطها، وعلى جنبي النهر سوقان، وعليه قنطرة، وعلى ظهر القنطرة يتصل بين السوقين، والسفن تجري تحت القنطرة إلى باجسرا وغيرها من القرى وبها حمامات ومساجد ..».

ولا تمدنا المصادر التاريخية والبلدانية بعد هذا بأي وصف لبعقوبا، إلاّ أن الوثائق الوقفية رفدتنا بمعلومات مهمة عن بساتينها وأنهارها وبعض معالمها، من ذلك ما أشارت إليه وقفية الخواجة أمين الدين مرجان، المكتوبة على الآجر، في مدخل خان مرجان، المؤرخة في 760هـ/1358م، حيث جاء فيها إن من أوقاف المدرسة الرجانية ودار الشفاء مما أنشأه ببغداد « بساتين ببعقوبا .. الخ»، دون أن تحدد عددها وحدود كل منها.

وأشارت وقفية عواد بن حسين الوسطي (لعلها: الواسطي) المؤرخة في غرة شوال سنة 978هـ/1570 إلى تبعية بعقوبا الإدارية إلى ناحية خراسان، وهي بقية من طريق خراسان القديم، وإلى بعض معالمها الزراعية، وهما باغجتان (حديقتان) فيها، وخِر (وهو النهر أو الجدول)، فضلاً عن جامع في البلدة. فذكرت أن مما وقفه «باغجة (حديقة) تعرف بالخنيق في بعقوبة، محدودة بخر الدبين، وبقجة شناوة» وذلك على جامع بناه » في بلدة بعقوبة من توابع ناحية خراسان».

وتؤكد هذا الأمر، الوقفية المؤرخة في سنة 1097هـ/1685م فقد ذكر الواقف أحمد جلبي بن محمد الأرناؤوط أنه وقف حديقة (باغجة) « على نهر ديالى، من قرية بعقوبة، التابعة لناحية خراسان».

وتكشف الوقفية المؤرخة في 2 ربيع الآخر سنة 1143هـ/1730م عن ظهور أحد المراقد المهمة قرب بعقوبا، فذكرت ما سمته « مرقد حمزة شريف المدفون على نهر ديالى مقابل قرية بعقوبة» وأشارت إلى وقف درويش بن غريب باغجة في قرية بعقوبة على تعمير قبة ذلك المرقد.

بعد نحو ربع قرن، نقرأ في وقفية مؤرخة في شوال 1121هـ/1709م أن البلدة أصبحت تابعة إدارياً إلى شهربان (المقدادية فيما بعد) فذكرت أن أحدهم (لم

يذكر اسمه) وقف «باغجة في قرية بعقوبة من مضافات شهربان على جامع بعقوبة في شوال 1121» (= 1709م). ولا ندري إن كان هذا الجامع هو نفسه الجامع الذي بناه الواسطي أم غيره.

ويفهم مما ورد في الوقفية المؤرخة 16 ذي الحجة سنة 1169هـ/1755م أن جامع بعقوبة أصبح يضم جهة للتدريس، فقد نوهت هذه الوقفية باسم الواقف، وهو مصطفى أفندي بن الملا محمد أفندي مدرس جامع قرية بعقوبة، ونصت على أنه وقف عقارات عدة، هي « نهر جاير في بعقوبة، وأرض حسن حمزة في بعقوبة، المحدودة بقرية شِفتة، وبستان نَشوة في بعقوبة، وبستان أبو حقب في بعقوبة، ودار الحرم في بعقوبة، والبناء المشيد على الأرض الملاصقة لدار الحرم..» فكشفت هذه الوقفية، من ثم، عن عدة معالم في هذه البلدة في ذلك العهد.

وفي 2 شعبان سنة 1172هـ/1758م وقف عبد الله بك بن شاوي بك شيخ قبيلة العبيد، على ذريته، أوقافاً جمة، كان منها حصص شائعة تبلغ الثلثين من « البستان الواقع في قرية بعقوبة» ولم تحدد حدوده، مما دل على شهرته، وكذلك الحصة الشائعة، البالغة ثلثي « بستان خديجة خاتون الواقع في ناحية خراسان، خارج قرية بعقوبة، المحدود من جهة بملك فاطمة خاتون، ومن جهة بنهر ديالى، ومن جهة بالخر، ومن جهة ببستان دولاب».

وفي سنة 1182هـ/1768م وقف مصطفى أفندي بن محمد آغا على ذريته « نصف مزرعة الكوشة في قرية بعقوبة، وخمس الميري المخصص للواقف من المزرعة المذكورة»، وذلك بموجب وقفيته المؤرخة في 16 ربيع الأول من تلك السنة.

وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في 25 صفر سنة 1190هـ/1776م تنويه بأسماء عدد من بساتين البلدة، ذلك أن وقف علي بن الشيخ حسن الوكيل على والدته صفية بنت جويجي « ثلاث قطع من البساتين الواقعة في قرية بعقوبة المسماة: بساتين محوط الكبير، ومحوط الصغير، وإسماعيل»، فضلاً عما وقفه في قرية بهرز القريبة (أنظر هذه المادة).

وفي 1 جمادى الآخر سنة 1283هـ/1866م وقف السيد عبد القادر بن الحاج عبد الله القنديلجي، شيخ الحلقة في الحضرة القادرية، على ذريته، ثم على فقراء الحضرة القادرية، حصصاً في بعقوبة مسماة ببستان كوشة.

ووقف الحاج أحمد بن إبراهيم آغا سمين بن علي آغا، سهامه في البستان المعروف باسم بستان (ثلث جمالي) في قصبة قرية بعقوبة، بموجب وقفيته المؤرخة في 4 صفر سنة 1304هـ/1886م .

ويفيد إعلام مغارسة مؤرخ في 23 تشرين الأول 1917م/صفر 1336هـ، بأنه لما كان البستان الواقعة في بعقوبة، التي هي من جملة الأوقاف العائدة لأسما خاتون بنت مصطفى آغا، قد صارت أرضاً بيضاء لا انتفاع منها، فقد دفعتها المتولية زكية خانم بنت نجم الدين أفندي، الساكنة مؤقتاً في بعقوبة، بالمغارسة، إلى محمد أفندي نجل المرحوم عبدان أفندي زاده، على أن له نصفاً فيما يغرسه فيها من نخيل وأشجار وغيرها، والنصف الآخر يكون وقفاً على ما شرطه الواقف، وأن مدة المغارسة واحد وعشرين سنة.

وذكر الرحالة بكنكهام سنة 1816م أن بعقوبة «قرية كبيرة مبعثرة تألفت من مساكن مبنية بالطين، وبساتين النخيل، وحدائق وما شاكلها، مختلطة في بنيانها، مع سوق بائس ومسجدين صغيرين». وقال أن القرية يحكمها يوسف آغا، وهو يتبع أسعد باشا(وهو محمد سعيد باشا والي بغداد آنذاك)[1]». وفي سنة 1820م كان حاكم القرية يدعى سعدون آغا، وقد التقى به المقيم البريطاني في بغداد كلوديوس رِج في ذلك العام[2].

وقال عباس بن رجب البغدادي« هي بلدة عامرة، وسكانها غالبهم مُثرون أهل ضيع وحدائق، وهي كثيرة الخيرات والبركات، ويقال أنها من المدن القديمة»[3].

بلد روز

وردت في الوقفيات باسم (بلاد روزين).

وكشف الإعلام الشرعي المؤرخ في 27 رجب سنة 1109هـ/1697م عن جانب من تاريخ هذه القرية، ففيه أن صافية بنت أحمد الساكنة في بغداد، ادعت بأن ناحية بلاد روزين « المحدودة من جهة بمقلب هارونية، ومن جهة بتلال كوركان، ومن جهة ببوزة، ومن جهة بأراضي بقلي» كانت ملكاً لمحمد خيلاني، وأنه وقف

---

(1) رحلتي إلى العراق، ترجمة سليم طه التكريتي، ج2، بغداد 1968، ص166.

(2) رحلة ريج في العراق سنة 1820، ترجمة بهاء الدين نوري، بغداد 1951، ص278.

(3) نيل المراد في أحوال العراق وبغداد ، الورقة 70

ثلثيها على حضرة الشيخ شهاب الدين[عمر السهروردي]، ووقف الثلث منها على أولاده وأولاد أولاده.

وفي وقفية الحاجة سُكينة بنت الحاج محمد آغا المؤرخة في 5 ربيع الآخر سنة 1140هـ/1727م أنها وقفت « جدول العامرية في قرية بلاد روزين» على المدرسة والسقاخانه (سقاية مياء الشرب) التي أنشأتهما في بغداد.

ووقفت حسنى خاتون بنت عبد الله بن فتحي « بستان محمد وعبد الله فتحي في قرية بلاد روزين»، على مرقد الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي في بغداد، بموجب وقفيتها المؤرخة في 28 ذي القعدة سنة 1157هـ/1744م.

بَندَنيجَين

بلدة قديمة، قيل أن اسمها معرب من (وَنْدَ نيكان)، وكانت لها الشهرة العريضة في العصر العباسي، إذ خرجت عدداً من كبار العلماء الذين قصدوا بغداد ومدن أخرى فَرَفدوا الحياة العلمية والفكرية فيها[1]، وعدها البلدانيون العرب « في طرف النهروان، من ناحية الجبل من أعمال بغداد». وتحرف اسمها أو تخفف إلى منديجين، ومنديج، ومندلج، ومندلي، وتعد اليوم مركز قضاء باسمها في محافظة ديالى.

وأول اشارة لها في الوثائق الوقفية، وردت في وقفية أمين الدين مرجان على المدرسة المرجانية ودار الشفاء ببغداد، المؤرخة في سنة 760هـ/1358م، حيث جاء فيها أن مما وقفه « بساتين .. بالبندَنيجَين، وخان ودكاكين». وفي سجلات الأراضي التي أعدت في أول عهد الدولة العثمانية في العراق[2] أن من أوقاف المدرسة المرجانية ببغداد « مالكانة قرية منديجين».

وتشير وثيقة عثمانية مؤرخة في محرم 993هـ/1585م إلى مندلي (وهي منديجين) بوصفها منطقة قضائية يرأسها قاض، له صلاحية مخاطبة السلطان مباشرة فيما يجد من أمور منطقته[3].

---

(1) ينظر عن تأريخها في تلك العصور محمد جميل بندي الروزبياني: بندنيجين (مندلي) في التاريخ، مجلة المجمع العلمي العراقي، الهيئة الكردية، المجلد 7، 1980

(2) دفتر 1028 ص405

(3) الآرشيف العثماني، دفتر مهمة رقم 55، ص104، وثيقة رقم 189، محرم 993.

ونوهت دفاتر الأراضي التي أعدت في أوائل العهد العثماني في العراق، بمحصول باغات منديلجين، أي بساتينها، منها مزرعة حسن التابعة لمندلجين، كما أشارت إلى رسوم كانت مفروضة على حمام في البلدة.

وترددت الإشارة إلى أسماء هذه البساتين تفصيلاً في وقفيات العصر العثماني، ففي وقفية آسيا بنت محمد جلبي المؤرخة في 12 ربيع الآخر سنة 1094هـ/1683م نقرأ أن هذه السيدة وقفت على تكية السيد كاسب أفندي المعروفة بتكية أوودان، في بغداد، بستانين في مندلي، هما بستان الخان، وبستان نووجاو روز.

وكشفت وقفية الوزير عبد الرحمن باشا المؤرخة في 5 جمادى الأولى سنة 1098هـ/1686م عن أسماء جملة من المعالم في هذه البلدة، منها « باغجة مشتملة على أشجار توث، تقع على نهر السوق في قصبة منديلج، محدودة بالنهر المذكور، ومن جهة بملك الدرويش حسين قولي، ومن جهة بملك منصور بادري، ومن جهة بالخرق المذكور(يريد نهر السوق)، وكذلك البستان على نهر جني المحدودة من جهة بطاحونة قولي جاووش ومن جهة ببستان سنان آغا.

وفي 26 محرم 1098هـ/1686م وقف أحد وجوه بغداد، الحاج حسين أفندي بن عبد الله الغُرابي، نصف البستان الواقع قرب (سبع بكارات) في مندلي، المعروفة بجارديوار. وهذه هي سبع بكرات، أو دواليب، أو كرود، كانت ترفع المياه إلى مستوى بساتين البلدة، فتسقى منها. ووقف الحاج حسين نفسه بستاناً وثلث البستان في القصبة المذكورة، على نهر السوق المعروف ببستان الخان.

وفي الوقفية المؤرخة في رجب من سنة 1109هـ/1697م إشارة مهمة إلى وجود (ضابط) لمندلي، وهو منصب عسكري بحت، كان يراد به آمر الحامية العسكرية الموكلة بالدفاع عن البلدة. ففيها أن خليل آغا بن مصطفى، الضابط في قصبة منديلجين، وقف نصف طاحونة الديوان فيها، على رمضان الخطيب، برسم قراءة القرآن.

وفي السنة التالية، وقف علي آغا بن سنان آغا بستان جارديوار، في منديلجين، على نهر السوق، وثلث البستانين المعروفين ببستان الخان، وبستان جاور دوز، وبستان شه ديردي آباد. وقد تقدمت بعض هذه المعالم، فسنان آغا هو

نفسه صاحب البستان المذكورة في الوقفية المؤرخة سنة 1098هـ/1686م، وبستان جارديوار هو الذي سبق أن أشير إلى أن نصفه وقفه الحاج حسين أفندي الغرابي.

وفي 15 جمادى الأولى من سنة 1113هـ/1701م وقفت خوري بنت منصور بستان سويد في مندليجين على تكية الحاج بكتاش.

وفي 12 ذي القعدة سنة 1136هـ/1723م وقف حسن بن عسكر، من أهالي مندليجين، بستاناً تعرف ببستان محمود علي سفر، تقع على نهر حي، ونهر فلشت، في القصبة المذكورة، وحديقة بوشناق، على نهر حي، المحدودة بالبستان نفسها.

وفي 15 محرم سنة 1157/1743 وقف السيد علي القادري بن السيد إبراهيم بستان برور في ناحية مندليجين، على زاوية ومسجد في شرق جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد.

وتقدم وقفية خليل بشه بن إبراهيم المؤرخة في غرة ربيع الأول سنة 1180هـ/1766م معلومات عن إنشاء هذا الواقف مسجداً قرب « حضرة السيد عبد الرحمن بن زين العابدين في مندليجين»، وأنه وقف خمسين شجرة نخل على نهر جني ، ومزرعة على نهر أوقي، في مندليجين، على مصالح هذا المسجد. وتشير الوقفية إلى منصب جديد لم نسمع به في الوثائق السابقة، هو (سردار مندليجين)، فمن شهود هذه الوقفية من اسمه محمد آغا بن ولي زاده سردار مندليجين، والسردار هو قائد الجيش، فتكون ثمة حامية عسكرية في البلدة في ذلك التاريخ، كما أن من شهودها أيضاً من اسمه أحمد آغا وكيل ضابط مندليجين، والضابط هو القائد العسكري لموقع البلدة، وليس من المحدد العلاقة بين المنصبين. ويلاحظ أن القاضي الذي أمضى الوقفية هو (يعقوب القاضي بقصبة مندليجين)، مما يدل على عَد البلدة منطقة قضائية مستقلة.

ووقف علي بن عبد العزيز من سكان مندليجين بستان الدولاب على نهر السوق في مندليجين، المحدود بالنهر، وبالقلعة العتيقة، وبالطريق العام، وبستان آخر على النهر المذكور، وبستان ثالث يسمى قطعة الملا رضا على النهر المذكور أيضاً، وذلك على مساكين المدينة المنورة، بموجب وقفيته المؤرخة في 10 ذي القعدة سنة 1183هـ/1769م. وقد صادق على الوقفية كل من يعقوب قاضي مندليجين، والسيد عبد الله القاضي ببغداد.

ووقف من يدعى (وجانة) على ذريته « أرض الساقية على نهر أدتي في مندليجين، المحدودة بوادي النفط، وبأرض تمر خان، وبالجبل، وببيدر الحبوب»، وذلك بموجب الإعلام الشرعي المؤرخ في صفر سنة 1169هـ/1755م.

وتشير وقفية الحاج عبد الرحمن بن شكر بن عبد الله، على ذريته، المؤرخة في 6 صفر سنة 1183هـ/1769م إلى معالم في البلدة، هي « مقهى ومصبغة في سوق قزازخانه في مندليجين».

ووقف علي كهيه بن مصطفى، من قرية ده شيخ، في مندليجين، على ذريته، « بستان التوث أنارستان في مندليجين، فضلاً عن عقارات أخرى في قريته (أنظر هذه المادة) بموجب وقفيته المؤرخة في ربيع الثاني سنة 1183هـ/1769م .

وكان مما وقفه الحاج عبد الله بك بن الحاج محمد آغا على جامع الأحمدية في الميدان ببغداد بستان توران في مندليجين، بموجب وقفيته المؤرخة في سنة 1223هـ/1808م.

ووقف الملا موسى القادري النقشبندي[البندنيجي]، من سكان قصبة مندليجين، بستان الملا جمعة الواقع على نهر باغ من أنهار القصبة المذكورة، على التكية التي أنشأها في القصبة المذكورة، بموجب وقفيته المؤرخة في 19 ربيع الأول سنة 1223هـ/1808م .

ووقفت حيات(حياة) خاتون بنت الشيخ عيسى أفندي بن الشيخ موسى أفندي [البندنيجي] أسهمها في «جميع البستانين الكائنين في قضاء مندلي، المشهورة إحداهما ببستان حواش، وثانيهما ببستان بُزُرك « على نفسها، ثم على ذريتها، ثم على تعمير تكية الشيخ موسى في مندلي وما يفضل لذرية جدها المذكور، وذلك بموجب الوقفية المؤرخة في سلخ شوال سنة 1309هـ/1891م، وقد جعلت التولية لمدرس ومرشد التكية المذكورة.

وفي وقفية صادق بك بن سليمان باشا المؤرخة في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1817م نقرأ أن مما وقفه على ذريته « البستان المعروف ببستان أرناؤوط في مندليجين».

ووقف الملا محمد بن مصطفى كهية حصته « البالغة نصف البستان الواقع على نهر السوق من أنهار قصبة مندليجين، وفي قطعة يوسف تمر خان في البستان

المذكور، وفي القطعة المسماة (جمعة شيرينه تونكلي) الواقعة في البستان المذكور» على المسجد الذي أنشأه في محلة بوياقي(الصباغين)، وذلك بموجب وقفيته المؤرخة في 19 شوال سنة 1235هـ/1819م ، وقد صادق على الوقفية قاضي مندليجين موسى واعظ زاده، ومن شهودها شاهين آغا ضابط مندليجين.

ووقفت صالحة خان بنت الشيخ السيد علي البندنيجي القادري « بستان رجب الواقعة على نهر السوق من قصبة بندنيجين، وقطعة البستان الشهيرة بقطعة فاطمة خان الواقعة في المحل المذكور»، على ذريتها، وعلى فقراء تكية السيد علي البندنيجي ببغداد، وذلك في وقفيتها المؤرخة في 14 صفر سنة 1257هـ/ 1841م.

وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في 3 رجب سنة 1325هـ/1907م نقرأ أن الملا محمد علي بن عبد اللطيف ادعى بأن مما وقفته مريم بنت سيد إبراهيم بن سيد حسين « قطعة الباقجة الواقعة على نهر فلشت بقضاء مندلي» على ابن ابنتها حياة بنت الشيخ عيسى بن موسى البندنيجي، وعلى وجوه الخير.

وفي 5 صفر سنة 1338هـ/وقف أحمد آغا بن عبد اللطيف آغا جميع البستان الواقعة على نهر باغ المسماة حصار دللي يوسف المرقم 4 المحدود قبلة ببستان عبد الكريم جلبي، ويتم في بستان ورثة سلمان بن ناعس، وشمالاً حصار المسمى دلي يوسف العائد إلى سيد صالح آغا، وشرقاً البستان العائد إلى عبد الكريم جلبي بن الحاج محمود، على أن تنفق ثلاثة أسهم على الجامع الكبير في محلة سوق الكبير، إحدى محلات مندلي، وسهم واحد إلى عباس بن محمد بن فتاح ثم ألى أولاده.

بني سعد

أرض أشير إليها في دفاتر الأراضي العثمانية الموضوعة في القرن العاشر للهجرة (16م) بوصفها (موضع) تابع لبغداد، ونوهت بحاصلاتها الزراعية[1]. وفي سنة 1100هـ/1688م، عني والي بغداد عمر باشا (1099- 1101هـ/ 1687-1689م) بتمهيد الطريق الممتد ما بين بغداد وبهرز بعدما كان مهملاً، وسهل على الناس المرور به حسبة لله، كما أمر ببناء خان كبير محكم في هذا الموضع

(1) دفتر 1028، الورقة 60.

عرف بخان بني سعد[1]، فعرف المكان بخان بني سعد، وهو اليوم مركز ناحية تابعة لقضاء الخالص.

بُهرُز

قرية عامرة من أعمال بعقوبة، قريبة منها، تردد ذكرها في كتب البلدانيين العرب، بأسماء مختلفة: بوهرز، بوهريز، بهروز. ووصفها ياقوت بقوله « بوهرز، بالضم ثم الفتح وسكون الهاء وكسر الراء وزاي، قرية كبيرة ذات بساتين، وبها جامع ومنبر قرب بعقوبا، بينها وبين بغداد ثمانية فراسخ، روى بها قوم الحديث».

وقد وقف أمين الدين مرجان بعض بساتينها على المدرسة ودار الشفاء اللذين أنشأهما في بغداد سنة 760هـ/1358م، دون أن يسمي أياً من تلك البساتين، فقال في تلك الوقفية « وبساتين ببعقوبا وبوهريز».

ويسمي المسَّاحون العثمانيون الأوائل في العراق البلدة باسم (بهريز)، ويعدونها تابعة لطريق خراسان، ففي سجلات أراضي ولاية بغداد، التي أعدت في مطلع الحكم العثماني في العراق، نقرأ أن (بهريز) كانت تضم (مالكانة) موقوفة على المدرسة المرجانية ببغداد، وأن ضرائبها كانت تقدر عهد ذاك بـ 100 آقجة[2].

وترددت الإشارة إلى أنواع الفاكهة التي كانت تزرع في بهرز في الوقفيات التالية، ففي الوقفية المؤرخة سنة 1133هـ/1720م وقف الحاج علي أفندي بن مراد أفندي على الجامع الذي أنشأه ببغداد «حديقة وبستان عنب في قرية بهرز».

ثم وقف مصطفى أفندي بن ملا حمد مدرس جامع بعقوبا حديقة التوت المسماة بملا سلطان في قرية بهروز على ذريته، وذلك في وقفيته المؤرخة في 16 ذي الحجة سنة 1169هـ/1755م. وكان الشيخ محمد صالح السهروردي قد أشار إلى أن « جامع بهرز يعرف بجامع كوجك عمر آغا». (الجواهر المضيئة، مخطوط).

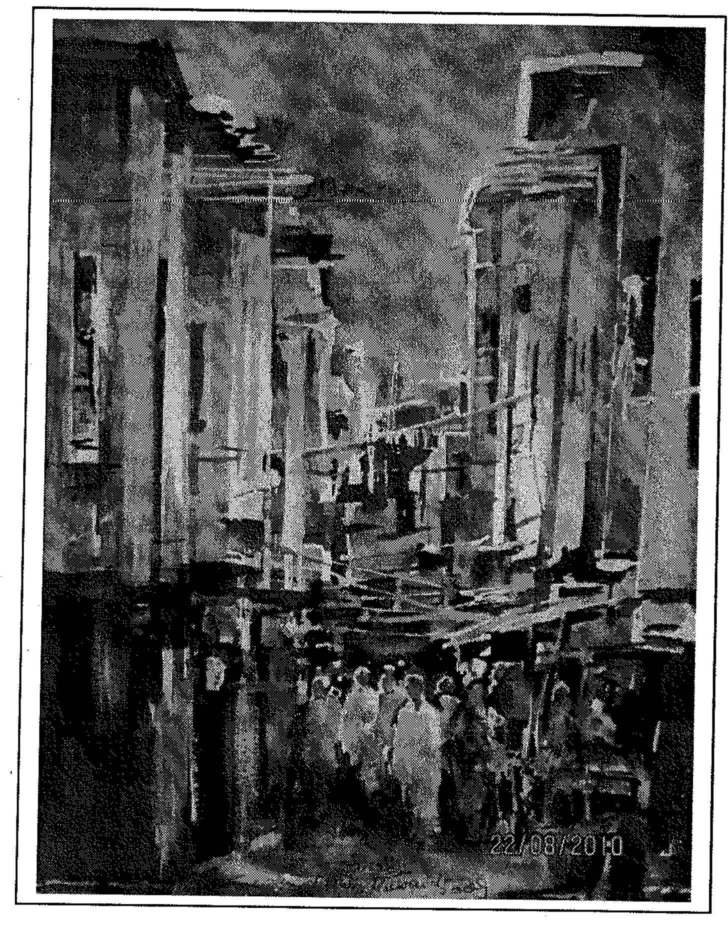
وتشير وقفية إبراهيم آغا بن الشيخ حسب الله، المؤرخة في 2 ربيع الآخر سنة 1184هـ/1770م إلى أحد المعالم المهمة في البلدة، والتي لما تزل شاخصة فيها، وهو

---

(1) مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد 1971، ص287، وليس في الترجمة إشارة إلى بناء الخان، وهو موجود في الأصل التركي، الورقة 106.

(2) دفتر 1028 ص405.

المرقد المنسوب إلى النبي دانيال، فقد وقف إبراهيم المذكور بستاناً في قرية بهروز على هذا المرقد.



سوق قرية بهرز بريشة الفنان منير العبيدي

وفي27 شعبان سنة 1185هـ/1771م وقفت فاطمة خاتون بنت بكتاش بن السيد ولي «نصف بستان القاص على نهر السوق في منديجين، وهر الحقانية الكبير، والصغير، ونصف نهر أبو زاوية الواقع في مقاطعة نهر شاهي» على جامع النعمانية التي أنشأته في محلة الشط ببغداد.

وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في 25 صفر سنة 1190هـ/1776م تنويه بأسماء عدد من أنهار البلدة، مما كان يسقي بساتينها، ذلك أن وقف علي بن الشيخ حسن الوكيل على والدته صفية بنت جويجي بستان سويف الواقع في قرية بهرز، والأنهار

التابعة لها، وهي: نهر كسلان، ونهر مطلق، ونهر بحيرة، ونهر قصب، ونهر مقلي الصغير.

وقال عباس بن رجب البغدادي « بهروز، ويسميها العوام بهرز بحذف الواو، وهي قرية لطيفة على طرف شط ديالة، تسقى من نهر خراسان المذكور، يعبر إليها بالسفن، فيها مسجد جمعة وعدة مساجد أخر، وفيها قبر عظيم الضخامة ليس عليه قبة يقال أنه قبر نبي الله دانيال، وفيها مشهد الشيخ شهاب الدين السهروردي والد صاحب عوارف المعارف الشيخ عمر رحمهما الله تعالى، قد اتخذ أهل البلد عليه مسجداً.. وبهروز ذات حدائق وبساتين كثيرة وثمرات طيبة وفواكه يانعة وكروم تفضل كروم العراق، ويضرب فيها المثل، غالبها يحمل إلى بغداد، وذكروا أنها من القرى القديمات»[1].

بُوزجة

قرية عامرة من أعمال المقدادية، تعرف اليوم باسم (بودجة) بالدال المهملة، ولم تذكرها البلدانيات الإسلامية، ولكن ورد اسمها أول مرة في وقفية الخواجة أمير الدين لطف الله الخازن بن خواجة شمس الدين محمد بن خواجة جلال الدين إسماعيل على مرقد قنبر علي في بغداد، وعلى معيشة الفقراء والمساكين فيه، وذلك في غرة رجب سنة 894هـ/1488م. وقد أوردت الوقفية حدود القرية على النحو الآتي:

«أراضي وبسوط وأنهار وأهوار قرية بوزجة من أعمال طريق خراسان، بحدودها: نهر البازي، ونهر أراضي البغيل، وتيمر، إلى أراضي قازانية، إلى الشيخ أبو جوان، وأراضي القازاني، وشط جلولا».

بيرة

وقفت عائشة خاتون بنت محمود أفندي آل نظمي « المزرعة المعروفة باسم قرية بيرة، الواقعة في ناحية الخالص، المحدودة من جهة بصدر نهر المرادية، ومن جهة بالتحويلة، ومن جهة ببزايز تل السعيدة، ومن جهة بمزارع قرية الخضيرية»، على أن يصرف الربع من الغلة على ترميم المسجد الذي بنته الواقفة في قرية هبهب، بموجب وقفيتها المؤرخة في 24 شعبان سنة 1177هـ/1763م.

---

(1) نيل المراد في أحوال العراق وبغداد ، الورقة 70

التاجية

وقف الحاج علي أفندي بن مراد أفندي على جامعه ببغداد بستاناً في قرية التاجية، بموجب وقفيته المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/1720م.

زاغنية

هي زاغونى في المصادر الإسلامية، قال ياقوت « قرية ما أظنها إلا من قرى بغداد»، ونوه بعدد من نُسب إليها من علماء الحديث خاصة. ثم سكتت عن ذكرها المصادر، وعُرفت في القرون الأخيرة باسمها الجديد (زاغنية). وفي الواقع فإن هذا الاسم أطلق، بعد اندثار القرية القديمة، على قريتين متجاورتين عند أطلال تلك القرية المذكورة، عُرفت إحداهما بزاغنية الكبيرة، والأخرى بزاغنية الصغيرة، وكانت تعدان من أعمال ناحية خراسان (خريسان)، ثم عدتا من لواحق مركز قضاء بعقوبة.

ويشير الإعلام الشرعي الصادر عن المحكمة الشرعية في بغداد، والمؤرخ في محرم سنة 1262هـ/1845م إلى أن ناظر الأوقاف الحاج عثمان برتو أفندي ادعى بأن أرض زاغنية الكبيرة والصغيرة الواقعة في خراسان، وقفها مالكها الشيخ محمود بن عبد الله على الجامع الذي أنشأه في أدنه كوي، وإنه جعل الفضلة لأولاده، إلاّ أنه سكت عن تحديد تاريخ ذلك الوقف.

جاووشية

وقف الحاج محمد بن علي جاوش، في وقفيته المؤرخة في 7 ربيع الأول سنة 1108هـ/1696م « دولاب جاووشية خارج بغداد، في الجانب الشرقي من ديالى، وساقية أجرب وأرض مزرعة الساقية» على ذريته. وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في ربيع الأول سنة 1260هـ/ 1844م إشارة إلى موضع يسمى جاووش، بوصفه من حدود أرض المنصورية (أنظر هذه المادة).

الجديدة

اسم لقريتين من أعمال الخالص، عرفت أولاهما بجديدة الأغوات، وبالتركية (ينكيجة آغالر)، وعرفت الأخرى بجدبدة الشط، وبالتركية (باش ينكيجة) أي الجديدة الرئيسة، وأغلب الظن أن الأخيرة هي الأقدم عهداً، وهي التي عرفت

الوقفيات المبكرة بالجديدة (أو ينكيجة) مطلقاً، فقد أشار إليها، عرضاً، عبد الله الغياث البغدادي في حوادث سنة 874هـ/1469م .[1].

وتذكر دفاتر الأراضي العثمانية المعدة في القرن العاشر للهجرة (القرن 16م) أن من القرى الموقوفة على جامع الإمام الأعظم، قرية جديدة خضر باشا، وأنها تابعة لبلوك الخالص. ولا نعلم هوية خضر باشا هذا، إن كان مالكها السابق، أو واقفها. وتكشف الوقفيات التي اطلعنا عليها عن رغبة أسر، أو أفراد، بغداديين في اقتناء بساتين في هاتين القريتين، أو غرس أراض فيها لتكون بساتين مثمرة، ثم وقفها على ذرياتهم، أو على أوجه خير متنوعة، وكان إنشاء الدواليب، وهي الكرود، السبب الأول في غرس تلك البساتين، وسقيها، ولذا فقد ترددت في وقفيات العصر أسماء مثل هذه الدواليب، من ذلك أن الشيخ بندر محمد آغا بن أحمد آغا وقف، على ذريته، بموجب وقفيته المؤرخة في 15 رجب سنة 1174هـ/1760م «ثلث دولاب غلامية وزينية المحدود بدجلة من جهة، ومن جهة بدولاب دباغية، ومن جهة بالموقع المسمى عمادية، ومن جهة بالطريق السلطاني العائد إلى قرية ينكجة». وفي وقفية الحاج علي القرغولي بن الحاج ياسين المؤرخة في 25 ذي القعدة سنة 1223هـ/1811م نقرأ أنه وقف نصف باغجة (حديقة) في قرية الجديدة، على زوجته وذريته.

وفي 27 شعبان سنة 1230هـ/1819م وقف أحمد أفندي بن علي أفندي « جميع البستان الواقع في الخالص، في قرية اينكيجه المحدودة أولاً بشرب النهر المفتوح، والحاد الثاني بملك خميس، والثلث بملك حميد، والرابع بنهر الخالص، على الجامع الذي أنشأه في بغداد.

وفي 5 ربيع الآخر سنة 1258هـ/1842م وقف حسين بن صالح تشريباية باغجة في قرية جديدة على نهر الخالص، على جامع الخاصكي ببغداد.

وفي 4 صفر سنة 1268هـ/1851م وقف كسارة بن حسين من أهالي قرية جديدة من مضافات بغداد الحديقة الواقعة في القرية المذكورة، المحدودة بملك سليمان بك، وبنهر الخالص، وبملك السيد ناصر، وبوقف حضرة الإمام الأعظم، على مدراء الأوقاف الشريفة، والباقي على جامع الإمام الأعظم.

---

(1) التاريخ الغياثي، تحقيق د. طارق نافع الحمداني، بغداد 1975، ص 334.

وفي 28 محرم سنة 1272هـ/1855م وقف سليمان بن خضر من سكان قرية (باش ينكيجه)، وهي جديدة الشط، باغجة في القرية المذكورة، محدودة من جهة ببستان الكتخدا الحاج طالب بك زاده نعمان بك، ومن جهة ببستان لطف الله أفندي، ومن جهة بساتين أحمد والحاج حبيب، ومن جهة بنهر الخالص. وكذلك الحديقة المحدودة من جهة ببستان كاظم يحيى، ومن جهة ببستان صقار أوغلي، وكذلك الحديقة المحدودة بدار الوقف، ومن جهة بدار رفاعي سليمان، ومن جهة بالطريق العام، وكذلك أشجار النخيل الواقعة في حديقة خضر بالقرية المذكورة، وذلك على فقراء المدينة المنورة.

وبرز اسم (جديدة الأغوات) أول مرة في الوقفية المؤرخة في غرة شوال سنة 1253هـ/1837م، ففي هذه الوقفية نجد أن جواد بن بكتاش وقف بستانين في هذه القرية على السادة العلويين والفقراء، ثم أنه وقف في غرة رجب سنة 1288هـ/1871م حديقة في القرية نفسها على فقراء المدينة المنورة.

وفي سنة 1267هـ/1850م وقف صالح بن مهدي من أهالي قرية الجديدة « أملاكه على جامع السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني» وذلك بموجب وقفيته المؤرخة في 5 جمادى الأولى سنة 1267هـ.

جلبي

قرية تابعة لناحية أبو صيدا، وفي الفرمان السلطاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/ ما يفيد بأن قرية جلبي التابعة لناحية خراسان، وقرية المخيسة، وقرية أبو صيدا (أنظر هاتين المادتين) « هي تلك القرى المعروفة باسم الوقف الكبير، والقريبة من مقاطعة خراسان التابعة، المجموعة من أوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني». وصف الشيخ محمد صالح السهروردي هذه القرية سنة 1941 بقوله « من القرى الموقوف خمسها على الحضرة القادرية، عدة بيوتها نحواً من اثني عشر داراً.. في هذه القرية نحواً من ثلاثين بستانا واسعة، فيها نخيل ورمان ومشمش، تسقى من نهر الجلبي، وهذا يحمل من نهر خراسان، وفي غربي هذه القرية نهر ديالى، وفي شرقها نهر خراسان؛ وأهل هذه القرية فيهم الدين، وفيهم غيرة. وتعطي هذه القرية من البساتين النصف، ومزارع الأراضي كلها إلى الوقف».

الجوبة

الجوبة لفظة عربية فصيحة تعني الأرض الخالية، أو المنخفضة، وهي اسم لناحية في شهربان (المقدادية)، وقف فيها مصطفى اغا بن الحاج علي أفندي بن مراد أفندي عدداً من البساتين على جامع علي أفندي في بغداد، وذلك في وقفيته المؤرخة في 3 شوال 1142هـ/1729م. وهذه البساتين هي: الجديد، وبيوك بيشه لك، وكوجك بيشه لك، واسكي كوخ، وحيدر.

الحاج قَرَه

قرية من أعمال خانقين، وقف عبد الله بن الملا محمد من أهالي محلة الجامع بقصبة الحاج قره، الحديقة المحاطة بسياج الواقعة في القصبة، المحدودة من جهة ببستان مصطفى بك، ومن جهة بالخانقاه وبحديقة داود آغا، ومن جهة ببستان الكوجة، ومن جهة ببستان أمين آغا، على إنشاء قبة على قبره، حين يدفن، في الحديقة المذكورة، وفضلة الغلة إلى من يتلو القرآن على قبره في قصبتي الحاج قره وخانقين، وذلك في وقفيته المؤرخة في غرة محرم سنة 1307هـ/1889م.

حد مِزْيَد

قرية من أعمال بعقوبة، وردت الإشارة إليها أول مرة سنة 978هـ/1570م، ففي هذا التاريخ أشير إليها في وقفية زين القادري بوصفها أحد حدود قرية قصيبة من أعمال ناحية خراسان.

كما وردت الإشارة إليها في الوقفية نفسها، بوصفها أحد حدود قرية دوره من أعمال ناحية خراسان أيضاً.

وفي 12 جمادى الأولى سنة 928هـ/1520م وقف كَدخُدا نابط بن عبد الحق الساكن في قرية حد بوزجة « جميع الأراضي البسط الواقعة على جنب نهر حد مزيد، وهي بطول حد مزيد، ممتدة إلى أراضي قراح البغيل، وإلى أراضي حد بوزجة وأن ليس له حد مزيد » على حضرة قنبر علي، يريد على جامع قنبر علي ببغداد .

حد مِكسِر

قرية من أعمال نهر طريق خراسان(خريسان)، قريبة من قرية القاطع (أنظر هذه المادة)، أشير إليها أول مرة في حجة إحياء الأرض الموات التي كتبت بأمر

الصدر رضي الدين ابن الصدر شرف الدين الشيباني بتاريخ شهر ربيع الأول سنة 929هـ/1522م، بوصفها من حدود ركة القاطع، والأرض المعروفة بالقاطع، «الواقع ذلك كله بطريق خراسان»[1].

الحديد

قرية تابعة لناحية هبهب. وردت الإشارة إليها في وقفية الحاج أبي بكر الموصلي على جامع الصياغ (وهو جامع الخفافين) في بغداد، المؤرخة في 21 رمضان سنة 1223هـ/ 1811م، بوصفها من حدود نهر المعيمرة في ناحية الخالص.

حربتيلة

قرية من أعمال شهربان (المقدادية). وردت الإشارة إليها أول مرة في وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م، بوصفها أحد حدود قرية باجسرا(تنظر هذه المادة).

الحويش

قرية من أعمال الخالص. وقف فيها الحاج علي القرغولي بن الحاج ياسين باغجة على زوجته وذريته، وذلك في الوقفية المؤرخة في 25 ذي القعدة سنة 1223هـ/ 1811م.

ووقف صادق بك بن سليمان باشا والي بغداد باغجة فيها على ذريته في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1822م.

وفي 4 رجب سنة 1299هـ/1881م وقفت آمنة بنت ولي بن يايله من سكان محلة الفضل ببغداد، حصة من بستان حسن آغا الواقعة في قرية حويش على فقراء قصبة الإمام الحسين عليه السلام.

وفي وقفية صادق بك بن سليمان باشا المؤرخة في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1822م نقرأ أن مما وقفه على ذريته « الحديقة الواقعة في قرية الحويش التابعة لناحية الخالص».

---

(1) بحثنا: قرية القاطع المندثرة في القرن السادس عشر، مجلة البلاغ، العدد2، السنة 6(بغداد 1976) ص8-15.

وفي 4 رجب 1299هـ/1881م وقفت آمنة بنت ولي بن يايلة حصة من بستان حسن آغا الواقع في قرية حويش من قرى ناحية الخالص، كانت اشترتها بموجب حجة المبايعة المؤرخة في سنة 1290هـ/1873م .

الخالص

قضاء تابع لمحافظة ديالى، أشير إليه في سجلات الأراضي العثمانية باسم (بلوك خالص)(دفتر 1028)، وكان يعد في العصر العثماني ناحية مركزها دلتاوه (المسماة بلدة الخالص حالياً). وقد تردد اسم هذه الناحية في الوقفيات والحجج الشرعية بكثرة، بوصفها من أكثر نواحي ديالى غنى، وأشير إلى قراها العديدة وأنهارها وما تحفل به من بساتين، فمن قراها التي نوهت بها تلك الوثائق: دلتاوه والحويش والجديدة وإمام جيزاني وقصب والسندية والمجدد وهبهب (وهي اليوم مركز ناحية تابعة للقضاء المذكور) وغيرها (أنظر هذه المواد)، كما ترددت أسماء بساتين في الناحية المذكورة، وإن لم تكن من ضمن حدود تلك القرى.

فمن ذلك أن نعمان آغا وقف، بموجب وقفيته المؤرخة في 8 شعبان سنة 1097هـ/1685م أشجاراً «في قرية دَالتاوه من ملحقات بغداد على جدول المنصورية» على ذريته، ثم على فقراء المدينة المنورة.

ووقفت الحاجة سُكينة خاتون بنت الحاج محمد آغا « نصف عقر المرادية في ناحية الخالص» على المدرسة و(السقا خانه) اللين أنشأتهما في بغداد، بموجب وقفيتها المؤرخة في 5 ربيع الآخر سنة 1140هـ/1727م.

وكان أحمد أفندي بن زين الدين بن علي قد وقف، في 28 جمادى الأولى سنة 1213هـ/1798م سهاماً من نهر ويسي وبو شيخ في ناحية الخالص، ونهراً في الناحية نفسها، على المدرسة السليمانية التي أنشأها والي بغداد سليمان باشا الكبير سنة 1206هـ/1791م.

ووقف الحاج أبي بكر الموصلي الباجه جي في 21 رمضان سنة 1223هـ/1811م «نهر المعيمرة في ناحية الخالص، المحدودة بأرض هِبهِب، وبأراضي الخويلص، وبأراضي العامرية، وبأراضي الحديد»، وذلك على مصالح جامع الصياغ في بغداد.

ووقف صادق بك بن سليمان باشا، في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1822م، عدداً من بساتين الخالص على ذريته، فمن تلك البساتين: بستان مهدي عيسى، وبستان الحاج ياسين، وحديقة أحمد عباس، وبستان عقاب، وبستان قاسم غلام، وبستان حمال باشي(رئيس الحمالين).

ووقف الحاج صالح بن الحاج إسماعيل الخاصكي « جميع البستان الواقعة في قرية دلتاوه من قرى بغداد الشهيرة ببستان باشا المحدودة أولاً وثانياً ببستان عبودة، وثالثاً بالصحراء، ورابعاً بطريق المنصورية، مع جميع البستان الواقعة في القرية المذكورة، الشهيرة ببستان البابوجي، المحدودة أولاً ببستان خليل بن طوبال حسين، وثانياً بملك الخزندار، وثالثاً بملك جواد السليم، ورابعاً نهر المنصورية، مع جميع البستان الواقعة في القرية المزبورة، المحدودة أولاً بنهر القرية المرقومة، وثانياً بملك حميد الإبراهيم، وثالثاً بملك صالح وسلمان ابني عويد، ورابعاً بملك ياسين بن حمادي، مع جميع البستان الواقعة في القرية المرقومة، المحدودة أولاً بملك فيض بك، وثانياً بالصحراء، وثالثاً بملك ملا رستم، ورابعاً نهر القرية المرقومة، مع جميع البستان الواقعة في القرية المرقومة المحدودة أولاً وثانياً بملك نعلجه جي، وثالثاً ورابعاً بالطريق العام» وذلك على ذريته.

خانقين

البلدة المعروفة، وصفها ياقوت بقوله « وبخانقين عين للنفط، عظيمة كثيرة الدخل، وبها قنطرة عظيمة على واديها .. عليها جادة خراسان إلى بغداد ..»، وأشير إلى خانقين في وقفية أمين الدين مرجان على مدرسته ودار الشفاء المؤرخة سنة 760هـ/1358م، بوصفها ضمت بعض ما وقفه من عقار، دون توضيح طبيعة ذلك العقار، والظاهر- من سياق الوقفية- أنه كان بستاناً أو بساتين، وقد استمرت هذه الوقفية نافذة، ففي سجلات أراضي ولاية بغداد، التي أعدت في مطلع الحكم العثماني في العراق، نقرأ أن خانقين كانت تضم (مالكانة) موقوفة على المدرسة المرجانية ببغداد[1]. وأشير إلى وضعها القضائي في عدد من الوقفيات، حيث كان يتولى شؤون القضاء فيها قاض بعنوان (نائب خانقين)، نوه بمن اسمه حسين نائب خانقين، في وقفية الحاج صالح بن الحاج ولي المؤرخة في 26 جمادى الآخرة سنة

(1) دفتر 1028 ص405

1169هـ/1755م، وفي وقفيته المؤرخة في 24 رجب سنة 1170هـ/1756م، أنه وقف حصصاً « في مالكانة المزرعة المعروفة باسم بابا بلاوي في خانقين» على ذريته.

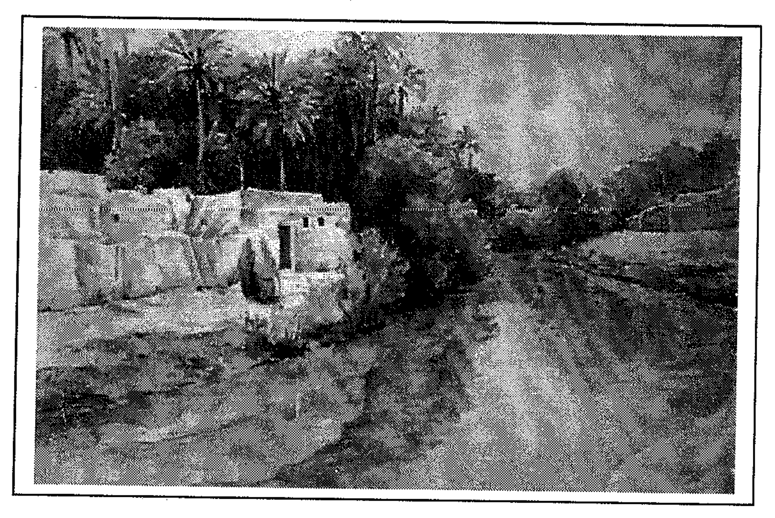
خراسان

أشير إلى منطقة خراسان في سجلات الأراضي العثمانية باسم (بلوك طريق خراسان)، وعدت في هذه السجلات اقطاعاً من نوع (خاصة مالكانة) أي من الإقطاعات الخاصة بالصنف الأول من الضباط العثمانيين، والتي تدر عادة دخلاً يتجاوز 100000 آقجة عثمانية (دفتر 1028)، وكانت مقراً لوحدة عسكرية عثمانية، يرأسها قائد يسمى (ضابط) ، بدليل ما أشير إليه في وقفية الحاجة سكينة خاتون بنت الحاج محمد آغا المؤرخة في 5 ربيع الآخر سنة 1140هـ/1727م، من شهادة شاهد هو « جعفر آغا ضابط خراسان». وفي وقفية جامع بعقوبة المؤرخة في شوال سنة 1121هـ/1709م نقرأ اسم أحد شهودها وهو عمر آغا ضابط خراسان. وفي وقفية عبد الله بك بن شاوي بك على ذريته، المؤرخة في 15 جمادى الأولى سنة 1172هـ/1758م.

ووضحت وقفية نائلة بنت عبد الرحيم آغا بن عبد الله، على ذرية مماليكها، الوضع الإداري لقضاء خراسان، ففيها نقرأ أنها وقفت «الحصص الشائعة في نخيل وأشجار بستان كراخة الذي أرضه من الأراضي الأميرية، والكائن داخل قضاء خراسان، في قرية دلتاوه، من قرى ناحية الخالص»، وحددت الوقفية حدود هذه الحصص بأنها محدودة من جهة ببستان محمد بن الحاج الياس، ومن جهة ببستان محمد بن عثمان، ومن جهة ببستان النجار محمد، ومن الجهة الرابعة ببستان جواد سليم وبنهر القرية، وكذلك الخان والمقهى الملاصقين أحدهما للآخر في القرية المذكورة».

وتوضح وقفية خُجّة خان بنت أحمد آغا قُفطان آغاسي بن عبد الله، المؤرخة في 7 شوال سنة 1309هـ/1891م عن أسماء بعض المالكين في (قضاء خراسان)، وكلهم من كبار الموظفين ببغداد، فقد وقفت هذه الواقفة، على ذريتها « بستان في قضاء خراسان، محدودة أولاً بملك حسين بن حميد، وثانياً بنهر ديالى، وثالثاً بملك أسما خاتون زوجة عبد الوهاب آغا رضوان آغا زاده، ورابعاً بملك جادرجي زاده رفعت أفندي، ويتم بالطريق العام، وثلاثة دور في قضاء خراسان، والطويلة

الواقعة في قضاء خراسان، المحدودة أولاً بملك ورثة ياور أفندي كاتب فارسي زاده، وثانياً بنهر خريسان، وثالثاً ورابعاً».



نهر خريسان لوحة للفنان منير العبيدي

خرنابات

قرية من أعمال بعقوبة، وكانت تعد من توابع قضاء خراسان(خريسان)، وعرفت ببساتينها ووفرة محاصيلها الزراعية، فتردد اسمها في الوقفيات مرات عدة، ومن المحتمل أن تكون هي ما عرفته وقفية أمين الدين مرجان سنة 760هـ/1358م باسم (خُرم آباد)، فقد جاء في هذه الوقفية «وبساتين بقرية الترك والزادماز وخرمآباد ...».

وفي أواخر العهد الصفوي، أشير إليها باسم (خرناباد) في حجة إحياء الأرض الموات، التي أمر بكتابتها الصدر رضي الدين ابن الصدر شرف الدين الشيباني، الخاصة برقة وأراضي القاطع، والمؤرخة في غرة شهر ربيع الأول سنة 929هـ/1522م، بوصفها من حدود هذه الأراضي (أنظر قرية القاطع).

وفي 5 جمادى الأولى سنة 1092هـ/1681م وقف إمام قولي بن شمس الدين هذه القرية، ببساتينها وأنهارها، على جامع الفضل ببغداد، وجاء في وقفيته أنها معدودة « في ولايت خراسان (كذا) القرية المعروفة بخرنابات، المحدودة بحدود أربع: الحد الأول شط ديالى، والحد الثاني خر الهويدر، والحد الثالث خراسان، والحاد الرابع حد مكسِر».

ووقف حسن بن مصطفى جاوش الساكن في هذه القرية، في وقفيته المؤرخة في 2 جمادى الآخرة سنة 1158هـ/1744م، قطعة من بستان أم الحمور، قرب أوقاف الإمام محمد الفضل، في القرية المذكورة، على ذريته.

وفي 8 ذي الحجة سنة 1188هـ/1774م، وقف محمد بن أحمد من سكان القرية نفسها « التي هي من أوقاف الشيخ محمد الفضل» قطعة البستان الواقعة في القرية المذكورة، والدار المتصلة بدار أولاد محمد هاشم، على أولاده الذكور، ثم على خَدَم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي 6 شوال سنة 1226هـ/1814م وقف مراد بن الحاج نعمة داراً في قرية خرنابات، وبستان التوت، ونصف بستان شكر بن محمود، وبستان عاشور، على ولديه.

ووقف عبد أبو دبسة على ذريته « بستان كاظم موسى في قرية خرنابات من قرى خريسان» بموجب وقفيته المؤرخة في 10 شوال سنة 1238هـ/1822م .

ووقف محمد بن شهاب كور « البستان الواقعة في أرض قرية خرنابات الشهيرة ببستان عليوي بن كور أحمد الجديدة على أبنائه» في 15 ذي الحجة سنة 1245هـ/1829م.

ووقف دخيل بن مصطفى بستانه «في قرية خرنابات في مقاطعة خريسان تعرف بمال دياله» على ذريته، في غرة رجب سنة 1246هـ/1830م. وفي 2 شعبان سنة 1327هـ/1909م أقام عزت أفندي آغا أوغلو الساكن في محلة السراي بقصبة بعقوبة مركز قضاء خراسان، بحسب وكالته عن الحاج عبد علي بن الحاج محمد بن دخيل الساكن في قرية خرنابات، الدعوى على طعان بن حبيب الساكن في القرية المذكورة، قائلاً أن بستان (مال ديالى) الواقع في القرية المذكورة، المحدودة ببستان مال عباس بن حسين، وببستان محمد وكاظم وجواد اولاد مرتضى، وببستان دوب، وبالطريق الخاص، كان بالأصل ملكاً لدخيل بن مصطفى، وأنه وقفه بموجب الوقفية المؤرخة في غرة رجب سنة 1246هـ/1830م، المختومة بامضاء وختم قاضي بغداد محمد طاهر شريف أفندي، وأن هذا الوقف قد انحصرت توليته بموكله الحاج علب علي، وإن حصتين من الغلة تعود إلى موكله، وحصة واحدة إلى الموما إليه طعان بحسب شروط الوقفية، فحكمت المحكمة بمنع المدعي طعان من التدخل في البستان المذكور.

ووقف حسين بن حسن بن مصطفى الدخيل جميع الدار والباغجة المتصلة بها، الواقعتين في قرية خرنابات، المحدودتين من أطرافها الأربعة بملك علاوي بن حاج هادي، وبملك قاطع، وبنهر القرية، وبملك محمد الدخيل، وبملك عباس الدخيل، وبالطريق العام، على ذريته، في 28 ربيع الآخر سنة 1275هـ/1858م.

وفي 6 جمادى الأولى سنة 1296هـ/1878م وقف الحاج محمد أمين جلبي بن الحاج محمد سعيد جلبي بن الحاج مصطفى الشيخلي، أسهمه من « جميع عقر قرية خرنابات من قرى قضاء خراسان، محدودة أولاً بنهر حد مكسر، وثانياً بأراضي القلاعة، وثالثاً بأراضي الدازكية، ورابعاً بأراضي الكرية».

وادعت عطية بنت محمد سعيد الساكنة في قرية خرنابات في المحكمة الشرعية في قضاء خراسان، أن البستان الشهير ببستان كضيم هي وقف جدها الأعلى خليل بن كاظم على أولاده، ثم تبين أن الوقف للذكور دون الإناث، فحرر ما هو الواقع بالطلب، وذاك في الإعلام الشرعي المؤرخ في 21 ربيع الآخر سنة 1338هـ/17 كانون أول 1918.

الخوالص

قرية تابعة لناحية هبهب من أعمال الخالص، لا يعرف زمن نشوئها، ووردت الإشارة إليها أول مرة في وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م باسم (الخوالص عبد الرزاق) إشارة إلى أنها وقف على ذرية السيد الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الكيلاني، وعدتها أحد الحدود الأربعة لقرية الرازقيات من أعمال ناحية خراسان، جاء في الوقفية ما نصه « ومن الأملاك التي ما هو حقه وملكه بلا مانع، وفي يده وتصرفه بلا منازع، وذلك جميع الأراضي والمزارع الواقعة في قرية الخوالص عبد الرزاق، على شط جلولاء من أعمال ناحية خراسان، المحدود بحدود أربعة: الحد الأول نهر تدارة، والحد الثاني نهر غيبة، والحد الثالث دوب الجمل مع الرغاث، والحد الرابع خراسان بجميع حدودها.. الخ». كما أشير إليها في الوقفية نفسها بوصفها من حدود قرية دوره من أعمال ناحية الخالص أيضاً. وتسمي دفاتر الأراضي العثمانية المعدة في القرن العاشر للهجرة (16م) هذه القرية باسم (خُويلص) وتعدها تابعة لبلوك الخالص، وتذكر أن حاصلاتها تبلغ 4910 آقجة، وأنها من أوقاف الإمام الأعظم[1].

---

(1) دفتر 1028، الورقة 75.

وقد وصف الشيخ محمد صالح السهروردي هذه القرية، في أثناء زيارته لها سنة 1941، فقال أن « من أوقاف القادرية نهر قرية الخوالص» وأن « هذه القرية تقع في بزايز نهر خريسان، ويحمل نهر الخوالص المذكور من نهر خريسان».

الداسقية، الدازكية

قرية عدت من أعمال ناحية خراسان، وهي اليوم تابعة لمركز قضاء بعقوبة. وقفت عليها زينب خاتون بنت الملا عبد الفتاح أفندي المفتي ربع بستان أيوب، وربع بستان الداسقية المعروفة باسم حسن علي خان في ناحية خراسان، على الفقراء والمساكين، وذلك في وقفيتها المؤرخة في غرة ربيع الثاني سنة 1246هـ/1830م.

دَوخَله

أصل لفظها (دَوّ خَلاء) أي الأرض الخالية، إشارة إلى خراب ما كان يحيط بها من قرى ومزارع وضياع، وقد تأكد هذا المعنى في حجة رسمية صادرة عن ديوان البائرات، وهو المؤسسة المعنية بإحياء الأراضي الموات، في سنة 739هـ/1338م، ففي هذه الحجة[1] نقرأ «أمراء وحكام ونواب ومتصرفو وبينكجية بغداد وعمال الخالص على اختلاف طبقاتهم وتباين درجاتهم يعلمون أن سواعد الهمة مصروفة لعمارة بقاع البلاد، والتي تتضمن فيما تتضمن الترفيه عن العباد، وتعود منفعتها على عموم الخلائق الذين هم ودائع الرحمن، من ذلك بز محمولة جواريش التي هي من أعمال الخالص، والمنتهية حدودها بأراضي دوخلة بمحولة جواريش أولاً، وبشاطئ دجلة ثانياً، وبظاهر المباركة بالعراقات ثالثاً، وأراضي السليمانية ودوخلة رابعاً، والتي هي منذ مدة مديدة وعهود بعيدة كانت أراض خربة وبائرة ولم تصلها يد الزراعة والعمران». وتفيد الوثيقة أن كلاً من الأمير جمال الدين والخواجة علاء الدين وأخوه الحاج أحمد تقدموا لاستملاك بز محولة جواريش المذكورة من ديوان البائرات».

وأشير إلى برية بين دوخلة والجديدة (أنظر هذه المادة) في خبر ساقه عبد الله بن فتح الله الغياث البغدادي، في حوادث سنة 874هـ[2].

---

(1) هندوشاه النخجواني الملقب بشمس المنشئ: دستور الكاتب في تعيين المراتب، اقتباساً من د. نوري عبد الحميد العاني: وثائق حول ملكية الأرض والضرائب على الزراعة من العهد المغولي، مجلة المؤرخ العربي، العدد 61، السنة 2003.

(2) التاريخ الغياثي، ص334.

وفي وقفية مؤرخة في 21 رجب سنة 1131هـ/1718م نقرأ أن الحاج محمد بن الحاج حمزة من سكان قرية دوخلة وقف «خُمس من أشجار النخيل مع جملة توابعها في قرية دوخلة من أعمال الخالص». وقد شهد على الوقفية عدد من وجوه دوخلة، منهم: محمد كمال كخية دوخله، وموسى عثمان كخيه، وحسن محمد كخيه، وغيرهم.

وكان الحاج أرسلان بن علي دِوَه جي قد وقف نصف بستان « في قرية دوخلة التابعة لناحية الخالص» على السبيلخانة (السقاية) التي أنشأها في قصبة الأعظمية، وذلك بموجب وقفيته المؤرخة في 25 ذي الحجة سنة 1181هـ/1767م.

دوری، دوره

قرية من أعمال نهر خراسان، وهي تتبع الآن مركز قضاء بعقوبة. أشير إليها لأول مرة في وقفية أمين الدين مرجان المؤرخة في سنة 760هـ/1358م على المدرسة ودار الشفاء اللذين أنشأهما ببغداد، حيث جاء فيها أن مما وقفه « نصف دورى»، ولم يحدد موقعها، والراجح لدينا أنها القرية التي عرفت، فيما بعد، بـ(دوره)، فقد أشارت وقفية السيد زين الدين القادري المؤرخة في سنة 978هـ/1570م إلى هذه القرية على النحو الآتي « ومن الأملاك التي ما هو حقه وملكه بلا مانع، وفي يده وتصرفه بلا منازع، وذلك ثلثا جميع الأراضي والمزارع الواقعة في قرية دوره من أعمال ناحية خراسان، المحدودة بحدود أربعة: الحد الأول: أبو زهرة، والشيخ عبد الحميد، والحد الثاني: الطريق العام، والحد الثالث: أراضي بدورية، والحد الرابع: حد مزيد، بجميع حدودها ..». وفي 9 رمضان سنة 1258هـ/1842م استصدر السيد علي القادري، نقيب الأشراف ببغداد، أمراً من والي بغداد نجيب باشا، يفيد أن أرض دوري من الأراضي التي غلتها «مشروطة وموظفة ومرصدة لمصالح المسجد وزاوية جدي الباز الأشهب قدس سره وإطعام طعام الفقراء العاكفين والمجاورين فيها والخدمة القائمين بأمرهما». وفي سنة 1261 هـ/ 1845م قدم السيد علي القادري دعواه بإعادة عدد من القرى إلى الوقف القادري، كان منها نهر الدورة، وقد حدده بأنه « محدود من جهة بحد مزيد، ومن جهة أخرى بنهر عبد الحميد، ومن جهة ثالثة بنهر دورة، ومن جهة رابعة بأراضي مريجية أبو الصخول»، فأقر الفرمان العثماني الصادر في أوائل جمادى الآخرة سنة 1260 ذلك التحديد.

ده شيخ

قرية من أعمال ناحية قزانية، التابعة لقضاء مندلي، عرفت أيضاً باسم (دو شيخ)، أي الشيخان، ثم سميت رسمياً (السعدون). وقد نوهت الوقفيات بأسماء بساتينها، ففي ربيع الثاني سنة 1183هـ/1769م وقف علي كهيه بن مصطفى، من أهالي هذه القرية، بستاناً في مندلي، وداراً في القرية المذكورة، وحصصاً في أرض الشيخ محمد وأرض حسان كوله، وأرض الديم في القرية نفسها، على ذريته. ثم عاد فوقف في 5 ذي القعدة سنة 1185هـ/1771م بستان (قهيني الكبير) ونهر كنكرد والمقبرة على ذريته، ثم على فقراء الإمام الحسين عليه السلام.

وفي وقفية صادق بك بن سليمان باشا المؤرخة في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1817م نقرأ أن مما وقفه على ذريته « بستان عبو الواقع في قرية ده شيخ التابعة لناحية قزانية».

ووقف الحاج خضر بن الحاج إبراهيم بن حسين «حديقة في قرية دوخلة في ناحية الخالص تسمى ميصيلح، وحديقة شناوه، وقطعة حسن ضايع في القرية المذكورة» بموجب وقفيته المؤرخة في 5 جمادى الآخرة سنة 1183هـ/1769م .

ووقف صادق بك بن سليمان باشا بستان عبو، وبستان حسن، الواقعين «في قرية ده شيخ التابعة لناحية قزانية» على ذريته، وذلك في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1817م.

الرازقيات

قرية كانت تعد من أعمال ناحية خراسان، نوهت بها وقفية السيد زين الدين القادري المؤرخة في سنة 978هـ/1570مـ بأسماء أنهارها، وحدودها، وذلك على النحو الآتي:

«وذلك جميع الأراضي والمزارع الواقعة في قرية الرازقيات، والقرية المذكورة معروفة بالجدولين، الجدول الأول الغربي، الجدول الثاني الشرقي، من أعمال ناحية خريسان، المحدودة بحدود أربعة، الحد الأول: أراضي قرية بدورية، والحد الثاني: قرية المنصورة، والحد الثالث: الطريق العام، والحد الرابع:[نهر] خراسان، بجميع حدودها بكافة حقوقها وتوابعها ..». ونوهت سجلات الأراضي التي أعدت

في أول عهد الدولة العثمانية في العراق بهذه القرية، وأشارت إلى أن بعض القرى كانت تعد «في مقاطعة عبد الرزاق»[1]، كما أشارت إلى قرية رازقية بوصفها من توابع بلوك طريق خراسان.

ونقرأ في الفرمان السلطاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م ما يفيد بأن مجموع الرسوم المستحصلة من «مالكانة القرية المدونة تحت نفرات وجماعات مع قرية رازقية وحاصلها التابعة لناحية خراسان» بلغ 25148 آقجة. و«أن ثلثان منها في تصرف الشيخ زين الدين القادري وباقي الشركاء، وثلث في تصرف مير أفندي، وفقاً للدفتر العتيق، أما في الوقت الحاضر ففي تصرف عوض بن حسين بعقوبي وفقاً للحجة الشرعية». وعرفت هذه القرية في القرن الثالث عشر للهجرة، باسم جديد، هو (الرازقيات) نسبة إلى ذرية السيد الشيخ عبد الرزاق بن السيد عبد القادر الكيلاني، وكان الشيخ محمد صالح السهروردي العباسي، مدير أوقاف ديالى، قد زار القرية سنة 1943م، فذكر أنها أحدثت قبل مئة سنة من تاريخ زيارته لها، وأنها كانت تعرف قديماً بالرازقيات نسبة إلى السيد المذكور، وقال: ورئيس هذه القرية من أحفاد السيد يعقوب بن السيد يوسف، ورئيسها اليوم السيد عبد الحميد بن السيد محمد، وكان أنشأ الجامع المذكور، والسيد خليل، ووقف عليه بستاناً في نهر الشيخ[2]. ولدى الرجوع إلى وقفية السيد خليل بن السيد إبراهيم الفرج، وجدناه قد وقف البستان الواقعة في نهر شيخ على مسجد هذه القرية في 10 شعبان سنة 1276هـ/1859م.

ووقفت آسية خاتون بنت السيد علي أفندي نقيب الأشراف بستان فتاح، الكائنة في القرية المذكورة، على السيد محمود أفندي بن السيد عبد القادر أفندي بن السيد مراد أفندي ثم على أولاده، وذلك في وقفيتها المؤرخة في 27 رجب سنة 1323هـ/1905م.

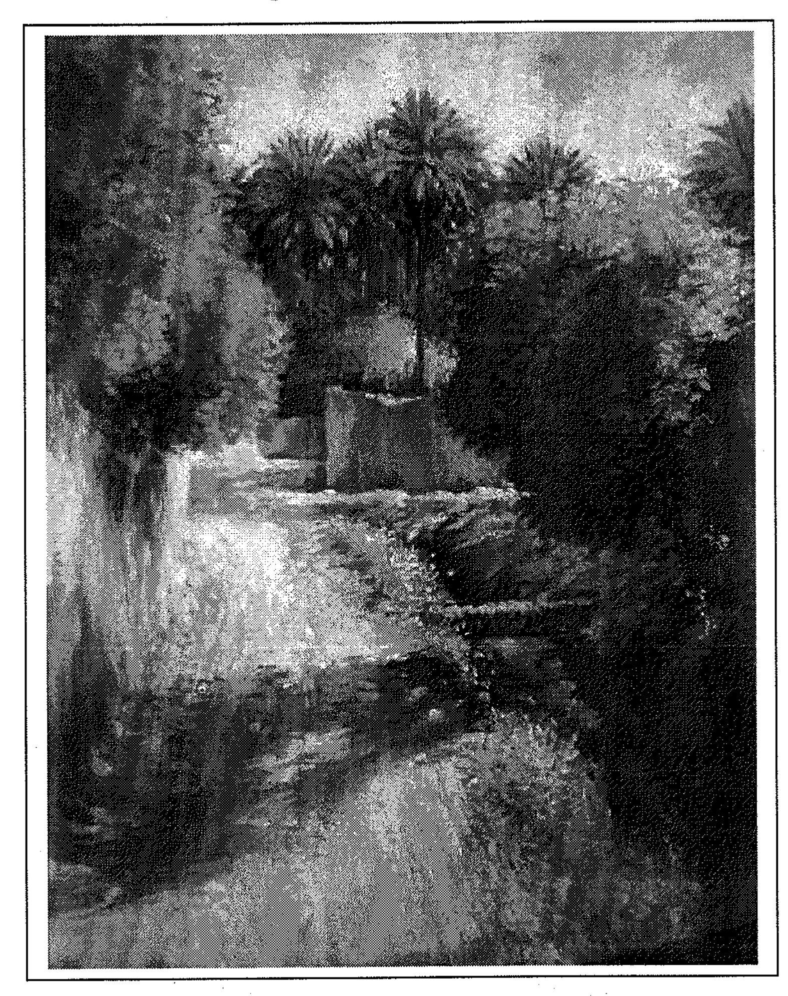
رقّة رحبة

في دفاتر الأراضي العثمانية، المعدة في القرن العاشر للهجرة (16م)، إشارة إلى مزرعة رحبة تابع بلوك طريق خراسان، ولم يشر إلى قرية بهذا الاسم، . ونوه

(1) دفتر 1028، الورقة 76.

(2) الجواهر المضيئة، مخطوط.

الفرمان الصادر في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م إلى قرية (رقة رحبة) بوصفها تابعة لناحية طريق خراسان، وأنها في تصرف أولاد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وأن رسومها مع مالكانة القرية تبلغ 619 آقجة.



طريق على ساقية لوحة للفنان منير العبيدي

زاغِنية

هي زاغونى (بألف مقصورة في آخره) كما في المصادر الإسلامية. قال ياقوت «قرية ما أظنها إلاّ من قرى بغداد»، ونوه بعدد من نسب إليها من المحدِّثين. ثم سكتت عن ذكرها المصادر. وعرفت في القرون المتأخرة باسمها الجديد (زاغنية). وفي الواقع فإن هذا الاسم أطلق، بعد اندثار القرية القديمة، على قريتين متجاورتين عند أطلال

تلك، عرفت إحداهما بزاغنية الكبيرة، والأخرى بزاغنية الصغيرة، وكانتا تُعدان من أعمال ناحية خراسان، ثم عدتا من لواحق مركز قضاء بعقوبة.

ويشير الإعلام الشرعي الصادر عن المحكمة الشرعية في بغداد، المؤرخ في محرم سنة 1262هـ/1845م إلى أن ناظر الأوقاف يومذاك الحاج عثمان برتو أفندي « ادعى بأن أرض زاغنية الكبيرة والصغيرة الواقعة في خراسان، أوقفها مالكها الشيخ محمود بن عبد الله على الجامع الذي أنشأه في أدنه كوي (وهي منصورية الجبل)، وأنه جعل الفضلة لأولاده، إلاّ أنه سكت عن تعيين تاريخ ذلك الوقف.

زرباطية

في وقفية الشيخ يوسف بن الشيخ محمد علي، من سكان زرباطية، المؤرخة في 27 شعبان سنة 1271هـ/1854م أنه وقف على ذريته « الحديقة الواقعة في قرية زرباطية، المحدودة من الجهات الأربعة بحدائق مرزا إسماعيل وقاسم وحسين بن حسن وبالطريق الخاص.

زنكباد

في وقفية الحاج علي أفندي بن مراد أفندي المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/1720م، أنه وقف « ربع أنهار قره بولاق وميارزية في قرية زنكباد» على الجامع الذي أنشأه ببغداد.

وأشير إليها في وقفية عبد الله بك بن شاوي بك على ذريته، المؤرخة في 15 جمادى الأولى سنة 1172هـ/1758م، حيث جاء فيها أن مما وقفه « أرض القبة الواقعة في طريق زنكباد».

ووقف عبد الرزاق بن درويش أحمد بن حسين أفندي على ذريته حصص في أرض سيد لان من ملحقات زنكباد، بموجب وقفيته المؤرخة في سنة 1195هـ/1780م

ووقفت أم كلثوم خاتون بنت أحمد أفندي «ثُمُن نهر صَيدلان الواقع في ناحية زنكباد، المحدود بقره دبة وكشكويل وبجبل حمرين وبأورمان» على تكية علي المندليجي في بغداد، بموجب وقفيتها المؤرخة في 3 ذي الحجة سنة 1226هـ/1811م.

زَهرة

قرية عامرة كانت تعد من أعمال ناحية خراسان، أشير إليها، أول مرة، في وقفية السيد زين الدين المؤرخة في 978هـ/1570م باشم (أبو زهرة)، وعدت، في تلك الوقفية، من حدود قرية دوره.

وفي 19 ذي القعدة سنة 1218هـ/1803م وقفت كلسم خاتون بنت إسماعيل آغا طريف بستاناً في قرية زهرة على ذرية زوجها.

الزهيرات

قرية من أعمال ناحية أبي صيدا التابعة لقضاء المحمودية، أشير إليها في وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م بصفة (رقة)، وقد تقدم أنها الأرض المنخفضة الكثيرة المياه، والظاهر أن نشوء القرية جرى بعد هذا التاريخ، وأنها نسبت إلى الرقة المذكورة. ورد ذكرها بوصفها قرية في وقفية الحاج عبد الله بك بن الحاج محمد آغا على جامع الأحمدية الذي أنشأه أخوه أحمد باشا في الميدان ببغداد، المؤرخة في سنة 1223هـ/1808م، حيث ورد فيها أنه وقف الجرف الأحمر في قرية الزهيرات والطاحونة الواقعة في الجرف الآخر. وبموجب الفرمان العثماني الصادر في أوائل ذي الحجة سنة 1261هـ/1845م فإن« مزرعة رقبة زهيرات التابعة أيضاً لناحية طريق خراسان، والواقعة بقرب أبو صيدا، فهذه محصول ديوانيتها يعود إلى الوقف».

وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في ربيع الأول سنة 1260هـ/1844م إشارة إلى أن «أراضي الديلمية التابعة لقرية الزهيرات التي هي من أوقاف حضرة الشيخ قدس سره، هي من حدود الأرض المشتملة على البساتين المسماة بالمقطوعة». وكان السيد محمد سعيد التكرلي قد أبرز حجة شرعية تشير بأن الأرض المسماة المقطوعة هي ملكه وملك يوسف بك نجل الوزير داود باشا والي بغداد، وبعد معاينة الأرض من قبل لجنة من الخبراء، تأكد للمحكمة أن أرض المقطوعة بحدودها هي وقف كذلك، «وإنها لم تزل عامرة كثيرة النفع لجانب الوقف». وقد حدد السيد علي القادري الأراضي المعروفة بالمقطوع بأنها « محدودة من ثلاث جهات ببساتين وأراضي قرية زهيرات العائدة للأوقاف المذكورة، وأما الجهة الباقية فمحدودة بأراضي الشوكة العائدة أيضاً للأوقاف القادرية» (فرمان صادر سنة 1260 أشير إليه سابقاً).

وفي سنة 1261 هـ/ 1845م قدم طالب السيد علي القادري بإعادة عدد من القرى

إلى الوقف القادري، كان منها قرية المخيسة، «المحدودة من ثلاث جهات بأراضي أبو كرمة، وعلوان، والمرور من نفس الأوقاف الكيلانية، أما الجهة الرابعة بشط ديالى». وقد أقر الفرمان العثماني الصادر في أوائل جمادى الآخرة من ذلك العام التحديد المذكور، على أن تعطى، وقرى أخرى حددها، بالالتزام كلها معاً (فرمان مسجل في المحكمة الشرعية، سجل 1، عدد 16).

ووقفت السيد زمزم خاتزن بنت علي أفندي القادري نقيب الأشراف سهماً واحداً من ثلث بستان نوري بك، وسهماً من ثلث بستان نعمة، الواقعين في القرية المذكورة على زوجها، ثم على أولاد أختها، في 21 جمادى الأولى سنة 1320هـ/1902م.

زار الشيخ محمد صالح السهروردي هذه القرية في 7 آب سنة 1941، فوجدها « قرية عامرة تشرح الصدر ببساتينها وطرقها وجادتها التي تشق السوق، ويزيد فيها حسناً بنهرها الذي يحمل من خراسان. وهذه القرية تشتمل على نحو من ثلثمائة دار، وأكثر دورها معمورة بالخشب واللبن والطوف، ومنها بالآجر، وفيها بعض البيوت ذات الرواشن، وفيها سوق يشتمل على عدة حوانيت وست قهاوي. وأهل هذه القرية أصحاب معشر لا يستوحش الغريب بينهم، وكلهم ذوي أخلاق فاضلة يكرمون الضيف، وفيها عدة بيوت مشهورة بالضيافة.. وبساتينها نحو الخمسمائة بستان معمورة بالنخيل وشجر الليمون والأجاص والخوخ، وفيها مسجد واحد، وفيها مقام يدعى بنت الحسن عليه قبة معقودة، والقرية قائمة على تل عال يظهر أنه من آثار بلدة قديمة جداً. وهذه القرية ببساتينها تعطي إلى أوقاف القادرية الخمس وتسقى من نهر خراسان»[1].

السادة

قرية من أعمال مركز قضاء بعقوبة، عرفت في القرن العصر العثماني بالرازقيات (أنظر هذه المادة).

ساطي

قرية تابعة لناحية أبو صيدا. أشير إليها أول مرة في دفاتر الأراضي المعدة في أوائل عهد الدولة العثمانية في العراق (الدفتر 1028) باسم (قرية نهر ساطي) وفي

(1) ملاحظات عن قرى ديالى، مخطوط.

وقفية السيد زين الدين القادري سنة 987هـ/1570م إشارة إلى النهر دون القرية، وعدَّته من حدود أراضي ومزارع الدامغة من أعمال خراسان.



طريق بين بساتين في ديالى لوحة للفنان منير العبيدي

السعدية

وقف عبد الرزاق وعبد الوهاب ولدي السيد عبد القادر البرزنجي، بموجب وقفيته المؤرخة في 28 صفر سنة 1259هـ/1843م «الثلث الشائع من بستان الحاج عبد الله في قرية سعدية، المحدود من جهة بالطريق العام، ومن جهة بالبادية، ومن جهة بالدجلة العظمى، ومن جهة ببستان باقر بن الحاج علو، وبستان عبد الحسين المحدود من جهة بالجامع، ومن جهة بالطريق العام، ومن جهة بالبادية، ومن جهة ببستان شكي، وكذا البستان المعروف ببستان كاظم، المحدود من جهة بالطريق العام، ومن جهة بنهر الخالص، ومن جهة بملك الحاج كاظم، ومن جهة بملك الحاج عليوي، وبستان نين، وبستان محمد الحسين، وحديقة وغرب في القرية المذكورة» على مصالح جامع الإمام أبي حنيفة.

وفي وقفية زمزم خاتون بنت محمد آغا، على ابن زوجها وذريته، المؤرخة في 16 ربيع الثاني سنة 1284هـ/1867م نقرأ أن من حدود السندية، السعدية.

سَنبقية

قرية أشير إليها في وقفية الحاج علي بن مراد أفندي المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/1720م، حيث ورد فيها أنه وقف نصف بستان في قرية سنبقية من ملحقات قرية كبية. قلنا: وكبية هذه من قرى ناحية المنصورية (دلي عباس سابقاً).

السِّندية

قرية من أعمال قضاء الخالص، ورد اسمها في رحلة المنشي البغدادي سنة 1236هـ/1821م. وفي التاريخ نفسه تقريباً وقفت نابي خاتون بنت عبد الله، وهي أم والي بغداد سعيد باشا، البستان الواقعة في قرية السندية المعروفة ببستان الحاج علي، على العلماء والصلحاء، وعلى المدرسة التي أنشأتها في بغداد، وذلك في وقفيتها المؤرخة في 28 رجب سنة 1237هـ/1821م.

ووقف شكر ومحمد ونائلة وأسماء وفاطمة، من سكان قرية السندية، الباغجة الواقعة في القرية، على ذريتهم، ثم على لوازم جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، بموجب الوقفية المؤرخة في 8 شوال 1276هـ/1859م.

وفي 16 ربيع الثاني سنة 1284هـ/1867م وقفت زمزم بنت محمد آغا بن عبد الله، من سكنة محلة العاقولية في بغداد، حصصاً في «أراضي السندية في مقاطعة الخالص، داخل قضاء خراسان، المحدودة من جهة بالسعدية، ومن جهة بأراضي جيزاني، ومن جهة بالنهروان، ومن الجهة الرابعة بدجلة العظمى» على ذرية زوجها.

سنسل

قرية من أعمال مركز قضاء المقدادية. أشير إلى نهر باسمها في وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م، وسكتت الوقفية عن الإشارة إلى القرية، مما يرجح أنها نشأت بعد ذلك التاريخ. وأوضحت وقفية خديجة خاتون بنت علي آغا أرناؤوط، المؤرخة في 13 محرم سنة 1172هـ/1758م حدود قرية سنسل، فذكرت أنها «تابعة لناحية شهربان، المحدودة بأبي جسرة وبعواشق وبجدول مهرود وبحد خراسان».

لقد منحت سنسل اسمها، في العهود المتأخرة، إلى عدة تجمعات بشرية نشأت في منطقتها، اتخذت مع مرور الزمن شكل قرى مستقلة، لكنها عرفت جميعاً باسم

القرية القديم، سنسل، لكن كل وحدة منها نسبت إلى أحد الأعلام، والأسر، أو العشائر، أو المعالم، هي سنسل العكيدات، وسنسل الرشادة، وسنسل طنبورة، وسنسل الخيلاني، وسنسل القلعة، وسنسل حمادة، وسنسل إمام عباس، وسنسل أبو دهن.

سويدية

قرية في ناحية الوجيهية، في قضاء المقدادية. اشير إليها في وقفية الحاج علي أفندي بن مراد المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/1720م بوصفها تابعة لقرية (عقر) المعروفة حالياً بالعكر.

سُوَيقية

أرض، أو قرية، في الخالص، وقفها الشيخ محمود بن عبد الله على الجامع الذي أنشأه في أدنه كوي (منصورية الجبل). ورد ذلك في الإعلام الشرعي المؤرخ في محرم سنة 1262هـ/1845م.

شِفْتَه

قرية من أعمال بعقوبة، قريبة منها، وردت أول إشارة إليها في وقفية الحاج حسين أفندي بن عبد الله الغرابي، إذ وقف في أواخر ربيع الآخر سنة 1100هـ/1688م« نصف الخرق الشهير باسم شفتة قرب قرية بعقوبة».

ووقف هادي بن حبيب بن خليل بن الحاج عمر بستاناً في القرية المذكورة يعرف ببستان عبد، ونصف البستان الواقع في القرية أيضاً، المسمى بستان علاوي، على جامع السيد سلطان علي ببغداد، وذلك في وقفيته المؤرخة في غرة محرم سنة 1255هـ/1836م.

وفي 16 جمادى الأولى سنة 1282هـ/1865م ادعت خجة (خديجة) بنت خليل جلبي أن جدتها آمنة بنت عبد الله، وجدها محمد صالح جلبي، قد وقفا حصصاً عديدة، منها نصف قرية شفتة، وذلك بموجب الحجة الشرعية الصادرة في ذلك التاريخ.

وفي 7 جمادى الأولى سنة 1311هـ/1893م وقفت أسما خاتون بنت مصطفى آغا بن خليل آغا، على ذريتها، بستان الحاج شكر في قصبة خراسان، المحدود بطريق شفته، وبستانين لمحمد وفيق أفندي وخجة خاتون بنت أحمد آغا، ونصف

حصة في بستان مجدد المحدود بطريق شفته وبستان ورثة درويش علي، وأرض مقلع، وبستان أم العنب.

شهربان

بلدة قديمة، وردت الإشارة إليها في كتب البلدانيين العرب في العصور الإسلامية. قال ياقوت « شهربان: قرية كبيرة عظيمة ذات نخل وبساتين من نواحي الخالص في شرقي بغداد، وقد خرج منها قوم من أهل العلم».

وأشير إلى شهربان في سجلات الأراضي العثمانية التي أعدت في أول عصر الدولة العثمانية في العراق، ففي الدفتر 1028، الورقة 294 نقرأ أن جميع رسوم قرية شهربان زراعية. وأن حاصل مالكانة نهر مكي ونهر كنجري ونهر مسير صغير في قرية هارونية من المواضع التابعة لشهربان، يبلغ 400 آقجة.

وتشير الوثيقتان المؤرختان في رجب سنة 992هـ/1584م ومحرم سنة 993هـ/1585م إلى شهربان بوصفها قضاءً، وأنها منطقة قضائية مستقلة، يرأسها قاض، له صلاحية مخاطبة السلطان مباشرة في بعض أمور بلدته[1]. وتوضح وثائق أخرى، أن قاضي شهربان كان يُكلّف، مع أمير أمراء بغداد، وقضاة آخرين، باجراء التحقيق في قضايا تتعلق بسلوك بعض الأمراء، أو بالتحقيق بأمر تهريب بعض المسجونين من السجن، ونحو ذلك[2].

وتتردد الإشارة إلى شهربان في القرن الحادي عشر للهجرة، ففي وقفية عوض آغا من ينكجرية محافظة بغداد، المؤرخة في غرة ذي الحجة سنة 1096هـ/1684م أنه وقف بستان عبد العلي ومقهى على نهر شهربان، على «جامع قصبة شهربان»، وقد شهد على هذه الوقفية جمع من الشهود، من بينهم ملا حسين بن سلمان الخطيب في جامع شهربان.

ووصف بكنكهام شهربان، حينما مر بها سنة 1816، بأنها تتألف من منازل متناثرة من الآجر، وبضعة شوارع قليلة، وحدائق وبساتين، مسورة بأسوار من

---

(1) الآرشيف العثماني، دفتر مهمة 53، ص196 122 وثيقة 350و575، رجب 992 992 ومحرم الحرام 993،

(2) الآرشيف العثماني، دفتر مهمة 28، ص8، وثيقة 14 و15، في 19 جمادى الأولى 984.

الطين، وفيها مسجد واحد ذي منارة حسن البناء، ونزلان،.. ويقدر عدد السكان بحوالي ألفين وخمسمائة نسمة»[1].

وفي وقفية رحمة خاتون بنت محمد بك المؤرخة في 13 شوال سنة 1241هـ/1826م نقرأ أن هذه السيدة وقفت على ذريتها أرضاً في ناحية شهربان محدودة بملك السلحدار معروف آغا بن عبد الله، ومن جهة بالحمام، ومن جهة بشاخة شهربان، ومن جهة بالطريق العام.

ووقف الحاج بشير آغا بن عبد الله ضابط خراسان، في 23 صفر سنة 1246هـ/1830م عدداً من أشجار النخيل واقعة «علي خر شاخة خراسان»، وفي «زمين حمام». وقد صادق على الوقية عبد الشكور القاضي في ناحية خراسان، وممن شهد عليها الملا خليل كاتب خراسان.

وتكشف وقفية إبراهيم بن خليل بن فياض، من سكنة شهربان، المؤرخة في 4 رجب سنة 1341هـ/20 شباط 1923م، عن وجود حمامين قديمين في البلدة، أحدهما للذكور، والآخر للإناث، يرقيان إلى تاريخ غير محدد، فإنه وقف، على ذريته، 14 سهماً من أصل 32 سهماً، من ثلث الحمام المختص بالذكور، المرقم حديثاً 20-7/22 المحدود جهة بالطريق العام، ويميناً بدار أصحاب الملك إبراهيم بن خليل وشركائه، ويساراً بحمام الإناث وموقده، وخلفاً بشاخة شهربان، ومن ثلث الحمام المختص بالإناث الواقع مع موقده المرقم حديثاً 24-7/26، المحدود جبهة بالطريق الخاص، ويتم بحمام الذكور، ويميناً بموقد حمام الذكور، ويساراً بدار ورثة حميد أفندي بن شاهين آغا، ويتم بحريم شاخة شهربان، وخلفاً بشاخة شهربان، ويتم بموقد الحمام المذكور. وقد صادق على الوقفية عبد الحق قاضي لواء ديالى.

الشويخرات

قرية من أعمال الخالص، وردت أول إشارة إلى اسمها في أواخر العهد الصفوي، حيث جاء في الحجة الشرعية التي أمر بكتابتها الصدر رضي الدين ابن الصدر شرف الدين الشيباني في غرة شهر ربيع الأول سنة 929هـ/1522م،

(1) رحلتي إلى العراق، ص169.

بوصفه اسماً لنهر عد واحداً من حدود أرض القاطع ورقّة القاطع اللذين جرى إحيائهما في ذلك التاريخ (أنظر مادة القاطع).

الشيخ دقل

يشير الفرمان المؤرخ في سنة 1260هـ/1845م إلى أن « مالكانة القرية المدرج جميعها تحت قرية دقلي التابعة لناحية طريق خراسان، وحاصلها، فهذه هي في تصرف أولاد الشيخ عبد القادر الكيلاني وفقاً للدفتر العتيق».

العاصمية

قرية عدت في مقاطعة الخالص، اشارت إليها وقفية فاطمة بنت أحمد بك حرم والي بغداد محمد رشيد باشا، بوصفها من حدود قرية عنه بكي (العَنبَكية)، وذلك في 17 ذي الحجة سنة 1280هـ/1766م.

عبد الرزاق

يشير إليها الفرمان الصادر في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م بوصفها قرية مستقلة عن قرية (الرازقية)، «وأنها تابعة أيضاً لناحية خراسان»، وأن مالكانة القرية المذكورة، ورسومها المدونة تحت (نفرات) جميعاً في تصرف أولاد الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره وفقاً للدفتر العتيق»، وقد بلغت الرسوم المستحصلة منها 7634 آقجة.

عبد الحميد

قرية من أعمال بعقوبة، قريبة منها، وردت الإشارة إليها أول مرة في وقفية زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م، بوصفها أحد حدود قرية دوره من أعمال ناحية خراسان. وذكر الشيخ محمد صالح السهروردي أن الشيخ عبد الحميد كان «من كُمَّل السادة الصوفية في زمانه، وتخرج غير واحد من الأعلام، وانتفع بفضله الخاص والعام»[1].

العزية

قرية كانت تابعة إلى ناحية مهرود، وفي وقفية السيد زين الدين القادري، المؤرخة

---

(1) الجواهر المضيئة، مخطوط.

في سنة 978هـ/1570م أن مما وقفه « جميع أراضي ومزارع نهر الشيخ المسمى بنهر الصغير الخارج من شاخة العزية» ولم تشر الوقفية إلى قرية بهذا الاسم، إلاّ أن الفرمان الصادر سنة 1261هـ/1845م يشير إلى مالكانة نشأت عند مزرعة نهر الشيخ الآخر المعروف بمزرعة نهر عزية التابع لناحية مهروت. ويذكر الفرمان أن « حاصل مالكانة المزرعة المذكورة في تصرف الشيخ زين الدين القادري وفقاً للدفتر العتيق». وتشير دفاتر الأراضي العثمانية المعدة في القرن العاشر للهجرة إلى مزرعة عزِّية تابعة لقرية عزِّية من بلوك مهرود، وأنها موقوفة على حضرة السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني[1].

العقر

قرية من أعمال ناحية الوجيهية. جاء في وقفية الحاج علي أفندي المتقدمة أنه وقف حصصاً من نهري حمزة وأبو خنازير قرب قرية عقر، ونصف بستان الفواكه في القرية المذكورة.

عَلْياوه

وقف الحاج صالح بن الحاج ولي عدة «حصص في البستانين المعروفين ببستان يم في قرية علياوه على نهر الوند» على ذريته، بموجب وقفيته المؤرخة في 26 جمادى الآخرة سنة 1169هـ/1755م.

عنه بكي (العَنبكيّة)

قرية من أعمال ناحية المنصورية، تسكنها عشيرة عربية بالاسم نفسه. أشير إليها في وقفية فاطمة خانم بنت أحمد بك حرم والي بغداد محمد رشيد باشا، المؤرخة في 17 ذي الحجة سنة 1280هـ/1863م، وذلك بوصفها «داخل مقاطعة الخالص من مُضافات بغداد»، وكانت هذه السيدة قد وقفت نصف الحصة الشائعة من أعقار قرية (عنه بكي)، المحدودة من جهة بنهر الخالص، ومن جهة بالتحويلة، ومن جهة بقرية كوريكيجة، ومن الجهة الرابعة بقرية العاصمية، وكذلك نهر بوازير، على السبيلخانة(السقاية) التي أنشأتها في بغداد. وفي دفاتر الأرض العثمانية، المعدة في القرن العاشر للهجرة (16م) إشاره إلى قرية تدعى (الجنبكية)

---

(1) الدفتر 1028، الورقة 76

تابعة لبلوك الخالص(الدفتر 1028، الورقة 75)، ومن غير الواضح إن كانت هي نفسها (العنبكية) المذكورة.

العواشق

قريتان من أعمال المقدادية، هما العواشق الكبيرة والعواشق الصغيرة، لا يعلم تاريخ نشوئهما، وانفردت وقفية السيد زين القادري المؤرخة في سنة 978هـ/1570م بالإشارة إلى رِقّة، وهي الأرض المنخفضة الكثيرة المياه، باسم رقة العواشق، وعدّتها جزءاً من أراضي ومزارع الشيخ دِقل، ولا تعرف هوية الشيخ دقل هذا، ومن الراجح أن ظهور القرية جرى بعد هذا التاريخ، وأنها عرفت باسمها هذا نسبة إلى الرقة المذكورة.

جاء في الوقفية ما نصه « ومن الأملاك التي ما هو حقه وملكه بلا مانع وفي يده وتصرفه بلا منازع، وذلك جميع أراضي ومزارع رِقاق الشيخ دِقل المعروفات برقة العواشق، وبرقة موتة حسام، وبرقة دوب الكلب، الواقعة بغربي شط خراسان من أعمال ناحية خراسان، المحدود بحدود أربعة: الحد الأول أراضي قرية بقاوة، والحد الثاني رقة الزهيرات، والحد الثالث شط ديالى، والحد الرابع خرسان، بجميع حدودها وكافة حقوقها وتوابعها ولواحقها وأراضيها ومزارعها وأهوارها وأنهارها وسواقيها ومساقيها وشروبها ودروبها وعواطلها وبواطلها ومتلقاتها ومنسوباتها ومضافاتها».

وثمة إشارة إليها في وقفية خديجة خاتون بنت علي آغا أرناؤوط، المؤرخة في 13 محرم سنة 1172هـ/1758م بوصفها من حدود قرية سنسل التابعة لناحية شهربان.

وفي الوثيقة الشرعية المؤرخة في 23 ذي الحجة سنة 1232هـ/1816م نقرأ أن (نهر زور شكير) في العواشق هو من أوقاف الشيخ عبد القادر الكيلاني.

وصف جمس بكنكهام، قرية العواشق، حينما مر بها سنة 1816، وقدم تفسيراً مهماً لنشوئها، فقال « كانت هذه القرية في الأصل ملاذ اثني عشر من الفقراء الذين عاشوا هنا في استرخاء اعتماداً على صدقات المحسنين من المسافرين، غير أن طريقة حياتهم البسيطة اجتذبت إليهم آخرين من ذات الطبقة، وبذلك اتسعت

الإقامة فيها فأصبحت الآن تضم حوالي خمسمائة شخص معظمهم من الفقراء»[1].

ووصفها الشيخ محمد صالح السهروردي، حينما زارها سنة 1941م بقوله « هي متصلة الأشجار والبساتين بالعواشق الصغيرة، كأنهما قرية واحدة، وهذه القرية تربو دورها على الخمسين داراً، فيها دكاكين للباعة ومقاهي، وبعض حواشها[2] أجمل من حواشي القرى المجاورة، بها الرواشن والقبَب العامرة. وأهلها من العرب، منهم دوريون، كبيت صيهود الشلال، ومنهم من تميم، ومنهم أكراد سميرية وعزة.. ونخيل هذه القرية نحو الأربعمائة عشر ألف، وكل بساتينها عامرة، كأنها جنائن، فيها النومي والرمان والعنب وغيره، ولا مسجد فيها.. وتسقى هذه القرية من نهر خريسان». ووصف العواشق الصغيرة بأنها تربو على العشرين داراً، ودورها كلها مبنية بالطوف، وأهلها عرب منهم سوامرة، وهم الأكثرية، ومنهم من بني عِز، ومنهم كُروية وهم الأقلية. وفيها من النخيل نحو الاثني ألف (كذا) نخلة، وليس فيها مسجد ولا جامع.. وفي الخارج بعض تلول تعرف بتل الملاقط وتل يعرف بالنصيصة. وأوقاف القادرية تستوفي العُشر من عموم الحاصلات، وهذه القرية تسقى من نهر خريسان»[3].

وفي الفرمان السلطاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م ما يفيد بأن قرية عواشق، مع عدد من القرى والأنهر « تعطى بالالتزام كلها معاً».

الغالبية

قرية من أعمال ناحية هِبهِب، من نواحي قضاء الخالص. لا يُعرف زمن نشوئها، ولكنها كانت موجودة في القرن الثاني عشر للهجرة، في أقل تقدير، فقد دلّت وقفية عمر آغا بن عبد الله المؤرخة في 15 شعبان سنة 1200هـ/1785م، على وجودها في ذلك التاريخ، فضلاً عن وجود مسجد فيها، ومن المعقول أن إنشاء مسجد في قرية لا يكون إلاّ بعد مدة من نشوئها واتساعها وزيادة السكن فيها، جاء في الوقفية أن هذا الواقف، ويظهر من لقبه (آغا) أنه كان ضابطاً، وقف أرض الكَرد في قرية الغالبية وأشجارها على مسجد القرية.

---

(1) رحلتي إلى العراق، ترجمة سليم طه التكريتي، ج2، بغداد 1968، ص168.

(2) الحوش : الدار.

(3) الجواهر المضيئة، مخطوط.

القاطع

قرية قديمة كانت تعد من أعمال طريق خراسان، لم يبق من آثارها إلاّ اسمها، يحمله هور أو مستنقع هناك، يعرف بركّة (بكاف فارسية، وهي الرقة)، يمتد من شمال قرية خرنابات حتى جنوبي قرية العبّارة، متصلاً من شرقه بنهر خريسان. وحمل هذا المستنقع اسم القرية المذكورة يدل على أنها كانت قريبة منه إلى حد كبير. ونرجح أن تكون ركة القاطع عذا المستنقع نفسه.

ولقد وقفنا على حجة شرعية توضح ظروف تأسيس هذه القرية، مؤرخة في غرة شهر ربيع الأول سنة 929هـ/1522م، فهي ترقى إلى السنة الأخيرة من حكم الصفويين في العراق (المدة الأولى من 914 إلى 930هـ/1508- 1523م)، وكانت بغداد يرمئذ تحت حكم إبراهيم خان، أمير قبيلة موصِلُو الكردية.

وتنص الوثيقة على « أن جناب الصدر المعظم، الماجد المكرم، افتخار الصواحب في العالم، ملاذ المساكين في الأمم، الغني عن الألقاب بعلو الشأن ومزيد الكرم، الواثق بعناية الله السحاب (كذا)، الصدر رضي الدين ابن الصدر شرف الدين الشيباني، زاد الله شأنه قدراً، وأعظم له ثواباً وأجراً، عمد إلى الأرض المعروفة بركة القاطع، والأرض المعروفة بالقاطع، الواقع ذلك كله بطريق خراسان، بين قرية حد مكِّسر، وبين قرية خرناباد، المحدود ذلك كله بشط ديالة، وبأرضين قرية خرناباد المذكورة، وبشط طريق خراسان، وبنهر الشواخير، وبالشريعة البيضاء، وبأرضين قرية حد مكسِر، بعد أن كانت من البايرات الخراب، المعهودتان بسكنى السباع والذئاب، المقفرَة الجوانب، المحفوفة بالمكاره من كل جانب، فغيَّرها بعمارتها كروضة تميس حُسناً، وجعلها بعد الخراب والخلو كقرية غناء، وأجرى المياه في أرجائها وأطرافها، وساق عوامل الحرث في حواشيها وأكنافها.. فصارتا بذلك ملكاً له بالحق ودليله، وحقاً من حقوقه، لقول نبي الله ومصطفاه وخليله « من أحيا أرضاً مواتاً فهي له..»».

ويظهر أن مؤسس القرية هذا كان من طبقة الصدور، وهم ملتزمو الأرض الكبار الذين كانوا يتولون ضمان الأرض الزراعية، مع قيامهم بتولي الإدارة والحكم فيها . ويلاحظ أن هذا الصدر كان من أهل البلاد أنفسهم، لا من الأقوام الغازية التي توالت على العراق في تلك القرون، فهو عربي شيباني، ورث منصبه من والده

الذي كان صدراً أيضاً، وتدل كثرة الألقاب التي أضفيت عليه، على مدى أهميته وعظم منزلته في ذلك العهد.

ولسنا نعلم ما جرى لقرية القاطع هذه بعد إنشائها في مطلع القرن العاشر للهجرة (16م)، ولا في أي عهد اندثرت؛ والذي نرجحه وراثة قرية (العبارة) القريبة من هور القاطع لموقعها، أو أن أهلها هجروها إلى هذه القرية لبعض الأسباب غير المحددة لنا الآن.

القبة

قرية من أعمال بعقوبة، وتعد تابعة لمركز قضائها اليوم. تأخذ مياهها من نهر جلولاء (المعروف حديثاً بنهر خريسان)، سكتت كتب البلدانيات عن الإشارة إليها، على أن سكوتها لا يقف دليلاً على عدم وجودها، ومن المؤكد أن القرية ترقى إلى العصور القديمة، نظراً لاكتشاف عدة (توابيت) لموتى، دفنوا على الطريقة التي كانت شائعة في العصر الفرثي، أي إلى الثلاثة قرون الأخيرة قبل الميلاد، والقرنين التاليين بعده. وأقدم اشارة تاريخية عثرنا عليها، تحمل اسم (القبة) وردت في ضمن حوادث غزو تيمورلنك بغداد سنة 795هـ/1383م، حيث ذكر المؤرخ غياث الدين بن حميد في كتابه المسمى (حبيب السير)[1] أن تيمور حينما وصل مزار الشيخ يحيى المسمى بقبة إبراهيم، أرسل أهل القبة إلى بغداد كتاباً في جنح حمامة يحذرون فيها أهلها من هذا الطاغية. ويكشف الخبر عن بعض المواقع التي ارتبط بها تاريخ القبة في ذلك العهد، مثل مزار الشيخ يحيى، ولا يعلم الناس، وحتى المعمرون منهم، شيئاً عن يحيى هذا، أو مزاره، فالظاهر أنه اندثر منذ عهد بعيد. أما إبراهيم المذكور فأغلب الظن أنه صاحب القبر القريب من القبة، والمشهور لدى أهل تلك النواحي بأنه إبراهيم بن أدهم، ولعلهم يعنون بذلك الزاهد المجاهد إبراهيم بن أدهم التميمي البلخي المتوفى سنة 164هـ/778م، ومن الثابت تاريخياً أن وفاة الأخير كانت في بعض حصون الجزيرة على حدود أرض الروم، فلعله إذن قبر أحد الصالحين ممن عفت أخبارهم، ولكنهم ظلوا يفوزون بتقدير الناس واحترامهم. وقد وجدنا أن اسم القبة يأتي مطلقاً، أي دون نسبتها إلى أحد، في

---

(1) اقتباساً من عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج3 ص206.

أحداث سنة 801هـ/1398م، إذ كانت يومذاك إقطاعاً أقطعه حاكم بغداد السلطان أحمد الجلائري إلى بعض أتباعه المقربين.

وأول إشارة إلى قرية القبة في الوثائق الوقفية وردت في وقفية السيد الشيخ زين الدين القادري المؤرخة في سنة 978هـ/1570م، حيث نقرأ أن من حدود قرية أبي صيدا، قرية القبة. وتعين الوقفية مواضع القرى والنواحي القريبة منها بوضوح، إذ جاء فيها في تحديد « الرقاقات الواقعة في أراضي قرية أبي صيدا من أعمال ناحية خراسان»، قرية الزهيرات، وشط ديالى، وقرية القبة، وشط جلولاء. ووقفها عبد الله بك بن شاوي بك على ذريته، بموجب وقفيته المؤرخة في 15 جمادى الأولى سنة 1172هـ/1758م، حيث جاء فيها أن مما وقفه « أرض القبة الواقعة في طريق زنكباد».

وتشير دعوى السيد علي القادري المتضمنة في الفرمان العثماني الصادر في أوائل جمادى الآخرة سنة 1260هـ/1844م إلى (نهر قبة) بوصفها من حدود نهر خرابة المعروف بنهر الشيخ، وإلى (أراضي القبة) .

قره دبَّة (قره تبة)

قرية قديمة تقع على تل أثري يرقى إلى عصر العبيد (6000- 4000 ق.م) يعني اسمها (التل السود)، ولم تشر إليها المصادر الإسلامية، وأول إشارة لها وقفنا عليها في الوثائق، تشير إلى أن والي بغداد عمر باشا وقفها على تدريس العلم في قصبة كركوك من أعمال إيالة شهرزور في 21 شوال 1077.

ووقف درويش أحمد بن الملا حسين بن غيب الله، من أهالي قرية قره دبة، الطاحونة المعروفة باسم طاحونة حسن إبراهيم على نهر كشكه ويل، المحدودة من جهة بطاحونة قطب الدين، ومن جهة علي يوسف، ومن جهة بطاحونة حسن أدينه، ومن جهة بالجبل. وكذلك البستان الواقعة في قرية قره دبَّة المحدود من جهة بنهر بلاوي، ومنه ومن خلف التكية لحد طريق كشكه ويل، ومن جهة بأرض الملا عبد الله الصالحي، ومنها لحد طريق كشكه ويل، ومن جهة بطريق طواحين قره دبة، وكذلك جميع عقر قره دبة، المحدود من جهة بنهر سيد لان، ولحين الوصول إلى نهر جيزان، ومن جهة من الطاحونة العليا، ومنها إلى موضع ابن الكردي، ومنه لحد الوصول إلى بالنز آغاج، ومنها إلى ماء نارين، وإلى الشاخة

الرئيسة، ولحد الوصول إلى بركية، ومنها إلى جهتي دربركنك»، على ذريته، بموجب الوقفية المؤرخة في 29 ربيع الآخر سنة 1160هـ/1747م .

ووقف عبد الرزاق بن درويش أحمد بن حسين أفندي على ذريته حصص من رحى الماء المسماة (رحاة جمعة كَهيَه) على نهر الكشكول من توابع قره تبة، و(رحاة حسن إبراهيم) الواقعة على نهر كشكول أيضاً، وحصص من مجموع عقر الأرض الواقعة في أراضي قره تبة على نهر قره تبه، ومجموع البستان الواقعة في قرية قره تبه، مع أرض الزرع الراجع لها، المحدودة بالحدود الأربعة، فالحد الأول نهر خلاوي، والحد الثاني من وراء التكية الراجعة إلى أرض الأدهم إلى درب كشكول، والحد الثالث من قبة ملا عبد الله الصالحي إلى درب كشكول، والحد الرابع مع طول الرحى، ونهر الكبير المسمى نهر قره تبة، إلى مقبرة الطاعون إلى الجسر، بموجب وقفيته المؤرخة في 10 ربيع الأول سنة 1195هـ/1780م .

ووقفت خجّة خان بنت أحمد آغا قفطان آغاسي بن عبد الله، الرحى الواقعة في قره تبة المشهورة على ذريتها في 7 شوال 1309هـ.

وهي تابعة لقضاء كفري، من أقضية ديالى، وكانت سابقاً ملحقة بمحافظة كركوك.

قزانية

قرية من أعمال مندلي، أشير إليها في الإعلام الشرعي المؤرخ في 20 رجب سنة 1187هـ/1773م، حيث جاء فيه أن أحمد جلبي بن محمد الجلبي الوكيل عن أحمد أفندي بن محمد آغا الكاتب لدى والي بغداد والبصرة عمر باشا، والمتولي على أوقاف حضرة الإمام الأعظم، أقام الدعوى على إبراهيم بن عبد الله الوصي على تركة سفر بن علي الساكن في قرية قزانية بمندليجين بأن المتوفى المذكور كان قد وقف البستان المعروف ببستان النائب الواقع في القرية المذكورة، المحدد من جهة بنهر جلالي، وبستان حليمة الواقع في القرية المذكورة، المحدودة من بعض الجهات بملك السلحدار محمود آغا، ومن جهة بملك مكية، وبستان حسين شيمة، المحدود من جهة بنهر ماديان، وقفها المتوفى لمصاريف الإمام الأعظم، وقد نم الحكم بإنفاذ الحكم وتسجيله.

وفي وقفية صادق بك بن سليمان باشا المؤرخة في غرة جمادى الآخرة سنة 1233هـ/1871م نقرأ أن مما وقفه على ذريته « بستان عبد الهادي في قزانية التابعة لناحية مندليجين، ونهر دقلستان من أنهار القرية المذكورة».

وكان مما وقفته فاطمة خاتون بنت عبد الله، في وقفيتها المؤرخة في ربيع الآخر سنة 1246هـ/1830م «بستان في قرية قزانية، محدود بنهر ماربان، وببستان إبراهيم بن كاظم، ومن جهة ببستان أحمد بن بارولي، ومن جهتين بأرض المزرعة».

وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في 2 ربيع الثاني سنة 1249هـ/1833م نقرأ أن أموش بنت ميرزا بن كرم، من سكنة قزانية، ومن تبعة الدولة العلية، ادّعت أن أخويها فتح الله وسعد الله ابني مرزا بن كرم بن محب بن يغمور، من سكنة القرية المذكورة، قد وضعا اليد على بستان ميرزا كرم الواقعة في قرية قزانية، المحدودة أولاً بجاي كنكر، وثانياً بملك جاسم بن محمد قره، وثالثاً بملك أوسطه يوسف بن عبد الله، ورابعاً بالطريق العام، وإزاء هذا ادعى خصماها أن البستان المذكور وقفه جدهم يغمور بن محب بن أحمد قبل نحو ستين سنة على أولاده الذكور دون الإناث، وبعد سماع الشهود، حكمت المحكمة بصحة وقف البستان على الذكور دون الإناث.

قِزل رَباط

يعني اسمها الرباط الأحمر، وهو رباط جلولاء الذي أنشأه السلطان ملكشاه السلجوقي في القرن الخامس للهجرة في أرض جلولاء. وفي سجلات الأراضي التي أعدت في أول عهد الدولة العثمانية في العراق (دفتر 1028 ص405) أن من أوقاف المدرسة المرجانية ببغداد « مالكانة قرية قزلرباط».

وقد وقف عبد الرزاق بن درويش أحمد بن حسين أفندي على ذريته داراً «في قرية قزرباط من ملحقات بغداد»، بموجب وقفيته المؤرخة في غرة ربيع الأول سنة 1195هـ/1780م .

ووقف كيخسرو بيك بن محمود باشا الجاف الساكن في قزلرباط ثلاثة أرباع الحديقة الكائنة في قزلرباط الواقعة على جادة خانقين وثلاثة أرباع الحديقة الكائنة في القصبة المذكورة الواقعة على جادة شهربان «على فقراء المسلمين، بموجب وقفيته المؤرخة في 4 شوال سنة 1338هـ/1919م، وصادق على الوقفية مصطفى بن الشيخ محمود أفندي القره داغي القاضي بقزلرباط.

قصيبة

نوهت دفاتر الأراضي العثمانية المعدة في أوائل عهد الدولة العثمانية في العراق،

(دفتر 1028) بمزرعة هور قصيبة، ولم تشر إلى القرية نفسها. وأول إشارة إليها بهذه الصفة وردت في وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م بوصفها «من أعمال خراسان». وحددت الوقفية حدودها بتفصيل، إذ ذكرت أنه وقف «جميع الأراضي والمزارع الواقعة في قرية قصيبة من أعمال ناحية خراسان، المحدودة بحدود أربعة: الحد الأول أراضي حد مزيِد، والحد الثاني حد بُوزَجة، والحد الثالث تل كرستل، الواقع على طريق شهربان، والحد الرابع خراسان، بجميع حدودها وكافة حقوقها وتوابعها ولواحقها وأراضيها وأهوارها وأنهارها .. الخ».

قوصري

من غير المحدد تاريخ نشوئها، وأشير إليها أول مرة حين وقف السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م «جميع أراضي ومزارع قرية قوصرى التابعة إلى جلولاء من أعمال ناحية خراسان، المحدودة بحدود أربع، الحد الأول نهر غيبة، والحد الثاني نهر الجديدة، والحد الثالث الهورة الواقعة بين نهر غيبة ونهر الجديدة، والحد الرابع خراسان». وسمتها سجلات الأراضي التي وضعت في أوائل عهد الدولة العثمانية في العراق، إبان القرن العاشر للهجرة (16م) باسم (قصارى)، وعدتها من أوقاف السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني (دفتر 1028). وهكذا هي وردت في الفرمان الذي حصل عليه السيد علي القادري نقيب الأشراف من السلطان محمود الثاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م، إذ جاء فيه أن هذه القرية، من القرى التي «كانت مقيدة وقفاً باسم زين الدين القادري وتوابعه تحت المحل المدرج فيه أوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره العزيز، الكائنة في سنجاق العمادية، وفي ناحية بغداد، في الدفتر العتيق».

كُبية

أشير إليها في وقفية الحاج علي أفندي بن مراد أفندي على جامعه ببغداد، المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/1720م. حيث جاء فيها أنه وقف 200 نخلة «في قرية كُبية من أعمال مهرور (مهرود)، ونصف أنهار مزارع القرية المذكورة، ونصف بستان التوت في قرية الكبية، وبستان في نهر مختارية من القرية المذكورة».

كَدري، أبو كَدرة

هي باقدرا، القرية المعروفة من قرى النهروان في العهود العربية الإسلامية،

ذكرها ياقوت بقوله «بفتح القاف وسكون الدال وراء مقصورة، من قرية بغداد من نواحي طريق خراسان»، وقد خرَّجت هذه القرية عدداً من الأعلام نسبوا إليها، فقيل لأحدهم: الباقدرائي، وبهذه النسبة نوهت بهم كتب الأنساب. ولقد أناخ الزمن بهذه القرية حتى تحولت آثارها إلى تل عرف في القرون المتأخرة بأبو كدرة. وفي وقفية السيد زين الدين القادري المؤرخة في سنة 978هـ/1570م إشارة إلى «شريعة كدري من شرائع ديالى»، بوصفها من حدود أرض واسعة وقفها هذا الواقف على ذريته.

ولا يعلم على وجه التحديد تاريخ نشوء قرية أبو كدرة الحديثة، عند الركام المندثر لباقدرا القديمة، وهي اليوم قرية مزدهرة، تبعد بنحو تسعة كيلومترات جنوبي مدينة بعقوبة، شرقي بهرز، يسقيها جدول يتفرع من نهر خريسان.

مجدد

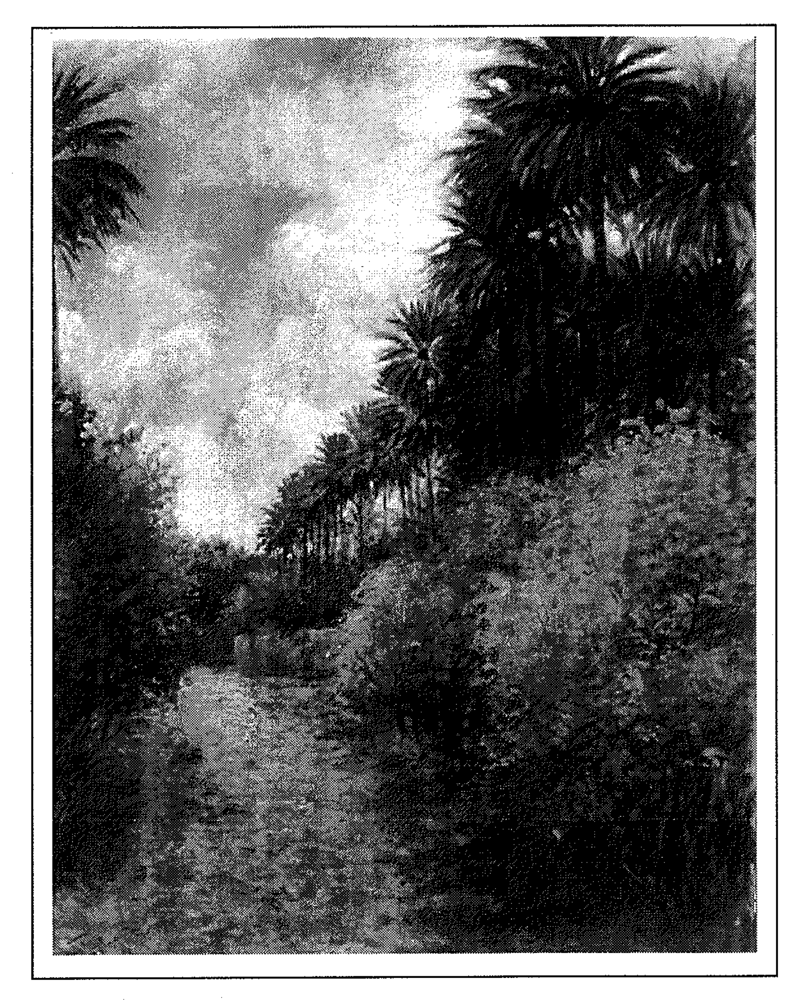
قرية أشير إليها في وقفية حسين بن عبد الله الغرابي المؤرخة في 2 محرم سنة 1110هـ/1698م، إذ ورد فيها أنه وقف « ثلثي قرية مجدد من أعمال الخالص» على التكية والمدرسة التي أنشأهما في بغداد.

مهروت(مهرود)

قرية من نواحي مركز قضاء مركز بعقوبة، عرفت قديماً باسم (مهروز) وبهذا الاسم نوهت بها مصادر الفتح الإسلامي، وأشير إليها في وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م بوصفها « ناحية» تتبعها بعض القرى، منها أبو جسره. وفي دفاتر الأراضي المعدة في القرن العاشر للهجرة (16م) إشارة بلوك مهرود، وأن من توابع هذا البلوك قرية تاجية[1]. وهذا يعني أنها كانت مركزاً لفوج من الجنود الإنكشارية أنيطت به حماية ما يتبعها من القرى، ونوه بها في وقفية الحاج علي أفندي بن مراد أفندي على جامعه ببغداد، المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/1720م، بوصفها من حدود بساتين كان قد وقفها الواقف المذكور.

---

(1) دفتر 1028، الورقة 74



طريق في بساتين المقدادية للفنان منير العبيدي

المَخِيسة

قرية زراعية ظاهرة القدم، تقع بين نهري ديالى وجلولاء (خريسان)، تعلو قرية أبي كرمة بقليل، وتجاور هور أبي صيدا الكبير من أسفله. وتسقيها ومزارعها الغُن أنهار خمسة، تأخذ مياهها جميعاً من نهر جلولاء القريب، هي نهر المخيسة، ونهر الصَيفي، ونهر الجديد، ونهر جاسم، ونهر أبي سوسة، وبعض هذه الأنهار قديم هو أيضاً، ربما يرقى زمن شقه إلى عهود القرية الأولى.

وأول نص يسجل وجود قرية المخيسة باسمها هذا، هو وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ/1570م، ويظهر أن هذا الاسم هو آخر ما سميت به

من أسماء، لأنه يفهم من الوقفية نفسها، أنه كان للقرية اسم سابق، هو (بَدنية)، حيث جاء فيها ما نصه « ويتم الحد إلى أراضي البدنية وتعرف بالمخيسة، بجميع حدودها وكافة حقوقها». وقد أشارت الوقفية أيضاً إلى (رقة المخيسة) بوصفها من حدود أراضي قرية أبي صيدة.

وأشير إلى نهر بدنية في وقفية الحاج علي أفندي بن مراد أفندي على جامعه ببغداد، المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/1720م، بوصفه أرضاً لبساتين « في الطرف المقابل من نهر مهرور(مهرود)».

وفي 9 رمضان سنة 1258هـ/1842م استصدر السيد علي القادري، نقيب الأشراف ببغداد، أمراً من والي بغداد نجيب باشا، يفيد أن أرض المخيسة من الأراضي الموقوفة على جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وزاويته.

وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في ربيع الأول سنة 1260هـ/1845م إشارة إلى « قرية المخيسة المحدودة أولاً بأرض أبو كرمة، وثانياً بأرض العلوان، وثالثاً بأرض الدائر، ورابعاً بديالى، والحدود الثلاثة من أوقاف حضرة الشيخ قدس سره أيضاً».

وفي الفرمان المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م، إشارة إلى قرية المخيسة بوصفها «التابعة لناحية خراسان»، وأنها وقريتي جلبي، وأبو صيدا، « هي تلك القرى المعروفة باسم الوقف الكبير والقريبة من مقاطعة خراسان التابعة المجموعة من أوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني».

المصمودة

قرية قريبة من هبهب، أشير اليها في وقفت عائشة خاتون بنت محمود أفندي بن محمد أفندي آل نظمي، من سكنة محلة الصفافير في بغداد، حيث جاء فيها أنها وقفت «أرض القرية المعروفة باسم قرية هِبهِب، المحدودة من جهة بقرية نهر قصبة، ومن جهة بقرية إمام قزانية، ومن جهة بقرية نعمانية، ومن جهة بقرية مصمودة، وكذلك نصف مزرعة نقرة الواقعة باتصال قرية هبهب»، على المتولي الذي اختارته، وآخرين، بموجب وقفيتها المؤرخة في 6 جمادى الآخرة سنة 1177هـ/ 1763م.

المنصورة

وردت أول أشارة إلى هذه القرية في وقفية السيد زين الدين القادري سنة 978هـ

/1570م بوصفها من حدود قرية الرازقيات من أعمال خراسان. وحدد السيد علي القادري نهر المنصورة في دعوى رفعها بأنه « محدود من جهة بنهر جاناره، ومن الجهة الثانية بنهر باب الدرب، أما الجهتين الباقيتين فمحددين بلجمة وجاووش من الأوقاف القادرية». وقد أقر الفرمان العثماني الصادر في أوائل جمادى الآخرة من ذلك العام التحديد المذكور[1].

المنصورية

قرية كانت تعد من توابع ناحية طريق خراسان، أشير إليها في وقفية السيد زين الدين المذكورة، إذ جاء فيها « من الأملاك التي ما هو حقه وملكه بلا مانع، وفي يده وتصرفه بلا منازع، وذلك ثلثا جميع الأراضي والمزارع الواقعة في قرية المنصورية من ناحية أعمال خراسان، المحدودة بحدود أربعة: الحد الأول نهر الدرب، والحد الثاني أراضي قرية الرازقيات، والحد الثالث والرابع أراضي خراسان، بجميع حدودهم وكافة حقوقهم..الخ». وثبتت دفاتر الأراضي العثمانية، من القرن العاشر للهجرة، هذا الواقع، فأشارت إلى « قرية منصورية التابعة لبوك طريق خراسان».

وفي 9 رمضان سنة 1258هـ/1842م استصدر السيد علي القادري، نقيب الأشراف ببغداد، أمراً من والي بغداد نجيب باشا، يفيد أن أرض المنصورية من الأراضي التي غلتها مشروطة وموظفة لمصالح جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني وزاويته التي يطعم فيها الطعام إلى الفقراء. وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في ربيع الأول سنة 1260هـ/1845م إشارة إلى حدود المنصورية، إذ جاء فيه أنها محدودة « أولاً بنهر الخانات، وثانياً بنهر باب الدرب، وثالثاً بنهر الشيخ الذي هو من أوقاف الشيخ قدس سره، ورابعاً بنهر الأحيمر والجاووش التي هي من أوقاف الشيخ قدس سره». وتسمي الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف القادرية، المؤرخة في سنة 1260هـ أيضاً، هذه الأرض بـ(منصورية البستان).

نعمانية

قرية قرب قرية هبهب، وردت الإشارة إليها في وقفية عائشة خاتون بنت محمود أفندي بن محمد أفندي آل نظمي، المؤرخة في 6 جمادى الآخرة سنة 1177هـ/ .1763م بوصفها من حدودها.

---

(1) فرمان مسجل في المحكمة الشرعية، سجل 1، عدد 16..

نهر الشيخ

أشير إلى نهر الشيخ في وقفية السيد زين الدين القادري المؤرخة في 978هـ/1570م، بوصفه أرضاً ومزارع، محدودة بحدود أربعة: الحد الأول شاخة العزّية، والحد الثاني أراضي قرية بَرقنية، والحد الثالث نهر مقري، والحد الرابع البساتين الواقعة في أراضي شاخة العزية». ولم تشر الوقفية إلى وجود قرية بهذا الاسم في ذلك التاريخ. وفي الإعلام الشرعي المؤرخ في ربيع الأول سنة 1260هـ/1844م إشارة إلى نهر الشيخ بوصفه من حدود أرض المنصورية، وأنه من أوقاف الشيخ عبد القادر الكيلاني. وفصّل السيد علي القادري في دعواه المؤرخة في سنة 1260هـ/1844م حدود نهر الشيخ، وسماه أيضاً (نهر خرابة المعروف بنهر الشيخ)، وقال أنه « محدود من جهة بنهر خراسان، ومن جهة أخرى بنهر قبة، وأما الجهتين الباقيتين منه فبأراضي القبة والرحبة من الأوقاف القادرية».

وبرز اسم نهر الشيخ بوصفه قرية عامرة في الوقفيات المتأخرة، ففي وقفية آسية خاتون بنت السيد علي أفندي القادري، المؤرخة في 3 جمادى الأولى 1317هـ/1899م ، أنها وقفت على بعض ذوي قرباها « البستان المسماة بباغجة صالح الكرخي الواقعة في قرية نهر الشيخ، من أوقاف حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني».

هِبهِب

وقفت عائشة خاتون بنت محمود أفندي بن محمد أفندي آل نظمي، من سكنة محلة الصفافير في بغداد «أرض القرية المعروفة باسم قرية هِبهِب، المحدودة من جهة بقرية نهر قصبة، ومن جهة بقرية إمام قزانية، ومن جهة بقرية نعمانية، ومن جهة بقرية مصمودة، وكذلك نصف مزرعة نقرة الواقعة باتصال قرية هبهب»، على المتولي الذي اختارته، وآخرين، بموجب وقفيتها المؤرخة في 6 جمادى الآخرة سنة 1177هـ/ .1763م

ووقفت بموجب وقفيتها المؤرخة في 24 شعبان من السنة نفسها « الحديقة الواقعة في قرية هبهب، التابعة لناحية الخالص، المحدودة من جهة بحديقة خضر كهية والبصراوي، ومن جهة بعضاً بدور أهالي قرية هبهب، وبعضاً بحديقة محمد آغا، ومن جهة بساقية الشّحنة، ومن جهة بالمسجد الشريف». على أن يصرف

الربع من الغلة على ترميم المسجد الذي بنته الواقفة في قرية هبهب، بموجب وقفيتها المؤرخة في 24 شعبان سنة 1177هـ/1763م .

ووقف أحمد وعلي بن كيكي، وهو من أهالي هبهب، بستان محمود كيكي في قرية هبهب، على « روح حضرة المرحوم أحمد باشا بن حسن باشا»، بموجب الوقفية المؤرخة في 11 شوال سنة 1181هـ/1767م .

ووقف الشيخ عبد الرزاق بن الشيخ إسماعيل، في النصف من رجب سنة 1251هـ/1835م « خمسة بساتين في قرية هبهب بناحية الخالص، محدودة من جهة ببساتين ويس الخضري والملة إسماعيل، ومن جهة دار رجب وعجاج، ومن جهة دور أسعد أفندي ومعروف، ومن جهة الطريق العام»، على فقراء الرسول صلى الله عليه وسلم.

ووقف علي باشا القائممقام ببغداد نصف حصته من البساتين الخمس الواقعة في قرية هبهب، المحدودة من جهة ببستان ويس الخضر، ومن جهة ببستان الملا إسماعيل، ومن جهة ببستان أبواق(كذا) وعجاج، ومن جهة بدور رجب والحاج محمد أسعد أفندي ومعروف، ومن جهة بالطريق العام، على جامع حسين باشا في بغداد، وذلك بموجب وقفيته المؤرخة في منتصف رجب سنة 1251هـ/1835م .

ووقفت عائشة خانم بنت درويش أفندي الحيدري « البستان الشهيرة بالدرويشية الواقعة في قرية هبهب» و « ستة أسهم من اعتبار 16 سهماً من البستان الشهيرة بخليل الجواد الواقعة في قرية هبهب» على سبيل الخير والمبرات، ثم على فقراء الأعظمية، بموجب وقفيتيها المؤرختين في 28 رجب سنة 1338هـ/1919م .

هور

قرية، أشير إليها في الفرمان المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1245م بأن قرية هور، مع عدد من القرى والأنهر« تعطى بالالتزام كلها معاً».

الهُويدِر

قرية من أعمال بعقوبة، وتعد اليوم تابعة إلى مركز قضائها، ووردت الإشارة إليها في وقفية الحاج إبراهيم بن داود المؤرخة في رمضان سنة 1133هـ/1720م إذ

ورد فيها أنه وقف «عَرَصة البقاج في قرية الهويدر» وبستان « أم العنب» ودار فيها أيضاً، على ذريته. ووقفت كلثوم بنت مصطفى بن محمد أفندي حصصاً مختلفة في بستان الدولاب الواقع بين هويدر وبعقوبة، وأراض أخرى مجاورة، بموجب وقفيتها المؤرخة في رجب سنة 1176هـ/1762م.

ووقف محمد آغا (سلحشور الخاصة من الدرجة الثانية لرئيس الفرسان) « البستانين في قرية الهويدر بناحية خراسان، المحدودين من جهة بنهر القرية، ومن جهة بملك كاظم، ومن جهة بملك جواد حمد، ومن جهة بملك الحاج مراد».

ووقف الحاج علي القراغولي بن الحاج ياسين على ذريته، بَقجَتَين في قرية الهويدر، بموجب وقفيته المؤرخة في 25 ذي القعدة 1223هـ/1808م .

ووقفت نائلة خاتون بنت عبد الله، زوجة علي بك محمد باشا زاده « ثلاثة أرباع من (البستان) الواقعة في قرية هُويدر من ناحية خراسان، وثلاثة أرباع البستان المسماة بباغجة، وثلاثة أرباع من بستان الصدر، على حسن بك نجل صالح بك عبد الرحمن باشا زاده، وعلى أولاده، وآخرين، ثم على مصالح جامع العادلية في بغداد، بموجب وقفيته المؤرخة في 21 ذي القعدة سنة 1226هـ/ 1811م .

ووقفت الحاجة نائلة خاتون بنت عبد الرحيم آغا، على مدرستها ببغداد، وأعمال بر أخرى « بستان أم الحيوه في قرية هويدر من قرى قضاء خراسان، وبستان أم التوث وبستان محبس وبستان أم التمر في القرية المذكورة، وهي أرض أميرية تملك منها حصصاً شائعة تبلغ ثلاثة أرباع من النخيل وسائر الأشجار»، وذلك في وقفيتها المؤرخة في 16 ذي الحجة 1291هـ/1874م .

ونقرأ في الإعلام الشرعي الخاص بوقف والي بغداد داود باشا، المؤرخ في 29 شعبان سنة 1304هـ/1886م أن العَرَصة الخالية الواقعة في قرية هُويدر الشهيرة باسم كرم وسعد، والتي كانت مشاعة ومشتركة بين ورثة عبد الغني آل جميل، والتي أفرزت وقُسِّمت فيما بعد، هي من مستغلات وقف داود باشا، إلاّ أنها آلت إلى الخراب، ونظراً لرغبة خضر آغا بن الحاج محمد صالح بن عباس في مغارستها، ولأن هذه المغارسة في صالح الوقف، فقد أعطيت هذه الأرض إليه، لمدة واحد وعشرين سنة، على أن يعطي ثلاثة أسهم من ثمارها من أصل خمسة سهام لجانب الوقف.

وفي وقفية زمزم خاتون بنت السيد علي القادري نقيب الأشراف ببغداد، المؤرخة في 21 جمادى الأولى سنة 1320هـ/1902م، أن مما وقفت على أسرتها، سهاماً لها في بستان صفر في قرية الهويدر، وأخرى في بستان المحطب في الهويدر أيضاً.

وتكشف وقفية الحاج صالح بن حسن بن عبد الله الخياط، من سكنة محلة الطوب ببغداد، المؤرخة في 23 رمضان 1331هـ/1912م عن صور من انتقال ملكية بعض البساتين في الهويدر، ففيها أنه وقف، على أوجه الخير وعلى ذريته، الحصة الشائعة في بستان مزرع الكائن في قرية هويدر إلى عزيز، واليوم إلى عبد الرحمن أفندي آل جميل، وشمالاً بستاني وبادي وكرم العائدين إلى وقف الهمايون، وجنوباً بالبستان العائد سابقاً إلى عمر آغا، وحالياً إلى عبد اللطيف جلبي، وبشكاكة يوسف آغا، وغرباً بمجمع الماء؛ والبستان الواقع في القرية المذكورة، المحدد شرقاً ببستان أحمد بن حسن وشمالاً ببستان نمسة لي العائد إلى أوقاف الهمايون، وجنوباً بالطريق العام.

وَيسية

وقفت الحاجة سكينة خاتون بنت الحاج محمد آغا أسهم لها في (ويسية) على المدرسة و(السقا خانه) اللين أنشأتهما في بغداد، بموجب وقفيتها المؤرخة في 5 ربيع الآخر سنة 1140هـ/1727م.

الوند

قرية كانت تعد من أعمال الخالص، وتعد اليوم تابعة لمركز قضاء الخالص، سكتت عن ذكرها مصادر التاريخ، وأشير إليها في وقفية حسين بن عبد الله الغرابي المؤرخة في 2 محرم سنة 1110هـ/1698م، إذ ورد فيها أنه وقف « ثلث قرية الوند» على التكية والمدرسة التي أنشأهما في بغداد. ويطلق اسم الوندية اليوم على قريتين، هما الوندية الكبيرة والوندية الصغيرة.

وجيهية

قرية كانت تعد من أعمال ناحية مهروت (مهرود)، وتعد الآن من أعمال شهربان (المقدادية)، لم تشر إليها المصادر التاريخية، وأول ذكر لها ورد في دفاتر

الأراضي العثمانية المعدة في القرن العاشر للهجرة (16م)، حيث تسميها (قرية الحاج وجيه)، وهي تذكر رسوماً على حاصلاتها (دفتر 1028، الورقة 390). ويفيد الفرمان السلطاني، المؤرخ في أوائل جمادى الآخرة سنة 1261هـ/1845م أن أصلها خاناً قديماً يعرف بخان الحاج وجيه، والظاهر أنه كان أحد أعلام المنطقة، فنسب إليه، ثم نشأت عنده القرية التي سميت بالوجيهية. ويوضح الفرمان أن الرسوم المستحصلة من أرض هذا الخان كانت تبلغ جميعاً 2784 آقجة، وأن « مالكانة القرية نفسها المدونة تحت تعبير نفرات مع قرية باجسرا وحاصلها التابعة لناحية مهروت» هي جميعاً في تصرف أولاد الشيخ عبد القادر، وفيها سهم أولاد الشيخ شرف الدين والشيخ محمد علي والشيخ علاء الدين «وفقاً للدفتر العتيق».

وقد وقفها الحاج علي أفندي بن مراد أفندي على جامعه ببغداد، كما وقف « ربع نهري أبو طبول وأبو عرابيد في القرية المذكورة» بموجب وقفيته المؤرخة في 8 جمادى الأولى سنة 1133هـ/ 1720م .

وفي 11 رجب سنة 1339هـ/ 1920م ادعى علاء الدين أفندي بن عبد الوهاب أفندي الوكيل عن عبد ملا عبد الرحمن بن أحمد بن هاشم من أهالي قرية الوجيهية، على دائرة الأوقاف، أن جد موكله الأعلى الحاج عليوي بن الحاج عبد القادر قد أنشأ مسجد الوجيهية في قرية الوجيهية قبل أربعمائة سنة تقريباً، وأوقف عليه مزرع نهرين، النهر الأول المسمى نهر المؤذن، المحدود أولاً بأراضي نهر كلواز، وثانياً بشاخة مهروت، وثالثاً بأراضي البدنية، ورابعة بهور الشيخ سعيد، والنهر الثاني المسمى بنهر الجامع الواقع في القرية المذكورة المحدودة أولاً بشاخة مهروت، وثانياً بهور بَرْكنية، وثالثاً بنهر القرية وباغاتها، ورابعاً بنهر أبو عرابيد، وبعد الترافع حكمت المحكمة برفع يد الأوقاف عن ذلك وتسليمها إلى عبد الرحمن بن أحمد المذكور.

سامراء في القرون المتأخرة

بدأ اضمحلال سامراء وخرابها بعد أن غادرتها الخلافة العباسية في القرن الثالث للهجرة مباشرة. يقول ابن حوقل، وهو من أهل القرن التالي: «ومدينة سُرَّ من رأى في وقتنا هذا مختلة، وأعمالها وضياعها مضمحلة، قد تجمع أهل كل ناحية منها إلى مكان لهم فيه مسجد جامع وحاكم وناظر في أمورهم، وصاحب معونة يصرفهم في مصالحهم»، وكتب مُعلّق غير معروف بعد هذه العبارة قوله: «وهي الآن خراب أهلها»[1].

وقال ياقوت الحموي: «فخربت حتى لم يبقَ منها إلا موضع المشهد.. ومحلة بعيدة منها يقال لها: كرخ سامراء، وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها..»، ونقل عن الحسن المهلبي قوله: إن الموضع المأهول من خرائب المدينة القديمة: مقدار يسير في وسطها»[2].

وقال ابن جبير في رحلته سنة 578هـ/1182م: «هي اليوم عبرة لمن رأى.. مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها، إلاّ بعض الجهات منها هي اليوم معمورة»[3].

وحينما وصلت جحافل المغول إلى منطقة دجيل في محرم سنة 656هـ/كانون الثاني 1258م، كانت سامراء المعدودة ضمن هذه المنطقة، قد أصبحت مجرد قرية، أو بلدة عادية، بين مئات القرى والبلدات التي تقاربها، بل تزيد عليها سعة وكثافة في السكن.

وقد وصف الرحالة ابن بطوطة ما آل إليه أمرها عند مروره بها سنة 727هـ/1327م، بأنها: «استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبقَ منها إلا القليل»[4].

وبزوال مراكز المدينة القديمة ومعالمها المهمة، ظهر مركز جديد يستقطب حوله من تبقى من أهلها، هو الموضع الذي دفن فيه الإمامان علي الهادي بن محمد الجواد (المتوفى سنة 254هـ/868م)، وابنه الحسن العسكري (المتوفى سنة 260هـ/872م)، بينما خلت المدينة القديمة من أي مظهر من مظاهر الحياة والعمارة.

(1) صورة الأرض ص218.

(2) معجم البلدان ج3 ص177.

(3) رحلة ابن جبير، بغداد 1930، ص185.

(4) تحفة النظار في غرائب الأمصار، القاهرة 1928، ج1 ص147.

وتفيد النصوص التاريخية التي وصلتنا من القرن الثامن، أن اسم سامراء لم يعد علَمًا على أي وحدة إدارية، أو منطقة زراعية، وإنما توزع إقليمها بين وحدتين، أولاهما (دُجَيل،) ومركزها بلدة (أوانا)، والأخرى (حَربى)، وتقع في أعلى دجيل بين بغداد وتكريت[1]، وما لبثت الوحدتان أن أدمجتا تحت اسم واحد، هو دُجَيل، فكانت سامراء واحدة من قرى هذا التكوين.

التطور العمراني:

وكان وجود أضرحة الأئمة، حيث عرف مكانها بالمشهد العسكري، سبباً في إيلاء البلدة شيئاً من الاهتمام في فترات متباعدة، إلا أن هذا الاهتمام ظل مقصوراً على تعمير المشهد نفسه كلما أصابه الوهن، أو الزيادة فيه أحياناً، ففي سنة 750هـ/ 1349م كان حاكم العراق الشيخ حسن الكبير الجلائري قد أمر بإجراء إصلاحات واسعة في المشهد، شملت تزيين الضريح، وتشييد قبة فيه، ومآذن، وإنشاء بهو، أو رواق، أمام المشهد، ونقل المقابر التي كانت ظاهرة في صحنه إلى الصحراء في خارجه[2].

بيد أنه لم يمضِ إلا أقل من نصف قرن على هذا التعمير، حتى غزت العراق جيوش تيمور لنك، لتدمر آخر ما تبقى من حضارة المدن العراقية ومعالمها، فكانت سامراء واحدة من البلدان التي تعرضت إلى أعماله التخريبية؛ ففي رواية متأخرة ساقها مؤرخ عراقي من أهل القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد): «أن آثار غدر تيمور ما زالت ماثلة للعيان في سامراء»[3]، وهي إشارة مهمة؛ لأنها تدل على فداحة ما ألحقه فيها هذا المحتل من خراب ودمار، ونحن نعلم أن تيمور كان يستهدف في أعماله العسكرية تدمير المدن التي يبدي أهلها المقاومة والكفاح بالدرجة الأولى، فما هي طبيعة ما أبداه أهل هذه البلدة الصغيرة من ضروب المقاومة يا ترى حتى استحقوا عليه هذا المصير؟ ذلك ما طوته صحائف النسيان، وسكتت عنه مصادر العصر، ومن المعروف أن تيمور دمر مدينة تكريت القريبة تدميراً هائلاً ظلت آثاره مرئية، شاهدة على قسوته لعدة قرون من بعده، وذلك في

(1) ينظر نوري عبدالحميد العاني: العراق في العهد الجلائري، بغداد 1986، ص220.

(2) انفرد الشيخ محمد السماوي (1877 – 1950) بوصف هذا التعمير في منظومته المطولة المعنونة: (وشايح السراء في شأن سامراء)، النجف 1941، ص31.

(3) مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا، ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس، بغداد 1975.

أوائل سنة 796هـ/1393م، وأن أحد قادة جيشه، وهو ابنه (شاه رُخ) عسكَرَ، وهو في طريقه للانضمام إلى جيش أبيه، في بلدة (أوانا)، مركز منطقة دجيل، ثم في (حَربى)، وكلاهما قريب من سامراء[1]، فمن المحتمل أن يكون ما أصاب الأخيرةَ من تخريب قد جرى في أثناء تلك الظروف العصيبة وبسببها.

وبعد مُضي ما ينيف على قرن واحد، عادت سامراء لتشهد من جديد حركة البنائين، ولتسمع أصوات أدوات التعمير؛ ففي سنة 914هـ/1508م تم صُنع صندوق فخم من الخشب المطعم بالفسيفساء، والمزين «بالنقوش الإسليمية والختائية» ليوضع على الضريح، بدلًا من الصندوق القديم[2]، وامتدت يد التعمير سنة 930هـ/1523م لتشمل الأروقة والقبة والصحن في المشهد، كما زين الضريح أيضًا[3].

وعلى الرغم من التوسعة المستمرة للمشهد العسكري، فإن سجلات الأراضي العثمانية الرسمية، الموضوعة في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد)، تخلو من أي إشارة إلى ما عليه من أوقاف، بل إنها لا تشير إلى سامراء نفسها، بينما تذكر قرى قريبة منها، مثل: (أوانا) و(صريفين) و(الجَوسَق) و(حَصاية) و(حَربى) و(حَرم سرية) و(باب الشمال) و(بلاشة) و(بني جعفر) و(قصر سميكة) وغيرها، بوصفها توابع للوحدة الزراعية المسماة: (بلوك دجيل من أعمال بغداد)[4].

وفي مطلع العهد العثماني رسم الرحالة التركي نصوح أفندي السلاحي الشهير بالمطراقي زاده أول صورة للمشهد العسكري سنة 941هـ/1534م، فإذا به يتكون من قسمين، أولهما وهو الأيمن، يتألف من حجرة عالية، تزينها من الخارج عقود صُم، غير نافذة، تعلوها ظلَّة خضراء اللون، ترتفع من أطرافها إلى الأعلى، وهي تتدرج ارتفاعاً إلى وسط المبنى، حيث تستند إليها رقبة تضيق كلما ارتفعت، لتنتهي بإفريز بارز، وبقبة كروية الشكل تقريباً، تزينها زخرفة تتكون من أشكال سداسية متراصة مثل خلية النحل، وواضح أن هذا القسم من المبنى يضم الضريح.

---

(1) ينظر جاسم مهاوي: تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب بجامعة بغداد، ط رونيو ص155.

(2) عبدالجواد آل طعمة: تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام، بغداد 1949، ص247.

(3) السماوي: وشايح السراء ص32، وذبيح الله المحلاتي: مآثر الكبراء في تاريخ سامراء، النجف 1350، ص32.

(4) الأرشيف العثماني، دفاتر طابو، دفتر 386، الورقة 31.



الصورة التي في أسفل الصفحة للمشهد العسكري من رسم الرحالة العثماني نصوح أفندي السلاحي الشهير بالمطراقي زاده سنة 941هـ/1534م

ويتصل به من الجهة اليسرى مبنى آخر يظهر أنه مسجد، فيه باب له مصراعان، بأسكَفة عليا مستقيمة، وعلى جانبيه نافذتان مربعتان عليهما شباكان من قضبان متعامدة ، ويعلو جدار المسجد إفريز بارز أخضر، وتنهض من على سقفه قبتان متجاورتان، تزين يمناهما زخرفة نباتية على شكل زهور متفتحة بثلاثة فصوص، وتزين يسراهما زخرفة من صفوف مكررة من الرقم 8، وتقف بينهما مئذنة عالية لها حوض في ثلثها الأخير، وقبة مخروطية مستدقة بلون أصفر أو ذهبي، وهي مُزيَّنة بزخرفة تتكون من الرقم 8 مكررًا، بحيث يعلو بعضه بعضاً على أرضية خضراء.

ومن ناحية أخرى، خَصَّ المطراقي ضريح الإمام علي بن محمد الهادي بصورة مستقلة، حيث يبدو المبنى سداسي الأوجه، في واجهته باب معقود له مصراعان، تعلوه في كل وجه نافذة مستديرة، وفي أعلى المبنى ظلة بارزة إلى الخارج، وتتدرج صعودًا إلى وسط المبنى، حيث تقوم رقبة لونها أصفر، وتستند إليها قبة عالية منتفخة الوسط، مزينة بالزخرفة المذكورة في الضريح السابق، وباللون نفسه، وهي تنتهي بنصف كرة محززة، ونعتقد أن المطراقي رسم هذه الصورة دون أن يرى الضريح عيانا[1].

وفي سنة 1033هـ/ 1623م أعيد تعمير ضريح الإمام علي الهادي والقبة والصحن[2]، بيد أن حريقًا شب في المشهد، بعد هذا، أصاب أخشابه وشعَّث أركانه، فاستدعى ذلك العناية به، سنة 1106هـ/1654م، عناية شاملة، تضمنت دعم تلك الأركان وتزيينها «بأبهى ساج»[3]، وأحيط الضريح بشباك من الفولاذ، وبلطت الأرض بالرخام.

وعُنيت الدولة العثمانية بالمشهد، من خلال توفير الأمن والرعاية لزواره، والموافقة على إنفاق ما يأتي إليه من هبات في تجديد مرافقه، ففي سنة

---

(1) كتابنا: العراق كما رسمه مطراقي زاده سنة 941هـ/1534مـ تحت الطبع.

(2) السماوي ص32.

(3) السماوي ص32، والمحلاتي ص322، وورد في نبذة خطية للشيخ محمد صالح السهروردي، أودعها في آخر مخطوطته (أعمال الأجداد في محلات ومعاهد وآثار.. بغداد): أن تاريخ هذا التعمير هو سنة 1109هـ/1697م، وأنه اقتصر على عمل صندوق "فيه بعض تحارير ذهبية وفضية" على قبري الإمامين الهادي والعسكري.

1112هـ/1700م صدر أمر السلطان إلى والي بغداد بالموافقة على: «تجديد صندوقة الإمام العسكري رضي الله عنه في السامراء»[1].

وبعد سنتين، صدر أمر آخر إلى والي بغداد وقاضيها يقضي «بتوفير الأمن والراحة ومزيد الاطمئنان لزوار مراقد الأئمة الكبار»، وعدم مطالبتهم بشيء مقابل إقامتهم تلك، والسماح لهم بجلب ما يشاؤون من الهدايا والتحف إليها[2].

وفي سنة 1117هـ/1705م، قصد والي بغداد حسن باشا سامراء؛ حيث زار ضريحي الإمامين «فأنعم على خادميهما بالحلل الضافية، وبث في ساحتيهما النقود النُقرة[3] الصافية»[4]، ثم انطلق إلى صحراء البلدة يصطاد فيها الظباء.

وفي الثلث الأول من القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد، وصف المؤرخ البغدادي مرتضى نظمي زاده (المتوفى سنة 1133هـ/ 1720م) المشهد العسكري وبلدته بقوله: «ومرقدهما واحد في صندوقين متصلين، عليهما عمارة لطيفة قديمة مبنية بهمة الملوك، وهو الآن مَطاف الزوار، يقصدون هذه الحضرات من أقاصي الأقطار»[5].

وفي حدود سنة 1200هـ/1780م، قام أحمد خان الدنبلي، أحد سراة خُوي وسلماس وورمية، بتعمير المشهد تعميراً بديعاً؛ إذ وسَّع صحنه ورواقه، وبنى الجدار المحيط بالحَرَم بالرخام الصقيل، وأبدل الأخشاب التي في المقام بحجر الصوان والرخام، وعمَّر سرداب الغَيبة، وبدَّل بابه الخارجي الذي في صحن العسكريين وجعله عند باب الجامع الكبير، وقد استمرت هذه الأعمال حتى سنة 1225هـ/1810م، وشملت إكساء قبة الإمام محمد المهدي بالآجر المزجج (القاشاني)، وإكمال بناء البهو وأبوابه، وتزيين جدرانه بالكتابات التي تتضمن آيات من القرآن الكريم[6].

---

(1) الأرشيف العثماني، دفاتر مهمة، دفتر رقم 111، ص487، في أواسط شعبان سنة 1112هـ.

(2) الأرشيف العثماني، دفاتر مهمة، دفتر رقم 112، ص321، في أواسط ربيع الآخر سنة 1114هـ.

(3) النقرة من الذهب والفضة: القطعة الذائبة، والسبيكة.

(4) عبدالرحمن السويدي: حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، بتحقيقنا، بغداد 2003، ص88.

(5) تذكرة الأولياء، ترجمه عن التركية أحمد بن السيد حامد الفخري، تحقيق حميد مجيد هدو، بيروت 2012، ص178.

(6) السماوي ص32 – 33، والمحلاتي ص324.

تحول الطرق:

في الحقبة التي تلت سيطرة العثمانيين على العراق على يد السلطان سليمان القانوني، حدث تغير مهم في طريق المواصلات الرئيس بين بغداد والموصل، وهو تغير كان له أثره السلبي على الحياة الاقتصادية في المدن الواقعة بين المدينتين، ومنها سامراء، فبعد أن كان المسافرون يسلكون الطريق القديم الذي يقع على الجانب الشرقي من دجلة، أصبحوا يسلكون الجانب الغربي، وفي ذلك العصر، لم تكن ثمة جسور تربط بين الجانبين، ومن ثم لم يكن ممكنًا للمسافر أن يدخل أيّاً من مدن الجانب الشرقي إلا بواسطة زورق، وكان أمير البحر العثماني سيدي علي هو آخر من سجل مراحل الطريق القديم، في رحلته من الموصل إلى بغداد سنة 961هـ/1553م، فذكر أنه مر بقلعة تكريت، وحط رحاله في سامراء، حيث زار ضريحي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري، ولكنه، ولسبب غير معلوم، اجتاز دجلة من هناك إلى الجانب الغربي، فمر بقرية حربى وقصر سميكة، ثم أكمل طريقه إلى بغداد، وهو يذكر أن اجتيازه دجلة كان على جسر[1]، لكنه لم يحدد موقع هذا الجسر، والراجح أنه في سامراء؛ إذ لا توجد بلدة مهمة بعدها حتى الوصول إلى بغداد، ونحن نعلم أن الخليفة المعتصم شيد جسرا حجريّا ثابتًا على دجلة، ظلت بقاياه شاخصة حتى أوائل القرن الماضي[2]، على أنه لا خبر عن هذا الجسر في كتب الرحّالين التالين، وفي كل الأحوال، أثر هذا التحول في الطرق التجارية في عدد النازلين في سامراء من التجار والرحالين، وأكثرهم كان يفضل النزول في خرائب قصر المعشوق (المسمى فيما بعد بقصر العاشق) المقابل لها، من الجانب الغربي، على العبور إلى بلدة سامراء، أو أن زيارته لها تكون سريعة وقصيرة، ومن هنا جاءت أغلب كتاباتهم عنها مبتسرة عامة، تعوزها التفاصيل؛ فالرحالة الفرنسي تافرنييه، الذي زارها سنة 1041هـ/ 1632م لم يلفت نظره إلا مئذنتها (الملوية) الشاخصة، دون أن يمتد نظره ليشمل البلدة الحديثة، وسجل ما كان يعتقده بعض الناس عن دفن أربعين نبيّا فيها[3]، ولعل شيئاً من

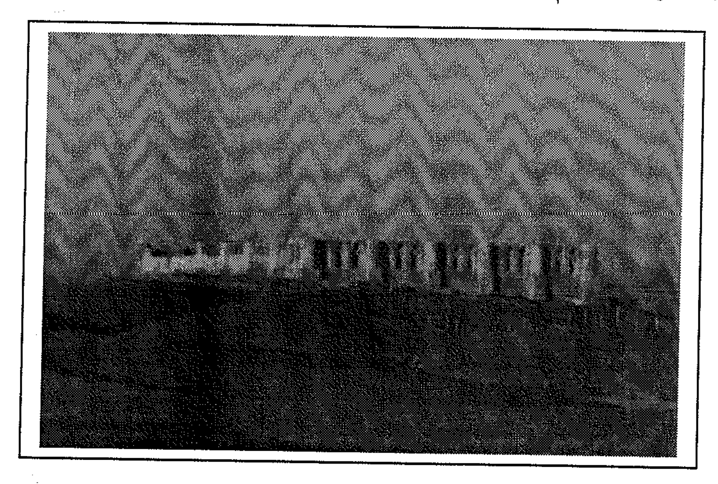
---

(1) كتابنا: رحلة القائد العثماني سيدي علي التركي إلى الجزيرة العربية سنة 1553م، بيروت 2010، ص12.

(2) ماكس أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ترجمة محمود كبيبو، دار الوراق، لندن 2009 ص267.

(3) تافرنييه، جان بابتست: العراق في القرن السابع عشر، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد 1949، ص70.

الالتباس قد حصل لديه بين سامراء وتكريت، فمن الراجح أنه أراد بهذا المدفن الموضع المعروف في تكريت بمقام الأربعين.



بقايا قصر العاشق الأثري

وفي سنة 1139هـ/1727م مر الرحالة الدمشقي مصطفى بن كمال الدين البكري بسامراء، فاقتصر في ملاحظاته على تسجيل إعجابه بقبتي الإمامين الهادي والعسكري، ولم يزد على ذلك شيئا[1]، وقريب منه ما فعله الرحالة عباس بن علي المكي في سنة 1148هـ/1735م؛ إذ اكتفى بزيارة قبري الإمامين، وتقديم نبذة قصيرة عن تأسيس المدينة على يد الخليفة المعتصم بالله العباسي[2].

وفي سنة 1158هـ/1744م سلك العلامة البغدادي عبدالله السويدي الطريق المؤدي من بغداد إلى الموصل، في رحلته إلى بلاد الشام فالحجاز، فكان أن مرَّ بقصر العاشق، المقابل لسامراء من جانبها الغربي، ووصف القصر بأنه «بناء قديم لم يبقَ منه إلا أثر الجدران»، ولكنه لم يعبر إلى الجانب الشرقي ليصف لنا هذه البلدة[3].

وعلى الرغم من دقة الرحالة الفلكي كارستن نيبور C. Niebuhr في وصفه المدن التي كان يمر بها، فإن وصفه لسامراء سنة 1180هـ/ 1766 جاء مبتسرا،

(1) كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان، مخطوطة كامبرج، منه مصورة في المجمع العلمي العراقي، الورقة 19.

(2) نزهة الجليس ومُنية الأديب الأنيس، النجف 1967، جا ص183.

(3) النفحة المسكية في الرحلة المكية، بتحقيقنا، أبو ظبي 2003، ص95.

اقتصر فيه على التنويه بقبور الأئمة، وحاول وصف المئذنة الملوية في جامعها الأثري الواقع في خارج البلدة، مشبها إياها ببرج الرصد بكوبنهاكن[1].

وفي سنة 1224هـ/1809م زار الرحالة الفرنسي جان بابتست روسو Rousseau سامراء، فلم يلفت نظره منها غير أنها «مكان مهدم مهجور تقريبا»، وواضح أنه كان يقصد بقايا مدينة سامراء القديمة، لا البلدة الحديثة، غير أنه أشار إلى ضريحي الإمامين فيها، اللذين كانا يقصدان بالزيارة، ونوه بقصر العاشق (وهو قصر المعشوق نفسه)، لكنه لم يوضح أي الطرق سلك في الوصول إلى البلدة[2].

أما الكابتن جون ماكدونالد كنير Kinnier الذي مرَّ بها سنة 1228هـ/1813م، فإنه وصف مشهدها بقوله: «بناء جميل من طابوق، تعلوه قبتان ومنارتان مزينتان بالكاشي الملون، الذي يتباهى به العرب، ويبدو بمنظر جذاب حينما تسقط عليه أشعة الشمس»، وعدا ذلك، فإنه لم يصف إلا أطلال المدينة القديمة الشاخصة خارجها[3].

تطور البلدة:

شهدت سامراء توسعاً ملحوظاً في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، ومن المؤكد أن الزيادة المطردة في أعداد زوارها، ممن كانوا يقصدون ضريحي الإمامين الهادي والعسكري، كانت سبباً في تنشيط حركتها التجارية، ومن ثَم زيادة السكن فيها، فأطمع ذلك بعض الجماعات المسلحة غير المنضبطة حولها في مهاجمة دور البلدة وأسواقها، أو فرض الإتاوات عليها[4]؛ ولذا فقد اتجهت النية إلى تسويرها بسور حصين يدفع عن أهلها وزوارها غوائل التعدّيات، وفي حدود سنة 1250هـ/1843م أنشأ أهل سامراء حول بلدتهم سورًا من الآجُرِ

---

(1) نيبور: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين الأمين، ضمن كتاب: رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، دار الوراق، لندن 2012، ص340.

(2) جان بابتست روسو: وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة خالد عبداللطيف حسن، بغداد 2012، ص66.

(3) جعفر خياط: سامراء في المراجع العربية، موسوعة العتبات المقدسة، قسم سامراء، بغداد 1966، ص294.

(4) من أخطر تلك الهجمات ما كانت تقوم به عشائر الهماوند الذين "لم تنقطع غوائلهم"؛ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج8، بغداد 1956، ص43.

والجص[1]، فبلغ محيطه نحو كيلومترين، وقطره 680 مترًا، وارتفاعه سبعة أمتار، وله تسعة عشر برجًا، وأربعة أبواب متجهة إلى الجهات الأربعة الأصلية، هي:

1 - باب الناصرية، ويسمى أيضًا: الحاوي من الشمال[2].

2 - باب القاطون (ويسمى: الفاطول) من الغرب.

3 - باب الملطوش (بمعنى المسدود) من الجنوب.

4 - باب بغداد من الشرق[3].

ولم تكن البلدة قريبة من النهر على نحو يُيَسِّر على سكانها السقاية منه مباشرة، فاضطر السكان إلى حفر قناة في الأرض تأخذ المياه إليها من دجلة، ومن غير الواضح الطريقة التي كان يُرفع بها الماء من النهر إلى فتحة القناة، وفي الغالب، بحسب ما كان يجري في بغداد في الوقت نفسه، فإن ذلك كان يجري بواسطة دولاب منصوب على شاطئ النهر، تحرِّك عجلتَه الأفقيةَ الدواب، ومن الراجح أن هذه القناة كانت مكشوفة، وهو ما يؤدي إلى تلوثها المستمر.

وقد نوّه الرحالة فيلكس جونز Felix Jones، الذي زار البلدة سنة 1259هـ/1843م، بسورها، الذي كان قد جرى إتمام بنائه أيام قدومه إليها، وأشاد بمتانته، إلا أنه لاحظ أن هذا السور بعيد نسبيا عن شاطئ النهر، ومن ثم يستطيع الأعداء تخريب القناة التي تأخذ المياه إلى البلدة، وإرغامها على الرضوخ لمطالبهم.

---

(1) يذكر ذبيح الله المحلاتي (مآثر الكبراء ص121): أنه كان على سامراء في حدود سنة 660هـ سور، وأن هذا السور بقي، إما ناقصاً أو غلب عليه الخراب، إلى زمن إنشاء سور البلدة الحديث، ويحدد أوبنهايم نقلاً عن جونز أن تاريخ إنشاء السور هو سنة 1843؛ أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ص268، بينما تذكر الليدي درور، التي زارت العراق سنة 1924: أن سور سامراء أنشئ قبل ما لا يزيد عن مائة سنة قبل زيارتها للمدينة؛ أي: في تاريخ لا يتجاوز سنة 1824 - 1820م؛ على ضفاف دجلة والفرات: ترجمة فؤاد جميل، دار الوراق، لندن 2008، ص107.

(2) ربما سمي الناصرية بمناسبة زيارة الشاه ناصر الدين القاجاري سامراء في سنة 1287هـ/1870م.

(3) المحلاتي: مآثر الكبراء ص 118- 120، ويونس السامرائي: دليل سامراء، بغداد 1962، ص13 - 16، ويذكر أوبنهايم الذي زار سامراء سنة 1900 أسماء هذه الأبواب على النحو الآتي: 1 - باب العجم من الشمال. 2 - باب الناصرية من الغرب. 3 - باب القيطوم (القاطون) من الجنوب. 4 - باب بغداد من الشرق؛ أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج ص268.

ووصف قبتي المشهد، معتقدا أن قبة الإمام العسكري كانت مكسوة بالذهب، ثم أزيل[1]، وهو اعتقاد غير صحيح؛ لأن إكساءها بالذهب لم يجرِ إلا بعد ذلك التاريخ بمدة، وعدا ذلك، فإن أغلب ما ذكره يتعلق بآثار سامراء القديمة: المسجد الجامع، ومئذنته الملوية، وقصر الخليفة، وقصر العاشق، وتل العليق، وغير ذلك.

ولاحظ جون آشر John Ussher، الذي مر بالبلدة سنة 1281هـ/1864م، أنها ليست صغيرة بحال، وأن فيها عددًا كبيرا من السكان، ونوه بكثرة ما حولها من خرائب[2].

ولم تمضِ إلا ثلاث سنوات حتى قدم إلى سامراء الرحالة الهولندي نيجهولت Nijholt، فأشار إلى سورها المستجد، ومدافن الأئمة فيها، ويبدو أن نشاطاً تجارياً قد أخذ يَبين في هذا العهد، على الرغم من صِغَر البلدة عهد ذاك، يقول: «إن القرية الحاضرة تضم سوقًا صغيرة، تتألف من بضعة دكاكين، يباع فيها التبغ والرز والتمور والتفاح الأخضر.. إلخ»[3].

وواضح أن جميع هذه المواد كان مما يُجلب إلى سوق البلدة من خارج منطقتها، وفي الواقع، فإن تحسنًا أصاب اقتصاد البلدة منذ منتصف ذلك القرن، لا سيما بعد أن قام والي بغداد الوزير رشيد باشا الكوزلكي بإصلاحات زراعية عدة، كان من بينها كري نهر دجيل في (بلد) التابعة لقضاء سامراء في حدود سنة 1271هـ/1854م[4].

وكان المشهد العسكري نفسه، قد شهد في السنوات (1281 - 1285هـ/1862 - 1868م) آخر التعميرات المهمة في العصر العثماني، فقد جرى إكساء قبتي المشهد بقِطَع الآجُر المطلي بالذهب، وتم تعمير الضريحين والرواق، وترميم الصحن، وإكساء المآذن، فضلًا عن تعمير السور، وفتح باب كبير له، وغير ذلك من أعمال إصلاح شامل.

وفي سنة 1295هـ/1878م استؤنف العمل مرة أخرى، بتبرع من بعض المحسنين، ليشمل إكساء الأروقة بقطع من المرايا، ذات أشكال هندسية بديعة

---

(1) جعفر خياط: مصدر سابق ص294.

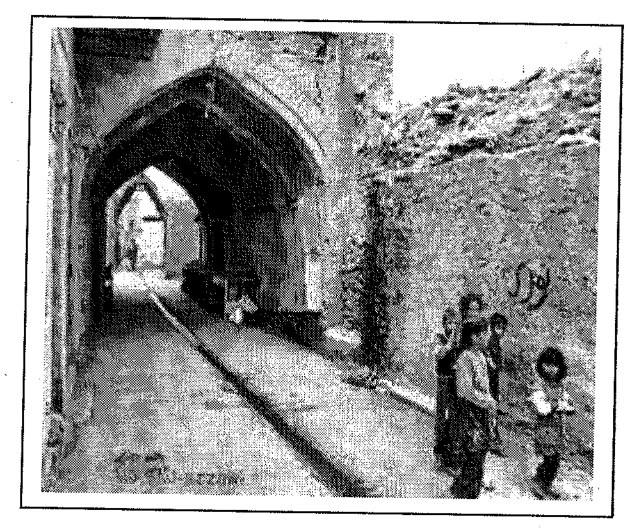
(2) المصدر نفسه ص295.

(3) المصدر نفسه ص 296.

(4) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج7، 1955، ص109.

(تسمى شغل العينة)، ونصب الساعة الكبيرة فوق باب القبلة[1]، أحد أبواب المشهد، وبناء المدرسة والحمام وغيرها.

وفي سنة 1318هـ/1900م تم وضع المرايا الكبيرة فوق الرخام، والخطوط المنسوبة حول المشهد[2].ووصف أوبنهايم الذي أنهى كتابه في هذه السنة نفسها أهم ما كان يشتمل عليه المشهد من منشآت؛ فالجامع مُشيَّد على مصطبة كبيرة، يحيط بها فناء واسع، وثمة باب وحيد لهذا الفناء مقوى بصفائح برونزية قديمة، ومدق ثقيل، وتحيط بالفناء من الداخل أروقة مقوَّسة ومقببة، كما يوجد بين الباب والمصطبة حوض كبير وجميل من المرمر، وللجامع شرفة يصعد إليها بواسطة سلم عريض، بينما تشتمل الواجهة على مئذنتين ذات قبتين مذهبتين، أما الواجهة نفسها فتتألف من خمسة عقود، أكبرها أوسطها، حيث الباب، ويلاصق المشهد من الخارج عدد كبير من الدور[3].



زقاق في بلدة سامراء

ومع استمرار تزايد عدد السكان، امتد السكن إلى مناطق لم تكن قد اتخذت لهذا الغرض من قبل، وتوثقت صلات البلدة بما حولها من قصبات وقرى، فأنشئ جسرٌ على دجلة يصل بين جانبيها سنة 1294هـ/1878م، وأسست أول شركة لنقل

---

(1) يصف أوبنهايم برج هذه الساعة بأنه: برج عملاق يثير الغرابة.

(2) المحلاتي: تحفة الكبراء ص324 – 326، والسماوي: وشائح السراء ص23.

(3) من البحر المتوسط إلى الخليج ص268 – 269.

الركاب بين بغداد وسامراء بالطريق النهري سنة 1299هـ/ 1881م، وافتتحت دائرة للبرق والبريد سنة 1327هـ/1908م، كما عَرَفت البلدة أيضًا عدة منشآت دينية وخدمية أخرى، منها مساجد وحمام وخان لمبيت التجار وحفظ أمتعتهم وغير ذلك[1].

إدارة البلدة:

ليست ثمة معلومات عن طريقة إدارة سامراء في الحقبة اللاحقة للعصر العباسي، ومن المرجح لدينا، بناءً على أمثلة مشابهة، أنها كانت تدار من قبل (ناظر المشهد)، الذي هو زعيم العشيرة الأقوى في البلدة، أما في العصر العثماني، فإن لدينا من النصوص ما يشير إلى أنها كانت تعهد إلى موظف بلقب (ضابط) يتبع ولاة بغداد مباشرة[2]، وأن في مَعيَّته نحو ألف رجل مسلح، من غير السكان[3].

ويظهر أن تعيين الضباط في هذا المنصب كان يجري على وفق نظام الالتزام، وهو نظام إقطاعي مالي وإداري في وقت واحد، ويذكر جونز أن البلدة أقطعت في وقت زيارته لها سنة 1259هـ/1843م إلى ضابط لقاء مبلغ (280000) قرش، أو ما يعادل 660 باوناً إسترلينيًا تقريبًا.

وفيما عدا ذلك المنصب، فإن (ناظر المشهد) كان له ثقل واضح في تسيير شؤون البلدة ورعاية مصالحها، وقد تولت عشيرة عرفت بـ (القُوشجية)، وهي تسمية تركية تعني حرفيًا: أصحاب الطيور، سَدانة المشهد المذكور منذ عهد بعيد، ولكن نظرًا للمشاكل التي حدثت في عهدهم، فإن تحالفًا جرى بين بعض عشائر البلدة الأخرى، منهم ألبو صالح وألبو عباس، وهما عشيرتان علويتان، لإخراجهم، وقد أخرجوا منها بالفعل في زمن غير محدد لنا، ليتولاها رجال من ألبو صالح، وكادت مذبحة دبرها خصومهم أن تقضي على ألبو صالح، إلا أن الأخيرين تمكنوا من العودة إلى السلطة بدعم مباشر من داود باشا، آخر ولاة المماليك في بغداد، سنة 1233هـ/1817م، ليتولوها دونما انقطاع[4].

---

(1) يونس السامرائي: تاريخ سامراء ج2، بغداد 1970، ص223- 226.

(2) محمد بن أحمد المنشي البغدادي: رحلة المنشي البغدادي، ترجمة عباس العزاوي، ص23.

(3) جعفر خياط: مصدر سابق ص299 عن رحلة فيلكس جونز.

(4) السامرائي: تاريخ سامراء ج2 ص254.

ويشير مؤرخ بغدادي، من أهل القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، هو عبدالرحمن حلمي العباسي نسباً، الدوري أصلاً، السهروردي طريقةً، إلى أن جَداً له، هو الشيخ محمد صالح العباسي، المعروف بالخطيب البغدادي، أو خطيب دار السلام، كان «حاكمًا إقطاعيا يحكم الدور وسُرَّ من رأى وتكريت والدجيل وما والاها شرعًا وإدارة، ولُقب بمتولي الدور وسُر من رأى وتكريت والدجيل، ومتسلمها وقاضيها، إلى غير هذه الألقاب التي كانت تختلف باختلاف تولي الولاة مدينة بغداد»[1]، فإن صحَّت هذه الرواية، تكون إدارة سامراء قد فوِّضت، في فترات من الحكم العثماني، إلى رجال من أهل إقليمها، جمعوا بين أيديهم السلطات الإدارية والشرعية على حد سواء، بموجب نظام الالتزام نفسه؛ ولذا فلم يكن ثمة تحديد دقيق لألقاب هؤلاء الإداريين.

وبموجب التنظيمات الإدارية الحديثة التي طبقت في العراق في أواخر العصر العثماني، عُدَّت سامراء مركزا لقضاء باسمها، صنف من أقضية الدرجة الثالثة، وقد شمل ناحية واحدة، هي تكريت[2].

وكان القنصل الروسي في أزمير س. موستراس Mostras قد كتب في موسوعته: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، الصادرة في لايبزك سنة 1873، مادة مستقلة عن سامراء قال فيها: إنها «مدينة في تركية الآسيوية، مركز اللواء الذي يحمل الاسم نفسه، في ولاية بغداد وشهرزور، على نهر دجلة»[3]، والظاهر أنه أخطأ في تحديد المستوى الإداري للبلدة؛ فهي لم تكن مركزًا للواء، وإنما مركزًا لقضاء باسمها في لواء بغداد، وكان هذا اللواء واحدًا من ألوية ولاية بغداد التي ألحقت بها ولاية شهرزور آنذاك[4].

---

(1) عبدالرحمن حلمي العباسي السهروردي: تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة، بتحقيقنا، بغداد 1996 ص95، وانظر أيضًا محمد صالح السهروردي: ترجمة عبدالمحسن السهروردي، نشرها في آخر كتاب: (نجاة الناس بكلمة الإخلاص) لعبدالمحسن المذكور، بغداد 1345هـ، ص41، حيث ورد فيه لقب الشيخ محمد صالح على النحو الآتي: "قاضي سامراء والدور العليا وتكريت".

(2) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج7 ص169، وجميل موسى النجار: الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، بغداد 2002 ص126.

(3) ترجمة عصام محمد الشحادات، بيروت 2002 ص292.

(4) بموجب نظام إدارة الولايات العمومية الذي بدأ تطبيقه في بغداد سنة 1871 فإن ولاية بغداد أصبحت تتألف من عشرة سناجق، منها سنجق بغداد، وهو المركز، وسنجق شهرزور؛ ينظر

ومما له تعلق بالإدارة، أن البلدة كانت تتميز بنظافتها، وهو ما لحظه بعض السياح الذين مروا بها؛ إذ يذكر أوبنهايم Oppenheim أن مظهر البيوت يشير إلى «مستوى جيد من النظافة»[1]، وتعزي الليدي درور Drower وفور الصحة في البلدة إلى «سلطاتها المسؤولة»[2].

وتكشف لنا سالنامات ولاية بغداد (أي: كتبها الرسمية السنوية)، وأعداد جريدة الزوراء الصادرة ببغداد عهد ذاك، عن أسماء القائممقامين فيها، وهم كالآتي:

سامى أفندى		1284 - 1277
عبيد ناجى آغا		1286 - 1284
على بك		1289 - 1286
محمد بك		1290 - 1289
محمد أمين أفندى		1291 - 1290
الحاج أحمد آغا		1291
حسن أفندى		1291
على أفندى		1294 - 1292
حسن أفندى		1295 - 1294
محمود أفندى		1297 - 1295
كمال أفندى		1298 - 1297
محمود أفندى		1302 - 1299
محمد رامز بك		1303 - 1302
بكر زهدى بك		1304 - 1304
الحاج محمد آغا		1305 - 1304

جميل النجار: الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، ص118، إلا أن موستراس يصرح في معجمه بأن بغداد وشهرزور كانا يمثلان ولاية واحدة تحمل اسميهما معًا.

(1) من البحر المتوسط إلى الخليج ص269.

(2) على ضفاف دجلة والفرات ص108.

عبدالله مخلص أفندي		1309 - 1305
محمد سعيد أفندي		1312 - 1309
محمد شفيق أفندي (وكالة)		1313 - 1312
عبدالعزيز أفندي		1315 - 1313
عبدالقادر أفندي		1316 - 1315
قدري أفندي		1317 - 1316
محمد شفيق أفندي (وكالة)		1317
الحاج عباس بك (وكالة)		1318 - 1317
صالح صائب أفندي		1323 - 1318
عبدالعزيز أفندي القصاب		1325 - 1324
رضا أفندي		1325
محمد توفيق أفندي		1326 - 1325
شكري أفندي		1328 - 1326
يوسف كنعان أفندي		1331 - 1328
محمود فوزي أفندي		1332 - 1331
معروف أفندي		1333 - 1332
خالد بك		1334 - 1333
محمود أفندي		1334
حسن أفندي		1335 - 1334
صالح أفندي		1335

وفي 21 نيسان من سنة 1917م اضطرت القوات العثمانية، تحت ضغط القصف الشديد للقوات البريطانية، إلى إخلاء سامراء، والانسحاب إلى بلدة الدور القريبة، حيث دار معركة (الرويضات)، ثم اضطرت مرة أخرى إلى الانسحاب إلى

بلدة تكريت في 2 تشرين الثاني[1]، وبهذا خرجت سامراء من حكم الدولة العثمانية، بعد أن دام هذا الحكم نحو 383 سنة.

التكوين الاجتماعي:

تناقص عدد سكان سامراء بسرعة فائقة منذ أن غادرتها الخلافة بمؤسساتها وجندها، ولم يعُدْ من سكانها الكثيرين إلا قِلّة من الناس، تجمعوا في حي أو حيين من أحيائها القديمة، أحدهما حي (العسكر)، وهو الذي نسب إليه الإمام العسكري[2]، وتحول مع مرور الوقت إلى بلدة سامراء الحديثة، كما عرفت في القرون المتأخرة.

وليست ثمة نصوص صريحة توضح الأصول الاجتماعية لتلك الفئة الباقية من السكان؛ فالعلماء والشعراء الذين عاشوا في العصر العباسي وما بعده، ممن وردت أخبارهم في كتب التراجم، سكتت تلك الكتب عن ذكر أنساب أكثرهم، واكتفت بذكر نسبتهم إلى المدينة، كما هي عادتها في أغلب الأحوال.

ويفيد المأثور المتواتر لدى أهل سامراء[3]، أن هؤلاء السكان كانوا يشكلون مجموعة متحدة النسب، رافقت موكب الإمام علي الهادي من الحجاز إلى مستقره في سامراء، فقد تولى أحفاد الإمام المذكور، أو أقارب لهم، ينتمون جميعًا إلى الإمام موسى الكاظم، نقابة الأشراف في سامراء في العصر العباسي[4].

وبعد زوال مؤسسة النقابة في العصر التالي، وبروز مؤسسة السدانة بدلها، تقاسم هؤلاء، وقد أصبحوا عدة من العشائر المستقلة، مسؤولية حماية (المشهد) وإدارته، وبالمقابل فإنهم تقاسموا ما كان يردُه من أموال المتبرعين، وهكذا كانت عشيرة ألبو صالح تتولى السدانة، (وتسمى الكليتدارية)، ولها - على ذلك - ربع أموال المشهد، بينما يحصل ألبو نصيف، وهم فرع آخر من ألبو صالح، على ربع آخر، ويحصل كل من عشيرة ألبو باز، وعشيرة العشاعشة، على الربعين المتبقيين.

---

(1) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج8 ص306.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4 ص122.

(3) السامرائي: تاريخ سامراء ج2 ص237.

(4) عبدالرزاق كمونة: موارد الإتحاف في نقباء الأشراف، النجف 1968، ج2 ص3 - 5.

وإذ كنا لا نملك تحديداً لتواريخ هجرة العشائر واستقرارها، فإن في وسعنا أن نعد تقاسم هذه العشائر مسؤولية السدانة قرينة قوية تدل على قدم وجودها في سامراء، بل ربما كانت أقدم العشائر سكنًا في البلدة.

وثمة موارد أخرى، ذات صفة ثانوية، تقاسمتها عشائر أخرى؛ هي ألبو عباس، وألبو نيسان، وألبو عاصي، فضلاً عن حصة رابعة لألبو صالح أيضًا، ومن ثم فإنهم من العشائر القديمة في سامراء، وربما قاربت في قِدَمها تاريخ العشائر المتقدمة، وعدا ذلك فثمة عشائر أخرى لم تكن لها صلة مالية بالمشهد، مع أنها قديمة الاستيطان في سامراء، ومنها ألبو دراج، وألبو أسود، وألبو عيسى، وألبو عظيم.

وتقيم هذه العشائر في تجمعات خاصة بها في داخل أسوار مدينة سامراء، ويرتبط بكل تجمع باب من أبوابها؛ فألبو بدري والعشاعشة يختصون بباب الناصرية، وألبو عبدالرحمن يختصون بباب الملطوش، وألبو نيسان وألبو عباس يختصون بباب القاطون، بينما يختص ألبو باز وألبو عظيم بباب بغداد، على أن ذلك التوزيع لا يمنع وجود مجموعات من عشائر أخرى في البلدة[1].

وعلى الرغم من عدم وجود إحصاء، أو حتى تقدير رسمي لعدد السكان في سامراء، حتى آخر العصر العثماني، فإن في وسعنا أن نخمِّن هذا العدد وَفقا لكتابات بعض الرحالين والسياح الذين مروا بالبلدة منذ القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، ويذكر كينير سنة 1228هـ/ 1813م أن سامراء تحتوي على 2475 نسمة[2]، ويفيد المنشي البغدادي أن عدد بيوت سامراء، أيام كتابته لرحلته سنة 1237هـ/1821م، يبلغ ألفي بيت؛ (أي: ما يزيد على عشرة آلاف نسمة)، وأن زوَّارها يقدرون بنحو ثلاثين ألف نسمة[3]، ولا شك في المبالغة الكبيرة التي يتضمنها هذا التقدير، بالنظر لصغر المساحة المأهولة من البلدة عهد ذاك، ولاختلافه عن التقديرات السابقة واللاحقة مما أورده الرحالون المتعاقبون.

---

(1) كاظم الدجيلي: ماذا يرى اليوم من سامراء؟، مجلة لغة العرب، المجلد 1، العدد 3 أيلول 1911، ص140 - 141.

(2) أوبنهايم: مصدر سابق ص 269، وفي ترجمة لجعفر خياط: مصدر سابق، أن العدد كان يبلغ ألفي نسمة، ص293.

(3) رحلة المنشي البغدادي ص88.

وبلغ عدد سكانها وفقًا لتقدير جونز 250 بيتًا؛ أي: نحو ألف وخمسمائة نسمة، إضافة إلى ألف نسمة أخرى، يظهر أنهم كانوا مكلفين بحماية البلدة[1]، وقد زاد هذا العدد في النصف الثاني من القرن المذكور، حسبما ذكر نيجهولت سنة 1284هـ/1867م، إلى 400 أسرة[2]، وهذه زيادة مهمة إذا قورنت بالتقديرات السابقة، وقد استمر العدد بالزيادة، حتى بلغ بموجب أول إحصاء رسمي سنة 1310هـ/ 1890م (7187) نسمة[3]، وبعد أقل من عقد واحد قدر أوبنهايم عدد السكان بنحو 15000 نسمة[4]، وهو عدد ينطوي على كثير من المبالغة كما نرى.

ولأسباب مختلفة، كانت أُسَر من أهل سامراء تُضطر إلى الهجرة، بين وقت وآخر، إلى المدن الأخرى؛ ففي القرن العاشر للهجرة هاجرت عشيرة كاملة من سامراء، هي القواسم، إلى الخليج العربي، واستقرت في ساحل عمان؛ حيث اتخذوا من خيمة شيخهم مركزا لاستيطانهم في تلك الأنحاء، فنشأت من ثم مدينة جديدة عرفت برأس الخيمة، وتعاظم أمرهم، وسيطروا على معظم أرجاء الخليج في القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) وأوائل القرن الثاني عشر[5].

وفي القرن الثالث عشر للهجرة أخذت بعض الأسر السامرائية بالنزوح إلى بغداد؛ حيث نشأت نتيجة استقرارهم فيها محلة صغيرة من محلات الكرخ، في الجانب الغربي، عرفت بالسوامرة، تقع قرب محلة أقام فيها جيرانهم من النازحين من تكريت، فعرفت بالتكارتة.

كما تفرّقت أُسَرٌ أخرى في مواطن أخرى من الجانب الشرقي من بغداد، ومن عشائر سامراء من انتقل إلى نواحٍ عدة في جنوبي العراق، منها مثلاً: عشيرة الدراج، وهم من ألبو دراج السامرائيين، الذين استوطنوا العمارة[6]، وفروع عديدة

---

(1) خياط: مصدر سابق ص299.

(2) المصدر نفسه ص304.

(3) يونس السامرائي: تاريخ سامراء ج2 ص266.

(4) من البحر المتوسط إلى الخليج ص270.

(5) بكنكهام: رحلتي إلى العراق سنة 1816، ترجمة سليم طه التكريتي، ج2، بغداد 1969، ص313.

(6) عباس العزاوي: عشائر العراق، ج4 بغداد 1965، ص176.

من ألبو عباس استوطنوا في بغداد والحلة والعمارة وكفري[1]، وفروع أخرى من ألبو بدري سكنت في بعقوبة والفلوجة والحلة والمسيب والإسكندرية والبصرة[2]، ومن غير هؤلاء كثير.

الحياة الثقافية:

ثمة إشارات مهمة تدل على استمرار الحياة الثقافية في سامراء، حتى في ظل أكثر حقب تاريخها ركوداً، فممن نوّهت بعلمهم وفضلهم كتبُ التاريخ والتراجم من أهل العلم والأدب في هذه البلدة: الشيخ إسماعيل بن جعفر بن عبدالرزاق السامرِّي (توفي سنة 685هـ/1286م)، وكان نحوياً مقرئاً أديباً، له تصانيف في القراءات وشعر[3]، والشيخ الصدر الأديب سيف الدين أحمد بن محمد السامرِّي، وكان تاجراً أديباً شاعراً، عاش ردحاً من حياته في بغداد، ثم هاجر إلى حلب حيث حظي عند صاحبها الناصر، واشتهر بجزالة شعره، ونظم أرجوزة عرفت بالسامَرِّية (نسبة إلى سامرّا)، فضح فيها خصومه، وكانت له أوقاف وأملاك وثروة، وله أخ أقام في اليمن مدة، يدعى نور الدين السامري، لم نقف على ترجمته[4]، وتوفي سيف الدين سنة 696هـ/1297م.

ومنهم أيضاً كمال الدين أبو غالب هبة الله بن علي بن عبدالله السامرِّي البغدادي (المتوفى سنة 698هـ/1298م)، وكان «شيخاً عالماً فقيهاً زاهداً عابداً جليلاً ثقة، من بيت العلم والحديث»[5]. ومنهم أيضًا الشيخ عز الدين عبدالعزيز بن إبراهيم السامرِّي (القرن السابع للهجرة)[6].

والشيخ جمال الدين يوسف بن محمد بن مسعود العبادي المقبلي السامرِّي (المتوفى سنة 776هـ/1374م)، «وكان شيخا حافظاً محدثاً، له مؤلفات تزيد على مائة مصنّف في بضعة وعشرين عامًا، أخذ عنه كبار علماء عصره، منهم الحافظ

---

(1) المصدر نفسه ج4 ص251.

(2) المصدر نفسه ج4 ص256.

(3) عبدالرحمن السيوطي: بغية الوعاة في طبقات النحويين والنحاة، القاهرة 1326، ص194.

(4) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفَيات، تحقيق إحسان عباس، ج1، بيروت 1973، 124 - 140.

(5) السيوطي: بغية الوعاة ص423، وابن العماد: شذرات الذهب ج6، بيروت 1979، ص349.

(6) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب، تحقيق مصطفى جواد، دمشق 1961، ج1 ص205.

الذهبي وغيره، وابنه إبراهيم العطار السُرَّمرِّي ثم الدمشقي، وكان محدثاً، توفي سنة 803هـ/1401م[1].

والشيخ السيد أحمد بن عبدالكريم الخطيب (كان حيًّا سنة 941هـ/1534م)، الذي استقلت أسرته بالخطابة في جامع الإمام أبي حنيفة النعمان في بغداد حصرًا طيلة عهد الدولة العثمانية في العراق[2]، والشيخ خليل الخطيب بن محمد بن ياسين السامرِّي (كان حيًّا سنة 1119هـ/1707م)، وكان عالماً بارزاً «له رواية من كتب حديث وفقه وتفسير وآلات[3] وإنشاء وتحرير»[4].

وإذا كان بعض هؤلاء الفضلاء ممن قضى شطراً من حياته خارج بلدته الأولى، وإن نُسب إليها، فإن البلدة نفسها لم تعدم وجود علماء وكتب وتدريس، وقد وقفنا على خبر خزانة كتب في سامراء للشيخ أحمد بن أحمد إبان آخر القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد)، وعلمنا أن كاتبا يدعى عبدالله بن أحمد الطاري كان ينسخ الكتب برسم هذه الخزانة، ومن تلك الكتب: (الروض الفائق في المواعظ والرقائق)، تأليف شعيب الحريفيشي، المتوفى سنة 810هـ/1407م، وقد أنجز نسخه سنة 998هـ/1589م[5].

وثمة مخطوطات في المكتبة القادرية ببغداد، انتقلت إليها من خزائن كتب علماء سامرائيين من أهل القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد)، منهم السيد حسين بن السيد عبدالرحمن خطيب الإمامين العسكريين سنة 1187هـ/1773م[6]، والسيد حبيب بن الملا علي خطيب سامراء سنة 1196هـ/1781م[7].

---

(1) أحمد بن علي المقريزي: درر العقود الفريدة في التراجم المفيدة، تحقيق محمود الجليلي، بيروت 2002، ج1 ص82.

(2) عبدالرحمن حلمي السهروردي: تاريخ بيوتات بغداد، بتحقيقنا، ص42.

(3) كذا في الأصل، ولعلها: وأدب.

(4) مجموعة السيد عبدالفتاح الواعظ، نسخة مصورة لدينا، الورقة 50.

(5) ويقع في 542 ص، وهو تحت العدد 9348، مخطوطات الأدب في المتحف العراقي، الكويت 1958، ص320.

(6) كتابنا: الآثار الخطية في المكتبة القادرية، ج 3، بغداد 1977، ص78 - 80.

(7) المصدر نفسه.

ويظهر أن البلدة لم تخلُ - إبان تلك الحقبة - من جهة تدريس أو مدرسة؛ ففي أول مخطوطة (الهيئة السَّفرية والحَضَرية في شرح القصيدة الرائية المُضرية) الموجودة في خزانة المرحوم السيد محمد سعيد الراوي ببغداد نقرأ تمليكا لمن يدعى (ناصر الدين الحسيني المدرس في سامراء)، مؤرخاً في سنة 1212هـ/1797م[1]. وآخر ما وصلنا من أخبار خزائن الكتب فيها، خزانة مفتيها الشهير عباس حلمي القصاب (ولد سنة 1276 وتوفي سنة 1335هـ/1859 - 1916م) التي احتوت على مجموعة ضخمة ونفيسة من المخطوطات، تبدد معظمها، ونقل منها، بعد وفاته، إلى بغداد ما قدر بخُمسها[2]، ومثلها أيضا خزانة كتب الشيخ أحمد بن محمد أمين الراوي (ولد سنة 1300هـ، وتوفي سنة 1385هـ/ 1882 - 1966م)، وفيها عدد من الكتب الخطية المهمة[3].

وفي أواخر القرن الثالث عشر أنشئت في سامراء مدرستان دينيتان على مستوى رفيع، أولاهما: المدرسة العلمية المؤسسة سنة 1291هـ/1871م[4]، والأخرى: المدرسة العلمية المعروفة بالحميدية، المؤسسة في سنة 1316هـ/1898م، وحوت خزانتا كتبهما مخطوطات قيمة، ونشرت فهارسهما منذ حين، وفضلا عن ذلك؛ فقد كانت ثمة مدرسة رسمية أولية تدرس فيها مبادئ العلوم باللغة التركية[5].

وليس أدل على نماء البيئة الثقافة في سامراء في هذه الحقبة، وتوفر عناصرها ومحفزاتها، من تلك الكثرة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤلفين الذين

---

(1) كتابنا: فهرس مخطوطات السيد محمد سعيد الراوي، بغداد 2000.

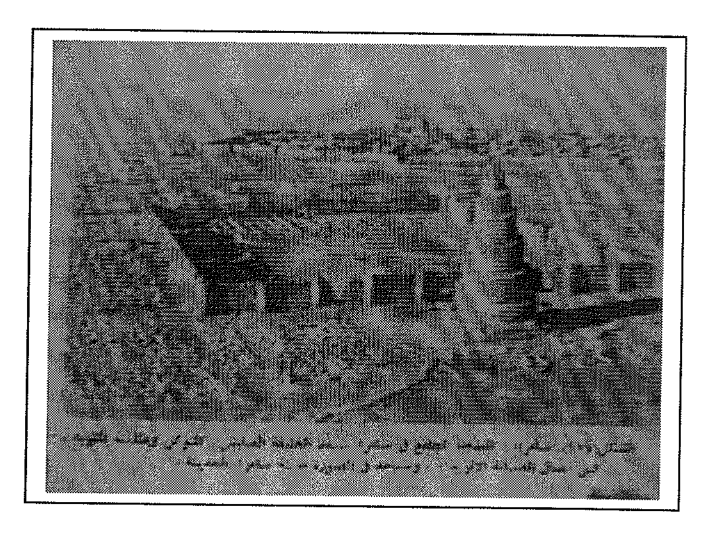
(2) حيث استقرت في مكتبة دار التربية الإسلامية، وقد قمنا بفهرسة مخطوطات هذه المكتبة، وبضمنها مخطوطات السيد عباس حلمي القصاب التي تبلغ وحدها 165 مخطوطة؛ بحثنا: الآثار الخطية في دار التربية الإسلامية، مجلة المورد، المجلد 6، العدد 1، ص207 - 233، وع 2، ص265 - 298.

(3) يبلغ عددها 25 مخطوطة بحسب الفهرس الذي وضعه الشيخ يونس إبراهيم السامرائي رحمه الله، تاريخ سامراء ج3، بغداد 1973، ص231، وقد أفرد هذا الفهرس في رسالة بعنوان: (تراث سامراء).

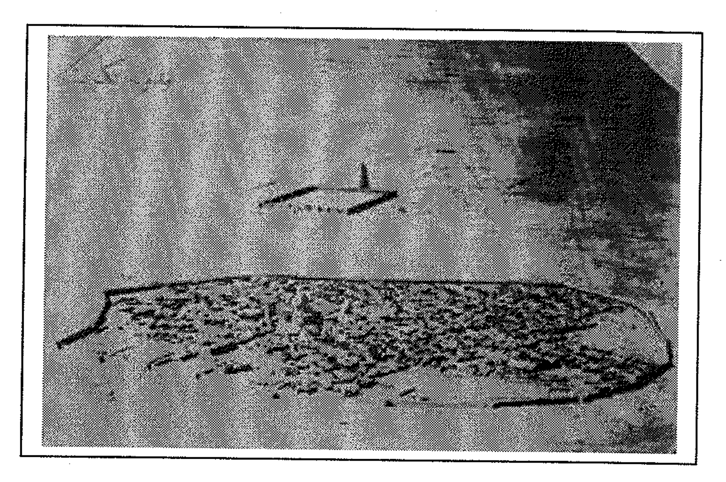
(4) يبلغ عددها 115 مخطوطة بحسب الفهرس السابق.

(5) مجلة لغة العرب، المجلد 2، العدد 4/ السنة 1911 ص143.

نبهوا فيها ونبغوا، وأكثرهم ممن خَضرَم العهدين العثماني والملكي، وحفلت بهم كتب التراجم ومعاجم المؤلفين[1].



البلدة القديمة في أعلى الصورة، وتظهر أسوارها كاملة، وتتقدمها المئذنة الملوية ومسجدها الأثري



صورة جوية قديمة لسامراء يظهر فيها بقايا سورها قبل أن يندثر، وتظهر المئذنة الملوية ومسجدها في أعلى الصورة

(1) ينظر كوركيس عواد : معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، بغداد 1969، ص24 - 34، ويونس السامرائي: تاريخ سامراء تاريخ شعراء سامراء منذ تأسيسها حتى اليوم، بغداد 1970، في مواضع عدة.

حالة تكريت الاقتصادية في العصر العثماني

كان من الطبيعي أن ترسم البيئة الجغرافية لتكريت صورة اقتصادها، وتحدد نوع ما يزاوله سكانها من نشاطات اقتصادية، فمدينة صغيرة تقع على شاطئ دجلة، وتحاصرها الأرض الجرداء غالباً، كان لابد أن تتجه في إقتصادها إلى هذا النهر، بوصفه طريق مواصلات رئيس، فتتحول المدينة، من ثم، إلى محطة مهمة على طريق تجارة النقل (الترانسيت)، ولكونها على شاطئ ضيق تكثر فيه أشجار الطرفاء، كان لابد أن يكون خشب هذه الأشجار مادة ما تصدره إلى بغداد بوصفه مصدرا مهما للطاقة، والأرض غير المزروعة التي تحيط بها كانت المجال الوحيد المتاح لرعي الماشية، وهكذا أدى موقع المدينة وبيئتها إلى تحديد جوانب حياتها الاقتصادية خلال القرون الماضية، ويمكننا أن نعرض هذه الجوانب على النحو الآتي:

أولاً: ملكية الأرض

طبق العثمانيون، منذ أول عهدهم بالمنطقة، النظام المعروف بالتيمار، وهو نظام عثماني يختص بتنظيم ملكية الأرض، إلا أن له أيضا جوانبه العسكرية والإدارية والاقتصادية، فبموجب هذا النظام تقسم الأرض إلى ثلاث فئات، بحسب كمية ما تدره من دخل، هي: خاص (يزيد وارده على 100000 آقجة)[1] وزعامة (يتراوح وارده بين 20,000 و100.000 آقجة) وتيمار (يقل وارده عن 20,000 آقجة)[2]. وقد عدَّ العثمانيون لواء (سنجق) تكريت[3] إقطاعاً من الفئة (خاص)

(1) آقجة: نقد عثماني يعزى ضربه إلى السلطان أورخان سنة 739هـ/1325م، ويعني اسمه (المبيضة) أو (البيضاء) لغلبة الفضة على معدنه، حيث يبلغ عياره 90 بالمائة، ثم تناقص هذا العيار إلى أن بلغ في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر للميلاد) 46 بالمائة، وتوقف ضربه نهائياً سنة 1230هـ/1818م. كتابنا: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، النجف 1975، ص551=555.

(2) جودت باشا: تاريخ جودت، ج1 ترجمة عبد القادر الدنا، بيروت، وجب وبوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج1 ص72.

(3) كانت تكريت تعد في الحقبة من 1539 إلى 1551م مركزاً للواء، أو سنجق، تابع لولاية الموصل ينظر علي شاكر علي: ولاية الموصل العثمانية في القرن السادس عشر، عمان 2010، ص110-111..

حيث كان وارده يبلغ 217,284 آقجة[1]، وهو مبلغ يزيد قليلا عما تدفعه كل من السناجق الأخرى في ولاية الموصل، باستثناء سنجق المركز، ولما كان هذا الوارد يمثل حصيلة لمختلف الضرائب والرسوم المفروضة على أوجه النشاط الإقتصادي في سنجق تكريت، فإنه يشير إلى تنوع أوجه هذا النشاط وارتفاع وارداته آنذاك.

وعلى الرغم من عناية واضعي سجلات الأراضي العثمانية بتصنيف أراضي تكريت وتحديد ما عليها من رسوم،[2] فقد منحت بعض تلك الأراضي إلى زعماء القبائل بوصفها إقطاعات عسكرية من نوع (التيمار)، إذ نقرأ في وثيقة مؤرخة في 10 رمضان سنة 972هـ/1564م أمراً يفيد بمنح (تيمار) لشيخ (طائفة آل عزَّة) وهي قبيلة العزَّة الشهيرة التي كانت تتخذ من تكريت منزلا لها[3]، على أنه تجب ملاحظة أن هذه السجلات لم تشمل أراضي السنجق (اللواء) كلها، والوثيقة الرسمية المؤرخة في سنة 1049هـ/1639م[4] تشير صراحة إلى وجود مناطق في السنجق، لاسيما في منطقة سقي نهر الإسحاقي «ليست مسجلة خواص همايونية (أي اقطاعات خاصة بالسلطان) ولا وقفاً، ولا ملكاً، ولا زعامة، ولا تيماراً»، ومعنى هذا أن المناطق المذكورة لم تدخل حتى تاريخ الوثيقة تحت أي صنف من أصناف الملكية المعروفة يومذاك، وإنما ظلت تُعد أرضاً متروكة، أو خاضعة لسلطة القبائل العربية لا سلطان للإدارة العثمانية عليها.

وتشير الوثيقة المذكورة إلى أن هذه المنطقة الموصوفة بأنها «عاطلة باطلة» أي متروكة تماماً، مُخمَّنة بـ 5999 آقجة، مما دل على أن هذا التخمين كان نظرياً، ولم يكن يُدفع شيء منه حتى قيام أحد شيوخ قبيلة العَزَّة، واسمه درويش «من شيوخ

---

(1) عين علي أفندي: قوانين آل عثمان در خلاصة مضامين دفتر ديوان، ترجمة ساطع الحصري، ينظر كتابه: البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت 1960، ملحق1، ص230- 239.

(2) الآرشيف العثماني، دفاتر طابو، الدفتران 195 و660 يختصان بالتنظيمات العثمانية لولاية الموصل التي وضعت اسسها في عهد السلطان سليمان القانوني في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد)، والدفتر رقم 195 مؤرخ في سنة 951 و956 (1544 و1549)، أما الدفتر رقم 660 فخال من التاريخ.

(3) الآرشيف العثماني، دفتر مهمة رقم 6 ص514.

(4) نشر يعقوب سركيس نصها في بحثه المعنون (قبيلة العزة وشيوخها في منتصف القرن الحادي عشر للهجرة)، جريدة البلاد البغدادية لدى تموز 1945 وأعاد نشرها في كتابه (مباحث عراقية) ج2، 1948، ص300-323.

جماعة عَرّار العربي»، بتقديم طلبه إلى السلطان العثماني حول منحه الأرض «على أن يُعمِّرها» مقابل أن «يسلم البارودخانه (أي مصنع البارود في بغداد) خمسمائة كَلَك [مُحمَّلة] من الأحطاب» فوافق السلطان على أن تُضاف آقجة واحدة إلى مبلغ التخمين، فيكون تمامه 6000 آقجة. وتوضح الوثيقة المؤرخة في 14 ذي الحجة من السنة نفسها (19 نيسان 1640م) بعض ما غمض من سابقتها، فالشيخ درويش هنا يطالب بإسناد مشيخة قبيلة العزة وأحلافها إليه مقابل زيادة حصة ما كانت تدفعه هذه المشيخة من الحطب إلى البارودخانه (معمل البارود) في بغداد، من مائة كلك إلى خمسمائة»، وبهذا فإن الوثيقة تخاطبه باسم (شيخ آل عزة وتوابعها من طوائف الأعراب). والوثيقة المؤرخة في أوائل صفر سنة 1049هـ/3 حزيران 1639م تنوه بحدوث نزاع بين بعض زعماء القبيلة على المزرعة المسماة (مزرعة جماعة العَزّة وغيرها الواقعة في سنجاق تكريت وناحيته). وكانت مشيخة القبيلة تضم عشائر عديدة، انضوى بعضها تحت زعامتها لأسباب مختلفة، فهذا يدل على أن إقطاع الشيخ درويش كان في الحقيقة إقطاعاً عاماً للقبيلة التي يتزعمها، أو (ديرتها) بحسب المصطلح القبلي السائد في ذلك العصر،

ومن ناحية أخرى فإن هذا الإقطاع كان يقرب من نظام الآلتزام الذي اتبعه العثمانيون أيضاً، وتوسعوا فيه كثيراً في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (السابع عشر والثامن عشر للميلاد) بحيث حل الالتزام محل النظام الإقطاعي نفسه.

وتذكر السجلات العثمانية نوعاً آخر من الملكية يسمى (جُولك) ، والكلمة مأخوذة من العربية جَول وتعني البرية، مما يدل على أنها كانت تستخدم كمراع، إلا أن السجلات نفسها تشير إلى أن بعض ملتزميها هم «من أهل زراعة» وأنها «خاصة بزراعة تكريت»[1]، فمن الواضح أن هذه البراري جرى تقديرها أولاً على أساس أنها مَراع، ثم استُزرعَت فيما بعد، ومما يؤكد ذلك أنه ثمة مراع احتفظت بتصنيفها السابق فعرفت إحداها بـ (مزرعة جُولك) وتبلغ عدد هذه المزارع 18 مزرعة توزَّعت على الجانبين الشرقي والغربي.

ويُستدل من مقادير الرسوم المفروضة على القبائل، وهي التي تعرفها السجلات العثمانية باسم (جماعات) على أنها نوع آخر من الالتزام لا يقع على

(1) الآرشيف العثماني، دفتر طابو 660 ص94.

ديرة القبيلة بوصفها أرضاً محددة، وإنما على ما تقوم به من نشاط اقتصادي، وواضح من تفاصيل الرسوم أنها كانت تمارس نشاطاً رعوياً محضاً، وبالطبع فإن هذا النشاط يستلزم وجود (ديرة) من نوع ما، تتولى (الجماعة) ممارسة نشاطها فيها، بيد أن السجلات لا تشير إلى هذا الضرب من الملكية القبلية العامة بأية حال.

وثمة نوع آخر من الملكية يشبه أن يكون ملكية مؤقتة، محددة ببعض فصول السنة، ويتجلى هذا النوع من الأراضي الشاطئية المعروفة بالشطاطي (جمع شطيّة المخففة من شاطئية)، فهذه الأرض تنحسر عنها مياه النهر في فصلي الصيف والخريف، وتغمرها في الفصلين الآخرَين. وعلى الرغم من كونها أرض أميرية، فإن الأسر ذات النفوذ تقوم بوضع يدها عليها، ثم تقوم ببيعها قطعاً صغيرة إلى أسر المدينة الراغبة في زراعتها، فتكون الأرض لذلك مزرع أهل تكريت الرئيسي طيلة الموسم، وتشترك في زراعتها معظم أسر البلدة، حتى قيل أنه كان لكل فرد في تكريت أرضه الخاصة به، يزرعها بنفسه وأسرته، وله الحق في التصرف بها، وبضمنه نقل ملكيتها، ما دامت ظاهرة صالحة للزرع، بيد أن تلك الملكية سرعان ما تزول بانتهاء الموسم نفسه، وانغمار الأرض بالمياه مرة أخرى. وعلى أية حال يمكن شراء القطعة مجدداً من ملتزميها عند انحسار المياه عنها في الموسم التالي[1].

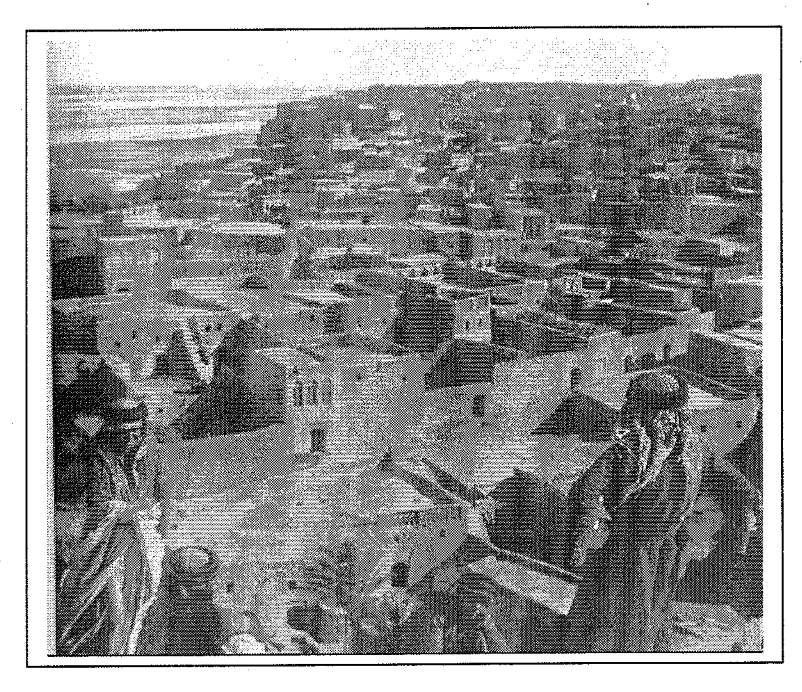
ثانياً: الزراعة

لم تُعنَ سجلات الأراضي العثمانية بالإشارة إلى نوع المحاصيل الزراعية أو حتى النبات الطبيعي، عنايتها بتحديد الرسوم المفروضة عليها، ويفهم من مقادير هذه الرسوم أن نشاطاً زراعياً غير قليل كان يجري حوالي تكريت، إذ تشير إلى أنه ثمة رسم على انتاج الحنطة يبلغ 4140 آقجة، وآخر على انتاج الشعير يبلغ 560 آقجة، بينما يبلغ الرسم المفروض على إنتاج الخُضَر 350 آقجة[2]. كما تشير إلى وجود عددٍ من المزارع يبلغ نحو عشرين مزرعة، تتراوح الرسوم المفروضة على كل منها بين 5200 آقجة و1700 آقجة، ويبلغ مجموعها نحو 80000 آقجة، وهو مبلغ جسيم إذا ما قورن بالرسوم المستحصلة من مناطق زراعية أخرى[3].

(1) أفادنيه السيد شعبان رجب الشهاب، نقلا عن المعمرين.

(2) الآرشيف العثماني، دفتر طابو 660 الورقة 94.

(3) المصدر نفسه.



تكريت سنة 1914

وتقع أكثر مزارع أهل تكريت في الجانب الشرقي، أي في الجهة المقابلة للبلدة من دجلة، وهي تتفرّق على مساحة واسعة نسبياً من الأرض الخصبة، بينما لا يصل عمقها (أي بُعدها عن شاطئ دجلة) إلى أكثر من كيلو متر واحد ونصف الكيلومتر. وقد حددت الوسائل المستخدمة للري حتى نهاية العصر العثماني، هذا العمق، بسبب قدرتها المحدودة على رفع المياه إلى الأرض المجاورة للنهر، وأهم هذه الوسائل وأكثرها انتشاراً هو (الكَرْد) البدائي الذي يتألف من وعاء من جلد البقر تجره الدابة من ضفة النهر حتى يمتلئ بالماء، إلى الساقية التي يصب فيها، ولا شك في أن وسيلة بدائية كهذه لا تصلح لسقي مناطق واسعة من الأرضين.

ويظهر أن رغبة بعض المزارعين في توسيع نشاطهم الزراعي، إبان أواخر القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) أدت إلى استعمال وسيلة أكثر تطوراً، وهي الكرود ذوات المَحاور العمودية المُسننة، التي تدور على نفسها بقوة الدواب، فترفع المياه بواسطة المُسننات إلى مستوى سطح الأرض، والتي تعرف في تكريت بالناعور، وفي مناطق أخرى بالكَرد مطلقاً[1]. وقد شاهد الرحالون هذه

(1) مركز الوثائق بجامعة تكريت، مقابلة مسجلة للسيد نعمان الغني بتاريخ 7 تموز 1983.

الكرود وهي «تروي الحقول الخصبة» هناك[1]. وحينما صارت لقبيلة شمَّر الكلمة النافذة في المنطقة في القرن الثاني عشر والثالث عشر (18 و19م) أصبح لِزاماً على أصحاب هذه الحقول دفع ضريبة عن كل كَرد من هذه الكرود إلى زعماء القبيلة المذكورة، وقد لبثت هذه الضريبة تُدفع في القرن الثالث عشر للهجرة، إلا أنها تناقصت في أواخر ذلك القرن إلى حد كبير[2].

ونقرأ في الوثائق العثمانية، من القرن العاشر الهجري (السادس عشر للميلاد) أسماء بعض مزارع أهل تكريت، منها: مزرعة جولك فخر الدين، مزرعة جولك مكحول، مزرعة جولك العقبة، مزرعة جولك جصّاصة، مزرعة جولك نهر مصايد، مزرعة جولك دور ألوان، وهذه كلها في الجانب الغربي، ومزرعة جولك تل النص، مزرعة جولك شوكة، مزرعة جولك مريعة، في الجانب الشرقي[3].

وأكثر تلك المزارع شهرة، حتى نهاية ذلك العصر، هي التي عرفت بأسماء: الخزامية، الربيضة، السمرة، الخرجة، الحيار، العالي.

ووفقاً للإقتصاد المعيشي السائد فقد كان إنتاج البلدة الزراعي يكفي متطلبات أهلها الغذائية دون حاجة إلى جلبها من النواحي الأخرى، إلا في حالات الطوارئ. وكانت الحنطة والشعير- وهما غذاء السكان الرئيس- يُزرعان في المناطق القريبة من البلدة، وهي تكفي حاجتها منها تماماً، بيد أنها قد تضطر إلى استجلاب كميات منها من الموصل إذا ما داهم حقولها جراد أو انحباس في المطر.

أما الخضروات والفواكه فكانت تزرع على وفق نظام الملكيات الصغيرة في المناطق الشاطئية (المسماة الشطاطي)، وهي تكفي – بوجه عام- حاجات السكان، وربما زادت، فيُصدَّر الفائض منها إلى بغداد، وأكثره من البطيخ والرقّي، بأنواعه الجيدة التي اشتهرت بها منطقة تكريت، مثل البطيخ (السَّبقندي) والرقي (الأفريدوني)[4].

---

(1) اوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ترجمة محمود كبيبو، لندن2009، ص255.

(2) المصدر نفسه ص257.

(3) المصدر نفسه، الأوراق 93- 94.

(4) مركز الوثائق بجامعة تكريت: مقابلة مسجلة مع السيد جمال الدين الآلوسي سنة 1983عن معمرين من أهل البلدة.

وتميزت تكريت بكثرة وجود النبات الطبيعي فيها، إذ تشير الفرمانات السلطانية الموجهة إلى بعض شيوخ العزة إلى تقديمهم كميات ضخمة من الأحطاب إلى مصنع البارود في بغداد، مما يدل على وجود غابات واسعة من أشجار الطرفاء الصالحة لإستعمالها وقوداً، وكانت هذه الغابات أكثر انتشاراً في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (السابع عشر والثامن عشر للميلاد) ولكنها تعرَّضت للتناقص والإنقراض تدريجياً في القرن الثالث عشر (التاسع عشر للميلاد) بسبب استنزافها المستمر، وعدم تعويضها باستنبات غابات جديدة. وتدل الكمية الضخمة من الأحطاب التي تعهد بإنفاذها الشيخ درويش، المذكور سابقا، والبالغة 500 كلك سنوياً، على فداحة ما أصاب تلك الثروة الطبيعية من تدهور سريع. ومن ناحية أخرى، فإن بعض الغابات تحَوَّل، عن قصد، إلى مزارع لانتاج مختلف الغلال، وأكثر تلك الغابات كان يقع في الجانب الشرقي، وفي الغالب فإن معظم ما كان عليه تقديمه من أحطاب يأتي منها. أما في الجانب الغربي، فكانت تتفرق في أماكن محددة، منها (المريزية) و(الحمرة) شمالي تكريت، و(السِّحل) و(جزيرة المطلع) في جنوبيها، وقد جرى انقراض معظم هذه الغابات قبل نهاية العهد العثماني[1].

ثالثا: الثروة الحيوانية

أشار واضعو سجلات الأراضي العثمانية (القرن 10هـ/16م) إلى وجود ثروة حيوانية كبيرة، تتألف من الأغنام والجاموس. وتقوم بعض الجماعات (وهي هنا تعني: القبائل) بتربيتها ورعيها ودفع ما يترتب عليها من رسوم[2]، وبالإضافة إلى ذلك فإن تربية الأغنام والماعز ظلت تمثل دعامة اقتصاد المنزل التكريتي، حيث لم يخلو منزل في المدينة من معزَتين أو أكثر تسمى (المنيحة) لها رعاة مخصوصون يرعُونها في البرية، وهي تستخدم لسد حاجة المنزل أولاً، لا سيما ما يتعلق منها بصباغة الصوف وغزله[3].

أما الجاموس، فليس من المعروف تاريخ استجلابه إلى تكريت، ومن المؤكد أنه كان موجوداً بكثرة قبل العصر العثماني. وتتوفر في ضفاف نهر دجلة وجُزُره البيئة

(1) أفادنيه السيد شعبان رجب الشهاب نقلا عن معمرين سنة 1993.

(2) الآرشيف العثماني، دفتر طابو 660 الورقة 94.

(3) أفادنيه السيد مجيد الشهاب سنة 1993نقلا عن جده المعمر الحاج عثمان فرحان المتوفى سنة 1957 عن عمر زاد على المائة سنة.

المناسبة لتربيته، وقد ظلت غابات (المريزية) و(الحمرة) في شمالي تكريت مرتعاً لأعداد منه حتى آخر هذا العصر، حيث اختصت بتربيتها عشيرة (ألبو حاوي) إحدى عشائر العزة، ومن المحتمل أن أسلاف العشيرة هم الذين استجلبوا الجاموس إلى المنطقة لاختصاص عشيرتهم بتربيتها في أنحاء مختلفة في وسط العراق وجنوبه[1].

وكان وقوع تكريت في عُقدة مواصلات تجارية بريّة، قد خلق حاجة حقيقية لوجود أعداد كبيرة من البغال والحمير لاستخدامها في قوافل النقل، ومن هنا فقد انتشرت تربية هذه الدواب وتزايد عددها، وكان على عشائر تكريت دفع مبالغ محددة، بصفة ضريبة، عن هذه الحيوانات إلى قبيلة شمَّر، حينما أصبحت هذه القبيلة تبسط نفوذها على مناطق الجزيرة المجاورة[2].

رابعاً: الطرق التجارية[3]

احتلت الطرق التجارية مكانة خاصة في الحياة الإقتصادية لبلدة تكريت إبان العصر العثماني، فهذه البلدة التي تتوسط المسافة بين الموصل شمالاً وبغداد جنوباً، وبين منطقة شهر زور شرقاً والفرات غرباً، كان لابد لها من طرق مأمونة تربطها بهذه الأقاليم، وتمارس من خلالها دورها المتميز في تجارة النقل خاصة.

ويمكنن أن نوضح اتجاهات هذه الطرق على النحو الآتي:

1- الطرق النهرية

استُخدم مجرى نهر دجلة لأغراض نقل البضائع من الموصل إلى بغداد، وقد غلب استخدام هذا الطريق على الطرق البرية الأخرى، وذلك لعدة أسباب، أهمها توخي الأمن، حيث لم تكن الطرق البرية آمنة، وللاستفادة من تيار النهر، فضلا عن وجود أكثر تجمعات السكان على ضفافه.

ويتم نقل البضائع والمسافرين أيضا بواسطة (الكَلَك) ذلك المركب النهري البسيط الذي يرقى استخدامه إلى عصور واغلة في القدم، ويتكون من عددٍ كبيرٍ من

---

(1) تعرف منطقتهم الرئيسة في نواحي اليوسفية، جنوبي بغداد، باسم (جويميسة) تصغير (جاموسة)، ومنهم فروع تمتهن تربية الجاموس في الموصل وغيرها. ينظر جميل ابراهيم حبيب: العشائر الزبيدية في العراق، بغداد 1990، ص46- 48.

(2) اوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج ض257.

(3) بدج، واليس: رحلات إلى العراق، ترجمة فؤاد جميل، ج1، بغداد 1966، ص340.

جذوع أشجار (القَوَغ) المستقيمة، توضع بشكل متعامد مكونة مستطيلاً كبيراً، وتشد نهاياتها بالحبال، وتربط تحتها (الجربان) وهي جمع (جِربة) أي (القِربة) المنفوخة بعدد يكفي لحملها. يذكر الرحالة الإنكليزي بدج سنة 1888 أن مساحة الكلك كانت تتراوح بين 10 إلتى 50 من الأقدام المربعة، كما يتراوح عدد الجلود المنفوخة في كل واحد منها بين 50 و1000، وتبلغ مساحة الأكلاك التي تنقل الحنطة من أرض الزاب ودجلة، 40 قدماً مربعاً وزيادة. ويشير باحث معاصر إلى أن مساحة الكلك من هذا النوع كانت تبلغ 12×11 متراً، بينما قد تبلغ حمولته الخمسين طناً، وتستخدم الأكلاك عادة لنقل الحبوب والفحم والزبيب والجوز وسائر منتوجات الشمال، فضلاً عن البطيخ والرقي وبعض أنواع الفاكهة. ويَدِر الإتجار بهذه البضائع أرباحاً جيدة، فضلا عن بيع المواد الداخلة في صناعة الكلك نفسه، والمؤلفة من الجذوع، وعدد كبير من الجلود، مما يُباع عادة عند انتهاء الرحلة في أسواق بغداد. وربما نُقلت الجلود، بعد تفريغها من الهواء وتجفيفها، على ظهور الحمير إلى المكان الذي جُلبت منه أولاً.

وتبلغ المدة التي يقطع بها الكلك المسافة من الموصل إلى بغداد نحو إثني عشر يوماً، وهي مدة معقولة إذا ما قيست بما تستغرقه الرحلة عبر الطريق البري، فضلا عن متاعب السير في هذا الطريق. أما في فصل الربيع حيث يكون اندفاع المياه شديداً، فإن الرحلة لم تكن تستغرق إلا ثلاثة أو أربعة أيام[1]، ويمر الكلك بعددٍ من المواقع والتجمعات السكانية على جانبي النهر، ومن المحتمل أن يتوقف في بعضها، للتزود بالطعام[2] أو للتجارة على حد سواء. ويصف لنا الرحالة بدج معالم هذا الطريق على النحو الآتي:

الموصل، حمام علي، قرية السلامية، نمرود، عوّاي صخر المنيرة، صناديق، المشراق، مصب الزاب الأعلى، قلعة كشاف (بقايا مدينة حديثة الموصل)، قرية مكوك،

---

(1) رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، دار الوراق، لندن 2012ص340

(2) يذكر الرحالة الأب جوزبيه سبستياني في رحلته من الموصل إلى بغداد نهرا سنة 1666م أن ربان الكلك اضطر إلى التوقف عند شاطئ تكريت نظرا لقلة ما تبقى لديهم من طعام تزودوا به في الموصل، ولكنهم لم يجدوا محلا ليشتروا منه زاداً. وفي رحلة له أخرى لم يجد إلا القليل من الطعام. رحلة سبستياني، ترجمة بطرس حداد، بيروت 2006، ص26 و90. بيد أن تغيرا قد حدث في العهود التالية حتى أن الرحالة لجان يذكر بأنه حينما رسى الكلك في تكريت وجد من أهلها رجال ونساء يخوضون شاطئ النهر لبيع ما يحتاجه الكلك من مشتقات الحليب. رحلة لجان، ترجمة بطرس حداد، مجلة المورد 1983 العدد 3 ج12

القيارة، قلعة الشرقاط (آشور القديمة)، الخانوقة، صخر النمل، قلعة البنت أو قلعة مكحول، تريشة، مصب الزاب الأسفل، مصب وادي جهنم، تل مومرس، قلعة جبار، تل الذهب، الفتحة، تل الدكتلك، خان الخرنيني، قلعة أبو رياش، تكريت.

وأما معالم الطريق النهري بين تكريت وبغداد، فهي بحسب وصف بدج كالآتي:

تكريت، إمام دور، تل البنات، سامراء، الاصطبلات، قادسية دجلة، حوّى، خان الصوية (خان المزراقجي)، تل حسين، بلد، بعرورة، السيد محمد، قبة الشواني، مصب نهر العظيم، السِّندية، السعاوية، المنصورية، القصيرية، الطارمية، الملوح، الكاظمية، بغداد.

وعلى الرغم من الأمان النسبي الذي تمتع به هذا الطريق، فإنه لم يكن يخلو من مخاطر تهدد سلامة المسافرين فيه، من اتخاذ قطاع الطرق مواضعهم على شاطئ النهر لتهديد الأكلاك المارة فيه، وذلك بالهجوم عليها أو ضربها بالرصاص بغية نهب محتوياتها[1]، وقد تكررت الأوامر السلطانية لولاة بغداد بوجوب (تأديب) القبائل النازلة على ضفتي دجلة، بسبب ما كان يخشى على هذا الطريق النهري من تعدٍ على الناس بالقتل والنهب[2]، من ذاك افتتح والي بغداد القوي حسن باشا الأيوبي عهد ولايته سنة 1116هـ/1704م بتوجيه حملة عسكرية كبيرة للقضاء على بعض قطاع الطرق الذين اتخذوا من (الخانوقة) جنوبي الشرقاط، حصناً لهم، وقاموا بانتهاب أحد الأكلاك المارة هناك[3]. وكان التجار يضطرون، في بعض المواسم، إلى إنزال حمولتهم إلى البر حيث تنقل على ظهور الدواب، تجنباً لمغبة اجتياز الكلك بعض المواضع الخطرة، ثم العودة إليه بعد إتمام اجتيازه لها[4]. كما أن مجرى النهر نفسه لم يكن خال من العوائق الطبيعية، مثل وجود الصخور العالية التي من شأنها أن تمزق القرب التي ترفع الكلك أو تساعد على تعويمه[5]. وعلى العموم كان السفر في هذا الطريق صعباً وشاقاً[1].

---

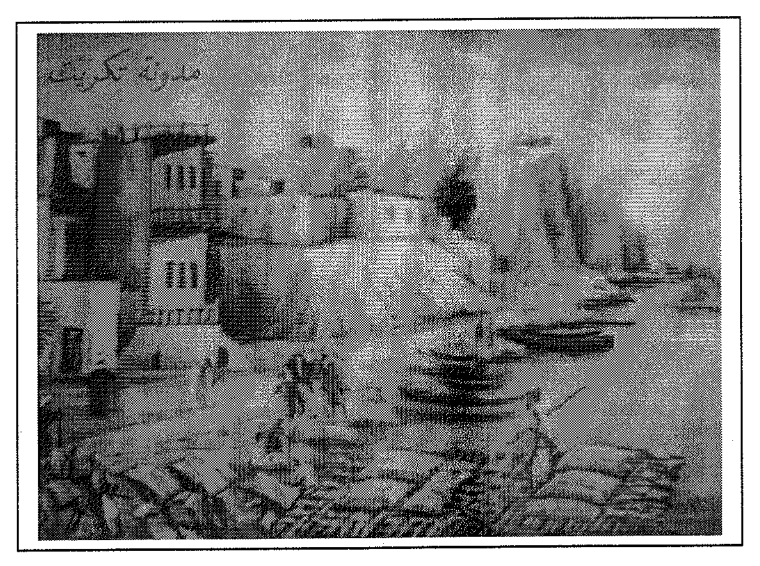
(1) ينظر مصطفى بن كمال الدين الصديقي الدمشقي: كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان، الورقة 16، نسخة كمبردج المصورة في المجمع العلمي العراقي ببغداد.

(2) ينظر مثلا، الآرشيف العثماني، دفتر مهمة رقم 1 وثيقة 44 بتاريخ 25 محرم سنة 972هـ.

(3) عبد الرحمن السويدي: حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، بتحقيقنا، بغداد 2002.

(4) تافرنييه، جان بابتست: رحلة تافرنييه، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد،بغداد 1944، ص76.

(5) رحلة سبستياني ، ص90.



صورة زيتية لتكريت القديمة ويظهر الكلك على شاطئ النهر

2- الطرق البرية

أ- طريق بغداد- تكريت

يظهر أن هذا الطريق هو نفسه الذي سلكه الرحّالون والسيّاح في العصور الإسلامية، دونما تغيير في اتجاهاته، أو في مراحله، حيث لم يكن ممكناً استخدام الكلك إلا نُزلاً، فوصف الشيخ عبد الله السويدي (المتوفى سنة 1174هـ/1760م) بهذا الطريق سنة 1157هـ/1744م، وذكر أنه كان يتألف من خمس مراحل، تقطع في نحو أسبوع واحد، وهي على الترتيب[2]:

بغداد، نهر الحسيني، الفرحاتية، المحادِر، مُهَيجِر، تكريت

ويذكر الرحالة نيبور أن الرحالين الأوربيين لم يكونوا يفضلون السفر عبر هذا الطريق بسبب خلّوه من بقعة مأهولة خلا تكريت[3].

ب- طريق تكريت- الموصل

مرَّ الراهب فنشنسو مارية بهذا الطريق سنة 1656 عاداً إياه «أقرب الطرق، أعني

---

(1) المصدر نفسه ص91.

(2) عبد الله السويدي: النفحة المسكية في الرحلة المكية ، بتحقيقنا، ص 88-96.

(3) رحلة نيبور ص342.

طريق الصحراء»، ووصف المرحلة الأخيرة منه، وهي الممتدة من القيارة إلى الموصل، بأنها تمضي في صحراء قاحلة جرداء، وقد أحرقتها الشمس، فكان الغبار يتصاعد بكثرة من جراء سير الخيول، فصعبت الرؤية وضاق التنفس، فأخذ جميع المسافرين يَشدُّون المناديل على أفواههم، وغَمَرنا الغبار من قمة رؤوسنا إلى أخمص أرجلنا»[1]. وفصل السويدي، بعد قرن من هذا التاريخ، في تعيين مراحل ذلك الطريق، فذكر أنه كان ينقسم إلى تسع مراحل، يتم قطعها في تسعة أيام، هي على الترتيب:

تكريت، وادي الفرس، قزل خان، الغُرابي، البلاليق، الخانوقة، القيارة، المصايد، حمام علي، الموصل[2].

ج- طريق تكريت- الطوز

وهو طريق ثانوي محلي، يستخدمه تجار تكريت، وهم غالباً من سكان بلدة الطُوز، في نقل بضائعهم إلى منطقة حمرين، وتستعمل البغال في هذا الطريق بسبب وعورته، وهذا الطريق يتالف من المراحل الآتية:

تكريت، الناعمة، حمرين، الطوز

د- طريق تكريت- كركوك

طريق ثانوي، يصل منطقة تكريت بمدينة كركوك، قاعدة ولاية شهرزور، وقد استخدمه التجار، من بلدة الدور القريبة من سامراء، للإغراض التجارية مع أهل تلك المناطق. ومراحل هذا الطريق هي:

تكريت، العَلَم، الصفّرة، الحويجة، نخيلة، كركوك.

هـ - طريق تكريت — ديالى

طريق فرعي، لكنه مهم، لأنه يصل منطقة تكريت بسهل ديالى الغني بالفاكهة والحاصلات الزراعية، وقد اختص أهل الدور بالإتجار مع تلك المنطقة، ومراحل هذا الطريق هي:

---

(1) رحلة الأب فنشنسو إلى العراق، ترجمة بطرس حداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، الهيئة السريانية، المجلد 13، بغداد 1989، ص179.

(2) النفحة المسكية ص 96- 100.

تكريت، سامراء، الضُلوعية، العظيم، ديالى

و- طريق تكريت- الفرات

طريق مهم، يصل منطقة تكريت بشاطئ الفرات، حيث تمضي من هناك طرق التجارة الدولية الموصلة بين البصرة وبلاد الشام. ويتولى الحديثيون، وهم تكارتة من أهل حديثة الفرات وجوارها، الإشراف على هذا الطريق، وينقسم إلى أربع مراحل هي:

تكريت، الثرثار، حديثة، على الفرات

وثمة طريق يبدأ من الثرثار وينتهي في عانة على الفرات

وتكثر في هذه الطرق الآبار، كما شيدت بعض الخانات لإيواء المسافرين، منها خان الإخوان، الواقع في الطريق إلى عانة، وخان النمل قرب الشرقاط، وغير ذلك[1].

وأكثر ما كان يصدره التكارته على هذا الطريق: الجلود المدبوغة، التي كانت تباع في مدن بلاد الشام، لا سيما في فلسطين[2].

ويؤكد أوبنهايم على أهمية الطريق الذي كان يصل بين تكريت وكل من هيت وعانة على الفرات، حيث لا تبعد هيت سوى مسيرة يومين ونصف، بينما تبعد عانه أكثر قليلا[3].

وكان على القوافل أن تدفع إلى زعماء القبائل المجاورة التي تبسط نفوذها على هذه الطرق مبالغ نقدية باسم (خوَّة) فضلا عن مواد غذائية مختلفة، كالقمح والشعير والرز والسكر والقهوة والملح، وكذلك الملابس والأسلحة والبارود. وقد توقف أداء هذه الضرائب بعد أن أخذت السلطة العثمانية ببسط سيطرتها هي عن طريق تزويد البلدة، وغيرها من البلدات الأخرى، بالحاميات العسكرية[4].

الحِرَف

غلب النشاط الحرفي على أهل تكريت، إبان العصر العثماني، قياساً إلى سائر

(1) ينظر ألوا موسيل: الفرات الأوسط، ترجمة صدقي حمدي وعبد اللطيف داود، بغداد 1990، ص91.

(2) أفادنيه السيد مجيد الشهاب في تكريت في 25 شباط 1993 نقلا عن جده الحاج عثمان فرحان.

(3) اوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج ص258.

(4) اوبنهايم ص90.

الأنشطة الأخرى، حتى قيل أن ليس من أهلها إلا من يصنع الأكلاك، وينفخ الظروف، ويغزل الصوف[1]. وفي الواقع فإن هذه الحرف كان يفرضها موقع المدينة الجغرافي بالدرجة الأولى، حيث تقع تكريت على أهم طريق نهري في العراق من جهة، وعند الحافة الجنوبية لمراعي الجزيرة من جهة أخرى. وفضلاً عن هاتين الحرفتين الرئيستين، فقد كانت ثمة حرف أخرى لها تعلق بهما، أو أنها كانت تؤدي دورها في سد حاجة السكان الأساسية إلى المصنوعات المختلفة التي تستلزمها حياتهم اليومية.

وتعد صناعة الدباغة من أكثر الصناعات شيوعاً في تكريت لتعلقها بصناعة الظروف (الجِربان) اللازمة لتعويم الأكلاك.

وتشير السجلات الرسمية العثمانية في القرن العاشر للهجرة (16م) إلى وجود (الدباغ خانه) أي محل دبغ الجلود، بوصفها من المرافق التي تؤدي رسماً إلى إدارة السنجق (اللواء)[2]. ويشير المعمرون إلى وجود عدة مدابغ في تكريت في أواخر العصر العثماني، كانت تختص بدبغ جلود الأغنام والماعز وتزييتها بالدهن لتصبح طرية لينة صالحة لأن تكون ظروفاً للأكلاك.

ومن ناحية أخرى فإن هذه المدابغ كانت تنتج (الفراء) بوصفها ضرباً من الملابس، وهو يصنع من جلود الخراف الصغيرة، بعد دبغها ومعالجتها بالزيوت، يرتديها أصحاب الأكلاك خاصة[3].

ولا تقل صناعة النسيج أهمية وانتشاراً عن صناعة الدباغة، حيث وُجدت في تكريت، إبان هذا العصر، عدة آلات نسيج (تسمى جُوَم، جمع: جُومة) لغزل الصوف خاصة، وذلك بعد أن تقوم النساء بجمعه وغزله وصبغه بوسائل بدائية في البيوت. وتشير السجلات العثمانية المذكورة آنفاً إلى وجود (بُويَه خانه) بمعنى المصبغة، وكانت تؤدي رسماً عليها إلى إدارة السنجق[4].

وكانت (الجُوَم) المحلية تنتج أكثر ما تحتاجه المدينة من أنواع النسيج، مثل العباءات،

---

(1) ياسين بن خير الله العمري: غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دارالسلام، بغداد 1968، ص83

(2) الأرشيف العثماني، سجلات الموصل دفتر طابو 660، الورقة 99-100.

(3) شعبان الشهاب: الأكلاك، بحث أشير إليه ص113.

(4) سجلات الموصل، دفتر 660، الورقة 100.

بنوعيها العادي، أو المعروف بـ(الجزّية)، وهو الذي يدخل في صناعته الحرير. والمقطع، وهو قميص يصنع منه (البِشت) وهو رداء طويل يصل إلى الركبتين.

وإلى جانب النسيج الصوفي، كانت ثمة صناعة للنسيج القطني أيضاً، حيث أنتجت (جُوَم) تكريت أنواعاً من النسيج المستخدم في عمل الثياب، كما أنتجت النسيج الحريري المستخدم في عمل ضروب من الأردية يعرف بـ(الجزّيّة= القزية) وفي عمل (الهميان)، وهو الحزام الذي يحاك من خيوط الحرير الأحمر وغير ذلك.

وقد تولّت صناعة النسيج، إبان أواخرالعصر العثماني، عدة أسر توارثتها عن أسلافها حتى تمهرت فيها، منها بيت جمعيو، وبيت سرحان، وعوين من عشيرة الكرامات، وعطية، وغيرهم[1].

وتلبية لحاجة المدينة والقرى المجاورة إلى آلات الزراعة، فقد وجدت في تكريت حرفة (الحدادة) لتتوارثها بعض أسرها، لا سيما الأسرة المعروفة بالسادة الحَداحِّدة، نسبة إلى حرفتها نفسها، وبرز منها في العصر العثماني حدادون ماهرون، أمثال: محمد، وهدُوب، وعبّاوي، وآل عليج. وكان هؤلاء يتولون، إلى جانب عملهم الرئيس، مهاماً أخرى تتطلبها ضرورة الدفاع عن البلدة وأكلاكها، وهي تصليح السيوف والخناجر والبنادق القديمة من نوع (شيشخان)[2]، وجميعها مما كان يجلب من المدن الأخرى لا سيما بغداد والموصل.

وتعد النجارة من الحرف المهمة في تكريت نظراً لكونها من مستلزمات صناعة الأكلاك، حيث اختص نجارو المدينة بعمل مقابض المجاذيف (اليَدّة) والفؤوس وغيرها، هذا فضلاً عن عمل الأثاث المنزلي الضروري للسكان، من أسرة وصناديق ورفوف وصناعة الزوارق من نوع (القايغ)، وهو زورق كبير مُفلطح يستخدم لعبور النهر، وغير ذلك. وقد اختصت بهذه الحرفة أسرة (آل حويز) إذ توارثها الأبناء عن آبائهم عدة أجيال، كما عرف بها أيضاً أفراد من بلدة الدور القريبة الذين نزحوا إلى تكريت واستقروا بها.

---

(1) مقابلة مع السيد مولود أحمد جاسم في تكريت بتاريخ 20 أيلول 1993.

(2) الشيشخانه، من الفارسية، شيش: ستة، وخانه: بيت ، وهي بندقية كان في سطح سبطانتها (ماسورتها) الداخلي ستة خطوط طولا تساعد في دفع القذيفة بالاتجاه المباشر نحو الهدف.

ولابد من الإشارة هنا إلى صناعة السِّراجة واليَمَنجية (الخفاف)، وقد عرف بها في أواخر العصر المذكور أفراد ماهرون، وصلتنا أسماء أشهرهم، وهم علي الحاج هبن، والأخوان سميان وشعبان.

وفضلاً عما تقدم، فقد كانت ثمة حرف أخرى، أهمها حرفة البناء، وممن عرف بها، إبان أواخر ذلك العصر، صالح الشنيب، وعدد من البنائين أكثرهم من بلدة سامراء[1].



جانب من شاطئ تكريت القديمة

---

(1) مقابلة مع السيد مولود أحمد، تقدمت الإشارة إليها.

كربلاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر بحسب الوثائق العثمانية[1]

كان من الطبيعي أن يؤدي ضم السلطان سليمان القانوني العراق إلى الدولة العثمانية الى أن ينعكس هذا المتغير على أوضاع العتبات المقدسة في النجف وكربلا، فقد سعى العثمانيون إلى الاهتمام بها تأكيداً على أن دخول العراق في نطاق السسيطرة الجديدة لن يغير من تقدير المكانة الفريدة التي لهذه المشاهد، ومن ناحية أخرى فإن هذا الإهتمام الذي كانوا يبدونه من شأنه، في تقديرنا، ضمان ولاء قوات الينكجرية (الإنكشارية)، لا سيما بعد أن رفضت هذه القوات المضي في قتال الصفويين في عهد السلطان سليم الأول، على أساس أن القتال لم تكن تبرره الدوافع الشرعية المعلنة للحرب. ويمكننا أن نضيف إلى هذا رغبة السلطان سليمان في إظهار نفسه حامياً ومعمراً للمشاهد المقدسة، مثله في ذلك مثل أعدائه الصفويين، ومن ثم يفقد الأخيرين إحدى حججهم في ضم العراق إلى دولتهم الجديدة، وفضلا عن ذلك فإن العثمانيين أنفسهم كانوا يحملون، كسائر المسلمين أولاً، ثم بتأثير الطرق الصوفية ثانياً، لا سيما المَولَوية والبَكتاشية، تقديراً روحياً عاليا لآل البيت، واحتراماً خاصاً لمشاهدهم في العراق.

أكمل السلطان سليمان العمارة الكبيرة التي بدأ بها الشاه اسماعيل الصفوي للمشهد الحسيني، وتكشف الصورتان اللتان رسمهما مرافقه، وأحد مهندسي جيشه، نصوح افندي مطراقي زاده[2] عن الزيادات الكثيرة التي أحدثها السلطان منذ أول دخوله كربلاء، وفضلاً عن ذلك فقد نجح مهندسو السلطان في شق نهر من الفرات يزود البلدة بالماء نسب اليه فعرف بالنهر السليماني، فزاد هذا المشروع

(1) تستند هذه الدراسة على الدفاتر المسماة (دفاتر مهمة) المحفوظة في الارشيف العثماني في استانبول وهي سجلات كانت تدون فيها ملخصات الاحكام الصادرة عن الديوان الهمايوني التي تمت مذاكرتها في اجتماعات الديوان فيما يتعلق بالأمور الداخلية والخارجية على حد سواء، ويبلغ عددها 266 دفترا تغطي الحقبة الممتدة من سنة 961 الى 1335هـ/1553-1916م.

(2) كتابنا : العراق كما رسمه المطراقي زاده، مركز كربلا للدراسات والبحوث، مؤسسة الأعلمي، بيروت 2015 قارن بين صورتي المشهد الحسيني في ص47 و196

«في محصولاتها وأثمار أشجارها، وأنعم على الخَدَمة والسكان»[1]وهو الذي عُرف فيما بعد بنهر الحسينية[2].

تكررت الإشارة إلى كربلاء في الوثائق العثمانية باسم (المشهدين الشريفين) غالباً، وبـ (المشهدين المباركين) أحياناً أخرى.

شؤون الاقامة

إن تذبذب العلاقة بين العثمانيين والصفويين، سلماً وحرباً، جعل من المشهدين ما يشبه أن يكون ورقة ضغط متبادلة تستخدمها الدولتان في التأثير على مجرى هذه العلاقة بين حين وآخر، ولذلك فقد تضمنت معاهدة (آماسية)، وهي أول معاهدة وقعت بين الجانبين سنة 963هـ/1554م، نصاً مهماً يظهر أن الشاه الإيراني، وهو يومذاك طهماسب الصفوي، أراد به إخراج هذه الورقة من نطاق استخدامها من طرف أعدائه المجاورين له، إذ قررت ضرورة تأمين سلامة الزوار القادمين من إيران لزيارة العتبات المقدسة في العراق، وكذلك تأمين سلامة الحجاج الذاهبين لزيارة بيت الله الحرام[3]. وفي الواقع فإن جميع المعاهدات التالية، كانت تميل إلى التهدئة والابتعاد ما أمكن عن إثارة الطرف الآخر، وهو ما انعكس إيجاباً على موقف السلطات العثمانية من قضية تيسير زيارة الإيرانيين للعتبات من ناحية، والعناية بهذه العتبات من ناحية أخرى.

وفي سنة 972هـ/1564م نقرأ أن «حُكماً وجِّه إلى أمير أمراء بغداد يتعلق بالقادمين من إيران لزيارة المشاهد المباركة في بغداد، وقد اشتمل الحُكم على تعليمات في ذلك الشأن، وجاء فيه أنه صدر إليه في هذا الموضوع حكماً سابقاً شمل التفاصيل المتعلقة بشروط الزيارة وكيفيتها، فعلى أمير أمراء بغداد مراجعة ذلك الحكم والعمل والتقيد بأحكامه»[4].

وكان لابد من أحكام لتنظيم دفن الموتى أيضاً، فحينما قدَّم الشاه الإيراني الى

---

(1) مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا، بغداد 1971، ص200 و201.

(2) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج4، 1949، ص36.

(3) شاكر الضابط: العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وإيران، دار البصري، بغداد 1966، ص10-1

(4) دفتر مهمة 6 ص651 رقم الوثيقة 1432 في 19 ذي الحجة 972هـ/17 تموز 1565م.

السلطان طلباً بالسماح بدفن أحد أفراد البيت المالك، نعمة الله خان، الذي مات في همذان، «في المشهدين الشريفين»، نص الحكم المؤرخ في سنة 972هـ/1564م على «دفنه في مكان خارج المشهدين يتم شراؤه من ماله الخاص»[1]، ومن الواضح أن هذا الشرط كان للحيلولة دون اكتظاظ المشهدين بالقبور والاقتصار على زيارتها فحسب.

وكان إلغاء معاهدة فرهاد باشا[2] إيذاناً بتدهور سريع في العلاقات العثمانية- الإيرانية، وعودة شكوك كل طرف بنوايا الآخر، ومن ثم برزت قضية الزيارة والحج على سطح هذه العلاقات بوصفها ورقة ضغط، ففي الوثيقة المؤرخة في 28 ذي الحجة 988 هـ/ 1580م نقرأ أن حُكماً موجهاً إلى أمير أمراء (لحسا) جاء فيه «أن البعض من الإيرانيين يعبرون الحدود بتبديل أزيائهم بحجة القصد إلى أداء فريضة الحج بعد رشو القائمين على محافظة الحدود، ثم يندسُون في قوافل الحجاج بنية إيقاع الفتنة والفساد بينهم ويَصلون إلى الحرمين الشريفين، وقد نص الحكم على ضرورة تعيين جواسيس أقوياء من المعتمَدين لتفقد أحوالهم عند دخولهم الممالك المحروسة الإسلامية، وإذا كان مَقدَمهُم بقصد تعاطي التجارة فيُسمح لهم بذلك بموجب رخصة يمنحها لهم أمير أمراء لحسا، وألاّ يُمنَعون من الدخول ويُطرَدون من البلاد»[3].وفي الوثيقة المؤرخة في ربيع الآخر من سنة 1018هـ/ تموز 1610م نقرأ أن حكماً موجهاً إلى الوزير محمود باشا محافظ بغداد جاء فيه « أنه منذ فسخ معاهدة الصلح مع شاه إيران فإن بعض الطوائف الإيرانية تتردد إلى الممالك المحروسة بقصد الحج أو التجارة ثم تتوطن فيها خفية، وقد نص الحكم على عدم السماح لأي فرد من الإيرانيين بالدخول إلى البلاد مهما كان قصده من زيارة أو تجارة أو حج، حتى تنقضي أيام العداوة القائمة بين الدولتين، وحتى يصل أمر آخر من السلطان بشأنهم، كما نص الحكم على اتخاذ جميع التدابير اللازمة على الحدود لمنع التسرُب إلى البلاد العثمانية، وقد تم توجيه أحكام مماثلة إلى أمير أمراء كل من البصرة والحَسا»[4].

---

(1) دفتر مهمة رقم 1 ص165 وثيقة رقم 354 بتاريخ 4 ربيع الآخر سنة 972هـ/8 تشرين الثاني 1564م.

(2) معاهدة عقدت سنة 1590، ينظر الضابط، مصدر سابق ص31.

(3) دفتر 42 ص176 الوثيقة رقم 554 في 28 ذي الحجة 988هـ/13 كانون الثاني 1501م.

(4) دفتر 78 ص197 الوثيقة رقم 1810 في ربيع الآخر 1018هـ/1610م

التوسعة والعمارة

عُنيَت الإدارة العثمانية بتعمير المشهد الحسيني والزيادة فيه بين حين وآخر، ففي سنة 976 هـ/1568م صدر حكم عثماني الى أمير أمراء بغداد[1] يقضي بتعمير المشهَدَين، و«بتأمين مواد الإنشاء اللازمة لتعمير وترميم القبب الشريفة للمشهدين الشريفين من أخشاب وحديد وكلس»، ونظراً لندرة الأخشاب المتينة في العراق، فقد تضمن الحكم تأكيدا على «تأمين أخشاب الصنوبر من بلدة بيره جَك»[2]، وكانت هذه البلدة تمثل الميناء المهم الذي يجري من خلاله إرسال الأكلاك المحملة بالبضائع والمهمات إلى مدن العراق الواقعة على الفرات أو القريبة منه، ومن المؤكد أن أخشاب الصنوبر كان يؤتى بها من غابات جبال طوروس في جنوبي بلاد الأناضول[3].

وفي سنة 984هـ/1576م قام والي بغداد علي باشا الوَند، بأمر من السلطان، بعمارة المشهد الحسيني عمارة كبيرة شملت الرواق والقبة، كما عمَّر أيضا قباب شهداء كربلاء[4] وفي الحكم الصادر في 5 محرم 987هـ/3 آذار 1579م الموجه إلى أمير أمراء بغداد إشارة إلى كتاب ورد منه إلى السلطان يذكر فيه أن المسجد الملاصق لمقام الإمام الحسين رضي الله عنه مُشرِف على الخراب، وبحاجة إلى التعمير والترميم، وقد دلَّ الكشف على أن تكاليف هذا التعمير والترميم تبلغ حوالي سبعة ألف فلوري.[5]» ونص الحكم على القيام به ومقابلة المصاريف من خزينة بغداد[6] .. وبعد أقل من عقد واحد جرت عمارة جديدة للمشهد، وذلك سنة 991هـ/1583م[7]. ولا تشير الوثائق التي وقفنا عليها إلى كلفة هذه التعميرات، إلا أننا نستطيع أن نتصور ضخامتها بالمقارنة بكلفة تعمير مشهد الإمام علي (ع) حيث تضمنت وثيقة[8] مؤرخة

---

(1) هذا هو أصل لقب (مير ميران) الذي كان يمنح بحسب نظام الإقطاع العسكري العثماني إلى حكام الإيالات المهمة، وقد أبدل في العصر التالي باسم (والي).

(2) دفتر مهمة رقم 7 ص864 الوثيقة رقم 2368. رقم الوثيقة 1432 في 19 ذي الحجة 973هـ/6 تموز 1566م.

(3) دفتر مهمة رقم 7 ص864 بتاريخ 11 جمادى الأولى سنة 976هـ/1 تشرين الثاني 1590م

(4) كلشن خلفا ص208.

(5) قطعة نقدية تنسب الى مكان ضربها فلورنسا.

(6) دفتر مهمة رقم 36 ص96الوثيقة رقم 379 في 5 محرم 987هـ/ 3 آذار 1579م

(7) تاريخ العراق بين احتلالين ج4 ص117

(8) دفتر 67 ص52 صفر 999هـ/تشرين الثاني 1590م.

في صفر 999هـ/تشرين الثاني1590م حكماً موجهاً إلى أمير أمراء بغداد ودفتردارها يتعلق بتعمير وترميم تربة الإمام ، جاء فيه أنه ثبت «من الكشف الأخير أن أعمال الترميم هذه تكلف 15 ألف ذهب على وجه التعيين، وقد نص الحكم على إتمام مصاريف التعمير من خزينة بغداد فيما إذا لم تفيها واردات الأوقاف الخاصة بتربة الإمام».

ويكشف الفرمان الصادر في 28 ذي القعدة سنة 982هـ/19 شباط 1575م الموجه إلى أمير أمراء بغداد عن أن الأخير اقترح على السلطان تخصيص واردات النهر الذي جرى حفره بأمر من السلطان سليمان القانوني، وهو المعروف بالنهر السليماني، للإنفاق على مصاريف «مدينة حضرة الإمام الحسين رضي الله عنه» بدلا من واردات النهر الذي حفره الشاه إسماعيل، ولم تتوضح أسباب هذا الاقتراح، إلا أن السلطان وافق عليه، وأن أمراً (همايونياً) صدر إلى كاتب الولاية بهذا الشأن[1].

الوقف على المشهدين

كان وقف العقار على المشهدين والإنفاق على زوارهما يمثل مجالاً رحباً لتوخّي الأجر وابتغاء الثواب، وقد تبارى الواقفون ومنهم وزراء عثمانيون في هذا المجال، حتى وجدنا في الوثائق العثمانية إشارات كثيرة الى هذه الشؤون، وقد سعت السلطات الى صيانة تلك الأوقاف كلما تناهى إليها خبر تعدّي بعض الطامعين عليها، ففي سنة 985 هـ/1577م صدر حكم موجه إلى أمير أمراء بغداد وقاضيها وقاضي المشهدين الشريفين، يقرر بأن عدداً من الطامعين، ومنهم عيسى و عبد السلام، إعتدوا على أموال وأملاك الوقف، وتملكوا أفضل الأراضي الوقفية لقومهم وأقاربهم، «وقد نص الحكم على إجراء تحقيق في ذلك ورد الأمور إلى نصابها»[2]. وفي الوثيقة المؤرخة في 987هـ/1579م نقرأ «أن حكماً موجهاً إلى أمير أمراء بغداد وقاضيها يقضي بإجراء تحقيق في حق متولي وقف المشهدين مظفر مشرف التبريزي بناء على رسالة وردت إلى السلطان من قاضي الموصل مولانا ولي زيد فضله يذكر فيها اعتداءه على أموال الوقف بالأكل والبلع»[3].

---

(1) دفتر مهمة رقم 2 ص151 في 28 ذي القعدة 982هـ/10 آذار 1575م.

(2) دفتر 31 ص295 الوثيقة رقم 331 في 12 رجب 985هـ/23 أيلول 1577م.

(3) دفتر مهمة رقم 40 ص192 الوثيقة رقم 353 في 13 جمادى الآخرة 987هـ/ 6 آب 1579م .

وفي السنة نفسها صدر حكم إلى أمير أمراء بغداد جاء فيه أن (دارنده سيد حسين) من السادات المقيمين في المشهدين الشريفين قدم عريضة إلى السلطان يذكر فيها «أن كتخدا أمير أمراء بغداد المتوفى مراد باشا وناظر لواء الرفاهية (الرماحية) جعفر اعتدى على أملاكه واغتصب جميع محصولاته، كما يذكر فيها مظالم أخرى ارتكبها المذكور، وقد نص الحكم على إجراء تحقيق في أمره ورد الحقوق إلى أصحابها»[1]. ولعل مما يلفت النظر ان هذا السيد رفع عريضته الى السلطان العثماني مباشرة متجاوزا سلسلة من المراجع الادارية، وان السلطان استجاب لطلبه بالطريقة نفسها.

التولية والسدانة

ومنذ أوائل القرن الحادي عشر للهجرة نقرأ عدداً من الأوامر السلطانية تتعلق بأوقاف وقفها مسؤولون عثمانيون على مشهد الإمام الحسين (ع)، منها فرمان صدر في سنة 1018هـ/1609م يتضمن حكماً «إلى الوزير محمود باشا محافظ بغداد[2] ويتعلق بالوقف الذي وقفه الوزير حقي باشا على «مرقد الإمام الحسين رضي الله عنه» وفيه تعليمات خاصة بذلك الوقف[3]. ولغرض تنظيم الإشراف على شؤون هذه الأوقاف فقد أنيطت التولية عليها بمَن تسميه الوثيقة (مصطفى آغا) ولا نعلم هوية هذا المتولي، وما إذا كان من أبناء البلدة أم من غيرها،[4]. وعلى أية حال فقد أنيطت التولية على مشهد الامام علي في العصر نفسه الى من يحمل هذا اللقب أيضاً[5]. ومما يؤكد أهمية شؤون التولية أن حُكماً آخر صدر بشأنها في اليوم التالي لصدور الأول تضمن تعليمات أخرى[6].

---

(1) دفتر مهمة 31 ص395 الوثيقة رقم 655 في 13 رجب 16/985 أيلول 1577م.

(2) هو والي بغداد حافظ محمود باشا. ورد اسمه في معاهدة صلح سنة 1022هـ/1613م، ولا ذكر له في المصادر الأخرى.

(3) دفتر رقم 78 ص38، 8 شعبان 1018هـ/ 5 تشرين الثاني 1609م

(4) الدفتر 79 ص252 في 2 ذي القعدة سنة 1019هـ/ 4 نيسان 1601م

(5) دفتر 104 ص54 أواسط شوال 1102 هـ/ 11 تموز 1691م حول تولية عبد الله آغا "على الأوقاف الشريفة للإمام علي رضي الله عنه في بغداد ويشتمل على تعليمات خاصة بذلك".

(6) دفتر 79 ص257ذي القعدة 1019هـ/نيسان 1601م.

وفي سنة 1056هـ/ 1646م نقرأ حُكماً موجهاً إلى أمير أمراء بغداد وقاضيها ويتعلق «بالشؤون الخاصة بأوقاف الإمام الحسين رضي الله عنه» ، ويشمل تعليمات حولها، و«قد صدر الحكم بناء على طلب قدمه إلى السلطان السيد علي شيخ تربة الإمام الحسين رضي الله عنه»، وهذه الوظيفة (شيخ التربة) هي ما عرفته المصادر الأخرى المعاصرة باسم (السادن) و(الخازن)، وكانت تتولاها عهد ذاك أسر كربلائية أبرزها آل الأسَدي وآل زحَيك وآل الزعفراني. ولا تشير الوثيقة إلى هوية السيد علي هذا، إلا أن تعريفه بالسيادة يدل على أنه من إحدى الأسر العلوية التي كانت تسكن البلدة، ولها من الاعتبار الاجتماعي ما يؤهلها لتولي هذا المنصب الرفيع، ونذهب إلى أنه السيد علي بن محمد الدراج بن سليمان بن سلطان، من آل الدراج وهم فرع من آل زحيك، فنحن نعلم أنه تولى منصبه سادناً للعتبة الحسينية في سنة 1049هـ/1639م، ولم يتولَّ بعده سَميُ له[1]. ومما يلفت النظر أن الوثيقة تشير الى أن هذا السادن كان قد كتب الى السلطان بمقترحات حول الوقف مباشرة، أي دون أن يخاطب أمير أمراء بغداد او حتى نقيب أشرافها كما جرت العادة، مما يدل على المكانة الرفيعة التي تميز بها في ذلك العصر[2].

وفي الأمر المؤرخ في 1089هـ/1676م نقرأ حكماً موجهاً إلى باشا بغداد، وهو عهد ذاك قبلان مصطفى باشا، وقاضيها[3]، جاء فيه أن السيد أبا بكر القادري ذكر في عريضته التي قدمها إلى السلطان في الأمور والشؤون العامة بالسادات الكرام في بغداد والمشهدين الشريفين فيها مُفوَّضة إليه من قبل نقيب الأشراف مولانا السيد محمد سعيد، بموجب رسالته التي تحمل ختمه وتوقيعه في ذيلها، ولا ينبغي لأحد غيره أن يتدخل فيها، وقد نص الحكم على ضرورة العمل وفق طلبه[4]. ويظهر أن أبا بكر القادري هذا هو من ذرية نقباء الأشراف في بغداد، الذين تولوا نقابة بغداد في سنة 941هـ/1534م، وعلى هذا الأساس فقد ولاه نقيب الأشراف في الدولة العثمانية السيد محمد سعيد أمر الإشراف على شؤون العلويين الساكنين في بغداد وفي المشهدين الشريفين، على أنه لم يذكر من هذه

---

(1) ضامن بن شدقم: تحفة الأزهار ، الورقة 48 وكتابنا : الأسر الحاكمة ص360.

(2) دفتر 90 ص33 في أواسط محرم 1056هـ/4 تموز 1602م

(3) هو عبد الفتاح بن عبد الرحمن ، ينظر الأسر الحاكمة ص68.

(4) دفتر مهمة رقم96 ص66 في اواسط جمادى الاول سنة 1089هـ/4 تموز 1676م.

الشؤون أمور الإشراف على الأوقاف المرصودة على المشهدين المذكورين، ومن الواضح أن مهمة الأوقاف هذه كانت عهد ذاك بيد شيخ التربة أو السادن كما تقدم، ولم يكن للدولة، أو النقابة العامة فيها شأن بها.

وكان توقيع معاهدة زَهاب في 14 محرم سنة 1049هـ/17أيار1639 م سبباً في استقرار الأوضاع بين الدولتين مدة قاربت القرن، ففي سنة 1100 هـ/1689م نقرأ حكماً موجهاً إلى والي بغداد «يتعلق بالمسائل العامة بأوقاف المشهدين المباركين في بغداد من إدارتها والتولية عليها ويشتمل على تعليمات حولها»[1] وان تزايد الوقف عليهما في بغداد كان سبباً في إصدار هذا الأمر السلطاني، لينظم إدارتها والتولية عليها. وفي الفرمان المؤرخ في سنة 1101هـ/1690م نقرأ امرا الى والي بغداد علي باشا يتعلق بتعيينه واليا على بغداد ويشتمل على تعليمات وتوجيهات حول تقرير الأمن وضبط النظام في الولاية ومراعاة شروط الصُلح والصلاح مع شاه إيران[2].

وفي شعبان من سنة 1103هـ/أيار 1692م صدرحكم موجه إلى والي بغداد أحمد باشا[3] وملا (قاضي) بغداد، ويشتمل على تعليمات تتعلق بعدم مطالبة الإيرانيين القادمين إلى بغداد من أجل الزيارة بدفع رسوم «خلافاً للشرع»، ويأمر «بحمايتهم وضيافتهم وتوفير الأمن والراحة لهم أثناء إقامتهم فيها وعدم إيذائهم بوجه من الوجوه»[4].

وفي السنة التالية صدر حكم إلى والي بغداد وقاضيها يشمل تعليمات وتوجيهات «حول إجراء أحكام العدل وقواعد النصفة وإزاحة آثار المظالم والبدع في القرى والأمصار لأن الرعية عامة ولا سيما أهالي كربلاء وسائر الروضات العاليات ودائع رب العالمين فيجب حمايتهم وصيانة حقوقهم والعمل من أجل راحتهم ورفاهم وقد جاء هذا الحكم تأكيدا وتأييداً للأحكام الصادرة في الموضوع»[5])

---

(1) دفتر 99 ص22 أواخر رجب1100هـ/15 أيار 1689م

(2) دفتر 106ص161 اوائل ذي القعدة 1101هـ/5 آب 1690م.

(3) هو الوزير أحمد باشا البازركان، ولي بغداد من 1102 الى 1105هـ/1690- 1693م.

(4) دفتر 104 ص 10 في أواخر شعبان 1103هـ/الأول من أيار 1692م.

(5) دفتر مهمة 112 ص219-220 في أوائل ربيع الآخر 1114هـ/24 آب 1702م.

ويفهم من الحكم التالي، الصادر في نهاية الشهر المذكور، أن الزوار الإيرانيين الذين كانوا يقصدون مشاهد الأئمة يطالَبون حين وصولهم بغداد بشيء من المال بصفة رسوم الزيارة، وأنهم كانوا يجلبون معهم «أشياء وتحف» وأموال أخرى لغرض إيفاء نذورهم، ففي الفرمان المذكور، وهو موجَّه إلى والي بغداد وقاضيها نجد تأكيدات أكثر قوة بوجوب الإمتناع عن جباية هذه الرسوم والهدايا، وتأمين الطرق لأولئك الزوار، حيث تناول الفرمان كله تعليمات وتوجيهات تتعلق «بتوفير الأمن والراحة ومزيد الإطمئنان لزوار مراقد ومشاهد الأئمة الكبار -رضوان الله تعالى عليهم- من الممالك الإيرانية، في مَقدَمهم إليها وعودتهم إلى بلادهم، وقد نصَّ الحُكم على عدم مطالبتهم بشيء مقابل زيارتهم لهذه الأماكن، كما نصَّ الحُكم على عدم التعرض لهم في نذورهم وما يجلبوه معهم إلى المراقد والعتبات المقدسة من أشياء وتحف لما بين الدولة العلية وشاه إيران من مصافاة قديمة وموالاة مستديمة، وقد شمل الحكم على تعليمات قاطعة ومؤكدة في ذلك»[1].

النقابة

ومع الإستقرار النسبي للأحوال الأمنية في المنطقة، أخذت أسر علوية عديدة بالسكن في المدينة، حتى اصبحت تمثل تجمعاً كبيراً من السادة العلويين، وهو ما دفع بنقيب الاشراف في استانبول الى اقتراح تأسيس نقابة أشراف خاصة بها، تضاف الى النقابات الثلاثة القلئمة في العراق فعلا، وهي نقابات بغداد والنجف والموصل، حيث تكشف وثيقة مؤرخة في رمضان 991هـ/1583م موجهة إلى أمير أمراء بغداد، وهو يومذاك علي باشا الوند زاده، تفيد بأن نقيب أشراف القسطنطينية محيي الدين كتب بهذا المقترح الى السلطان تاركاً تسمية المرشح لهذه النقابة لمتولى الوقف في المدينة، وبينما تسكت الوثيقة عن تسمية متولي الوقف هذا، فإن مصادرنا المحلية تذكر أنه شمس الدين بن شجاع القاضي الحائري الأسدي (الذي تولى منصبه قبل سنة 963هـ/1555م واستمر به حتى ما بعد سنة 990هـ/1582م) . وجاء في الوثيقة أن «الحكم موجه إلى أمير أمراء بغداد وقاضيها ويتعلق برسالة وردت إلى السلطان من أعلم العلماء المتبحرين مولانا محيي الدين نقيب الأشراف - أدام الله تعالى فضائله- حول إحداث نقابة رابعة

---

(1) دفتر 112 ص321 في اواخر ربيع الآخر 1114هـ/20 أيلول 1702م.

في تربة الإمام الحسين رضي الله تعالى عنه وتعيين محمد بن إسماعيل نقيباً من قبل متولي الوقف، ويلتمس رفع ذلك من السلطان، وقد نص الحكم على إسعاف طلبه برفع النقابة المُحدَثة في وقف الإمام الحسين رضي الله عنه»[1].

إن (إحداث) نقابة في كربلا في هذا التاريخ، يختلف مع ما نملكه من معلومات عن هذه المؤسسة، ذلك أن اسم (النقيب) تردد في وثائق المدينة منذ سنة 895هـ، وكان شرف الدين بن طعمة الأول، من آل فائز، هو أول من لقب به في ذلك التاريخ، ثم تولاها آخرون من أل زحيك، بل أن سنة 991هـ/1583م هي السنة التي تولى فيها النقابة إسماعيل بن سلمان بن إدريس بن جماز من الاسرة نفسها، وقد استمر فيها حتى سنة 997هـ. ومن الصعب التوفيق بين منطوق الوثيقة الذي يفيد بـ (إحداث) النقابة في هذا التاريخ، وبين وجودها مستمرة في العهد المذكور، إلا أن نفترض أنها كانت قد انقطعت قبل هذا التاريخ مما استدعى إعادتها في 991هـ/1583م، وهو إفتراض معقول لأن غموضاً شديداً يلف الفترة من 976هـ/1568م الى ذلك التاريخ[2]

وهكذا فقد تميزت الحقبة الممتدة حتى منتصف القرن الثاني عشر (الثامن عشر للميلاد) بنوع من الإستقرار والهدوء بين الدولتين العثمانية والإيرانية أدى إلى أن ينعكس ذلك إيجاباً على أحوال العتبات المقدسة، وكان يمكن أن تشهد المنطقة مزيداً من استتباب الأمن وتحسن العلاقات لولا الأزمة السياسية والعسكرية الخطيرة التي نجمت عن الهجومات المتكررة التي شنها نادرشاه على مدن العراق الرئيسة في ذلك التاريخ.

---

(1) دفتر مهمة رقم 52 وثيقة رقم 111 ص51 في رمضان 991هـ/17 أيلول 1583م.

(2) يذكر إبراهيم شمس الدين القزويني: البيوتات العلوية في كربلا ج2 ط. رونيو 1978ص7 انه تولى النقابة حتى عام 976 وفي شجرة ال زحيك الملحقة بكتاب محمد حسن آل طعمة: مدينة الحسين، ايران 1941، ج2 ملحق 2 انه تولاها حتى 957 وثمة وقفية باسمه تاريخها 991 مدينة الحسين ج4 ص39 وينظر كتابنا: الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة، بغداد 1991، ص359.

عَنكاوا في القرن السادس عشر

مقدمة

يُقدَّر عدد الوثائق المحفوظة في الآرشيف العثماني في استانبول بنحو 150 مليون وثيقة تتناول مختلف شؤون الدولة العثمانية في خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، وينقسم هذا الآرشيف الثر إلى مجموعات كبيرة، بحسب المؤسسات التي صدرت عنها والإختصاصات التي تناولتها. ومن تلك المجموعات المهمة ما عُرف باسم (دفاتر التحرير) أو (دفاتر الطابو)، وهي سجلات دُوِّنت فيها نتائج عمليات المسح والإحصاء التي قامت بها الدولة للأراضي الداخلة ضمن نطاق سيادتها، وتشمل المدن والقرى والحقول والبساتين وغير ذلك، وتتناول هذه المُسُوحات في الأساس تسجيل الضرائب التي كان يتوجَّب على أصحاب تلك العقارات تقديمها إلى الدولة، إلاّ أنها تناولت أيضاً معلومات مهمة أخرى، مثل أسماء القرى، وأسماء دافعي ضرائبها، والمسؤولين عن جمعها، وأنواع المحصولات الزراعية التي يتم دفع الضرائب عنها، وأنواع تلك الضرائب، وما يقترن بها من رسوم، وأعداد الأسر، والعُزاب، وما إلى ذلك من شؤون تفيد الباحث اليوم في التعرف على الجوانب الإقتصادية والإحتماعية في ذلك العصر.[1]

ومن تلك المجموعة الدفتر المسمى (دفتر تحرير مفصل وإجمال ولاية أربيل)[2] وقد كتب، كسائر السجلات العثمانية باللغة التركية القديمة، في سنة 949هـ/ 1542، وهو يشمل مدينة أربيل وما يتبعها من قرى وحقول ومزارع ومستغلات مختلفة، ومن المعلومات المهمة التي يقدمها هذا السجل ديانات السكان ، إسلامية ومسيحية

---

(1) لبثت أربيل في مطلع العصر العثماني ولاية قائمة بذاتها، ثم ضمت إلى إيالة شهرزور، بوصفها لواءاً، ومن الصعب تحديد النطاق الاداري للواء أربيل عصر ذاك ، فإن هذه الحدود كانت تتغير بحسب الأحوال والظروف. وكثيرا ما تداخلت الصلاحيات بين أمير أربيل وأمير أمراء شهرزور، ينظركتابنا : دراسات وثائقية في تاريخ الكرد الحديث وحضارتهم، دراسة بعنوان (أربيل في وثائق القرن السادس عشر) ، دمشق 2013 ص67-77.

(2) نشر هذا الدفتر بالحروف العثمانية الدكتور محمد مهدي إيلهان، في مجلة وثائق التاريخ التركي، قبل نحو عقدين من السنين، وترجمه إلى العربية الصديق الدكتور خليل علي مراد، ونشرته الأكاديمية الكردية سنة 2015، ، ولابد هنا من تقديم الثناء له على الجهد الكبير الذي بذله في ترجمته وعلى ملاحظاته أيضاً.

ويهودية، وليس ذلك إلا للعلاقة بين هذه الديانات وبين أنواع الضرائب المفروضة، وفيما يأتي أسماء المحلات والقرى التي كان يسكنها المسيحيون عهد ذاك.

اسم المحلة او القرية		عدد الاسر	عدد العُزاب
اربيل، محلة كويلي		9	3
اربيل، محلة ملك		20	2
اربيل، محلة زركان		83	8
اربيل، محلة كوزه جيان		46	2
أربيل، مجموع عام للمسيحيين	172	158	119
حسيني		38	1
ديركه[1]		74	18
شكك (أو مشكك)[2]		79	22
صغرى (جعفري)[3]		27	5
عرب كندي		20	
كزنه[4]		10	4

(1) هي (ديرك) قرية كانت تقع على الطريق تاعام بين أربيل وعنكاوا، فيها مسيحيون نزحت منهم اسر الى عنكاوا، وكان فيها تل قديم، وكنيسة، وقد اندثرت هذه القرية وشغل موقعها فيما بعد (مطعم أبو شهاب). عن فاروق حنا، مدير المتحف السرياني في عنكاوا..

(2) تردد ناشر النص التركي ايلهان قي قراءته، والاسم الصحيح هو (مشك) وذكر الاستاذ فاروق حنا انها تسمى (كلكه مشك) وتقع في منطقة (مخمور) وكانت تضم جماعة مسيحية هاجرت الى عنكاوا.

(3) هكذا تردد الناشر التركي ايلهان في صحة قراءة الاسم، مع أنه سيذكر الاسم (جعفري) في موضع آخر (ص190)، وفي الأصل أن اسمها الآخر هو (كراوي) وأنها تابعة لأربيل. قلنا: وكراو قرية بين أربيل ومصيف صلاح الدين، وهي تبعد عن الأولى بنحو 22 كم، وقد اشتهرت بمرصدها الفلكي، وتقويمها الخاص الذي يعرف بالتقويم الكراوي نسبة إليها. كتابنا: مراكز ثقافية مغمورة في كردستان، ط2، أربيل 2008، ص131.

(4) تقع كزنه على بعد 7 كم من شمالي غربي عنكاوا. وذكر فييه انه كان فيها مسيحيون حتى ما قبل مائة سنة من تأليفه كتابه اي في منتصف القرن التاسع عشر. جان موريس فييه: آشور المسيحية، ترجمة نافع توسا، بغداد 2011 ج1 ص144

كيران		8	1
منارة[1]		35	6
بو بكر باد		31	8
بادى[2]		3	
باريبه		75	3
حزه[3]		46	2
كفر حزه		19	2
جلال آباد		4	
آلتون كوبرى		5	
أحمدى		8	1
باد آباد[4]		29	6

عدد السكان:

أما على مستوى الولاية، فقد بلغ عدد السكان30696 نسمة، شكل المسيحيون 4489 منهم، أي بنسبة 624،14٪، بينما كان عدد المسلمين 25040، بنسبة 504،81٪، واليهود 1167 أي بنسبة 802،2٪ .

وتمثل قرية (عنكاوا) أهمية خاصة بين قرى ولاية أربيل، من حيث عدد سكانها، ونشاطهم الزراعي على حد سواء، وقد قدم الدفتر معلومات مهمة عنها شغلت الاوراق 59–61 منه. ويمكن عرض هذه المعلومات، مع تقديم بعض الملاحظات، على النحو الآتي:

---

(1) قرية لما بزل طاحونها ماثلا قرب قرية حزة.

(2) تردد ناشر النص التركي ايلهان في قراءتها فكتب الى جانب الاسم بين قوسين (يلدى؟) بينما ذكر فييه انه يوجد تل بين اربيل وعنكاوا وجدت فيه رقم مسمارية، يسمى (تل يلدا) آشور المسيحية، ج1 ص144.

(3) تردد هذا الاسم في عدة مواضع من الدفتر محرفا الى (خره) والصحيح (حزه) ولا نستبعد ان يكون الاسم الصحيح لهذه القرية هو (كفر عزه) بالعين، المخفف من (كفر عوزيل) وقد وصفت بأنها كانت مركز منطقة حزّا. ينظر فييه: ج1 ص135.

(4) هي التي تسمى الان (باداوه) وقد اصبحت جزءا من مدينة اربيل.

التسمية:

ورد اسم عنكاوا في دفتر تحريرالمفصل بشكلين، أولهما (عمكابار)[1] وهو يتالف من مقطعين، الاول (عمكا) وهو الاسم القديم لعنكاوا، وأما المقطع الاخر (بار) فواضح انه مصحف عن (باد) المخفف من (آباد) ، الفارسية، وتعني (البلدة، القرية). ويرى باحثون[2] أن أول ذكر للقرية ورد في التاريخ هو (عمكو)، وقد جاءنا من القرن العاشر تحديداً، على شاهد قبر لما يزل مرئيا[3]، أما اسم (عمكا) فلم يَرِد إلاّ في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي[4]، لكنه تحرّف على الألسنة في عهد لا يمكن تحديده الى الاسم الشائع اليوم: عنكاوا وعينكاوه، فالدفتر إذاً يعين وجود اسم عمكا حتى القرن السادس عشر في أقل تقدير.

---

(1) دفتر تحرير ص146.

(2) يذكر جان فييه الدومنيكي ان اسم عمك آباد عُرف "خلال العصر الفارسي": آشور المسيحية، ج1ص130-131، معتمداً على لاحقة (آباد) الفارسية الواردة بعد اسم عمكا في اشارة أوردها ابن العبري في القرن اثالث عشر، وينظر ايضا عزيز عبد الأحد نباتي : تاريخ عينكاوه، أربيل 2000، ص33 وكوثر نجيب: صفحات مخفية من تاريخ عنكاوا، مجلة راديا كلدايا (المثقف الكلداني) العدد 51، تشرين الثاني السنة 2015، وذكر عزيز نباتي قرية اخرى في منطقة مخمور تحمل اسم عنكاوا ايضا، وقال انها ترقى الى العصر المعدني، معتمدا على أحمد سوسة: تاريخ حضارة وادي الرافدين، ج1 ص44 (ولم نعثر على هذه الاشارة في الكتاب المذكور) وأن اسمها انتقل بطريقة ما فأصبح يطلق في العصر الآشوري على عنكاوا الحالية، ويشير جان فييه أيضا (ج1 ص296) الى قرية أخرى باسم عنقاوا (كذا في الترجمة العربية) تعود لليعاقبة، ولم يقدم دليلا على هذا الزعم، ولم يعين مكان هذه القرية الاخيرة، والظاهر انه استنتجه من عبارة للرحالة اوليفيه (رحلة اوليفييه، ترجمة يوسف حبي، ص62) تقول بأن سكان عنكاوه (يكتبها Ancona) هم من السريان الكاثوليك (اليعاقبة كما كانوا يسمون سابقا) ولكنه قال انها نفسها (عين كورا Ain koura) التي اشار اليها بكنكهام سنة 1816 مع انه لا وجود لقرية بالاسم الأخير، وإنما هو مجرد خطأ وقع فيه بكنكهام، وقد صححه المترجم سليم طه التكريتي (وليس فؤاد جميل كما يذكر نباتي ص 25 من متن كتابه) ويصرح نباتي بأن هذا الخان، أو النزل، يقع في عنكاوا الحالية، وأنه آل فيما بعد إلى ان يكون وقفا للكنيسة. تاريخ عينكاوه ص 186.

(3) فييه: آشور المسيحية ص 131 وذكر ذلك عزيز عبد الأحد نباتي: تاريخ عينكاوه، ، ص62-63 نقلا عن يوسف حبي: تواريخ سريانية، بغداد، الهيئة السريانية، 1982 ص46، ولدى الرجوع إلى الكتاب الأخير لم نجد فيه النص المذكور! وعلى أية حال فقد نشر كوثر نجيب صورته في بحثه المتقدم.

(4) مؤلف من القرن الثامن الهجري: كتاب الحوادث (المسمى الحوادث الجامعة والمنسوب إلى ابن الفوطي) بتحقيقنا ود. بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1997، ص71.

واما الاسم الثاني فهو (عمكايير)[1]، و(عمكاير)[2]، وهو اسم غريب فعلا، يمكن أن يكون مرحلة أولى من تحريفه إلى (عمكايه) ثم (عمكاوا) على ما عرف به في العهود التالية.

أسر السكان

إن أول الأسماء التي يضعها كاتبو الدفتر تحت عنوان القرية المذكور هو (شير بن بيرام، ابنه قورقمز، بيرام : م) وهذه الأسماء لا تدل على أن أصحابها مسيحيون، ويحتمل أن اولهم كان الملتزم للقرية، واسمه واسم أبوه فارسيان كانا شائعين في ذلك العصر، أما اسم ابنه الأول فهو قورقُمز، المُحرَّف عن اسم (قُرقماس)، وهو اسم تركي، يعني (الدائم) و(طويل العمر) كما نقول في هذا العصر، اما اسم الإبن الثاني فهو بيرام أيضاً، ووجود حرف (م) بعد اسم الأخير، يعني اختصارا كلمة (مُجرَّد) التي تعني – بحسب مصطلحات الوثائق العثمانية– أنه شاب بالغ لم يتزوج بعد. وورود اسم إبنيه بعده مباشرة، يعني أنهما كانا ملتزمين معه، وأنهما يشاركانه المسؤولية في دفع ضرائب القرية والإشراف على شؤون فلاحيها.

وسكان القرية يشكلون جماعة مسيحية واحدة يسميها واضعو الدفتر (جماعة النصارى) ، ويشكلون 235، (أو 239) خانه، أي أسرة أو بيت، فضلا عن 32 مجرد، أي شاب أعزب.

يذكر واضعو الدفتر أن عدد (أنفار) القرية هو 270، وقد صحح ناشر الدفتر هذا الرقم فجعله 274، وكتب إزاءهم لفظ (خانه) أي أنهم أرباب بيوت أو أسر، منهم 235 من بيوت النصارى، يسميهم (جماعة النصارى) وصحح الناشر المذكور هذا العدد فجعله 239، وبسبب عدم وضوح أكثر الأسماء المدونة في الدفتر[3]، لم يعد يقرأ منها إلا أسماء 43 رجلاً، وهؤلاء يؤلفون مجموعة من 56 رجلاً، ، وذلك لإضافة بعض الأفراد إلى تلك الأسر، يتراوح بين الاثنين والثلاثة من الذكور، من الدرجة الاولى في قرابتهم لرب الأسرة، فهم أما ابن له او أخ له. ونرى أنهم ذُكروا

---

(1) دفتر تحرير ص198.

(2) دفتر تحرير ص115.

(3) الأسماء غير واضحة ترك مكانها نقاطا خمس.

لمسؤوليتهم التضامنية في دفع الضرائب، كما ينص الدفتر على وجود 32 رجلاً باسم (مُجَرَّد) أي شاب لا أسرة له، فضلا عن ثلاث أسر مسلمة، جرى العرف أن تسمى (بنّاك). وإذ يقدر الباحثون أن متوسط عدد الأسرة هو (5) يكون العدد الإجمالي للسكان 1350 نسمة، منهم 1207 نسمة (بضمنهم 32 عازباً) من المسيحيين. ويقترب هذا العدد مما ذكره المنشي ألبغدادي في اوائل القرن التاسع عشر، إذ قدر عدد بيوتها بنحو ثلاثمائة بيت، أي نحو 1500 نسمة[1].

ويتقدم الجماعة اسم (كتخدا كيرياقوز بن شيخي)، وواضح من اسمه (كيرياقوز) أو (قرياقوس) انه مسيحي، أما اسم (كتخُدا) فهو فارسي مركب من مقطعين: كَد (بمعنى دار)، وخُدا (بمعنى رب) فيكون معناه رب البيت، شاع في الإدارة العثمانية، متخذاً معان شتى، منها أحد رؤساء الصنف، وهم الحرفيون، وأقربها لسياق الدفتر: مختار المحلة في المدينة، ومختار القرية في الريف، أو ممثلها أمام السلطة، وقد اصبح المصطلح يعني أيضاً: نائب الوالي ومساعده. وربما خفف إلى (كخيه) و(كاخية) و(كهية) و(كاهية)[2]. ويذكر المنشي ان رئيس القرية هو من أهلها[3].

ويلي اسم (كيرياقوز) هذا، إثنان، أولهما ابنه (خوشي) وثانيهما (شيخي)، مما يدل على أنهما شريكان له في مسؤوليته، واسم الأول فارسي او كردي، بمعنى حسن، واما الاسم الثاني فعربي.

وثمة ثلاثة أسر أربابها قسُس (قاشه)، ويبلغ عدد هؤلاء القسس ثلاثة[4]، هم قاشا حنا بن عبد المسيح، وله ولد اسمه متى، وقاشه عيسى، هو ابن قاشه توريش[5]، وله ولد اسمه آداي (أدي)، والقَسّان الأخيران كانا ولدي قُسُس أيضاً.

---

(1) رحلة المنشي البغدادي، ترجمها عن الفارسية عباس العزاوي، بغداد 1948، ص77. ويظهر أن عدد سكان عنكاوا شهد تناقصاً شديداً في السنين التالية حيث يذكر بادجر أن عددهم بلغ سنة 1858 (55) بيتاً، اي 275 نسمة فقط، ولا نجد تفسيرا لهذا التناقص إلا ما أصاب البلاد من كارثة بشرية نتيجة انتشار وباء الطاعون الذي عم البلاد سنة 1831.

(2) دفتر تحرير ص36 وسهيل صابان: القاموس الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض 2000، ص185

(3) رحلة المنشي ص77.

(4) يذكر بادجر أن عدد كهنة القرية في سنة 1858 كان اثنين فحسب. آشور المسيحية ص132.

(5) ربما كان صحيح الاسم (سوريش) وهو من الاسماء المسيحية الشائعة. عن فاروق حنا.

وقاشه ملك شاه بن عبدي، له ولد اسمه (مروني)[1]، وتفسير هذه الحالة أن القرية كانت في عهد تنظيم هذه الدفاتر لا تزال تتبع الكنيسة الشرقية القديمة (النسطورية) التي تبيح زواج الكهنة[2].

إن نظرة فاحصة إلى أسماء أهل القرية تدل على أنها مزيج عجيب من مؤثرات مختلفة، فهي فضلا عن السريانية عربية وفارسية، وتمثل هذه المؤثرات جميع الأقوام التي تعاقبت على حكم المنطقة أو كان لهم وجود فيها، فمن الأسماء العربية نقرأ: شيخي، نور الدين، سيف الدين، وحسن، وقاسم، عبد الله، عيسى، نجم الدين، وجمعة ومن الأسماء الفارسية- الكردية نقرأ: خوشي، وحسن شاه، شاه حسن، شير، وقلندر[3]. وسوى ذلك فأسماء سريانية صريحة، لكنها كتبت على وفق إملاء مختلف، مثل قيرياقوز، أي قرياقوس، وكورك اي كيورك، وعوديس أي عوديش، آداي أي أدي، مرقوز أي مرقس، وغير ذلك. وكثير من تلك الأسماء اندثر التسمِّي به، مثل: معداني، حبون، جوجة، باولها، صنوس (حنوش؟)، صداقو، قصص، رشو، جاق جاق.. وغير ذلك. وفيما يأتي قائمة الأسماء كما وردت في الدفتر:

شير بن بيرام، ابنه قورقمز، بيرام : م

جماعة النصارى

كتخدا كير ياقوز [قرياقوس] بن شيخي

إبنه خوشي

أخوه شيخي

نور الدين بن بدرو

سيف الدين بن نور الدين

أخوه مروكي

اغن[4] بن حسن شاه

---

(1) ربما كان صحيح الاسم (مروكي) كما سيأتي.

(2) يحدد فيبه زمن تحول عنكاوا الى الكلدانية الكاثوليكية في نهايات القرن الثامن عشر. اشور المسيحية ص133.

(3) ينظر غن هذا الاسم ما يلي.

(4) نرجح ان يكون صحيح الاسم هو (اغني).

إبنه تومه

أخوه موسى

(الورقة 60أ)

أخوه معداني

قاسم صلمان [سلمان؟] بن شاه حسن

قاشه حنا بن عبد المسيح

ابنه منى [متى]

ماراه بن قرياقوس

شمعون بن حبون بن جوجه(1)

باولها(2) بن تومه

ابنه ساول [شاول]

شمعون بن صنوس(3)

ابنه رياه(4)

صداقو(5) بن قصص

فخرو بن سيدي

كوركيس بن أورها

يوسف بن قشي كوركيس

هرمز بن ملكيش

---

(1) جوجة اسم لعدة اسر موجودة في عنكاوا، ذكر الاستاذ فاروق حنا انها نزحت اليها من قرية (دركنه) القريبة من العمادية.

(2) سيأتي فيما يلي بشكل (ياولها) و(بولها).

(3) كذا في الاصل، ويرجح الاستاذ فاروق حنا ان يكون صوابه (حنوش) وهو احد الاسماء الشائعة في عنكاوا، وهو مأخوذ من الاسم (حنا).

(4) ربما كان هذا الاسم مصحفا عن (زيا).

(5) كذا في الاصل، وصوابه (صادقو) او (صادق) ذكر الاستاذ فاروق حنا انه اسم كان شائعا في عنكاوا في السنين الماضية.

حسن بن جويان

قلندر[1] بن حوشين [خوشين]

ابنه رسو

ساوا بن قيرياقوس

كورك [كيورك][2] قاشه بن أورها

عوجه[3] بن يلدا

قاشه عيسى بن قاشه توريش

إبنه أداي

عبدي بن صليق[4]

ملكو بن عوديس [عوديش]

قاشه ملك شاه بن عبدي

إبنه مروني[5]

كوركيس بن جاق جاق[6]

أخوه قرياقوس

عبد الله بن جاق جاق

إبنه عبد المسيح

---

(1) كلمة فارسية تعني بالإصطلاح العثماني: الزاهد، ويرجح الاستاذان فاروق حنا وكوثر نجيب ان يكون هذا الاسم مصحفا من (قلندر) وهو اسم لأسرة معروفة نزحت من (باتاس) الى عنكاوا.

(2) الاسم مجزوء من كيوركيس، أحد الأسماء الشائعة في عنكاوا وغيرها من المناطق المسيحية.

(3) لعل الصحيح (جوجه) ويرجح الاستاذ فاروق حنا ان يكون محرفا غن (كوجة) اي صاحب اليد العضب.

(4) كذا في الاصل وفي الغالب فإن الاسم محرف عن (صليوا).

(5) كذا في الاصل، ويرجح الاستاذ فاروق حنا ان يكون هذا الاسم محرفا عن (مروكي) وهو اسم شائع في عنكاوا، وقد تقدم.

(6) يحتمل أن هذا الاسم هو مقلوب (كوج كوج) أبو عسكر الذي ورد اسمه كاهناً في أربيل سنة 1677 في مخطوطة محفوظة في كمبردج. فييه: مصدر سابق ج1 ص77، واذا ما تأكد ذلك يكون الجد الاعلى لآل عسكر الاسرة المعروفة اليوم في عنكاوا.

أخوه جاق جاق

ديجه[1] بن ياولها

(الورقة 60ب)

رشو بن جمعة

هرمز بن علايو

ديجه بن يار عوديش

مرحاي بن عوده

إبنه عور[2]

مرقوز [مرقس] بن حونكي

كاورو[3] بن حسن

ديجه بن سوزي

مشا بن غيبي[4]

خوشاب بن زاده [الورقة 61أ]

شماشا بن بولها

منصور بن متى

حنا بن قره

ألوان شاه بن عجمان

حوا بن حورمه

عودا بن حوشين

نجم الدين بن شمعون

---

(1) ربما كان صوابها (دنحه) او (دنحا).

(2) كذا في الاصل، ونرجح ان يكن الاسم الصحيح (عودا) ايضا.

(3) ذكر الاستاذ فاروق حنا ان هذا الاسم تصغير لاسم (كوريئيل) ويعني (جبرائيل).

(4) نرجح ان يكون صحيح الاسم هو (اغني) كما تقدم.

الانتاج الزراعي والضرائب:

ويُعنى واضعو الدفتر، على نحو خاص، بالجانب الإقتصادي للقرية، بوصفه الأكثر أهمية لدى جامعي الضرائب، ولذلك يُفصِّل الدفتر بأسماء المنتوجات الزراعية التي يزرعها فلاحو القرية، وما يتوجب عليهم دفعه منها أوأقيامها، فضلاً عن الرسوم الأخرى، ويتخذ واضعو الدفتر من (التغار) وحدة قياس رئيسة لكمية المنتوج، تليه (الكيله)، ويبلغ الطغار في أربيل، مثله في الموصل وكركوك وزنا يقدر بـ 56،256 كيلو غرام، أما الكيله فكان يبلغ 1 من 30 من التغار.

الحنطة:

يضع كاتبو الدفتر الحنطة في مقدمة ما تنتجه القرية من محاصيل زراعية، حيث تبلغ كمية ما يتوجب على القرية تقديمه منها 392 تغاراً، اي نحو 100571 كيلو، وتبلغ قيمتها 3598 آقجة[1]، وبذلك تكون قيمة التغار الواحد نحو 90 آقجة. (ويلاحظ أن هذه الكمية من أصل 4082 طغاراً و34 كيله هو حاصل جميع قرى ولاية أربيل، اي ان نسبة ما تقدمه 10٪ تقريباً)

الشعير:

ويأتي الشعير في الدرجة الأولى من حيث كمية الحاصل، حيث تنتج القرية منه نحو ضعف ما تنتجه من الحنطة تقريبا، فتبلغ كمية ما يتوجب عليها تقديمه منها 667 تغاراً، أي نحو 171000كيلو، وتبلغ قيمتها 33371 آقجة، أي 50 آقجة للتغار الواحد تقريباً. وذلك من أصل 4767 تغاراً هو حاصل جميع قرى ولاية أربيل، اي بنسبة 14٪.

العدس:

وتدفع القرية 5 تغارات من العدس، أي نحو 1290 كيلو، يصل قيمتها الى 450 آقجة، أي 90 آقجة للتغار الواحد. وذلك من أصل 5،21 تغار و35 كيله هي حاصل قرى ولاية أربيل، اي بنسبة 23٪.

---

(1) عملة عثمانية فضية يعني اسمها (المبيضة) لغلبة الفضة على معدنها، إذ كانت تبلغ (90٪)، وتزن 6 قراريط، ويعزى ضربها إلى السلطان أورخان سنة 729هـ/1325م، وقد تناقص عيارها في الحقب اللاحقة، حتى بلغ في القرن الحادي عشر (17م) قيراطاً ونصفا. وتوقف ضربها سنة 1234هـ/1850م سهيل صابان: ص20.

الفول:

عنكاوا واحدة من ثلاث قرى تتميز بإنتاج محصول (الفول) بين قرى ولاية أربيل، وبلغت كمية ما يتوجب عليها دفعه من هذا المحصول 15 كيلة، من اصل 25 كيلة هو مجموع ما تنتجه الولاية، وقيمة الكيلة الواحدة 3 اقجات، والكيله وزن قدره 1 من 30 من التغار، وتكون نسبة انتاج القرية 60٪ من مجمل انتاج ولاية أربيل.

الحمص:

تقدم القرية 15 كيله من الحُمُص، وتصل قيمة هذه الكمية الى 45 آقجة، أي أن قيمة الكيلة من هذا المنتج تبلغ ثلاث آقجات فقط. وذلك من أصل 38 تغاراً و7 كيلات هو كل ما تقدمه قرى ولاية أربيل، أي بنسبة 39٪.

الريش:

ويذكر الدفتر أن على القرية أن تقدم من محصول (تولك) 10 تغارات، قيمتها 500 آقجة، أي أن قيمة التغار الواحد 50 آقجة، ولم نقف على هوية هذا المحصول على وجه اليقين، فالتولك لفظة تركية عثمانية تعني أوكار الطيور أو أعشاشها[1]، ويرجح الدكتور خليل مراد أنها تعني ريش الطيور المضغوط الذي تعد منه الوسائد والحشايا[2]، وعلى اي حال فإن عنكاوا هي واحدة من 9 قرى تنتج هذا الحاصل، والبالغ 38 طغاراً، و35 كيله في ولاية أربيل كلها (أي بنسبة 26٪ من اجمالي الحاصل)، مما دل على وفرة اوكار الطيور فيها وعناية السكان بتربيتها.

القطن:

كانت عنكاوا المنتج الأول للقطن في ولاية أربيل، ويبلغ ما تقدمه 5 تغارات، بينما تقدم قرى أربيل جميعاً 9.5 تغارا و850 رطلا، قيمتها 2000 آقجة، وعليه تبلغ قيمة التغار الواحد 400 آقجة. وتكون نسبة محصولها 50٪ من حاصل زهرة القطن في الولاية.

---

(1) محمد علي الأنسي: الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، 1320هـ، ص180.

(2) دفتر تحرير، حاشية ص139.

السمسم:

ويتوجب على القرية أن تقدم تغاراً واحدا من السمسم، قيمته 245 آقجة، من أصل 15 تغاراً و7 كيله هو ما تقدمه ولاية أربيل كلها، أي أن نسبة ما تقدمه 7٪.

الذرة البيضاء:

وعنكاوا واحدة من ثلاث قرى تتميز بانتاج الذرة البيضاء (الذرة الرفيعة)، دون سائر أنواع الذرة الأخرى ، إذ توجب عليها تقديم مقدار منها هو 17 تغاراً، وبما أن قيمة هذه الكمية هو850 آقجة، تكون قيمة التغار الواحد 50 آقجة. ويلاحظ أن هذه الكمية هي من أصل 120 تغاراً و22 رطلاً من انواع الذرة مفروضة على ولاية أربيل، اي بنسبة قدرها 14٪.

البصل:

واضافة الى كل ذلك، ذكر واضعو الدفتر أنه كان يتوجب على القرية تقديم كمية من البصل لا نعرف مقدارها حيث لم يجر تحديدها، ولكنهم ذكروا ما سموه (رسم البصل)، ومقداره 2400 آقجة، بينما يبلغ مجموع رسم هذا الحاصل في ولاية اربيل 12555 آقجة، اي بنسبة 2,6٪ من ذلك المجموع، وإذ كنا لا نعرف الكمية المنتجة لا نستطيع معرفة قيمة الحاصل نفسه.

العسل:

وثمة رسوم اخرى كانت مفروضة على القرية، منها (رسم كواره)، وهو يفرض على خلايا النحل[1]، وقدره 154 آقجة، ولم يحدد الدفتر عدد تلك الخلايا التي يستوفى منها ذلك الرسم، وبمقارنة هذا المبلغ بمجموع رسوم خلايا النحل في ولاية أربيل 805 آقجة يتبين لنا ان ما تدفعه القرية تبلغ نسبته 19٪ من ذلك المجموع، وهو ما يدل على عناية أهلها بهذا النوع من الإنتاج.

رسوم عُرفية:

الرسوم العرفية هي ضرائب تفرض بموجب العُرف ونزولاً للضرورة وليس لأنها

(1) ذكر الاستاذ فاروق حنا ان (الكواره) بحسب ما معروف في عنكاوا اناء من الطين توضع فيه المحاصيل المعدة للاستهلاك في فصل الشتاء.

ضرائب شرعية، ففي عنكاوا، كما في سائر القرى، يوجد رسم باسم (رسم البنّاك) ويبلغ 36 آقجة، والبنّاك هو الفلاح الذي يتصرف بنصف مزرعة، ويبلغ ما يدفعه من رسم 12 آقجة[1]، وعليه فإن عدد من ينطبق عليه هذا الوصف هو 3.

ورسم باسم (رسم اسبنج) ويبلغ 675 آقجة، وهو رسم موحد كان يشمل اولاً المسلمين والمسيحيين، ويبلغ 25 آقجة، ثم اختص الاخيرون بدفعه، على ان يكونوا قادرين على العمل[2]. ويعني هذا أن عدد من ينطبق عليهم هذا الشرط من دافعيها هو 27 فرداً.

وثمة رسم آخر يدفع في القرية يسمى (رسم طابو) ويبلغ 432 آقجة. ويدفعه سنوياً رب الأسرة للحصول على حق الانتفاع من الأرض الخراجية التي تقطعها إياه الدولة، وهو يعادل إيراد تلك الأرض لسنة واحدة، وعند وفاة الفلاح ينتقل حق الانتفاع إلى إبنه دون دفع هذا الرسم، وقد سمي هذا الرسم فيما بعد بضريبة العشر[3].

ويذكر الدفتر رسماً آخر هو (رسم بُستان) وهي ضريبة مفروضة تستوفى على محاصيل مزارع الرقي والبطيخ والخيار ونحو ذلك، عند جنيها وبدء بيعها في الأسواق في كل عام[4]، ولا يذكر الدفتر كمية هذه المحاصيل ولكنه يقدر قيمتها بـ 200 آقجة، هذا بينما تصل قيمة هذه المحاصيل في ولاية أربيل كلها 1942 آقجة، فتكون نسبة ما تنتجه عنكاوا 1٪ منها تقريباً

---

(1) المصدر نفسه ص 26.

(2) المصدر نفسه ص24.

(3) المصدر نفسه ص34 وسهيل صابان ص124.

(4) دفتر تحرير ص33 ويشير الأديب الراحل سعدي المالح في روايته (عمكا) الصادرة في بيروت سنة 2008 إلى وجود عدد من البساتين في اطراف كهريز قديم فيها ولكنه يقول " البساتين اختفت ولم يعد لها وجود، يبست بعدما اندثر الكهريز واندرست "ساقية هذا الكهريز وعدد من آباره أيضا، فضلا عن (المفتح) و(الاورزلتا). ولم يبق في عنكاوا بساتين ولا مزارع مع شديد الأسف. والساقية الثانية التي كانت تروي الجزء الشمالي من عنكاوا، المنطقة التي كانت ذات يوم مليئة بالبساتين، إلى درجة أن الأراضي الواقعة خلف تلك البساتين على طريق (بحركة) كانت تسمى إلى وقت قريب أراضي ما وراء البستان (باثرت باقجة) اندرست قبل هذه الساقية. وحلت محل الأشجار بنايات اسمنتية وتحولت القرية الزراعية الوادعة الى حقل بور اشجاره عمارات و سنابله بيوت متشابهة".

ورسم آخر باسم (رسم باد هوا ورسم العروس)، وكلمة (باد هَوا) فارسية الأصل، تعني اصطلاحاً رسوم عُرفيّة متفرقة تجبى في حالات عدة من لدن صاحب الأرض نقدا في كل سنة[1]، منها : رسم الجنايات، الذي يفرض على من يرتكب جناية ما، أو ألحق ضرراً بمحاصيل الآخرين، وغير ذلك، وتدفع الى ملتزم الارض لأنه هو الذي يقوم بمعاقبة الجناة[2]. أما رسم العروس فهو مبلغ يدفعه والد العروس لملتزم الأرض أيضاً، ويبلغ مجموع الرسمين عن القرية 1357 آقجة. وتوضح (القانوننامه الهمايونية الخاصة بولاية أربيل) أن على والد العروس أن يدفع إلى صاحب الأرض أو ملتزمها 60 آقجة عن البنت الباكر، و3 آقجة عن الأرملة الشابة[3].

ويمكننا أن نلاحظ عدم الإشارة إلى مطحنة أو مطاحن[4] في القرية، على الرغم من كميات الحبوب التي تنتجها، وسبب هذا فيما يظهر لنا هو قلة ما تنتجه القرية من الحنطة. كما انه لا يوجد ذكر للماشية، مع وجودها في معظم القرى الأخرى.

ويجمع واضعو الدفتر هذه الضرائب والرسوم جميعاً بـ 84133 آقجة، واعدنا جمعها فبلغت 88588 آقجة.

قائمة الانتاج الزراعي والضرائب كما وردت في الدفتر:

الحنطة	392 تغار	القيمة 35298 آقجة
الشعير	667 تغار	القيمة 33371آقجة
العدس	6 تغار	القيمة 450 آقجة
الفول	15 كيل	القيمة 45 أقجة
الحمص	15كيل	القيمة 45 أقجة

(1) سهيل صابان ص51.

(2) سهيل صابان ص125.

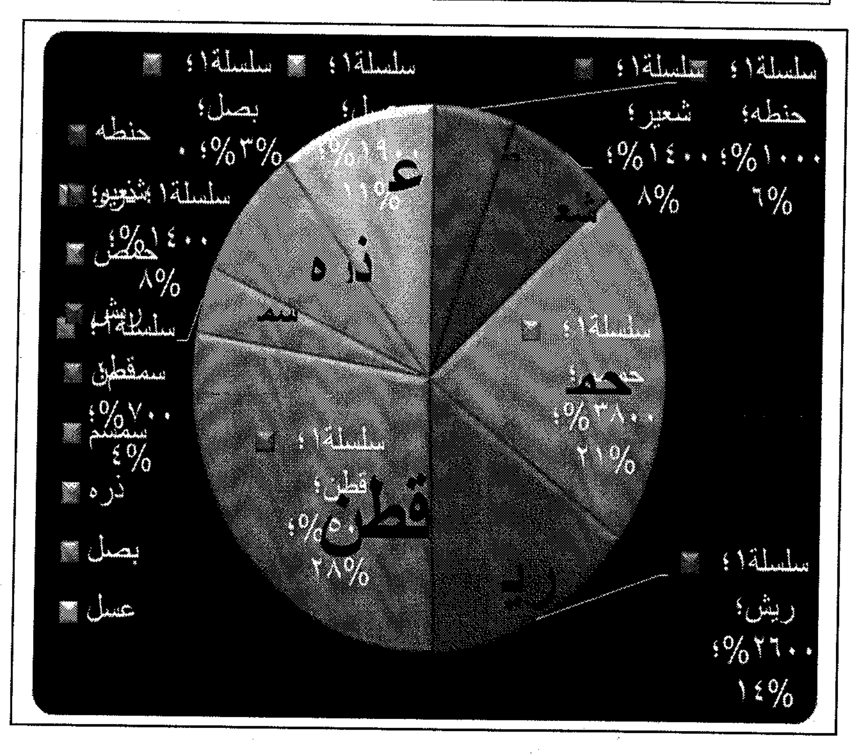
(3) دفتر تحرير ص40-41.

(4) ذكر الاستاذ فاروق حنا ان عنكاوا عرفت الطواحين، وانه يذكر منها طاحونتين في منطقتي (غرغراوه) و(صوجاغ)

تولك	10 تغار	القيمة 50 آقجة
زهرة القطن	5 تغار	القيمة 2000 آقجة
السمسم	1 تغار	القيمة 245 آقجة
ذرة بيضاء	17 تغار	القيمة 850 آقجة

الرسوم

رسم كواره 154	رسم البستان 200	رسم البصل 2400
رسم طابو 432	بادِهَوا ورسم العروس 1357	



(نسب مئوية لمنتجات عنكاوا)

الأوقاف

ويتضمن الدفتر فصلاً يتناول أوقاف ولاية أربيل[1] ، وتشمل هذه الأوقاف مزارع وطواحين وكهاريز منتشرة في قرى عديدة من الولاية، معظمها أوقاف ذُرّية، وأقلها

(1) دفتر تحرير ص198.

اوقاف على مساجد ومشاهد في اربيل وفي الموصل، منها جامع المظفرية في اربيل وجامع النبي يونس في الموصل، ومن تلك العقارات الموقوفة كهريز يصفه واضعو الدفتر بأنه يقع في «قرية عمكاير التابعة لأربيل»، وردت الاشارة اليه في قائمتين منفصلتين، بوصفه يتألف من 16 طاقاً، والطاق هنا، فيما يفهم من سائر الدفتر، الفتحة الكائنة في الكهريز[1]، التي يروي ماؤها حقلاً أو بستاناً من القرية المذكورة، ويظهر أيضا أنه كان لكل فتحة مالك وقف واردها على ذريته. ولا يذكر الدفتر أسماء جميع الواقفين، ولكن يورد أسماء واقفي 14 (طاقاً) فقط، وهم على النحو الآتي:

عدد الطاقات		حصص الواقفين
8 طاقات		حصة ورثة شيخو بن بدر
1 طاق		حصة علاء الدولة بن (؟) شمس الدولة بن خضرو البحرانى
نصف طاق		حصة درويش بن عبد الله
1 طاق		حصة ورثة خوجة بن مثنى[2]
1 طاق		حصة ورثة اداى بن زينو
1 طاق		حصة ورثة بلده [يلده] بن هرمز
1 طاق		حصة حوسين بن على بيوكى

وثمة واقف آخر كان ورد اسمه في آخر القائمة الأخرى[3]

1 طاق		حصة حوشب بن على بتوكجى

ويمكننا أن نلاحظ عدم وجود أي من هؤلاء الواقفين ضمن قائمة دافعي ضرائب القرية المتقدمين، فكأنهم يمثلون جماعة أخرى مستقلة عن سابقتها، وهم عدا ذلك يمثلون خليطاً من المسلمين والمسيحيين، فمن الواضح أن ورثة اداي بن زينو، ويلده بن هرمز مسيحيون، بينما الآخرون من المسلمين. وأكثر الحصص

(1) المعروفة محليا باسم (مفتح). عن فاروق حنا.

(2) كذا في الاصل، وربما كان صحيحه (متى).

(3) دفتر تحرير ص115.

يملكها ورثة رجل واحد هو شيخو بن بدر الذي تبتدئ به القائمة، بينما يوحي الاسم التالي أن صاحبه أمير أو وجيه أو مسؤول، وربما يكون اسمه الأول واسم أبيه كُنيتين رسميين لا أسمين عاديين، فعلاء الدولة، وشمس الدولة وأمثالهما، كنى اختص بها رجال الدولة، أما (خضرو) فيمكن أن يكون مُصَحَّفاً عن (خصرو) اي (خسرو)، بينما نعتقد أن لقب (البَحراني) هو مجرد نسبة الى (بَحَرْكة) القرية والمنطقة القريبة من عنكاوا، وفي هذه الحال يكون هذا رجلاً وجيهاً أو مسؤولاً كان يقيم في بَحَركة وله حصة في كهريز عنكاوا، وهو أمر ممكن للتجاور بين المنطقتين. وأخيراً فإن اسم (حوسين) قريب من (خوشين)، الذي وجدناه في قائمة جماعة النصارى المتقدمة، لكنه هناك اسم لرجل مسيحي، وهو هنا اسم لرجل مسلم، ويمكن أن يكون مجرد إملاء مختلف لاسم (حُسَين)، لا سيما وأن اسم أبيه (علي) أما اسم جده (بيوكي) فيمكن أن يكون مُرَخّما من (بُيُوك) التركية، وتعني (الكبير).

مصر في كتابات المؤرخين العراقيين
في العصر العثماني

أدى احتضانُ العراق للخلافة العباسية، في العصور الوسطى الإسلامية، وما شهدته مدنُه من توسعٍ هائل بمن قصدها من مثقفي الأقطار العربية، والإسلامية عامة - إلى أن تتسم نظرة المؤرخين العراقيين، إبان تلك العصور، بسمة عالمية شاملة، فكتب مؤرخون بارزون، أمثال: اليعقوبي، والمسعودي، والطبري، تواريخَ أمم الأرض جميعًا، بوصفها تمثِّل تجاربَ متنوعة لجنس بشري واحد، ومع أنهم أفردوا لتاريخ العراق أروعَ فصولهم وأكثرها متعة وتفصيلاً، إلا أن ذلك لم يُلْغِ نظرتهم الشاملة إلى هذا التاريخ، بوصفه جزءًا مهمًا من تاريخ العرب المسلمين خاصة، الذي هو خلاصة تاريخ البشرية عامة.

ولقد استمرت هذه (الرؤية) حيةً في أذهان المؤرخين العراقيين الذين عاشوا في أواخر عهد الدولة العباسية، فعلى الرغم من الضعف الشديد الذي كانت تمر به هذه الدولة في أيامهم، وانسلاخ معظم أقاليمها منها، إلا أن صورةَ عالَم إسلامي فسيح يحتل فيه العربُ موقع الصدارة، ظلت تراود أذهانَ أولئك المؤرخين، فحفلت مؤلَّفاتُهم بإشارات واستطرادات ذات شأن، تتصل بتواريخ أقطار عربية وإسلامية، وترجموا لأعداد غفيرة من العلماء العرب والمستعربين في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، متخذين من وَحدة الثقافة أساسًا لعملهم، بعد أن لم تَعُدْ وحدة النظام السياسي أو المؤسسة الحاكمة، بقادرةٍ على تكوين ذلك الأساس.

ولم تَحُلِ الكوارثُ البشرية والحضارية التي تمثلت بالغزو المغولي - وما أعقبه من غزوات مدمرة لقوًى أجنبية متخلفة - دون استمرار هذه الرؤية في أعمال مؤرخين مخضرمين، أمثال: ابن الساعي البغدادي (المتوفى سنة 674هـ/1274م)، وابن الفوطي (المتوفى سنة 723هـ/1323م)، وابن الكازروني (المتوفى سنة 697هـ/1297م)، وغيرهم، فحفلت مؤلَّفاتُهم بالعديد من الأخبار المهمة عما كان يجري في الأقطار العربية الأخرى، لا سيما في مصر والشام، من حوادث وتطورات اجتماعية وثقافية، على أن من المهمِّ أن نذكر هنا أن نجاح القيادة المصرية في دحْر المغول في (عين جالوت) وما تلاها من معاركَ حاسمة، وضم بلاد الشام إلى مصر

في دولة واحدة كما كانتا في معظم حقَب التاريخ - أدى إلى تحول أساسي في نظرة المؤرخين العراقيين، فلم تعُدْ هذه الأقطار تمثل في نظرهم امتدادًا سابقًا للدولة العباسية، وممتلكات منتزعة منها، وإنما غدت ملاذًا لما تبقى من الأمة العربية، وحصنًا لما سلِم من عوادي الدهر من تراثها الثقافي والحضاري التليد، وأملاً لأهلها في استعادة عهود المَنَعَة والاستقلال، ولنا أن نلمح هذا التغيير في النظرة العامة للمؤرخين العراقيين التالين لجيل المخضرمين، متمثلاً في كتابات مؤرخ بغدادي عاش في أواخر القرن التاسع للهجرة (15م) هو عبدالله بن فتح الله الغياث البغدادي (المتوفى بعد سنة 981هـ/1486م)[1]، فقد اضطرته ظروف الاحتلال الأجنبي للعراق، إلى أن يغادره إلى بلاد الشام، يوم كانت هذه البلاد جزءًا من دولة واحدة عاصمتها القاهرة، فسجل - وهو مقيم هناك - تاريخَ وطنه العراق، من خلال كلامه على الدول التي تعاقبت على حُكْمه، بَيْدَ أنه عرَّج فجأة إلى تاريخ دولة المماليك الجراكسة في مصر، مع أنه لم يكن لها حُكْم في العراق أصلاً، كما أنه لم يقصُرْ كتابته على تراجم سلاطينها وما جرى في أيامهم، وهو منهجه في سائر الكتاب، وإنما عرض بسرعة إلى تاريخ مصر بدءًا من عهد الطولونيين، فالإخشيديين، فالفاطميين، ثم مرورًا بالأيوبيين، فدولة المماليك البحرية، وانتهاء بدولة المماليك الجراكسة؛ مما دل على إدراكه للدور الخاص الذي كانت تؤديه مصرُ في سياسات المنطقة في العهود المتعاقبة، وليس في عهده فحسب[2].

ويتضح لنا هذا المعنى في عناية المؤرخ الكبيرةِ بكل ما له صلةٌ بسياسة مصر الخارجية، سواء ما يتعلق منها بالدول التي كان لها حكم في العراق، أو الدول التي برزتْ على المسرح الجغرافي القريب منه، لا سيما الدولة العثمانية، وبذا فإنه أضاف معلومات جديدةً عن العلاقات الحربية بين العثمانيين والمماليك لم تذكُرْها المصادر العربيةُ والتركية الأخرى[3].

وكان تعرُضُ العراق، والأقطار العربية الأخرى، إلى السيطرة العثمانية في القرن السادس عشر، وتحوُل مصر وأقاليمها: بلاد الشام والحجاز واليمن، إلى مجرد ولايات عثمانية - قد أفقَد هذه الأقاليمَ ميزتَها التاريخية القومية لدى المؤرخين العراقيين، كما أن إلغاء الخلافة العباسية منها، وفقدانها مسؤولية حماية

الحرمين الشريفين، أدَّيَا إلى اضمحلال ملحوظ لدورها الرُوحي أيضًا، بوصفها الراعيةَ لمقدسات الأمة.

صحيح أن تعرُضَ هذه الأقطار إلى سيطرة دولة واحدة قد أزال الحواجز السياسية التي خلَّفتها الدولُ المتنازعة السابقة، إلا أن وجود رأس الدولة خارج الحدود الطبيعية للوطن العربي، دعا إلى أن تكون صلاتُ كل ولاية من ولاياته مشدودةً إلى خارج هذا الوطن لا إلى داخله.

وهكذا، ففي الوقت الذي كانت فيه معظم الولايات العربية ترتبط إداريًا وسياسيًا بالعاصمة القسطنطينية، تَستقبل منها ولاتَها وموظَّفيها وقضاتها وأوامرَها المركزية - كانت صلاتها الإدارية بالولايات العربية المجاورة تكاد تبدو منقطعة تمامًا، ومع أن عددًا غيرَ قليل من الموظفين، بل من الولاة أنفسهم، كان من أصول عربية، إلا أن توليَهم مناصبهم كان بصفتهم موظفين عثمانيين لا غير، فإذا أضفنا إلى ذلك كله ضعْفَ حالة الأمن، وتعرُض الطرق التجارية إلى أخطار مداهمة قُطَّاعها، وهو - في الحقيقة - أحدُ مظاهر ضعف دور المدينة الإداري والحضاري في ذلك الحضر، بدا واضحًا لِمَ فتَر اهتمام المؤرخين العراقيين - مثلهم في ذلك مثل كثير من المؤرخين العرب - بما هو خارج عن نطاق ولاياتهم، بل بما هو خارج نطاق أسوار مُدُنهم، لا سيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، واهتمامهم - بالمقابل - بالحياة الداخلية للمدينة أو توابعها، أو الترجمة لعلمائها وأدبائها الذين كان يتمثل بهم إرث أمةٍ لم يعُدْ لسلطانها السياسي ظلٌ يومذاك[4].

وعلى الرغم من انتقال مركز الثقل السياسي من مصر، حيث قلب الوطن العربي، إلى خارجه، فإن مصر ظلت تحتفظ بقدرٍ كبير من أهميتها الثقافية لدى المثقفين العرب بوجه عام، وهو أمر لم تَقْوَ صروفُ التحولات السياسية على إفنائه؛ فمصر - بحُكم موقعها الجغرافي الفريد - ملتقى العلماء والأدباء العرب والمسلمين عامة من القارتين، وفي أروقة أزهرها تتلاقح ثقافاتٌ جمة؛ لتتبلور على وَفق تقاليد هذه المؤسسة العريقة ومناهجها الموروثة، وفي باحات مدارسها العديدة، التي سلِم أكثرُها من التخريب، ينتشر العلماء، ويتحلق الطلبة، وتكثُر النُسخ الخطية مِن الكتب التي عزَّ وجودُها في مدن العراق بعد قرون التخريب

والتدمير، وهكذا فقد غدت القاهرةُ تمثل - لدى طلبة العلم العراقيين - إحدى أهم محطات الثقافة العربية الإسلامية، ورمزًا لِما تبقى من هذه الثقافة في الأقل.

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نحدد حجم الصلات الثقافية في الشطر الأول من العصر العثماني؛ لندرة المصادر الثقافية نفسها، فإن لنا أن نتصوَّرَ أنها لم تكن منقطعة على الإطلاق، وإن بدا عليها الفتورُ للأسباب التي قدمناها قبل قليل.

وعلى أية حال، ظلت (الرحلة العلمية) إلى مصر - على قلتها في هذا العصر - مصدرًا أساسيًّا استمد منه المثقفون العراقيون تصوُّرهم لمختلف جوانب الحياة العامة في هذا القُطر، ففي القرن السابع عشر (11هـ) كتب أديب مؤرخ بصري، عاش في ظل الإمارة الآفرسيابية شبه المستقلة في البصرة، هو الشيخ عبد علي بن ناصر بن رحمة الله الحويزي (المتوفى سنة 1075هـ/1644م) كتابًا جمع فيه تراجم الأدباء العرب المعاصرين له، فكان ثمة قسم خاص بأدباء مصر، ويظهر أنه استمد معلوماته - في هذا الشأن - من رحلة قام بها إلى هناك، أو من رحلة غيره من أدباء مدينته[5].

وفي الوقت نفسه، كان أديب شهير، ولغوي بارع، هو عبدالقادر بن عمر البغدادي (المتوفى سنة 1093هـ/1682م) قد غادر موطنه بغداد إلى مصر، حيث اغترف العلم من كنوزها الخطية، فترك آثارًا مهمة في الأدب والنحو والتراجم، لعل أدخلَها في نطاق الكتابة التاريخية مؤلَّفُه (تراجم العلماء)، الذي ترجم فيه للمتقدمين من الأدباء والشعراء العرب، ومنهم عراقيون وشاميون ومصريون، على نحو لا يميِّز بين قُطر وآخر[6]، ومن المؤكد أن نظرتَه القومية الشاملة لتاريخ الأدب، جاءت بسبب إقامته الطويلة في مصر، حيث تتوفر مصادرُ الأدب العربي، والثقافة العربية عامة، وحيث تلتقي سبُلُ هذه الثقافة ورجالها .

ويظهر لنا انبهارُ هذا المؤرخ العراقي بآثار مصر القديمة، فيما كتبه عن أهرام الجيزة في مخطوطته: «القصد المرام في عجائب الأهرام»، وهو كتاب حاول فيه استكناه تاريخ جانب من تاريخ مصر في العصور الغابرة، مستمداً معلوماته من المصادر الإسلامية، ومن ملاحظاته الآثارية التي اتسمت بدقة ملحوظة[7].

وفي وُسْعنا أن نَعُدَّ المؤرخَ البغدادي أحمد بن عبدالله الغرابي (المتوفى سنة 1102هـ/1690م) أولَ مؤرخ عراقي عُرِفَ في العصر العثماني، وجَّه انتباهًا قويًّا

لتاريخ مصر عبر حقَب مختلفة؛ ففي كتابه الكبير الذي عَنوَنه: «عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان»، نجد فصلاً كبيرًا عن تاريخ مصر في العصور القديمة، إضافة إلى تواريخ (اليونان والروم والعرب)[8].

وبطبيعة الحال، فإنه استند في معلومات هذا الفصل على ما كان متيسرًا له من مصادرَ تاريخيةٍ عربية، لكن منهجه في ترتيب حوادث تاريخه جاء منسجمًا ومحكَمًا، فبحث في تاريخ ملوك مصر القدماء، ومن اتصل بهم من الأنبياء والمرسلين، وتناوَل ما أُثِر عن المصريين القدماء من حكمة ومعرفة، وما شادُوه من منشآت، لا سيما (الأهرامات) العجيبة، وما يتصل بذلك من شؤون.

وفي الفصول الأخرى يتابع الغرابي تاريخ مصر باهتمام، بوصفه جزءًا من تاريخ الإسلام، متَّبعًا في ذلك منهجين، يلتزم أولهما بالوحدة الموضوعية، ويأخذ ثانيهما بالوحدة الحولية؛ ففي الفصل الرابع من المقالة الأُولى تناول تاريخ بعض الدول التي نشأت في مصر، بوصفها من (دول الإسلام)، وذلك «على سبيل الإجمال».

وبعد أن خصص الفصل الأول من المقالة الثانية للسيرة النبوية الشريفة، تتبع في الفصل الثاني – وهو أهم الفصول وأكثرها سَعة – تاريخَ «ما كان بعد الهجرة» على حسب الحوليات، وكثيرٌ منه يخص مصرَ؛ ملوكًا وخلفاء، وولاة وأعلامًا، وحوادث سياسية.

ونحسب أنه صدر – في جمعه بين المنهجين: الموضوعي والحولي – عن إحساسٍ ما بأن لتاريخ مصرَ خصوصيتَه، ضمن إطار التاريخ الإسلامي العام، وهو – من دون ريب – إحساسٌ له أهميته.

وما دوَّنه الغرابي عن تاريخ مصر في العصر العثماني جديرٌ بالملاحظة؛ فإن بعض ما ذكره انفرد به عن غيره من المؤرخين المصريين أنفسهم، وهو أمر يوجب على الباحث أن يتوقفَ لدراسة مصادره، صحيحٌ أنه لم يصرح بأسماء هذه المصادر، إلا أننا نجده يصرح بإقامة أخٍ شقيق له في القاهرة، يقول[9]:

«حكى لي شقيقي الشيخ محمود حين ذهب إلى الحج عن طريق مصر قال: لَمَّا أتيت بلدة مصر أكرمني حاكمها عبدالرحمن باشا[10]، ورفع محلي، وطلب مني أن أبقى عنده هذا الموسم، ثم في السنة المقبلة يرسلني إلى الحج، فأجبتُه إلى ذلك».

فتكون إقامة شقيقه قد حدثت بين سنتي (1087 و1091هـ/1676-1680م)، وهي مدة ولاية عبدالرحمن باشا المذكور، ولا نشك في أن يكون الغرابي قد استمد من شقيقه هذا كثيراً مما أورده من معلومات تتعلق بتاريخ استيلاء العثمانيين على مصر، وأنه نقل عنه ما كان متداولاً من روايات على ألسنة العامة في القاهرة، وما كان يرويه الموظَّفون العثمانيون، على حد سواء، وهي روايات فيها إضافاتٌ مهمة عما ذكره المؤرخون المعاصرون للحدَث نفسه، يقول واصفًا - بإيجاز - ظروف معركة مرج دابق الحاسمة التي كانت سببًا في انهيار المقاومة المملوكية[11]:

«وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة عبر السلطان إلى اسكدار قاصداً ديار العجم في الظاهر، وفي نيته إزالةُ ملوك الجراكسة من مصر وغيرها، ففطنت الجراكسة إلى ما أراده، فجمعوا عساكرهم، وأخذوا حذرهم، فسار إليها السلطان سليم من اسكدار، وسار ملك الجراكسة الغوري من مصر، فالتقوا في مرج الدوابق (كذا رسمه والمعروف: مرج دابق) فتصافًّا هناك، ووقعت الحرب بينهم، فأصاب حجَر من الطوب أُذُنَ الغوري، فذهبوا إلى مكان أمين، فحين وصوله إلى هناك توفي، فاختلّ أمرُ العسكر من غيبته، وقُتل عدة من الأمراء المتعينين، وما لا يحصى من آحاد العسكر، وانهزم من بقِي منهم».

فهذه الرواية - على إيجازها - تختلف في بعض تفاصيلها عما ساقه المؤرخون المعاصرون للمعركة، فموت السلطان الغوري - عند ابن إياس الحنفي - كان بسبب إصابته بالفالج، أو لمرض أصاب كبده، أو بسبب ابتلاعه فص ماس كان معه[12]، أمَّا أن حجراً من الطوب - أي: شظية من قنبلة - أصابه في أذنه، فكان سببًا في موته؛ فذلك ما لم يرْوِه أحدٌ من قبل، ويظهر أن الغرابي استمده مما كانت تتناقله العامة في القاهرة بعد مدة من الحادثة.

ومثل ذلك ما ذكره في وصف مجريات اقتحام العثمانيين القاهرةَ، وحرب الشوارع التي دارت فيها، انتهاءً بإعدام السلطان المملوكي الأخير طومان باي، قال:

«في أول الربيع سار (السلطان سليم) قاصداً بلدة القاهرة، فتأهب لمحاربته ملك مصر طومان باي إلى طرف الصعيد، وكان ذلك النهار سلخ ذي الحجة من السنة المزبورة، وفي الغد، وهو غرة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخلت عساكر السلطان سليم إلى مصر، ودام النهب والقتل ثلاثة أيام، ثم نودي بالأمان، وبعدها

سار طومان باي من الصعيد، وعلى حين غفلة مع جم غفير يقصد أن يطأ عسكر السلطان سليم، فما أمكنه ذلك، فدخل مصر، واجتمع عليه من كان من الجراكسة هناك مختفيًا، فغضب السلطان سليم من هذا الفعل، فأمر العسكر بالدخول إلى مصر، وقتل من فيها من الأشقياء، فدام القتل فيها ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع عفا عنهم، وانهزم طومان باي إلى الصعيد قاصداً بلاد المغرب، فأرسل خلفه من لحقه فأتى به، فصُلب بباب زويلة، وبه انتهت دولة الجراكسة».

ومن المرجح أن يكون الغرابي قد استمد معلوماته هنا من روايات عثمانية كان يتداولها الموظَّفون الرسميون في مصر، في محاولة لتقديم صورة أكثر تبريرًا لقيام سليم الأول بقتل السلطان المملوكي الأخير، وإلا فإن طومان باي لم ينهزم إلى الصعيد قاصداً بلاد المغرب، وإنما غدر به بعض زعماء القبائل في البحيرة، فأسره واقتاده إلى سليم الأول، وغدر به الأخير بعد أن استأمنه[13].

وليس ببعيد أن يكون هدف ترويج مثل هذه الروايات هو تحسين صورة الفتح العثماني للوطن العربي يومذاك، لا سيما وأن الغرابي ساق - فيما نقله من روايات - أخبارًا وتفاصيلَ عن كرامات لبعض الصالحين تفيد تنبُّؤَهم بمجيء العثمانيين، وزوال المماليك، وكأن الأمر كان قدرًا لا فكاك منه[14].

بيد أنه إذا كان ظهور الغرابي، باهتماماته التاريخية الواسعة، يُعَدُّ شيئًا نادرًا في بيئة محدودة كعراق القرن الحادي عشر (17م)، فإن ظهور أمثاله من المؤرخين لم يعُدّ شيئًا غريبًا في القرن التالي، وهو القرن الذي شهد تولي الأسر المحلية - غالبًا - مقاليدَ السلطة في الولايات العراقية، وتحمُّلها - من ثم - مسؤوليةَ حماية التجارة المحلية والترانسيت، وما يستتبع ذلك من ضرورة توفير حدٍّ معقول من الأمن للقوافل المتنقلة بين المدن، فبعد أن كان تأليف تاريخ، أو جمع تراجم لقطرٍ ما يستلزم انتقالَ المؤرخ نفسه إلى ذلك القطر، وهو ما فعله بعض مدوِّني التراجم الأدبية أحيانًا، فإن مهمة كهذه لم تعُدّ تستلزم من مؤرخ القرن الثاني عشر (18م) إلا تسمُّع ما تأتي به القوافل في حركتها المستمرة، من أخبار وروايات، تفيده في الاطلاع على جوانبَ من مجريات الحوادث في الأقطار الأخرى.

ويمكننا أن نعُدَّ المؤرخَ المَوْصلي ياسين بن خير الله الخطيب العمري (المتوفى بعد سنة 1232هـ/1816م) واحداً من أبرز المؤرخين العراقيين الذين انعكس في

مؤلَّفاتهم ذلك التحسنُ المحسوس في طرق الاتصال، فهذا المؤرخ الذي لم يغادر مدينته المَوْصل قط[15]، استطاع أن يؤلِّف نحو خمسة عشر كتابًا مستقلاً في تواريخ مدن عدة، وتراجم البارزين من أعلامها[16]، وهو المؤرِّخ العراقي الوحيد - فيما نعلم - الذي سجَّل في مؤلَّفاته خبر اندلاع الثورة الفرنسية، وذلك في كتابه: «غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر»[17].

وكان لغزو الفرنسيين مصرَ دورُه في تنبيه ياسين العمري إلى خطورة ما يجري في مصر يومذاك، وأثر ذلك على المنطقة بأسْرها، فكتب في «غرائب الأثر» أخبار ذلك الغزو، وأورد تفاصيلَ فيها شيءٌ كثير من الدقة والموضوعية، من ذلك أنه ضبط تواريخ مراحل الغزو، وحدد عدد قِطَع الأسطول الفرنسي، وقدَّر عدد الجنود بثمانين ألف مقاتل، وهو ما يبلغ ضِعْف العدد الحقيقي للحملة.

وتحدَّث عن احتلالهم الإسكندرية، ووصف بأنه جرى «بالغدر والحيلة»، وتابع زحفهم إلى القاهرة، ومقاومة البيكات - أي: المماليك - لهم، ثم دخولهم القاهرةَ، والاستيلاء «على ما في مصر من السلاح»، وخروج الوالي العثماني من القاهرة بأمواله، ونهب أهل الصعيد ما معه، وتوجّهه إلى حلب، ووصف رد فعل الدولة العثمانية من هذه الحوادث، وأخبر بأن السلطان لم يعلم بها «حتى مضى شهران»، وأنه عاقب موظَّفيه، ومنهم شيخ الإسلام؛ لإهمالهم أمْرَ مصر، وولي الوزير يوسف باشا مسؤولية تخليصها من الفرنسيين[18]، وأن الفرنسيين لما ملكوا مصر "طمعوا في البلاد، وملكوا غزة والرملة ويافا، وعزموا على أخذ بيت المقدس».

ووصف مقاومة الشعب هناك، وعطف إلى ذكر محاصرة الفرنسيين عكا، ودفاع واليها أحمد باشا الجزار عنها، وعن يافا، وما أوقعه الفرنسيون من مذابح في الأخيرة.

ثم تكلَّم على محاولات العثمانيين إخراجَ الفرنسيين من مصر، وتحالفهم مع الإنكليز في سبيل ذلك، ووصف مغادرة الفَرنسيين البلاد، فقال[19]:

«وفيها حاصر الوزير الأعظم يوسف باشا مصر، وشدد الحصار، فأرسل الفرنسيون يطلبون الأمان، ويسلِّمون له مصر، فصالحهم وخرجوا من مصر، وتوجهوا إلى بلادهم، وكان جملة من كان منهم في مصر ستة آلاف علِج، ودخل الوزير الأعظم يوسف باشا، وجلس على سرير يوسف - عليه السلام - كما ذكر الشيخ محيي الدين

– رضي الله عنه – في الشجرة حيث قال: ويجلس يوسف على سرير يوسف، وأرسل البشائر إلى جميع البلاد، ونعم البشائر للعباد، فعمل الولاة ثلاثة أيام مهرجانًا وأفراحًا وسرورًا.. وهرب مقدمهم وقائدهم إلى الضلال برته بول (يريد: بونابرت) في مركب خفيف ومعه أموال لا تحصى، فتبعته مراكب الإسلام والأنكروس (يريد الإنكليز) فنجا وسلم وهرب إلى بلاده، ثم خرجت الجيوش الفرنسية من مصر كما ذكرنا، وهم عشرة آلاف علج، وساروا إلى الإسكندرية بالمراكب، فحاربهم عسكر الإسلام، وعليهم أحد الوزراء العظام، وجرت وقعةٌ عظيمة، وقتل من الفرنسيين، ولم يسلم منهم سوى ثلاثة آلاف، وهربوا بالمراكب إلى بلادهم».

ولا نشك في أن حوادث مهمة كهذه، كانت سببًا في توجيه العمري عنايته إلى تاريخ مصر في الحقبة السابقة أيضًا، فقد أورد في كتابه: "الآثار الخطية في الحوادث الأرضية" فقراتٍ مطولةً، على السنين، تغطي أخبار دخول السلطان سليم الأول مصر، وما جرى في عهد واليها خاير بك، وتتبع تواريخ ولاتها المهمين في الحقبة التالية، وترجم لبعضهم، وخص محاولة علي بك للاستقلال بمصر وضم بلاد الشام إليها باهتمامٍ خاص، وإن أظهر الميل إلى وجهة النظر العثمانية الرسمية، ولم يقفْ عند التاريخ السياسي فحسب، وإنما أورد أخبارًا عديدة عن حوادثَ طبيعية، مثل: الغرق، والفيضان، والزلازل، وانتشار الأوبئة... إلخ.

وعلى الرغم من أن العمري سكت عن ذكر أسماء مصادره، إلا أننا نعلم أنه اعتمد بشكل أساس على كتاب النهروالي المعنون: «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» في نقله كثيرًا من تلك التفاصيل[20].

وهكذا، فإن كتابات العمري عن تاريخ مصر الماضي، والمعاصر له، كانت تمثل ارتفاعًا محسوسًا في أهميتها لدى المؤرخين العراقيين، فلم تعُدْ مجرد ولاية ساكنة من ولايات الدولة العثمانية، وإنما بُوتقة ساخنة لكثير من الحوادث الخطيرة، التي كان لها أثرها على مجمل الأوضاع في المنطقة، بل وعلى موطنه الموصل نفسها، ألم تأمر الدولة والي الموصل عبدالفتاح باشا الجليلي بقتال علي بك الكبير[21]؟ ألم يتوجه عراقيون، من أهل عقره، القريبة من الموصل، لجهاد الفرنسيين في مصر؟[22] ثم ألم يؤثّر الغزو الفرنسي في ارتفاع أسعار بعض المواد في سوق الموصل؟ وهو ما سجله العمري بكل عناية.

وإذا كانت مصر قد بدت في كتابات العمري قريبة - من حيث التأثير - من العراق، كما لم تَبْدُ سابقًا، فإن المرحلة التالية أكدت ازدياد قربها من أحداثه، وتفاعلات الحياة فيه؛ إذ لم تعد مصر تكتسب أهميتها مما يجري حولها من صراع، وإنما أخذت تكتسبها بفعل ما أخذت تؤديه من دور حقيقي في موازين ذلك الصراع، ففي سنة 1233هـ/1817م دحرت قوات مصرية حسنةُ التدريب قوات الدولة السعودية الأولى في شرقي نجد، واستولت على قاعدتها (الدرعية) ودمَّرتها، وكانت قوات هذه الدولة الناشئة تشكل خطرًا حقيقيًا على مدن العراق الغربية، بدأً من (عانة) شمالاً، وحتى (البصرة) جنوبًا، ولطالما عجزت قوات ولاة بغداد عن دحرهم، بل فشلت محاولاتهم في الحيلولة دون وصولهم إلى تلك المدن؛ لذا لم يُخْفِ المؤرخون العراقيون الذين كانوا يراقبون الأحداث الدائرة قربهم، دهشتَهم البالغة حينما تناهت إليهم أنباء انتصار القوات المصرية الساحق على القوات السعودية، فقد تابعوا باهتمام شديد تطورات الصراع وراقبوا نتائجه.

الدرعية

ونستطيع أن نلمح مدى ما حققته مصر من مهابة إثر تلك المعركة، في عيني غير واحد من المؤرخين العراقيين المعاصرين، فكتب المؤرخ رسول حاوي الكركوكلي، مستندًا إلى رسالة رسمية أرسلها الشيخ حمود الثامر شيخ قبائل المنتفق العراقية إلى والي بغداد داود باشا، أن قائد الجيوش المصرية إبراهيم باشا «دك حصونهم، ودمر قلاعهم، وأطاح برئيسهم»، وأن الجيوش المصرية استولت على الدرعية التي كانوا يتحصنون فيها، ونلمح فيما كتبه تعاطفًا واضحًا مع الجيش المصري فيما حققه من نتائجَ عسكرية وسياسية[23].

ويجد هذا الموقف تعاطفًا أعمق في كتابات مؤرخ بصري، من جزيرة (فيلكة)، هو عثمان بن سند البصري الوائلي (المتوفى سنة 1242هـ/1826م)، فإننا نلمح في كتابه: «مطالع السعود" الذي دوَّن فيه تاريخ العراق خلال نصف قرن (من 1188 إلى 1242هـ/1774– 1826م) - إدراكًا أوسع للدور المتزايد لمصر في المنطقة، وتعاطفًا أشد معها لم يشأ أن يخفيه، بل بدا جليًا في كل ما كتبه عنها، وهكذا فإنه أرَّخ - بتفصيل - للانتصارات المصرية في نجد، مستندًا في ذلك إلى شهود العيان[24]، وأشاد بقيادة إبراهيم باشا المحنكة، وببسالة الجنود المصريين وصبرهم على مكاره

الحرب، ووصف العمليات العسكرية للقوات المصرية في نجد وفيافيها، واستيلاءها على قرى عُنيزة وبريدة والقَصيم والشقراء، وحصارها الدِّرعية، ثم الاستيلاء عليها، وما فعله إبراهيم بالقوات السعودية، وسجَّل بدقة بعض ما دار بين إبراهيم والقادة السعوديين من رسائل وحوارات، عاداً تلك الانتصارات فتحاً فتحه الله على إبراهيم وجنده[25]، وبلغ من تعاطفه مع القوات المصرية أن أرسل إلى قائدها - وهو في حصاره الدرعية - رسالة ضمَّنها "نصائح ومصالح عديدة"[26].

وعلى الرغم من أن الإطار المفترض للكتاب هو تسجيل سيرة والي بغداد داود باشا، فإن ابن سند أورد فصلاً مهماً عن حرب الجيش المصري في بلاد المورة، وسجل - باعتزاز - دخول هذا الجيش مدينة المورة، وما حققه فيها من إنجازات عسكرية[27].

ومن المؤسف أن وفاته المفاجئة، وتوقفه عن الكتابة عند حوادث سنة 1242هـ، حالت دون أن توضِّح موقفه من الانتصارات المصرية في جبهة الجزيرة وبلاد الشام، وهي الانتصارات التي كان لها الأثرُ البالغ في تداعي الموقف العثماني في المدن العراقية، ومع ذلك، فإن لنا أن نؤكد بأن موقف ابن سند المتعاطف مع الدور المصري كانت له امتداداتُه في الحقبة التالية، مجسَّداً في مواقف العديد من القيادات والحركات الشعبية في العراق، المساندة للقيادة المصرية، والمناوئة للسلطة العثمانية،؛ كانتفاضة الموصل سنتَي 1832 و 1839، وبغداد سنة 1832، وإعلان قيادات عديدة في عانة، وهيت، ومدن فراتية أخرى - الانضمامَ إلى جانب مصر[28].

وإذا كانت رسالة المؤرخ ابن سند إلى القيادة المصرية تمثِّلُ بادرةً جديدة في مجال قيام صلات مباشرة بين المثقفين العراقيين ومصر، فإننا نعلم أن رسائل عديدة من مثقفين آخرين، وزعماء قبَليِّين، وحكام مدن، قد انهالت على هذه القيادة تدعوها للتدخل من أجل تخليص العراق من السيطرة العثمانية، وضمه إلى الدولة الموحدة الجديدة التي انبلج فجرُها في المشرق العربي يومذاك[29].

وهكذا فقد بدت مصر - في عيون الكثير من المثقفين العراقيين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر - أملاً لتغييرٍ واسع يشمل المشرقَ العربي بأسره.

ولقد أدى انسحابُ القوات المصرية من القسم الآسيوي، وانكفاؤها - نتيجة الضغوط الاستعمارية الأوربية - على نفسها، ثم انشغالها فيما بعدُ بالتوسع جنوباً

ﻓﻲ إفريقيا، إلى وصول المشروع المصري إلى نهايته، ومن ثم تبدد فكرة أن تكون مصر القوية (أملاً) و(ملاذاً) كما بدت في المرحلة السابقة، ومن ناحية أخرى، فإن إسقاط العثمانيين حُكْمَ الأُسَر المحلية في العراق، وإعادة ربط ولاياته بالإدارة العثمانية المركزية، وهو ما تزامن مع ربط اقتصادياته بالهيمنة الاقتصادية البريطانية - قد أدى إلى ضعف إمكانات التطور المستقل للعراق في ذلك العهد، ومن ثم قصوره عن بلورة علاقاته القومية الخاصة بعيداً عن هيمنة الإدارة العثمانية، وهكذا، لم يجد المؤرخون العراقيون، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ما يمكن أن يرصدوه من تاريخ مصر وأخبارها، وبدا كل قطر قد أخذ بالدوران على نفسه، مكوناً محوره الخاص.

ولقد أدرك شاعرٌ بغدادي قاد انتفاضةً مهمة ضد السلطة العثمانية في بغداد، هو عبدالغني آل جميل (المتوفى سنة 1279هـ/1863م)، أن وحدة النظام السياسي لم تَحُلّ دون حقيقة تفرُّق العرب وتجزئهم ضمن هذا النظام نفسه:

ألاَ نخْوةٌ منهمْ فيُضْحُوا إلى الذي

أيادي سبَا قد غادرتْ ذلك المعنى[30]

بيد أن أية محاولة لم تجرِ طيلة النصف الأخير من القرن التاسع عشر للَمِّ ذلك الشعث، وبذا فإن اهتمامات المؤرخين العراقيين ظلت قاصرة على تناول موضوعات محلية، أولها يتعلق بتاريخ الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية في أكثر تقدير، كما فعل إبراهيم فصيح الحيدري (المتوفى سنة 1300هـ/1882م) في "عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد"[31]، و محمود شكري الآلوسي (المتوفى سنة 1343هـ/1924م) في «أخبار بغداد وما جاورها في البلاد»[32].

وبتشكيل أول حكومة عراقية بعد الحرب العالمية الأولى، أصبحت (الدولة العراقية) هي المحورَ الجديد لاهتمامات أولئك المؤرخين وعنايتهم.

علماء وأعلام

ابو هاشم وحزبه

نسبه وأسرته

هو عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب، وكنيته بأبي هاشم تطغى في أكثر الأحيان على إسمه فيعرف بها فقط، أما أباه فمحمد بن علي، من إمرأة من بني حنيفة، تدعى خولة بنت جعفر[1]، وأمه أم ولد تدعى نائلة[2]، وله من الأخوة أربعة وعشرون ولداً، منهم أربعة عشر ذكراً[3]، كلهم أصغر منه، ولا تعين المصادر التي تناولت ترجمته بسنة مولده، والراجح أنها كانت في حوالي منتصف القرن الأول للهجرة.

وليست ثمة معلومات كافية عن سيرته الأولى، وأغلب الظن أنه نشأ وترعرع في المدينة حيث بيت أبيه، وعشيرته، وأتباعه، وفيه تلقى العلم، من تفسير وحديث وفقه، ولم يكن قد مضى على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أمد يسير.

أما نساؤه فقد ذكر ابن سعد في طبقاته منهن[4]:

1- بنت لخالد بن علقمة بن الحويرث بن عبدالله من كنانة، ولدت له ولدين ذكرين، هما هاشم، وبه كان يكنى، ومحمد الأصغر، ولا بقية لهما.

2- فاطمة بنت محمد بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ولدت له محمد الأكبر، وبنتاً إسمها لبابة.

3- أم عثمان بنت أبي حدير عياش، من قضاعة، ولدت له ولدين، هما علي، وآخر غير معروف الاسم.

4- ريطة أم الحارث، بنت الحارث بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن المطلب، ولدت له بنتاً إسمها كأمها ريطة، وهي أم يحيى بن زيد بن علي المقتول في خراسان.

---

(1) ابن عنبة، أحمد بن علي: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، المطبعة الحيدرية، النجف 1961، ص353.

(2) ابن سعد، محمد بن كاتب الواقدي: الطبقات الكبرى، تحقيق سترستن، ليدن 1322، ج5 ص 240 والأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق أحمد صقر، القاهرة 1949، ص129.

(3) ابن عنبة: عمدة الطالب ص353

(4) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج5 ص340.

5- أمهات أولاد، لم تذكر أسماؤهن، وَلَدن له عدة أولاد، منهم طالب، وعون، وعبدالله، وأم سلمة.

ومن الغريب أن انقرض عقب أبي هاشم، على الرغم من هذا العدد من الأولاد، على ما أكد ذلك غير واحدٍ من المؤرخين[1].

علمه

نسب المؤرخون، وأصحب الفِرَق وغيرهم، إلى أبي هاشم نوعين من العلوم والمعارف، أولهما العلم الظاهرالمعتاد، أي التفسير والحديث وما إليهما، وثانيها العلم الباطن الخاص، وهو الذي نسبته إليه عدة فرق في أثناء حياته وبعد وفاته، حتى صار فيما بعد ركناً مهماً من الأركان التي قامت عليها الدعوة العباسية. والعلم الباطن هذا عبارة عن مجموعة من التنبؤات الغريبة عن مستقبل الدعوة العباسية، منسوبة إلى النبي محمد (ص) والإمام علي بن أبي طالب (ع). ولما كنا نعلم أن تلك الأمور المتنبأ بها لم تحدث إلاّ بعد وفاة أبي هاشم بوقت طويل، فنحن نشك في كونها موضوعة من قبل الأسرة العباسية في وقت متأخر من قيام الدعوة، وربما في السنين الأولى من قيام الدولة. فسنقتصر من الموضوع على النوع الأول من العلم، أي العلم الظاهر، الذي هو أدعى إلى القبول.

يحدثنا ابن سعد عن علم أبي هاشم بالحديث النبوي وحفظه، فيقول: «صاحب علم ورواية، ثم يضيف «كان ثقة، قليل الحديث[2].

وأحاديثه هذه على قلتها موزعة في الكتب الستة، البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وأبو داود، ومتفق عليها، وقد نقلها عن أبي هاشم بعض الثقات، هم ابن شهاب الزهري وعمر بن دينار[3].

ونقل الشهرستاني عن بعضهم أن واصل بن عطاء، شيخ المعتزلة وواضع أسسها، كان قد أخذ الإعتزال عن أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية، وهي

---

(1) ابن خلكان، أحمد: وفيات الأعيان، القاهرة 1310هـ، ج1 ص454.
وابن عنبة: عمدة الطالب ص353.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج5 ص240. ص49.

(3) الذهبي: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، مخطوط، مكتبة الأوقاف ببغداد..

إشارة لها خطرها، إذ تكشف عن طبيعة آراء عبدالله وأفكاره، فضلا عن أنها توضح – إلى حد ما– نوع العلاقة بين الاعتزال والتشيع في أدوارهما الأولى. وينقل الشهرستاني نفسه بعض تلك الاراء، ذاكراً أنها كانت مذهباً حمل رايته ابنه أبو الهذبل حمدان بن الهُذيل العلاف «شيخ المعتزلة ومقدم الطائفة، والمناظر عليها»[1]، وتميزه عشر قواعد فلسفية أهمها: «أن الباري عز وجل يعلم، وعلمه ذاته، قادر بقدرة، وقدرته ذاته، حي بحياة، وحياته ذاته، وإذ أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوهاً للذات، فهي عينها أقانيم النصارى، أو أحوال أبي هاشم»[2].

ولا ندري — على وجه التحديد– كم من هذه الآراء أخذه واصل عن أستاذه أبي هاشم فعلاً، والواقع أنها– كما عرضها الشهرستاني– متأخرة نسبياً ، لأن آثار الفلسفة الإغريقية واضحة فيها إلى حد كبير، وهو ما نستبعد ظهوره في عصر أبي هاشم المبكر، كما أنه من المستبعد تأثره بها على أية صورة، فهو قد ترعرع في محيط ديني محافظ، يكثر فيه حفاظ الحديث، ومفسرو القرآن، والرواة، والفقهاء، وفي بيت قديم، يتصل بالرسول (ص) بأوثق الصلات، وحتى إن صحَّت صلته بواصل بن عطاء. فإن الأمر لا يعدو أخذ الأخير عنه بعض الأحاديث لا أكثر، بعيداً عن آفاق الفلسفة التي اشتهرت بها فرق المعتزلة، وإلا فكيف يمكن للمرء التوفيق بين تصريح المؤرخين عن أبي هاشم بأنه كان «ثقة بكل ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معان، وبين أحذه بمبدأ الأقانيم الذي أتهم به؟.

أبو هاشم والإمامة

أجمع مؤرخو العباسيين ورواة أخبارهم على أن أبا هاشم كان إماماً لبني هاشم، وأنه بتنازله عن الإمامه لقريبه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (عم الرسول) انتقلت هذه المهمة الشرعية الخطيرة من العلويين إلى العباسيين، وهي الرواية العباسية الرسمية التي سنتناولها بشيء أكثر من التفصيل فيما بعد، على أن الذي يهمنا الآن أن نتناول مسألة إمامة أبي هاشم نفسها قبل التطرق إلى قضية تنازله عنها، فإن هذا سيجرنا إلى سؤال آخر. وهو هل كان أبو هاشم إماماً

(1) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة 1961، ج1

(2) الشهرستاني ج1 ص49.

(خليفة) شرعياً فعلاً (من الوجهة الدينية الروحية) حتى يتنازل عن الإمامة لبني العباس، بالصورة التي نقلها لنا مؤرخو الدولة العباسية؟

إن في هذا السؤال صعوبة خاصة، فالمعروف أن أبا هاشم هو ابن محمد بن علي بن أبي طالب، من زوجة أخرى غير فاطمة، وجمهور الشيعة لهذا تنفي أن تكون الإمامة قد انتقلت إليه، وتفترق حول ذلك بعدد كبير من الآراء والنظريات مما يجعل أساس فكرة إمامة أبي هاشم مهزوزة من جذورها، والفرقة الوحيدة التي آمنت بها هي (الكيسانية)[1] على خلاف الفرق الشيعية الأخرى، وهي وإن اتفقت على إمامة محمد بن الحنفية فإنها لم تتفق على إمامة ابنه أبي هاشم من بعده، بل تنقسم – على الرغم من قلة عدد أتباعها– إلى عدة فرق، تختلف حول أحق الناس في الإمامة، فالمختارية ، وهم الكيسانية الخُلَّص، أصر بعض دعاتها على أن ابن الحنفية لم يَمُت، وأنه على جبل رضوى قرب المدينة، عن يمينه وعن شماله، نمران يحفظانه، وأنه سيعود بعد الغَيبة «فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[2]. ومثلهم الكَربية أصحاب أبي كَرب الضرير، وفرقة أخرى رأت أن الإمامة قد انتقلت إلى ابن أخته علي بن الحسين زين العابدين[1].

---

(1) أصل الكيسانية غامض ومرتبك، يرى البغدادي أنها منسوبة إلى لقب للمختار الثقفي، هو (كيسان)، ولكنه ينقل عن بعضهم أن المختار أخذ مقالته من مولى لعلي كان إسمه كيسان (مختصر الفرق بين الفرق ص35) ويقسم الأشعري (مقالات الإسلاميين ص30) الكيسانية بعد موت ابن الحنفية إلى عدد كبير من الفرق، إحداها فقط بقيت محافظة على اسمها، وهؤلاء هم الكيسانية الخلص، وهم المختارية. كتاب الزينة للرازي الورقة 241 (مخطوط في المركز الوطني للمخطوطات ببغداد) فإذا كانت الكيسانية منسوبة إلى لقب المختار الثقفي فما معنى تسمية هذا الفرع باسمه، أضف إلى هذا أن الإختلافات العقائدية بين هذه الفروع معقدة جداً وغير واضحة، كما أن موقفها من العباسيين مشكوك فيه، إذ لا تمدنا المصادر عن موقف كل فرع منهم، وأغلب الظن أن الهاشمية هي الفرقة الوحيدة التي أيدت الدعوة، في حين يرى الدكتور جمال الدين سرور أن استطاع العباسيون أن يكسبوا ولاء الكيسانية لهم، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، القاهرة 1964 ص127.

(2) الأشعري، علي: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تصحيح هـ . ريتر، استانبول 1929 ج1 ص19- 21، والبغدادي، عبد القاهر: الفرق بين الفرق، تحقيق فيليب حتي، مطبعة الهلال 1924 ص36، والأسفرايني، أبو المظفر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الهالكين، نشره عزت العطار، القاهرة 1940، ص19 والشهرستاني: الملل والنحل ج1 س150، والنوبختي، الحسن بن موسى: فرق الشيعة، تصحيح هـ. ريتر، استانبول 1931

وهكذا فإن التأكد من شرعية إمامة أبي هاشم أمر غير مجدٍ وسط هذا الفيض من الآراء المتناقضة حولها، والحقيقة أننا لا نجد أية ضرورة للبحث عن مثل هذا السند الشرعي، فإنه يكفي أن يكون أبا هاشم وريث أبيه محمد بن علي بن أبي طالب، حتى يعتقد هو بأحقيته في طلب الخلافة، وبكلام آخر فإن القضية لم تكن إلا أمراً سياسياً دنيوياً بحتاً، لا علاقة له بأي مُسوِّغ ديني، فإذا ما لاحظنا أن المستفيد الوحيد في إضفاء هذه الصفة الروحية على إمامته، هو الأسرة العباسية التي كانت تسعى للوصول الى الحكم، فإن شكنا في مسألة إمامة أبي هاشم يكون في محله.

دعوة أبي هاشم

مما يلفت الإنتباه في مسألة دعوة أبي هاشم، أن أخبارها وأسماء دعاتها لم تأت صريحة واضحة في أغلب الروايات التاريخية، على خلاف ما نجده بشأن الدعوة العباسية، كما يلاحظ في تلك الروايات نفسها أنها في الوقت الذي تغفل فيه ذكر أعمال أبي هاشم الفعلية في الدعوة، أو لا تعيرها كبير اهتمام، نجدها تهتم اهتماماً بالغاً في تفصيل أخبار تنازله عن حقه بالإمامة إلى محمد بن علي العباسي، بل أن أغلبها يحاول أن يكسب الأمر شكلا طبيعيا منطقياً، فما السبب الخفي وراء ذلك؟

الذي يظهر أن العباسيين لم يكونوا ليكترثوا بتسجيل الأحداث كما هي، وإنما كانوا يسعون دوماً إلى البحث عن الروايات المؤيدة لدعوتهم، والأخبار المنبئة بأحقيتهم في المُلك (وربما اختلقوها اختلاقاً) دون الاهتمام بما دون ذلك من أمور، ولذلك فإنهم تغافلوا عن أخبار أبي هاشم غير المهمة بالنسبة إليهم، بما تتضمنه من أمر قيامه بالدعوة الفعلية لنفسه، وتمسكوا بشدة بالأخبار التي تمس مصلحتهم فقط، ومن الطبيعي أن يكون على رأسها قصة تنازله لحزبهم عن حقه في الإمامة، واختصاصهم بعلمه الروحي الموروث، حتى أنهم بالغوا في هذا الحق كثيراً.

وعلى أية حال فإنه يمكننا من خلال تصورنا لشخصبة أبي هاشم القوية، وإطلاعه على مجريات السياسة في عصره، وعلمه، واعتقاده بأنه الوريث الوحيد

ص23 والرازي، فخر الدين: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مراجعة علي سامي النشار، القاهرة 1938، ص62.

(1) الأسفرائيني: التبصير في الدين ص29.

لعلي بن ابي طالب، بعد وفاة الحسن والحسين، كل هذا يدفعنا إلى ضمِّه لجماعة الداعين الفعالين للخلافة من العلويين، المناوئين للسلطة الأموية. وتؤيد هذا القول عدة نصوص أوردها بعض المؤرخين، فقد أشار صاحب كتاب الإمامة والسياسة[1] إلى أن محمداً بن الحنفية أمر ابنه عبدالله أبا هاشم بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلاً، وأنه «أعلم الشيعة بتوليته إياه[2]، فإن لم يكن محمداً قد أمر إبنه بطلب الخلافة فعلاً، فإن هذا القول يُظهر – في الأقل- طموح أبي هاشم، ورغبته الشخصية في طلبها «إن وجَد لذلك سبيلاً. ويذكر ابن عبد ربه في عقيدة أبي هاشم أنه «كان قائماً بأمر الشيعة يأتونه ويقوم بأمرهم ويؤدون إليه الخراج حتى استخلف سليمان بن عبد الملك[3]، ويشبه هذا ما نقله ابن خلكان حين أشار إلى أنه كان «عظيم القدر وكانت الشيعة تتولاه[4].

وعلى الرغم من أن هذه النصوص لا تشير بوضوح إلى مفهوم «الشيعة التي ذُكر أنها كانت تتولاه وتؤدي إليه الخراج، ونوع اعتقاداتها، إلا أن من الجلي كونها لم تمثل إلا قسماً معيناً من الشيعة العلوية بمفهومها الواسع، ذلك لأننا نعلم أن كثيراً من فرق الشيعة آنذاك لم تكن تعتقد بصحة إمامته أصلاً، ولا بأحقيته فيها من الوجهة الشرعية، فكيف تمنحه تلك الفرق ثقتها، وخراجها، وتوليه أمرها، وهي ترى في غيره المستحق لذلك كله.

فأغلب الظن إذاً، أن تلك «الشيعة التي أشير إلى متابعتها إياه، لم تكن في الحقيقة إلا شيعته هو، أي حزبه الخاص، دون سائر أحزاب الشيعة أتباع علي بن أبي طالب. وحزبه هذا اعترف له منذ البداية بحقه في الخلافة، وأطاعه في تنفيذ المهام، حتى نُسبوا إلى إسمه، فقيل لهم (الهاشمية). ويمكن للمرء أن يميز آراء هذا الحزب، كما عرضها الشهرستاني، على النحو الآتي:

1- أنهم – وقبل كل شيء- فرع من الفرقة الكبيرة (الكيسانية) التي اعترفت من حيث المبدأ بإمامة محمد بن الحنفية.

---

(1) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1937 ج2 ص140.

(2) الإمامة والسياسة ج2 ص140.

(3) العقد الفريد، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ج3 ص114.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج1 ص454

2- أنهم اعترفوا بوفاة محمد بن الحنفية (سنة 81هـ) على خلاف بعض الفرق الأخرى، كالمختارية والكربية (أتباع أبي كرب الضرير)، الذين يزعمون أنه لم يمت، وأنه حي في جبال رضوى.

3- أنهم قالوا بأن محمد بن الحنفية أوصى بالخلافة إلى إبنه أبي هاشم عبدالله صراحة، فذكر الشهرستاني أنهم قالوا «فإنه أفضى إليه أسرار العلوم وأطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس، وتقدير التنزيل على التأويل، وتصوير الظاهر على الباطن. ويظهر أنهم اهتموا بشكل خاص بمسألة (العلم الباطن) فقالوا «أن لكل ظاهر باطناً، ولكل شخص روحاً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار يجتمع في النوع الإنساني[1]، وهو العلم الذي استأثر علي رضي الله عنه، ابنه محمد بن الحنفية، وهو أفضى ذلك إلى ابنه أبي هاشم. ثم أنهم قالوا «فكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً، فكأنهم قد انتهوا إلى تقرير قاعدة عامة، ومبدأ رئيس واسع أمكن تطويره فيما بعد بما يوافق الدعوة العباسية حتى وضع ذلك العلم على شكل «صحيفة صفراء تمنح من إمام إلى آخر، وهذا المبدأ من دون شك يعطي الخلافة صفة شرعية جديدة تعتمد على العلم فقط، من دون التسلسل النسبي المعروف، وهو ما طبق فعلاً في رواية تنازل أبي هاشم لمحمد بن علي العباسي عن صحيفة العلم الباطن الصفراء، وصيرورته من ثم صاحب الإرث، والحق الشرعي بالخلافة، على الرغم من أنه ليس بوارث له من ناحية القرابة الفعلية. ومن هذه النقطة بالذات تبدأ شكوكنا بحقيقة آراء (الهاشمية) لأن آراءً كهذه لا يمكن أن تكون قد وجدت في حياة أبي هاشم نفسه، وإلا لم يكن لها أي معنى، فإن أبا هاشم كان ابن محمد بن الحنفية ووريثه الشرعي، فهو لم يكن بحاجة إلى أي علم باطن، أو صحيفة صفراء، ليثبت حقه بالإمامة، وإنما صاحب المصلحة الحقيقية في مثل هذه الدعوى هي الأسرة العباسية نفسها، لأنها – بدونها– لا يبق لها سند شرعي روحي بـ(الإمامة) وخلافة المسلمين.

---

(1) هذا يعني أنه احتوى على الحقيقة المطلقة، لا الحقيقة النسبية التي يراها سائر البشر، أي أنه كان معصوماً. ويلاحظ أن هذا القول يعد بادرة أولى في التفكير الصوفي الذي عرف بفكرة الإنسان الكامل المتمثل بالنبي (ص). التفصيل في كتاب (الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل لعبد الكريم الجيلي (ت 832هـ).

وعلى أية حال، بمكننا القول أن الهاشمية اتبعت أبا هاشم في حياته، على أساس أنه صاحب الحق بالإمامة، لقرابته من علي بن أبي طالب، بصرف النظر عن مسألة (الوصية) والعلم الباطن المشكوك فيه.

أن المصادر التاريخية لا تشي بشيء وافٍ عن طبيعة أعمال حزب أبي هاشم وتحركاته السياسية، وكل ما نفهمه مما ذكره ابن عبد ربه في النص السابق أن أفراده كانوا يدفعون إليه أموالاً باسم الخراج، وأنهم كانوا يتصلون به مباشرة في أكثر الأحيان[1].كما يفهم من سياق وشاية زيد بن حسن بأبي هاشم عند الخليفة الأموي «أن له شيعة من أصحاب المختار (بن أبي عبيد الثقفي، أي الكيسانية) يأتمون به «ويحملون صدقاتهم إليه[2].

والذي يمكن استنتاجه من بعض النصوص القليلة، أن موطن هؤلاء الشيعة كان الكوفة من أرض العراق، بمعنى أن مكان نشاط الحزب كان في نفس النطاق الذي ظهرت فيه حركة المختار الثقفي[3]،الذي نادى بإمامة أبيه محمد بن الحنفية، دليلنا على ذلك ما جاء في سياق التهم التي دمغ بها زيد بن الحسن أبا هاشم، في حضرة الوليد، حين ذكر بأنه «تصل إليه من الكوفة هدايا تبعثها شيعته هي عبارة عن (غالية)[4] من الدهن (الرازقي)[5]. ويظهر أن ميدان الدعوة انتقل بسرعة إلى خراسان، الموطن الطبيعي لكل دعوة مناوئة للسيادة الأموية فلقد أفادت الروايات التي أرّخت لوفاة أبي هاشم، أنه كان معه عند وروده قرية (الحُميمة)[6]، أو مشارفها حيث مات، «بعضٌ من أهل خراسان[1] ممن كانوا يترددون عليه[2].

---

(1) العقد الفريد ج3 ص191.

(2) مؤلف غير معروف: أخبار العباس وفضايله ومناقبه وفضايل ولده. الورقة 78ب (مخطوط في مكتبة الأوقاف ببغداد).

(3) ولهاوزن: الدولة العربية وسقوطها ترجمة يوسف العش، دمشق 1956، ص398.

(4) أخبار العباس وفضايله الورقة 79 أ.

(5) مؤلف غير معروف: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق دي كويه، ليدن 1971، ص181

(6) تقع الحميمة اليوم في محافظة معان في جنوبى الاردن، على الطريق بين البتراء والعقبة، كانت مدينة وحصناً بيزنطياً، وعرفت قديماً باسم (حوارة) وجدت فيها لقى ومكتشفات من

ولا يُعلم مقدار النجاح الذي أحرزه حزب أبي هاشم في حياته، ونوع تنظيماته الداخلية، فالمعلومات التاريخية عن هذا الأمر تكاد تكون معدومة، إلا أنه يفهم مما ذكره صاحب العيون والحدائق أن لأبي هاشم دعاة، يوقع لهم بخاتمه، حيث كان في أصبعه يختم به[3]. وروى ابن عبد ربه أن أبا هاشم كان قد أمر محمد بن علي العباسي، عند مكوثه لديه قبل وفاته في الحميمة، بأن يختار لدعوته 12 نقيباً، وبعدهم سبعون من الدعاة[4]، وهو ما صارت له تنظيمات العباسيين فيما بعد. وليس ببعيد أن يكون جميع ما نسب إلى أبي هاشم من وصايا أوصى بها محمد بن علي العباسي، إنما هي تمثل ما فعله العباسيون أنفسهم، وما تلك الوصايا إلا غطاء شرعي يحمي الدعوة، وهي لما تزل بعد في بدء تكونها وذيوعها، من كل لوم وانتقاد، لا سيما إن كان العلويون هم مصدر هذا الإنتقاد.

أبو هاشم والبلاط الأموي

لابد للمرء، قبل التطرق إلى مسألة وفاة أبي هاشم، وتنازله عن الخلافة للعباسيين، وما رافق ذلك من ملابسات معقدة، أن يأتي إلى قضية أخرى لها أهميتها في سيرته أولاً، وفي حياة حزبه السياسية ثانياً، تلك هي طبيعة العلاقات التي كانت تربط بين أبي هاشم وحزبه من جهة، والأسرة الأموية من جهة أخرى، وذلك من خلال :

1- تحديد زمن نشوء تلك العلاقات.

2- نوعها

3- تعيين شخصية الخلفاء الذين يمثلون الطرف الثاني منها.

فأما ما يخص تحديد الوقت الذي نشأت فيه أولى العلاقات التي وصلت بين الطرفين، وهو مبدأ البحث، فقضية مختلف فيها، يمكن ترتيب أصولها على

العصرين البيزنطى والاموى، اتخذتها الاسرة العباسية مستقراً بها، واتخذ محمد بن على بن عبدالله بن العباس له قصراً فيها، ودفن فيها الا انه لا يعرف مكان قبره منها الان.

(1) أخبار العباس وفضايله الورقة 78أ.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ، المطبعة السلفية، القاهرة 1357 ج4 ص159.

(3) العيون والحدائق ص281.

(4) العقد الفريد ج3 ص194.

قسمين، القسم الأول تقليدي يشير إلى قصة واحدة مسلم بها، وتذهب إلى أن أول لقاء بين أبي هاشم والخليفة الأموي كان بدمشق، كما أنه كان آخر لقاء بينهما، ففيه أمر الخليفة بقتل أبي هاشم خلال خروجه من العاصمة. وتختلف على سبب قدوم أبي هاشم إلى البلاط الأموي، فمن الرواة من يجعل سبب ذلك تسرب أخبار دعوته إلى السلطة الأموية[1]، وانها هي التي استدعته، ومنهم من يرى أن قدومه إلى دمشق كان بمحض اختياره[2].

ويذهب القسم الآخر من الأصول، إلى أن علاقة أبي هاشم ببني أمية كانت قائمة قبل مدة من قتله، وأنما لم تكن سيئة تماماً كما تصورها بعض المصادر، حيث يذكر أن نزاعاً شديداً نشب بين أبي هاشم وزيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب سببه أن الصدقات كانت تأتي الأخير دونه[3]، في حين كان أبو هاشم يحتج بمكافأته له بالنسب، إذ أن وصية علي في صدقته كانت «إلى ذوي الفضل من أكابر ولده، وأنه «أكبر سناً، و«أعلم بالله وبكتابه وسنن نبيه (ص)، و« إنما الوصية لعلي لا لفاطمة[4]. وقد اشتكى إلى قضاة المدينة فأنصفوه، فدفع ذلك به إلى السفر إلى دمشق للوشاية بأبي هاشم ، بأن له أتباعاً من أصحاب المختار الثقفي، وأنهم يدفعون صدقتهم إليه. وفي رواية أخرى (لم يذكر السند) أن الوشاية كانت في المدينة، لا في دمشق، وذلك عند قدوم الوليد بن عبد الملك (81- 91هـ) سنة 91، حيث حضر الطرفان المتنازعان، فيروى أن الوليد قال لأبي هاشم مداعباً: قد أسرع اليك الشيب، فأجابه: هذا لأنه يُسرع إلى ذي السِّن (يشير إلى أحق بالصدقات لأنه أكبر أولاده سِناً) فقال زيد: ذاك يا أمير المؤمنين لغالية تُهدى إليه من الكوفة يغتلف بها، ثم مضى فاتهمه بتكوينه شيعة خاصة به في الكوفة، فلما صدر الوليد عن الموسم، فمر بالمدينة، «أشخص معه أبا هاشم إلى دمشق بحبسه بوشاية زيد بن حسن. ولم يطلقه إلا بعد شفاعة عَون، وعلي بن الحسين،

---

(1) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج2 ص140.

(2) المسعودي: التنبيه والأشراف، القاهرة 1938 ص292.

(3) مر بنا أن أبا هاشم كانت تأتيه الصدقات والخراج من شيعته في الكوفة وخراسان. فلم يكن بحاجة شخصية للمال، وإنما هي نفقات الحزب، وإدارة الدعوة التي تتطلب مالاً كثيراً.

(4) أخبار العباس وفضايله الورقة 78 ب

وقبيصة، الذين نفوا عن صاحبهم جميع التهم، حتى جعلوا الوليد يقول: اللهم قد فعلت على سوء ظن مني به[1].

ويروي صاحب العيون والحدائق هذه القصة بشكل مشابه من حيث الأساس، مع اختلافات في أغلب التفاصيل، فهو يجعل الواشي بأبي هاشم محمد بن علي بن جعفر، لا زيد من الحسن، كما أنه يجعل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، لا الوليد بن عبد الملك. وفي الوقت الذي يرى فيه اسحاق بن الفضل هذه الحادثة السبب المباشر لاستدعاء الوليد بن عبد الملك، لأبي هاشم، وأن الأخير مكث في البلاط الأموي مدة تبلغ سبع سنين مقرباً من الخليفة،« فيحضر مجالس الوليد ويسامره وربما فرح معه[2]. يخبر صاحب العيون أن الحادثة المذكورة كانت السبب الحقيقي وراء مقتل أبي هاشم، لأن الوليد بعث إليه، وهو خارج من بلاطه، من سمَّه[3].

ويبدو مما ذكره ابن الفضل، أن شك الوليد بن عبد الملك بأمر أبي هاشم كان لما حمله الوشاة إليه من أخبار تحركاته السياسية المريبة، حتى أنه اتهمه ذات مرة بأنه «شديد النصرة للأنصار، وكناه استهزاءً به بأبي البنات، مما أغضب أبا هاشم وجعاه يغلظ في إجابته للوليد، ففت الوليد من قوله ورأى أنه استخف به في جوابه وعرض به، فقال: إنك الخصم الألد!، إرحل عن جواري، فقال أبو هاشم: أرحل والله عن جوارك، فما الشام لي بوطن، ولا أفرّج فيها عن شجن، وقد أملقت فيها حَبسي، وكثر فيها دَيني، وقلت فيها فائدتي، وما أنا لك بحامد، ولا إن أعفيتني اليك بعائد. فأجابه الوليد: فإني قد أعفيتك إلى يوم الحشر[4].

وهكذا تتضح لنا قصة هذا اللقاء الأخير الجاف، الذي جاء ليُنهي علاقة أبي هاشم بالبلاط الأموي، بعد أن استمرت زهاء سبع سنوات أو يزيد.

وتشترك المصادر التاريخية الأخرى، مع رواية صاحب العيون — آنفة الذكر- في عدم تمييزها بين اللقاء الأول الذي حدث بعد إستدعاء أبي هاشم من المدينة

(1) أخبار العباس وفضايله الورقة 8أ.

(2) المصدر نفسه الورقة 80أ

(3) العيون والحدائق ص81

(4) أخبار العباس وفضايله الورقة 80أ.

إلى دمشق سنة 91هـ، وبين اللقاء الأخير قبل موته، كما أنها لا تشير إلى السنين السبع التي قضاها في البلاط الأموي، وإلى طبيعة علاقته السياسية بالخليفة.

ومن ناحية أخرى فإن هناك اختلافاً أساسياً في تعيين شخصية الخليفة الأموي الذي مات في عهده أبو هاشم، فضلاً عن الاختلاف حول زمن الحادث وسببه، فإبن سعد (ت 227هـ) ينص على أن تلك الوفاة كانت في خلافة سليمان بن عبد الملك، ولا يعين تاريخها[1]، أما ابن خياط (ت 240هـ) فهو وإن أكد على أن الحادثة حصلت في عهد سليمان، إلا أنه قلق في تعيين تاريخها، ففي موضع يجعلها سنة 98هـ، وفي موضع آخر يجعلها سنة 99هـ، ذاكراً أنها كانت في آخر ولاية سليمان[2]. وينص اليعقوبي (ت 292هـ) على أن الخليفة كان سليمان بن عبد الملك لا غيره[3]، ومثله ابن قتيبة (ت 270هـ)[4]، والطبري (ت 340هـ)[5] والأصفهاني (ت 356هـ)[6]، ومنهم ابن الأثير[7]، وابن خلكان[8] من المتأخرين، في حين ينفرد صاحب العيون والحدائق[9] بالقول أنه كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك، كما ينفرد ابن الطقطقي أنه كان هشام بن عبد الملك، فأي هذه الروايات نركن إليه؟

الذي يبدو لنا أن قدوم أبي هاشم إلى دمشق كان على عهد الوليد بن عبدالملك، وهي رواية أبي الفضل الهاشمي، وذلك لأن سنة قدومه التي هي 91 للهجرة، تقع بين سني خلافة هذا الخليفة الممتدة بين 86-96هـ، أما أنه مات في عهده فهو مستحيل، لأننا نعلم أن تلك الوفاة لم تحدث إلا بعد وفاة الوليد، فقد حدد المؤرخون تاريخها في إحدى السنوات 97، 98، 99[10]، أي بعد وفاة الخليفة المذكور بسنة كاملة في أقل تقدير.

---

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج5 ص240.

(2) ابن خياط، خليفة: تاريخ، تحقيق أكرم العمري، بغداد 1968، ج1 ص221، وص 226.

(3) اليعقوبي، ابن واضح: تاريخ ، بيروت 1956، ج3 ص34.

(4) الإمامة والسياسة ج2 ص140

(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج1 ص454 ولم أعثر على هذا النص في تاريخ الطبري نفسه.

(6) مقاتل الطالبين ص226

(7) الكامل ج4 ص159

(8) وفيات الأعيان ج1 ص454.

(9) العيون والحدائق ص181

(10) ابن خياط، خليفة: تاريخه ج1 ص321 و326 وطبقاته تحقيق أكرم العمري، بغداد 1968، ص239 واليعقوبي: تاريخ ج4 ص34 وابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج2 ص240.

وأما رواية صاحب العيون التي تشير إلى أن وفاة أبي هاشم كانت في عهد الوليد الثاني (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) فهي مستحيلة تماماً، لأن فترة حكم هذا الخليفة تلت الوفاة بما يزيد على ربع قرن من الزمن، فهو قد تولى الخلافة سنة 125هـ واستمر فيها سنة واحدة، أي حتى سنة 126هـ، فإذا ما لاحظنا تاريخ وفاة أبي هاشم تبينا بيُسر خطأ الرواية بكاملها ومجانبتها للواقع.

كذلك فإن القول بأن الوفاة حصلت في عهد هشام بن عبد الملك، وهو ما ذهب إليه ابن الطقطقي، مردودة أيضاً، لأن هشاماً كان قد تولى الحكم سنة 106هـ ومات سنة 122هـ، كما أنه لم يلتق خلال حكمه كله أبي هاشم البتة.

وهكذا لم يبق بأيدينا من الروايات التاريخية سوى أن وفاة أبي هاشم كانت في عهد سليمان لا غيره، وهي رواية – كما نراها- صحيحة، لا غبار عليها، وذلك لتوفر الشرط التاريخي المهم، وهو أن سنة وفاة أبي هاشم- على الاختلاف البسيط في تعيينها- واقعة ضمن سني حكم هذا الخليفة، وهو شرط لم يتوفر في غيره من الخلفاء المذكورين.

أبو هاشم والأسرة العباسية

ثمة ناحية أخرى ينبغي التطرق إلى ذكرها في حياة أبي هاشم لما يكتنفها من الإضطراب والغموض، تلك هي علاقته بأفراد البيت العباسي وأنصاره، فبمعرفة ذلك يمكن فهم طبيعة ما قيل عن انتقال الخلافة منه إلى محمد بن علي العباسي، وسبب هذا الانتقال وظروفه، ومن ثم كيفية اغتيال أبي هاشم نفسه.

ويظهر أن علاقة العباسيين ببني أمية كانت أحسن وأوثق عُرى منها بين آل أبي طالب بالبلاط الأموي، فقد استمرت الصداقة التي ربطت بين العباس وأبي سفيان قائمة باقية في نسلهما، فكان عبدالله بن العباس مقرباً من معاوية، وكان إبنه علي صديقاً لعبدالملك بن مروان، ولم يبدو من الطرفين ما يمكن أن يكون سبباً لنزاع أو خلاف، حتى روي عن عبد الملك أنه جعل إكرام علي أول وصاياه لإبنه الوليد، وذلك لـ«نسبه وقرابته وانقطاعه إلينا، أكرمه واعرف حقه[1].

---

(1) الشابشتي : الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد 1966 ص216.

إلا أن الوليد، الذي اشتهر بنَزَقه، لم يحفظ وصية أبيه، فأظهر تحامله على علي بن عبدالله «وغيبه بحضرة الناس[1]، ثم أنه ضربه بالسوط مرتين – نتيجة السعايات- وحبسه في أطراف دمشق.

ولم يدم هذا الإضطهاد- كما يبدو- إلا أثناء حكم الوليد، إذ ما أن تولى سليمان مكانه حتى أطلق سراح علي المذكور مُكرماً أياه، ثم أنه أقطعه بلدة الحمَيِّمة بالشراة، فنزل هذا بها، وباع بساتينه بدمشق إلى الأسرة الأموية[2].

وكان من نتائج تحسن العلاقات هذه، أن أخذ محمد بن علي بن عبدالله يتردد الى البلاط الأموي بين حين وآخر، حيث لم يجد فيه إلا كل حفاوة وتكريم. وفي هذه الأثناء بالذات كان لقاء محمد بن علي بأبي هاشم عبدالله بن علي، وهو اللقاء الذي نسب إليه من الأمور الجسام ما غير وجه التاريخ الإسلامي لعدة قرون.

ويبدو أن أواصر الصداقة المزوجة بالإحترام المتبادل قد عقدت أواصرها بين الرجلين على نحو متين مخلص، ففي رواية مصدرها عبد الجبار بن وائل بن حجر الحضرمي (وهو من سكنة الكوفة) أن بدء العلاقة كان منذ عهد الوليد بن عبد الملك، إذ يروي عن عيسى بن علي بن عبدالله أن أباه علي بعث بمحمد إلى باب الوليد فأتى أبا هاشم وكتب عنه العلم، وبلغ من احترامه له أنه كان إذا قام أبو هاشم يركب أخذ له الركاب ، فكفه ذاك عن أبيه[3]، وكان محمد بن علي يهدي إليه كل ما كان يصل إليه من أبيه في الحميمة، حتى أنه أهدى إليه ذات مرة بغلة، مؤثراً بها على نفسه، دون أن ينبئه بمصدرها[4].

ولا ندري ما إذا كانت هذه الصداقة قد تجاوزت حدها – في هذه المدة- لتكون عملا سياسياً مشتركاً بين الحزبين، حزب أبي هاشم وحزب بني العباس، فإن من الظواهر ما يكاد يكون دليلا عليه، كمسألة اجتماعهما مع أنصارهما في بيت واحد، مما يبعث على الظن بأن هناك إتفاقاً عاماً هدفه ضرب السلطان الأموي ومناوأته، دون الدخول في تفاصيل الخلافة، والإمامة، لمن تكون منهما.

---

(1) الديارات ص214.

(2) أخبار العباس وفضايله الورقة 63أ، والديارات ص216.

(3) .أخبار العباس الورقة 78أ

(4) أخبار العباس الورقة نفسها

إن من العسير جداً، إستناداً الى الروايات المعروفة، معرفة أي الاطراف كانت مستفيدة أكثر من غيرها، من اغتياله، باعتباره زعيم الجناح العلوي في حزب بني هاشم، الذي يمثل الجناح الآخر منه بنو العباس، وعلى رأسهم محمد بن علي، على الرغم من كون الأمويين على رأس قائمة المتهمين دائماً، وأن اغتياله كان أمرا مهماً لسلامة الدولة الاموية، لا سيما وأنه كان من العناصر الفعالة والمناوئة لها عهد ذاك.

المؤامرة

يختلف مؤرخو الدعوة العباسية، القدامى منهم والمحدثون[1]، حول تفاصيل وفاة أبي هاشم، وظروفها، وإن كانوا متفقين عموماً على مدى أهميتها البالغة، ليس في حياة أبي هاشم الشخصية فحسب، بل في تاريخ الدعوة العلوية — العباسية منذ قيامها حتى إعلان الأخيرة سنة 132هـ، ذلك لأنها صارت من الأسس المتينة التي اعتمدت عليها الأسرة العباسية في إرساء حكمها من الوجهة الشرعية الروحية. على أن اختلاف هؤلاء المؤرخين لم يكن يمتد — بأية حال- إلى جوهر القصة، بمعنى أن جوهر القصة القائم على تنازل أبي هاشم عن حقه بالخلافة للعباسيين، بقي سليماً دون مبرر لاختلاف، وإنما الاختلاف والتناقض كان فيما سوى ذلك.

فبعد أن مر بنا مدى تناقض الروايات التاريخية في شأن تحديد شخصية الخليفة الأموي الذي قيل أنه أمر باغتيال أبي هاشم، واسترجاحنا أنه سليمان بن عبد الملك، نحاول فيما يأتي، استعراض أهم روايات المؤرخين حول قضية (الإغتيال) المشهورة هذه، ملتزمين بالسياق التاريخي لها.

قال ابن قتيبة (ت 270هـ) في وصفه مجريات ذلك الحادث« أن سليمان بعث إلى أبي هاشم وقد أعَدَّ في أفواه الطرق رجالاً معهم أشربة مسمومة، وأمرهم إذا أخرج من عنده يعرضوا عليه الشراب..ثم خرج من عنده في وقت شديد الحر،

---

(1) تجنب المحدثون البحث في تفاصيل الإغتيال واكتفوا بذكر خلاصته، ويبدو أن ذلك كان تخلصاً من اختلافات المؤرخين القدامى وتناقضاتهم، منهم على سبيل المثال: الدكتور جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، ص172 ومصطفى شاكر: في التاريخ العباسي، دنشق 1957 ، جا ص41

فكان لا يمر إلا وقام إليه الرجل بعد الرجل يقول له: هل لك في شربة سويق اللوز، وسويق كذا وكذا يا ابن بنت رسول الله؟[1] ونفسه موجسة منهم، فيقول: بارك الله لكم، حتى إذا خرج إلى آخر الطريق، خرج له رجل من خبائه، وبيده عُس[2]، فقال له: هل لك في شربة من لبن يا ابن بنت رسول الله؟ فوقع في نفسه أن اللبن مما لا يُسم، فشرب منه، ثم مضى، فلم ينشب أن وجد للسم حساً، فاستدل على الطريق إلى الحُميِّمة، وبها جماعة من آل عباس، وقال لمن معه: إن متُ ففي أهلي» ثم توجه فنزل على محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، فأخبره الخبر[3].

ويروي ابن عبد ربه (ت 328هـ) أن أبا هاشم «شَخَص وهو يريد فلسطين، فلما كان ببلاد لخم، ضربوا له أبنية (أخبية) في الطريق، ومعهم اللبن المسموم، فكلما مرَّ بقوم قالوا: هل لك في الشراب؟ قال: جُزيتم خيراً، ثم آخرين عرضوا عليه، فقال: هاتوا، فلما شرب واستقر في جوفه قال لأصحابه: إني ميت! فانظروا من القوم؟ فنظروهم قد قوَّضوا أبنيتهم وذهبوا، فقال: ميلوا بي إلى ابن عمي وما أحسبني أدركه، فأسرعوا حتى أتوا الخيمتين أرض الشراة، وبها محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، فنزل بها[4].

ولا يشير المسعودي (ت 345هـ) إلى كيفية دس السم إلى أبي هاشم على النحو المذكور، بل ذكر أن سليماناً ضم إليه من سمَّه في الطريق، أي أن الذي دس له السم لم يكن — كما في الروايات السابقة- ينتظره على أفواه الطرق أو في الأخبية، وإنما كان ضمن من كان معه في قافلته بأمر سليمان، «فلما أحس [أبو هاشم] بذلك غدا إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ بالحميمة، وقيل: بكرار من جبال الشراة والبلقاء من أعمال دمشق[5]. وإذا كان المسعودي لم يصرح بماهية السم (الذي دُس في الطريق) ولم يشر إلى أنه كان شربة من لبن أو غيره، فإن صاحب العيون أنبأنا بمزيد من التفاصيل عن ذلك الأمر، إذ يذكر أن الخليفة الأموي (وهو عنده الوليد بن يزيد) لما قضى حوائج أهل

---

(1) لم يكن أبو هاشم ابن بنت رسول الله، وإنما هو ابن ابن الحنفية.

(2) العس بالضم: القدح العظيم. القاموس المحيط ج2 ص228، بولاق 1301.

(3) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج2 ص141.

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج2 ص194.

(5) المسعودي: التنبيه والإشراف ص292.

المدينة وأراد تسريحهم، بعث إلى أبي هاشم بن محمد سُماً في حلواء حملت إليه مثل الزاد، وما يكون للطريق، فلما أكل منها أبو هاشم، أحس بالسم فتحامل إلى الحميمة، وبها ولد عبدالله بن عباس بنو عمه[1].

ويروي الأصفهاني- في هذا الصدد- رواية هي مزيج من الروايتين السابقتين، تقول أن أبا هاشم لما قدم ليودِّع سليمان، أصرَّ عليه هذا حتى تغدّى معه في يوم شديد الحر، وخرج نصف النهار، وسار ليلحق الثقل (وهو متاعه) فعطش في سيره، فدَسَّ إليه سليمان شربة، فلما شربها فَتَر، فسقط، وأرسل رسولاً إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، وعبدالله بن الحرث بن نوفل (ابن الحارث بن عبد المطلب)[2] يعلمهما حاله، فخرجا له فولياه حتى مات. وإذ كنا قد علمنا — مما سبق- مدى سوء العلاقة بين أبي هاشم والخليفة الأموي، وخروج الأول مغضباً، تبين لنا مدى كذب هذه الروايات ، ومجانبتها للواقع، وإلا فكيف يصر الخليفة على أبي هاشم أن يتغدى معه وهو الذي اتهمه بالخيانة وممالأة الأعداء.

أما ابن سعد فلا يعير أية أهمية لقصة السم هذه، ويكتفي بالإشارة إلى أن الوفاة حضرت أبا هاشم في قرية الحميمة وهو في طريقه إلى المدينة[3]. ولا يظهر صاحب أخبار العباس وفضايله ثقته بها، فيقول «وقد زعم بعض الناس أن سبب موت أبي هاشم كان أن الوليد دسّ إليه حين شخَصَ عن دمشق من سقاه شربة لبن فكان موته بذلك، ولم يذكر ذلك إسحاق بن الفضل وغيره ممن كان يخبره أمره، وذكر أنه مات كمداً لما رأى من استخفاف الوليد بأمره، فالله أعلم أي ذلك كان.[4]

وعلى الرغم من إغفال صاحب (أخبار العباس) مسألة الإغتيال بالسم أو بغيره، وعدم ثقته بها، فإنه جاءنا بوصف أكثر دقة وموضوعية عن مجريات رحلة أبي هاشم من دمشق حتى وفاته في قرية الحميمة، أو قربها، من أرض الشام، حيث يفهم مما ذكره أن أبا هاشم لما خرج من قصر الخليفة الأموي مغضباً، لم يرحل عن دمشق

(1) العيون والحدائق ص81.

(2) هو ابن عم أبي هاشم ومحمد بن علي، كما يظهر من نسبه، ويتصل ببني أمية عن طريق أمه هند بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية، وكنيته أبو محمد، مات بعمان بعد سنة 80هـ ، ابن خياط: طبقات ص191 وص202 وص239.

(3) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج5 ص126.

(4) أخبار العباس وفضايله، الورقة 86ب.

فوراً، وإنما نزل عند أحد أصحابه من الموالى اسمه فضالة بن نعار، ينتظر رفقة تخرج، فيخرج معها[1]، فالتقى هناك بمحمد بن علي العباسي، تلميذه، واتفقا على الرحيل سوية عن دمشق، ولا تحدثنا الرواية بشيء عن السبب الحقيقي وراء مصادفة إلتقائهما في منزل واحد، وعما إذا كان ذلك نتيجة موعد، أو إتفاق سابق، وأياً كان الأمر، فالظاهر أن محمداً بن علي، لما فرغ من بعض أعماله، خرج بالجميع مغادرين دمشق، وكان مع أبي هاشم عدة من أصحابه، في حين ترك وراءه أخص أتباعه، وهو سلمة بن بحير من بني سلمة، من رهط عامر بن إسماعيل. وكان «من ثقات أبي هاشم ورأس الشيعة معه في حاجة له بدمشق، وقال له: اتبع أثره، فإني آخذ إلى البلقاء مع ابن عمي محمد بن علي [العباسي]، ولن أبرح منزله حتى نلحق، وأحسب القضاء سيحُول دون ذلك»[2]. فمن هذا يظهر جلياً أنه ليست ثمة أية مصادفة في تحوّل أبي هاشم إلى قرية الحميمة متحاملاً على نفسه بسبب السم، كما تذكر الروايات الأخرى، وأنه التقى فيها، مصادفة أيضاً، بمحمد بن علي العباسي، وإنما كان الأمر بعد إتفاق كامل بين الطرفين أثناء اجتماعهما في منزل فضالة في دمشق.

ولا ندري عدد من كان مع محمد بن علي، وكم كان مجموع أفراد القافلة، وهي بلا ريب كبيرة، نظراً لمشقة طريق دمشق — المدينة وخطورته. ومن هو مبعوث الخليفة الأموي الموكل بدس السم لأبي هاشم فيها، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي بقيت سراً غامضاً يصعب الإجابة عليه بشيء.

ومما يزيد الأمر غموضاً ما ذكره صاحب (أخبار العباس وفضائله) وهو من أوثق المصادر وأوسعها، من أن علة أبي هاشم لم تكن بسبب شربه السم في أثناء الطريق، وإنما كانت تلازمه منذ مغادرته دمشق، على أنه لا يتهم أي أيدٍ أموية في ذلك، في حين أن معظم المصادر الأخرى تنص عليه، وهو يسوق قولاً لأبي هاشم نفسه يفهم منه أن مرضه كان من جراء إجابة الخليفة الأموي له، فقد قال «وما مرضي إلا ما داخلني من عتو الوليد[3]، اللهم فأذل منه ومن بني أميه ومَرِّضه»[4].

---

(1) أخبار العباس الورقة 82 أ.

(2) أخبار العباس الورقة 80 أ

(3) وقد ذكرنا سابقاً أن الوليد لم يعش حتى سنة وفاة أبي هاشم، وإنما الذي عاصر الوفاة كان الخليفة سليمان بن عبد الملك.

(4) أخبار العباس الورقة 83 ب

فهذا السبب إضافة إلى مخالفته لجميع النصوص التاريخية، بعيد عن التصور، لأن أبا هاشم لم يكن بالرجل الضعيف الخوّار، حتى يقتله الحزن والكمد لمجرد تعريض أحد الحكام به، وإنما هو رئيس حزب، وصاحب مبدأ سياسي ليس من المتصور التنازل عنه لسبب تافه كهذا.

أبو هاشم في ساعاته الأخيرة

تتفق معظم الروايات على أن أبا هاشم، لما أحس بالموت تحامل على نفسه حتى وصل الحميمة مقر محمد بن علي العباسي. وينفرد الأصبهاني بأنه أرسل قبل وصوله إليها رسولاً إلى محمد بن علي، وعبدالله بن الحرث بن نوفل، يعلمهما بحاله، فخرجا إليه فولياه حتى مات، ودفن بالحُميِّمة من أرض الشام[1]. وفي رواية لأبي رباح ميسرة النبَّال أن الذي قام على تمريض أبي هاشم كان محمد بن علي نفسه[2]، فإذا ما علمنا أن الرجُلَين كانا متلازمين طوال الرحلة، ظهر لنا أن مرض أبي هاشم وتبالغ علّته، وقيام محمد بن علي بتمريضه، كان في الطريق، لا في الحميمة نفسها، فهل توفي أبو هاشم في الطريق أيضاً، أم أن وفاته كانت في مقر بني العباس في قرية الحميمة؟.

هناك روايتان (بدون أسانيد) مختلفتان في الإجابة، ترى الأولى أن وفاة أبي هاشم «حيث أشرف على الشراة[3] (وهي المنطقة التي تقع فيها قرية الحميمة)، وعند الثانية أنه أقام في منزل محمد بن علي العباسي أياماً مريضاً «ثم هلك في منزله ومعه عدة من الشيعة[4]. ورغم هذا التناقض الواضح بين الروايتين، نجد أن هناك تأكيداً من روايات عباسية أخرى على أن تنازل أبي هاشم عن الخلافة لمحمد بن علي كان في داره بالحميمة، وهي تؤيد الرواية الثانية، التي مصدرها محمد بن علي نفسه. قال عبدالله بن عمير «سمعتُ سالماً تحدث قال: قال لي محمد بن علي وقد دخلتُ عليه في بيت من بيوته: توفي أبو هاشم في هذا البيت، وقال لي وقد أدنَف ولم أكن أفارقه في مرضه، فإنما عندالله أحسبني لما بي،

(1) الأصبهاني: مقاتل الطالبيين ص126.

(2) أخبار العباس الورقة 83 ب.

(3) أخبار العباس، الورقة نفسها.

(4) أخبار العباس الورقة 84ب.

فأخرُج عني من في البيت، فإني أريد أن أعهد إليك، وقال: ومعي داود وسلمان إبنا علي، وعمرو مولانا، فأمرتهم بالخروج[1].

فالإجتماع إذاً كان مغلقاً، بين رجلين إثنين، الأول توفي، والثاني (صاحب المصلحة المباشرة فيما سيحصل) عاش وأذاع ما أخبره به الأول عن أعظم مهمة روحية- سياسية لدى المسلمين، ولم يكن هناك أي شاهد يمكن أن يروي ما حدث فعلاً، هذا إذا صدّقنا أن الحادثة وقعت في الحميمة، فإن هناك رواية لا يمكن تجاهلها تؤكد على أن وفاة أبي هاشم كانت قبل وصوله بمسافة غير يسيرة، وأن محمد بن علي هو الذي مرَّضه حتى وفاته، كما سبقت الإشارة إليه.

وهكذا يتبين لنا أن أياً كان موضع وفاة أبي هاشم، ومهما كانت ظروف تنازله عن الخلافة، فمن المؤكد أن مصدرها الوحيد هو بنو العباس، ومحمد بن علي العباسي بالذات، ولذلك فسوف نذكر تلك القصة (قصة تنازل أبي هاشم ووصيته) كما جاءت في الروايات المنسوبة إليه، على الرغم من عدم وجود ما يبرر الثقة فيها.

يوكد محمد بن علي على أن تنازل أبي هاشم له كان في مقرّ بني العباس (الحميمة)، وهي بلدة من أعمال عمان من أرض الشراة، عند البحر الميت، عُدَّت أحياناً من حدود منطقة البلقاء التي اشتهرت بجودة خطتها وبالقرى الكثيرة والمزارع الواسعة[2].

هذا، في حين ينفرد المسعودي في نقله رواية أخرى مفادها أن الحادثة ربما وقعت في (كرار) بين جبال الشراة والبلقاء من أعمال دمشق[3]. وليس في كتب البلدان ذكر مثل هذا البلد، والظاهر - من وصف موقعه- أنه قريب من الحميمة، لا يخرج عن منطقتها، فهل يمكن أن يكون أبو هاشم قد توفي فيها؟ أغلب الظن أن ذلك ما قد حدث فعلاً، واستناداً إلى الرواية القائلة بأن وفاته كانت «حيث أشرف على الشراة، وليس في الحميمة نفسها، فمن هنا يظهر أن تأكيد العباسيين على جعل مقرهم المذكور هو موضع تسلمهم الخلافة من أبي هاشم، كان للتأكيد على

(1) أخبار العباس الورقة 84 ب.

(2) ياقوت: معجم البلدان ج2 ص 304 وج1 ص 489 وج 3 ص331.

(3) المسعودي: التنبيه والإشراف ص292.

شرعية خلافتهم من الناحية الروحية، وجعلها تبدو وكأنها مُرسلة إليهم من الله «غفواً، من غير جُهد وطلب[1]، أي دون أن يكون لهم يد فيها.

الوصية

يمكننا تقسيم الروايات التي أشارت إلى مسألة تنازل أبي هاشم عن الخلافة لمحمد بن علي العباسي، إلى قسمين رئيسين، الأول ينص على أن هذا التنازل حصل بطريق المشافهة بين الرجلين، والآخر ينتهي إلى أنه جرى تحريرياً، أي بشكل وصية مكتوبة، أو «صحيفة صفراء سلمها أبو هاشم إلى محمد بن علي قبيل وفاته بقليل. وجميع هذه الروايات تكسب الحادثة بُعداً شرعياً خالصاً، في الوقت الذي تُنسب إلى أبي هاشم عدة أحاديث، وتنبؤات تنبئ بخلافة ولد العباس، وتروي تفاصيل ما سيحدث من حوادث مسبقاً، مما لا يصدقه عقل ولا يقرّه منطق.

فمما نُسب إلى أبي هاشم من الكلام، ما رواه محمد علي العباسي عنه أنه قال له: يا أخي! أوصيك بتقوى الله فإنها خير ما تواصى به العباد، ومن بعد ذلك فإن هذا الأمر (يريد الخلافة) الذي تطلبه وتسعى في طلبه، وسَعَوا فيه، فيك وفي ولدك. حدثني أبي (يعني محمد بن الحنفية) أن علياً قال له: يا بَني! لا تسفكوا دماكم فيما لم يُقدَّر لكم بعدي، فإن هذا الأمر كائن [في] بني عمكم من ولد عبدالله بن عباس. وحدثني أنه سمع علياً عليه السلام يقول: دخل العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، وأنا عنده في بيت أم سَلَمة، وهو متوسِّد وسادة أدَم محشوة ليفاً، فألقاها إلى العباس، وقال له أجلس عليها، قال: يا علي! هَوِّن على نفسك، فليس لك في هذا الأمر نصيب إلا نصيب خسيس، وإن الأمر في هذا وفي ولده، يأتيهم الأمر غفواً من غير جهد طلب حتى تدركوا بثأركم وتنتقموا ممن أساء إليكم.

وواضح من هذا الكلام أنه ما وضع إلا لأجل استمالة العلويين وإقناعهم بحق بني العباس في الخلافة، وبأنهم رجاؤهم الوحيد لأخذ ثأرهم ممن أساء إليهم، وليس هذا فحسب، بل يمضي محمد بن علي العباسي في روايته المزعومة عن أبي هاشم، مضمناً إياها رؤيا ذات صفة تنبؤية مفادها أنه«رأى على عهد رسول الله

(1) أخبار العباس الورقة 85 ب.

(ص) كأن في المسجد مائدة عظيمة وعليها رؤوس غنم، فأقبل أبو بكر فجلس عليها فتناول شيئاً يسيراً ثم نهض، ثم جاء عمر، فأكل منها طويلا ثم نهض، ثم جاء عثمان فجلس عليها فأكل منها طويلاً ثم نهض، ثم جاء بنو أمية فأكلوا منها طويلاً كثيرا، ثم جاء عبدالله بن عباس وولده، وولد ولده، فأقاموهم وجلسوا وأكلوا جميع ما كان على المائدة ولم آكل معهم، فقصها على النبي (ص) فقال: الحمد لله الذي فتح الإسلام بنا ويختمه بهؤلاء القوم، يَلون ثم يختم الأمر بولد عبدالله بن عباس، قال: ثم تلا رسول الله (ص) «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لنستخلفنهم في الأرض..الى آخر الآية، وإليك (يريد محمد بن علي بن العباس) هذا الأمر، وفي ولدك يصير، وقد استودعتك من بعدك بذلك، وقد أحببتُ أن يدخل علي أصحابي الذين رأيت[1]. فيقول محمد بن علي: فقلت لعروة : أدخل من أحب، قال فلان وفلان حتى سمى من كان معه ممن ذكرنا اسمه، فلما أدخلوا عليه قال لهم: جزاكم الله خيراً، وصلتمونا وتركتم معايشكم ولزمتمونا على الكره والضراء، أسئل الله أن يجمع بيني وبينهم في جنة الخلد [وإني] كما تَرَون، والمريض أعلم بنفسه، وهذا صاحبكم - يعني محمد بن علي- فأتمّوا به وأطيعوه تُرشَدوا فقد تناهت الوصايا إليه، وقد ألقيتُ ما ألقيت إليكم إلى أخي أخيكم سلمة بن بحير، استودعكم الله الذي لا تخيب الودائع عنده، ولا يضيع من فوَّض أمره إليه، والسلام عليكم. فبكى القوم وارتفعت أصواتهم بالبكاء، فقال: رحمكم الله، أمسكوا عن الجزع فكل حي هالك!.

قال سالم قال أبو رباح (ميسرة النبال): فظننا أنه حيث قال: قد ألقيت إليكم أنه قد ألقى إليه حيث شخص من دمشق وودعه وهو يناجيه بأمر أخفاه[2].

فمن هو ذلك الأمر الذي أخفاه يا ترى؟ أليس قوله «ألقيتُ ما ألقيتُ إليكم يفصح عن أنه أخبره بإمامة محمد بن علي العباسي بعده؟ وما ذاك إلا لثقته به واعتماده عليه، فإن كان الأمر كذلك، فليست هناك أية صدفة إذاً في مسألة اختيار أبي هاشم محمد بن علي لخلافته، وإنما كان أمراً مُبيَّتاً منذ حين. وفي رواية أخرى لإبن حجر الحضرمي ما يؤيد هذا كل التأييد، فقال «كان قوم من أهل

(1) أخبار العباس الورقة 85 ب.
(2) أخبار العباس الورقة 89 أ.

خراسان يختلفون إلى أبي هاشم، فمرض مرضه الذي مات فيه، فقال له قوم من أهل خراسان: من تأمرنا نأتي بعدك؟ فقال: هذا! وهو عنده، قالوا: من هذا؟ قال: هذا محمد بن علي ين عبدالله بن عباس، قالوا: مالنا وهذا؟ قال: لا أعلم أحداً أعلم منه ولا خيراً منه، فاختلفوا إليه، قال عيسى: فذاك سببُنا بخراسان[1]. وسياق هذا النص يدل على أن تلك المسألة لم تحدث إلا في دمشق، حيث كان أبو هاشم مقيماً لدى الوليد بن عبد الملك، وأنها كانت المرة الأولى التي يُعرِّف أبو هاشم دعاته بمحمد بن علي، إذ لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، وهو ما يتضح من عبارتهم: ما لنا ولهذا!.

فهل كان أبو هاشم قد أخبر دعاته من أهل خراسان باختيار محمد بن علي قبل أن يخبر مقربيه الآخرين بذلك، وما السبب الحقيقي وراء إفشائه لجماعة من الناس، وكتمه على جماعة آخرين.

وتعطي هذه الوصية أهمية خاصة لسلمة بن بحير، باعتباره أقوى دعاة الحزب المخلصين، حتى أن أبا هاشم أخبر محمد بن علي منزلته عنده، وأثنى عليه، بعد أن كان قد أخلى المكان من سائر أتباعه، دلالة على عظيم أهميته وجلالة قدره. قال «قد تخلَّف عني رجل جَبَله الله على حُبنا، وهو لك ثقة في المشهد والمغيب، فألق إليه أمرك وثق فيه فيما لا تثق فيه إلاّ بنفسك، فإني لم أكن أعدل به أحداً ممن رأيت وإن كانوا أخياراً منتخبين، وهو سلمة ابن بحير، الرجل الذي رأيتني أكرمه ورأيته يقوم بأكثر أمري، وإنما تخلف في حاجتي، وهو يأتيك، فإذا أتاك فاقرأ عليه منّي السلام، وقل له: جزاك الله الحي الذي لا يموت عني خيراً!، فكان هذا آخر ما فاه به أبو هاشم، إذ لم يلبث إن توفي متأثراً بمرضه.

ويلاحظ – فيما تقدم كله من روايات- خلوه من أية إشارة إلى «وصية مكتوبة أو «صحيفة صفراء بل أن الأمر لم يتعد كونه حديثاً يفوه به مريض مُحتضِر. على أنه لا يمكن إغفال ما جاءت به الروايات الأخرى من أن هناك «وثيقة مكتوبة، أو «كتباً سَلَّمها أبو هاشم لمحمد بن علي دلالة على تنازله التام عن مهمة الخلافة. وعلى الرغم من غموض هذه الروايات وقلتها، فهي ذات أهمية خاصة في تاريخ الدعوة العباسية، وشرعية قيام دولتها.

(1) أخبار العباس الورقة 78 أ

وفي الواقع فإن نص هذه الوثيقة (أو الكتب) لم يصلنا، على أن وصف بعض المؤرخين لها لا يحمل أية مبررات كافية لتصديق ما جاء فيها (إن صدقنا أنها موجودة فعلاً!)، وكل ما وصلنا من صفتها يُنبئ بأنها موضوعة من قبل أيدٍ عباسية متأخرة، وذلك لأنها – كما يظهر- مجموعة من النبوءات والملاحم، لم تحدث فعلاً إلا في الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة، أي أثناء قيام الدولة سنة 132، أو بعدها، أو قبلها، بقليل.

ففي رواية مقطوعة السند حدّث بها يونس ين ضبيان «ممن حدّثه عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «أنه سأل عن آل العباس، هل عندهم من علم شيء؟ قال: نعم، عندهم صحيفة صفراء كانت لعلي بن أبي طالب، وظعن الحسن، وقدم على معاوية بالشام قصاحب الحسن والحسين محمد بن علي بن أبي طالب، فانطلق محمد بن الحنفية، فدخل على الحسن والحسين فقال لهما: إنكما ورثتما أبي درى وإن لم يكن رسول الله (ص) ولدني أبوكما، ولكما على الفضل ولا كذب بعض ما أتجمل به من علم أبي، فقد عرفتم حبه كان لي، فقال الحسن للحسين: يا أخي هو أخونا وابن أبينا، فاعطه شيئاً من علم أبينا. قال فأعطاه الحسين صحيفة صفراء فيها علم رايات خراسان السود متى تكون وكيف تكون، ومتى تقوم، ومتى زمانها، وعلامتها، وآياتها، وأي أحياء العرب أنصارهم، وأسماء رجال يقومون بذلك، وكيف صفتهم، رجالهم وأتباعهم، فكانت تلك الصحيفة عند محمد بن علي بن الحنفية، حتى إذا حضره الموت، دفعها إلى ابنه عبدالله بن محمد، وهو الذي يُكنيه أبا هاشم، فكانت عنده حتى حضره الموت، وذلك عند مُنصَرفه من عند الوليد بن عبد الملك، ومات بالحُمَّيمة عند محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، فدفع الصحيفة إليه، وأوصاه بما أحب، فكانت عند محمد بن علي، حتى إذا حضره الموت أوصى بها إلى إبراهيم بن محمد بن علي، وكان رئيسهم وسيدهم وكبيرهم[1].

ولا يشير المؤرخون الآخرون إلى شيء من محتويات هذه الصحيفة العجيبة، وإن كانوا قد أنبأوا بأن أبا هاشم قد أعطى محمد بن علي «كُتبه، أو «علامات خاصة. قال ابن سعد «فحضرته الوفاة فأوصى محمد بن علي بن عبدالله بن

(1) أخبار العباس الورقة 84 أ.

عباس بن عبد المطلب، وقال: أنت صاحب هذا الأمر وهو في ولدك، وصَرَف الشيعة إليه، ودَفع كُتبه وروايته[1]

وذكر صاحب العيون أن أبا هاشم أفضى إلى العباسيين (دون تعيين محمد بن علي) بالأمر، وكشف لهم حال الدعاة وأعطاهم العلامات، وسلَّم إليهم خاتماً كان في أصبعه يختم به الكتب إلى الدعاة، وكتب لهم كتباً إلى الشيعة والدعاة بتسليم الأمر إلى بني العباس، وكان هذا في أول رياسة أبي مسلم الخراساني، فرَضوا به، وسلموا الأمر إلى بني العباس بإحالة الدعوة إليهم[2].

وليس في هذه النصوص كلها ما يشعر بأن تلك الكتب كانت خاصة بمسألة شرعية الخلافة، أو أن من بينها «صحيفة صفراء تحوي شيئاً من العلم الباطن الموروث، وأن فيها «كشفاً للغيب، والمرجح أن أبا هاشم، إن صحت الروايات أنه دفع لمحمد بن علي شيئاً مكتوباً، فإن ذلك لم يكن إلا رسائل عادية يوصي بها دعاته بإطاعة بني العباس، أي أنها كانت أوراق حزبية سياسية ليس لها أدنى علاقة بالروحانيات والغيب. وهو ما دفع بأكثر من مؤرخ إلى إغفالها بوصفها أمراً لا يحوي أية أهمية.

مناقشة

يجدر بنا بعد أن استعرضنا ما جاءت به الروايات من أخبار تنازل أبي هاشم عن الخلافة للعباسيين، أن نحاول مناقشة أهم ما أوردته تلك الأخبار من آراء.

من الطبيعي أن الشك بأمر تنازل أبي هاشم ووصيته بأكملها أمر غير مجدٍ، ومن البعيد أن يقودنا إلى شيء جديد ذي بال، وذلك لعدم وجود نصوص كافية موثوقة يمكن الإعتماد عليها في التوصل إلى حقائق جديدة، وسيظل الأمر كذلك طالما بقيت المصادر التاريخية المعهودة هي عُدة البحث فقط، فإن لم تظهر أصول جديدة، تعبر عن وجهات نظر متعددة (غير وجهة النظر العباسية المعروفة) فليس بالإمكان الحكم على قصة تنازل أبي هاشم، تلك الحادثة الخطيرة، بحكم جازم ثابت.

---

(1) الطبقات الكبرى ج5 ص240.

(2) العيون والحدائق ص281

وسنحاول، فيما يأتي، استنتاج نقاط الضعف في وصية أبي هاشم، كما نقلتها الروايات التي بين أيدينا، قبل أن نأتي إلى نقاط القوة فيها.

1- إن مصدر جميع الروايات التي أخبَرَت بحديث أبي هاشم لمحمد بن علي العباسي بشأن الخلافة، هو محمد بن علي نفسه، الذي صرَّح بسرية اجتماعه به، وعدم وجود شهود عليه غيره، مما يجعل أمر التأكد من صحة روايته مستحيلاً.

2- إن جميع الروايات التي نقلت عن محمد بن علي نصَّت على أن تنازل أبي هاشم له كان على شكل وصية شفهية، غير أن هناك رواية عباسية أخرى مهمة مصدرها أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب تنص على أن التنازل جرى على شكل وثيقة مكتوبة، وكل رواية لا تشير إلى الأخرى، مما يجعل أمر التصديق بها موضع شك ونظر.

3- إن جميغ ما نقلته الروايات من نصوص الوصية هو تنبرات وكشوف للمستقبل، وإذ كنا نرفض كل ما لا يقبله العقل، تبينت لنا دواعي عدم التصديق بجميع تلك النصوص المأثورة.

4- وإذا أمعن المرء النظر في تلك التنبؤات والغيبيات، ظهر له أنها تشير إلى مدلولات سياسية خاصة تخدم المصالح العباسية بشكل تام، مما يدل على أنها كانت من قبيل الدعايات القوية التي بثتها الدغوة العباسية بعد إزدهار نفوذها، وأهم ما إشتملت عليه تلك التنبؤات المزعومة هو إقناع العلويين بأن مجيء العباسيين إلى الحكم ليس هو انتصار للبيت العباسي فحسب، وإنما هو إنتصار للبيت العلوي أيضاً، وأنه يعد إنتقاماً لآل الرسول من الغاصبين، إضافة إلى ذلك فإن في الوصية المزعومة مدلولاً آخر مفاده إقناع العلويين بعدم جدوى الإعتراض غلى السلطان العباسي، وأن الثورة ضدهم ضرب من المستحيل، لأن الرسول (ص) أخبر بدوام حكمهم حتى آخر الزمان. ويلاحظ في هذه النبوءة أنها جاءت تفسيراً لرؤيا رآها علي بن أبي طالب نفسه، مما يدل على أن الهدف من وضعها هو إنذار العلويين - بشكل غير مباشر- أن الخروج على بني العباس أمر مخالف لرغبة علي نفسه.

فمن ذلك نفهم أن جوهر نصوص الوصية لم يكن موجهاً للعباسيين، بقدر ما هو موجه إلى البيت العلوي، وأن أساليب الإقناع والوعيد والترغيب الموجه لهم من خلالها وضعت بحسب الخطة الواسعة التي رسمها العباسيون لدعوتهم في مجال

الدعاية حتى أنه يمكن إكمال تلك النصوص بنصوص أخرى قالها العباسيون في بدء أعلان دولتهم غي الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة، ومنها على سبيل المثال خطبة أبي العباس، وخطبة داود بن علي في الكوفة[1].

إن توجيه الوصية المزعومة اهتمامها إلى أتباع العلويين تفسر الأحوال الإحتماعية والسياسية التي كانت سائدة في تلك الحقبة، فقد لاحظنا أن مقر الحركات العباسية في المشرق كان في الكوفة، حيث يتجمع أغلب الناقمين على بني امية، وعلى رأسهم الشيعة، ولم يكن هذا الأمر بخافٍ عن القادة العباسيين، يدل على ذلك خطبة محمد بن علي العباسي حين يقول «أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده[2]. وكان لزاماً على أولئك القادة أن يقوموا بدعايتهم بين صفوف أهل الكوفة، مقرهم، في محاولة لاستقطاب كافة القوى السياسة للعمل للدعوة العباسية الناشئة.

5- حاول العباسيون بتأكيدهم على قضية تنازل أبي هاشم عن الخلافة الشرعية لهم، إظهار الأمر وكأنه وراثة حقيقية طبيعية لجميع حقوق بيت علي في الإمامة، وأن ترتيب حادثة التنازل على الصورة التي أذاعوها كان محض إرادة إلهية خالصة قد قررت ذلك مسبقاً. على أن الحوادث المقبلة أثبتت خطأ تلك الدعاوى نتيجة تمسك أفراد البيت العلوي الآخرين بالخلافة، وقيام ثورات علوية متعددة لم تبق لفكرة وراثة الحقوق الشرعية أي معنى.

6- والظاهر أن تمسك الدعاية العباسية بفكرة التنازل هذه لم تكن إلا شعاراً لمرحلة معينة مرت بها الدعوة والدولة في سنيها الأولى، كان الهدف من ورائه إستمالة الأحزاب السياسية الأخرى إليها لشد كيانها وتثبيت جذورها. وفي الواقع فإن هذه الدولة الجديدة ما أن شعرت بتعاظم سلطانها ورسوخ أسسها حتى تنكرت لهذا الشعار، فألغت فكرة شرعية خلافتها عن طريق تنازل أبي هاشم، وجعلت سندها الشرعي – بدلاً من ذلك- عمومة العباس للرسول (ص). ومن هنا نشأت نصوص جديدة وتنبؤات هدفها إقامة أسس الدولة على نحو عباسي بحت مستقل عن كل تأثير علوي.

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج3 ص29 واليعقوبي: التاريخ ج3 ص17.

(2) الهمداني: البلدان ص39

والملاحظ أن تنكر العباسيين لفكرة وراثتهم حقوق الإمامة عن العلويين تم رسمياً على عهد الخليفة المهدي العباسي (من 158- 168هـ) وهو لم يحدث إلا بعد إنفصال سياسي سابق تمثل في الثورات المتكررة التي قادها العلويون ضد النظام العباسي، وأهمها ثورة محمد ذي النفس الزكية سنة 145هـ، فلم يعد من المعقول أن تنسب الدولة شرعيتها إلى حزب يقف منها موقف العدو المتحفز. والواقع أننا نلاحظ بوادر هذا الإنفصال بين الطرفين منذ ثورة ذي النفس الزكية، فقد أنكر هذا الثائر قصة انتقال حق الخلافة إلى بني العباس في رسالة بعث بها إلى المنصور. قال فيها « إن أباناً علياً كان الوصي، وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ فما كان من المنصور إلا أن أنكر التنازل برمته بوصفه نقطة ضعف، ذاكراً بأن مشروعية الخلافة العباسية لا تستند إلى أي أحد سوى على إنصالها بالعباس عم النبي محمد (ص)، فكان ذلك القول بمثابة أول هدم لفكرة تنازل أبي هاشم ووصيته.

ثم أن هذه الفكرة تنوسيت وأغفلت تماماً من قبل الخلفاء العباسيين المتأخرين، إذ لم يشر أحد منهم إليها في خطبة أو حديث، وحتى المؤرخين أنفسهم شعروا بعدم جدوى التأكيد علي هذه الرواية، فيعترف المقريزي بأن وصول بني العباس إلى السلطة لم يكن إلا بسبب «القوة و«الغلبة. فيقول « وإياك والإعتراض على ما تقدم بأخذ بني العباس بن عبد المطلب بن هاشم الخلافة، وأنهم أقاموا خلفاء نيفاً عن خمسمائة وعشرين سنة، فإن الخلافة إنما صارت إليهم بعدما ضعف أمر الدين وتخلخلت أركانه، وتداول الناس أمر الأمة بالغلبة، فأخذها حينئذ بنو العباس بأيدي العجم أهل خراسان، ونالوها بالقوة ومناهضة الدول ومشاورة الملوك حتى أزالوا بعجم خراسان دولة بني أمية[1]

وهكذا لا يكلف المقريزي، وهو المؤرخ المدقق، نفسه بالبحث عن أية وصية أو سند شرعي يبرر إنتقال الخلافة عن طريق أبي هاشم إلى العباسيين، بل يرى أن حقهم تمثل في أنهم استطاعوا الوصول الى الحكم بالقوة، وكأنه يريد أن يقول إن الحكم للأقوى لا أكثر.

---

(1) المقريزي: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ليدن 1888 ص50.

6- لقد كانت وصية أبي هاشم موضع شك أكثر من المؤرخين المحدثين، فمالوا إلى نسبتها إلى أشياع العباسيين الذين أرادوا أن يثبتوا حق العباسيين في الخلافة من هذا الطريق[1].

ومن أهم هؤلاء المستشرق يوليوس ولهاوزن، فإنه استرجح كون الوصية بكاملها «خيالية[2]، ولكن تردده في الأمر أوقعه في إضطراب عجيب، فقد ذكر، بعد نفيه لها مباشرة، أنها يجب أن تكون أقدم لأن مشاهديها عديدون[3]، ولم يصرح ولهاوزن بما عناه بالضبط بشأن قدَمها، كما أنه لم يجد من هؤلاء المشاهدين العديدين الذين أشار إليهم سوى إثنين فقط، عما المدائني (ت 215هـ) في تاريخ الطبري، وابن سعد (ت 230هـ)[4] فأثبتهما في الهامش، مع أن كلا من الرحلين لم يصرحا بأنهما رأيا تلك الوصية بنفسيهما[5]، فضلاً عن تأخر زمنهما بالنسبة إلى تاريخ الحدث المذكور.

7- أن مصدر القوة الوحيد في رواية وصية أبي هاشم، هو ما ذهب إليه فان فلوتن[6]، وموسكاتي[7] بملاحظتهما أنه على إثر وفاة أبي هاشم سنة 98 أو 99 خرج العباسيون من التستر إلى الثورة السافرة وتحركت شيعة العراق لمعاضدتهم. وعلى الرغم من قوة هذه الملاحظة المستندة على الربط بين الحادثتين، وفاة أبي

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (أبو هاشم)، الترجمة العربية.

(2) الظاهر أن ولهاوزن حاول الإستدلال بما ذكره الشهرستاني من أن أبا هاشم أوصى عبدالله بن عمر بن حرب الكندي، مع أن هذه ليست إلا دعوى واهية كما يبدو من أخبار (الحربية) أنصار الكندي المذكور.

(3) ولهاوزن: الدولة العربية وسقوطها ص398 و398.

(4) المرجع نفسه وهامش الصفحة 398

(5) الطبقات الكبرى ج3 ص24 وابن سعد : طبقات ج5 ص240.

(6) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات ص93، ومما يلفت النظر أن ولهاوزن أشار إلى أن فان فلوتن أكد علىأهمية هذه الوصية (الدولة العربية وسقوطها ص368) ومثله ما أشار إليه الدوري حيث قال ويؤكد فان فلوتن على أهمية الوصية (العصر العباسي الأول ص21) فلعله نقل عن ولهاوزن عبارته، في حين أن فان لوتن لا يذهب إلى هذا الرأي المنسوب إليه على الإطلاق، وكل ما في الأمر أنه لخّص الرواية مصدرا إياها بعبارة (ويقال) وفي هذا دلالة على عدم وثوقه بها. فليس ثمة مجال لأن يقال أنه أكد عليها .

(7) دائرة المعارف لفؤاد أفرام البستاني، مادة أبي هاشم ج5 ص192

هاشم وخروج العباسيين، فإننا لا نجد فيها ما يؤيد وجود أية وصية، أو تنازل حدث بين الطرفين، فضلاً عن شكل الوصية ومضمونها.

موقف الأحزاب الأخرى من وصية أبي هاشم

لابد لنا، ونحن في صدد وصية أبي هاشم إلى محمد بن علي العباسي، وتنازله عن الخلافة، أن نستعرض مواقف الأحزاب والجماعات الأخرى من هذا الأمر، ودرجة تأييدها أو معارضتها له.

وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن تلك الأحزاب والجماعات، وغموض أخبارها، فإنه يمكننا أن نلمح مما أثر عنها أن أغلبها لم يكن مؤيداً لقضية التنازل هذه برمتها، وأن الحزب الوحيد الذي بقي متمسكاً بها هو الهاشمية، الفرقة الكيسانية الأصل، وذلك أن أتباع أبي هاشم لم يتفقوا بعد وفاته على شخصية خليفته، مما أدى إلى إنقسامهم إلى عدة فرق، لعل من أهمها:

1- فرقة قالت بأن الإمامة (الخلافة) بعد أبي هاشم لإبن أخيه الحسن بن محمد بن الحنفية، وإن أبا هاشم أوصى إليه ثم أوصى الحسن إلى إبنه علي بن الحسن وهلك، فلم يعقب، فهم ينتظرون رجعة محمد بن الحنفية[1].

2- فرقة عرفت بـ(البيانية) نسبة إلى بيان بن سمعان التميمي «زعموا أن أبا هاشم أوصى إلى بيان المذكور وأنه لم يكن له أن يوصي بها إلى عقبه[2]. وكان كثير من أتباعه يقولون أنه كان نبياً، وأنه نسخ بعض شريعة محمد (ص). وقالوا: هو المراد بقوله (هذا بيان للناس) بل ذهب بعضهم إلى أنه كان إلهاً «وقالوا أن روح الإله قد حل فيه، وأنه يحل في الإنبياء الأئمة من واحد إلى واحد وآخر. وقالوا: إن روح الإله قد انتقل من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى بيان، وكان يدعي لنفسه الإلهية على معنى الحلول، وكان يدعي أنه يعرف اسم الله الأعظم، وأنه يدعو به الزهرة فتجيبه، فلما وصل خبره إلى خالد بن عبدالله القسري صَلَبَه وكفى الله شرّه[3].

---

(1) الأشعري: مقالات الإسلامية ج1 ص2- والشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص151.

(2) الرازي: كتاب الزينة، الورقة 241 والأشعري ج1 ص22 والإسفرائيني: التبصير في الدين ص72 والفخر الرازي: اعتقادات المسلمين ص57.

(3) الأسفرائيني: التبصير في الدين ص72 و73

3- فرقة عُرفت بـ (الحربية)، قالت أن أبا هاشم أوصى إلى عبدالله بن عمرو بن حرب الكندي، وأن الإمامة خرجت من أبي هاشم إلى عيدالله، وتحوّلت روح أبي هاشم إليه. وكان عبدالله هذا على دين البيانية في دعواها أن روح الإله تناسخت في الأنبياء والأئمة إلى أن انتهت إلى أبي هاشم[1]، ثم إليه.فكان يدعي لنفسه الإلهية على معنى الحلول[2].

4- لم يكن عبدالله الكندي ذو سلوك مُرض، وما كان يرجع إلى علم وديانة، فاطلع بعض القوم على خيانته وكذبه، فأعرضوا عنه[3]، وصاروا إلى المدينة يلتمسون إماماً، فلقوا عبد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب «فدعاهم إلى أن يأتموا به فاستجابوا له، ودانوا بإمامته، وادعوا له الوصية[4]، وهكذا انقسمت الحربية إلى قسمين، قسم بقي على إيمانه بعبدالله الكندي، وقسم آمن بعيدالله بن معاوية، فإن كل واحد منهما يدعي الوصية عن أبي هاشم إليه، ولم تكون الوصية على قاعدة معتمدة[5].

وحاول الفريق الأخير إرجاع إمامة إبن معاوية إلى أبي هاشم مباشرة، فقالوا: أن أبا هاشم دفع الوصية إلى صالح بن مدرك، وأمره بحفظها حتى يبلغ عبدالله بن معاوية، وذلك بأنه كان صغيراً، فلما بلغ، دفعها إليه، وعبدالله بن معاوية هو صاحب أصفهان، الذي قتله أبو مسلم في جيشه، وسموا هؤلاء (الحارثية) نسبة إلى رئيس لهم كان يقال له عبدالله بن الحارث، من أهل المدائن[6]. وهكذا يبدو أن كثيراً من فرق الشيعة لم تتفق على وصية أبي هاشم لمحمد بن علي العباسي، وأنها اختلفت فيما بينها على هوية الخليفة الحق، إلا أن السلطان العباسي استطاع القضاء على هذه الدعوات، ولو باستعمال القوة العسكرية ضدها أحياناً.

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص151.

(2) الأسفرائيني: التبصير في الدين ص73 والخوارزمي: مفاتيح العلوم ص30

(3) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص151.

(4) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج1 ص22.

(5) الرازي: أبو حاتم: كتاب الزينة ، الورقة241 والشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص151، والنوبختي: فرق الشيعة ص29

(6) الرازي: أبو حاتم: كتاب الزينة الورقة242

ابن نُجَيم الحنفي وفكرة التوارث الدولي

هو العلامة، الفقيه، الأصولى، الحنفى، زين الدين أو زين العابدين[1] بن ابراهيم بن محمد بن محمد بن بكر، ابن نُجَيم، المصري، من كبار فقهاء المدرسة الحنفية في القرن العاشر للهجرة، ولد في القاهرة سنة 926هـ/1519م[2]، وانصرف منذ شبيبته الى طلب العلوم، لا سيما الفقه، تُعينه على درسه نباهة ظاهرة، وذكاء حاد، وقدرة فائقة على الحفظ. وبلغ من إحاطته بالمصادر الفقهية أنه لم يُبق كتاباً منها في القاهرة، وهى في قمة ازدهارها العلمى آنذاك، إلا أحاط به وهَيمَن على مادته العلمية وأفاد منه في تآليفه[3]. فقال «إن الفقه أول فنونى، طالما أسهرتُ فيه عيونى، وأعملت بدنى إعمال الجد ما بين بصري وبدنى وظنونى، ولما أزل منذ زمن الطلب أعتنى بكتبه قديماً وحديثاً، وأسعى في تحصيل ما هُجَر فيها سعيا حثيثاً، إلى أن وقفت منها على الجم الغفير، وأحطت بغالب الموجود في بلدتنا القاهرة، مطالعةً وتأملاً بحيث لم يفُتنى منها إلا النزر اليسير.. مع ضم الإشتغال والمطالعة بكتب الأصول من ابتداء أمري»[4].

وتلقى الفقه على كبار العلماء المصريين في عهده، ذكر مترجموه منهم: شرف الدين البلقينى، وشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن يونس المصري الحنفى الشهير بابن الشلبى (ت: 947 هـ)، وأمين الدين بن عبد العال الحنفى (ت: 968 هـ)، و أبو الفيض السلمى، وعلى بن سليمان نور الدين الديلمى المالكى، (ت: سنة 947هـ)، وقد أخذ عنه في العلوم العقلية وعلوم العربية، وقاسم بن قطلوبغا[5]،

---

(1) اكتفي هو بذكر اسمه، في مؤلفاته، على النحو الاتي (زين) فحسب. ونقل علي مبارك عن حاشية ابن عابدين على الدر المختار أن زين هو اسمه العلمي. الخطط التوفيقية ج5 ص17.

(2) قاله هبة الله افندي البقلي التاجي في شرحه الأشباه والنظائر ناقلاً من تلميذه العلمي. تنظر ترجمته في مقدمة كتابه (البحر الرائق) بتحقيق زكريا عميرات، بيروت 1418هـ/1997م ص8.

(3) ذكر في مقدمة كتابه الاشباه والنظائر قائمة تضم 73 كتابا في فقه الحنفية هي مصادره في تأليف هذا الكتاب.

(4) الأشباه والنظائر ص16.

(5) هكذا في مصادر ترجمته، وبالطبع فإنه ليس أبو الفداء زين الدين قاسم بن قُطْلُوْبَغَا السُّوْدُوْني الجمالي الحنفي، فانه توفي سنة 879

وبرهان الدين الكَرَكى[1]، وأبو الفيض السلمى، وغيرهم. فأجازوه بالإفتاء والتدريس، فأفتى ودرَّس في حياة أشياخه، «وانتفع به خلائق كثيرة». كما أخذ الطريقة على يد الشيخ الصالح سليمان الخضيري المصري الشافعي، المتوفى سنة 961.

وأشاد بعلمه ولدُه الشيخ أحمد، فقال «كان عمدة العلماء المسلمين، ونتيجة الفضلاء الماهرين، وختام المحققين والمفتين»[2]، وأثنى على خُلقه الرفيع العلامة عبد الوهاب الشعراوي (الشعراني)، المتوفى سنة 973هـ وكان من أقرب الناس اليه، وهو الأدري به، فقال «صَحِبتُه عشر سنين، فما رأيت عليه شيئاً يشينه، وحججت معه في سنة 953 فرأيته على خلق عظيم مع جيرانه وغلمانه ذهاباً وإياباً، مع أن السفر يُسفر عن أخلاق الرجال». وقال جامع رسائله الخطيب محمد بن عبدالله التمرباشي المتوفى سنة 1004هـ «أستاذنا شيخ الإسلام، بركة الأنام، قدوة المشايخ العظام». وقال نجم الدين محمد بن بدر الدين الغزي المتوفى سنة 984هـ أنه «الشيخ العلامة المحقق المدقق الفهامة».

ومما دلَّ على رقة طبعه، وحُسن خلقه، أنه بعد أن أوفى في تعريفه حد الفقه، قال «هذا كله معنى الفقه عند الأصوليين، وأما معناه الحقيقي له عند أهل الحقيقة فما ذكره الحسن البصري، كما نقله أصحاب الفتاوى في باب الطلاق، ومنهم الولوالجي[3] بقوله «هل رأيت فقيها قط؟ إنما الفقيه المُعرض عن الدنيا، الزاهد، البصير بعيوب نفسه»[4].

---

(1) هكذا في مصادر ترجمته، وهو ليس ابراهيم بن عبد الرحمن الكركي، من قضاة الحنفية، فانه توفي سنة 922

(2) تنظر ترجمته في ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب فس أخبار من ذهب، ج1 ض523 و ومحمد بن محمد الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق خليل منصور، دار الكتب المنصورة القاهرة 1418هـ ج3 ص 137 و محمد عبد الحق اللكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تحقيق محمد بدر الدين ابو فراس الغساني، دار الكتاب العربي، القاهرة ص134- 135. علي مبارك الخطط التوفيقية الجديدة، المطبعة الاميرية في بولاق 1305 ج5 ص17-18 والزركلي: الاعلام ج3 ص 104 ويوسف اليان سركيس: معجم المطبوعات ج1 ص265- 266

(3) ظهير الدين ابو المكارم عبد الرشيد الولوالجي، المتوفى سنة 710هـ

(4) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ص16.

ذكره ابن العماد الحنبلي في وفيات 970 وقال أنه توفي في صبيحة يوم الأربعاء من رجب (3 آذار 1563م). وقال الغزّي أنه توفي سنة 969 «كما أخبرني بذلك تلميذه الشيخ محمد العلى»، وقال اللكنهوي «والذي رأيته في ديباجة الرسائل الزينية التي جمعها أبنه أحمد أنه أرخ وفاة والده سنة 970، وكما ذكره السيد أحمد الحموي في حواشي الأشباه نقلا عن بعض الفضلاء انه توفي في ثمان مَضَين من رجب سنة 970».

ودُفن – رحمه الله- في جوار القبر المنسوب إلى السيدة سُكينة بنت الحسين رضي الله عنهما، قريباً من دار الخلافة في القاهرة[1].

مؤلفاته

1- البحر الرائق شرح كنز الدقائق: شرح فيه كتاب كنز الدقائق في فروع الحنفية، للإمام حافظ الدين عبدالله بن أحمد النسفي المتوفى سنة 710هـ ووصل في شرحه إلى آخر كتاب الإجارة ثم توفي قبل أن يتمه، فأتمه الشيخ عبد القادر بن عثمان القاهري الشهير بالطوري المتوفى سنة 1030هـ مفتي الحنفية بمصر، وقد اعتنى العلماء بشرحه عناية كبيرة، ومنهم الشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين المتوفى 1252هـ فكتب حواش أسماها (منحة الخالق على البحر الرائق)، وطبع الكتاب مع حواشيه هذه بالمطبعة العلمية بالقاهرة سنة 1311هـ في ثماني مجلدات، ثم طبع بعدها بالمطبعة الميمنية سنة 1323هـ في ثمان مجلدات أيضا. وحققه الشيخ زكريا عميرات، وصدر عن دار الكتب العلمية في بيروت سنة 1418هـ/1997م.

2- الفوائد الزينية. وهو كتاب مختصر في الضوابط والاستثناءات[2].

3- الأشباه والنظائر في فروع الحنفية. سلك فيها مسلك الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي الشافعي في كتابه الأشباه والنظائر، وصار كتابه عمدة الحنفية ومرجعهم، وكتبوا عليه الشروح واشتغلوا به ترتيباً وتبويباً ونظماً، وقد طبع الكتاب بكلكته بالهند سنة 1241 ثم طبع بمطبعة وادي النيل بمصر

(1) الخطط التوفيقية ج5 ص18

(2) مقدمة الاشباه والنظائر ص 14

سنة 1298، وبهامشه تقييدات للشيخ محمد علي الرافعي.وفي بيروت، دار الكتب العلمية 1999بتحقيق زكريا عميرات.

4- لُب الأصول مختصر تحرير الأصول للامام محمد بن عبد الواحد كمال الدين ابن الهمام (المتوفىٍ سنة 861هـ).

5- شرح المنار. وهو منار الأنوار في أصول الفقه الحنفي، لحافظ الدين النسفي قال «وشرحت المنار شرحاً جاء – بحول الله وقوته- فائقاً على نوعه»[1]

6- تعليقة على الهداية في شرح بداية المبتدي، لعلي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني (المتوفى 593هـ).

7- حاشية على جامع الفصولين لمحمود بن لمحمود بن اسماعيل المعروف بابن قاضي سماونة الحنفي المتوفى سنة 823هـ)

8- الفتاوى الزينية، وهي واحدة وأربعون رسالة مستقلة في الفقه، لكل منها عنوانها وموضوعها، وصفها الغزي بأنها «كلها حسنة جداً». جمعها ورتبها على ابواب الفقه الخطيب التمرتاشي محمد بن عبدالله، نسخة منها في مكتبة جامعة الملك سعود برقم 1293

اثنى عليها احد الفضلاء بقوله[2]:

هذا الكتابُ عديم المثل في الكُتُب لكونه حاوياً للنفع في الزمن

لعالم الوقت والأزمان سيدنا تاج المعالي وبيت الفخر والفطَن

9- تعليقات وحواش ومباحث عديدة.

قال الشعراني «وأما تعاليقه على هوامش الكتب وحواشيها، وكتابته على أسئلة المستفتين، والأوراق التي سوَّدها بالمباحث الرائعة، فشتى لا يمكن حصره. ولولا معاجلة الأجل قبل بلوغ الأمل لكان في الفقه وأصوله، وفي سائر الفنون، أعجوبة الدهر»[3].

---

(1) الاشباه والنظائر ص16

(2) كتب هذان البيتان على طرة المخطوط المحفوظ في مكتبة الملك سعود.

(3) الطبقات الكبرى، نقلا عن ترجمته في مقدمة كتابه (البحر الرائق) بتحقيق زكريا عميرات، ص8.

مشاركته في الحياة العامة

وعدا ما ذكره مترجموه من الإشارة الى عنوانات مؤلفاته، وبعض أسماء شيوخه وتلامذته، فإننا لا نعلم عن مشاركته في الحياة العامة شيئاً، مع أنه عاش منعطفاً سياسياً خطيراً كان له تأثيره على مجمل تاريخ بلاده في العصور التالية، وترك آثاره على غيرها من البلاد الاسلامية أيضا، ففي سنة 923 هـ، تعرضت بلاده مصر الى فتح عسكري على يد السلطان العثماني سليم الأول، وكان من نتائج هذا الفتح، أن فقدت مصر استقلالها وغدت منذ ذلك الحين مجرد ولاية عثمانية تابعة.

ولا نشك في أن ابن نُجيم، وهو القاهري الصميم، قد سمع من أسرته، ومن شيوخه، أطراف ذكرياتهم عن ذلك الحدث الجسيم، يوم انهارت القوات العسكرية المصرية أمام قوات الينكجرية (الانكشارية) العثمانية في معركة الرَّيدانية الحاسمة في ضواحى القاهرة الشرقية، لتبدأ بعدها حرب شوارع مريرة استغرقت نحو ستة اشهر[1]، حقق فيها سكان القاهرة، ملتحمين بقيادة فرسان المماليك، انتصارات مهمة، وألحقوا الهزائم بالقوات المهاجمة، قبل أن ينقلب ميزان المعارك الى صالح السلطان سليم فتتكسر قوات المماليك، ويُؤسَر السلطان المملوكى طومان باي ويُعدم، فتسقط بذلك الدولة المملوكية بيد أعدائها على نحو كامل. وقد عاش ابن نجيم بعد هذا الحدث حياته حتى وفاته– رحمه الله تعالى- في القاهرة في سنة 969هـ أو 970هـ، وشهد في خلال هذه المدة حكم اربعة عشر والياً عثمانياً، آخرهم مصطفى باشا الشهير بشاهين.

ولم يكن ما حدث أمراً عادياً بأية حال.

فقد فقدت مصر منذ ذلك الحين مركزها الدولي بوصفها دولة ذات سيادة، لها ممتلكاتها الكثيرة في قارتي آسيا وافريقيا، وتشمل في الأولى بلاد الشام كلها وبلاد الجزيرة وشطراً من جنوبي الأناضول، حيث تقع إمارة ذولقادر الحليفة لها، كما تشمل جنوباً بلاد الحجاز كلها وصولاً الى اليمن حيث توجد قواعد أسطولها هناك، وفي أفريقيا كانت سيادتها تمتد لتشمل منطقة بَرقة، اي النصف الشرقي من ليبيا اليوم، مع امتداد جنوبي يشمل بلاد النُوبة، أي معظم شمالي السودان

---

(1) ابن اياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5 ص207

الحالي. أما في البحر، فكانت تسيطر على شرقي البحر المتوسط، وعلى البحر الأحمر كله. ومن الناحية التاريخية فقدت مصر دورها الشرعي القائم على ركنين مهمين، أولهما انها تعد – منذ انتقال الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة– الحاضنة والحامية لهذه الخلافة والممثلة لها، وثانيهما أنها كانت الحامية الوحيدة للحرمين الشريفين، أهم مقدسات العالم الاسلامي، وهو ما جعل سلاطينهم يتلقبون عن جدارة بلقب (حامي الحرمين الشريفين). وكانت للدولة المصرية علاقاتها السياسية والدبلوماسية مع كثير من الدول والقوى السياسية في العالم الاسلامي او في اوربا.

أما في الداخل، فقد فقدت مصر حكم طبقتها الحاكمة من المماليك، بل فقدت لقب السلطنة ذي المهابة في العالم الاسلامي منذ أن أطلقه السلاجقة على أمرائهم في القرن الخامس للهجرة، وصحيح أن السلطان سليم لم يستطع القضاء على المماليك بوصفهم طبقة قوية عسكرية، إلا أنهم فقدوا أهميتهم الخارجية بوصفهم حكام مصر وتوابعها الوحيدون، وصاروا خاضعين من الناحية الرسمية لسيادة السلطان العثماني في القسطنطينية. وهكذا كان على المجتمع المصري التعامل مع نوعين من الحكام، المماليك من جهة وممثلي الدولة العثمانية من جهة أخرى. وهو ما يفرض وضعاً معقداً يشمل شؤون الإقطاع والوقف والملكية الفردية، ففي ظل النظام الاقطاعي العسكري الذي كان مطبقا في مصر منذ نهاية حكم الايوبيين، كان أمراء المماليك الكبار يحوزون على اقطاعاتهم مقابل تجهيزهم القوات العسكرية التابعة لهم للحرب كلما اقتضى الامر، وهو نظام يشبه في بعض الجوانب نظام الاقطاع العسكري العثماني المعرف باسم التيمار، فالامراء التيماريون يقطعون أراضيهم مقابل تجهيز تلك القوات، لكنهم يخضعون لمركزية الدولة وحدها وليس لزعمائهم. وهكذا فإن ارتباط ملكية الارض بالحياة العسكرية كان يفرض على الإقطاعي واجب حماية البلاد، ومن ثمة كان وجه هذا التعقيد.

أما من الجانب العثماني المقابل، فكان فتح مصر ثم ضمها الى الدولة العثمانية، يمثل حدثاً جديداً ومعقداً من كل النواحي، ذلك أن العثمانيين كانوا قد توسعوا ، في عهدهم الأول، في الاناضول، بوصفهم يمثلون الطليعة لإمارات الاناضول التركية الإسلامية التي سبق لها ان صنعت أوطانها من ممتلكات الدولة

البيزنطية، وحينما توسعت دولتهم بسرعة في اوربا الشرقية فقد كان ممكنا تبرير ذلك بأنهم يحملون راية الايمان في مواجهة دار الحرب، وحتى حينما انطلقوا فاتحين العراق وايران كان التبرير الشرعي لذلك التوسع هو ضرب القوى التي مرقت من الاسلام ودفعها عما سيطرت عليه من العالم الاسلامي السني، إلا إنها حينما دخلت بلاد الشام وأسقطت مصر، نشأ وضع معقد للغاية من الناحية الشرعية، إذ لم تعد المبررات السابقة للتوسع كافية لتبرير ضمهم هذه البلاد الجديدة، فمصر لم تكن دار كُفر، لتفرض عليها أحكام دار الحرب، وهي لم تكن أيضاً بلاد بَغي، وفيها الخليفة العباسي رمز الشرعية التي تجعل من الخروج عليه بغياً، ثم أنها بلاد أهل السُنة تتمثل فيها مذاهبهم جميعاً، ومنها المذهب الحنفي الذي يتبعه العثمانيون أنفسهم، وعلى الرغم من غرابة الفتوى الذي برر بها شيخ الاسلام في الدولة العثمانية العمل العسكري الذي اتخذه السلطان سليم لفتح مصر، وهي أن المماليك يضربون اسم الله تعالى على السكة، وهو أمر مكروه، فإن الوضع القانوني للأراضي المصرية، ظل يحتاج الى فتاوى أكثر جدية.

وهنا جاء دور ابن نجيم الحنفي ليناقش هذا الامر.

مناقشات حول وراثة الدولة المصرية

ناقش الفقيه الكبير المبرر الشرعي لغزو السلطان سليم الأول مصر، ورَدَّ على فتوى شيخ الإسلام بجوازه، بتقريره أن «كتابة اسم الله تعالى على الدراهم، إن كان يقصد العلامة، لا يُكره»[1]، وفي هذا الرد إسقاط كامل للحجة العثمانية في تبرير غزو مصر، فإذا كانت هذه الحجة باطلة صار كل ما ترتب عليها باطلاً وإن لم يصرح بذلك تصريحاً. ومما يلفت النظر أنه اشترط في الإمام أن يكون قرشياً[2]، مع أنه يعلم بالطبع بعدم توفر هذا الشرط في السلطان المذكور، ومن الناحية الشكلية فهو متوفر في الخليفة العباسي الذي كان السلاطين المماليك يحكمون بإسمه.

ثم أنه تناول التداعيات الشرعية لضم مصر للدولة العثمانية في عدد من فتاواه، أبرزها رسالته التي عنونها (التحفة المرضية في الأراضي المصرية)[3]، ذكر

(1) الأشباه والتظائر ص24

(2) الاشباه والننظائر ص325

(3) مخطوطة المكتبة الأزهرية برقم 33784

في أولها «لما كثر الكلام في سنة ثمان وخمسين وتسعمائة في حكم المبايعة من بيت المال واستمر مدة طويلة في صحة الوقف وحكم المبايعة من بيت المال والخراج من بيت المال سألني جماعة أن أكتب رسالة مختصرة ونبذة محررة مشتملة على بيان هذه الأحكام لعل أن يعمل بها الحكام».. وواضح أن هذه القضية كانت من الأهمية ما جعلها تشبه أن تكون قضية (رأي عام) استغرق نقاشها مدة طويلة. ولم نجد في كتب تاريخ مصر إبان هذه الحقبة ما يدل على سبب قيام هذه القضية، إلا أن القاعدة التي قررها بعد هذا، وهي التي تنص على «أن الإمام نُصِب ناظراً لمصالح المسلمين» توحي بأن القائم بالمبايعة هو الإمام نفسه، أي من يتولى مهام السلطة العليا في الدولة، ومن المفهوم أن الذي كان يتولى هذه المهام، في العهد الجديد، هو السلطان العثماني أو من ينيبه عنه. كما أن من المفهوم أنه ليس من حق الناظر أن يبيع اموال المسلمين وإنما أن يشرف على استثمارها فحسب، فهو هنا كالوصي على اليتيم، يرعاه وبرعى مصالحه لكنه لا يتصرف فيها لنفسه، فالسلطان العثماني هو بمثابة الوصي أما اليتيم فهو الشعب الذي فقد سلطانه، او سلطته الوطنية،ولا ينصرف هذا الوصف هنا الا على الشعب المصري بوصفه هو الذي فقد سلطانه بعد زوال استقلاله على أيدي العثمانيين. وهو يناقش قول الفقهاء المتقدمين بجواز أن يبيع مطلقاً، فيرى أن المتأخرين رأوا «الا ان يبيع له بشرط ان يكون على الميت دَين واوصى بدراهم ... وليس له غير العقار او يكون له فيه مصلحة ظاهرة كبيعه بضعف قيمته، او يكون موقفاً منها قريب من غلاتها او الحاجة كعدم وجود ما ينفقه على اليتيم». ومعنى ذلك أن بيعه للعقار لا يكون الا في حالين:

أولها تسديد مستحقات الآخرين أياً كانوا، إذ كان من المعروف أن تستدين الدولة ممثلة بولاتها الأموال من التجار وأرباب الأصناف للانفاق على مشاريع كبيرة ذات نفع عام غالباً، وهي في هذا الحال تصدر لهم صكوكاً واجبة الدفع بعد حين، مثلما حدث حينما اضطر التجار الى دفع مبلغ 1060 كيساً من الفضة الى السلطان على شكل (بلوص) أي صكوك يدفعها التجار المصريون في القسطنطينية[1]، وهذا ما عبَّر عنه ابن نجيم بالحاجة.

(1) مرتضى بك الكردي الدمشقي: ذيل على كتاب (تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب) بتحقيق محمد الشستاوي، وصدر عن دار الافاق العربية في القاهرة سنة 1419هـ/

وثانيها ما عبَّر عنه بالمصلحة، وهي تنمية أموال بيت المال عن طريق الإستثمار، فالمصلحة هي الإنفاق على اليتيم نفسه، وإذا كان اليتيم هنا هو الشعب الذي فقد سلطانه وسلطته، فصلاحية السلطان هو في تنمية مصالح من يحكمه من الشعوب لا اكثر ولا اقل من ذلك.

وحينما أقرَّ برأي بعض الفقهاء المتقدمين في أن يؤجر الأرض الخراجية ويأخذ الخراج من أجرتها، عاد فقيَّد هذا الحكم بشرط نوه به فقهاء متأخرون، وهو أن لا يكون لمالكها وارث، «ولو أخلف مالكها وارثاً لكان المتصرف هو الوارث»، ومعنى هذا أنه إذا كانت بعض الأراضي، او الإقطاعات، التي يملكها الأمراء وأغلبهم من القادة العسكريين قد عادت الى بيت المال بحكم موت اولئك الأمراء، (وفي الغالب فإنهم قتلوا في اثناء الحرب)، ومن ثم أصبح جائزاً تأجيرها إلى غيرهم لدفع خراجها، فإن ذلك يجب أن يبقى محصوراً بتلك الأراضي المُقطعة فحسب، أي أن لا تشمل الأراضي التي انتقلت الى مالكين جدد بحكم قانون الوراثة، وحتى حينما تنتقل الارض الى الوارثين، بحكم موت مالكيها، فلا يجوز أن يشتريها السلطان بأن يأمر غيره ببيعها ثم يشتريها لنفسه، والظاهر أنه أراد تقييد السلطان في التجاوز على ملكيات الوارثين مستغلا نفوذه وسلطاته.

وينتقل ابن نجيم الى الوقف، ذلك أن أراضٍ واسعة كان المماليك قد وقفوها على أعمال بِر متنوعة، لا سيما المساجد الكبيرة، كما فعل السلطان جقمق والسلطان برقوق، والظاهر أن هناك من كان يسعى لايجاد ثغرة في صحة تلك الأوقاف، على أساس أن السلطان وقفها من بيت المال شراءً، أو من غير شراء، فأفتى هو بأن كلا الوقفين صحيح، كما أن الأرض التي تكون قد وصلت إلى يد الواقف ملكاً أو مواتاً أو ملكاً للسلطان فإن وقفها صحيح أيضاً، وبذلك صان الوقف من تصرف ذوي السلطان التالين.

والتفت ابن نجيم الى الاقطاعات التي يقطعها السلطان لخاصته، وفي الغالب فإنهم من الأمراء والقادة الذين شاركوا في فتح البلاد، وخشي أن تتحول هذه الاقطاعات الى ملكيات مطلقة، فقرر أن من أقطعه السلطان أرضاً من بيت المال

1999م، ص 262، وأحمد شلبي : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم، القاهرة 1987، ص322

ملكه المنفعة لقاء استبداده بها، وهي تبطل بموته او إخراجه من الإقطاع، لأن للسلطان الحق في أن يخرجه منها. وهذا النوع من الأقطاع قريب مما كان يعرف باقطاع التيمار العثماني ، حين يقوم السلطان بإقطاع خواصه وقادته وضباطه قطعاً من الأراضي تسمى خواصا وزعامات وتيمارات، والى الأخيرة نسب النظام كله، وذلك مقابل ما يتوجب عليهم من واجبات عسكرية، فإذا لم يقم بهذه الواجبات عزل عنها، فلا يتحول الاقطاع الى ملك مطلق وانما يبقى قاصراً على حدود المنفعة منه فحسب.

ويظهر أن بعض من كان يقطعهم السلطان كانوا يقفونها من أجل الحيلولة دون اعادتها الى بيت المال، ومن ثم تحويلها الى نوع من الملكية المطلقة، وهذا ما انتبه اليه الامام الخصاف حينما سأله بعضهم: ما تقول في هذه الإقطاع التي يقطعها السلطان؟ إن وقف انسان ما قد أقطعه السلطان شيئا منها؟ قال: إن اقطع السلطان أرضا مواتاً جاز لمن أقطع ذلك أن يوقفها، وكذلك الأرض إذا ملكها السلطان فأقطعها إنساناً أو ملكه إياها فوقفها الذي أقطعها فالوقف جائز فيها. فغاية الاقطاع هنا هو استصلاح الارض لا محض تملكها، وإذا أقطع السلطان إنساناً شيئاً من حق بيت المال لم يجز وقفه لذلك. ووافق ابن نجيم هذا، فقال :وكيف يقطع شيئاً من حق بيت المال؟ قال هذه أرض الإنسان وهي أرض خراج وهي ملك لأربابها والسلطان يأخذ منهم النصف مما يخرجه الله تعالى من الأرض والزرع فأقطع السلطان من هذا النصف[1]. وهكذا صار السلطان مقيدا بان لا يقطع الا نصف الحاصل، لا الارض نفسها، فهو اقطاع انتفاع لا اقطاع تملك[2].

ولاحظ ابن نجيم أنه على الرغم من كثرة علماء مصر ومستواهم العلمي الرفيع، وعراقة الأزهر في تخريج أولئك العلماء، فان الدولة العثمانية كانت تختار القضاة من خارج هذه المؤسسة، بل من خارج مصر كلها[3]، وأن القضاة كانوا

---

(1) رسالة في بيان الإقطاعات ، مخطوطة في المكتبة الازهرية برقم 339499

(2) المصدر نفسه ، والأشباه والنظائر ص167 و305

(3) تطرق المؤرخ المعاصر مرتضى بك الكردي الدمشقي إلى شؤون القضاة الذين كانت الدولة ترسلهم إلى مصر، ولاحظ أن بقاء القاضي في منصبه رهين- عملياً- بإرادة قادة فرق الانكشارية، فقال «وأرادوا عزل القاضي فلم ترض طائفة الينكجرية، وقالوا: يكون ذلك علامة العصيان». ويظهر أن الصناجق، وهم قادة المماليك، كانوا لا يَرَون في القاضي إلا

يتعاقبون على شغل منصبهم فلا يقضي احدهم في منصبه الا سنة او سنتين، ومنهم من كان يقبل الرشوة من طالبي التعيين في الوظائف[1]، هذا فضلا عن أن بعض الولاة كان يتدخل في شؤون القضاء، فيبرئ او يعاقب وفقا لفهمه لا إتباعاً لرأي قاض[2]. وكان بعض الفقهاء «ممن لا خبرة له ولا دُربة» قد أفتى بجواز تدخل القضاة في شرون الوقف، وشروط الواقفين ، فما كان منه إلا أن ألف رسالة سماها «القول السَّري في الرد على المفتري» رد فيها على من ادعى بإمكان القاضي أن يتصرف في شؤون الوظائف التي أثبتها الواقفون، وأن يعزل المتولين بغير جُنحة. وقد استند في هذا الحكم على كلام لأبي يوسف في رسالته للرشيد مفاده «ليس للإمام أن يخرج شيئاً من يد أحد إلا عن ثابت معروف»، فقال «إذا كان هذا في الإمام، فما بالك بالقاضي الذي ولاه السلطان ليحكم الصحيح في مذهبه؟». ولاحظ أن كثيراً من الفقهاء في زمانه استباحوا تناول (معاليم) أي رواتب الوظائف بغير مباشرة أو مع مخالفة الشروط»[3]. وهكذا قيد سلطة القاضي، مستنداً إلى

ممثلاً للسلطة العثمانية، حتى أنهم اجتمعوا «في بيت أمير الحاج على تنزيل الباشا هو والقاضي»، وأظهر ضيقه من احد القضاة المعينين لانه انتقد على نحو حاد أهل بلاده فقال «وكذلك القاضي محمد كتخدا زاده يقول: أنا ما جئت إلى مصر إلا لأجدد لأهلها دينهم، فإنهم كفروا وارتدوا، ونعوذ بالله من قوله وما قال!» ذيل (تحفة الاحباب) للملوي بتحقيق محمد الششتاوي، ص246. وانتقد المؤرخ المعاصر الأسحاقي المنوفي حالة القضاة فقال (اخبار الإول في من تصرف في مصر من ارباب الدول ص111)

قضاة زماننا صاروا لصوصا	عموماً في البرية لا خصوصا
يرون الغنم أموال اليتامى	كأنهم تلوا فيها نصوصا
فنخشى منهموا اذ صافحونا	يسلوا من أصابعنا الفصوصا

ونجد مثل هذا الانتقاد في أرجوزة نظمها مؤرخ معاصر آخر هو احمد الغمري، إذ أشار إلى تفشي الرشوة في تعيين القضاة في مصر، فقال

للآن قاضي القضاة العسكرِ	من قاضي استنبول مصر يشتري
بالمال يأتي مسرعاً لمصره	قضاتها الجميع تحت أمره

ذخيرة الأعلام بتواريخ امراء مصر في الاسلام، مخطوطة في المكتبة الأزهرية برقم 6125

(1) قال في رسالته (رسالة في الرشوة واقسامها للقاضي وغيره) مخطوطة في المكتبة الازهرية برقم 338176

(2) أحمد شلبي : أوضح الإشارات ، ص110.

(3) الأشباه والنظائر ص167

تقييد سلطة السلطان نفسه، بل بلغ حد أن عَدَّ قيام السلطان بقطع وظيفة طالب علم في مدرسة، أي مخصصاته الدراسية كما نقول اليوم، وإخراجه من حُجرته، أي من قسمه الداخلي، أمر غير شرعي، فيه هلاك الشريعة على حد تعبيره. وأن القاضي إذا نصب قيِّماً آخر على الوقف غير الذي نصبه الواقف لا ينعزل الأول، وأنه إن خالف شرط الواقف فإنه لا يصح إلا لضرورة[1]. واختار من فتاوى قاضي خان أن السلطان لو أذن لقوم أن يجعلوا أرضاً من أراضي البلد حوانيت موقوفة على المسجد، وأمرهم أن يزيدوا في مسجدهم، قالوا: إن كانت البلاد فتحت صلحاً لا ينفذ أمر السلطان، لأن البلد إذا فتحت عنوة للغارمين فيجوز أمر السلطان فيها، وإذا فتحت صلحاً تبقى على ملك مُلاكها، فلا ينفذ أمر السلطان فيها»[2].

وإذ أقر ابن نجيم في رسالته (التحفة المرضية) بأن مصر فتحت صلحاً، يكون واضحا معنى قوله (تبقى على ملك مُلاكها).

الخلاصة

اتخذ ابن نجيم من مصادر الفقه الحنفي مجالا للاجابة على سؤال فرض نفسه بقوه على بلاده نتيجة السيطرة العثمانية الكاملة. لقد أدرك أنه أمام واقع جديد، فالدولة المملوكية التي حكمت مصر وتوابعها سقطت كلياً ولم يبق أمل في استعادتها او حتى استعادة بعض اقاليمها التابعة، ومن ثم لم يبق إلا التوجيه القانوني لهذا الواقع الجديد، والإجابة على كثير من المسائل الناجمة عنه، فيما يخص حقوق الدولة الزائلة وحقوق أفرادها. وهو ما عرف فيما بعد بنظرية الاستخلاف (او التوارث) الدولي، فحاول أن يَلجِم الدولة الجديدة (الوارثة) عن انتهاك حقوق مواطني-الدولة السابقة (الموروثة) على أساس أن لا حق للسلطان العثماني في اعتبار مصر إقليماً مفتوحاً حتى يجيز أن يطبق فيه حق الفتح[3]، بما

---

(1) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ج5 ص245 والأشباه والنظائر ص134.

(2) الرد السري غي الرد على المفتري، والأشباه والنظائر ص106

(3) يقصد بالفتح فرض الدول سيادتها على اقليم دولة أخرى بتصرف صادر عن أرادتها المنفردة يدعمه انتصارها العسكري الشامل على هذه الدولة الأخيرة، ونجاحها في تحطيمها كدولة نزع ركن السيادة عنها، ويختلف الفتح كليا عن الاحتلال العسكري لإقليم الدولة خلال العمليات العسكرية أو بعد احتلالها، إذ يشترط لاكتمال عناصر الفتح كسَبب لاكتساب الاقليم أن تختفي السلطة السياسية للدولة المهزومة تماماً. ومن المتفق عليه فقهاً أن مجرد

يترتب عليه من الإستحواذ على ثرواته البشرية والطبيعية، كما حدث في الأقاليم التي فتحها العثمانيون من قبل. وبالمقابل فقد صاغ فكرة جديدة، مأخوذة من احكام الوصاية على اليتيم، وهي أن على السلطان العثماني حماية الاقليم الموروث بوصفه وصياً عليه، ومن ثم جعله مسؤولاً عن حماية مصر وممتلكاتها السابقة من الاخطار الحقيقية التي كانت تحدق بها في البحر الاحمر والبحر المتوسط في ذلك العصر. ولا شك في أن الدولة العثمانية اضطلعت بتلك المهمة الموروثة فور سيطرتها على مصر، فسيطرت على المياه العربية الداخلية في البحر الاحمر وبحر العرب وتولت حماية الحرمين الشريفين من أخطار الأساطيل البرتغالية. على أن اضطلاعها بهذه المهمة لم يكن يعني الإستحواذ على الحقوق التاريخية للشعب المصري في اقليمه، وانما تقتصر على تنمية ثرواته عن طريق استثمارها، والمحافظة على الملكيات الخاصة كاملة على أساس أن مصر فتحت في الإسلام صلحاً لا عنوة ومن ثم تطبق فيها أحكام هذا النوع من الفتح، الذي يقيد يد الفاتح الى أدنى الحدود، ولا يَسمح له بمصادرة الممتلكات تحت أي ذريعة من الذرائع، كما لا يَسمح له باقطاع الأراضي إلا إذا مات أصحابها وانقرضت ورثتهم، كما لا يأذن باقطاع أراضي بيت المال، وهي الأراضي الأميرية، إلا لغرض استصلاحها فحسب. ثم أن من شأن هذا الفتح أصلا أن لا يغير من القوانين المطبقة في البلاد المفتوحة، لسبب بسيط وهو أن كلا الدولتين، الفاتحة والمفتوحة، تخضعان لقانون واحد، وهو الشريعة الإسلامية، وفقه واحد هو الفقه الحنفي، وهكذا بَلوَر ابن نجيم الحنفي فكرة التوارث الدولي قاطعاً شوطا في سبيل تطويرها الى نظرية متكاملة من نظريات القانون الدولي العام المعاصر[1].

احتلال اقليم الدولة كله أو بعضه في أثناء العمليات العسكرية لا يحدث تلقائيا أي أثر في انتقال الإقليم المحتل من سلطة الدولة الأصلية إلى سلطة الدولة المحتلة. ويمكن اعتبار إعدام السلطان المملوكي طومان باي وإنشاء الإدارة العثمانية الجديدة استكمالا لعناصر الفتح العثماني لمصر. ينظرد. محمد سامي عبد الحميد وآخرون: التنظيم الدولي، دار المعارف بالإسكندرية 2004، ص143.

(1) هذا بينما يؤثر التوارث تأثيراً مباشراً على وضع الأفراد المقيمين في هذا الإقليم، وعلى القانون العام الداخلي. ينظر بيار- ماري دوبوي: القانون الدولي العام، ترجمة د. محمد عرب صاصيلا ود. سليم حداد، بيروت 2008، ص84 وشارل روسو: القانون الدولي العام، ترجمة شكرالله خليفة وعبد المحسن سعد، بيروت 1982، ص190-214

الدور السياسي

لعلماء بغداد في العصر العثماني

مقدِّمة

ليس أكثر ظلمًا للعلماء من مؤرِّخيهم! ذلك أن أولئك المؤرِّخين لم يكونوا – في أغلب الأحوال – يُقدِّمون سِيَر مَن يكتبون عنه من العلماء، بقدر ما كانوا يُقدِّمون الصورة التي يريدونها هم للعالِم، ولا ندَّعي أنهم كانوا يصنعون هذه السِّيَر أو يزيفونها، ولكنهم كانوا يقدِّمونها ناقصة، أحادية الجانب، معتمدين على منهج محدد يشبه أن يكون قالبًا جامدًا لا تغير فيه إلا قليلاً، يقتصر على ذكر ولادة صاحب السيرة، ومَن أخذ عنهم من مشايخ عصره، وما قرأ عليهم مِن كتب، ثم ذِكْر مؤلفاته، ومِن ثَمَّ وفاته.

ولا شكَّ في أهمية مثل هذه المعلومات في دراسة مساهمات ذلك العالم العلمية أو الثقافية، إلا أنها لا تفي بالجوانب الأخرى من سيرته، وهي المتعلِّقة بمساهماته في الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، أو حتى العسكرية، فلا توضِّح مثلاً طبيعة موقفه من السلطة القائمة، تأييدًا أو معارضة، ولا تبيِّن دَوْرَه في قيادة مجتمعه، أو في الأقل التأثير عليه، بل تسكتُ – بصمتٍ بالغ – عن كلِّ ما له صلة بالحياة العامة على نحوٍ جعل مِن أولئك العلماء يَبدُون كأنّهم كانوا يعيشون منقطعين عن العالَم كله، أو كأنهم ليسوا من هذا العالَم أصلاً، مع أن العالَم من حولهم يموجُ تفاعلاً وحركة: انتفاضات، وصراعات، وحروب، وأزمات... إلخ.

ونعتقد أن صورةً كهذه لم تكن دقيقة ولا مُنصفة، فرجلُ العلم – وهو المثقَّف في مجتمع جُلُّه من غير المثقفين – لم يكن ذلك الشاهد الصامت، الذي لا تأثير له إلا على عدد محدود من الطلبة المُتحلقين حوله في باحة من باحات مسجد؛ وإنما كانت له – في أحيان كثيرة – أدوارٌ تتجاوز مجالَه العلمي إلى مجالات الحياة العامة، ليس لأنه الأكثر علمًا وثقافة فحسب، وليس لأن ثقافتَه كانت تتطلَّب منه أن يكون ذا موقف – ولو فكريًا – مما يجري حوله؛ وإنما لأن مجتمعه يطالبه بأن يُبدي رأيه في كثير من الأمور العامة، فضلاً عن الخاصة منها، فواجبه أن (يُفتي) للناس فيما يُشكل عليهم من أمور الحياة دونما تمييز بين ما هو عام، يتعلق بما أصدره هذا الوالي من أوامر مثلاً، أو خاص له تماس بحياة الإنسان اليومية الشخصية.

وعندنا أن موقف المؤرِّخين هذا في اتخاذ المنهج المذكور، كان ناجمًا عن رغبتهم في إعلان أن العلماء كانوا أرفع منزلة من أن يتدخَّلوا في شؤون دنيوية زائلة، وأن العلم وطلبه هو أسمى شرفًا من مشاركة في انتفاضة، وأنبل قصدًا من الولوج في مُعتَرك السياسة، مع ما في هذا المعترك من دسائس وعنف أحيانًا.

وهكذا فقد أدَّى اتخاذ هذا المنهج، إلى أن يُحرَم الباحث في تاريخ التطور السياسي للمجتمع العربي الحديث من معلومات ضرورية لاستبيان دور «العلماء» في هذا التطور، بل ذهب بعضهم – استنادًا إلى سكوت المصادر – إلى القول بأن لم يكن لهم دور أصلاً، حتى ظهرت النخبة الجديدة من المثقفين (الإنتلجنسيا) إبَّان أواخر القرن التاسع عشر، مشبهين ذلك بظهور مفكري عصر الاستنارة الأوروبية، وهم المفكرون الذين غَلبت عليهم النزعاتُ العلمانية، وكان أكثرُهم متمردًا على الكنيسة ودورها الثقافي، وذلك تشبيه تعوزه الدقة الموضوعية إلى حدٍّ بعيد[1]، وتدلُّنا إشارات قليلة – لكنها بالغة الدلالة – تناثرتْ في مصادر تاريخ العراق إبَّان العصر الحديث ووثائقه ومجامعه الخطية، على مساهمة علماء عراقيين بارزين في مجريات الحياة السياسية، بلغت حد المشاركة في الحياة العسكرية، ومنهم مَن دفع من ماله، ووقته، وجُهده، بل وحياته نفسها، في سبيل ما آمن به من مبادئ نبيلة، وغايات وطنية سامية، إلا أن مصادر العصر غمطت حقه في تسجيل تلك الجوانب، وتخليد ما أحرزه من مآثر، حتى باتت ترجمته – في تلك المصادر – باردة جافة، تُعوِزُها الحياة نفسها.

---

(1) في وسعنا هنا أن نُورِد بعض أفكار الدكتور فاروق أبو زيد في كتابه «عصر التنوير العربي» (بيروت 1978) نموذجًا لمَا ينتهي إليه بعض الباحثين من مقياس لتقييم أدوار المثقَّفين العرب في العصر الحديث، وهو مقياس أوروبي كما سنرى.

يقول في ص 190 – 191 ما نصه: "إن عصر التنوير العربي قد قدَّم لنا نسقًا خاصًا من الليبرالية التي تتلاءم مع المجتمعات العربية كذلك، فقد تم في هذا العصر التبشير بالعقلانية والإيمان بقدرة العقل وتطبيقاته العملية، الممثلة في العمل على تغيير حياة الناس إلى الأفضل، كذلك أنجز عصر التنوير مهمة التبشير بالعلمانية، وبما تعنيه من الفصل بين الدين والدولة وإحياء الشعور القومي"، وهو يرى أن عصر التنوير العربي هذا لم يكن إلا انعكاسًا أو تأثرًا في الأقل بإنجازات عصر التنوير الأوروبي.

يقول (ص15): «وعصر التنوير العربي يبدأ منذ حدث أول لقاء بين العقل العربي والعقل الأوروبي، بمجيء حملة بونابرت إلى مصر، فمن طريق الاحتكاك المباشر بين المصريين والفرنسيين تعرَّف العقل العربي على إنجازات عصر التنوير الأوروبي من خلال تطبيقات الحملة الفرنسية لأفكار الثورة الفرنسية على مصر».

1- فالمؤرخ الشيخ عبدالرحمن السويدي (ولد سنة 1134هـ/1721م، وتوفي سنة 1200هـ/ 1758م) مثلاً، لم نكن نعلم من سيرته غير ما دوّنه عنه مؤرِّخان بارزان؛ أولهما المرادي في كتابه «سلك الدرر في رجال القرن الثاني عشر»[1]، وثانيهما محمود شكري الألوسي في كتابه (المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر)[2]، ولو جرّدنا هاتين الترجمتين من ألفاظ المديح وأوصاف الثناء، لَمَا تبقّى في أيدينا إلا أسطر معدودات، لا تتجاوز تحديد سنة ولادته، وذكر ثلاثة من شيوخه، ونموذج من شعره، وأسماء أولاده، ووفاته، ومعلومات كهذه تبقى غير كافية لعالم جليل، وكان يمكن أن تبقى سيرته أسيرةَ هذه المعلومات المبتسرة، لولا أن وقفنا - في أثناء عَمَلنا في فهرسة خزانة مخطوطات المكتبة القادرية ببغداد - على رسالة مهمة له، كتبها لتكون كالتقرير ليقدِّمه إلى والي بغداد حسن باشا (1192 - 1194هـ/1778 - 1780م)، ووصف فيه مجريات الأزمة السياسية التي حدثت في بغداد إثر محاولة أحد الإيرانيين التوصل إلى منصب (والي بغداد)، مستفيداً من حالة الضعف والتراخي للدولة العثمانية يومذاك، وقد عُرفت هذه الأزمة (بفتنة عجم محمد)، نسبة إلى ذلك الإيراني الذي كان يتبع كل وسيلة للوصول إلى غايته، مستميلاً في ذلك والي بغداد عبدالله باشا، والمندوب العثماني سليم أفندي[3].

ومَثَّل السويدي في روايته للأحداث وجهة نظر الزعامة البغدادية المحلية تمثيلاً صادقًا؛ نظرًا لموقعه القريب منها، واطّلاعه الدقيق على ظروفها، فقدَّم بذلك تفصيلات مهمة وفريدة عن دَور البغداديين قيادة وشعبًا في الدفاع من مدينتهم ضد مؤامرات الطامعين؛ أمثال عجم محمد، وسليم أفندي، وضد تخاذل الولاة من مثل عبدالله باشا، وحسن باشا، فهو بذلك قد رسم صورةً حية للشعب في فترة حرجة من تاريخ العراق الحديث، وهي صورة مشرِّفة؛ لأنها كشفت عن

(1) سلك الدرر ج3 ص85.

(2) المسك الأذفر (بغداد 1930) ص65.

(3) حققنا هذه الرسالة وقدمنا لها عنوانًا- إذ لم يفعل مؤلفها - وهو: «تاريخ حوادث بغداد والبصرة من 1186 إلى 1192هـ»، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، ط1: 1978، و ط 2: 1987، وتقع في 168 ص.

تعاون فئاته وكفاحه ضد العدو المشترك[1]، كما أنها أظهرت بشكل واضح مدى ما أدَّت روح المدينة من دورٍ في مجريات التاريخ المحلي للعراق آنذاك.

وكان السويدي في أول نشوء الأزمة معتكفًا في داره، منشغلاً بالقراءة والدرس، يقول: «فآثرت مذهب العزلة والانفراد، واخترتُ طريقة النأي والبعاد، وقعدتُ في البيت وحدي، واشتغلتُ بالكتب التي عندي[2]»، ولم يكن اعتزالُه الناس عن غفلةٍ عمَّا يجري حوله، وإنما كان يراقب عن كثب ما يجري من حوادث ودسائس سياسية، يقول: «ومع ذلك فلستُ غافلاً، ولا بما يصدر في البلد جاهلاً، بل كان لي تحت كل شعرة عين ولسان، وفي كل جارحة سيف وسنان[3]»، وما أن عَلِم بالمؤامرة التي يدبِّرها عجم محمد والمبعوث العثماني للاستيلاء على الحكم، وتعيين الأول واليًا على بغداد، حتى خرج من مُعتكفه، فتزعَّم – عند ذاك – أهل الجانب الغربي، وشرع بتهيئة الدفاعات اللازمة، وترتيب الخطط المؤدِّية إلى عرقلة مشاريع خصومه، وليس أدل على الدور القيادي لهذا العالِم الأديب مما عبَّر عنه وبقلمه، يقول: «فحينئذٍ – أي: بعد أن فَشلت محاولته السلمية لإيقاف تدهور الأمور – لَبِستُ سلاحي ومشيتُ، وخلفي عصابةَ من السَّكمانية[4]–حرسهم الله – نريد الذهاب إلى خضر الياس[5]، فلم يمكِّنونا من المشي على الساحل؛ لكثرة ما يضربوننا به من الطوب والتفك، فذهبنا من خارج وجئنا إلى خضر الياس، وهو مكان يُشرِف على سور القلعة وتوابيها، فاختفينا خلف الجدران، وهم لا يشعرون بنا، وضربنا أول مرة مقدار عشرين تفكه شيشخانة[6]، فألقينا منهم الطوبجي على طوبه، وشرَّدناهم من فوق القلعة، وأبطلنا

(1) انظر عن هذه الفتنة: رسول حاوي الكركوكلي: دوحة الوزراء 155، (ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت 1961)، وعثمان بن سند: مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، بتحقيقنا (ط2 بيروت2010)، ص146 – 162.

(2) تاريخ حوادث بغداد والبصرة ص75.

(3) المصدر نفسه ص76.

(4) السَّكمانية: جمع سَكماني، لفظة محرَّفة عن الفارسية (سكبان) المركبة من (سَك) وتعني كلب، و(بان) بمعنى حافظ، إشارة إلى أصل وظيفتهم، وهي حراسة كلاب السلطان، وحملة بنادق صيده، ثم أصبحوا – بعد تحوُّلات عديدة – نوعًا من الجند المحلي في مدنهم.

(5) اسم لمسجد، ومشرعة ومحلة في الجانب الغربي من بغداد، وهي تقابل قلعة بغداد (وزارة الدفاع فيما بعد) في الجانب الشرقي منها.

(6) ضرب من البنادق، ذو زناد لإلهاب البارود.

طوابي من تلك الناحية، وأمرتُ قومي بالضرب على مزاغل السور؛ إذ لا تخلو من أحد خلفها، وأريناهم يومًا لم يروه قبل[1]».

ولم يقتصر دور السويدي على قيادة رماة البنادق في ذلك الظرف الصعب، ومحاصرة القلعة من جهة النهر فحسب، وإنما سرعان ما تحوَّل إلى قيادة جموع الثائرين، والسيطرة بهم على المناطق المهمة من المدينة، وإقامة المتاريس المُحكَمة للدفاع عنها، ويوضِّح النصُ التالي خبرته الواسعة في إدارة مثل هذا النوع من حرب الشوارع.

يقول: «وفي صبيحة اليوم الثاني عبأنا جموعنا وأرسلناهم من الجسر، وركضوا عليهم فكسرناهم إلى باب القلعة، واستولينا على الميدان، ثم رجعنا وتركناهم، وأراد أصحابنا نَصْب متاريس في ساحة خضر الياس، فقلت لهم: الرأي عندي أن أبني لكم متاريس شامخة إلى الجو من غير حَجَر ولا مَدَر؛ لأن طوبهم يهدم البناء، فأْتوني غدًا ببواري وحِلال ونضع فيها التراب، ولا نزال نضع واحدة فوق أخرى حتى نكتفي، فنضع طوبنا فوقها، وسكمانيينا من فوق أيضًا، ونضع من الحلال ما يمنع عنا بحيث نراهم ولا يرونا، وليكن العمل ليلاً؛ لأنهم لا يمكنونا نهارًا[2]».

وحربٌ كهذه كانت تقتضي مزيدًا من السلاح والذخيرة، فانبرى السويدي لتصنيع نوع من القنابر التي تطلق من مدفع، نصبوه عند تكية المولوية (جامع الآصفية فيما بعد)؛ لتصيب قلعة بغداد، حيث يتحصن عجم محمد وحليفه المندوب العثماني، يقول واصفًا هذا النوع الجديد من القنابر: «وكنا نعبئ فيه قطع القنبر الذي يضربوننا به، صنعناه عند الحداد، كل قطعتين بينهما زنجيل، فنضربه عليهم[3]».

ويصف قيادته الثائرين في الهجوم على الجسر الوحيد الذي كان يربط بين حيِّه في الجانب الغربي، وبين ساحة القتال في الجانب الشرقي، بعبارة مؤثِّرة، قائلاً: «وشرعت أحثُ قومي على الهجوم على الجسر، وتصايحت شجعاننا، وحَرَّض بعضهم بعضًا.. فتزاحمت الناس وصاحوا صيحةً ارتجَّ لها الجانب الشرقي ودبت فيهم حمية الإسلام[4]».

---

(1) تاريخ حوادث بغداد والبصرة ص 82.

(2) المصدر نفسه ص 82.

(3) المصدر نفسه ص 99.

(4) المصدر نفسه 117.

فأين هذه الجوانب المفعمة بروح الكفاح والمقاومة من تلك الترجمة القصيرة الجافة التي أوردها المرادي والألوسي؟ وكم كانت معلوماتنا تبقى ناقصة عن دور هذا العالم الأديب في مجريات أحداث عصره لو لم نقف - عن طريق المصادفة - على هذه الرسالة التاريخية القيمة.

2- ولنأت الآن إلى سيرة عالم بغدادي آخر، هو العلأمة الشاعر حسين بن علي العُشاري (المولود ببغداد قبل سنة 1150هـ/1727م، والمتوفى في البصرة سنة 1200هـ/ 1785م)، فإن مصادر عصره عرفتْه عالمًا بارعًا، وفقيهًا جليلاً، ومؤلفًا مكثرًا ومُتقنًا، وشاعرًا متفننًا، ولم تَزدْ على ذلك شيئًا غير إطناب في الوصف، وإكثار من ألفاظ الثناء على عادة كتب التراجم المتأخرة؛ ترجم له المرادي بنحو عشرة أسطر، اقتصر فيها على ذكر اسمه، ونسبته، ودراسته، واسم واحد من شيوخه، وهو عبدالرحمن السويدي، ثم عناوين بعض مؤلفاته، وآخر منصب تولاه في البصرة ووفاته هناك[1]، وترجم له السيد محمود شكري الألوسي، ولم يَزدْ على ما ذكره المرادي غير تفاصيل قليلة، منها: إجادته الخط، وتأليفه كتبًا أخرى[2]».

وكان ممكنًا أن تبقى سيرته حبيسة هذه الترجمات المحدودة، متواضعة المضمون، لولا أن وقفنا على مجموعة خطية تضمنت بعض رسائله ونماذج من نثره[3]، فإذا بهذه الرسائل تمثل) مراسلات (سرية، كان العالم البغدادي يرسلها إلى شرفاء مكة، وهي بذلك تكشف عن دور سياسي مهم، لم يكن معروفًا من قبلُ في إطار المصادر التقليدية التي ترجمت له.

وإحدى تلك الوثائق رسالةٌ بعث بها العشاري إلى الشريف باز، تشير إلى أنه كان قد سافر إلى مكة المكرمة حاجًا، ويظهر أن صلته بالشرفاء كانت في أثناء رحلته تلك، وفي رسالته ما يدل على وجود مكاتبات بينه وبينهم، يقول: «ومنذ فارَق (يعني نفْسَه) تلك الوجوهَ الصباح، والمحاسن المشرفة في الغدو والرواح، لم تَقَرَّ عينه منكم بمطالعة كتاب، ولم يشنف سمعه بمفاكهة خطاب من ذلك الحساب.. والمأمول بعد وصول عريضة الوداع تشنيف أسماعنا، وتشحيذ أذهاننا، ببعض الرسائل في نهاية المأمول

---

(1) سلك الدرر ج3 ص124.

(2) مجموعة العشاري، (نسخة خطية كانت في خزانة المحامي عباس العزاوي، وآلت إلى المركز الوطني للمخطوطات).

(3) مجموعة العشاري (مخطوط).

وغاية المسؤول، ونحن في حَيِّز الامتثال والقبول، لما تأمرون به لدى شرف الوصول[1]، والذي نعلمه أن الشريف باز[2] كان قد قَدِم العراق في تلك المدة، ولا نستبعد أن يكون قد التقى به العشاري في بغداد أو البصرة.

وفي رسالة أخرى كتبها العشاري إلى الشريف مساعد بن سعيد بن زيد أمير مكة المكرمة (1165 - 1184هـ/ 1751 - 1770م)، نجد العشاري يصف نفسه بأنه «من العبيد المحسوبين المنسوبين من زمان قديم على البيت النبوي[3]».

وفي الرسالة إشارة مهمة إلى أن وفودًا من الشرفاء كانت تفد على العشاري، وأنه كان يجيب عن أسئلتهم فيما يتعلق ببعض الأوضاع العامة، يقول: «لقد فهمنا ما أشرتم إليه في الكتاب المبين، واجتمعنا بالسفير الناصح الأمين، واتصلت التحريرات العالية، والتنميقات الشريفة السامية، فقرَّت بها العيون والخواطر، وابتهجت لها الأسرار والسرائر، ولقد حررت لكم الأجوبة السارة بما يشتهيه الفؤاد، ويكون مطابقًا للمراد».

وعلى الرغم من أن الكتاب جاء مُعَمِّيًا في مضمونه، غير مفصح عن مكنونه، إلا أننا نلمح فيه بُعدًا سياسيًا ظاهرًا، لاجتماع العُشاري (بالسفير الناصح الأمين)، ولم يكشف الكتاب عن حقيقة تلك السفارة وطبيعة تلك التحريرات والأجوبة، وهي لا تخلو من موضوع مهم وخطورة شأن، ولا يبعد أن يكون وراءه أمر دُبِّر خُفية.

ومن المؤسف أن الرسالة الأخيرة التي بَعَث بها العشاري إلى الشريف أحمد بن سعيد أمير مكة المكرمة سنة 1884هـ/ 1770م، جاءت مبتورةً مقصورة على ذكر الديباجة فحسب[٤]، وبذا تقفُ شحة المصادر حائلاً دون معرفة فصلٍ مهم من حياة العلاَّمة الشاعر، ربما كانت له أهمية في الكشف عن بوادر أولى الاتصالات بين شرفاء مكة وبين مثقفي العراق وأقطار عربية أخرى؛ من أجل القيام بتحرك سياسي عربي مشترك، وهو ما عبَّر عنه تقرير بعَثَ به قنصل بريطانيا في حلب ج. هـ سكين Skene إلى السفير البريطاني في الآستانة في 31 تموز 1858 (20 ذي الحجة 1274هـ)، جاء فيه: «يظهر أن السكان المسلمين في شمال سوريا تدغدغ

(1) المصدر نفسه.

(2) لم نجد اسمه بين مَن تولى شرافة مكة في ذلك العهد.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

أفئدتهم أحلامٌ جميلة بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية، وبإقامة دولة عربية على رأسها شريف من شرفاء مكة[1]، ومن المعلوم أن هذه الأفكار هي التي وجدتْ تطبيقها في قيادة الشريف حسين وأولاده ما عرف بالثورة العربية الكبرى سنة 1916م.

إن شعر العشاري نفسه، مما أودعه ديوانه، يوضح أن أمرًا كهذا لم يكن بعيداً عن تصوره، فهو عربي الأصل، ينتمي أصلاً إلى قرية (عُشارة)[2]، الواقعة على الخابور، في شمال سوريا، وقد انضم - في شطر من حياته - إلى تكتل زعامة آل الشاوي العربية، المناوئة غالبًا لسياسة ولاة بغداد المماليك، وقد نظم فيهم صراحة قصائدَ عديدة، أثنى فيها على مواقفهم السياسية، حتى ما كان مخالفًا رغبة ولاة بغداد، وأشاد بصراحة نسبهم، وأصلهم العربي العريق[3]».

وحينما ساءت علاقة الأمير عبدالله الشاوي بالولاة المماليك في بغداد، واضطر للإقامة في النجف بعض الوقت، لم يجد العشاري حرجًا - وهو المقيم في بغداد - من أن يستغيث بالشاوي، مُعرِّضًا بخصومه وأعدائه الذين كانوا السبب في خروجه من بغداد، ويبلغ التأثُّر بالعشاري مبلغه، حين علم بمقتل الأمير الشاوي على يد عمر باشا والي بغداد غدرًا، وخروج أولاد الشاوي على الوالي ثائرين وناقمين على غدره بوالدهم، ومطالبين بالثأر، فنظم العشاري قصائد صرخ فيها بوجه الظلم والظالمين، وصب جام غضبه على والي بغداد، حتى وصفه بنعوت قاسية؛ مثل: (الكلب) و (الذئب)[4]... إلخ، وتلك جُرأة لم يبلغها أحدٌ من شعراء عصره فيما نعلم، وهي كفيلة بأن تجعل من شعر العشاري أنموذجًا للشعر السياسي في العراق في تلك الحقبة من الزمن.

3- ولا بدّ لنا هنا من التوقف عند سيرة العلاّمة مفتي بغداد عبدالغني آل جميل 1194-1279هـ/1780 - 1862م)؛ لِمَا تشتمل عليه هذه السيرة من جوانبَ

---

(1) زين نور الدين: نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية - التركية (بيروت 1968) ص198.

(2) حققنا هذا الديوان، بالمشاركة مع الحاج وليد الأعظمي، وطبع على نفقة وزارة الأوقاف (بغداد 1977)، ويقع في (655) صفحة.

(3) الديوان، القصيدة رقم 5.

(4) الديوان، القصيدة رقم 26، وانظر: مقدمتنا لديوانه.

سياسيةٍ مهمة، وربما كان حظ هذا المفتي البغدادي عند مترجميه أفضل من حظ غيره من أقرانه العلماء، فقد أدرج السيد محمود شكري الألوسي، في ضمن ترجمته، قصيدة له احتوت على ألوان شتى من الثناء التقليدي، إلا أن فقرة واحدة نوّهت بدوره السياسي البارز في مفتتح ولاية علي رضا باشا اللاز (1247 - 1258هـ/1831 - 1842م)؛ إذ قال: «حتى إذا حصل التجاسر من عسكر ذلك الوالي على أعراض الناس، وكثر التجاوز منهم على أموال الرعية الأكياس، أخطر إليه المُترجَم إليه ضررَ ذلك، وطلب منه رفعَ ما هنالك، فلم يتمكّن الوالي من ردعِهم، وازدادوا بالنهي ضرراً على ضررهم، فوقعت بينه وبين ذلك الوالي لذلك منافرة في الجملة، وقام أهل البلد على الوالي متطلبين إزعاجه وقتله، فلم يَسَعِ المُترجَم المبرور غير نزوحه من بغداد، فلم يمكنه إلا ترك ذلك الناد، فنُهبت داره بما فيها، وأُحرقت بظاهرها وخافيها، وأُتلف من الكتب نحو سبعة آلاف كتاب[1]

ولم تكشف طبيعةَ تلك (المُنافرة) ومراميَها إلا وثائقُ رسمية وقفنا عليها في دار الوثائق القومية والتاريخية في القاهرة، فإذا بها ثورة حقيقية لها جوانبها السياسية والعسكرية العميقة، وقد توافق قيام هذه الثورة في بغداد بعد نحو سنة واحدة من دخول الجيش المصري بلاد الشام منتزعاً إيّاها من السلطة العثمانية، وانحياز معظم مدن العراق الغربية والقبائل هناك إلى القيادة المصرية في بلاد الشام[2]».

وهذه الوثائق هي تقارير رسمية كان يبعث بها رجال المخابرات العسكرية المصرية إلى قيادتها، ففي تقريرٍ كَتَبه أحدُ أولئك الرجال - وكان قادماً من بغداد

---

(1) محمود شكري الألوسي: المسك الأذفر 126، وتنظر ترجمته أيضاً في مقدمة مجموعة شعره التي نشرها عباس العزاوي، بعنوان (مجموعة عبدالغفار الأخرس في شعر عبدالغني الجميل) (بغداد 1949)، وقد عثرنا على مجموعة خطية تضمنت (زهيريات) له، يظهر أنه كان ينظمها في أثناء الثورة لإذكاء حماسة الثوّار، وتعد من أكثر الشعر العامي قوة وتأثيراً في هذا المجال، (نسخة خطية مصورة لدينا).

(2) كان بعض زعماء العقيل، وشيخ زبيد، والشيخ صُفُوق شيخ شمَّر، أرسلوا رسائل إلى إبراهيم باشا يعلمونه فيها بتأييدهم للقيادة المصرية، ويرجون منه إرسال قوة رمزية لا تزيد على ثلاثمائة فارس مصري؛ ليعلنوا انضمامهم رسمياً إلى مصر، ويقوموا بتطهير العراق من الوجود العثماني؛ دار الوثائق القومية، محفظة رقم 238، الوثيقة العربية رقم 262.

إلى حلب تاريخه 8 ربيع الآخر سنة 1248هـ/ 3 أيلول 1832م - نقرأ: «لَمَّا قام أهل حي الشيخ عبدالقادر وحي قنبر علي (وهو موطن مفتي بغداد عبدالغني آل جميل ومنطلق الثورة) المقيمين ببغداد، وهجموا على علي باشا (والي بغداد)، أسرع علي باشا أيضًا فهاجم بجنوده الحيَّين المذكورين، وأمرهم بنهب فريق منهم، وإحراق آخرين»، فهي إذًا ثورة مسلَّحة، ومداهمات، وحرب شوارع، وتنكيل.

ويمضي التقرير ليقرَّ بأن نصف سكان بغداد قد انضموا للثورة، يقول: «وإن نصف أهل بغداد مخلصون لعلي باشا، وأما نصفهم الآخر فأعداء له»، ويؤشر التقرير موقف السكان والقبائل في خارج بغداد، وبخاصة في نواحي الفرات، والمناوئ للسلطة العثمانية في بغداد، والمؤيدة للثورة، والذي كان ينتظر الدعم من السلطة المصرية في بلاد الشام للتخلُّص من حكم العثمانيين، فيقول: «إن كل البلاد الواقعة بين بغداد وحلب منتظرون لقدوم العساكر المصرية المنصورة»، وتشير الوثيقة إلى أن الثورة امتدَّت إلى هيت وعانه، وراوندوز، «إن الخبر القائل: إنهم يريدون الاستيلاء على بغداد، صحيح[1]».

كان انتشار الثورة من بغداد إلى المدن الأخرى سريعًا، ومتخذًا اتجاهات مختلفة؛ ففي الجانب الغربي من بغداد، أعلن زعماء عشيرة العقيل النجدية - التي سبق لبعضهم الاتفاق مع القيادة المصرية في الشام - الثورةَ على علي رضا باشا[2]، وشجَّع تدهورُ الموقف العثماني في بغداد واليَ الموصل المعزولَ يحيى باشا الجليلي[3]، إلى التعاون مع صفوق الجربا شيخ مشايخ قبيلة شمر العربية، والمتحالف مع القيادة المصرية، وتولَّى السلطة في الموصل باسم تلك القيادة[4]، وتعكس الإشاعات التي انتشرتْ بين السكَّان في تلك الآونة - والتي سجَّلتْها التقارير المصرية - مدى ضعف السلطات العثمانية، وحراجة موقف ممثِّلها في

(1) محفظة رقم 238 عابدين، تقرير: وحيد أفندي، عن يوم الاثنين 8 ربيع الآخر 1248.

(2) الوثائق القومية محفظة 235، الوثيقة 198، من محرم 1248، ومحفظة 1248، ودفتر 40 معية تركي، وثيقة 832.

(3) تولى الموصل أول مرة من 1238 إلى 1242هـ/ 1822- 1827م، وتولاها ثانية من 1248 إلى 1249هـ/ 1832- 1834م، وهو آخر مَن تولى الموصل من هذه الأسرة.

(4) الوثائق القومية، محفظة رقم 239 وثيقة 73 بتاريخ 9 جمادى الأولى، وانظر كتابنا: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي (النجف 1975) 203.

بغداد علي رضا، فقد أُشيع أنه اعتصم بقلعة بغداد، وأنه فرَّ من المدينة، وأن أهل بغداد خلعوه، وولوا آخر في منصبه، وأنه لقي مصرعه[1].

وهكذا كانت ثورة عبدالغني آل جميل الشرارة الأولى لاندلاعِ سلسلة من الثورات، شملت مدن العراق، فضلاً عن بغداد نفسها، وهي وإن لم تقضِ على الحكم العثماني في العراق، إلا أنها نجحت في زعزعته، وإرباكه لعدة سنين، ولم تنجحِ السلطة العثمانية في إنهاء هذه الثورات إلا بعد أن استخدمت كل الأسلحة – ومن ضمنها المدفعية – عدة مرات، وبعد أن تكلَّفت في سبيل ذلك كله جهوداً وأموالاً طائلة.

4- ونموذج آخر من علماء بغداد، جدير بالتوقُّف عنده، ذلكم هو العلاَّمة السيد «إبراهيم فصيح الحيدري البغدادي» (1235 – 1299هـ /1820 – 1881م)، فسيرة هذا الرجل العالِم – كما صَوَّرها أقرانه من العلماء الذين ترجموا له – فقيرة خالية إلا من قائمة تآليفه العديدة، وهي مهمة تتوزع على مجالات التفسير، والحديث، والتصوف، والفقه، والعقائد، والنحو، والتاريخ، وأنساب الخيل والإبل، وغير ذلك، وأقصى ما ذكروه عن مناصبه أنه تولَّى نيابة القضاء ببغداد، وأنه صار عضواً في مجلس إدارة الولاية.

وهكذا فقد ظلت سيرته، غير العلمية، محاطةً بشيء من الغموض، وبدا اهتمامُه بالحياة العامَّة فاتراً، وعنايته منصرفةً إلى البحث والتأليف، حتى وَقَفنا على ترجمة جديدة له في كتاب مخطوط ألَّفه السيد سعيد الراوي البغدادي[2]، وتضمن تراجم نخبة من علماء بغداد في العصر العثماني، فإذا بهذه الترجمة تسلِّط ضوءاً جديداً، ومهمَّاً، على حياة العلامة الحيدري السياسية، بل إنها تكشف سراً غريباً من أسرار الدولة العثمانية في حينه، لم يُعرف من قبلُ أو بعدُ، يتعلق بطريقة خلع السلطان عبدالعزيز عن العرش في يوم 6 جمادى الأولى سنة 1293هـ (29 أيار 1876).

وكان المعروف أن خلع السلطان جرى باتفاق بين كل من الصدر الأعظم ووزيري الحربية والبحرية، ومدحت باشا، وشيخ الإسلام حسن خيري، وأن الأخير

---

(1) دار الوثائق القومية والتاريخية، محفظة 238 عابدين، تقرير: وحيد أفندي، عن 8 ربيع الآخر 1248، الوثيقة رقم 68.

(2) حققناه ونشرناه في بغداد، 1997، و2006.

هو الذي أصدر فتوى بوجوب ذلك[34]، إلا أن المخطوطة كشفت بجلاءٍ عن وجود يدٍ أخرى في هذا العمل السياسي؛ إذ قالت في ترجمة السيد إبراهيم فصيح الحيدري المذكورة: «كان قد اشترك في خلع السلطان عبدالعزيز - رحمه الله - حتى إن القلم الذي كتبت فيه فتوى خلعه كان عنده؛ لأنه هو الذي استخرج الفتوى وأعطاها إلى شيخ الإسلام، فلما وقع ما وقع من القبض على مدحت باشا وشيخ الإسلام ومَن له علاقة بمسألة الخلع، جُرِّد المُترجَم مِن رُتبته الممنوحة له من قِبل السلطة، وكان إذ ذاك عضوًا في مجلس الولاية[1]».

وهذه الإشارة الفريدة تثير عدة أسئلة مهمة حول طبيعة صلته بشيخ الإسلام، والظروف التي جعلته يتوصَّل إلى ذلك الاجتماع السري الخطير، الذي وضعت فيه خطة الخلع، وكتبت الفتوى اللازمة لذلك، والأهمية التي احتلَّها بين المجتمعين، وبينهم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ووزراؤه؛ لتترك له - وهو العراقي الوافد - مهمة كتابة الفتوى بقلمه، ولِمَ كان له موقف أصلاً من السلطان عبدالعزيز؟ وهل أن موقفه هذا كان كُرهًا منه للسلطان المذكور، أم رغبة فيمَن تولَّى العرش بعده؟ وهو هنا ابنه مراد، الذي عرف بمراد خان الخامس، تلك أسئلة مهمة، لكنها تبقى دونما جواب؛ بسبب عدم اهتمام مترجميه بتسجيل هذه الجوانب السياسية من حياته.

إن أولئك العلماء البغداديين الذين تناولهم البحث، ليسوا إلا نماذج مختارة لغيرهم من العلماء الذين أدَّوا أدوارًا سياسية، بل عسكرية مهمة، كان لها أثرها العميق في المجتمع العراقي إبَّان القرون الأخيرة، بَيْدَ أن هذه الأدوار ظلت بعيدةً عن دائرة الضوء؛ بسبب عزوف المؤرخين في عصرهم عن كتابة تراجمهم بجوانبها المختلفة، والاقتصار منها على الجانب العلمي أو التعليمي فحسب، ولولا ما كشفت عنه الوثائق غير المنشورة، وبعض الكتب الخطية، لظلت هذه الجوانبُ في طي الكتمان إلى ما شاء الله.

---

(1) الترجمة 25.

محمد امين السويدي دفين بريدة

اسمه ونسبه

آل السُوَيدي أسرة بغدادية عريقة كان لها دور مهم في نهضة الثقافة في العراق في القرنين الأخيرين[1]، وهي تنتسب إلى عشيرة ألبو مُدَلل العباسية الشهيرة المقيمة في نواحي الدُور، في شمالي سامراء، فهو محمد أمين، وكنيته أبو الفوز، بن علي بن محمد سعيد بن عبد الله (وهذا العلامة أول من عرف بالسُويدي) بن حسين بن مرعي بن ناصر الدين (وهو أول من قدم إلى بغداد) بن حسين بن علي بن أحمد بن محمد المدلل (جد عشيرة البو مُدلل في نواحي الدور) بن حسين بن علي بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي بكر بن الفضل (المسترشد) بن أحمد (المستظهر) بن عبد الله (المقتدي) بن محمد (ذخيرة الدين) بن عبد الله (القائم) بن أحمد (المعتضد) بن إسحاق بن جعفر بن أحمد بن الموفق طلحة بن جعفر (المتوكل) بن محمد (المعتصم) بن الرشيد بن محمد بن عبد الله (المنصور) بن محمد (المهدي) بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي[2].

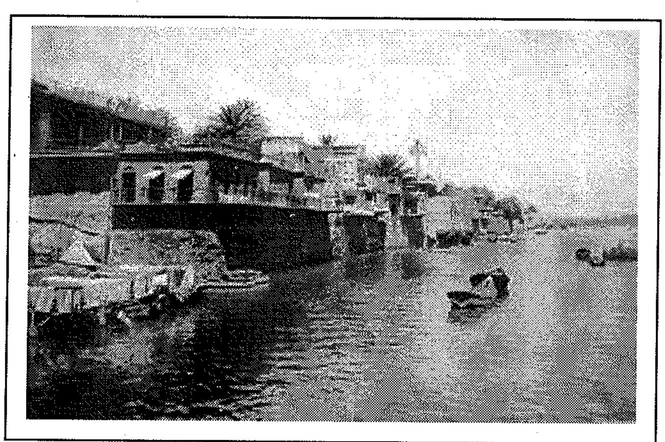
---

(1) عرفنا بتاريخ هذه الأسرة تفصيلا وتراجم أعلامها في كتابنا (عبد الله السويدي سيرته ورحلته) بغداد 1988، ومقدمتنا لكتاب (النفحة المسكية في الرحلة المكية)، تأليف عبد الله السويدي، بتحقيقنا، أبو ظبي 2003، ومقدمتنا لكتاب (تاريخ حوادث بغداد والبصره)، تأليف عبد الرحمن السويدي، بتحقيقنا، بغداد 1987، ومقدمتنا لكتاب حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، تأليف عبد الرحمن السويدي، بتحقيقنا، بيروت 2010، ومقدمتنا لديوان عبد الرحمن السويدي، بتحقيقنا، بمشاركة وليد الأعظمي، بغداد 2000، ومقدمتنا لكتاب ورود حديقة الوزراء في ذكر مواليهم في الزوراء، تأليف محمد سعيد السويدي، بتحقيقنا، دمشق 2012.

(2) عبد الله السويدي: الأمثال السائرة، مصر 1324هـ/1906م. وذكر كاظم الدجيلي أنه رأى نسخة من هذا النسب لدى يوسف أفندي السويدي (المتوفى سنة 1929م) وتاريخ كتابتها يرقى الى سنة 975هـ/1567م، وهي موقعة بتواقيع جماعة من العلماء المشهورين في عصرهم، منهم الشيخ عبد الرحمن الرحبي مفتي الشافعية في بغداد، ومحمد السعيد القادري، نقيب الأشراف، ومحمد رشيد المولى الحكم، أي القاضي ببغداد، والشيخ علاء الدين الموصلي، والشيخ عبد الله الناصري وغيرهم، مجلة لغة العرب، 1912، ص219. قلنا: وقد اطلعنا على نسخة مجددة من هذه الشجرة لدى الأستاذ المحامي علي بدري السويدي في مكتبه ببغداد سنة 2001م.

حياته

ولد محمد أمين في دار أبيه، في محلة عرفت باسم (خضر الياس) في كرخ بغداد، قرب شاطئ دجلة الغربي. وذكر أنه ولد «في أواخر المائتين بعد الألف»[1]، ويتفق هذا مع ما ذكره السيد محمد سعيد بن عبد الغني الراوي في ترجمته إذ قال «كانت ولادته سنة تسع وتسعين بعد المائة والألف»[2]، وذكر الشيخ علي علاء الدين الآلوسي أنه «شرع في التأليف وهو ابن خمس وعشرين، فشرح آنذاك متن والده في العقائد السلفية المسمى بالعقد الثمين»[3]، في حين يعين الشيخ محمود شكري الآلوسي عمره آنذاك بأقل من ثلاثين عاما، ومن محاسن المقادير أن مسودة هذا الشرح ما زالت محفوظة في خزانة الأوقاف ببغداد[4]، وقد رأيناها، فإذا بها قد تم تأليفها سنة 1226هـ/1811م، وإذا ما طرحنا من تاريخ الإتمام هذا 25 سنة، توصلنا إلى أن ولادة الشيخ كانت سنة 1201 أو 1200هـ/1785-1786م على وجه التقريب.



شاطئ محلة خضر الياس حيث ولد محمد أمين السويدي (صورة قديمة)

ومع أننا لا نعلم شيئاً عن طفولة أبي الفوز وصباه، لقلة مترجميه وضآلة ما كتبوه عنه، فإننا نفهم مما ذكره السيد محمود شكري الآلوسي (المتوفى سنة

(1) علي علاء الدين الآلوسي: الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، بغداد 1967، ص87.

(2) تاريخ الأسر العلمية في بغداد، بتحقيقنا، ط2، بغداد 2007، ص201.

(3) المصدر نفسه ص88.

(4) تحت العدد 1023.

1343هـ/1924م) ما يدل على ذكائه ونبوغه المبكر في تحصيل العلم، ومواظبته على الدرس، وإفادته من جمهرة علماء بغداد في عهده. قال «ترعرع في حجر الكمال، وامتص ثدي الفضل والأفضال، وحوى على صغر سنه ما حوى من العلوم، وتضلع بما تضلع من دقائق المنطوق والمفهوم»[1]. ولا شك في أن شرحه كتاب والده المسمى (العقد الثمين)، وهو كتاب ضخم، واسع المطالب، وهو في الخامسة والعشرين من العمر، ليقف دليلا على نبوغه في وقت متقدم من حياته.

أساتذته وشيوخه

نشأ محمد أمين في بيت علم وأدب أضحى عَلماً بين بيوت العلم في بغداد، فكان أول أساتذته الذين أخذ عليهم العلم، وقرأ عليهم الكتب والمتون والشروح، والده العلامة الشيخ علي بن محمد سعيد السويدي المتوفى سنة 1237هـ/1821مدرسة متكاملة من العلم الغزير والأدب الرفيع والخلق المتين، أثنى عليه معاصروه، فقال تلميذه المفسر الشهير أبو الثناء محمود الآلوسي (المتوفى سنة 1270هـ/1854م) في كلمة بليغة جامعه لمناقبه «كان ذلك الشيخ من كبار المتبعين.. كان لأهل السنة برهاناً، وللعلماء المحدثين سلطاناً، ما رأيت أكثر منه حفظاً، ولا أعذب منه لفظاً، ولا أحسن منه وعظاً، ولا أفصح منه لساناً، ولا أوضح منه بياناً، ولا أكمل منه وقاراً، ولا آمن منه جاراً، ولا أكثر منه حلماً، ولا أكبر منه بمعرفة الرجال علماً، ولا أغزر منه عقلا، ولا أوفر منه في فنه فضلاً، ولا أليَن منه جانباً، ولا آنس منه صاحباً..»[2]، فهذه العبارات تحمل توصيفاً دقيقاً للبيئة التي نشأ فيها السويدي، وهي بيئة جمعت بين ركنين متينين متلازمين، هما العلم الرصين، والخلق القويم، فلم يكن غريباً أن يمضي الولد على سُنن أبيه، متأثراً بخلقه، متطبعاً بوقاره، متتلمذاً على يديه، ولم يأل الوالد، وهو الأستاذ في عهده، جهداً في تدريس ولده ما تخصص به من علوم، وأولها علوم القرآن الكريم، من قراءات وتفسير، وعلم الحديث الشريف، لاسيما وهو الذي اشتهر بأنه «شيخ القراء والمحدّثين»[3]، وهو «أعلم أهل مصره بالحديث»[1]، هذا فضلا عن علم

(1) المسك الأذفر ، بغداد 1930، ص82.

(2) غرائب الاغتراب، بغداد 1327، ص 17.

(3) عبد الرزاق البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، دمشق 1413هـ، ج1 ص479.

الفقه وأصوله، و علوم العربية، ومعارف أخرى كالفلك والمنطق والهندسة والحساب، وقد أشار هو نفسه إلى ذلك في أثناء حديثه عن شيوخه، فقال «أروي صحيح البخاري وغيره من كتب السنة قراءة لبعضها وإجازة بباقيها، وكذا سائر ما تجوز وتصح روايته من متون الحديث، صحاحه ومسانيده، وسننه ومعاجمه وأجزاءه ومشيخاته وأماليه وشروحه وكتب أصوله، وكذا جميع ما صحّت روايته وتلقيه من علوم والقراءات والعربية والمعاني والبيان وأصوله والكلام والعروض والمنطق والحكمة والهيئة والهندسة والحساب وغير ذلك عن شيخي ووالدي وأستاذي أبي المعالي الشيخ علي السويدي عن والده المرحوم الشيخ أبي السعود محمد السعيد»[2]. ومن الواضح أن مدة تتلمذ محمد أمين على أبيه العلامة لم تكن محددة، ، ولم تقتصر على مستوى بذاته من التعلم، وإنما استمرت لتشمل كل مستوياته، من المرحلة الأولية وحتى منحه الإجازة في كل من تلك الاختصاصات، ويكفي أن يكون زميله في التلمذة محمود أبو الثناء الآلوسي، الذي سيصبح بعد حين علامة عصره، صاحب تفسير القرآن الشهير (روح المعاني) وغيره من الكتب النفيسة التي ذاع صيتها في العالم الإسلامي.

كما أنه لم يكتف بهذا فحسب، بل اندفع يأخذ العلم عن علماء بغداد الآخرين، «من علماء عصره وأوانه»[3].

فممن تأثر به الشيخ خالد النقشبندي الكردي، وكان هذا قد قدم إلى بغداد سنة 1231هـ/1815م حيث استقر وأنشأ تكيته التي عرفت بالخالدية نسبة إليه[4]، ووجد في تجديد الطريقة النقشبندية سبيلا إلى تقديم نوع من التصوف

---

(1) المسك الأذفر ص73.

(2) ثبت الشيخ محمد أمين السويدي، مخطوط.

(3) عبد الحميد عبادة: العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع، بتحقيقنا، بغداد 2005، ص502.

(4) ولد الشيخ خالد النقشبندي في السليمانية سنة 1190هـ/1776م وقدم إلى بغداد أول مرة سنة 1226هـ/1811م، فاتخذ من إحدى حجرات الحضرة القادرية في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني مقاماً له، إلا أن إقامته هذه لم تمتد إلى أكثر من ستة أشهر، غادرها بعدها إلى السليمانية، ثم عاد إليها بعد نحو خمس سنين ليستقر فيها داعياً إلى الإصلاح حتى مغادرته إياها إلى دمشق سنة 1238هـ/.1822م، حيث توفي بالطاعون هناك سنة 1242هـ/1828م.. ينظر بحثنا: التكية الخالدية في بغداد، ضمن كتابنا: دراسات وثائقية في تاريخ الكرد الحديث وحضارتهم، الطبعة 2، دمشق2011، ص251-469.

يجمع بين النزوع الروحي والعلم الشرعي، فأخذ يدعو إلى إصلاح التصوف من داخله، لتخليصه من الشطح والاشتطاط بالقول، والمظهرية التي رانت على رجاله في القرون الأخيرة، فكان عالما وصوفيا في آن واحد، مؤلفاً ومصلحاً معاً، وقد وجد محمد أمين فيه، وهو لما يزل شاباً في الخامسة والعشرين من عمره، الرمز الذي يتوافق فيه العلم والروح، فأعجب به، ودافع عنه ضد منتقديه من أتباع الطرق الصوفية المنافسة، لاسيما الطريقة القادرية، كما ألف كتاباً رد فيه على أخي والي الموصل، أبي سعيد عثمان بك بن سليمان بك الجليلي (المتوفى سنة 1245هـ/1829م) الذي كان قد ألف كتاباً يعيب فيه النقشبندي ويقلل من قدره، بل ويكفره[1].

وعن طريق والده، عن جده العلامة محمد سعيد (المتوفى سنة 1223هـ/ 1808م)، تلقى الشيخ السويدي جميع مرويات الشيخ العلامة محمد مرتضى الحسيني الزبيدي مؤلف كتاب (تاج العروس من جواهر القاموس)، وكان جده هذا قد التقى بالزبيدي في القاهرة مرتين، الأولى سنة 1194هـ/1780م، عند الاحتفال بإنجاز كتابه (التاج) في داره في غيط المَعدِّية[2]، حيث كتب له إجازة مختصرة، له خاصة ولأخيه الشيخ عبد الرحمن السويدي، ولأولاده، وأحفاده، وأسباطه. ومرة أخرى، في داره في سُوَيقة لالا، فأعاد إجازته له، وزاد عليها لمن ولد للسويدي بعد 1194هـ، ومن سيولد له، على مذهب من يرى ذلك، وكان تاريخ الإجازة في 10 ذي الحجة 1204هـ/ 1789م[3]، أي بعد ولادة أبي الفوز محمد أمين بعدة سنين، ولهذا فإننا نجده يضم الزبيدي إلى جملة شيوخه على الرغم من أنه- أي محمد أمين- لم يكن إلا طفلاً صغيراً. يقول «وأروي صحيح البخاري أيضاً عالياً عن شيخنا الشيخ أبي الفيض محمد المرتضى ابن محمد الزبيدي الزيدي الحنفي نزيل مصر القاهرة وذلك فيما أجازني به وكتبه بخطه من مصر عن شيخه الإمام المسند المعمر شمس الدين محمد بن علاء الدين المزجاجي الزبيدي الحنفي»[4].

---

(1) عثمان بك الجليلي، أديب موصلي، له مؤلفات في الأدب، منها (الحجة على من زاد على ابن حجة)، وتوفي سنة 1245هـ.

(2) تاج العروس، المقدمة ص(ي د)، طبعة الكويت 1965.

(3) نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج8، 1928، ص 752.

(4) ثبت الشيخ محمد أمين السويدي، مخطوط.

علمه

كان من أهم الظواهر التي شهدها عصر السويدي، أن أخذت الخلافات الفكرية تطل برأسها على الحياة العامة متمثلة بتصنيف الكتب في الرد على هذا الفريق أو ذاك، أو في الأقل عقد مجالس المناظرة للغرض نفسه، وفي هذه الكتب والمناظرات يلقي كل فريق ما عنده من رأي، هجوماً أو دفاعاً عما يعتقد أنه الصواب، بل بلغ بالبعض إلى أن يبعث برسائل إلى علماء بلد آخر يطلب مناظرته فيما يطرح من رأي، وكان للسويدي في هذا المجال صَولات لما عُرف عنه من مُكنة علمية وسعة اطلاع على مختلف الحجج التي يعتمدها أصحاب الفرق المناظرة، حتى اشتهر بذلك بين علماء عصره، قال الشيخ علي علاء الدين الآلوسي «كم له مع الفرق الضالة من مطارحات عظيمة، ومجادلات وخيمة، وقد جلب فيها عليهم الويل والبلاء، وأوقعهم في مهاوي الردى وأودية العناء، ولم يناظر أولئك من الفرق الضالة إلاّ وأفحمه وأظهره الله تعالى بما فتح الله عليه وألهمه، وأُمن بفضله القريب والبعيد، وأذعن له الخصم الألد والجحود العنيد»[1].

وبلغت شهرته أسماع والي بغداد داود باشا، وكان هذا عالماً أديباً قريباً من أوساط علماء مدينته، فكان يلجأ إليه في الرد على دعاوى الخصوم، فحينما قام يوسف بن أحمد بن إبراهيم الأوالي بتأليف كتابه (سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد) يرد فيه على عز الدين ابن أبي الحديد في بعض المسائل في شرحه لكتاب (نهج البلاغة)، أحال داود باشا الكتاب من فوره إلى الشيخ السويدي طالباً منه شرحه ورده، فألف الشيخ كتاباً ضخماً سماه (الصارم الحديد في الرد على صاحب سلاسل الحديد) شرح فيه الأصل، كما يقول، شرحاً «يبين مفاسده ويحل معاقده ويهدم بنيانه، وينقضه من أسسه وجدرانه». وله رسائل يرد فيها على بعض الطلبة، وهي تدل على طول أناة، وقوة في الرد والإقناع، فضلا عن إطلاع واسع على مصادر البحث[2].

وكان السويدي إلى جانب ذلك عالماً بالأنساب، وقد ألف في حياة والده سنة 1229هـ/1814م كتاباً فيه سماه (سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب)، اعتمد

---

(1) الدر المنتثر ص90.

(2) وبعد كتابة هذا البحث، بلغنا أن السيد محمد محمود داود الصميدعي ناقش أطروحته بعنوان (محمد أمين السويدي البغدادي وآراؤه العقدية في الإلهيات) التي تقدم بها إلى كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية ببغداد سنة 1434هـ/2013.

فيه على كتاب (نهاية الأرب) للشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله القلقشندي المصري، ولكنه رتبه على نحو جديد، مع إضافات وملاحق، ولم يرتبه على حروف المعجم كما هو الأصل، وإنما وصل به أواخر القبائل بأوائلها بخطوط تمتد من الآباء إلى الأبناء، واضعاً كل اسم في دائرة، على شكل مشجرات، وحذف من (النهاية) قليلا، وأضاف إليها كلاماً كثيراً، والفصول التاريخية التي ألحقها بالكتاب تنم عن اطلاع جيد، وفحص دقيق لكتب التواريخ والأخبار، مع ثقافة عامة واسعة(1).

وكان للشيخ مُكنة ظاهرة في علمي المنطق والكلام، وله فيهما رسائل، لكنه لم يكن يميل إلى الفلسفة، حتى أنه نظم أرجوزة يهجو فيها الفلاسفة ويرد عليهم، إلا أنه، بالمقابل، كان يميل إلى التصوف، وحاول أن يوفق بين التصوف وبين الشريعة في رسالته التي سماها (الكوكب الزاهر في الفرق بين علمي الباطن والظاهر) داعيا- كما فعل غيره- إلى نفي وجود تناقض حقيقي بين مجالي المعرفة هذين.

وللشيخ – بعد هذا- اطلاع على الفلك والرياضيات، وله كتاب جيد في هذا الباب سماه (الجواهر واليواقيت في معرفة القبلة والمواقيت) أتي فيه على مباحث مهمة في معرفة الشهور العربية و (الرومية) وأوائلها، ومعرفة القبلة وأوقات الصلاة، وتحدث فيه أيضاً عن حلول الشمس في البروج، ودرجتها من المنازل، ومعرفة القمر في البروج والكواكب، وغير ذلك من علوم الهيئة القديمة(2).

وكان – رحمه الله- عالماً في اللغة متبحِّراً في فنونها، حتى قيل أنه كان يكتب عدة صفحات في شرح عبارة لغوية واحدة، أو مناقشة أحد اللغويين السابقين، ولم يكن ينتهي من مسألة إلا بعد أن يشبعها درساً وبحثاً، مع شواهد عديدة من كتب شتى في اللغة والأدب والشعر.

شعره

أما شعره فلم نعثر على شيء منه، باستثناء بيت واحد في مطلع قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، هو:

سَما في امتداحي الفكرُ والحسُّ   وراقَ رقيقُ الشِّعر واتقّد الحسُّ

---

(1) سبائك الذهب ص2.

(2) عز الدين علم الدين: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ج8، دمشق 1928، ص751.

وقد ورد عنه أنه «له نظم قليل»[1]، وقال السيد محمود شكري الآلوسي «له نظم أرق من النسيم، وألذ من العافية لقلب السقيم»[2].

وأثنى السيد محمد سعيد الراوي على قصيدته المذكورة في مدح النبي (ص)، وعدها «من نظمه الفائق»[3]. وقال عبادة «وللمرحوم المترجم شعر رقيق مثبوت في المجاميع»[4]، وكنا قد أشرنا إلى أن من عنوانات كتبه ورسائله (أرجوزة في هجو الفلاسفة وردهم) إلا أننا لم نوفق في العثور عليها.

نثره

وأسلوب الشيخ في النثر الفني شبيه بأساليب علماء عصره، من حيث اصطناع السجع، والتكلف في اختيار الألفاظ، أما ما قيل من أنه له «نثر رائق، ونظم فائق، ومقامات أدبية»[5]، فلم نجد منه شيئاً، ورسالته التي ألفها في مولد النبي صلى الله عليه وسلم لا تخرج في أسلوبها عن كتب المواليد المعروفة، المتداولة في عصره، على الرغم من قول الآلوسي أنه «أتى فيها بعبارات تشتاق إليها النفس، ويلتذ بتلاوتها الحس»[6].

هذا مع أن هناك اختلافاً ظاهراً بين أسلوب الشيخ الفني واسلوبه العلمي الذي ألف فيه سائر كتبه ورسائله، فنحن نلاحظ في الأخير طلاقة وميل إلى سلوك أقرب الطرق إلى إفهام القارئ، وأيسرها إلى إقناعه، ومؤلفاته الدينية واللغوية تشهد له بذلك.

ومن نثره يمتدح والي بغداد داود باشا (1232- 1247هـ/1817-1831م) «شمس المجد على الإطلاق، بل بدر جميع المدن في الإشراق، مركز دائرة الكمال، فلك العرفان والأفضال، ذي الفضائل التي غدا بها حادي عشر العقول، والفواضل التي لو تزيَّن بها الدهر لصارت له غرر وحُجُول، إن ذكر الذكاء فهو ذكاؤه، وإن

---

(1) قائمة بمؤلفات السويدي، ضمن مجموع مخطوط،

(2) المسك الأذفر ص 83،

(3) تاريخ الأسر العلمية، بتحقيقنا، ط2، بغداد 2007، ص201.

(4) العقد اللامع ص504.

(5) الدر المنتثر ص89.

(6) المسك الأذفر ص83.

وصف الفضاء فهو سماؤه، وإذا أجيلت الأقداح على العلوم فهو رقيبها ومعدنها، ..الخ»[1].

مظهره

انفرد الشيخ علي علاء الدين الآلوسي بوصف هيئته ومظهره الخارجي، فقال«كان المترجم- عليه الرحمة- بطيناً ضخم الجثة، أسمر اللون، بياض لحيته أكثر من سوادها»[2].

وفاته

وفي عام 1246هـ/1830م، وهي السنة الأخيرة من ولاية داود باشا، وسنة غرق بغداد وانتشار الطاعون فيها، سافر الشيخ السويدي إلى مكة حاجاً، وبعد فراغه من أداء المناسك، توجه قافلاً إلى بغداد عن طريق نجد، إلا أنه توفي وهو في قرية (بريدة)[3]، فدفن فيها، ويصف الشيخ علي الآلوسي هذه الحادثة وصفاً أدبياً على عادته، فيقول «أنه عليه الرحمة لما قرب أجله المحتوم، وآن يومه المعلوم، اشتاقت أنفاسه إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، فخرج إذّ ذاك نحو ما قصد، وطلبه من الواحد الأحد، وأعطاه الله تعالى مُناه، ويَسَّر ما تمناه، فأدى فريضة الحج، وتشرف بزمزم والمقام، ومرغ أجفان عينيه بتراب مرقد مصباح الظلام، عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأكمل السلام، ثم قصد العَود إلى وطنه مربع الأولياء، ومأوى العلماء والفضلاء، فتوجه إلى دياره من طريق نجد، وما درى أنه سيشق له اللحد، فلما قطع من أرض نجد منازل عديدة، ووصل إلى قرية من قراها تسمى (بريدة)، لبت روحه الكريمة داعي الله، واشتاقت نفسه لملاقاة مولاه، فتوفي في تلك القرية، ودفن فيها، بعد أن صلى عليه غالب أهليها، .. فلما جاء خبره إلى بغداد، توالت على أهلها الأحزان والأنكاد، وتألم لفقده الخاص والعام، وتأثرت لموته قلوب الكرام، حيث عادت المدارس بعد

---

(1) الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد، الورقة 3.

(2) الدر المنتثر ص91.

(3) تقع بريدة على الجانب الأيسر لوادي الرمة على ارتفاع ما بين 600-650 عن سطح البحر، وهي قاعدة منطقة القصيم ومركز إمارتها، وتتميز بوفرة المياه العذبة والخضرة، وهي اليوم مدينة مزدهرة يزيد عدد سكانها على نصف مليون نسمة.

فقده كالدوارس، ولطمت الفضائل بأكف الأسى وجوهها العوابس، وكان ذلك في سنة 1246»[1].

ويؤكد الشيخ محمود شكري الآلوسي تاريخ الوفاة هذا إذ يقول «هي السنة التي وقع فيها الطاعون، وجرى فيها من العيون العيون، وزادت دجلة فيها زيادة لم تعهد، فاتكسر لذلك كل سد، وأحاط ببغداد والبلاد ..»[2].

وذهب باحثون متأخرون[3] إلى القول بأن وفاته جرت سنة 1244هـ/1828م، وهو رأي لا نؤيده، لأن له رسالتان ألفهما في سنة 1245هـ، ويزيد الأمر تحديداً كتابه (مناسك الحج) الذي ألفه أثناء حجه، إذ جاء فيه «يقول العبد المفتقر إلى عفو الله الأبدي محمد أمين السويدي: لما عزمت على حج بيت الله الحرام في السنة 1246»، وفي آخره «تمت بعون الله وتوفيقه في اليوم الثالث عشر من شهر رمضان سنة 1246 من الهجرة النبوية»[4]، فذلك يعني أنه كان حياً في هذا التاريخ، وإنه كان في بريدة بعده، أي بعد 13 رمضان سنة 1246هـ/24 شباط 1831م، وهذا يعني، من ثم، أن توجهه إلى بغداد لم يكن بعد انتهاء موسم الحج مباشرة، بل بعد مكوثه في الديار الحجازية، مجاوراً متبركاً عدة أشهر، وعليه فإن وفاته كانت في أحد أيام الأشهر الأربعة الأخيرة من السنة 1246هـ دون ريب (الأشهر شباط- حزيران من سنة 1831م). وليس ببعيد أن يكون تريثه في مكة أو في بريدة رغبة منه في أن تكون عودته بعد انقضاء صفحة الطاعون في العراق.

ويبدو أن وفاة الشيخ في السنة المذكورة، وهي سنة فشو الطاعون في بغداد، قد دفع بالبعض إلى القول بأنه توفي مطعوناً، جاء في كلمة لناسخ كتاب السويدي المسمى (الكواكب الساطعة في بيان المقاصد النافعة) أنه من «تأليف العالم العلامة، والبحر الفهامة، الشيخ الفاضل السيد أمين أفندي السويدي رحمه الله تعالى، وقد توفي في الطاعون سنة 1246، وبذلك توفي جملة من العلماء رحمهم الله تعالى»[5]. في حين

---

(1) الدر المنتثر ص90.

(2) المسك الأذفر ص84.

(3) كاظم الدجيلي، مجلة لغة العرب، ج2 ص452، وعباس العزاوي: تاريخ الأدب العربي في العراق ج2 ص48.

(4) مناسك الحج، مخطوط.

(5) الكواكب الساطعة، نسخة خطية محفوظة في مكتبة دار التربية الإسلامية ببغداد، مجموعة عباس حلمي القصاب. وقد صنعنا فهرسا لهذه المكتبة، مجلة المورد، المجلد 6 (1977) العدد

نعلم أن الطاعون لم يتجاوز مدينة الكويت[1]، وأن الشيخ توفي في نجد قبل وصوله إلى وطنه كما ذكرنا. وجاء في ورقة العنوان التي في أول نسخة أخرى من مخطوطة (الكواكب الساطعة) محفوظة في المكتبة القادرية ببغداد، تحت العدد 574، تعليقة تقدم ضوءاً جديداً على ظروف معاناته في أيامه الأخيرة، وهي «وقد كانت يد الشارح اليمنى مقطوعة الأصابع، وكان يكتب باليسرى، توفي عليه الرحمة بعد عودته من الحج في جبل شمَّر[2] أو عنيزة[3] أو في ذلك الطريق بعلة غير الطاعون سنة 1246». ولا نعلم سبب قطع أصابع يده، رحمه الله، ولا طبيعة العلة التي أودت به، وما إذا كانت وفاته لها تعلق بالحادثة التي تسببت في قطع أصابعه، وعلى أية فإن النص يكشف عن صبره وجَلَده، وإصراره على الكتابة في ظل ظروف بالغة الصعوبة، وهو في صحراء مجدبة في طريق عودته إلى وطنه.



مبنى على طراز تراثي في بريدة

مكتبته

في مؤلفات الشيخ ورسائله، وهي عديدة ومتنوعة، بيان جلي بسعة اطلاعه، وكثرة

---

1 ، ص233-270 ، والعدد2 ص265- 298 وتضم هذه مجموعة القصاب 165 مخطوطاً، من سائر مخطوطات المكتبة.

(1) دخل الطاعون بغداد، قادماً من إيران في أواسط رمضان 1246هـ/ أواخر آذار من سنة 1831م، ووصل إلى الكويت في شتاء ذلك العام.

(2) جبل شمر في منطقة حائل في شمال بريدة، على طريق المتوجه إلى العراق.

(3) جبل محجة عنزة يبعد عن حائل جنوباً حيث جبل شمر بنحو 260 كم.

مقروءاته، وتنوع دراساته وملاحظاته، ذلك أننا نجد في ثناياها شواهد عديدة، ونقول كثيرة من مختلف الدواوين، وكتب اللغة والمعاجم، وكتب المنطق والكلام، فضلا عن كتب العلوم الشرعية، بل أن بين مصادره كتب نادرة، وتصائيف عزيزة الوجود، ورسائل نفيسة، وهو عندما سئل عن مسئلة في الإمامة، وجدناه يجيب بكل ثقة «لم أر من صرح بهذه المسألة من فقهاء الحنفية في كتبهم الموجودة عندي»[1] مما دل على طول ملازمته للكتب، وكثرة ما احتوته خزانته منها. ومن المؤسف أن تتبدد محتويات هذه الخزانة بعد وفاته، مثلها في ذلك مثل معظم خزائن العلماء، ومع ذلك فقد وقفنا على عدد من الكتب عليها تمليكات باسمه، يظهر أنها كانت يوماً من تلك المحتويات، ثم آل جانب منها إلى ابنته نائلة[2]، وإلى أخته صالحة، وإلى زوجته حافظة، وآخرين من أسرته، ووصل بعض هذه المخطوطات إلى المكتبة القادرية العامة في بغداد، وإلى غيرها من المكتبات، وهي:

1- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن. تأليف زكريا بن أحمد الأنصاري السبكي. آل إلى محمد بن عبد الرحيم السويدي سنة 1248، وصالحة بنت علي السويدي، وهي أخت محمد أمين، محفوظ تحت العدد 104.

2- مطارب الصالحين الطالبين الحق ومهارب الطالحين المبتدعين غير الحق. تأليف محمد بن مراد، أبي الفضل، آل إلى حافظة الخليل[3]، محفوظ تحت العدد 805

3- كنز الناظر في مختصر الزواجر. تأليف محمد بن علي بن قاسم البيروتي. آل إلى ابنته نائلة[4]، تحت العدد 749

4- رسالة في الرد على القزلباشية. تأليف حسين بن عبد الله الشيرواني، آل إلى صالح السويدي بالشراء سنة 1246هـ، أي أنه بيع بعد وفاة محمد أمين من تركته. تحت العدد 1447هـ.

5- كشف الكشاف. تأليف عمر بن عبد الرحمن الفارسي. آل إلى محمد سعيد

---

(1) رسالة فيمن يصح أن يكون إماماً ولا يصح أن يكون مأموماً، مخطوط.

(2) ينظر مثلا كتابنا: الآثار الخطية في المكتبة القادرية ج1 ص131وج3 ص105 و140

(3) الاثار الخطية ج2 ص498

(4) الآثار الخطية ج3 ص105

بن محمد أمين مفتي بغداد سنة 1252هـ. مخطوط في المكتبة المركزية لجامعة صلاح الدين في أربيل تحت العدد 314.

والله تعالى أعلم بمصير سائر كتب هذه المكتبة الغنية.

مدرسته

للمدارس في بغداد أوقاف مرصدة، وقفها مؤسسوها وغيرهم من أهل الخير، للإنفاق على العاملين عليها، ومنهم المدرسون، ولم يتخذ السويدي إحدى هذه المدارس موئلا لتدريسه، ومن ثم فإنه لم يكن يتقاضى عن عمله أجراً من وقف أو نحوه، مفضلا أن يلتقي بطلبته في بيته، وقد وصف السيد محمود شكري الآلوسي هذه الدار بقوله «كانت رصينة البناء، واسعة الأرجاء، وكانت طبقتين: عليا وسفلى»[1]. وذكر السيد محمد سعيد الراوي أن موضع التدريس من البيت كان يشغل ثلاث غرف في الطبقة العليا من غربيه[2]. ومع مرور الزمن تحول البيت إلى مدرسة، وقصدها الطبة لتلقي العلم في حجراتها، وقد جرى افتتاحها في سنة 1239هـ/ 1823م، ويقع هذا التاريخ في مدة حكم والي بغداد داود باشا، بل المدة التي شهدت عناية هذا الوالي بتعمير المساجد في بغداد، فكان أن عمره ووقف عنده ثلاثة دكاكين للإنفاق عليه، وسماها السيد عبد الغني الراوي مدرسة «جامع داود باشا الشهيرة بخضر الياس»[3]

وأرخ أحد الشعراء تاريخ تحولها إلى مسجد ببيت هو:

مُذ حَلَّ فيها العلم أرَّختُها بُشرى لدار الدَرس فيها أمين

سنة 1239هـ

وكان ممن تخرج فيها العالم المؤرخ عبد الرحمن حلمي العباسي السهروردي (المتوفى سنة 1287هـ/1870م) قال «شيخي المحقق.. قرأت عليه العقائد والأصول والحديث الشريف وسائر العلوم الأخرى، ثم لما كملت أجازني بنص إجازته بقلمه وكلامه سنة 1244»[4]. وآخر من تولى التدريس فيها هو الشيخ

(1) مساجد بغداد وآثارها ص113.

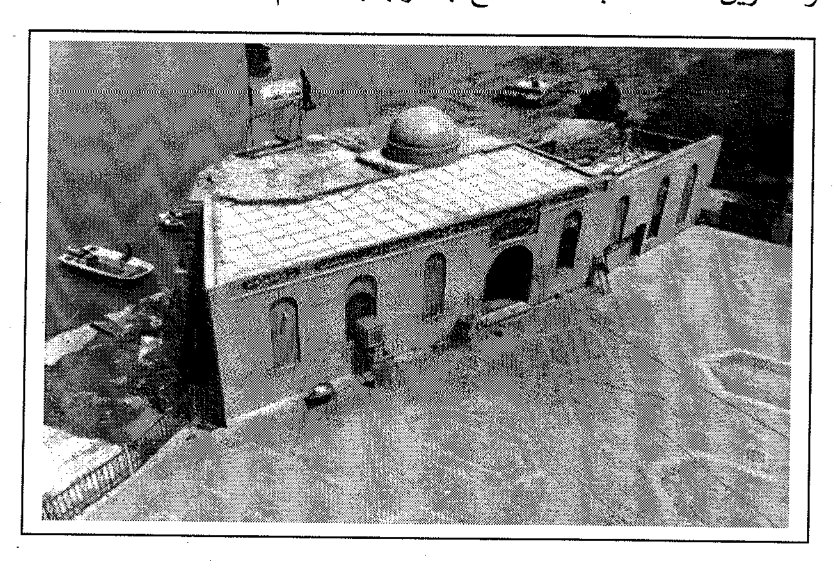
(2) خير الزاد في تاريخ جوامع ومساجد بغداد، بتحقينا، بغداد 2006، ص403.

(3) تاريخ الأسر العلمية في بغداد، بتحقيقنا، ص93.

(4) عبد الرحمن حلمي العباسي السهروردي: تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة، بتحقيقنا، بغداد 1997م، ص84.

أحمد بن السيد عبد الغني الراوي (المتوفى سنة 1382هـ/1962م)، ثم الغي التدريس سنة 1367هـ/1937م وأصبحت مسجداً جامعاً، عرف بمسجد خضر الياس، لوقوعه قرب مقام يسمى بهذا الاسم يقع على شاطئ دجلة القريب.[1]

وقد أزيل هذا المسجد عند فتح جسر باب المعظم سنة 1975.



مقام خضر الياس في كرخ بغداد وكانت بقربه مدرسة محمد أمين السويدي

ذريته

تزوج الشيخ السويدي من امرأة اسمها (حافظة الخليل)[2]، من آل مصطفى الخليل، الأسرة المعروفة في بغداد والحلة[3]، على ما ورد اسمها مالكة لكتاب من خزانة كتبه[4]. وأنجب منها أولاداً ذكوراً ماتوا جميعاً في حياته، أما من الأناث فقد

---

(1) إبراهيم الدروبي: البغداديون أخبارهم ومجالسهم، بغداد 1958، ص312.

(2) مناسك الحج، مخطوط.

(3) أسرة معروفة هاجر أسلافها من مدينة حماة إلى حديثة، على الفرات، ثم استقروا في بغداد إبان النصف الأول من القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر عشر للميلاد)، وبرز منهم السيد إسماعيل المعروف بالحموي، الذي تولى الإفتاء ببغداد، وابنه خليل الذي تولاه أيضاً، ولخليل ولدان، أحدهما محمد، وهو جد آل الطبقجلي، والآخر مصطفى، وهو الذي عرفت أسرته باسمه فقيل لها آل مصطفى الخليل، وكان لمصطفى هذا دار في الكرخ وأخرى في الحلة، عُدتا مقصدا لشعراء عصره وأدبائه.

(4) كتابنا: الآثار الخطية في المكتبة القادرية ج3 ص141.

رزق ببنت سماها (نائلة)[1]، والظاهر أنها كانت كبرى بناته، إن وجدت له بنات غيرها، بدليل تملكها لكتبه بعد وفاته، وكانت كل من أمه وزوجته المذكورة قد أوصيتاه- قبل توجهه إلى الحج- بأن يضحي لهما في مكة ففعل[2].

آثاره

كان الشيخ منصرفاً إلى التأليف على الرغم من قيامه بالتدريس، وقد نوه مترجموه بذلك، فقال الشيخ علي علاء الدين الآلوسي «لم يزل -رحمه الله- يصرف الأوقات في التصانيف والتأليفات حتى ألف من الأسفار نحو وَقر بعير، وأشبع الكتب من التحرير والتحبير»[3].

فمن الكتب التي ألفها:

1- التوضيح والتبيين لمسائل العقد الثمين في بيان مسائل الدين، والعقد الثمين كتاب ألفه والده الشيخ علي السويدي سنة 1214هـ/1799م، ويدور حول نبذ البدع المنتشرة في عصره، لاسيما السحر وسكنى المقابر والاغتسال بالآبار طلباً لبركاتها، وأمثال ذلك مما لا أصل له في الدين، وقد شرحه أبو الفوز في حياة أبيه، وكان يومذاك شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وفرغ منه في 15 ذي الحجة سنة 1226هـ/1811م، فجاء الكتاب غنياً بمادته العلمية، معززاً لأفكار مؤلف أصله، أي والده، «فظفر يومئذ بطارفه وتالده»، فكان كما وصفه من رآه «كتاباً تشد إليه الرواحل، وتقطع دونه المنازل»[4]. وأهم ما جاء في الشرح أنه عد من واجبات الإمام محاربة مثل تلك البدع وإزالتها من المجتمع.

وأول الكتاب «الحمد لله المذكور بكل لسان، المعبود بكل مكان، الواجب وجوده بدلالة البرهان المنزه عن الحدوث والإمكان..»، ومسودته التي بخط المؤلف محفوظة في مكتبة الأوقاف ببغداد تحت العدد 7023، وعدد أوراقها 317 ورقة،

---

(1) الدر المنتثر ص90.

(2) جاء في تعليق لمحمد أمين السويدي على الصفحة الأولى من كتابه (مناسك الحج) ما نصه «أوصتني والدتي أن أضحي لها أضحية في مكة المشرفة، وكذلك أوصتني زوجتي حافظة"، وعلى حاشية الصفحة بالخط نفسه «اشتريت الضحايا كل واحدة في ريال، والباقي نرجعه إلى أهله».

(3) الدر المنتثر ص88، وينظر المسك الأذفر ص83.

(4) المسك الأذفر ص82.

على بعضها شطب وتبديل وإضافات[1]. ومنه نسخ اخرى في المكتبة نفسها ضمن مجموعات تحت الأعداد 7203، و13818، و9957[2]، ومنه نسخة أخرى، نسخت سنة 1299هـ/1881م محفوظة في المكتبة القادرية في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد، تحت العدد 363، ويبلغ عدد صفحاتها 454 ورقة[3].

2- المنح الإلهية في شرح تخميس اللامية، والتخميس لوالده المذكور، أما اللامية فهي للبوصيري، وهو «مجلد ضخم»[4].

3- سماع المواهب الإلهية[5]. ولعله سابقه.

4 – سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب. ألفه سنة 1229هـ/1813م[6]، وأتمه في 16 شوال منها، أوله «الحمد لله الذي خلق الخلق فاختار منهم العرب، واختصهم بأن جعلهم قبائل وشعب، وميزهم بأن رفع بهم منار الأدب». منه نسخ خطية عديدة، منها في المكتبة القادرية العامة ببغداد، تحت العدد 1261، في 61 ورقة، وفي مكتبة المتحف البريطاني تحت العدد 1543، وفي مكتبة جون رايلند في مانشستر تحت العدد 256(718)، في 57 ورقة[7]. وجد الكتاب قبولاً واسعاً لدى المعنيين بشؤون الأنساب في عصره وما تلاه، فكان من بين أقدم المطبوعات التي طبعت في بغداد، والقاهرة، والهند. وبات، لاسيما في أوساط القبائل نفسها، بمثابة الحجة المقبولة التي يحتج بها في كل خلاف ينشأ في مسألة نسبية. طبع

---

(1) اسماعيل باشا البغدادي: إيضاح المكنون ج2 ص105 وأسعد طلس: الكشاف عن خزائن الأوقاف ص 127، وقد وهم طلس فذكر أنه ألفه سنة1138هـ، والصحيح الذي في المخطوط نفسه أنه ألفه في السنة التي أثبتناها.

(2) فهرس المخطوطات العربية ج2 ص120.

(3) طبع الكتاب في المطبعة الميمنية في القاهرة سنة 1325هـ حقق عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الشميسان كتاب التوضيح والتبيين ، متخذا إياه موضوعا لنيل درجة الدكتوراه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة سنة 1417.

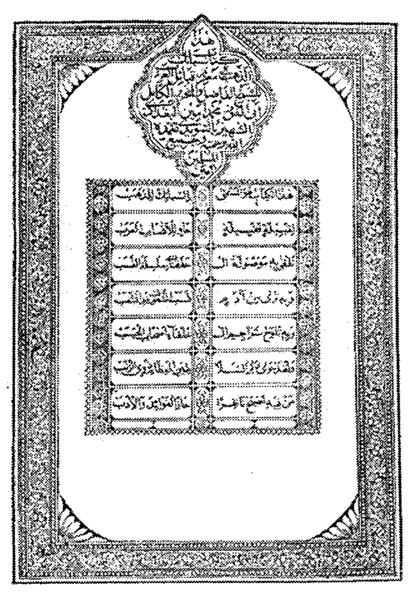
(4) قائمة بمؤلفات السويدي، ضمن مجموع مخطوط. وينظر تاريخ الأسر العلمية ص199.

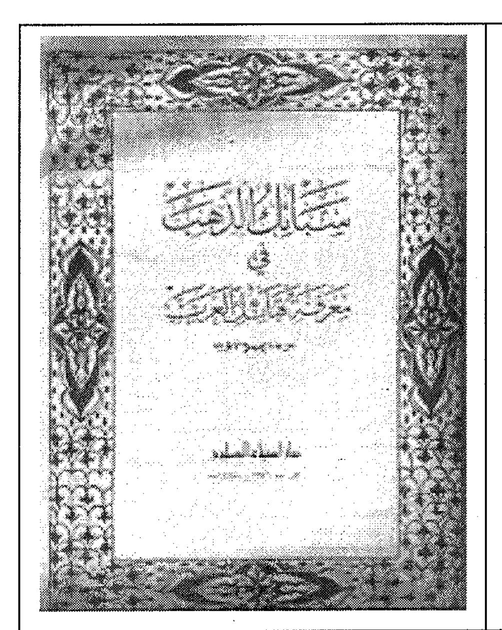
(5) عبد الحميد عبادة: العقد اللامع ص504.

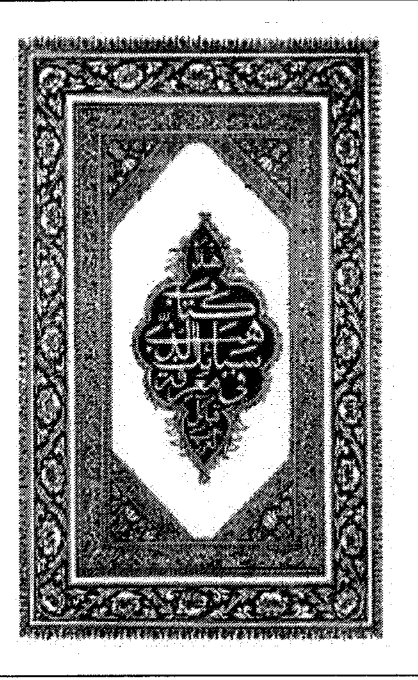
(6) تقع سنة 1229هـ في مدة حكم السلطان محمود الثاني، في حين جاء في المطبوع من سبائك الذهب ذكر السلطانين عبد المجيد وعبد العزيز ، وهذا من عمل ناسخ أو ناشر متأخر، فإن سنة تولي عبد المجيد سنة 1255هـ، وعبد العزيز سنة 1277هـ، أي بعد وفاة السويدي بمدة طويلة.

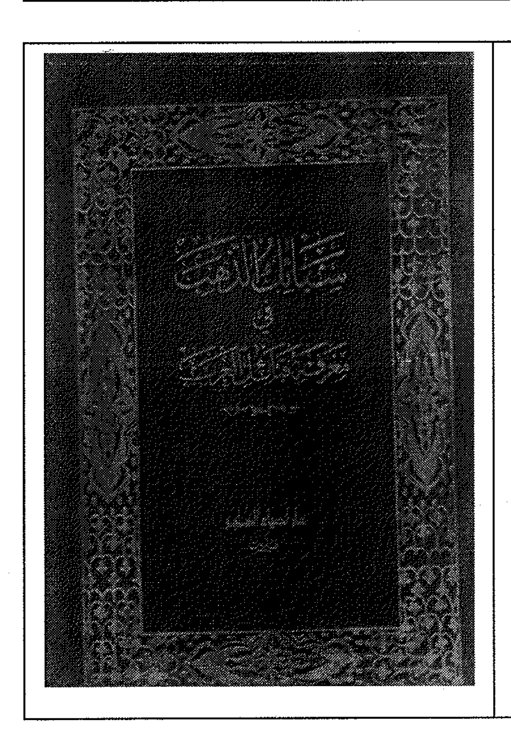
(7) كتابنا : التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، ط2: لندن 2009، ص229- 231.

على الحجر ببغداد، سنة 1280هـ/1863م ثم أعيد طبعه في بومبي بالهند سنة 1296هـ/1878م، وفي القاهرة وبغداد بالتصوير (أوفسيت) غير مرة.











طبعات مختلفة لكتاب (سبائك الذهب في أنساب العرب)

4- مُعين الصُعلوك على السَّير والسلوك إلى ملك الملوك، وهو مجلد ضخم في التصوف، شرح فيه كتاب (السير والسلوك إلى ملك الملوك) تأليف قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي المتوفى سنة 1109هـ/1697م، شرحاً وافيا موضحاً لغرضه، محفزاً لقارئه أن يسلك أقوم السلوك إلى الله تعالى بأيسر سبيل، فهو يمكن أن يعد من كتب التربية الإسلامية المثلى[1]. وأوله «الحمد لله الذي طهّر قلوب أوليائه من ظلمات الأغيار.. أما بعد فيقول .. أبو الفوز محمد أمين الشهير بالسُويدي إذا كان العلم بالله تعالى من أعظم العلوم قدراً.. وَرَد في رَوّعي الوارد الرحماني .. بأن أشرح كتاب السير والسلوك إلى ملك الملوك تأليف مولانا الشيخ قاسم الخاني الذي ألفه في طريقة الخلوية شرحاً يكشف الحجاب عن وجوه خرائده». منه نسخة خطية في خزانة السيد محمد سعيد بن عبد الغني الراوي ببغداد[2].

5- الجواهر واليواقيت في معرفة القبلة والمواقيت، وهو كتاب متوسط رتبه على ثمانية أبواب، الأول في معرفة الشهور العربية وأوائلها، والثاني في معرفة

(1) كنا قد صورنا من هذا المخطوط نسخة، وشرعنا في تحقيقها، ثم أعرناها لبعض طلبتنا، فلم يعدها بل أنكرها بالكلية، عامله الله بعدله، ولم يتيسرلنا أن نصورها مرة أخرى.

(2) كتابنا: مخطوطات خزانة السيد محمد سعيد الراوي، بغداد 2005، ص112.

الشهور الرومية وأوائلها، والثالث في معرفة أوقات الصلاة، والرابع في معرفة القبلة، والخامس في حلول الشمس في البروج ودرجتها من المنازل، والسادس في بيان معرفة حلول القمر في البروج، والسابع في تعريف ما يقع في هذه الرسالة من الكواكب، والثامن في الأحكام الواقعة في الأشهر الرومية، وفيه إثنا عشر فصلاً»[1].

أوله «الحمد لله الذي خلق سبع سموات وزيَّنها بالثواقب السيارة.. لما كانت معرفة القبلة وأوقات الصلاة». منه نسخة في المركز الوطني للمخطوطات ببغداد تحت العدد 8705، نسخت سنة 1300هـ/1882م ويقع في 39 ورقة.

6- السهم الصائب لمن سَمَّى الصالح بالمبتدع الكاذب، أو دفع الظلوم في عرض هذا المظلوم، أو القول الصواب في رد ما يسمى بتحرير الخطاب. وهو كتاب ألفه في الرد على رسالة الشيخ معروف النودهي البرزنجي المسماة (تحرير الخطاب)، وشرح عثمان بك بن سليمان الجليلي عليها، المسمى (دين الله الغالب على المنكر المبتدع الكاذب)، وفيه رد على اتهامات المؤلفين في الشيخ خالد النقشبندي[2].

وقد رتب السويدي رده هذا على مقدمة وكتاب وخاتمة، شرح في المقدمة الطريقة النقشبندية، وبيان حكم من كفر اخاه السملم الساكن في دار الإسلام، أما الكتاب فجعله يشتمل «على رد ما في الرسالة من زخارف الأقوال بالبراهين القواطع لكن بوجه فيه إجمال»، ثم ختمه بشيء «من ترجمة الشيخ الذي افتروا عليه وعلى بعض فضائله الحسنة وفواضله المستحسنة»، وأتمه في 13 محرم سنة 1237هـ/1821م، وأوله «الحمد لله الذي ألف بدينه بين قلوب العباد، وأمرهم بالتودد بين أهل القربات لينتظم لهم مبدأ السلوك كالمعاد ..».

من الكتاب نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد بعنوان (السهم الصائب) تحت العدد

---

(1) عز الدين علم الدين: مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق ج8 (1928) ص451.

(2) وكان الشيخ محمد أمين أفندي مفتي الحلة قد رد على رسالة (تحرير الخطاب) للنودهي برسالة مطولة وقع عليها وأيدها العلماء، وأرسلها إلى مؤلفها النودهي بتشجيع من والي بغداد داود باشا (أنظر سليمان فائق بك: مرآة الزوراء في سيرة الوزراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد ص132)، وفي خزانة يعقوب سركيس كتاب مجهول المؤلف في الرد على معروف النودهي لعله هو، كما يوجد كتاب آخر مجهول المؤلف أيضاً في الرد على عثمان الجليلي يختلف أوله عن أول كتاب السويدي، وكلاهما ضمن مجموعة رقمها 187 .كوركيس عواد : فهرست مخطوطات يعقوب سركيس المهداة إلى جامعة الحكمة ببغداد، بغداد 1966، ص120.

6827 وتقع 64 ورقة من القطع الكبير[1]، ونسخة أخرى بعنوان (دفع الظلوم) تحت العدد 13843/23، وتقع في 79 ورقة[2]، ومنه نسخة بالعنوان الأخير في خزانة كتب أسعد أفندي باستانبول تحت العدد 1404، كما توجد نسخة أخرى في خزانة عباس حلمي القصاب ببغداد تقع في 49 ورقة من القطع الكبير[3].

7- مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. مختصر في السيرة النبوية، أوله «الحمد لله الذي أظهر شمس معارف النبوة المحمدية من أفق سماء الكمالات في شهر ربيع الأول، فأشرق بها مظاهر تجلي الصفات فاستنار بها كل موجود»، مخطوط ضمن مجموع في مكتبة الأوقاف ببغداد، تحت العدد 7298، ويقع في 28 ورقة.

8- الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد. ألفه في الرد على كتاب (سلاسل الحديد في تقييد ابن عبد الحديد)، لمؤلفه يوسف بن أحمد بن إبراهيم الأوالي، بناء على طلب والي بغداد داود باشا، ففرغ من تسويده في 14 رمضان سنة 1244هـ/1828م.

وأوله «الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام دينا، ونصب لنا الدلالة على صحته برهاناً مبينا ..»، منه نسخة نفيسة في مجلد في مكتبة الأوقاف ببغداد تحت العدد 5149 وهي بخط علي بن محمد الحميري في آخرها أنها قوبلت على نسخة المؤلف، على يد السيد محمود أبي الثناء الآلوسي، والظاهر انها النسخة الأصلية المهداة إلى داود باشا، عدد أوراقها 706 ورقة، من القطع الكبير[4]. ومنه نسخة أخرى في المكتبة القادرية العامة في بغداد، تحت العدد 635، تم نسخها في سنة 1301هـ/1883م في مجلدين ضخمين، عدد أوراق كل منهما 176، 182 ورقة[5].

---

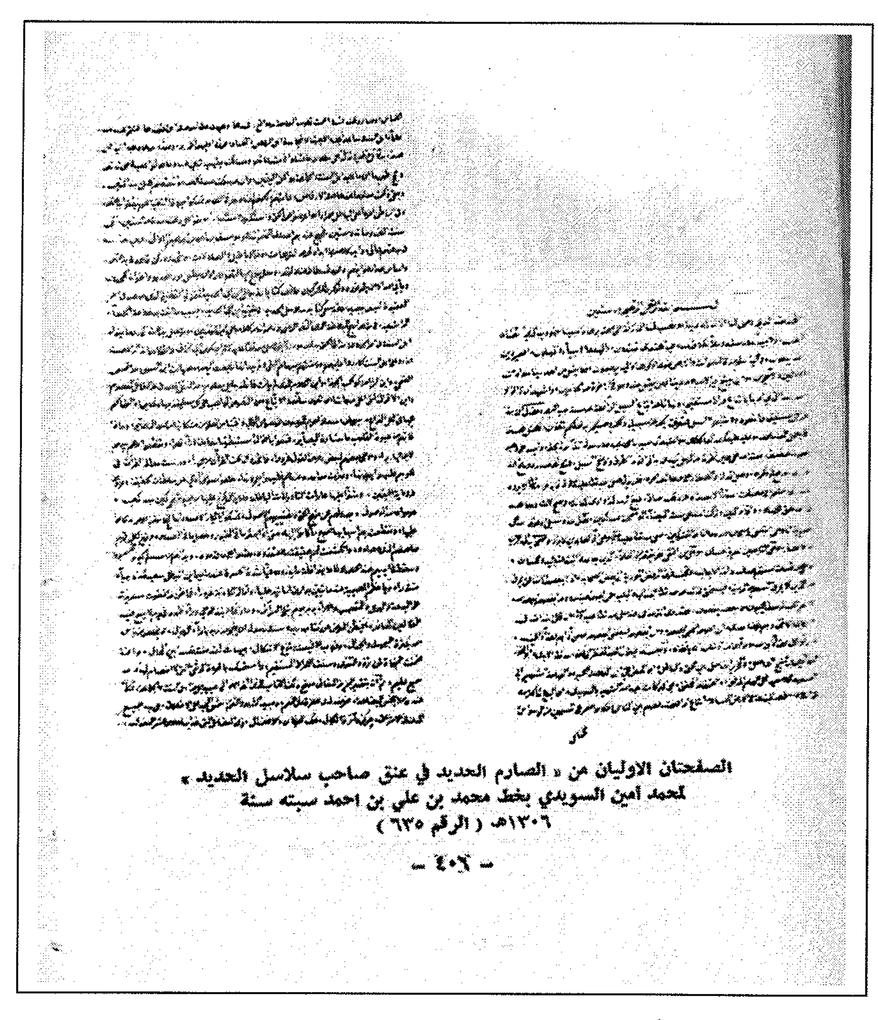
(1) الكشاف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف، ص127، وقد ذكر الدكتور أسعد طلس أنه ألفه سنة 1228هـ، مع أن المذكور في آخر النسخة هو التاريخ الذي ذكرناه.

(2) عبد الله الجبوري: فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف، ج2 ص543 والجبوري: فهرس مخطوطات حسن الأنكرلي المهداة إلى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ص28.

(3) بحثنا: فهرس مخطوطات عباس حلمي القصاب، في مكتبة دار التربية الإسلامية ببغداد. وقد تقدم.

(4) فهرس المخطوطات العربية ج2 ص557 الكشاف ص128 وفيه أن رقم المخطوط 5140، والصحيح ما ذكرناه.

(5) الآثار الخطية ج2 ص485- 488.



الصفحتان الاوليان من « الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد »
لمحمد امين السويدي بخط محمد بن علي بن احمد سبته سنة
١٣٠٦هـ (الرقم ٦٣٥)

— ٤٠٦ —

الصفحتان الأوليان من (الصارم الحديد) نسخة المكتبة القادرية

9- الاعتبار في حمل الأسفار في الأحاديث التي لا إسناد لها الواردة في كتاب المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار. والأصل للشيخ عبد الرحيم بن حسين العراقي (المتوفى سنة 806هـ/1403م). أوله «الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام غلى سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين»، ألفه سنة 1245هـ/1829، تتبع فيه 271 حديثا موضوعا ليس له اصل في احياء العلوم للغزالي منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد، ضمن مجموع تحت العدد 7398، وتقع في 18 ورقة[1]. واخرى في 21 ورقة كتبت سنة 1301

(1) الكشاف ص 302

هـ/1883م تحت العدد 13769/2[1]، وثالثة في مكتبة المرحوم السيد محمد سعيد الراوي، ضمن مجموع تحت العدد 164/16، في 14 ورقة[2]، حققه علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، مكتبة لينة، دمنهور، مصر، 1414هـ/1993م.

10- التحفة المرضية مختصر الترجمة العبقرية[3]. والترجمة العبقرية والصولة الحيدرية للتحفة الإثني عشرية، لمحمد سعيد السلمي.

11- فتح الرحمن[4] في مواعظ شهر رمضان. نسخة في المكتبة القادرية العامة ببغداد، تحت العدد 739، أولها «قال شيخنا أبو الفوز محمد أمين أفندي السويدي في فتح الرحمن» فهو نقول من الأصل جمعها بعضهم، ويقع في 3 أوراق[5].

12- شرح تاريخ ابن كمال باشا[6]. وهو أحمد بن سليمان بن كمال باشا المتوفى سنة 940هـ/1534م.

13- شرح عبارة في التاريخ، هي « .. في العشر الرابع من الثلث الثاني من السدس الخامس من النصف الأول للعشر الأول من العشر الثالث للعشر الثالث من الألف الثاني للهجرة». منه نسختان في مكتبة الأوقاف ببغداد، الأولى في مجموع تحت العدد 13797/6، والأخرى في مجموع تحت العدد 7398/1، وتقع في ورقة واحدة[7].

14- قلائد الفرائد . شرح مختصر لكتاب (المقاصد) تأليف يحيى بن شرف النواوي (المتوفى سنة 676هـ/1277م) وأوله «الحمد لله حق حمده، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وجنده..»، وفرغ من تسويده في 22 رمضان سنة1239هـ/1823م، وفي بعض النسخ في 19 منه، في مكتبة الأوقاف

---

(1) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص189

(2) كتابنا : مخطوطات العلامة السيد محمد سعيد الراوي، ص209

(3) المسك الأذفر ص83.

(4) في مجلة لغة العرب ج2 ض436: فتح المنان.

(5) كتابنا : الآثار الخطية في المكتبة القادرية ج3 ص95.

(6) المسك الأذفر ص83.

(7) فهرس المخطوطات العربية ج4 ص244.

العامة ببغداد نسخة نسخت سنة 1239 واخرى سنة 1301 تحت العدد 2/1689، في 21 ورقة، وثالثة في 1303هـ، تحت العدد 7/4741، في 17 ورقة[1].

15- الكواكب الساطعة في بيان المقاصد النافعة. ويحتوي على ثلاثة فنون، في الأصول، والثاني في الفروع، والثالث في التصوف، وهو شرح مطول على كتاب (المقاصد) للإمام يحيى بن شرف النواوي، سماه (الكواكب الساطعة في بيان المقاصد النافعة)، وأوله «الحمد لله الواحد في ربوبيته، المتفرد في صمديته وألوهيته» ، توجد منه نسختان في المكتبة القادرية ببغداد الأولى تحت العدد 574، والأخرى تحت العدد 575، في آخرها أنه فرغ من تأليفه الكتاب في 9 رمضان سنة 1239هـ/1823م[2]، وثالثة في خزانة عباس حلمي القصاب في بغداد[3].

16- قلائد الدرر في شرح رسالة ابن حجر. شرح فيه كتاب (التعَرُّف في الأصلين والتصوف) لابن حجر الهيتمي المكي (المتوفى سنة 974هـ/1566م)، وأوله «حمداً لك اللهم على أن وفقتنا للتعرف بأحكام الدين.. وبعد فيقول العبد المفتقر إلى لطف مولاه الأبدي أبو الفوز محمد أمين السُويدي: لما كانت رسالة التعرف في الأصلين والتصوف.. جامعة لدرر الفوائد حاوية لغرر القواعد.. التمس مني أن أشرحها من تضلع بالعلوم العقلية والنقلية..». وهو يشتمل على فنون ثلاثة، الأصول والعقائد والتصوف، ويقع في نحو 400 صفحة «[4]، و«هو كتاب جليل في الأصول، اشتمل على المسائل المبسوطة والدلائل القوية»، فرغ من تسويده في 5 جمادى الأولى سنة 1242هـ/1827م، وثمة نسخة قوبلت على نسخة المؤلف سنة 1303هـ/1885م محفوظة في المكتبة القادرية ببغداد تحت العدد 593[5].

17- شرح مختصر، غير سابقه، لكتاب التعرف في الأصلين والتصوف، وصف بأنه «مختصر جدا»[6].

---

(1) فهرس المخطوطات العربية ج2 ص190

(2) الآثار الخطية ج3 ص414-417

(3) فهرست مخطوطات عباس حلمي القصاب في دار التربية الإسلامية.

(4) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ج2 ، 1928، ص752.

(5) الآثار الخطية ج2 ص437.

(6) الدر المنتثر ص88.

18- مختصر التحفة الإثناعشرية. والأصل للحافظ الشاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي (المتوفى سنة 1176هـ/1762م)[1].

19- مناسك الحج. وهو آخر تآليفه، كتبه في أثناء حجه سنة 1246هـ/1830م، قال في أوله «أما بعد فيقول العبد المفتقر إلى عفو الله الأبدي، محمد أمين السويدي، لما عزمت على حج بيت الله الحرام سنة 1246 من هجرة سيد الأنام، لخصت كتاباً في المناسك من كتب العالم الناسك النووي الشافعي، لكني حذفت منه كلاماً كثيراً، أو غيرت وزدت فيه شيئاً يسيراً». ومسودة المؤلف محفوظة في مكتبة الأوقاف ببغداد تحت العدد[2] 7375.

20- المناسخات في علم الفرائض. ألفه تلبية لطلب مفتي الحنفية الشيخ عبد السلام، وأتمها في 8 شعبان سنة 1245هـ/1829م قال في أوله «لما كان عمل مناسخات علم الفرائض من الصناعة البديعة المشهورة التي وجد أولها في كتب أهل العلم مسطورة». منه نسخة ضمن مجموعة في مكتبة الأوقاف ببغداد تحت العدد 7398، وتقع في 5 أوراق[3].

21- رسالة في إيجار أرض الوقف. أتمها في 27 رجب سنة 1240هـ/1799م وأولها «الحمد لله الموفق من شاء من عباده». منها نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد ضمن مجموعة تحت العدد 13797/111، وأخرى تحت العدد 7398[4].

22- رسالة في من دفع الخمس من ثمر عقار إلى الحكومة بنية الزكاة ولم يقبض باسمها. منه نسخة كتبت سنة 1311هـ/1893م في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، تحت العدد 5926/13[5].

23- رسالة في شرح عبارتين متعارضتين من كتاب (الدر المختار) تأليف محمد بن علي علاء الدين الحصكفي (المتوفى سنة 1088هـ/1677م)، فرغ منها

---

(1) وقد اختصره أيضاً الشيخ محمود شكري الآلوسي سنة 1301هـ/1883م، وطبع في الهند سنة 1315هـ/1897م، ثم طبع في القاهرة سنة 1287هـ/1870م، ومختصره هذا هو المعروف المتداول، أما اختصار السويدي فلم يعرف ولم يشتهر.

(2) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص641.

(3) فهرس المخطوطات العربية ج2 ص35.

(4) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص 606 والكشاف ص302

(5) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص414.

في 11 شوال 1245هـ/1829م، أولها «الحمد لله رب العالمين»، تقع في ورقة واحدة، منها نسختان في مكتبة الأوقاف ببغداد، الأولى ضمن مجموع تحت العدد 7398، والأخرى ضمن مجموع تحت العدد 13797/111[1]. وأشار عبادة إلى أن له رسالة في عبارة وردت في كتاب (الدر المختار) في الأوقاف المهيأة للصلاة فيها[2]، لعلها هذه الرسالة.

24- مسألة في الفقه الحنفي. منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد[3].

25- رسالة في شرح عبارة وردت في تفسير (معالم التنزيل) للبغوي. أولها «الحمد لله على ما أنعم، وأشكره على ما فهَّم وعلم..». تقع في ورقة واحدة، منها نسختان في المجموعين آنفي الذكر[4].

26- رسالة فيمن يصح أن يكون إماماً ولا يصح أن يكون مأموماً. ألفها إجابة لطلب بعض الصوفية، وفرغ منها في 10 رجب سنة 1240هـ/1825م. وأولها «الحمد لله رب العالمين، والسلام على خير خلقه محمد..». منها نسختان في المجموعين آنفي الذكر.

27- رسالة في جواب على سؤال صوفي: أي شخص ليس بأنثى وليس بخنثى». أولها «الحمد لله رب العالمين.. وبعد، فيقول العبد المفتقر إلى مولاه الأبدي..». نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ضمن مجموع تحت الرقم 7398/13، وتقع في 3 أوراق[5].

28- رسالة في الإجابة على ثلاثة أسئلة في علم المنطق، والنحو، والفلسفة، أولها «الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد فقد ناولنا بعض الطلبة..»، منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد، المجموع ذي العدد 7398، آنف الذكر، وتقع في 4 أوراق.

---

(1) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص414.

(2) العقد اللامع ص504.

(3) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص545، وسقط من الفهرس رقم المخطوطة، والبيانات الأخرى.

(4) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص82

(5) فهرس المخطوطات العربية ج2 ص391.

29- رسالة في شرح عبارة في (القاموس المحيط) في بحث ورد الإبل «ظاهرها الإختلال في المبنى، والمعارضة لكلام غيره من أهل اللغة في المعنى». فرغ منها في 12 ربيع الأول سنة 1236هـ/1820م، وأولها «الحمد لله واضع اللغات ومُحدث الموضوعات». منها نسختان ضمن المجموعين السابقين، وحققها عز الدين علم الدين، ونشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[1].

30- ثبت مشايخه. سجل فيه أسماء بعض من أخذ عنهم العلم. وأوله «الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين.. لما كان الإسناد من خواص هذه الأمة». كتبه في 11 شعبان سنة 1245هـ/1829م،منه نسخة في 7 أوراق، ضمن المجموع المحفوظ في مكتبة الأوقاف ببغداد تحت العدد 3/[2]7298.

31- شرح على حاشية العلامة علي الموصلي[3].

32- رسالة في الكعبة. أشار الدكتور أسعد طلس إلى أنها موجودة في المجموع ذي العدد 7398، ولا وجود لها في هذا المجموع[4].

33- رسالة في الفلك. أشار طلس إلى أنها موجودة في المجموع المتقدم، ولا وجود لها في هذا المجموع أيضاً.

34- الكوكب الزاهر[5] في الفرق بين علمي الباطن والظاهر. ألفه إجابة لسؤال بعض الطلبة. وفيه مناقشة لرأي الغزالي في التصوف، أوله «الحمد لله الظاهر الباطن، من شملت هدايته السالك والقاطن». فرغ منه في 23 رجب سنة 1240هـ/1825م. منه نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد ضمن مجموعة تحت العدد 153/ 13822، في 6 ورقات وأخرى في المكتبة نفسها ضمن مجموعة تحت العدد 7389[6].

---

(1) ج8 ص513- 518.

(2) فهرس المخطوطات العربية ج1 ص203.

(3) ولد في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة، وتوفي بالطاعون سنة 1246هـ/1830م، وكان من كبار العلماء في بغداد، ولم نعلم أي حاشية هذه التي شرحها السويدي.

(4) الكشاف 302 ومخطوطات الانكرلي ص 248

(5) في الدر المنتثر: الكواكب الزاهرة، وهو ما لا يتفق مع السجعة.

(6) الكشاف ص302 وفهرس المخطوطات العربية ج2 ص479 و مخطوطات الأنكرلي ص 248.

35- حلول وشروح لألغاز مختلفة قدمها له أصدقاؤه وتلامذته، منها عبارة مُلغزة في التاريخ، أولها «الحمد لله الذي لا تمضي عليه الدهور والأعوام». وشرح لغز في مُوم، وهو من أسماء الشمع، كتبه في 25 من ربيع الثاني سنة 1240هـ، وأوله «الحمد لله الذي خص الإنسان بالإدراك والبيان». وشرح لغز في (المريخ) قدمه إليه عمر آغا قابجيلر كهيه سي[1]، أوله «الحمد لله الذي خص الإنسان من بين الأنام بما حباه من العلم والبيان». وشرح لغز في اسم (بهاء الدين)، أوله «الحمد لله رب العالمين، والصلوة على سيدنا محمد»[2]. وشرح لغز في (ماشة)، أوله «الحمد لله الذي خلق من جملة مخلوقاته نوع الإنسان». فرغ منه 23 ذي القعدة سنة 1238هـ/1822م[3]، وشرح لغز في (الواجب والممكن)[4].

36- رسالة في شرح لفظ (الحمد). نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد، في ورقة واحدة، ضمن مجموع تحت العدد 7398/10[5].

37- رسائل كثيرة، غير ما تقدم، «في علوم مختلفة»[6] لم تصلنا عنواناتها. وهي تتضمن «تقريرات» و«تحقيقات»[7].

38- مقامات أدبية، لم تصلنا[8].

خاتمة

نحو أربعة عقود ونيف، قضاها الشيخ محمد أمين السويدي بين درس وتدريس وتأليف وإفتاء، فكان أنموذجا للعالم الصالح، المتفرغ للعلم، المخلص

---

(1) قابجيلر كهيه سي، أو كتخدا البوابين اسم منصب مهم في سراي بغداد.

(2) فهرس المخطوطات العربية ج3 ص21 و2227

(3) انظر الكشاف ص302 وفهرس مخطوطات الأنكرلي ص130- 131، وقد ذكر الدكتور طلس في الكشاف أنه توجد في المجموع ذي العدد 7398، رسالة في الكعبة، ورسالة في غبم الفلك، وليس في المجموع المذكور أي من هاتين الرسالتين، مع أن عباس العزاوي أشار إليهما في كتابه تاريخ علم الفلك في العراق ص265.

(4) ثبت بمؤلفات السويدي، مخطوط، والدر المنتثر ص90.

(5) فهرست المخطوطات العربية ج3 ص231

(6) العقد اللامع ص504.

(7) الدر المنتثر ص90.

(8) الدر المنتثر ص89.

لطلبته، المربي لهم، لم يتقاضى أجراً على تدريسه، بل أنه وقف دار سكنه عليهم، فكانت حياته، من ثم، صدقات جارية، وعلم ينتفع به في كل حين، وخلق يتأسى به، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

خليل وَنَّه

سيرته، رحلاته، آثاره

آل وَنَّه[1] أسرة بغدادية قديمة، استوطنت مدينة السلام منذ عدة قرون. وتدل وقفيات الأسرة من القرن الثالث عشر للهجرة (19م)[2] على وجود عدة دور لها في محلة باب الشيخ ببغداد[3]، مما يوضح ان تفرع البيت الواحد إلى عدة بيوت[4] كان قد جرى منذ وقت طويل، كما ان ثروة الأسرة التي تصف بعضها هذه الوقفيات، وهي دور ودكاكين متفرقة في أسواق بغداد، تدل على ان تراكم الثروة لدى أصحابها حدث عبر أزمان متطاولة، وإذ علمنا ان الحاج خليل وَنَّه، موضوع هذا البحث، هو الحفيد السابع لأول من نعرفه من أسلافها، ويدعى الحاج خليل وَنَّه أيضاً، فان من المعقول أن نحدد ظهورها - بحساب الأجيال- في أواخر القرن التاسع للهجرة (15م) او اوائل القرن العاشر للهجرة (16م) في أقل تقدير.

---

(1) بفتح أوله وتشديد ثانيه. ولا تحتفظ الأسرة اليوم بتفسير لهذا الاسم الذي يرقى الى اربعة قرون مضت في الاقل. ويذكر السمعاني (المتوفى سنة 562هـ) ان الونّي نسبة الى ونّة، اسم لقرية، وان عدداً من العلماء نسب اليها، كما انها أيضاً – نسبة الى رجل يدعى (ونه) (الانساب، بيروت 1988، 618/1) ويشير ياقوت (معجم البلدان، ط دار صادر بيروت 1965، 385/5) الى قرية بهذا الاسم من قرى نَسَف، ونسَف مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند خرج منها جماعة كثيرة من أهل العلم في كل فن (ياقوت: معجم البلدان، ط دار صادر 1956، ج5ص285).

(2) وقفية الحاج عبد الرحمن بن الحاج محمود ونه وامه الحاجة مريم بنت الحاج عبد الله النعمة في 25 شوال 1233هـ (1818م) ووقفية الحاجة حبيبة بنت عبد الله وهي خالة الحاج عبدالرحمن المذكور في جمادي الآخرة 1238هـ (1823م) وحجج التولية على الوقف نفسه المؤرخات في 14 ذي القعدة 1245هـ (1830م) وفي غرة ربيع الآخر 1278هـ (1861م) وفي 15 شوال 1305هـ (1888م). وينظر عبد الرحمن حلمي العباسي السهروردي: بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر، بتحقيقنا، بغدد 1997، ملحق للمحقق بعنوان (قائمة لأسماء بيوتات بغداد في العصر العثماني مستخرجة من الوقفيات والحجج الشرعية المحفوظة في وزارة الأوقاف ببغداد) ص140.

(3) محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد، نسبت إلى باب حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني المدفون فيها سنة 561هـ.

(4) كانت هذه الدور واسعة ومتصلة بنفق تحت الارض يجتاز الطريق، وقد لبثت ماثلة، بعد أن أخنى عليها الدهر، حتى نقضت حين اعادة تنظيم محلة باب الشيخ في ثمانينات القرن الماضي.

ولقد أنجبت الأسرة إبان القرون التالية، عدداً كبيراً من الرجال الذين عدّوا من وجوه مدينتهم وسراتها، وزاول أغلبهم التجارة، وحفلت وثائق تلك الحقبة ووقفياتها بتواقيعهم والقابهم الاجتماعية، منهم الحاج حسين جلبي، وإبناه الحاج أمين، والحاج مصطفى، والحاج اسماعيل، والحاج محمود جلبي، والحاج عبد الرحمن، والحاج صالح جلبي وغيرهم، ونظراً لما تقتضيه التجارة من انتقال وارتحال، فقد حققت الأسرة انتشاراً واسعاً في أقطار شتى، فكان لهم وجود وملكيات عقارية في مصر[1] وفي بلاد الشام[2]، فضلاً عن مدن عراقية أخرى غير بغداد[3].

وممن برز من رجال هذه الاسرة في القرن الثالث عشر للهجرة (19م) الرحالة المثقف، الأديب الطبيب، الحاج خليل بن الحاج إسماعيل بن الحاج أمين بن الحاج حسين بن الحاج محمد بن الحاج طه بن الحاج محمد بن الحاج خليل ونه، موضوع هذه الترجمة[4].

نشأته:

لم يترك خليل وَنَّه ما يستدل به على تاريخ ولادته، ولكننا وجدناه يذكر في احدى مجموعاته الخطية[5]، انه رأى (ربما أراد: عاصر) من سلاطين آل عثمان السلطان سليم المتوفى سنة 1222 (وهو سليم الثالث المبتدئ حكمه سنة 1203هـ/1789م) ثم مصطفى (الرابع) المتوفى سنة 1222هـ/1807م، ثم السلطان

---

(1) ذكرت ذلك السيدة رباب بنت الشاعر العراقي المقيم بالقاهرة عبد المحسن الكاظمي (نقلته عنها الآنسة عفاف عبد الرحمن آل ونه).

(2) في رواية المرحوم عبد الوهاب عبد الرزاق آل ونة أن لهم أملاكاً في الزبداني، وكان منهم صالح ونه احد التجار البغداديين البارزين في مدينة حلب سنة 1235هـ/ 1819م (يعقوب سركيس: مباحث عراقية 1، بغداد 1948، ص 201، وللحاج خليل ونه نفسه عقب في بلاد الشام كما سيأتي.

(3) منهم فرع مقيم في (بلد) من اعمال الدجيل، ولهم أملاك هناك، زرت أحد أبنائهم في تسعينات القرن الماضي.

(4) سجل خليل ونه نسبه هذا في الورقة الاولى من رسالة الاختلاجات التي كتبها سنة 1261هـ/ 1845م (مخطوط لدى حفيده الحاج ابراهيم بن الحاج خليل بن الحاج عبد الوهاب جلبي بن الحاج خليل ونه، وقد تلطف بالسماح لكاتب البحث بتصويره لنفسه، مع سائر ما لديه من آثار عدة يحرزها)

(5) مجموعة خطية منتصف محتواها عن الكلام عن مؤلفاته ونرمز لها برقم (1) الورقة 28

محمود بن السلطان مصطفى (وهو محمود الثاني الذي حكم من 1223 إلى 1225هـ/1808- 1839م) فهذا يدل على انه لم يكن مولوداً قبل سنة 1203هـ وتكون ولادته قد حدثت بعد هذا التاريخ، وفي وقفية لإحدى نساء اسرته[1]، مؤرخة في سنة 1238هـ/1817م، نجد ختم خليل بوصفه شاهداً على مندرجاتها وتوقيعه مُصدَّراً بلفظ (الحاج) فمن المعقول أن يكون حينذاك قد تجاوز الثلاثين من العمر، حج خلالها، وغدا يُعد من وجوه محلته.

وكان أبوه الحاج إسماعيل بن الحاج أمين ناظراً على بعض أوقاف الأسرة، وقد رزق بابنتين، اضافة إلى خليل نفسه، هما (وضحه) و (آمنة)، فتزوجت أولاها من الحاج صالح جلبي آل ونه، التاجر المقيم في حلب، وتزوجت أخراهما من الحاج ياسين آل ونه. وأدرك خليل في طفولته جده[2]، وتوفي ابوه الحاج اسماعيل وهو، أي خليل، شاب يتجاوز الثلاثين من العمر[3]، فتلقن – ولا شك – تقاليد الأسرة، التي تمزج بين التجارة والثقافة.

ومن الراجح أنه تلقى العلم على أيدي علماء من أبناء محلته (باب الشيخ) حيث كانت دور أسرته. وليس ببعيد أنه اختلف إلى مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني، أو المدرسة الخاتونية القريبة منها[4]، وهما ابرز المعاهد العلمية المجاورة لتلك الدور. وقد نوَّه هو في إحدى مجموعاته[5]، بشيخ له، لكنه لم يُسمّه، واذ ساق له شعراً، تبين لنا أنه شدا الأدب، او شيئاً منه، على يد بعض أدباء عصره الذي تتلمذ على ايديهم.

---

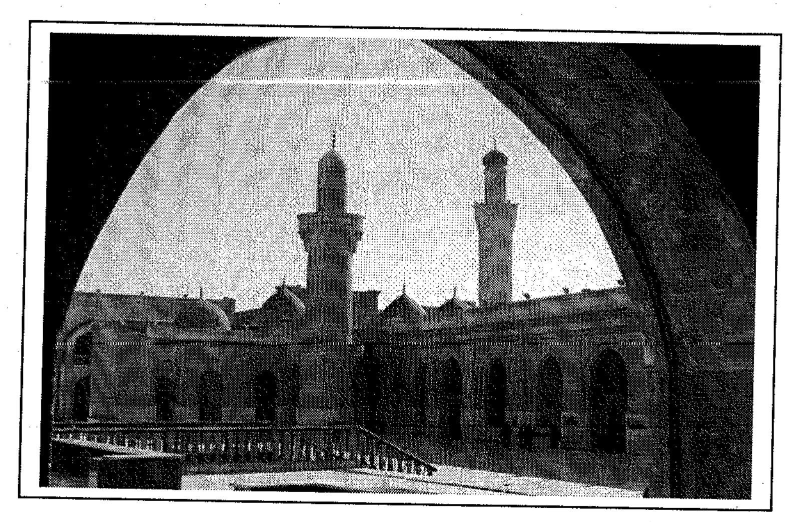
(1) وقفية حبيبة بنت عبد الله وهي خالة الحاج عبد الرحمن (رحماني) بن الحاج محمود وَنَّه (مخطوط).

(2) كان الحاج أمين شاهداً عن وقفية الحاج زكريا بن عبد الوهاب الملا خضر (جد آل الخضيري الأسرة التجارية المعروفة) في 25 ذي الحجة سنة 1211هـ/تموز 1798م.

(3) كان أبوه حياً سنة 1233هـ فقد ورد اسمه في وقفية مريم بنت عبد الله المؤرخة في 25 شوال من تلك السنة/28 آب1818م.

(4) انشأتها السيدة عاتكة خاتون بنت السيد على القادري نقيب الاشراف، المتوفاة سنة 1245هـ/1829م وافتتحتها سنة 1226هـ/1819م وكانت تضم خزانة كتب قيمة، ووقفت عليها اوقافاً جمة. ينظر: محمد سعيد الراوي: خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، بتحقيقنا، بغداد 2006، ص154.

(5) المجموعة (1) الورقة 24.



مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد

رحلاته:

عاش خليل في محلته مُوسراً وجيهاً كسائر أفراد أسرته، ونال من الثقافة حظاً كانت تؤهله له تقاليد عصره، وتولى الإشراف على بعض الأوقاف الخيرية للأسرة، ولأسباب نجهلها، فإنه شغف بالسياحة والتنقل بين البلدان، وليس ببعيد أن تكون التجارة وراء ذلك الشغف أو سبباً له، فإننا نعلم أن عدداً من رجال اسرته كانوا يمتهنون التجارة في خارج بلده، بيد أن الذي يدعو إلى الانتباه فعلاً أن خليلاً تجاوز في نطاق تنقله ما كان مألوفاً لدى تجار عصره، أو حتى علمائه، فطوّف في بلدان ماعلمنا ان أحداً من أبناء وطنه قد سجل وصوله اليها.

ولسنا نعلم تاريخ بدئه برحلاته، الاّ أن أولاها كانت لأداء فريضة الحج، وقد أداها بعد سنة 1230هـ/1815م[1]، وقبل سنة 1238هـ/1823م على ما تقدم. وعاد بعدها إلى بغداد، فكان موجوداً فيها سنة 1243هـ/1827م حيث سجل تاريخ وفاة أحد رجال الأسرة الكيلانية ودفنه ببغداد[2]. وخاض في سنة 1245هـ/1830م بعض المشاكل المتعلقة بتولية الوقف[3]، ودوّن في السنة التالية

---

(1) توصلنا الى ذلك من توقيع له على شرح لغز في هذا التاريخ ولم يثبت فيه لفظ (حاج) على خلاف ما نجده في تواقيعه التالية.

(2) المجموعة نفسها الورقة 35.

(3) حجة شرعية بخصوص التولية على وقف الحاج عبد الرحمن ونه، مؤرخة في 14 ذي القعدة سنة 1245ه/7 أيار 1830م.

أخبار ما أصاب مدينته من غرق فادح آنذاك[1]. ويظهر أنه غادرها بعد ذلك التاريخ بسنوات لا تتجاوز الست، فإننا وجدناه في مدينة حلب سنة 1252هـ/1836م عاكفاً على شرح قصيدة في علم الأوفاق[2]، ويظهر أن مقامه طال في حلب، فقد وجدنا ورقة في إحدى مجاميعه الخطية[3]، سجل فيها قائمة بمصاريف دار اكتراها في غرة جمادي الاخرة سنة 1251هـ/1835م، وبما أننا نعلم انه تزوج هناك وانجب بنتين، فمن الواضح أن اكتراءه للدار كان بمناسبة زواجه واستقراره في مدينة حلب. ولسبب ما فإنه ترك حلب وعاد إلى وطنه العراق، حيث سجل وجوده فيه حينما كتب في صدر بخصوص له انه ابتدأ به «في حضرة (مرقد) ابو الجاسم بنهر المُسَيَّب يوم تاسع عشر خلت من شهر جمادي الاول من شهور سنة الالف ومايتين واحدى وستون هجرية» [26 أيار/مايو1845م][4].

ويظهر أنه قصد بعد ذلك مدينة استانبول لشأن من شؤونه، فإننا وجدناه سنة 1267هـ/1850م في (كُمرك العلائية)[5]، وهو ميناء على ساحل خليج (انطالية) في البحر المتوسط[6]، يعد محطة على طريق الذاهب من موانئ الساحل السوري (وبخاصة اللاذقية) إلى استانبول.

وما ان انقضت ثلاث سنوات اخرى، حتى رأيناه في مدينة الاسكندرية يصف في 26 جمادي الاول سنة 1270هـ/شباط 1854م طريقة لاعداد (دهن مُلوكي) من الأدهان العلاجية[7]، ويظهر أن مقامه لم يطل في هذه المدينة لأنه سرعان ما غادرها بعد ذلك إلى إستانبول، إذ سجل وجوده في العاصمة العثمانية في 18 محرم من سنة 1271هـ/تشرين الاول 1854م[8] ولبث فيها حتى أواسط السنة

---

(1) عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ح 6 ، بغداد 1954، ص318.

(2) الوفق، وسنة الموافقة، الاتفاق والتظاهر، واصطلاحاً: الرموز التي لها تأثير ما لاتفاقها مع قوى خفية، مجموعة خطية سيأتي وصفها، ونرمز لها بالرقم (2) الورقة 16.

(3) مجموعة خطية نقلها بخطه وسيأتي وصفها.

(4) مجموعة بخطه اولها (كتاب السياسة في علم الفراسة)، الورقة 1.

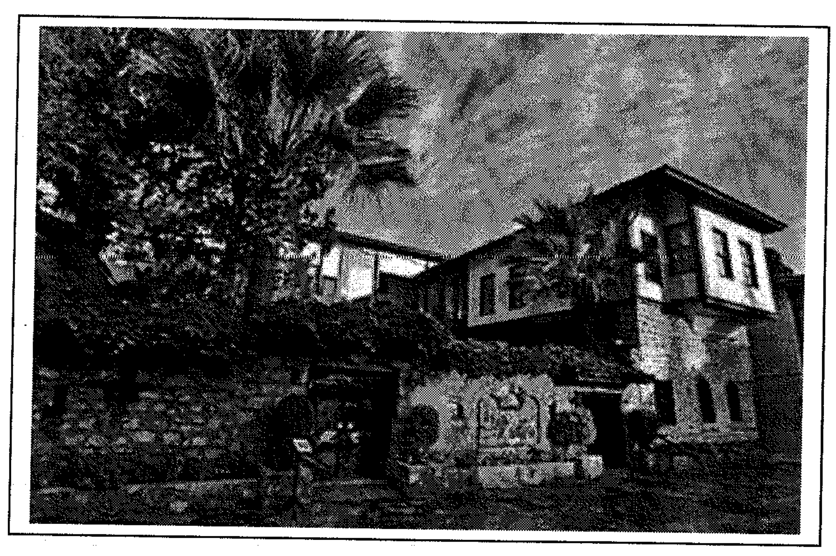
(5) المجموعة (1) الورقة 94.

(6) وهي مركز قضاء باسمها في لواء (تكه) من ألوية ولاية قونية. شمس الدين سامي: قاموس الاعلام ج3 ص37.

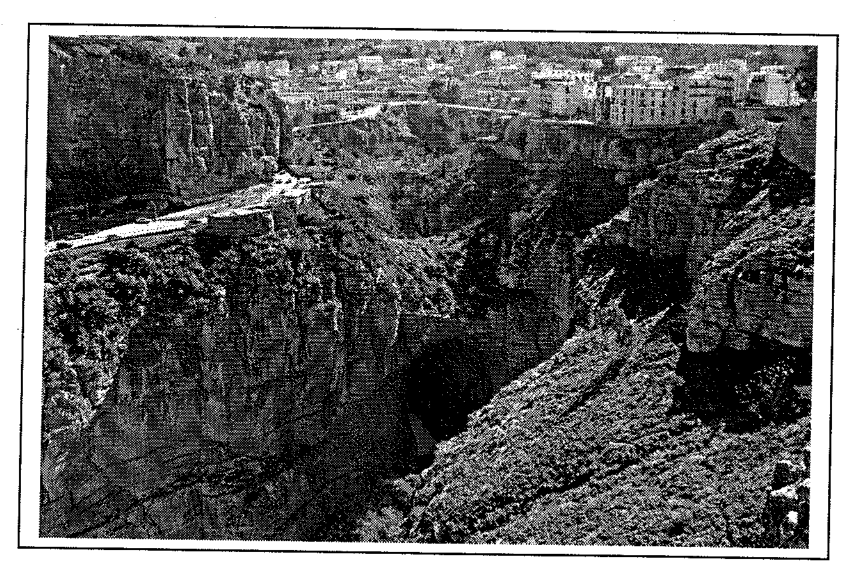
(7) المجموعة السابقة الورقة 3.

(8) المجموعة نفسها الورقة 42.

التالية[1] ومنها انتقل إلى مدينة تونس، حيث كان هناك سنة 1273هـ/1856م[2].



أنطاليا



مدينة قسنطينة حيث أقام خليل ونة

ومن تونس ارتحل خليل ونة إلى مدينة قسَنطينة في الجزائر، إذ رأيناه يكتب شرحاً لقصيدة وجدها فيها في ذي الحجة من تلك السنة[1] ولسبب ما عاد إلى

(1) المجموعة نفسها الورقة 31.

(2) المجموعة نفسها الورقة 30.

تونس، مؤرخاً وجوده فيها في 7 صفر من سنة 1275هـ/17 أيلول 1828م، على شعر لابن الخطيب نقله هناك[2] وكان الحاج خليل قد بلغ منتصف العقد السابع من عمره، وهي سن كبيرة لمن يمضي أوقاته في التنقل والتجوال بعيداً عن بيته وأهله، فعاد إلى بغداد في سنة 1276هـ/1859م ليقضي سنيه الأخيرة بين أسرته الصغيرة، زوجته[3]، وابنه الحاج عبد الوهاب[4] وثلاث بنات له[5]. ولسبب ما، فانه باع نصف الدار التي يمتلكها في محلة التسابيل[6] من محلات باب الشيخ، وتشمل القسم المخصص للضيوف (الدوَه خانه)، إلى أخته (وضحه) بمبلغ قدره 1521 قرشاً (رايج بغداد)[7] ولعله كان في حاجة إلى هذا المال، بعد أن فارق وطنه كل تلك السنين الطوال.

وآخر إشارة تدل على كونه حياً، سجلها على شرحٍ دوَّنه على هامش قصيدة البُردة للبوصيري، وبما أن ناسخ هذه القصيدة أرخ كتابته لها في سنة 1287هـ/1870م فيكون خليل حياً، وقادراً على الكتابة، بعد هذا التاريخ، على الرغم من تجاوزه- آنذاك- الخامسة والثمانين من العمر.

صلاته بمعاصريه

تكشف آثار خليل ونّه عن علاقاته الجمَّة بعددٍ من أدباء عصره ومثقفيه، وهو أمر نراه طبيعياً ومتوافقاً مع كثرة أسفاره، وتنوع إهتماماته، فمن الأدباء الذين عاصرهم، ونقل شيئاً من آثارهم، العلامة الأديب الحاج عثمان بك بن سليمان باشا الجليلي (المتوفى سنة 1245هـ/1829م)، والأديب الخطاط المجوِّد صالح السعدي الموصلي (المتوفى سنة 1245هـ أيضاً)، والشاعر صالح التميمي (المتوفى

---

(1) تعليقته على شرح القصيدة اللامية ليوسف بن محمد الشربيني (مخطوط).

(2) المجموعة السابقة الورقة 51.

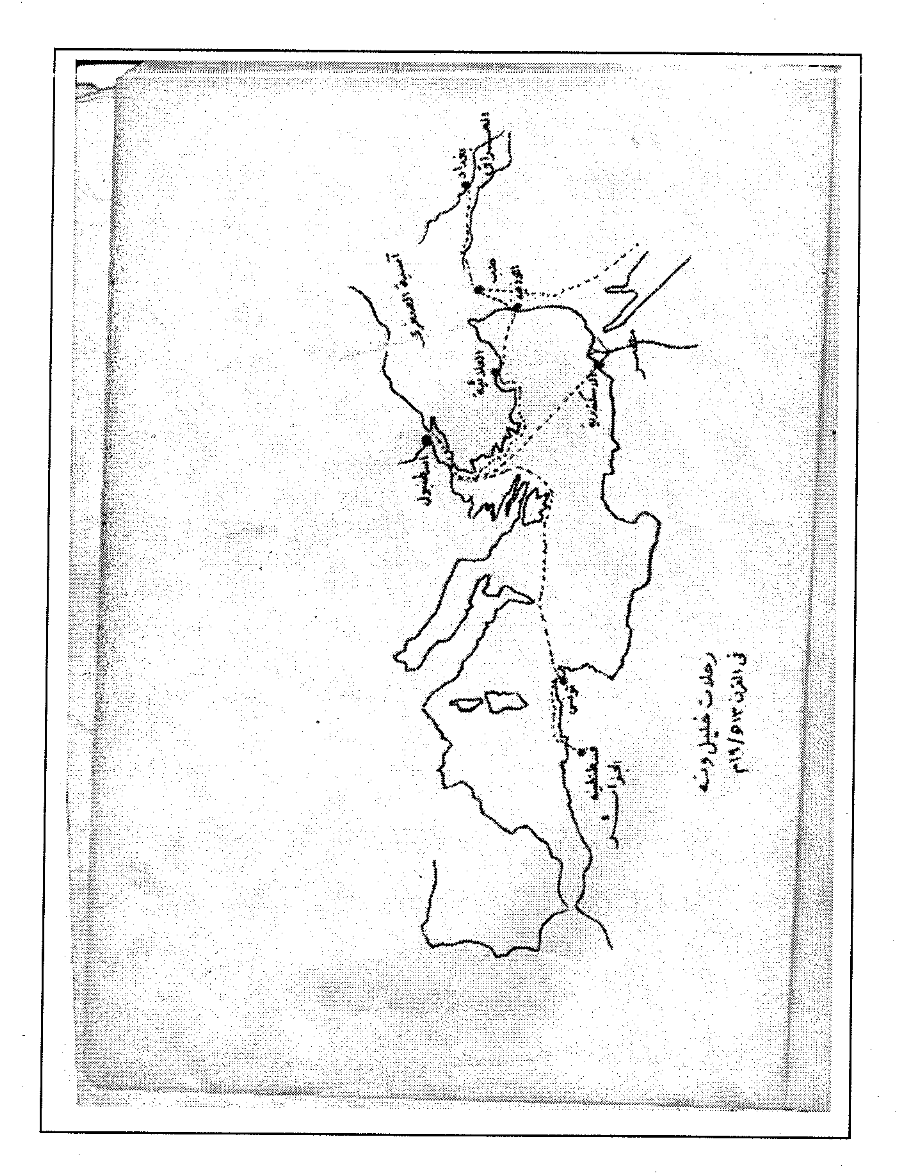
(3) وهي غير زوجته في حلب التي أنجب منها ابنتين هناك.

(4) أنجب الحاج عبد الوهاب ولداً سماه خليل، على اسم جده، وهو الحاج خليل (الثالث) فيمن سموا بهذا الاسم وللحاج خليل ولد هو الحاج ابراهيم، وله من الذكور خليل (الرابع) ونبيل.

(5) نعرف منهن (مرشه) التي تزوج منها قاسم الوتري، فانجبت منه أحمد، ويحيى، والاخير هو والد الطبيب الدكتور هاشم الوتري.

(6) محلة قريبة من محلة باب الشيخ، تنسب إلى جماعة من أهالي دسبول (دزفول) في الأحواز، سكنوها في القرن الثالث عشر للهجرة (19م).

(7) حجة بيت مؤرخة في22 شوال 1276هـ.



سنة 1261هـ/1845م)، وشاعر سماه (الملا عبدالحميد بن الصباغ البغدادي) ووصفه بأنه (من شعراء عصره) وآخر دعاه (السيد محمد أفندي الأزهري الحموي الكيلاني)[1] قائلاً انه «توفي سنة 1243 ببغداد ودفن بحضرة جده الكيلاني»[2]، وأديب بغدادي سماه (الملا جادر آل دغمش)[3]، وأديب التقى به في

(1) المجموعة (1) الورقة 23و 31 .

(2) المجموعة نفسها الورقة 34.

(3) المجموعة نفسها الورقة 34.

استانبول هو عبد القادر باشا زياده، هذا فضلا عمن لم يسمهم من أدباء عصره وعلمائه، كقوله «مما أفانيه ببعض الأحباب» و«مما أنشدني في إسلامبول رجل من الطريقة القادرية» و «لشيخي أيضاً»[1].

علمه بالطب والأدوية

احتل الطب جانباً رئيساً من اهتمامات خليل العلمية، فشغف بتسجيل الملاحظات الطبية، واقتناص الفوائد الصحية، في أثناء رحلاته العديدة وإقامته في المدن المختلفة التي مر بها. ولذا فقد حفلت مجموعاته وأوراقه بالكثير من هذه الملاحظات والفوائد، وهي تشمل طرق علاجية، وأدوية مفردة، وأخرى مركبة، ووصف لأعراض، ووسائل لحفظ الصحة العامة، وما يتصل بذلك من شؤون.

فمما وصفه من أدوية الأمراض الجلدية: أدوية لعلاج البهق وتنعيم البشرة، وإزالة الحكة والجرب، وإزالة البقع، والقرع، وعلاج الدمامل، وتساقط الشعر، وما إلى ذلك.

ومن ادوية وعلاجات الامراض الباطنية: ما يختص بعلاج حالات الخفقان، والامساك، والاسهال، وبخاصة اسهال الصبيان والأطفال، وقتل الدود في الامعاء، ومعالجة عللها، وزيادة الشهية، ودفع الحُمّيات.

أما الأمراض العصبية فذكر من أدويتها: المهدئات والمنومات والمنشطات وأدوية لعلاج المصروع، ومقويات للأعصاب.

كما تطرق إلى وصف بعض الأدوية المستخدمة في علاج أمراض الأذن والحنجرة والحلقوم، وأخرى في (قلع بياض العين) ومقويات للبصر.

ونوه أيضاً، بأدوية مُعينة على الحَبَل، وما يتصل بذلك من الطب النسائي[2].

وفضلاً عن ذلك فانه تناول جوانب من الصحة العامة، فعني بوصف طرق (دفع الحشرات) و (دفع الفار والبرغوث) وغير ذلك.

وترجع اهتمامات خليل الطبية إلى مراحل حياته الأولى في بغداد، دليلنا إلى ذلك أنه وضع نبذة قصيرة سماها (بيان خواص مفردات الأثمار والحشايش)[1]،

---

(1) المجموعة نفسها الورقة 42.

(2) المجموعة نفسها الاوراق 21و 23.

ضمنها أسماء لهذه المفردات مما هو شائع في البيئة العراقية خاصة، كما أنه حرص –في كل ما كتب– على تثبيت المصطلحات العراقية لمختلف الأمراض والادوية التي ذكرها.

وهو يستمد بعض معلوماته الطبية من الكتب التي كان يطّلع عليها في أثناء سياحاته، فها هو يقول في وصف دواء مقوٍ انه «استخرج من كتاب معتبر به»، وفي وصف دواء مقو للبصر خاصة «هكذا يذكره صاحب الكتاب». وفي بيان سبب داء المياسير (البواسير) انه «مما استخرجناه من كتاب نفيس محكوم بصحته»، الاّ أنه –بوجه عام– لايذكر لنا عنوانات تلك الكتب وأسماء مؤلفيها.

ومن جانب آخر، فانه استمد قسماً من معلوماته من الأطباء الذين التقى بهم وأخذ عنهم طرقهم العلاجية وما كانوا يصفونه من أدوية مختلفة، وبخاصة ما يتعلق منها بالأمراض الوافدة في عصره، والتي لم يجد لها سبيلاً للشفاء فيما بحث فيه من مصادر طبية سابقة، مثال ذلك أنه سجل في أثناء اقامته بمدينة قسنطينة في الجزائر طريقة عمل دواء ناجع لمرض (الفرنكي)[2] استفادها من طبيب هناك يدعى سيدي عبد الرحمن، وذكر أنه «مجرب، جربه ألوف»[3].

عنايته بالتاريخ

عني خليل ونه بتسجيل ما كان يراه مهماً من مشاهداته ومسموعاته، فكانت هذه العناية دافعاً له لتسجيل حوادث عصره وملامح حياته الاجتماعية والثقافية، وبذا فان في وسعنا أن نعده واحداً من أولئك المثقفين العراقيين الذين قدموا أعمالاً تمهيدية يمكن أن تفيد مؤرخ هذا العصر، فهو كأمثاله من مُدوِّني الحوادث في عهده، لا يتبع منهجاً معيناً في كتابة الحدث وترتيبه على وفق سياقه، وإنما يصف هذه الحوادث على نحو غير مُطَّرد في ثنايا مجاميعه الخطية[4]، ومن تلك

---

(1) المجموعة نفسها الورقة 28.

(2) ذكر انه يسمى في العراق بالحَب النجس، وببلاد الترك الفرنكي، وبلاد الغرب المرض الكبير، قلنا: وهو السفلس Syphilis او الزهري، مرض ينتقل عبر العلاقات الجنسية غالبا، وسمي الفرنكي، والفرنجي، نظرا لانتشاره في أوربا في عصر النهضة.

(3) المجموعة نفسها الورقة 28.

(4) كتابنا: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني. ط2لندن2009 ص41.

المجاميع ما سجل فيه حوادث مهمة جرت في مدينته بغداد، ومنها حادثة غرقها الداهم الذي ابتدأ في أواخر شهر رمضان سنة 1246هـ/شباط 1831م وانتهى في آخر تلك السنة، وكيف أن «دجلة فاضت فدمَّرت غالب البيوت». وكانت هذه المجموعة من مقتنيات خزانة المرحوم المؤرخ عباس العزاوي[1] إلا ان القائمين على مكتبة المتحف العراقي (المركز الوطني للمخطوطات اليوم) ذكروا أنهم لم يعثؤوا عليها بين كتبه التي آلت إلى هذه المكتبة، والله أعلم بمصيرها[2].

شعره

من المؤسف أن كثيراً من شعر خليل ونَّه ضاع بضياع بعض مجموعاته الخطية التي كان يدون فيها نفثات قلمه وخطراته. ولقد ذكر المرحوم عباس العزاوي انه رأى في إحدى تلك المجموعات، مما كان يحتفظ به في خزانة كتبه، أشعاراً وزهيريات[3]، ولكن عدم العثور على المجموعة المذكورة ضيَّع فرصة الإطلاع على نماذج مهمة من نظمه. وكان الأستاذ كوركيس عواد قد نوه بوجود ديوان شعر له مخطوط في مكتبة المرحوم الدكتورهاشم الوتري[4] الاّ اننا لم نستطع التأكد من وجوده الآن فضلاً عن أن نقف عليه.

ومما وقفنا عليه من شعره، قصيدة في تونس سنة 1273هـ/1856م، امتدح بها رجلاً اسمه محمد بن الريِّس، وهي[5]:

ريح الصبا إن جزت ذاك الحمى	أقر السلام على الحبيب المؤنس
واذكر له أشواقنا للقائه	من كان للفضل الجزيل مؤسس
لله ما أحلى شمائله التي	أضحت تفاخر فيه قربه تونسي
كل الفرا يا حُسنه من ماجدٍ	طلق المحيّا والهزبر الأشرس
ساد الأنام لفُرط جُود بنانه	فهو الكريم محمد بن الريِّس

(1) اشار اليها في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين ج6 ص318.
(2) التاريخ والمؤرخون ص275.
(3) على ما ذكره للحاج ابراهيم ونه، وهو رواه لي.
(4) دليل الجمهورية العراقية لسنة 1960 (بغداد 1961) ص543.
(5) المجموعة السابقة الورقة 30.

لا زال يلقانا بوجهٍ ضاحك   والغير يلقانا بوجه مُعبِّس

اين الثرى من الثريا نسبة   اين الجبال من القدود الميِّس

اين الكرام من اللئام وبخلهم   اين الجحوظ من العيون النُعَّس

والله ما انس فضائله التي   اسدانها حتى أموت وأرمس

وقوله ممتدحاً الشيخ عبد القادر الكيلاني، في قصيدة أولها[1]:

وقائلة مات الكرام فمن لنا   اذا عضنًّا الدهر الخؤون بنابه

فقلت لها لوذي بعبد القادر   سخيّ وفيٌّ واحتمي بجنابه

وهذا شعر لا يمكن أن يوصف بالسلامة والجزالة، ولكن من الصعب الحكم على شعره كله اعتماداً على نماذج قليلة كهذه.

آثاره:

أولاً: مجموعة، على هيئة دفتر يفتح طولاً، تضم فوائد ونُبذ عديدة في موضوعات أدبية وعلمية شتى، وهي تتفاوت طولاً وقصراً، وذلك على النحو الآتي:

1- دواء لحلق الشعر.

2- دواء يورث السهر.

3- في دفع الحشرات.

4- دواء مُنوِّم.

5- دهن مُلوكي لأجل القوة.

6- دواء لإخراج الشَّعر.

7- دواء لمنع الشعر.

8- دواء لدفع البَهَق.

9- دواء لتنعيم البَشَرة.

10- دواء لدفع الإمساك.

---

(1) المجموعة نفسها الورقة 42.

11- دواء لعلاج الطَرَش.

12- دواء لنفع المصروع.

13- دواء لإزالة الحكّة والجَرَب.

14- دواء لزيادة نوم المولود الصغير وسِمنه.

15- دواء لزيادة القوة.

16- دواء لزيادة الشهية.

17- دواء نافع ومُعين للحَبَل.

18- دواء لإزالة القرَع.

19- دواء لقتل الدود في البطن.

20- دواء مقوي.

21- دواء نافع للخفقان واليَرقان.

22- معاجين مقوية.

23- دواء لازالة البهق.

24- دواء لقوة البصر.

25- دواء لإزالة الريحة الكريهة.

26- دواء لنفع وجع الحلقوم.

27- دواء نافع للصرع.

28- طريقة لاستجلاب المحبّة.

29- طريقة لدفع الفأر.

30- طريقة لدفع البرغوث.

31- صفة استخراج دهن الثوم.

32- باب للقوة والسعال والبلغم.

33- دواء للحَبَل.

34- فصل عنوانه (بيان خواص مفردات الأثمار والحشايش).

35- أبيات لأبي نواس، والمتنبي، والامام الشافعي، ولآخرين لم يسمهم.

36- فوائد الثوم للقوة والسعال والبلغم، وصفة استخراج دهنه.

37- موال لخادم، ولغيره، وأبيات لابي نواس، وقصائد لم يذكر قائلوها.

38- شعر (لعثمان بك الموصلي من نسل عبد الجليل لله دره) وهو (الحاج عثمان بك الجليلي) ويضم مقدمة لقصيدة طويلة، مدح فيها العلامة عبد الله فخر المدرسين بن الحاج محمد عمر الراوي.

39- ألغاز في الأبر، وطائر البجع، وأسماء الحيَّة.

40- أبيات في الغزل، وأبيات في هَرَمي مصر.

41- لغز «في السلطان عمله رجل كردي يدعي أنه بغدادي واسمه الحاج عبد الرحمن ومخلصه وقاري[1] وذلك في سنة الالف ومايتين وسبعة وستين هجرية في 2ر (ربيع) الآخر)» [4 شباط/فبراير 1851م]

42- أبيات، ومقطعات، ورباعيات، ومواويل، لم يسم ناظميها، وبعضها في الأدب المكشوف.

43- فائدة في الإكسير.

44- دواء لعلاج الدمامل.

45- أبيات في استعمال الدخان.

46- فائدة في (اللسان المشهور بالدرسعي)[2].

47- شعر لصالح السعدي الموصلي كاتب الديوان سابقاً.

48- كلام منسوب إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني.

49- أبيات في مدح الشيخ عبد القادر الكيلاني.

50- تحية مكتوب، وهي مقدمة لرسالة او نموذج لها.

51- قصيدة رائية لبعض الصوفية.

52- لغز في قصب السُكر.

53- سبب المياسير، وتعريف دود البطن.

---

(1) التخلص هو أن يصطنع الشاعر اسماً رمزياً يعرف به.

(2) هو أشبه بالشفرة، كل حرف فيه ينوب عن الحرف المجاور له والمربوط معه.

54- شرح عبارات من (الشجرة النعمانية)[1] تنطبق على السلطان محمود الثاني والسلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز.

55- فائدة في علاج مرض (الافرنكي).

56- فوائد في قلع بياض العين وعلاج اليرقان والاسهال.

57- شعر (لمحرره خليل ونه).

58- قصيدة للبوصيري وتخميسها للملا عبد الحميد ابن الصباغ البغدادي.

59- قصيدة للسيد محمد افندي الازهري الحموي الكيلاني.

60- موال بغدادي لملا جادر آل دغمش.

61- صفة العقار الذي يقال له شجرة العمر.

62- طريقة لعلاج تساقط الشعر لمن في عمر 15-25 سنة.

63- دعاء لابي بكر (رضي الله عنه).

64- أبيات (للحاجي خليل ونه) في الشيخ عبد القادر الكيلاني.

65- فوائد في جلب النوم.

66- رباعيات وأشعار في الحكمة وغيرها لم يذكر قائلوها.

67- لغز في الزر والعُروة.

68- فائدة في عدم طيران الزئبق.

69- شعر يُنسب لابليس !.

70- تضمين للحاج خليل ونه (قاله لعبد القادر باشا زيادة).

71- فائدة في علم الرمل.

72- فوائد في الكيمياء.

73- نبذة في الادوية المفردة.

74- نبذة في أوائل السنين ودلائلها.

75- فائدة في البروج.

76- شعر لابن الخطيب.

---

(1) كتاب ينسب لإبن عربي فيه رموز قيل أنها تحمل نبوءات أو توقعات مستقبلية.

77- فائدة لتفريج الهموم.

78- فائدة في سَوق الدواب.

79- فائدة في محو الكتابة.

80- دعاء منقول عن الشيخ اسماعيل وهبة.

81- فائدة في قتل البراغيث.

تقع هذه المجموعة في 53 ورقة، بخط خليل ونه نفسه، وهي موجودة لدى الحاج ابراهيم بن خليل ونه ببغداد، ولدى كاتب البحث نسخة مصورة عنها.

ثانياً: مجموعة تضم مايأتي:

1- قصيدة تائية في الطلسمات وشرح لها، أوله:

«اللهم اني أسئلك بإسمك المقوَّم من أسمائك، العظيم الأعظم..» وآخره «تم (تمت) هذه الرسالة من يد الفقير الحاج خليل ونه لنفسه، حرره في مدينة حلب يوم 20 صفر الخير سنة الألف ومايتين واثنين وخمسون من الهجرة» [6 حزيران/ يونيو 1836م]

الاوراق 1-16

2- فائدة في عمل الكيف الورقة 17.

3- كلام لابن عربي الورقة 18.

4- فائدة في معرفة أي يوم فيها الأعمال أفضل وأنجح. الاوراق 19-23.

5- فائدة في اخراج الضمير لو أضمر رجل حرفاً من حروف الهجاء.

6- فائدة في عمل (صبغة جيدة للشعر) الورقة 24.

وهذه المجموعة بخط خليل ونه، محفوظة لدى الحاج ابراهيم ونه ببغداد، ولدى كاتب البحث نسخة مصورة عنها.

ثالثاً: مجموعة تاريخية، سجل فيها بعض حوادث عصره، أشار اليها المرحوم عباس العزاوي بوصفها من مخطوطات خزانته، ولم يُعثر عليها بعد وفاته[1].

---

(1) تقدمت الإشارة الى ذلك.

رابعاً: خواص البردة. رسالة اختصر أكثرها من كلام الشيخ عبد السلام ابن ادريس المراكشي[1]، وهي في بيان ما اختصت به أبيات قصيدة البردة للامام البوصيري من خصائص روحية ونفسية.

أولها بعد البسملة «أمن تذكر جيران بذي سَلَم... إلى قوله وما لقلبك ان قلت استفق بهم. قال الشيخ عبد السلام بن ادريس المراكشي رحمة الله عليهما : خاصة هذه الابيات الثلاثة».

نسخة بخط المؤلف، كتبها على هامش البردة للبوصيري، ولم يؤرخها . والبردة نفسها بخط نسخ جيد، كتبها عبد الله بن ملا محمد النَينَوي سنة 1287هـ/1870م. أما العنوان فقد كتبه خليل بنفسه وهو (هذه البردة وخواصها) ووقع باسمه في أسفله. وتقع في 32 ص. وهي موجودة لدى الحاج إبراهيم ونه ببغداد، ولدى كاتب البحث نسخة مصورة عنها .

خامساً: رسالة في الطلسمات والأوفاق:

يظهر من خطها أنها لخليل ونه. وهي تحتوي أيضاً على بعض الفوائد الطبية، كتبت بأسلوب عامي غالباً .

أولها «باب تكتب للفرقة على جلد الحمار في أول ساعة»، وآخرها «باب دواء العين الذي (كذا) تدمع دمع حار. تأخذ طشم 4 درهم وسيمران 1 درهم كذلك تمت».

تقع في 23 ورقة، موجودة لدى الحاج إبراهيم ونه ببغداد، ولدى كاتب البحث نسخة مصورة عنها .

سادساً: ديوان شعر. ذكر الأستاذ كوركيس عواد انه موجود في مكتبة المرحوم الدكتور هاشم الوتري ببغداد[2].

وفضلاً عما تقدم، فانه نقل بخطه عدداً من الكتب والرسائل وقفنا منها على ما يأتي:

أولاً : مجموعة تضم:

1- قصيدة إبتهالية، نظمها أحدهم في مدينة إسلامبول في أوائل محرم سنة 1136هـ/1 تشرين الأول/ اكتوبر1723م، وأهداها إلى السيد محمد التافلاتي.

---

(1) يشير إلى رسالة في خواص البردة تأليف عبد السلام بن إدريس المراكشي المتوفى سنة 660هـ/1262هـ.

(2) دليل الجمهورية العراقية لسنة 1960 ص 543.

2- الجلجلوتية. منظومة تنسب اليها خصائص روحية.

3- نظم الأسماء الرفيعة المنار. للشيخ مصطفى الصديقي الحنفي.

4- استغاثة من منظومات سيدي الشيخ محمد الشهير بالسمان.

5- أدعية.

6- فوائد طبية.

7- أبيات في ألوان الملابس.

8- قصيدة للشيخ شهاب الدين ابن الخيمي.

9- قصيدة لعبد الله افندي ابن الحجازي الحلبي.

10- قصيدة للشيخ عبد الغني النابلسي.

11- تخميسات وقصائد للشيخ عبد الواحد.

12- تخميسات للشيخ الاسكندراني.

13- قصيدة في مدح السلطان أحمد.

14- تسبيع قصيدة البردة لكعب بن زهير.

15- كلام في الطاعون من كلام الشيخ علوان في كتاب مصباح الهداية ومفتاح الولاية.

16- خطبة في هجو الفلاحين نظم أهل مصر. نقلها من كتاب (هز القحوف في شرح قصيدة ابن شادوف) تأليف يوسف بن محمد بن عبد الجواد الشربيني (كان حيا 1098هـ/1687م).

وفي هذه المجموعة فوائد مختلفة يظهر أنها من قلمه، منها حله للغز، ذيَّله بالتعليقة الآتية «قد حل رموزه خليل بن الحاج إسماعيل ونه غرة ر2 (ربيع الآخر) سنة 1230 [13 آذار/ مارس 1815م] غفر الله ولوالديه والمسلمين أجمعين» وقد شطب احدهم على اسمه بالحبر، وكتب اسمه مكانه.

تقع هذه المجموعة في 95 ورقة، وهي موجودة لدى الحاج ابراهيم وَنَّه ببغداد، وثمة نسخة مصورة عنها لدى كاتب البحث.

ثانياً: شرح القصيدة اللامية المهملة الحروف الجامعة لكل معنى مألوف. تأليف يوسف بن محمد بن عبد الجواد الشربيني كتب الأبيات بخط نسخ كبير

الحرف، بينما كتب الشرح بخط نسخ معتاد وفي آخره تعليقة تفيد بانه حرره «في بلد قسنطينة، وهي بلد من أعمال جزاير الغرب على يد الفقير الحاج خليل في يام سياحته أطراف المغرب سنة الف ومايتين وثلاثة وسبعين في 12 ذي الحجة الحرام» [3 آب/ أغسطس 1857م].

ويؤكد جمال خط هذه المخطوطة على مهارة خليل ونه بالخط أيضاً، وهي موهبة تضاف إلى جملة مواهبه الأخرى التي تقدمت الإشارة اليها.

توجد لدى الحاج ابراهيم ونه ببغداد، وعند كاتب البحث نسخة مصورة عنها.

ثالثاً: مجموعة كتب في أولها انه ابتدأ بها في «حضرة ابو الجاسم بنهر المسيب يوم تاسع عشر خلت من شهر جمادي الاول من شهور سنة الألف ومايتين واحدى وستون هجرية» وتضم ما يأتي:

1- السياسة في علم الفراسة تأليف محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي معروف بشيخ الربوة (المتوفى سنة 727هـ) وفي آخره انه اتم تحريره في 20 جمادى الآخرة سنة 1261 [26 حزيران/ يونيو 1845م].

2- قطعة من كتاب في علم الفراسة لم يعلم مؤلفه، وفيه فصل في (خطوط في الكف) مع مخططات توضيحية.

3- أرجوزة في الفراسة مختصرة مما تقدم. لم يعلم ناظمها ولعلها للحاج خليل ونه، فانه ذكر في آخرها «تم على يد صاحبه ومحرره الحاج خليل ونه» واولها:

إذا البياض ان يكمن بكثرة — مع زرقة العين كذا والصفرة

4- ارجوزة (في اختلاج الاعضاء) اولها

الحمد لله البديع الآية — وواهب العقل بلا نهاية

وفي آخرها انه «حررها مالكها الحاج خليل ونه في ذي القعدة 1261» [1 تشرين2/نوفمبر 1845م].

5- فوائد طبية، ومنها فوائد «لدفع مرض يقال له فرنكي» و «لوجع السن» قال في آخرها انها «من الاسرار التي لم توضع في كتاب».

6- مختارات من رحلة الآلوسي مفتي بغداد (وهي المسماة غرائب الاغتراب ونزهة الالباب في الذهاب والاقامة والاياب تأليف محمود بن عبد الله الآلوسي المتوفى سنة 1270هـ/1854م).

7- ابيات لقس بن ساعدة، وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومخمس، وفائدة في الفرق بين النقيضين والضدين.

تقع المجموعة في 77 ورقة. وهي موجودة لدى الحاج ابراهيم ونه ببغداد ومنها نسخة مصورة لدى كاتب البحث.

هذا ما وقفنا عليه من آثار الرحالة البغدادي، الأديب الطبيب، الحاج خليل ونه، وهي آثار دلت –بلا ريب– على جوانب من حياته الغنية بالأسفار ومعاناة الناس ووفرة التجارب والفوائد . وإذا كان مؤرخو عصره وكتاب تراجم أهله قد أغفلوا الإشارة اليه في مصنفاتهم، فليس ذلك الاّ لطول ما قضاه من سنين مغترباً خارج وطنه. وغاية ما نرجوه أن تكون قد وفقنا في تقديم صورة أولية لهذا الفاضل، آملين ان يكشف الزمان عن مزيد من آثاره، فتكتمل بها هذه الصورة، وتزداد وضوحاً. وفي ذلك ما يلقي الضوء على جوانب غير مستجلاة من تاريخ العراق الثقافي الحديث.

فىم

نموذج من مخطوطة بخط خليل ونة فيها تنبؤات تخص الدولة العثمانية

سليمان الصائغ مؤرخاً

تاريخ الموصل أنموذجاً

فوجئ القراء في العراق، وفي الأقطار العربية الأخرى، في سنة 1923 بوصول كتاب جديد إلى ديارهم طبع في المطبعة السلفية في القاهرة يحمل عنوان (تاريخ الموصل) ويقع في نحو 360 صفحة من القطع الكبير، وقد كتب عليه أنه من تأليف (القس سليمان الصائغ)[1] وفي مقدمته إهداء بليغ إلى (أعتاب إكليل هام المعالي والسيادة، .. فرع الدوحة الهاشمية، ورافع الأعلام العربية، جلالة مليكنا المفدّى فيصل الأول أطال الله بقاءه، وخلد ملء الدهر سناءه ..الخ).

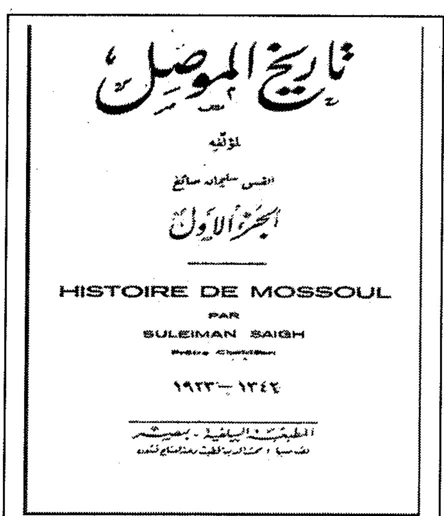
ظهر الكتاب في العراق في وقت افتقر فيه قراؤه إلى مؤلفات جديدة في حقل الدراسات التاريخية، فالكتب التي ألفها مؤلفو أواخر العصر العثماني، كانت تستجيب للحياة الثقافية التي اتسم بها ذلك العصر، وبعضها كتب منهجية أعدت لتلائم متطلبات الدراسة في المدارس العثمانية الرسمية، الأولية، والرشدية، والإعدادية، فكان ثمة حاجات جديدة لكتبٍ في التاريخ تستجيب للمتغيرات الواسعة والخطيرة التي مرَّ بها العراق في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولم تكن الظروف القاسية التي عاشها العراق في أثناء الحرب نفسها، وما أعقبها من تداعيات، وصولاً إلى قيام ثورة العشرين، لتساعد على وضع مثل تلك الكتب، وهكذا فقد صدر كتاب الصائغ ليكون الكتاب الرائد، والأول من نوعه ومستواه ومنهجه، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وتأسيس كيان الدولة العراقية الحديثة.

والمتأمل للإهداء المطول الذي وضعه الصائغ لا يبعد عن ذهنه صدى تلك المتغيرات، فالإهداء مُوجَّه إلى الملك فيصل الأول، مؤسس ذلك الكيان المسمى عراقاً بعد أن لم يكن قبل ذلك إلا ولايات مرتبطة بالإدارة العثمانية، والإشارة إلى كونه (رافع

---

(1) ولد في الموصل سنة 1886 من اسرة كان لها دور في القرن التاسع عشر، وتلقى التعليم الكهنوتي في مدارسها الدينية حتى عين قساً، ثم ارتقى في المناصب الدينية حتى أصبح مطراناً للموصل، عني بالأدب والصحافة فأسس مجلة (النجم) الشهرية سنة 1928 واستمرت بالصدور إلى سنة 1955، ألف (تاريخ الموصل) ووضع عدداً من المسرحيات التي تناولت موضوعات تاريخية وأخلاقية ووطنية، وكانت وفاته سنة 1961م.

الأعلام العربية) تنوّه بدوره في الثورة العربية الكبرى التي رافقت اندلاع الحرب، وأدت إلى إنشاء الدول العربية الحديثة، وليس سائر ما ورد في هذا الإهداء من عبارات إلا تعبيراً عن أمل أكثر العراقيين في أن يكون عهد فيصل بداية لصفحة مهمة من تاريخه تقوم على (الرقي) و(العز) و(الفلاح) و(العلم) و(المعرفة).



تاريخ الموصل

لمؤلفه

القس سليمان صائغ

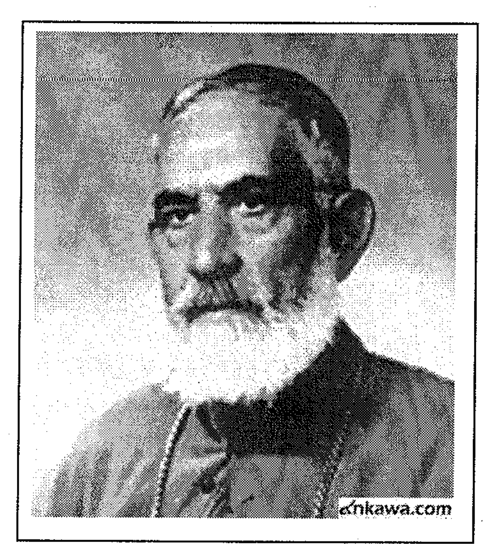
الجزء الأول

HISTOIRE DE MOSSOUL

PAR

SULEIMAN SAIGH

١٣٤٤ — ١٩٢٣



إن أهمية الكتاب إذاً تتجلي في ريادته[1]، وهي ريادة لم تكن مُيسَّرة بكل حال، فحيث لا منهج تاريخي مستقر، ولا مصطلحات ثابتة، ولا مصادر متوفرة، يصبح كل تأليف في هذا المجال محض مغامرة، وتقتضي من مؤلفه أن يشق طريقه العلمي بنفسه، فيضع منهجه، ويختار، أو ينحت، مصطلحاته، وأن يسعى بكل سبيل للحصول على مواده العلمية من مختلف المصادر، ومنها ما هو نادر لم يصل إلى مكتبات العراق، أو مخطوط يحتفظ به أصحابه في خزائنهم الشخصية.

وسنحاول الحديث عن هذا الرائد من زاويتين: منهجه، ومصادره، وذلك على النحو الآتي:

---

(1) كتب الصائغ على كتابه عبارة (الجزء الأول) ووعد فيه بإصدار جزء ثان له، وقد أصدره بالفعل في بيروت سنة 1940 وهو يتناول التاريخ الأدبي للموصل، ثم أعقبه بجزء ثالث اختص بتاريخها العمراني، وقد خصصنا الجزء الأول بدراستنا هذه بسبب ريادة هذا الجزء في مجال الكتابة التاريخية في العراق، وهو ما لم يعد يتصف به الجزآن الآخران إذ صدرت عهد ذاك كتب عديدة في موضوعهما.

أولاً: منهجه

رتب الصائغ كتابه تاريخ الموصل حسب السياق الزمني للدول التي تتابعت على حكم هذه المدينة، ولم يكن ثمة منهج آخر في عهد خلا من أي كتابٍ سابق في الموضوع نفسه، على أنه مع ذلك كان مَرناً في اتباع هذا الترتيب، لا سيما حينما كانت تتداخل الحقَب التي شهدت سيطرة هذه الدولة أو تلك، وهكذا فإنه قسَّم كتابه إلى توطئة تاريخية وأربعة أبواب، تناول في التوطئة تاريخ الدول التي كان لها حكم على منطقة الموصل، قبل نشوء الموصل نفسها، مبتدئاً بالدولة الآشورية، فالدولة الآكدية، ثم الدولة الأخمينية، فالسلوقية، وانتهاء بالدولة الساسانية، وهي حقب تُقدَّر بنحو ألف وسبعمائة سنة. وتناول في الباب الأول ويتألف من 12 فصلاً، استوعبت تاريخ الموصل منذ نشوئها أول مرة في القرن الرابع للميلاد، ومكوناتها الاجتماعية، ومعنى اسمها، وفتح المسلمين لها، وما شهدته من عهود الدول الراشدية والأموية والعباسية، ومنها ثورات أهلها المتكررة، والاضطرابات العامة، وما تحقق فيها من تقدم علمي وعمراني.وتغطي هذه الفصول ستمائة سنة، بينما يتألف الباب الثاني من 13 فصلاً، تناولت تاريخ الموصل في عهد الدولتين الحمدانية والعقيلية، وهما الدولتان اللتان اتخذتا من الموصل قاعدة لهما، وكان لهما حكم على أعمالها في عهد الخلافة العباسية، وتغطي مدة قرنين تقريباً، أما الباب الثالث فيتألف من 21 فصلاً، ويغطي تاريخ الموصل في عهدي الدولتين السلجوقية والأتابكية، انتهاء بظهور المغول على مسرح السياسة، وهي مدة استغرقت نحو ثلاثة قرون. ويتألف الباب الرابع، وهو الأخير من 24 فصلاً، تغطي تاريخ الموصل في العهود التي تعاقبت عليها بعد سقوط الخلافة العباسية وحتى تتويج الملك فيصل الأول ملكاً على العراق، في مدة تقرب من ثمانية قرون.

لم يُقسَّم الصائغ كتابه إذن على أساس زمني محض، فالباب الأخير يعدل في حجمه مجموع البابين الأولين، ومن الواضح أن التفاوت بين أحجام الأبواب وأعداد الفصول بين كل باب وآخر يرجع إلى أهمية الدول الحاكمة في تاريخ الموصل، ولذلك خصص للحقب التي شهدت حكم الدول الحمدانية والعقيلية والسلجوقية والأتابكية بابَين، بينما خصَّص للحقبة الممتدة من الاحتلال المغولي حتى الاحتلال البريطاني باباً واحداً لأنه لم يجد أسباباً موضوعية تجعله يقسِّمه إلى بابين، فالدول الاجنبية تتعاقب على احتلاله الواحدة تلو الأخرى دون أن يكون ثمة تغير يذكر في طبيعة الحياة

والحضارة فيه، وهذا التغيير هو ما سماه (الدور الإنقلابي)، بينما وجد في تأسيس الدولة العراقية بداية لمرحلة جديدة، أو دور جديد، يتوقف عندها.

1- إفادته من علم الآثار:

لم يعتمد الصائغ فيما أورده من معلومات عن العصور القديمة في بلاده على المصادر الإسلامية التقليدية، وإنما رجع إلى معطيات علم الآثار، وتقارير الآثاريين الأوربيين الذين كشفوا في أعمالهم صفحات مجهولة من تاريخ تلك العصور، من ذلك مثلاً أنه انتقد (الروايات غير المُسندة التي أوردها القدماء عن الآثوريين) وأورد خلاصة بما توصل إليه علماء الآثار المحدثين، فقال (أما الحقيقة التاريخية التي وقف عليها العلماء من الآثار القديمة المكتشفة حديثاً فهي..الخ)، ومثل ذلك أنه ساق بعض الروايات التقليدية عن مدينة الحَضَر، ولكنه أعقبها بمعلومات جديدة استقاها من بعثة ألمانية كانت تجري أعمالها التنقيبية في هذه المدينة العظيمة وأورد خارطة لها أخذها عن هذه البعثة[1]. وعلى الضد من ذلك، فإنه لم يُذعن لآراء العلماء المُحدثين دون نقد، من ذلك أنه انتقد ما تناقله بعض المؤرخين عن قدم الموصل في العصور الاشورية، مقرراً (أن التواريخ القديمة لا تقدم برهاناً وضعياً على تملك العرب في بقعة آثور في الأعصر المتوغلة أي في نشوء الدولة الآثورية)[2].

2- نقده للنصوص:

وفي الواقع فإن الصائغ كان مسيطراً على منهج النقد التاريخي ومستوعباً له إلى حد بعيد، وقد حقق ريادة حقيقية في هذا المجال، بعد أن كان أكثر المؤرخين يميلون إلى إثبات ما يحصل عندهم من نصوص مختلفة فلا يرجحون رأياً ولا يُبعدون آخر، وإنما يجمعون المتناقضات جميعاً دون أن يكون لهم رأي في أي منها. وواضح أن الصائغ كان يمتلك شخصية علمية قوية لها قدرة على التعامل مع الروايات المختلفة بالتأييد أو التفنيد، أو أن يأتي من وراء ذلك برأي جديد، مثال ذلك أنه حينما ناقش معنى اسم الموصل استعرض آراء مختلفة لإيشوعدناح البصري ولياقوت الحموي ولأحمد بن حمزة وغيرهم، وانتهى إلى أن الاسم عربي صميم بمعنى الموقع الذي يصل منطقة بأخرى وبلد بآخر، وذكر أن بعض

---

(1) ص 30.

(2) ص 24

المستشرقين أيد هذا الرأي ومنهم المستشرق ليسترنج في كتابه بين النهرين[1]. ومثل ذلك أنه عرض رأي ياقوت بهذه التسمية على أنها تعبير على احتداب دجلتها، وابن بطوطة في أنها نسبة إلى احتداب قلعتها، ومحمد أمين العمري في أنها لاحتداب أرضها «بل بعضها على نشز وقلاع وبعضها في منخفض من الأرض»، وقد أعلن الصائغ تأييده للرأي الأخير مع أنه متأخر زمنا عن الرأيين السابقين مستنداً إلى الواقع المرئي لأرض الموصل نفسها فقال «وقد يكون هذا التعليل أقرب إلى الصواب، إذ يُرى اليوم حَدب المدينة في جهتها الشرقية أي في محلة القلعة وهي على نشز مرتفع من أرضها ..»[2] .

وتوصله إلى تقدير معقول لسكان الموصل في عهد الخلفاء على أساس رواية تقول بأن عدد القتلى في إحدى المعارك التي دارت في ذلك العهد بلغت في اليوم الأول 11000 قتيل، وأن المذبحة دامت ثلاثة ايام، فما كان من الصائغ إلا أن ضرب العدد في ثلاثة فتحصل لديه 44000 قتيل، وقال (ومع ذلك لم تخل المدينة من السكان) لأنهم شاركوا في معركة تالية، فتوصل إلى عدد سكان الموصل يومئذ بلغ نحو 100000 انسان، هذا مع لم يستبعد أن يكون في عدد القتلى بعض المبالغة[3]، وهذا استدلال جيد كما ترى. وشبيه بذلك ما توصل إليه من أن عدد سكان الموصل كان في القرن الثامن عشر نحو 125000 نسمة، وذلك بناء على رواية تقول بأن عدد الأموات الذين قضَوا بسبب الطاعون سنة 1186هـ/1772م بلغ أكثر من 100000 نسمة، وأن عرف من الجنود المقلدين حراسة أبواب المدينة بأنه لم يبق من سكانها إلا نحو الخمس، فتوصل إلى أن عدد السكان كان يبلغ 125000[4].

3- عنايته بالجغرافية التاريخية:

ومن أسس المنهج التاريخي الذي أتبعه الصائغ ربطه بين الحدث وأرضه، وهو ما أدى إلى اهتمامه الشديد بالجغرافية التاريخية للأماكن التي جرت فيها حوادث تاريخه، لا سيما خطط الموصل القديمة وتعيين اماكن الأديرة والقرى المحيطة بها، من ذلك استدلاله من نص ابن الأثير أن قصر الحر بن يوسف والي الموصل الأموي كان

---

(1) ص 56.

(2) ص 57.

(3) ص 91.

(4) ص292.

يشغل أسواق القتابين والشعارين وسوق الأربعاء. وكان سوق الشعارين معروف في عهده، وسوق القتابين غير معروف، بينما رجح أن يكون سوق الأربعاء هو محلة جهار سوق[1]، وهكذا فإنه استدل بالمعلوم من المعالم على ما هو غير معلوم منها، وهو منهج سليم في علم الخطط، واسترجح أن يكون (الربض الأعلى) هو «ما يجاور المحلة المسماة اليوم محلة القلعة»[2]، وأثبت أن الباب الأبيض هو المعروف في الموصل بباب البيض، وإن باب الجيش هو الذي عرف في العهود المتأخرة بباب لكش[3]. وتوصل إلى القصر الذي أنشأه حرب بن عبد الله عامل المنصور على الموصل يقع «قرب قرية قنيطرة قبالة بافخاري قرية ابن الأثير»[4] واستطرد في حديثه عما دمَّره نادرشاه من الأديرة التي في جوار الموصل إلى البحث في تاريخ دير مار إيليا متوصلاً إلى أنه نفسه المسمى دير سعيد الذي شيده مار إيليا الحيري كما شهد بذلك توما المَرجي وإيشوعدناح البصري مؤرخ الأديرة، وأن سعيد هذا هو نفسه مار إيليا، وأن تشييده جرى قبل الإسلام بنحو مائة عام، ومع ذلك لم يستبعد أن يكون سعيد بن عبد الملك الأموي مستنداً إلى ما قرأه في قصيدة كلدانية لأشوعياب الإربلي من أن مار إيليا أبرأ سعيد أمير الموصل من مرض عضال اعتراه فبنى له الأمير ديراً بجوار الموصل، وأن هذا الأمر غير ممتنع نظراً لطول حياة مار إيليا ومعاصرته لسعيد المذكور.

كما استطرد في أثناء حديثه عما خربه محمد باشا ميركور في نواحي الموصل ومنها دير مار هرمزد فتكلم عن تاريخ هذا الدير معتمداً على الطَيْرَهاني وعلى المؤرخين العرب، ووصفه وصفاً جميلاً وأسف على ما أصابه من خراب[5]. ودير مار ميخائيل في شمالي الموصل، وقد أشار إلى تجديده على يد يوحنا الطريد الموصلي على ما رآه في قصيدة مخطوطة لابن الشعّار أحد رهبان هذا الدير[6]، وغير ذلك من هذه المقارنات والاستدلالات التي دلت على أن تعمق الصائغ في الجغرافية التاريخية لمدينته وبحثه في تاريخ معالمها القديمة لم يكن في أثناء انشغاله بتأليف كتابه، وإنما هو نتاج لدراسات ورحلات سبقت ذلك الإنشغال بمدة، كما أنه تكلم على معالم

(1) ص 64- 65.
(2) ص 82.
(3) ص 272.
(4) ص 70.
(5) ص 207.
(6) ص93.

عديدة في نواح من كردستان، التي يبدو أنه كان محيطاً بها بحكم رحلاته إليها واطلاعه المباشر على معالمها الأثرية والعمرانية. من ذلك حديثه معلثايا القريبة من دهوك، وباعشيقا، وباسورين، وسنجار، وبالطة، وبرقعيد، وهرور، وشوش، وغير ذلك.

لم يكتف الصائغ بذكر ما استقصاه من معلومات، وإنما سعى إلى تقريبها إلى تصور القارئ، فحدد المسافات بين المواقع التاريخية بالكيلومترات، وعين أماكنها بدقة.

4- عنايته بالتاريخ الثقافي والاجتماعي والعمراني:

على الرغم من اهتمام الصائغ بتاريخ الموصل السياسي والعسكري، وهو أمر طبيعي لمن يكتب في تاريخ مدينة لم يسبقه إلى الكتابة عنها أحد من أهل عصره، فإنه سعى أيضاً إلى تقديم لمحات متنوعة عن تكوينها الإجتماعي والثقافي والعمراني في بعض ما كتب عنه من عصور. من ذلك أنه كتب مبحثاً مهماً عن سكان الموصل قبل الفتح الإسلامي وما بعده، لا سيما من القبائل العربية التي نزحت إليه منذ عصر الدولتين الآشورية والأكدية، ودورها في العهود التالية لا سيما في العهد الفرثي، وتأسيسها مملكة الحضر، وعقد مبحثاً خاصاً في أصل (الجرامقة) وهم من سكان الموصل القدماء قبل الإسلام، وما إلى ذلك من شؤون[1]. كما أنه أعقب ذلك بفصل آخر تحدث فيه عن القبائل العربية التي نزحت إلى الموصل وجوارها قبيل الإسلام وفي اثناء انتشاره في تلك الأنحاء، وما بعده، ومواطن استقرارها، ودورها السياسي، وتناول أيضاً القبائل التركمانية والكردية، وغيرها[2]. وتحدث في فصل آخر عن النهضة العلمية والعمرانية التي شهدتها الموصل في عهد الخلافة العباسية، لا سيما تأسيس ما يتعلق بتأسيس المدارس المسيحية والإسلامية، وظهور عددٍ جَم من العلماء[3]، ثم تناول في فصل تال تاريخ الحركة العلمية والتعليمية في الموصل في العصر العثماني، فتحدث عن مدارس الموصل الملحقة بالمساجد والكنائس، وظهور الطباعة وتأسيس المطابع الأولى فيها، ودور البعثات المسيحية في ذلك، وتعليم البنات وما إلى ذلك[4]. ومع ذلك انتقد بعض الكتاب كتابه على أساس «أنه لم يضع تاريخاً للموصل، بل وضع سجلاً للوقائع

---

(1) ص28-31.

(2) ص51- 55.

(3) ص90- 93.

(4) ص 321- 325

الحربية في الموصل، بل قد وضع تاريخاً لموقع الموصل لا للموصل»[1] وهو نقد ينطوي على كثير من الإجحاف فلقد حرص الصائغ على تقديم هذه اللمحات لأنه رآها ضرورية لأكمال صورة ما تكلم عنه من التاريخ السياسي لمدينته، ولم يعد ما قدمه نهائياً، لأنه وعد بتفصيل ذلك في جزء ثان، وهو ما فصّله فعلاً في جزئين تالين.

5- عنايته بأقيام العملات:

وبنفس الرغبة بالإتقان فإنه سعى إلى تحديد أقيام العملات المستعملة في الدول حيثما وردت في النصوص التي اعتمدها، ويلاحظ أنه اعتمد في ذلك الجنيه المصري لا الروبية الهندية التي كانت تستعمل في العراق آنذاك، أو الجنيه الانكليزي مثلاً، من ذلك أنه حدد الدينار في العهود الإسلامية بنصف جنيه مصري[2]، وقدر أن ثلاثة ملايين درهم في عهد المنصور العباسي بما يساوي مائة ألف جنيه[3]، وأن مليوني درهم في القرن الرابع للهجرة كانت تساوي تقريباً 66,666 جنيه،[4]، وخمسة عشر ألف دينار كانت تساوي 7500 جنيه[5]، وغير ذلك. وقد اعتمد الصائغ التاريخ الميلادي في كتابته تاريخ الدول التي تعاقب حكمها على الموصل، لكنه قرنه بالتاريخ الهجري حيثما ورد.

6- أسلوبه:

ويمكن القول أن أسلوب الصائغ كان جيداً مُعبَّراً عن أفكاره بوجه عام، ويرجع ذلك إلى دراسته العربية في المعاهد التي درَس فيها، وإلى اهتماماته الأدبية، وقد ساعدته مَلكاته القصصية والمسرحية على أن يحكم الصياغة التاريخية لما ساقه من أخبار، وأن يحكم، من جهة أخرى، العلاقة المنطقية بين كل فقرة وأخرى، ومبحث وآخر.

---

(1) هو توفيق السمعاني، المدرس في مدرسة الإليانس في بغداد آنذاك، ينظر بعض المقالات التي نقد فيها أصحابها كتاب (تاريخ الموصل) عند صدوره على موقع (موصل نيت وورك) وهي من جمع السيد قصي آل فرج.

(2) ص156.

(3) ص 72.

(4) ص139

(5) ص171.

7- حَيْدته العلمية:

وعلى الرغم من أن الصائغ كان كاهناً، إلا أن ثقافته الدينية لم تترك بصماتها على كتاباته التاريخية، حتى أن قارئه يكاد لا يشعر بهوية من يقرأ له إن كان مسيحياً أو مسلماً، وباستثناء استطراداته في تاريخ بعض الأديرة واشاراته إلى بعض الكتبة المسيحيين، فإنه كتب تاريخاً سياسياً حضارياً لمدينته التي أحبها لا أقل من ذلك ولا أكثر. وقد أفصح هو في مقدمته عن مقصده من تأليفه كتابه فقال أنها لم تزد عن أن تكون رغبته في خدمة أبناء وطنه «من العامة الذين لا يستطيعون مطالعة مجلدات ضخمة للوقوف على بعض أحوال الموصل» وأنه كتب ما كتب «رجاء نفع العامة ونيل رضى الخاصة، وما قصدي في هذا العمل إلا إمحاض الخدمة لوطني»[1].

ثانيا: مصادره:

ولعل ما يَسَّر للقس الصائغ كل هذه المكابدات، إطلاعه الواسع على المكتبة التاريخية العربية في ذلك العهد، من المصادر القديمة التي وجدت طريقها إلى النشر في مطابع مصر والشام، وعدد من الكتب التركية التي تناولت بعض جوانب موضوعه، وبعض الوثائق والمخطوطات التي حصل عليها من مختلف المظان.

وكان هو قد أثبت قائمة بمصادره بعد فراغه من مقدمته مباشرة، وكان من المؤلفين من يختار هذه الطريقة في إثبات المصادر بعد مقدمته جرياً على تقليد القدماء، الذين كانوا ينوِّهون بأهم ما اعتمدوه من مصادر ضمن مقدماتهم، لا في قوائم خاصة تفصيلية كما جرى عليه المؤلفون المحدثون. وقد أورد في قائمته التي شغلت صفحتين ستة وثلاثون كتاباً، يمكن تحليلها على النحو الآتي:

الوثائق غير المنشورة

أشار إلى (بعض أوراق خطية قديمة)، ولم يزد في تعريفه إياها، بما يوضح مكان وجودها، وتاريخها، وطبيعتها إن كانت تشكل رسائل مؤلفه، أو مجرد أوراق مفرقة، أو منتزعة من مخطوطات أخرى. وقد رمز إليها في إحالاته بشكل (أو. خطية) على سبيل الاختصار.

---

(1) ص6.

بلغ عدد النصوص التي عزاها إلى هذه الأوراق خمسة نصوص مهمة، جميعها يتناول حوادث جرت في الموصل في العصر العثماني، هي:

نص مؤرخ في سنة 1123هـ/1711م يقع في 14 سطراً، يتحدث عن غلاء حصل في الموصل وتوابعها صاحبته حركة نزوح للسكان في طلب الرزق، عرف بغلاء ابراهيم باشا، ويذكر أن ابراهيم هذا كان مستبداً عاتياً سعى إلى استصدار أمر سلطاني بإعدام أحد سُراة الموصل الفضلاء، وهو أحمد أفندي العمري، حَسَداً منه لهذا الفاضل بسبب تشييده قصراً كبيراً على دجلة واجتماع الناس عنده، ويروي النص أن ولداً لأحمد أفندي هذا استطاع أن يثبت لأولي الأمر في القسطنطينية براءة أبيه، وحينما عاد إلى الموصل وجد أباه قد أعدم، فعاد إلى العاصمة العثمانية شاكياً حيث سعى إلى أعدام ابراهيم باشا فأعدم[1].

نص مؤرخ في سنة 1138هـ/1720م، يقع في 15 سطراً، يتحدث عن فتنة علي أفندي المفتي العمري، ويذكر أنه هو الذي استصدر موافقة الدولة العثمانية في فتح باب جديد في سور الموصل لكي يسهل عليه دخول المدينة منه حينما كان يقضي نهاره خارج هذا السور في بستان له يعرف بالناعور، وأن هذا الباب كان يقع بين باب البَيِّض وباب لكش، وأنه «سمي بباب الجديد إلى اليوم».

نص مؤرخ في سنة 1143هـ/1732م، ويقع في 12 سطراً، يتحدث عن جانب من المعركة التي دارت بين الموصليين وبين جيش نادرشاه في صبيحة اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال من ذلك العام، ودور والي الموصل آنذاك الحاج حسين باشا الجليلي في استنهاض الهمم من أجل الدفاع عن المدينة، وهي المعركة التي انتهت بانتصار الموصليين انتصراً مؤزراً[2].

نص مؤرخ في سنة 1156هـ/1732م، ويقع في 8 سطور، وهو يتحدث عن معركة بُرج باش طابِيَة التي انتصر فيها الموصليون على هجوم شنه جنود نادرشاه، ويفيد بأن عدد القنابل التي أطلقتها مدفعية نادرشاه بلغت نحو مائة ألف قذيفة[3].

نص مؤرخ في سنة 1232هـ/1808م، ويقع في 10 سطور، هو يتناول حملة الصدر

---

(1) ص 271.

(2) ص 277.

(3) ص285.

الأعظم كُورجي محمد رشيد باشا على كردستان وفتحه العمادية وسائر اقليم بهدينان، واعلان أكثر مناطقها بالإذعان له، ثم تنكيله الشديد بالإيزيدية[1]. ونحن نرى أن الصائغ اعتمد هنا على أوراق كتبها ارشيلدوس بن الشماس حنا الموصلي، أرخ فيها حوادث ما جرى في أواخر عهد الجليليين، وقد اطلعنا على هذه الأوراق في مكتبة المرحوم الدكتور صديق بك الجليلي في الموصل في أوائل سبعينات القرن الماضي[2].

وثيقة سماها (كتاب خطي في الطومار الجليلي) ورمز إليها في الإحالات بلفظ (طومار)، ويثير هذا العنوان لبساً، فالطومار هو الوثيقة المطوية، أو اللفافة من الورق، تتضمن أمراً سلطانياً أو نحوه، وهو بهذا ليس كتاباً، وإنما وثيقة رسمية، وكنت قد سألت المرحوم الدكتور صديق الجليلي سنة 1971 عن هذا الطومار فذكر أنه فرمان من السلطان يقضي بمنح قرية قره قوش إلى الحاج حسين باشا الجليلي مكافأة له على دوره في الدفاع عن الموصل في أثناء حصار نادرشاه لها سنة 1156هـ/1743، ثم سألت الدكتور محمود الجليلي عنه، فأرانيه، فإذا هو فرمان قد خُط على لفافة طويلة، وحُلي بكمية غير قليلة من الذهب، وزخارف جميلة اخرى، وقد كلف رحمه الله أحد المصورين في الموصل بتصويره لي.

بيد أن النصَّين اللذين اقتبسهما الصائغ لا يدلان على أنهما أخذا من هذه الوثيقة، فالنص الأول يقتصر على خبر وفاة الحاج حسين باشا الجليلي سنة 1171هـ/1757م، وأما الثاني فيتحدث عن مقتل والي الموصل عبد الباقي باشا الجليلي وتعيين سليمان باشا الجليلي وذلك سنة 1200هـ/1785م، وكلا الخبرين جَرَيا بعد تاريخ كتابة الوثيقة المذكورة، ولسنا نعلم بعد هذا حقيقة هذا (الكتاب الخطي) وما معنى وجوده في (الطومار الجليلي)، إلا أن يكون كتاباً حُفظ في طي تلك اللفافة، أو في طي لفافة أخرى لا نعلم هويتها.

المخطوطات

اعتمد سليمان الصائغ على مجموعة من المخطوطات هي:

1- (منهل الأولياء) الذي وصفه في قائمة مصادره أنه (تاريخ خطي للموصل لمؤلفه محمد أمين أفندي العمري)، ومحمد أمين هذا هو ابن خير الله الخطيب

---

(1) ص 302.

(2) كتابنا: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، ط:2، لندن 2009، ص246.

العمري الموصلي (المتوفى سنة 1203هـ/1788م) وكتابه هذا يعد من أهم التواريخ المحلية للموصل في العهد العثماني، وقد أحال عليه في ثنايا كتابه سبع مرات، ولكنه اعتمده بشكل رئيس في عرضه تعاقب الولاة على الموصل منذ سنة 1000 للهجرة، حتى سنة 1199هـ/1784م. ولم يذكر على أية نسخة من هذا الكتاب قد اعتمد، وإن كنا نرجح أن تكون النسخة التي كانت في مكتبة مدرسة الخياط وقد نسخت سنة 1267هـ/1850م، ثم آلت إلى مكتبة الأوقاف في الموصل.

2- أوراق تتضمن تاريخ العائلة العمرية لكاتبها حسن أفندي بن محمود أفندي العمري، ولم يعين المكان الذي وجد فيه هذه الأوراق، ولا هوية كاتبها، أو سنة وفاته في الأقل، ولكن يظهر أنه كان معاصراً له. وقد نقل منه خبراً مطولاً في نحو 14 سطراً، تضمن خبر استقدام الدولة العثمانية للأسرة العمرية والأسرة الأعرجية إلى الموصل من مكة والمدينة في سنة 971هـ/1563م، وتعيين المحلات التي نزلت فيها من مدينة الموصل[1].

3- مخطوط سماه (حاشية عن تاريخ العمادية) ووصفه بقوله (وهو كتاب خطي في اللغة العربية محفوظ عند أحد أشراف قرية زيروا من قرى العمادية) وذكر أنه اطلع على شيء منه نقله صديق الدملوجي (المتوفى سنة 1958) وتتناول المعلومات التي نقلها الصائغ من هذه المخطوطة تتناول السنة الأخيرة من تاريخ الأمارة، وهي سنة 1258هـ/1842م[2]، وظن السيد محفوظ العباسي[3] (المتوفى سنة 2010) أن هذا الكتاب هو ما عرف بالوثيقة الزيوكية[4]، وهي وثيقة تضمنت أنساب أمراء العمادية الأوائل وتاريخهم، مع أن هذه الوثيقة لا تتناول إلا الحقبة المبكرة من تاريخ الإمارة، كما أن (زيروا) ليست (زيوكان) التي جددت فيها تلك الوثيقة فنسبت إليها، فهي إذن مخطوطة غيرها. ولاشك في أهمية هذه المخطوطة التي اعتمدها الصائغ، مما دفع بنا إلى البحث عنها في قرية (زيروا) وقرى العمادية سنوات عدة فلم نعثر منها على أي اثر.

---

(1) ص267.

(2) ص311.

(3) إمارة بهدينان العباسية، الموصل 1969، ص30.

(4) نشرنا هذه الوثيقة مستقلة في كتاب بعنوان (الشجرة الزيوكية، نسب أمراء بهدينان وتاريخهم)، أربيل 2009.

4- مخطوط في التاريخ للمؤرخ الموصلي ياسين بن خير الله الخطيب العمري (المتوفى بعد سنة 1232هـ/1816م)، ولم يسمه، ويظهر أنه لم يطلع عليه كاملاً لأنه لم يذكره في قائمة مصادره، ولكنه أطلع على أوراق منه فيها نبذة عن حصار نادرشاه للموصل سنة 1156هـ/1743م، وما نسب إلى قديسيها من كرامة أدت إلى كف الأذى عن المدينة وانسحاب نادرشاه عنها بعد ذلك الحصار، ثم قيام الوالي الحاج حسين باشا الجليلي بترميم ثماني من كنائسها عرفاناً لما اثر عنها من دور روحي في تلك الأسابيع العصيبة[1].

5- تاريخ دير ربان هرمزد. مخطوطة وصفها بقوله «هو تاريخ خطي يتعلق بحوادث الدير المذكور»[2]، والحوادث التي يشير إليها هي النكبة التي تعرض لها الدير ورهبانه وعدد من القرى المجاورة على يد أمير رواندوز محمد باشا المعروف بميركور سنة 1832م. وثمة مدونات عديدة عن هذه الحوادث فلا يعرف على وجه اليقين أي كتاب منها يعنيه في هذه الإشارة.

6- مخطوطة تضمنت ما عنونه «قصيدة ضافية باللغة الكلدانية يصف فيها مظالم ميركور» في نواحي قرى الموصل، من نظم من سماه دميانوس الألقوشي، وهذه القصيدة وصف فيها ناظمها مذبحة ألقوش والدير في غارة الأمير الرواندوزي محمد باشا مير كور، وهي من محتويات خزانة دير السيدة في بلدة ألقوش، فمن الراجح أنه اطلع عليها هناك[3].

7- مخطوطة لم يذكر لها عنواناً ووصفها بقوله (رسالة خطية باللغة الكلدانية قديمة العهد) وذكر أنها لراهب نسطوري اسمه (راميشوع) كتبها سنة 1793 يونانية الموافقة لسنة 1452، وموضوعها تاريخ الدير الذي أنشأه الراهبان يوحنا ويشوعسبران في القرن الرابع للميلاد ثم تحول إلى معبد للإيزيدية في القرن السابع للميلاد[4].

---

(1) ص 289.

(2) ص 307.

(3) بطرس نصري الكلداني وأدي صليبا ابراهينا: نبذة تاريخية عن بعض مشاهير طائفة الكلدان الكاثوليك، مجلة المشرق 4 (بيروت 1901) ص874-855، وألبير أبونا: أدب اللغة الآرامية ص540-541.

(4) ص299.

8- منظومة ايشوعياب بن المقدم، من القرن الخامس عشر[1]، أشار إليها في الاستدلال على أن المعبد الإيزيدي إن هو إلا دير يوحنا ويشوعسبران المذكور. ولم يشر إلى المكان الذي وقف عليها فيه.

9- تاريخ مجهول الاسم ذكر أن مؤلفه من أهل القرن الثالث عشر، وأن البطريرك أفرام رحماني نشره، وهذا هو المعروف بتاريخ الرهاوي المجهول وقد نشره رحماني في دير الشرفة بلبنان سنة 1904م.

كتب المسكوكات

تعد الكتالوكات الخاصة بأنواع المسكوكات مصدراً مهماً في التعرف على حكم الدول والملوك، وقد أفاد منها من كتب في جداول حكام العالم الإسلامي من الباحثين الأوربيين، أمثال زامباور ولين بول وغيرهما، ونحن نرى أن سليمان الصائغ كان الرائد الأول من المؤرخين العراقيين في الإعتماد على هذا المصدر الموثق الذي يصعب الشك في معطياته، وقد أفاد منه في حديثه على ملوك الأتابكة في الموصل، حيث أورد جدولاً وضعه الدبلوماسي الآثاري نيقولا سيوفي ضم أسماء (بعض الملوك الأتابكيين)، ومع ذلك فإنه لم يعتمد على قراءة سيوفي لهذه المسكوكات على نحو مطلق، إنما صحح بعض تلك القراءة على وفق قراءته هو لتلك المسكوكات[2].

المصادر العربية

كان الصائغ مُدركاً لضرورة الإعتماد في كتابة تاريخ حقبة معينة على المصادر الخاصة بها، ومن هنا فقد اعتمد في تاريخه للموصل في العهود الإسلامية على المصادر العربية، بوصفها الأقرب غلى مجريات الحوادث التي شهدتها المدينة في تلك العهود، وكان في مقدمة مصادره كتاب الكامل في التاريخ لإبن الأثير الجزري فقد استقى منه مواده التاريخية التي تغطي تاريخ الموصل منذ الفتح الإسلامي وحتى بدايات القرن السابع للهجرة، وأحال إليه نحو 46 مرة، ويليه تاريخ ابن خلدون، فقد اعتمده بصفة متوازية مع تاريخ ابن الأثير، ثم غطى به حوادث الموصل بعد الأخير، فبلغ عدد المرات التي أحال إليه نحو 37 مرة، إضافة إلى إحالات إلى مقدمته بلغت 3 مرات، واعتمد على (وفيات الأعيان) لابن خلكان في ترجمته للأعلام الذين كان لهم

---

(1) ص 301.

(2) ص 228.

تعلق بتاريخ الموصل، فبلغ عدد إحالاته إليه 25 مرة، وكان كتاب (ابي الفداء) معينه في سد بعض الثغرات التاريخية لا سيما في الحقبة التي تلت العصر العباسي فكانت احالاته إليه 21 مرة، وأفاد من كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي نحو 12 مرة ضبط فيها أسماء المواقع الجغرافية التي تقع حوالي الموصل خاصة ، وأورد روايات أدبية من كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني فبلغت إحالاته إلى هذا الكتاب 5 مرات، والثعالبي مرتان، وإحالة واحدة لكل من المسعودي والطبري والواقدي وبعض المصادر الأخرى. واعتمد على كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) لشهاب الدين المقدسي، وأحال إليه 10 مرات في تغطيته لتاريخ الدولتين النورية والصلاحية، فضلاً عن اقتباساته من رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة فيما يتعلق بمشاهداتهما للموصل. ورجع الصائغ أيضاً إلى مصادر مسيحية كتبت بالعربية، أبرزها كتاب المجدل لعمر بن متي، معتمداً طبعة جيسموندي في روما سنة 1898م. واعتمد أيضاً على كتاب (مختصر تاريخ الدول) لإبن العبري في اقتباسه روايات لم ترد في ابن الأثير.

المصادر السريانية

أشرنا في كلامنا عن المخطوطات والوثائق أن الصائغ اعتمد على عدد من المخطوطات السريانية، وهنا نشير إلى اعتماده أيضاً على كتب سريانية مطبوعة، منها كتاب (العفة) لإيشوعدناح البصري (أواخر القرن 8م) وهو في تاريخ الأديرة ومؤسسيها، وقد نشره بيجان، ومنها (أخبار الشهداء) الذي نشره بيجان أيضاً، ومن تلك المصادر التاريخ السرياني لابن العبري، وقد اعتمد عليه مرة واحدة، و(المكتبة الشرقية) ليوسف السمعاني، وقد أفاد منها في عدة مواضع، وتاريخ أربيل لمشيحا زخا الذي نشره ألفونس منكنا، و(أخبار الداسنية)[1] الذي نشره في روما شموئيل جميل سنة 1900 مع ترجمة إيطالية[2]، وهو من تأليف اسحق بن بطرس عَبدال البَرْطلي(كان حياً سنة 1306هـ/1888م) ويتضمن عقائد اليزيدية وأعيادهم مع نبذة من تأريخهم.

الكتب الأوربية

كان الصائغ يجيد من اللغات الأوربية الإنكليزية والفرنسية، وهذا ما مكنه من الإفادة من بعض المصادر المؤلفة بهاتين اللغتين في تاريخه للموصل، فأشار إلى رحلة

---

(1) ص 305.

(2) التاريخ والمؤرخون ص305.

الراهب الدومنيكي لانزا ناقلا من نصها الفرنسي، وأبحاث لنقولا سيوي في قنصل فرنسا في الموصل في تاريخ الموصل المنشورة في المجلة الآسيوية الصادرة في باريس عهد ذاك، وإلى كتابات الرحالة الآثاري لايارد صاحب التنقيبات الشهيرة في مدينة نينوى قرب الموصل، وإلى كتاب في تاريخ الدولة الكلدانية بعنون (كلدو) لمارتان، ومختصر تاريخ الكنيسة للمعلم لومون بالفرنسية، وكتاب (نو) عن اليزيدية بالفرنسية أيضاً، وميتان بالفرنسية في الموضوع نفسه وغير ذلك، وكتاب عن الأداب السريانية لدوفال الفرنسي، وغير ذلك.

الكتب التركية

كان الصائغ يتقن التركية، إلا أنه مع ذلك كان مقلاً في مراجعة المصادر العثمانية على الرغم من أهميتها في بحثه، لا سيما ما يتعلق منه بتاريخ الموصل في العصر العثماني، وأبرز ما رجع إليه في هذه اللغة تاريخ جودت، فقد نقل منه نصوصاً مهمة عن حوادث سنة 1193هـ/1779م في الموصل، كما أنه رجع إلى القسم التاريخي من سالنامة الموصل، وهو الكتاب السنوي الذي كانت تصدره ولاية الموصل في عهد الدولة العثمانية، وهو من تأليف مؤرخ موصلي اسمه (توفيق فكرت)، وموطن أهميته على ما يذكر الصائغ أنه استقى مادته من الوثائق الرسمية، ولذا فإنه اعتمده مصدراً لما أورده عن تاريخ الموصل في العهد العثماني، لا سيما حقبة الولاة الجليليين وما تلاها حتى قيام الحرب العالمية الأولى. كما اعتمد في بعض المواضع على كتاب (قاموس الأعلام) لشمس الدين سامي، وأكثر ما أخذه منه أفاد منه في هوامشه التوضيحية. ولا نفهم سبب غياب هذه المصادر عن كتابه، إلا أن تكون غير متوفرة في الموصل عهد ذاك، وهو أمر لا يمكن القطع به. وقد نقده أحد الكتاب في أنه لم يخصص للعصر العثماني ما يستحقه هذا العصر من تفصيل[1]، ونعتقد أن مبرر هذا النقد هو قلة ما رجع إليه من المصادر التركية (العثمانية).

لقد أظهر الصائغ تمكنه من الكتابه التاريخية، منهجاً واسلوباً ومصادر، ولذا فقد شهد كتابه قبولاً وانتشاراً ملحوظاً في العقود التي تلت صدوره، ليس في الموصل والعراق فحسب، وإنما في الأقطار العربية الأخرى بل في أوساط المستشرقين.

---

(1) شكري الفضلي: نقد لتاريخ الموصل، نشر عند صدور الكتاب . نشر على موقع (موصل نيت وورك).

الأديب الطبيب

محمد أمين بك آل ياسين المفتي الموصلي

(بَعشيقا) قرية غنّاء من قرى الموصل، اشتهرت بخصب أراضيها، ووَفرة مياهها، وجَودة ثمارها، من الزيتون والمشمش والكروم[1]، كَما عُرفت، في النصف الأخير من القرن الثاني عشر للهجرة، بحركة أدبية وثقافية كانت تدور رحاها في قصر ريفي أنيق هناك، أنشأه أحد أدباء الموصل الكبار عهد ذاك، وجعله مقصداً لضيوفه من أدباء الموصل وشعرائها، في حُجراته ينزلون، وفي صالاته ينشدون الشعر، ويتناظرون في مجالات الأدب، وفي بساتينه وحدائقه يتنزهون ويقضون أوقاتا طيبة في المذاكرة النافعة والمسامرة العذبة.

وصاحب هذا القصر هو الأديب الطبيب، الشاعر الناثر، محمد أمين بك بن إبراهيم بك بن يونس أفندي بن ياسين أفندي المفتي بن محمود افندي، من أسرة آل المفتي الشهيرة في الموصل، وكانت هذه الأسرة قد نزحت من مدينة سامراء في منتصف القرن العاشر للهجرة[2]، واشتهر من رجالها محمود أفندي، رئيس **العلماء**، ثم ولده ياسين أفندي (توفي سنة 1135هـ/1722م)، الذي عُرف بالمفتي لتوليه منصب الإفتاء في الموصل حيناً من الدهر، وشيَّد عدداً من المنشآت العامة النافعة، منها مدرسته التي عرفت باسمه[3]، والخان الكبير الذي عَمَّره للتجار، كما عُرف من بعده، ابنه يونس بك، وهو أول من نال لقب (بك) من أفراد هذه الأسرة[4]. وأما أخواله

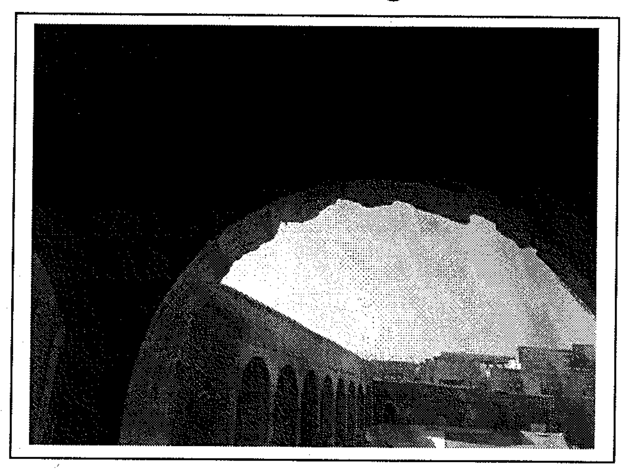
([1]) ياسين العمري: منية الأدباء في تاريخ الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه جي، الموصل 1956، ص134 . وتشتهر بعشيقا اليوم بالزيتون والبصل.

([2]) شجرة نسب آل ياسين المفتي، مخطوطة مصورة لدينا ..

([3]) محمد امين العمري: منهل الأولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه جي، الموصل 1967ج1 ص222، وياسين العمري: الدر المكنون في المآثر الخالية من القرون، نسخة مصورة عن مخطوطة باريس برقم 4449 وعصام الدين عثمان العمري: الروض النضر في ترجمة أدباء العصر، تحقيق سليم النعيمي، بغداد 1974، ج1 ص406. وعن المدرسة ينظر: سعيد الديوه جي: مدارس الموصل في العصر العثماني، مجلة سومر. بغداد ج1و2، 1963، ص79–80.

([4]) ذكر محمد أمين بك أنه علوي النسب، فقال في كتابه: الشفاء العاجل، أنه «**العلوي** نسباً ومحتداً»، وقال ياسين العمري «شريف النسب، زكي الحسب» (روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار، بتحقيقنا، بيروت 2011، ص112.

فنقباء الأشراف في الموصل جمعوا بين العلم والأدب وعلو النسب، منهم خاله عبد الله بن فخر الدين، كاتب ديوان الإنشاء في بغداد، وكان أديباً شاعراً عالماً بالفلك، مصنفاً فيه[1]، وخاله الآخر يحيى المفتي، أحد كبار علماء عصره، وكان «له الجاه الكبير، والشأن النبيه، والقبول التام عند رجال الدولة وملوك آل عثمان»[2]، وابنه السيد حسن، مفتي الموصل، وكان قد «جمع علوماً جمة، وفضائل شتى»[3] وغيرهم[4].



خان المفتي في الموصل

ولادته

ولد في الموصل، فقد ذكر في مقدمة كتابه (الشفاء العاجل والدواء الكافل) أنه «الموصلي مسكناً ومولداً»[5] ولم يذكر أحد تاريخ مولده، لكنه ذكر في كتابه المذكور،

([1]) منهل الأولياء ج1 ص241 وياسين العمري: زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، بتحقيقنا، دمشق 2017، ص 68 وسليمان الصائغ: تاريخ الموصل ج2 ، بيروت 1956، ص187 وعباس العزاوي: تاريخ الأدب العربي في العراق، ج1 ص39-40، والعزاوي: تاريخ علم الفلك في العراق، ص261.

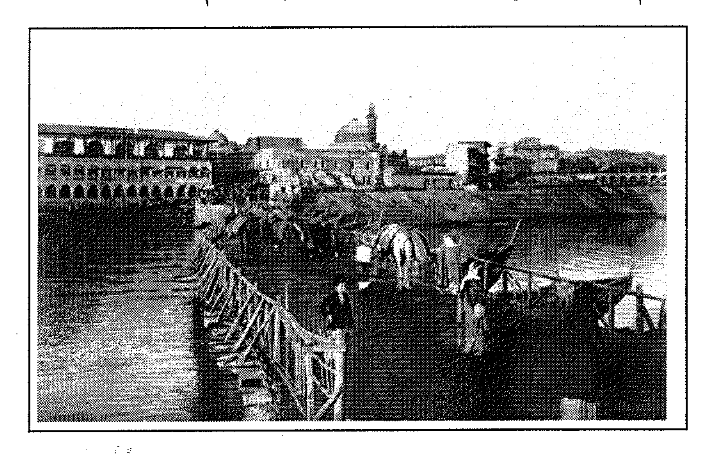
([2]) منهل الأولياء ج1 ص240 والمرادي: سلك الدرر ج4 ص233.

([3]) منهل الأولياء ج1 ص243 والدر المكنون، حوادث سنة 1188.

([4]) ومن اعلام هذه الاسرة المتأخرين محمود بك آل شريف بك آل ياسين أفندي أفندي، وقد تولى رئاسة بلدية الموصل من سنة 1904- 1908م. وذكر معلق فاضل، في حاشية له على ترجمة الشاعر الواردة في كتاب (غاية المرام)، ما يأتي «استقرت تسمية هذه الأسرة أخيراً بآل شريف بك، ولا أعرف اليوم أحداً منهم».

([5]) الورقة 12.

أن عمره حين ألف هذا الكتاب بلغ 73 سنة، وإذ كان قد فرغ من تأليفه سنة 1207هـ/1893م يكون قد ولد في سنة 1134هـ/1721م.



جسر الموصل القديم (صورة قديمة)

نشأته ودراسته

إبتُلي شاعرنا منذ طفولته بمرض لم يُنوِّه به، يظهر أنه التهاب في الكبد، المسمى (يَرَقان)، فعاش مدة صباه وشبابه يشكو السُقم والألم وما يصحبهما من كآبة وضيق، فانكب يقرأ كتب الطب عله يجد فيها شفاءه، فزاد ذلك في اطلاعه الجاد على ما كتبه الأقدمون في هذا العلم. ولما شفي واعتدلت صحته، شرع بقراءة العلوم على عددٍ من علماء الموصل والأكراد وغيرهم، وكان لابد له وهو لم يزل شابا يسعى في طلب العلم، أن يرحل إلى بغداد، ينهل من علمائها، ويأخذ من أدبائها فنون الأدب، فكان يشدّ إليها الرحال بين حين وآخر، ولا شك في أن لوجود خاله عبد الله بن فخر الدين ببغداد آنذاك، أثراً في تردد الشاعرعلى هذه المدينة، وقد مدحه بقصائد عديدة، وأثنى على سجاياه وحسن ضيافته وكرمه.

وممن أخذ عنهم ببغداد، السادة الحيدرية، الذين ذاعت شهرتهم في علوم المنطق والحكمة والعقائد في العراق في ذلك العهد، وبرز منهم في عصره العلامة السيد صبغة الله الحيدري (المتوفى سنة 1187هـ/1773م)[1]، وولداه عيسى وحيدر المفتي، المتوفيان في السنة نفسها ايضاً.

([1]) الروض النضر ج3 ص21 وعبد الرحمن السويدي: تاريخ حوادث بغداد والبصرة، بغداد 1978، ص42، وديوان العشاري، بتحقيقنا مشاركة مع وليد الأعظمي، بغداد 1977، وياسين العمري:

إقامته في بعشيقا

وكان يفضّل، في أثناء إقامته في الموصل، أن يقضي جُلَّ وقته في قرية (بعشيقا) القريبة[1]، لا سيما في فصل الربيع، حيث كانت له مزارع هناك، وقصر ريفي بناه، يستقبل فيه ضيوفه وزواره من الموصليين وغيرهم. ويذكر المؤرخ محمد أمين العمري الموصلي أنه حَلَّ لديه ضيفاً مرتين «والدنيا إذ ذاك مقبلة عليه، وأوقاته في غاية الصفو، وكان ينقل عياله إليها في فصل الربيع، ويقضي عامة أوقاته بالسرور والنشاط»[2]. وعلى الرغم من تردد الأدباء عليه، ونزولهم عنده، وحُفول مجلسه بهم، فإنه كان متديناً هادئ الطبع، وقد وصف محمد أمين العمري سلوكه بأنه «يلازم على السُنَن والأذكار والتوحيد، حسن الصلاة، طويل القيام، كثير الخشوع، يعاشر الفقراء مع التواضع، ويعامل الأغنياء بالترفع، في حُسن سَمت وطهارة طبع»[3].

ونحن واجدون في ديوانه المخطوط نماذج عديدة لما قاله في التغني بقصره، وما يحيط به من مروج، وجداول وبساتين، وما كتبه على أواوينه وأبوابه وأحواضه من أبيات ومقطعات، من ذلك ما كتبه على غرفة جديدة عمرها سنة 1181هـ/1767م.

طوبى لك يا غرفة ... فاقت برَوضها الجنان

فتُسر قلب نزيلها ... وتحله وسط الجنان

أشجارها خرائدٌ ... فيه مُزيَّنة حسان

أوراقها كزبرجد ... وثمارها مثل الجُمان

غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، بغداد 1968، ص262 والدر المكنون، حوادث سنة 1188 وإبراهيم فصيح الحيدري: عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد، بغداد بلا تاريخ 123 ومحمد سعيد الراوي: تاريخ الأسر العلمية في بغداد، بتحقيقنا، بغداد 2007، ص128.

([1]) تبعد بعشيقا عن الموصل بنحو 30 كم، وردت أخبارها في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وأشاد ياقوت (معجم البلدان ج1 ص473) بجمالها ومائها وأرحائها. وفي أول العهد العثماني أصبحت بعشيقا اقطاعاً (من نوع تيمار) يتبعه 200 رجل، (الارشيف العثماني،دفتر مفصل الموصل، رقم 195 ص35) وأهلها خليط من مسلمين ونصارى ويزيديين.ينظر: كوركيس عواد: تحقيقات أثرية تاريخية بلدانية في شرقي الموصل (مجلة سومر، المجلد 17، 1961، ص53.

([2]) منهل الأولياء ج1 ص148.

([3]) المصدر نفسه.

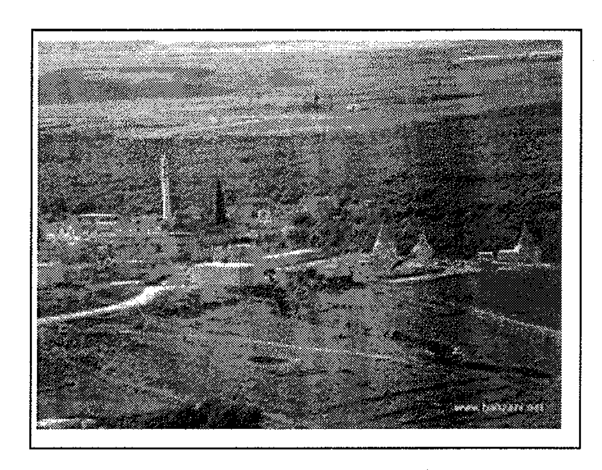
أطيارها وهَزارها ... دَوماً تغرد كالقيان

والحوضُ مثل بحيرة ... أضحى مَعيناً للعَيان

حَمّامها كحمامةٍ ... بيضاء تشدو باللسان

بالله هلِّموا واسبحوا ... واستغنموا فُرَص الزمان

وتنعّموا وترفهّوا ... في غفلة الدهر الخوان



بعشيقا

هجرته إلى بغداد

على أن (الدهر الخوّان) لم يترك شاعرنا يهنأ في قصره بعيداً عن المتاعب والنوائب، فقد ادلهمَّت الخطوب في الموصل سنة 1183هـ/1769م بسبب اندلاع الصراع بين أورطات الينكجرية الخمس (فرق الجيش الإنكشاري) وتزعم آل محمد أمين باشا الجليلي[1] وأتباعهم فرقتين منها، بينما ناصَرَت الأخريات منافساً قوياً من البيت نفسه، هو عبد الفتاح الجليلي، وجاء تعيين الأخير والياً في رمضان من ذلك العام (كانون الثاني 1770م) بمثابة المفاجأة غير المحسوبة

([1]) هم أبرز بيوتات الأسرة الجليلية الحاكمة في الموصل منذ سنة 1139هـ1726م، وقد تولى عميدها محمد أمين باشا بن الحاج حسين باشا ولاية الموصل ست مرات بين سنتي 1166 و1189هـ/1752-1767م، وأعقبه ابنه سليمان باشا، وتعاقب الولاة من أسرته غالباً، حتى سقوط حكم الجليليين في سنة 1249هـ/1834م. ينظر كتابنا: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، النجف 1975.

بالنسبة للطرف الآخر، فقد تولي عبد الفتاح باشا الجليلي التنكيل بخصومه ومؤيديهم، وأخذ بالانتقام من أبناء عمه، وهم آل محمد أمين باشا الجليلي، وزاد هذا من حدة الصراع بين فرق الجيش (الينكجرية)، فاتخذوا من أحياء المدينة ميداناً لحل خلافاتهم بالقوة المسلحة ، ولم يؤد نقل عبد الفتاح في مهمة خارج الموصل إلى تهدئة الحال، وإنما إلى زيادة اشتعالها، فقد تحالفت معظم فرق الينكجرية ضد أنصار عبد الفتاح «فحاصر أهل الموصل بعضهم بعضاً خمسة عشر يوماً»[1]، وباءت كل محاولات الوساطة والإصلاح بالفشل، ولم تقتصر الفتنة على داخل الموصل فحسب، وإنما تطاير شررها لتصيب بالضرر ريفها أيضاً، وسبب ذلك أن معظم قراها كان ملكاً للأسر المتنفذة فيها، ولم يكن هؤلاء بعيدين عن الصراع الدائر بين أطرافها، وكان شاعرنا معدوداً ضمن حزب محمد أمين باشا الجليلي، ومن ثم وجد نفسه خصماً لعبد الفتاح وحزبه، ومن الراجح أن الحزب الأخير نجح في كسب تأييد فئات من العامة، أو من رُعاعهم، الذين إنطلقوا في تخريب ممتلكات أنصار محمد أمين الجليلي[2]. وقد شكى ذات مرة من «مُقاساة عداوة رجالٍ من الملوك والأكابر والأقران والأمثال»[3].

وهكذا وجد الشاعر أن تداعيات الصراع قد وصلت إلى قريته، فكتب يشكو إلى خاله في بغداد عبد الله بن فخر الدين ، ذلك الوضع المتدهور، قائلا «إننا لما كنا في عيش هَني، وفي حالٍ سَني، قد غضَّ الدهر طرفه عنا، ولسان حال الزمان يقول: أطلب ما تتمنى!، والأفراح لدينا متطارحة، والأتراح عنا متباعدة متبارحة.. إذ دهمتنا المزعجة الداهية، وهي الفتنة العظيمة، والمصيبة الوخيمة، والبليَّة الأليمة الذميمة، ولقد عمَّت المدينة والقرى، وناهيك ما جرى: إن المسلمين استحلوا دماء إخوانهم، وأباحوا قتل أصحابهم وأعوانهم، وهاجت الغوغاء، وهَوَت الأهواء، وتحكَّم السُفهاء، وأرعدت السماء بأصوات المدافع، واهتزت الأرض ومارت، واستدارت رحى الحرب ودارت.. وهاجت الفقراء، وماجت الضعفاء،

---

(1) التاريخ المسمى تاريخ ياسين أفندي العمري، الورقة 92 ، نسخة برلين، وزبدة الآثار الجلية ص92. والدر المكنون، حوادث سنة 1184.

(2) تنظر التفاصيل في دومنيكو لانزا: الموصل في الجيل الثامن عشر، ترجمة روفائيل بيداويد، الموصل 1952، ص75 وكتابنا: الموصل في العهد العثماني، ص78-80.

(3) الورقة 12.

وسُدَّت الطرق بالجص والأحجار، وانقطعت السُبل من جميع الأقطار والأمصار.. واستمرت الأحوال على هذا المنوال خمسة وثلاثين يوماً، والناس يعُومون في بحر الفتن عَوما»، ويمكن أن نعد هذه الرسالة وثيقة مهمة في وصف مجريات تلك الفتنة، لا سيما في اشارتها الى مشاركة (الغوغاء) (الفقراء) و(الضعفاء) فيها، وهي اشارة جديدة الى أول دور تؤديه تلك الفئات منذ تولي أول ولاة الجليليين السلطة في سنة 1139هـ/1726م.

وامتدت الفتن لتشمل قريته الجميلة (بعشيقا)، والظاهر أن حوادثَ تخريبٍ جرت في ممتلكاته، أدت إلى إحداث دمار في قصره القائم هناك، ففي رسالة بعث بها إلى خاله آنف الذكر، نراه يعتذر عن تأخره في الكتابة إليه بسبب إنشغاله «بمداواة المرضى من الفقراء والأغنياء، وتجديد الدور، وتشييد القصور، وتعمير المدثور، والبيت المعمور، في قرية بعشيقا، ذات القامة الرشيقة، والرياض الأنيقة، والحياض الرقيقة، .. ومنها أمور لا تذكر لسوء المخبر، وقبح المذكر». وكتب إلى أحد إخوانه يشكو له فيها ما دهاه من الحوادث في الموصل، وتبدُل أهلها عليه «فلا ترثي لي إذا بكيت، ولا ترق لي إذا أبليت، ولا ترحمني إذا اصطليت، .. لا تُقبِل عليَّ إذا أتيت، ولا تصفو لي إذا صَفَيت». ونجده يتمنى ترك الموصل بصفة نهائية و السكنى ببغداد، إذ يقول«يا ليتني كنتُ مدى العمر معك، في بلدتك مقيماً، فأفوز فوزاً عظيماً، فأنعِم بها من بلدة مأنوسة، ومن ناحية محروسة».

ولم تطل إقامته في الموصل بعد تلك الحوادث، فإنه رحل إلى بغداد في العام نفسه، سنة 1184هـ/1770م، حيث أقام فيها مدة سنتين[1]، في ضيافة خاله عبد الله، متمتعاً بحظوة خاصة لدى واليها الوزير عمر باشا. ثم أنه تزوَّج من بنات بعض بيوتاتها، وولد له أبناء، على أن طول إقامته واستقراره، لم يُنسه مدينته الموصل، ولم يشغله عن معارفه وأصدقائه فيها، ففي ديوانه طائفة من الرسائل والأشعار مما كان يبعث به إلى أحبائه هناك. وشاء حظه أن يتوفى أثناء مكوثه في بغداد بعض أقاربه، منهم خاله السيد يحيى المفتي سنة 1187هـ ثم خاله عبد الله بن فخر الدين، في السنة التالية. فما كان منه إلا أن ترك بغداد متوجها إلى الموصل حيث استقر هناك.

([1]) غاية الرام ص361.

وفي سنة 1192هـ/1779م رحل شاعرنا إلى القسطنطينية تاركاً أهله وأصدقاءه، والظاهر أنه قصدها طلباً لحقٍ أراده، أو دفعاً لضر أصابه، وهو يقول في قصيدة له، معارضا البوشنجي الخراساني[1]:

كسبُ المعالي وحبُ الأهل والجار — ضدّان ما اجتمعا للمرء في الدار

إن كنتَ ترجو المعالي فالتزم نَصَباً — أو فارضَ بالذلِّ واسكن بين أشرار

لابد للمرء من جاه يَنال به — فخرا وعزاً ليسمو بين أخيار

فالجاه ينفع في الدارَين صاحبه — وفي الممات ويُوقيه من النار

وتأخذ القسطنطينية لبَّه، فيصفها بأرجوزة لطيفة مطولة، ذكر فيها ما رآه من القصور والقلاع والمارستانات ودور السبيل والمساجد والحدائق والبساتين والجداول، دامت إقامته فيها نحو ثلاث سنوات، ثم ما لبث أن غادرها متوجهاً إلى الموصل.

استقراره في بعشيقا

لا ندري فيما إذا كانت رحلته هذه قد حققت أهدافها أو لا، وعلى أية حال فإننا نجده يعود إلى قريته بعشيقا سنة 1195هـ/1781م، ليُجدِّد ما أهمل في أثناء غيبته عنها، وليعاود سيرته السابقة فيها، فأضاف بعض المقاصير والغُرف إلى قصره هناك. ووصف بعض ما شيَّده بقصيدة، جاء فيها:

ومقصورةٌ مقصورةٌ لأولي العُلا — بقصر مَشيد شيَّدته يدُ الرُشد

أحاطت به الأشجارُ من كل جانب — فأضحى كبيت الحمد والعز والمجد

ويبدو أن مدة إقامته الأخيرة في بعشيقا كانت أهنأ ايام حياته وأحلاها، ففيها نظم الشعر، وأنشأ الرسائل، وكتب المقامات، وألف الكتب، وقرَّض كتب غيره، وعانى أغلب أنواع القريض، وكان يستقبل ضيوفه من أدباء الموصل وشعرائها بالقصائد العذبة، ويودعهم بها، كما كان يُرسل أشعاره إلى الولاة والحكام يهنئهم أو يعزيهم، لا طلباً لصلة، أو طمعاً بمال، فإن وضعه المعاشي كان يُغنيه عن مثل ذلك، وإنما مشاركة لهم في أفراحهم وأتراحهم، وحباً بالشعر لذاته، وهو ما صرَّح به في غير موضع من ديوانه[2].

([1]) محمد بن إبراهيم البوشنجي العبدي، من أئمة اللغة العربية، توفي سنة 292.

([2]) من ذلك قوله، في موال له، باللهجة العامية:

ومما يَدلُّك على ذلك أنه لم يكن يهتم بتدوين شعره، وجمع قصائده، كأغلب شعراء زمانه، وإنما كان ينظم الشعر «لمداعبة بعض الإخوان، ولمعارضة بعض الأقران»، ويقول «ولم أزل على هذا الحال، إلى أن بلغت سن الإكتهال، كلما نظمت شيئاً تركته في زاوية النسيان، وفي هاوية الهوان، إلى أن صار شيئاً خفياً، وكاد أن يكون نسياً منسياً».

ديوانه

هيأ له استقرار حياته، وتوفر الوقت الكافي في سَكَنه في ريف الموصل الجميل، فرصة جمع ما نظم ونثر في ديوان مستقل. ورغم أن ديوانه جاء تقليدياً في أبوابه ومطالبه، إذ نظم في البديعيات، والمعشرَّات، وفي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض الأنبياء والصحابة، ومدح الوزراء والأقارب والإقران، ونظم الحماسات والمضمنات، والأراجيز والمواليا، فإن لنا أن نلحظ في بعض شعره رقة بادية، وعزة نفس ظاهرة، وميلا إلى وصف الجمال والتغني به، وهي في الواقع مظاهر شخصيته وانعكاس لأخلاقه وسجاياه، وكثيرا ما رقَّ نسيبه، واسترسل في مقدمته الغزلية، حتى تَفُوق من حيث الطول ورقة الإحساس، سائر القصيدة، على تعدد مطالبها، وتنوع أغراضها، فمما نقتطفه من قصيدة يمدح فيها الإمام عليا رضي الله عنه مضمناً أبيات الشهاب الموسوي الحويزي[1]:

يا راعي العضب الصحيح إذا رَنَت	إياك ضربةَ جفنها المتكسِّر
نفسي الفداء لضبية الوادي التي	يبنى الكناس لها بغاب القسوَر
كشَفَت لنا عن صفحة صحن خالها	كافور فجرِ شقَّ ليلَ العنبر

وإذا به ينتقل، بحسن تخلص، إلى مدح الإمام.

وقال في مقدمة قصيدة يمدح فيها خاله يحيى افندي المفتي، مضمنا بعض أبيات الشهاب المذكور:

نظمت الشعر من ألفاظ أبكار	إذ تاجرت لا بحرفة ولا بكار

والكار، كلمة فارسية، تعني الشغل والعمل والمهنة.

([1]) هو شهاب الدين بن معتوق الموسوي الحويزي، شاعر من اهل الحويزة من بلاد الاحواز، توفي سنة 1077هـ، وله ديوان مطبوع.

سَل باسمَ البرق صبحاً عن ثناياها | فقد حكاياها فهل يروي حكاياها
وسل مدير ... عن شهد ريقتها | أي الحبابين عند... أشهاها
وهل درى الطير لما شمَّ عَنبرها | في خدها أي خال في سُويداها
لا زلت عمري للأطلال عامرها | ليلا وأصبحت مجنوناً بليلاها

ومن تشطيراته البارغة، قوله مشطرا قصيدة ابن الفارض المشهورة سنة 1207هـ/1792م:

قلبي يُحدثني بأنك مُتلفي | يا سيدي فانصف بحال المُدنَف
وفؤادي المضنى من البلوى جفا | روحي فداك عرفتَ أم لم تَعرف
لم أقض حق هواك إن كنت الذي | بفمي رضابك امتصصه بمرشفي
لو كنتُ كل العمر أرشف ثغره | لم أقض فيه أسى ومثلي من يفي
إن الذي يفنى حشاه وقلبه | في حب من يهواه ليس بمُسرف

وله في مدح الوزير سليمان باشا الجليلي، قبل أن يتولى مقاليد الحكم في الموصل:

سعادُ بَدَت في الحيِّ أم طلعَ البدرُ | أم ابتسمت سُعدى فبانَ لها ثغرُ
أليلى بَدَت بالمحاسن والبَها | أهند تثنَّت من سناها بدا الفجر
أزينب قد باهت وتاهت بحُسنها | وماسَت فمن أعطافها عَبَق العطر

ونظم في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة جمع فيها كل أنواع البديع، وسماها (البديعة الموصلية الأمينية في المدائح المحمدية النبوية)، وقد فرغ منها في قريته بعشيقا في أوائل صفر سنة 1183هـ/1769م، ونقتطف من مقدمتها الأبيات الآتية

يَراعتي برعت بالحل والحَرَم | لما استهلت دموع العين كالديَم
تلقفت مُهجتي والحب في نعم | وقلب عاذلنا في الهجر فينا عَمي
لفقت كل جميل فيك من كرم | جازيتني بالعنا والقلب منك رُمي
قالوا: دَع الحُبَّ وارجع عن محبته | قلت: الغرامُ دعاني بالي الرمَم

لا تعترض يا عذولي في محبّته | فهو المشفع فينا يوم مُزدَحَم

وقد أشاد معاصره محمد أمين العمري بهذه القصيدة بقوله «رائقة النمَط، غريبة الحَوك، بديعة الصَّوغ، بيِّنة الإنسجام، وكم له من قصيدة عجيبة، ومقاطع أنيقة». وكان قد أثنى على شاعريته بقوله «له في الشعر باع طويل، ونظر حاذق، ومنظومات في غاية اللطف، ومنثوراته في نهاية الظرف». وقال عصام الدين عثمان العمري «له من النظم ما هو كالعقود والجوهر، ومن النثر ما هو في المذاق كالسُكر المكرَّر»[1]. ثم أنه شرح هذه البديعية في كتاب.

ومن شعره قصيدة في وصف الإصطياف في (حمام العليل) قرب الموصل، نوه فيها بتقاليد الموصليين في الانتقال الى هذا الموضع في موسم الإصطياف من كل عام، حيث يجري الإغتسال بعيونه المعدنية الحارة، وتدور حوله نشاطات مأثورة من الحياة الاجتماعية، وتقع القصيدة في اكثر من أربعين بيتاً.. وجاء فيها:

تسمع شخصاً بالغنا منشداً | وآخر يطرِّب برد الجواب

وذا يعرض بمرام له | وذاك يفهمه مقال العتاب

وكل شخص يغتنم لذةً | منها ويأخذ حصَّة أو نصاب

في كل فسطاطِ ترى ضجةً | من ضرب سنطيرِ ونرد أو نصاب

ما بين تصفيق ورقص بدا | هلاهل تسبي عقول الشباب

وتعد هذه القصيدة واحدة من الأعمال الشعرية القليلة التي نظمها شعراء موصليون في التراث الشعبي الموصلي في العصر العثماني[2].

ولديوان شعره، فضلا عما ذكرنا، أهمية تاريخية خاصة، فإنه قد أشار فيه إلى مناسبات وحوادث شتى عاصرها، حتى غدا أشبه بوثيقة تاريخية تسجل حوادث عصره ووفيات أعلامه، من ذلك أنه وصف فيه طَرفا من الحرب الروسية – العثمانية سنة1183هـ/1769م، عند مدحه الوزير محمد أمين الجليلي والي الموصل، وأحد من شارك فيها. ومنه أنه أرخ حوادث عديدة، مثل تعيين الولاة

---

(1) الروض النضر، ج1 ص406.

(2) نشرها محمد صديق الجليلي: الاصطياف في حمام العليل، الموصل 1965، ص13.

والحكام وعزلهم، ووفيات الشخصيات البارزة في العراق عهد ذاك، وبعض حروب ولاة بغداد مما له علاقة بالموصل في ذلك الحين.

ومن الديوان هذا، نسخة بخط الشاعر أرّخت قصائدها بين عامي 1175 و1220، وهي محفوظة في خزانة الطبيب الدكتور محمود الجليلي – رحمه الله- في الموصل (توفي في 17 تشرين الثاني 2011م)، وقد أفدتُ من نسخة مصورة منها في كتابة هذا المقال، وكانت ثمة نسخة حديثة من هذا الديوان في خزانة عباس العزاوي المنتقلة الى المركز الوطني للمخطوطات ببغداد[1]، وتوجد مجموعة مبتورة من شعره في خزانة داود الجلبي المنتقلة الى مكتبة الاوقاف في الموصل، مؤرخة في سنة 1184هـ/1770م.

علمه بالتاريخ

على الرغم من أن محمد أمين بك لم يكن مؤرخاً، بمعنى أنه لم يؤلف كتاباً في التاريخ، فإنه كان مهتماً بتتبع حوادث عصره، مطلعاً على مجرياته، معلقا عليها، وقد أدرك بعض مؤرخي عصره اهتماماته تلك، فكان أن ألف ياسين بن خير الله الخطيب العمري كتابه (الآثار الجلية في الحوادث الأرضية) مؤرخا فيه تاريخ الإسلام منذ الهجرة النبوية الشريفة وحتى سنة 1209هـ/1794م، وأهداه إليه قائلا «ولما تم جمعه وترصيفه، وحسن للناظرين تأليفه، أهديته إلى حضرة من ساد وعلا، وسما فضله ونما، رونق الزمان، وبهجة الأوان، وعنوان الأعيان... محمد أمين بك بن إبراهيم بك بن يونس بك بن ياسين أفندي المفتي»[2]. وقد علق محمد أمين المفتي على حوادث الكتاب تعليقات عديدة، تدل على سعة قراءاته لمصادر التاريخ، حتى إذا وصل إلى حوادث سنة 1139هـ/1726م نجده يصرح «من هذه السنة إلى آخره لا يعتبر، فأكثره خبط عشواء لا يقبل التصحيح، ولا يمكن التنقيح، وقد حررتُ هذا الكلام لدفع اعتراض من يقف عليه من الكرام الأعلام، وأنا الحقير الفقير، المقر بالجهل والتقصير، محمد أمين حفيد الأفندي ياسين، وذلك عام 1211»، ونحن نرى أن حكمه هذا انطوى على حدّة لا مُبرر لها، ومن تعليقاته التي تنم عن معرفته بأقيام النقود، قوله معلقا على مصطلح (القرش البغدادي) ما نصه «القرش البغدادي هو قرش وثلث

([1]) أشار إليها في كتابه: تاريخ الأدب العربي في العراق ج2 ص299.

([2]) زبدة الآثار الجلية ، ص40.

قرش، والريال العتيق الذي هو مسكوك بسكة سلطان عبد الحميد الأول وهو المسمى ألطَمشلق، أي ستون بارة، وكل بارة ثلاث آقجات»[1]، ومع كل هذه التعليقات والملاحظات فلا شك في انه أجزل مكافأة العمرى على إهدائه كتابه إليه.

مؤلفاته

وضع محمد أمين بك عدة كتب في مجالي الأدب والعلم، وصفها بعض معاصريه[2] بأنها «تأليف رائقة» و«معان فائقة»، فمن مؤلفاته الأدبية:

1- كتاب سماه (أعلاق الذهب)، رتَّبه على شكل مقالات متنوعة تبحث في الوعظ والنُصح، وذكر في مقدمته أنه نهج فيه نهج رسالة العلامة جار الله الزمخشري المسماة (أطواق الذهب في المحاضرات والأدب)، وفي آخر الكتاب أورَد المؤلف مجموعة من امثال العرب، تليها مجموعة أخرى من أمثال العامة والمولّدين، ومجموعة ثالثة في الأمثال نظمها شعراً. منه نسخة بخط المؤلف مؤرخة في سنة 1202هـ/1787م، في خزانة كتب الأوقاف ببغداد،

2- (أوراق الذهب)، ذكر ياسين العمري أنه جَمَعه من كتاب منتخب، وأورد فيه مواعظ زكية، وأحاديث شريفة مرضية»[3]، منه نسخة في مكتبة برلين، أشار إليها زيدان[4].

3- (أخلاق النضار)[5]، وربما جاء اسمه مُصحَّفاً من (أحلاق النضار)، أي أحلاق الذهب، ويظهر أنه قريب في موضوعه من سابقه، وقال «جمع فيه ما يُحيِّر الأفكار».

والذي يظهر لنا أن محمد أمين كان عارفاً أيضاً، كأغلب المثقفين في الموصل عهد ذاك، بفنون الموسيقى والغناء[1]، فإننا نجد له بعض القصائد المنظومة على ألحان مشهورة، كالدُوكاه، والصَّبا، والجاركاه، وغير ذلك.

---

(1) زبدة الآثار ص160، والدر المكنون، حوادث سنة 1213هـ.

(2) روضة الأخبار ص110.

(3) روضة الأخبار ص110.

(4) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت 1967 ج3 ص292 ونسبه إلى (محمد أمين بن ياسين المفتي الموصلي) وقال أنه توفي سنة 1032، وليس هذا بصواب. وينظر: الزركلي: الأعلام ج6 ص267 وBrock.,II.497

(5) المصدر نفسه.

علمه في الطب والتشريح

على أنه لم يكن شاعراً أديباً فحسب، بل كان طبيباً جراحاً مشهوراً، أخذ الطب عن كبير أطباء الموصل الحاج محمد العبدلي (المتوفى سنة 1164هـ/1750م) وكان هذا قد «قرأ الطب والتشريح على المهرة والحذاق، ففاق جميع أقرانه.. وغلب عليه دون غيره من العلوم»[2]. و ذكر محمد أمين العمري في ترجمته لشاعرنا أنه «مهر في علم الطب، وله فيه مصنفات عديدة، وفوائد سديدة، وعلاجاته أبُقراطية، وتدبيراته جالينوسية، وبالجملة فلا قَرين له في علمَي الطب والتشريح». وذكر أنه استفاد منه فوائد جمَّة في كلا العلمين؛ وقال أخوه ياسين العمري أنه «أجلُّ أطباء هذا العصر، عارفاً بالأمراض وأسبابها، فهو للمعالجة بابها، ولتحصيل الشفاء بمداواته محرابها»[3]، بينما ذكر عصام الدين عثمان العمري أن «له في الطب والأدب أبواب، لم يكن لغيره إلى تلك الدور دخول». وقد مرَّ بنا أنه اشتغل في أثناء فتنة عام 1184هـ/1770م بمداواة المرضى من الفقراء والأغنياء. وحينما مرض الشيخ محمد سليم الأردلاني «كتب إلى محمد أمين الطبيب، وكان قد قرأ عليه حين كان في الموصل، يلتمس منه معالجته، فحصل له نوع خِفة، واستطاب هواء الموصل فاستوطنها»[4]. وواضح أنه كان يعالج مرضاه ويداويهم حِسبة لله، وطلباً للأجر، وليس طلباً للمال، «فجُوده عميم، ومجده عظيم، وفضله قديم»[5]. وذكر ياسين العمري أنه لما قدم إلى الموصل والي بغداد الوزير علي باشا سنة 1220هـ/1850م، حصل له بعض الأمراض، فاستدعاه وقرَّبه لمعالجته، وخلع عليه خِلعة القبول والرضا»[6].

وروى هو سبب دراسته لهذا العلم وعنايته بممارسته فقال في معرض الثناء على ربِّه تعالى «شكراً لكرمه العميم، أمرضني من سن الصَبوَة إلى سن الشباب، وألهَمَني مُداواة بَدَني، وخَلَّصني وعافاني من عامة الآلام والأسقام والإكتئاب،

([1]) ينظر محمد صديق الجليلي: التراث الموسيقي في الموصل، مجلة التراث الشعبي، بغداد ج8 (1964) ص908 وكتابنا: الموصل في العهد العثماني ص405-407.

([2]) منهل الأولياء ج1 ص367، وكتابنا: الموصل في العهد العثماني ص398.

([3]) ياسين العمري: روضة الأخبار في ذكر أفراد الأخيار، بتحقيقنا، بيروت 2011، ص110.

([4]) منهل الأولياء ج1 ص277.

([5]) روضة الأخبار ص110.

([6]) غاية المرام ص362.

وأعانني على شفاء أكثر من يعتقد بطبابتي ومداواتي»، فالطب عنده استلهام، اي استعداد فطري لتعلمه، وكان نفسه هو المريض الأول الذي عالجه، ثم ما لبث أن انصرف إلى تطبيب ومداواة غيره من المرضى.

ومن مؤلفاته الطبية التي وصلتنا، ، كتاب مهم سماه (الشفاء العاجل والدواء الكافل) وقد رتّبه على أبواب بحسب أنواع المرض ودوائه، وصَبَّ فيه خبراته وتجاربه، فضلا عن قراءاته الواسعة في مصادر هذا العلم المختلفة. وذيّله ببحث قيِّم عنوانه (دستور العمل في علاجات الجدري والحصبة والإحتراز من الوقوع فيهما)[1]، وكان ولَدان له قد أصيبا بهذا المرض فتولى هو علاجهما وإزالة آثاره. توجد منه نسخة بخط المؤلف، وهو نسخ واضح، في مكتبة مدرسة يحيى باشا الجليلي في الموصل[2] برقم (371)، ويقع في 439 ورقة، بمقياس (21×5،15 سم) في كل منها 26 سطرا، ألفه سنة 1207هـ/1793م، أرانا إياها متولي المدرسة في حينه الدكتور محمود الجليلي، المتوفى سنة 2011 رحمه الله، وتلطف – كعادته- فصوَّر لنا بضعة صفحات من أولها. ثم أننا حصلنا على نسخة منها على المايكروفيلم من معهد المخطوطات العربية تحت العدد (567)[3]. وثمة نسخة أخرى في مكتبة مدرسة عبد الرحمن جلبي الصائغ المنتقلة إلى مكتبة الأوقاف في الموصل، نوه بها الدكتور داود الجلبي[4] ولم نرها.

قال في أوله «الحمد لله الذي ألهَم بعض الأنبياء، وأفهم بعض الأصفياء والأولياء، علم الطب وخواص النباتات والمعادن والحيوانات، وأوحى لبعضهم، وأنطق لبعضهم النباتات، فسبحانه ما أعظمه من حكيم، وما أكرمه من عظيم، والصلاة والسلام الأجملان الأكملآن، والأوفَران الأكثَران، على رسوله وحبيبه ونبيه وربيبه، طبيب مرضى المذنبين...وبعد ذا، أقول، وأنا العبد الأقل، والجاهل الأجهل، محمد أمين حفيد الأفندي ياسين الموصلي مسكناً وتولداً، والعلوي نسباً ومحتداً: لما أراد الله تعالى

([1]) وذلك قبل ان يذيع إدوارد جينر(Edward Jenner) اكتشافه للقاح الجدري سنة 1798م.

([2])ينظر داود الجلبي: مخطوطات الموصل، الموصل 1928، ص237 وقد .أنشأ هذه المدرسة يحيى باشا الجليلي آخر ولاة الجليليين في الموصل سنة 1241هـ/1825م.

([3]) لابد لنا هنا من شكرالصديق الاستاذ سراج عثمان، صاحب دار الزمان للنشر في دمشق، لتوفيره لنا هذه النسخة بناء على طلبنا . ونعمل الان على تحقيقها ان شاء الله.

([4]) مخطوطات الموصل، ص157.

وتبارك وتقدس، استخدمني بخدمة طبابة مرضاء عباده.. ألهمني مداوات بدني، وخلصني وعافاني من كافة الآلام والأسقام والاكتئاب، وأعانني على شفاء أكثر من يعتقد بطبابتي ومداواتي مع كثرة جهالتي وسهواتي».

وقال في آخر خطبة الكتاب «وقد توفَّق جمعه وتحريره وإتمامه، وتسويده وتنقيحه وختامه، في سلخ رجب المُرجَّب، شهر الله الفرد المجيب، المنسلخ في عام السبعة بعد المائتان والألف»[1].

وذكر غايته من هذا التأليف بقوله «فأحببت أن أجمع لنفسي، ولأولادي وأحفادي وذريتي، ومن يتعاطى هذه الصناعة من عشيرتي وكل من يمارس الطبابة من أهل بلدتي وإقليمي وملتي، كتاباً مختصراً مفيداً من كتب الطب»[2].

بيَّن محمد أمين منهجه في تأليف هذا الكتاب فقال «لم أعتمد على حفظي وفهمي، وعلى تحقيقي وتدقيقي وعلمي، بل أطالع الكتب الكثيرة، والصحف الوفيرة، وانتخب منها مقصودي ومرادي، وما يقف عليه يقيني واعتقادي، ويتفق عليه اجتهادي واعتمادي»، وهذا يعني أنه لم يكن مجرد حافظ لعلاجات أخذها من غيره، وإنما بدأ أولا بالدراسة النظرية لكتب الطب المعتمدة، حتى أحاط بها علماً، ثم كان يعتمد منها ما صح عنده بالتجريب وأيَدَّه اجتهاده، وهذا منهج علمي بالغ الرصانة كما ترى.

فمن ذلك قوله في الكلام على بعض أدوية اليرقان الأصفر «قد جربته في تنقية اليرقان في مدة خمسين عاماً ما يجاوز ألف مرة في مدينة الموصل»[3].

وقوله في دواء لبعض ضروب الصداع «وقد جربناه مراراً، وصنعَته محمودية مطبوحة بالتفاح مجربة»[4].

وقوله في علاج جرَّبه لبعض أنواع تضخم الطحال «وقد جرَّبتُه أنا الفقير جامع هذه النسخة في أشخاص كثيرة من سكان ناحية النافكر[1]، من إقليم نينوى، من أعمال أكراد الهكارية»[2].

([1]) ويبدأ أوله في 12 شباط/فبراير 1793م.

([2]) الورقة 12.

([3]) الورقة 189.

([4]) الورقة 1.

وقوله في ذَرور لعلاج البياض في العين، أنه نقله أولا من كتاب (الآقراباذين) لنجيب الدين السمرقندي، ثم جرّبه بنفسه «ولقد جرَّبتُ هذا الذَرور، وأنا الفقير جامع هذا المختصر، أولاً بإبناي (كذا) بعد الجدري، وبغيرهم، فأزال البياض بالكُلِّية، ولم أرَ أنفع منه في هذا الباب، ومن أراد ذلك فليجربه وليبلغني»[3].

وقوله في وصف علاج لحُرقة اللسان «ومما جرَّبته بنفسي، وأنا الفقير جامع هذا المختصر»[4].

وقوله في فرزجة، وهي ضرب من الأدوية «قد جربتها الفقير جامع هذا المختصر مراراً عديدة»[5].

وقوله في سُفوف يقطع الإسهال المزمن «جرّبنا هذا السُفوف فحَبَس الإسهال في مرة واحدة، وأنا الفقير محمد أمين وذلك في عام 1227»[6] وواضح انه كتب تعليقه هذا بعد فراغه من تأليفه للكتاب.

وقوله في طلاء لحكة الأطفال «وقد جربته الفقير جامع هذه النسخة»[7].

وقوله في دواء في علاج الجرب «دواء مجرب لا يخطئ، وقد جربته فيما يجاوز مائتي إنسان من الفقراء والصعاليك من كل ملة»[8].

وقوله واصفاً طريقة لإزالة الشُعيرة من العين «ولقد شاهدت مراراً كثيرة من جرّاح يدعى بابن اليزيدي يخرج الشُعيرة في راس المبضع الذي يفصد فيه العروق في مدينة الموصل، وكان من بعض أقاربنا رجل يدعى أحمد بيك ابن الأفندي.. وكان مُبتلى في حدوث شُعيرات متعددة في أربعة أجفانه، وكان في الأسبوع والأسبوعين يخرج من أجفانه شعيرة أو شعيرتين بهذه الصناعة»[9].

---

(1) النافكر ناحية في قضاء عقرة.
(2) الورقة 190.
(3) الورقة 72.
(4) الورقة 100.
(5) الورقة 256.
(6) الورقة 163.
(7) الورقة 356.
(8) الورقة 331.
(9) الورقة 66.

ومما يدلك على أنه كان يجمع في منهجه بين الدراسة النظرية وبين التجربة والتطبيق، معرفته بأسماء الأدوية المفردة والمركبة الداخلة في عمله، فهو لا يكتفي بذكر دواء واصطلاح أخذه من أحد المصادر الطبية إلاّ ويذكر ما يوافقه من الأسماء المتعارف عليها عند أطباء مدينته الموصل في عصره، وقد صرح في خطبة كتابه بذلك قائلاً: «شرحت فيه الألفاظ اليونانية، والاصطلاحات الطبية، بتعبيرات موصلية، وبعبارات عوامية، ليسهل فهمة على كل راغب من عالم ومتعلم، وفاهم ومستفهم».

من ذلك قوله في الشعيرة التي تنبت في جفن العين «هي المسماة باصطلاح أهل الموصل دِك دِك»[1]

وقوله في مرض الظفرة «يسمونها أهالي الموصل بترة»[2].

وفي علة تسمى التوثة «ويسمونها عوام الموصل أخبث»[3]

وفي علة انتفاخ الأصابع «يسموه عوام الموصل قراقيص»[4].

وفي علة الاحتراق بالصواعق «التي يسموها العوام زلزلة»[5].

وفي علة السدر أن «عوام الناس يسموه في مدينة الموصل دوخة»[6].

وفي نقصان الباه «هو السوسنك باصطلاح أهل الموصل»[7].

وهكذا..

وفي الكتاب شرح واف لعمليات جراحية تعالج فيها حالات متدهورة لا تنفع فيها الأدوية على اختلاف أنواعها، يأتي في مقدمتها السرطان، من ذلك قوله في سرطان الرحم أنه «يُقطع بالحديد، أو بالدواء الحاد، أو يُكوى بالنار، والأدوية المجففة المحللة لذلك»[8].

([1]) الورقة 44.

([2]) الورقة 48.

([3]) الورقة 312.

([4]) الورقة 335.

([5]) الورقة 337.

([6]) الورقة 41.

([7]) الورقة 206.

([8]) الورقة 276.

وقوله في علاج ما يسميه ناصور الرحم «ويحبس مكانه، وموضع الناصور بالمِرْوَد، وهو ميل أملس، وعلاجه علاج القروح في الرحم.. ولا يجوز علاجه بالحديد أي بالشق والقطع والشرط»[1].

وقال في وصفه عملية فتح بعض الأغشية «وعلاجه بالحديد، بالآلة التي يقع بها البواسير، أو بمبضع، أي سكين عريض»[2].

كما أشار إلى آلة سماها (زرّاقة) تستعمل في «حقن الرحم بالزراقات».

وتحدث عن أنواع من التدخلات الجراحية التي كان يجريها لمرضاه، فثمة (السَّحج) وهو التدخل العميق،و(الخدش) الذي يكون على سطح العضو المصاب، كما عيَّن المواضع الأفضل لتلك التدخلات في الجسم، والأدوات المستعملة، وما يمكن أن ينجم عنها، والمواد الملينة والمنظفة وما إلى ذلك من مستلزمات.

ولعل من مزايا منهجه أنه لم يتوقف عند ما عرفه القدماء من أمراض، وإنما مضى فأضاف اليها أمراضاً حدثت بعدهم ولم تكن معروفة في بلاده من قبل. فقال «والتزمت فيه علاجات الأمراض الجديدة الحادثة في عام التسعمائة وأربعة من الهجرة (1498م) من الدنيا الجديدة (يقصد القارة الامريكية) من بلاد الإفرنج»، وهذه الأمراض ثلاثة، هي:

1- أمراض الحَب الإفرنجي. (وهو السِفلِس syphilis أو الزُهري)[3]

2- اسقربوط[4]

([1]) الورقة 266.

([2]) الورقة 270.

([3]) الورقة 354. ترى أرجح الروايات أن مرض الزهري كان هو مرض العالم الجديد الذي أحضره كريستوف كولومبوس إلى أوربا، وقد تفشي هذا المرض في نابولي في عام 1494 وسرعان ما وجد انتشاراً في مناطق أخرى من العالم القديم. وقال محمد أمين بك «وأول ما ظهر هذا المرض في اسبانيا من بلاد الإفرنج في سنة تسعمائة وأربع من الهجرة النبوية، وقد سرى إليهم من بلاد الدنيا الجديدة بالعدوى لاختلاطهم معهم، وهو يسري بالمعاشرة والمخالطة». الورقة 334.

([4]) الاسقربوط مرض قديم سبق اكتشاف العالم الجديد، وهو ينتج عن تقص في فيتامين C ومن أعراضه الإرهاق الشديد ونزف اللثة وسقوط الأسنان والتهاب الأغشية المخاطية والبقع في الساقين وغير ذلك.

3- بليكا من أمراض الجلد والشعر

وفي الكتاب، بعد ذلك، فوائد كثيرة من تقاليد الحياة في مدينته الموصل وعاداتها، منها مثلاً أسماء الأطعمة الموصلية. وهي: الهريسة، وكراعات الغنم، والجبن، والأرز، والتمر، والقيمغ، واللبن، والحليب، والحنطة، والأرز، والتمر، والكليجة، وخبز الرقاق، وخبز الفطير، والخبز الني، وخبز الحَواري، والقطايف، والسَّنبُوسَك، والبقلاوة، والرِّشتة، والحسُو، والنِشا، والكاهي، وأمثال ذلك[1].

مصادره:

اعتمد محمد امين بك على عدد كبير من الكتب الطبية المعتمدة في عصره، وذكر هو أسماء عدد منها في مقدمة كتابه نفسه، هي:

1- شرح الأسباب والعلامات. تأليف: نفيس بن عوض الكرماني، المتوفى سنة 842 هـ/1438م، والأصل من تأليف نجيب الدين محمد بن علي بن عمر السمرقندي. اعتمد عليه في مواضع عديدة، وذكر ياسين العمري أن لمحمد أمين بك شرح مستقل لهذا الكتاب «حلَّ جميع مشكلاته حيث دخل إليه من كل باب».

2- ترجمة الذخيرة الخوارزمية. تأليف شرف الدين إسماعيل بن الحسن الجرجاني، المتوفى سنة 531هـ/1137م ألفه بالفارسية، وله غير ترجمة، منها الى التركية.

3- تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب. تأليف: داود بن عمر الأنطاكي، المتوفى سنة 1008هـ/1599م.

4- ترجمة غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان. تأليف: صالح بن نصر الله بن سلوم الحلبي، المتوفى سنة 1081هـ/1670م

كما اقتبس نصوصاً من كتب أخرى، يظهر أنه اعتمدها أيضا، هي

5- المرشد. تأليف: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة 311هـ/923م

([1]) الورقة 269 والورقة 224.

6- برء الساعة. تأليف: أبو بكر محمد الرازي أيضا

7- المعالجات الأبقراطية. تأليف أحمد بن محمد الطبري، المتوفى سنة 360هـ/970م[1].

8- كامل الصناعة الطبية. تأليف: علي بن العباس المجوسي، المتوفى سنة 371هـ/982م[2].

9- القانون. تأليف: الشيخ الرئيس ابن سينا، أشار إليه في مواضع قليلة.

10- كتاب لم يذكر عنوانه، ألفه طبيب افرنجي لم يسمه. قال «ولبعض أطباء الإفرنج يزعم أنه قد خلص فيه كثير من أصحاب هذه العلة»[3].

11- الطب الجديد الكيميائي. تأليف: براكلسوس، المتوفى سنة 1541م، ترجمة صالح بن نصر الله بن سلوم الحلبي. نسب إليه «صفة معجون»[4].

12- كتاب في الأدوية. تأليف: حنا الإنكليزي الإفرنجي. نسب إليه صفة «معجون الكبابة»[5].

13- كتاب الميامير. لم يذكراسم مؤلفه. أشار إليه عند الكلام على دواء يمنع توالد الديدان[6].

14- كتب الاقراباذينات، وهي كتب الأدوية المركبة، والمطولات، ولم يعين أسماء مؤلفيها.

المرض	الورقة
صداع الحار	1
صداع الاحتراقي	1
صداع البارد الساذج	3

(1) الورقة 115.

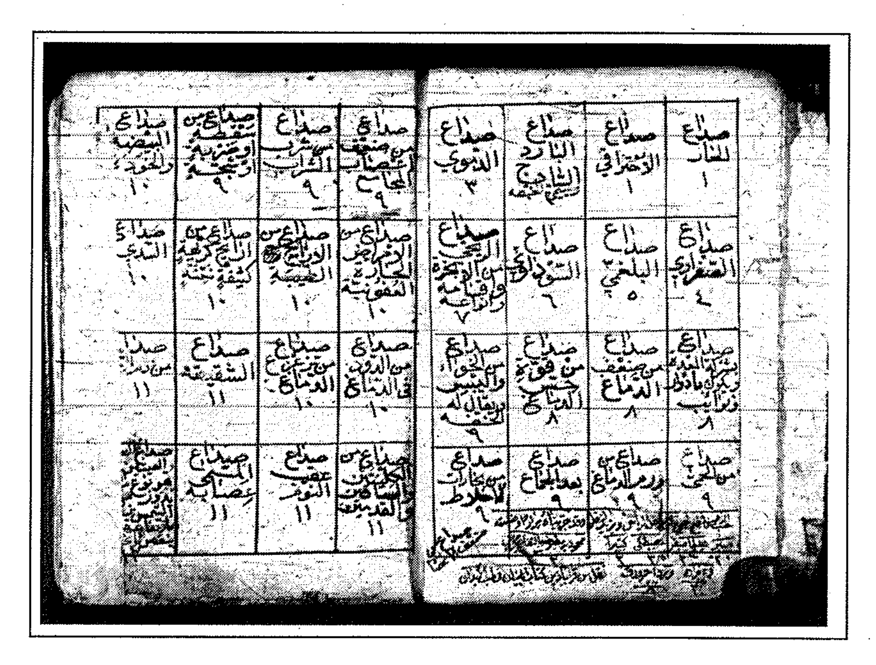
(2) الورقة 168.

(3) الورقة 114.

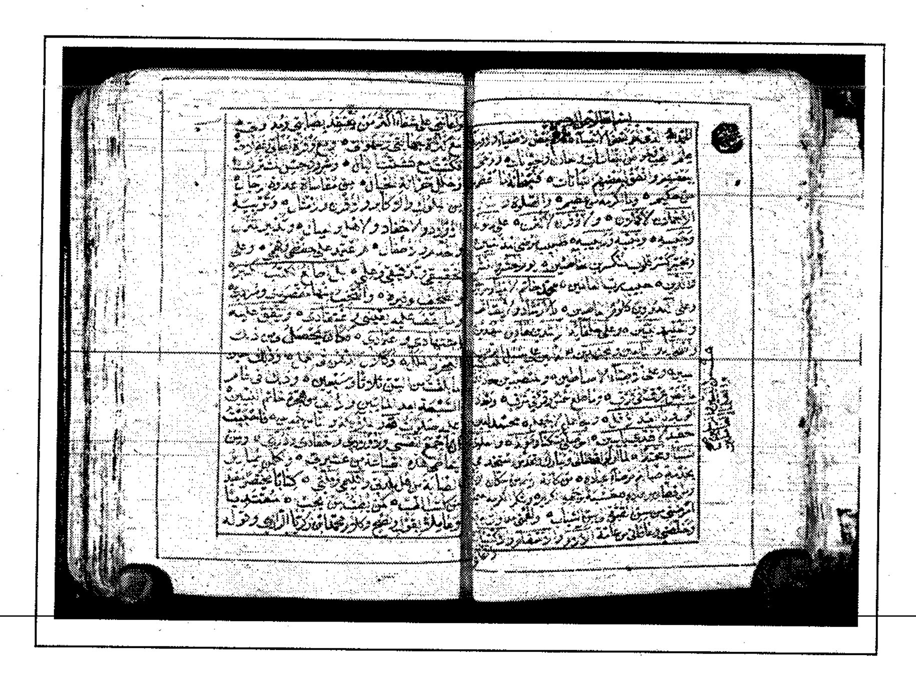
(4) الورقة 41..

(5) الورقة 184..

(6) الورقة 221.



الورقة الأولى من فهرس الكتاب



الورقة الاولى من الكتاب

ذريته

تقدم بنا أنه حينما سافر الى بغداد سنة 1184 هـ/1770م، تزوج من فتاة بغدادية من أسرة فاضلة سنة 1185هـ، أي في سن تجاوز فيه الأربعين من عمره، وهذا التاريخ لا يتفق مع سني حياة اولاده الثلاثة، ابراهيم وعبد الله وسليمان، مما يقتضي أنه كان متزوجاً من إمرأة أخرى قبل ذلك، وانها لم تصحبه في سفره الى بغداد، ربما لانها متوفاة، اما زوجته الثانية فقد انجبت له ولده الثالث محمد بديع، وأبناء آخرين لم نعرف اسماءهم[1]، وعلى اية حال فقد عُرف أبناؤه جميعاً بحُسن السيرة والنباهة ووفرة الأدب، ونوه هو بما أنفقه من جهد ووقت في تربيتهم فقال ذاكراً أتعابه في «تربية الأولاد والأحفاد، والأهل والعيال، وتدبير المنزل والخدم والأطفال»[2]. وأولاده هم:

1- إبراهيم بك. أديب شاعر، توفي شاباً سنة 1188هـ/1774م[3].

([1]) يفهم هذا من قول ياسين العمرى "وولد له منها أولاد نجباء". غاية المرام 361.

([2]) الورقة 12

([3]) الدر المكنون، حوادث سنة 1188هـ.

2- عبد الله بك. الراجح انه ولد في الموصل، وسافر هو إلى بغداد شاباً سنة 1188هـ، حيث عينه واليها الوزير عمر باشا (1177-1189هـ/1763- 1775م) في حكومته، فـ «نال الحظ الوافي، والعيش الصافي، فأقام مكرماً»، وبعد مقتل عمر باشا عاد إلى الموصل، وتعاطى الطب ومعالجة الأمراض، حتى برع فيها، وصارت له اليد الطولى «بتركيب الأدوية والحبوب والترياقات والمعاجين»، ترجم له ياسين العمرى وأثنى عليه وذكر له شعراً جيداً في التشبيب[1].

3- سليمان بك. ترجم له ياسين العمري فقال أنه سافر إلى الروم، وأقام هناك عدة سنوات، حيث اتصل بخدمة الوزير الأعظم، ثم استعفى وعاد إلى الموصل، ومنها إلى بغداد، حيث عينه واليها سليمان باشا الكبير (1193-1217هـ/1779-1802م) في بعض مناصب حكومته، ثم استعفى من الخدمة، وانتقل إلى الموصل، مدة، ومنها عاد إلى بغداد، فولاه سليمان باشا منصبا أعلا من سابقه، وصار «من كتاب الدولة»، ولبث في أرغد حال حتى وفاته سنة 1213هـ/1798م ودفن في بغداد[2]. مُعقباً أولاداً عاشوا في بغداد، وآخر عاش في الموصل وتوفي صبياً.

4- محمد سليم بك. ورد اسمه وارثاً لمخطوطة أبيه (الشفاء العاجل).

5- محمد بديع. يظهر أنه ولد له من أمه البغدادية، لأنه تزوجها سنة 1185هـ، أرسله أبوه إلى بغداد سنة 1213هـ/1798م، ليتولى العناية بأولاد أخيه سليمان، وضبط ما تركه أبوهم من الأموال، وأخذ نصيب والده من الميراث، ونصيب زوجة أبيه، أي أم أخيه، فأدى مهمته، وعاد إلى الموصل في السنة نفسها، وترجم له ياسين العمري وذكر أنه كان شاعراً له (بديعية) مع شرح لها، وتخميس للبردة، وقصائد معشرات، وقصيدة نبوية، وأنه سافر إلى الحج سنة 1220هـ/1805م[3].

([1]) غاية المرام ص363.

([2]) غاية المرام ص363

([3]) غاية المرام ص365. وفي رسالة مخطوطة كتبها كاتب غير معروف كانت محفوظة في مكتبة ناظم العمري، ومنها نسخة لدينا منقولة عنها، إشارة إلى (محمد سعيد بك بيت ياسين أفندي زاده) وأنه قتل في اثناء الفتنة التي اغتيل فيها والي الموصل عبد الرحمن باشا الجليلي في 9 شوال 1244هـ/13 نيسان 1829م.

وفاته

ومثلما سكتت المصادر عن تاريخ ولادته فإنها سكتت عن تاريخ وفاته، و كنا نذهب إلى أنه جاوز الثمانين عاماً، بدلالة ان آخر إشارة إليه كانت في سنة 1220هـ/1805م، ففي هذا العام نظم إرتجالاً أرجوزة أرسل بها إلى ابنه محمد بديع في حلب، والأرجوزة موجودة بخطه في ديوانه. كما ترجم له باختصار محمد أمين العمري في كتابه (غاية المرام) ولم يذكر وفاته، وكان فراغه من تأليف هذا الكتاب في 21 شعبان سنة 1221هـ (الموافق 15 تشرين الثاني سنة 1805م)، ثم أننا وقفنا على تعليقة له على هامش مخطوطته (الشفاء العاجل) مؤرخة في سنة 1227، فيكون قد توفي بعيد هذا التاريخ. ووجدنا في الورقة الأولى من المخطوطة تمليكين لابن المؤلف، جاء في اولهما «انتقل إليَّ بالإرث الشرعي وأنا الفقير إليه عز شأنه، محمد سليم ابن محمد أمين بيك بن إبراهيم بيك في عام 1228»، وأما التمليك الآخر فبالعبارة نفسها تقريباً باستثناء تعيين تاريخ التملك بالشهر، وهو ذه ، أي ذي القعدة، وهذا يعني ان وفاة محمد امين كانت في الشهور الاخيرة من سنة 1227 حتماً.

علماء بيت المقدس في القرن الحادي عشر الهجري (17م)
(التكوين الاجتماعي – النشاط الثقافي)

اتسمت الحياة الثقافية في مدينة القدس إبان العهدين الأيوبي والمملوكي، بنشاط ظاهر لم تشهده المدينة من قبل. فقد أثار احتلال الفرنجة لها واحتفاظهم بها بوصفه هدفاً معنوياً مؤثراً في مجرى الحرب، اهتمام المسلمين عامة بهذه المدينة، مما دفعهم إلى إعادة اكتشافهم لها، بالبحث في تاريخها ومنزلتها الخاصة بين مدن العالم، وهو ما أثمر تلك السلسلة القيمة من كتب فضائل القدس، التي شجعت بدورها عدداً من العلماء لاتخاذها موطناً لهم، تقديراً منهم لأهمية تلك «الفضائل» وطلباً للبركة التي يضفيها المكان على ساكنيه[1].

ومن ناحية أخرى فقد عُني السلاطين والأمراء من الأيوبيين والمماليك، بتعويض المدينة عما عانته خلال سِني الاحتلال، بتوزيع الهبات السخيّة، وانشاء المؤسسات الوقفية، من دينية وثقافية وصحية، وهي مؤسسات لا تنكر أهميتها في رعاية الحركة الثقافية بما قدمته من أماكن مخصصة للتعليم، ورواتب ثابتة، ومخصصات عينية، ورعاية صحية، تموّل ذاتياً عن طريق الأوقاف الضخمة المرصدة لذلك[2]، فلم يكن غريباً اذاً أن تحفل كتب التراجم الخاصة بالعلماء، من أهل القرون الثلاثة التي تلت تحرير المدينة من الاحتلال الفرنجي، بالعدد الكبير من العلماء المقادسة الذين استوطنوها وانتظموا في سلك مدارسها الكثيرة، وشرعوا يبثون – من خلالها– العلم بين الطلبة والوافدين.

ولقد استعادت المدينة خلال وقت قصير نسبياً أهميتها مركزاً لاشعاع ثقافي، وتدلنا تراجم أولئك العلماء على سعة اهتماماتهم العلمية، وتفرغ أكثرهم للبحث والتأليف، فضلاً عن التدريس، متخذين من المسجد الأقصى نفسه والمدارس المنبثقة

---

(1) انظر د. محمود ابراهيم: فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة (الكويت 1406هـ/1985م) ففيه تفاصيل وافية عن عدة مؤلفات.

(2) انظر عن عناية السلاطين بانشاء هذه المؤسسات ورعايتها د. علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي (دار الفكر القاهرة) و د. يوسف درويش غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي (عمان 1982) و د. رشاد الامام: مدينة القدس في العصر الوسيط (تونس 1976).

عنه، مجالاً لممارسة دورهم الثقافي[1]. وفي الواقع فإن الأوقاف الكثيرة المُرصدة للانفاق على العلماء كانت تكفي لجعلهم مستقلين – مادياً في الاقل- عن السلطة القائمة، ومن هنا لم تتأثر الحركة الثقافية في المدينة، شأنها في ذلك شأن مدن المنطقة الأخرى، بالتبدلات السياسية والإدارية العديدة التي حدثت في تلك الحقبة، لا سيما في أواخر عهد المماليك. فمن تلك المنشآت الوقفية نذكر من المدارس:

المدرسة النصرية (نحو سنة 450هـ/1058م)، والمدرسة الخَتنيَّة (587هـ/1191م)، والمدرسة الصلاحية (588هـ/1192م)، والمدرسة الأفضلية (نحو 590هـ/1193م)، والمدرسة النحوية (604هـ/1207م)، والمدرسة الطَشتَمرية (784هـ/1382م)، والمدرسة الجاوَلية (707هـ/1207م)، وغيرها.

ومن الرُبط: رباط البصير (666هـ/1267م)، والرباط المنصوري (6811هـ/1282م)، ورباط الكُرد (693هـ/1293م) ورباط الماردينى (763هـ/1361م) والرباط الزمني (881هـ/1476م).

ومن المستشفيات: البيمارستان الصلاحي (583هـ/1187م) وغير ذلك كثير مما حفلت به القدس عهد ذاك[2].

ونتيجة للاستقرار الاجتماعي – الثقافي، فقد برزت إلى الوجود أسر تخصص أفرادها بالعلم، أو بضرب منه، فورَّثوه لأبنائهم أجيالاً عدة، فأنمَت هذه الظاهرة تقاليد الحياة الثقافية، ونقلت الخبرة اللازمة للبحث من جيل لآخر، وفي أقل تقدير فإنها أثمرت إنشاء خزائن كتب توسعت بما أضافه الأبناء إلى ميراث آبائهم ، ووقفها بعضهم على المدارس والمساجد، وبخاصة المسجد الأقصى، فعمّم بذلك فوائدها وصَيّرها مورداً لطالبي العلم من غير تلك الأسر.

في مثل تلك الظروف فتح العثمانيون بلاد الشام، فلم يؤثر تغيُر الدولة، وتبدل مؤسساتها الإدارية، من وضع المدينة الثقافي، فلبثت الأسر العلمية ترفد الحياة الثقافية بعدد من أبنائها النابهين، وظلت المدينة تستقبل بين حين وآخر بعض العلماء الذين كان يَطيَب لهم مجاورة مسجدها الأقصى المبارك، فيلقون المحاضرات ويجيزون الطلبة.

---

(1) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج2 (النجف 1968) في مواطن عديدة.

(2) المصدر نفسه 33-34 و د. كامل جميل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس (عمان 1981) 34-45.

ومع أن العصر العثماني لم يشهد إنشاء مدارس مهمة في القدس[1]، وإن شَهد أعمالاً خدمية عدة ذات نفع عام[2]، إلاّ أن من المؤكد ان أكثر مدارس العهدين الأيوبي والمملوكي لبثت تؤدى إبان هذا العصر، المهام التي أوكلها اليها الواقفون الأوائل، وظلت أوقافها تدرّ ما يكفي مُدرسيها وطلبتها على حدٍ سواء. و كانت الأوقاف تشمل مزارع وحقول وقرى كاملة في مناطق شتى من بلاد الشام، وفي غيرها أيضاً. هذا فضلاً عن هبات السلاطين والأمراء التي كان يجري توزيعها على أهل العلم خاصة. وعلى هذا فقد بلغ عدد حُجرات المدارس الكائنة في الساحة الكبيرة المحيطة بالأجزاء المنخفضة للحرم إبان اواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) مائتا حجرة، اما المدارس والزوايا في القدس فإن عددها بلغ 360 مدرسة وزاوية، من صغيرة وكبيرة[3]، وظلت أسماء المدارس الشهيرة كالصلاحية والنحوية والعثمانية والنصرية والتنكرية وغيرها تتردد في هذا العصر، من خلال تراجم علمائه ومدرسيه.

وإذا كانت حركة التعليم، والحياة الثقافية بعامة، قد أصابها شيء من الفتور في هذه الحقبة، فليس ذلك لأسباب تتعلق بموقف رسمي أملته سياسة الدولة مباشرة، وانما لأن الركود الذي أصابها كان جزءً من ركود ثقافي عام شمل الأقاليم التي دخلت في نطاق سيطرة الدولة ولم يقتصر على منطقة أو مدينة بذاتها، وهو ركود يمكن أن نجد أسبابه في عوامل عدة إقتصادية وسياسية وإجتماعية، قبل أن نجده في عوامل ثقافية بحتة. صحيح أن بعض موارد الأوقاف قد أخذ بالنضوب مما أثر على مصير هذه المؤسسة او تلك، ولكن ذلك النضوب لم يكن نتيجة لمصادرة أو إلغاء بقدر ما كان يعود لاضطراب الأحوال الأمنية في الريف[4]

---

(1) العسلي معاهد العلم ص153

(2) من الأعمال المهمة في هذا المجال ما قام به السلطان سليمان القانوني، وتشمل إعادة بناء جانب من سورها، وترميم حصنها وبواباتها ، وحفر حندقها، وإنشاء عدد كبير من مشاريع مياه الشرب (الأسبلة) وحمامين وتكية فضلا عن مدرسة لطلبة العلم في تكية خاصكي سلطان. ولا شك في أن هذه الأعمال وهي خدمية في مجملها، كانت تساعد على تهيئة مستلزمات الحياة في المدينة، ينظر عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية، بيروت 2005، ص431 وخليل طوطح: تاريخ القدس، مطبعة مرآة الشرق، القدس 1922، ص29 وكامل العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، عمان 1983، ص145.

(3) عارف العارف: تاريخ القدس (القاهرة) ص105-101 عن أوليا جلبي سياحتنامه سي.

(4) كانت فلسطين تابعة اداريا في هذا العهد لولاة دمشق ونظراً لبعدها عنها جغرافياً ولقلة انتاجها من الحبوب على خلاف الحال في منطقة حوران، فان الدولة لم تبد اكتراثاً كبيراً

واضطرار القرويين إلى هجر قراهم وترك أراضيهم الزراعية لتَبور، وفيها ما هو موقوف على مثل تلك المنشآت.

ولا شك في أن ظاهرة تناقص القرى، التي برزت في هذه الحقبة، مسؤولة – إلى حدٍ كبير– عن اضطراب الإنفاق من موارد الأراضي الموقوفة، وهو الأمر الذي شجع عدداً من الواقفين على وقف العقارات المدنية، كالأسواق والحوانيت والحمامات والخانات والدور والأفران وغيرها بوصفها أكثر ضماناً لمصالح الوقف، وربما لجأ بعض متولي الوقف إلى استبدال المزارع والحقول خارج المدن، بمثل تلك العقارات خدمة لمصالح المؤسسة الوقفية ولتحقيق زيادة في مواردها المالية.

ولقد برز خلال الحقبة الممتدة من دخول العثمانيين مدينة القدس في أوائل القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد) وحتى نهاية القرن التالي عدد من الأسر العلمية، بعضها كان امتدادا للأسر التي ظهرت في الحقبة السابقة، بينما عرف البعض الآخر في العهد العثماني. وفي وسعنا أن نلاحظ تعدد اجيال الأسرة الواحدة من تلك الاسر، وقدرتها على توريث إهتماماتها العلمية إلى أبنائها عبر قرون من الزمن، ويمكن أن نَعزي هذه الظاهرة إلى عدة عوامل، لعل أبرزها أن تلك الاسر كانت تحصل على مصادر دخلها من الأوقاف المُرصدة على المؤسسات الدينية والعلمية التي تتولى وظائفها الشرعية من إمامة وخطابة ووعظ وتدريس وإفتاء، ولما لم يكن ممكناً الحصول على تلك الدخول إلاّ بشغل الوظائف المذكورة، تحقيقاً لشروط الواقفين، فإن تأهيل الأسرة أبناءها للعمل في مجالات العلم والتعليم يصبح ضرورة تفرضها تلك الشروط نفسها. ومن ناحية أخرى فان تولي عدة أجيال من الأسرة وظائف محددة ذات قيمة روحية واجتماعية عالية، من شأنه أن يُضفي على الأسرة مقاماً اجتماعياً رفيعاً في مدينتها، بل أن يحدد مستواها الإجتماعي بسبب نوع ما تشغله من وظائف، وبالطبع فإنه ليس بالإمكان الحفاظ على ذلك المستوى إلاّ بسَيْر الأبناء على هُدى خُطى الآباء. ومن ناحية ثالثة فإن رتابة الحياة السياسية والاجتماعية، وضعف تأثرها بأية تيارات ثقافية جديدة خلال تلك الحقبة التي اتسمت بالركود عامة، أدت إلى استمرار أبناء

باحوالها ولم تبذل لها الحماية التي بذلتها لمنطقة حوران ومن ثم كانت اكثر مناطق بلاد الشام اجتياحا من قبل البدو، د. ليلى الصباغ: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني (دمشق 1972) 64- 65.

الأسرالعلمية في تولي مراكز آبائهم، واهتماماتهم أيضاً، فلم يكن ثمة مُبرر يقضي بإحداث أي تغيير في نظام اجتماعي ثابت، عَرَف كل عضو فيه موقعه منه. ولا نشك في أن استمرار هذا التواصل العلمي لمدة طويلة، قد عزَّز من قوة التقاليد العامة للحياة الثقافية، فلم نقرأ عن إستثناءات تُذكر في طبيعة تلك الحياة، سواء ما يتعلق منها بالعلم والتعليم ووسائله، أوالاتجاهات الفكرية العامة، المتمثلة بمناهج البحث وأهدافه ومجالاته.

ولنا أن نلاحظ أن أكثر الأسر العلمية التي برزت في عهد المماليك السابق، ظلت موجودة في هذا العهد أيضاً، إلاّ أنها تعرَّضت -لأسباب مختلفة- إلى منافسة أسر جديدة وفدت إلى القدس في حقبة متأخرة، ومنها ما كان وفوده في أواخر عهد المماليك. وليس من الواضح السبب الذي دفع بهذه الأسر الجديدة إلى تبوُء مكان الصدارة في الحياة الثقافية للمدينة، على الرغم من وجود أسر أقدم منها، وذات إرث ثقافي كبير، أمثال بني القلقشندي وبني جماعة وبني الدَيري وبني قُدامة وبني غانم، ونرى أن سبب ذلك إجتماعي بالدرجة الاولى، يتعلق بتناقص عدد رجال تلك الأسر آنذاك لتعرضهم لتأثير الأوبئة العديدة التي وفدت إلى المدينة في أواخر عهد المماليك أو لأسباب وراثية معينة[1]، وهي ظاهرة لا نعدم أن نجد لها امثلة أخرى في مجتمعات عاشت ظروفاً مشابهة.

ومن المؤكد أن شَغر أي منصب في المؤسسات الشرعية والعلمية، بسبب وفاة صاحبه وعدم وجود مرشح مؤهل من أسرته، يعني تقديم فرصة لأسرة علمية أخرى لأن تدفع بأحد أبنائها لشغل ذلك المنصب، وهكذا فقد وجدت أسر حديثة العهد بالمدينة المجال لتثبيت أقدامها في مجتمعها فاتحة المجال لأجيال أخرى من تلك الأسر لأن تسلك السبيل نفسه، فتدفع بأبنائها لتولي المناصب الشرعية والعلمية، وتبوئها – من ثم- منزلة اجتماعية رفيعة. وعلى أية حال فقد تمكنت هذه الأسر، من الهيمنة على معظم النشاط الثقافي في مجتمعها، وهي ظاهرة وإن لمسناها في العهد السابق، فانها بدت أكثر بروزاً في هذا العهد. وليس أدل على

---

(1) تعرضت مدينة القدس، منذ منتصف القرن التاسع الهجري (15 م) إلى تناقص حاد في أعداد السكان لفت نظر بعض الرحالة من الحجاج المسيحيين واليهود، أنظر د. علي السيد: مصدر سابق ص70-71.

ذلك من أن المحبّي أورد في (خلاصة الاثر) نحو خمسين ترجمة لعلماء مقادسة عاشوا في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) فكان نصفهم تقريباً ينتمي إلى خمس أسر علمية فحسب، هذا بينما يكشف كتاب (الكواكب السائرة) للغزي عن تنوع الشديد لأصول علماء القدس في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر الميلادي) فبينهم دمشقيون وحلبيون ومصريون وبغداديون وموصليون ومغاربة وحجازيون ..الخ، جمع بينهم العلم، وليس الانحدار من مَحتَدٍ محُدد او أسرة معينة.. وأبرز الأسر المقدسية التي اشتغلت بالعلم، ابان القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) هي:

1- بنو أبي اللُّطف:

تنسب هذه الأسرة إلى أول من استقر من أسلافها في مدينة القدس، وهو الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن منصور بن زين العرب الحَصْكَفي، المُكنّى بأبي اللطف (ولد سنة 815 وتوفي سنة 859هـ/1416- 1455م) وكان عالماً مشهوراً له تآليف عدة، ويكشف لقبه فضلاً عن ترجمته[1]، كونه من أهل حصن كيفا من مدن أعالي الجزيرة، وتشير المصادر إلى انه كان يُعرف هناك بابن الحمصي، مما يدل على أن أباه لم يكن من أهل حصن كيفا، وانما انتقل اليها من حمص. وقد تزوج من ابنة أحد كبار علماء القدس، وهو شيخ الإسلام تقي الدين القرقشندي المصري، فولد له محمد الذي سرعان ما لاحت دلائل نبوغه فنال شهرة عريضة حتى عرف بشيخ الإسلام، واستقر محمد ابو اللطف في القدس حيث ولد له أبناء لم يقل عددهم عن ستة، وكان لجميعهم ذرية، فبلغ عدد من عرفتهم مصادر القرنين السابع عشر والثامن عشر نحو 16 رجلاً برز جميعهم في مجال العلوم والتعليم، منهم:

- محمد بن ابي اللطف: ولد سنة 859هـ/1454م، وأخذ علومه الاولى على أيدي علماء القدس، ثم واصل دراسته في القاهرة حيث تتلمذ على يد العلامة محمد بن عبد المنعم الجوجري (821-889هـ/1418-1484م) وسمع الحديث وقرأه على جماعة، وأذن له بالإفتاء والتدريس «وصار من أعيان العلماء والأخيار الموصوفين بالعلم والدين والتواضع». وتوفي سنة 928هـ/ 1521م[2].

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع ج8 ص220.

(2) الغزي: الكواكب السائرة 17/1 والضوء اللامع 164/9، والعماد الحنبلي: شذرات الذهب 161/8.

• عمر بن محمد أبي اللطف: تولى إفتاء الحنفية بالقدس سنة 990هـ/1582م، والتدريس بالمدرسة العثمانية (المفتتحة سنة 840هـ/1436م) حيث تقاسم راتب هذه الوظيفة مع أحد علماء بني جماعة من الأسر العلمية القديمة[1].

• جار الله بن أبي بكر محمد أبي اللطف: واصل دراسته في مصر حيث أخذ العربية والفقه، وبعد وفاة عمه عمر اضطر للسفر إلى اسلامبول ليَرث وظائفه الشرعية، فتولى الإفتاء والتدريس في المدرسة المذكورة، وتوفي سنة 1028هـ/1618م[2].

• اسحاق بن عمر بن أبي اللطف: نبغ في الفرائض والحساب، وتولى التدريس في المدرسة العثمانية اسوة بأبيه، ثم انتقل للتدريس في المدرسة الصلاحية، أشهر مدارس القدس، وهي «مشروطة لأعلم العلماء الشافعية في ديار العرب وعلوفتها[3] كل يوم مثقال من الذهب»، وتولى إفتاء الشافعية، ولم يُعرف تاريخ وفاته[4].

• يوسف بن محمد ابي اللطف: تقاسم مع ابن عمه اسحاق تدريس المدرسة الصلاحية «لكن التصرف في الغالب انما هو لإسحاق[5].

• محمد بن يوسف بن محمد ابي اللطف: دَرَس العربية على ابن عم ابيه عمر بن محمد وتفقه على والده يوسف، وعين نائباً للقضاء في القدس ثم كاتباً لقاضيها، ووضع شرحاً لمنظومة أبيه في الفقه، وتوفي سنة 1028هـ/1618[6].

• محمد بن عبد الحق بن محمد ابي اللطف: رحل إلى القاهرة وأقام فيها سنين عديدة ودرس على يد علمائها، ثم سافر إلى اسلامبول ليتولى تدريس المدرسة العثمانية فتولاها، وكان شاعراً مطبوعا. توفي سنة 1033هـ/1623[7].

---

(1) الكواكب السائرة ج3 ص220 والعسلي: كمصدر سابق ص178

(2) المحبي: خلاصة الأثر ج1 ص481-483.

(3) مصطلح أخذ من العَلف الذي تعلفه الدواب، وتطور معناها الى ان تكون رواتب لجنود الينكجرية ثم لاصحاب الوظائف عامة وترددت الاشارة اليها بوصفها رواتب مقررة في وقفيات الواقفين.

(4) خلاصة الاثر ج4 ص394.

(5) خلاصة الاثر ج4 ص272 والبغدادي هدية العارفين ج2 ص71 وكحالة: معجم المؤلفين ج12 ص134.

(6) خلاصة الأثر ج1 ص481-482

(7) خلاصة الاثر ج3 ص482

• أبو اللطف بن اسحاق بن محمد محمد ابي اللطف: كان فقيها شاعراً، ولي افتاء الشافعية وتدريس المدرسة الصلاحية، وتوفي سنة 1071هـ/1660م[1].

• عبد الرحيم بن أبي اللطف: أخذ العلم في مدينته، ثم واصل دراسته في مصر، وتولى إفتاء الحنفية بالقدس وتدريس المدرسة العثمانية، وتوفي 1104هـ/ 1692م[2].

• محمد بن عبد الرحيم (السابق) تولى إفتاء الحنفية في القدس، وكان أفقه الحنفية في وقته، وله فتاوى، ولم يعلم تاريخ وفاته[3].

• علي بن جار الله بن ابي بكر: ولي افتاء الحنفية في القدس وخطابة المسجد الاقصى، توفي سنة 1070هـ/1659م[4].

• علي بن حبيب الله بن محمد بن نور الدين بن أبي اللطف: انتقل إلى مصر حيث مكث في الازهر خمس عشرة سنة، وسافر إلى القسطنطينية حيث درّس صحيح البخارى مدة خمس وعشرين سنة. تولى تدريس المدرسة الصلاحية، وكانت قبله لإبن عمه محمد جار الله، والمدرسة الحنفية وافتاء الشافعية والمدرسة المأمونية ومشيخة المدرسة الملكية، ونزل في المدرسة الحسنية، ودرس في باب الاقصى، ثم في المدرسة الفنازية، وتوفي سنة 1144هـ/1731م[5].

2- بنو العَلَمي

نزحت هذه الاسرة من منطقة هكارى في كردستان[6]، وعرفت باسمها هذا نسبة إلى أحد أجدادها وهو علم الدين بن ربيع بن سليمان بن المهذب بن قاسم بن

---

(1) خلاصة الأثر ج4 ص272 والبغدادي هدية العارفين ج2 ص71

(2) كحالة: معجم المؤلفين 12/ 134.

(3) خلاصة الاثر ج1 ص151

(4) خلاصة الاثر ج1 ص145

(5) المرادي: سلك الدرر 4/58.

(6) تشمل بلاد هكار في العصور الإسلامية رقعة واسعة تمتد من بلاد آذربيجان ايران شرقاً ومنطقة وان شمالا ومنطقة جزيرة ابن عمر (بوتان) من الغرب والموصل جنوباً، على أن معظم القسم الجنوبي منها سيعرف منذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) باسم جديد هو (بهدينان) نسبة إلى الأمراء من آل بهاء الدين الذي اتخذوا من العمادية عاصمة لإمارتهم. وثمة حجة شرعية متأخرة صادرة عن محكمة القدس تشير إلى أن هذه الأسرة تنتسب إلى الفقيه ضياء الدين بن محمد عيسى الهكاري أحد أمراء السلطان صلاح

علي بن حسن بن أحمد الهكاري، ويؤكد قِدم إقامة الاسرة في مدينة القدس أن احدى حاراتها عرفت بحارة العَلَم، نسبة إلى مؤسسها المذكور. واشتهر أبناؤه بالصلاح والمَيل إلى التصوف حتى عُرف حفيده المباشر موسى بالولاية وإتيان الكرامات، ويظهر أنه كان للزيادة المطردة في عدد أبناء الأسرة دور أساس في توطيد مكانتها فضلاً عن صفاتهم المحببة الأخرى، وقد نال موسى نفسه لقب أمير، وذلك لتوليه بعض المناصب الإدارية الرفيعة[1]، إلا أن الأجيال التالية لم تعرف الا بالولاية والصلاح[2]. ويذكر المحبي انهم بيت الولاية والصلاح لهم الرتبة العَلّية في القدس، وخرج منهم علماء وصلحاء كثيرون[3]. ولم يؤثر على أكثرهم إشغال الوظائف التدريسية في مدارس القدس الموقوفة إلا أن قسماً منهم تولى منصب الخطابة في المسجد الاقصى والإمامة في الصخرة المشرفة، وكان لبعضهم أوقاف على أهل المدينة. ولقد أمكن لنا أن نُحصي عدداً وافراً ممن اشتهر بالعلم والتقى من أهل هذا البيت، زاد على العشرين عالماً، برز أكثرهم بعد الفتح العثماني للمدينة، وبالتحديد في القرن الحادي عشر (السابع عشر للميلاد) والنصف الاول من القرن التالي منهم:

- سيدي محمد بن عمر بن محمد العَلَمي المعروف بالقُطب: ولد بالقدس وسكن دمشق زمناً، وحج وجاور، وعاد إلى القدس، وتوفي فيها سنة 1038هـ/ 1639م وله مؤلفات وشعر[4].

- محمد بن علي العلمي: خال محمد بن عمر المتقدم. طلب العلم في القدس ثم ارتحل إلى القاهرة حيث تفقَّه على يد كبار علمائها، منهم الشيخ زين الدين ابن نجيم الحنفي وغيره، واستقر في دمشق حيث درس في بعض مدارسها وتوفي سنة 1018هـ/1609م[5].

الدين الأيوبي، ولكنها تشير إلى أن نسب الهكاري هذا يتصل بالشرفاء الأدارسة الحسنيين، ينظر عن هذه الوثيقة ومصادر أخرى موقع آل العلمي alamifamily وموقع مؤسسة مدينة القدس alquds-online ويتصل بهذه الأسرة عدد كبير من الأسر اليوم في مدن فلسطينية شتى.

(1) خلاصة الاثر 3/151.

(2) سلك الدرر 3/209

(3) خلاصة الاثر 1/219.

(4) انظر الحنبلي: الانس الجليل 2/281.

(5) سلك الدرر 1/71.

- عبد الصمد بن عمر العلمي: صوفي استخلفه أبوه في مجلس الذكر شاباً فكان «على وقار الأشياخ»، عاش شبابه في دمشق وجلس في حلقة الذكر شاباً، وحج مع أبيه سنة 1011هـ/1602م، واستقر في القدس وتوفي سنة 1032هـ/1622م[1].

- أحمد بن صالح بن عمر العلمي: أخو القطب محمد بن عمر المتقدم، كان صوفياً ورعاً، أخذ التصوف عن عمّه ولازم المسجد، توفي سنة 1054هـ/1643م[2].

- مصطفى بن فخر الدين بن عثمان العلمي: طلب العلم في القدس وعمل كاتباً للصكوك في محكمتها، وولي النيابة، ووقف أوقافاً عدة على المؤذن في المسجد الاقصى وعلى أعمال خيرية أخرى، وتوفي سنة 1075 هـ/1664م[3].

- عبد القادر بن محمد بن عمر العلمي: من العلماء الأجلاء توفي سنة 1079هـ/1668م[4].

- أبو الوفا بن عبد الصمد بن محمد العلمي: صوفي ولد سنة 1052هـ/1642م وأدرك جده القطب سيدي محمد العلمي، وحفظ القرآن الكريم ولبس خرقة الصوفية من اخيه الشيخ عمر (السابق)[5]، وصار شيخ الشيوخ بالقدس وكبير الصوفية، توفي سنة 1109هـ/1697م.

- أحمد بن صلاح الدين العلمي: كان عالما صوفياً، ولد سنة 1055هـ/1655م، وأخذ التصوف عن أحد المغاربة الشاذليين فجعله هذا خليفة له في القدس. وتولى الخطابة والوعظ في المسجد الاقصى توفي سنة 1116هـ/1704م[6].

- أبو بكر بن احمد بن صلاح الدين العلمي: كان زاهداً خيّراً تولى افتاء الحنفية بالقدس، وتوفي سنة 1044هـ/ 1731[7].

---

(1) خلاصة الاثر 4/44 وهدية العارفين 2/276 و Lrocl, S,I , 470

(2) خلاصة الأثر 4/45

(3) خلاصة 2/ 421

(4) خلاصة 1/219

(5) خلاصة 4/275

(6) خلاصة 2/467

(7) خلاصة 1/70

3- بنو الدجاني:

ينتسبون إلى بيت دجن، قرية بالقرب من بلدة يافا، وانحدروا منها في وقت غير محدد ليستوطنوا مدينة القدس. وقد برزت منهم إبان هذه الحقبة أسماء لامعة، ترجم لهم معاصروهم وهم:

- عَرَفة بن أحمد الدجاني: كان عالماً فاضلاً منقطعاً في منزله، وارتحل مع أبيه وأخوَيه إلى مصر وقرأوا بالجامع الأزهر، ثم عادوا إلى القدس ليشتغلوا بالعلم، وتوفي عرفة سنة 1003هـ/1594م[1].

- محمود بن أحمد الدجاني: أخو سابقيه. وصفه معاصروه بأنه الشيخ الكبير الفقيه الثبت الرحلة، وتوفي بعد سنة 1003هـ[2].

- محمد بن صالح بن محمد الدجاني: أقام بالازهر سنين عديدة، ودرس الفقه والحديث على يد كبار علماء مصر، ثم أخذ التصوف وهو في أواسط عمره، وله تآليف. توفي سنة 1071هـ/1660م[3].

- درويش بن سليمان بن محمد بن أحمد الدجاني: كان شيخاً صالحاً زاهداً، وأخذ العلم في القدس، ثم اقام في دمشق واشتغل بالتصوف. وتوفي سنة 1088هـ/ 1677م[4].

- يحيى بن درويش الدجاني: من صلحاء القدس عمل خادماً لضريح النبي داود، وكانت له رحلات عدة إلى دمشق، وتوفي سنة 1133 هـ[5].

- خليل بن أبي الوفا الدجاني: المتولي والناظر والشيخ في المدرسة الأوحدية في القدس سنة 1124 هـ/1712م[6].

4- بنو الدَيري:

يُنسبون إلى قرية الدير من أعمال نابلس، ومنها نزحوا إلى القدس في القرن الثامن الهجري (14م)، وأول من استوطنها منهم شيخ الإسلام شمس الدين محمد

---

(1) سلك الدرر 70/1

(2) خلاصة الأثر ج2 ص156.

(3) خلاصة ج2 ص156

(4) نفسه ج2 ص156

(5) سلك الدرر ج4 ص228

(6) العسلي ص224 عن سجلات المحكمة الشرعية.

بن جمال الدين سعد بن عبد الله بن مصلح الديري العبسي الحنفي المتوفى سنة 867هـ/ 1462م[1]. ولقد عرف أبناؤه وأحفاده بالفقه، وهو ما أهّلهم للعمل في وظائف علمية وشرعية مرموقة، كالتدريس في المدارس، ونيابة الحكم (القضاء) وكتابة الصكوك، ورئاسة الكتاب في محكمة القدس، والنظارة على الأوقاف، وكانت هذه الوظائف تنتقل إلى الأبناء من آبائهم بصفة وراثية. وقد لمع شأن الأسرة في العصر العثماني بمن أنجبتهم من أولئك العلماء، فأوردت كتب التراجم تراجم عدد منهم، كما وردت الإشارات إلى عدد آخر في سجلات المحكمة الشرعية في القدس، فمن العلماء الذين نبغوا في القرن السابع عشر وحده نذكر:

- محمود بن أحمد الدِّيري: تولى نصف وظيفة النظارة على أوقاف المدرسة الفارسية ونصف مشيختها عما لها من العلوم، عِوضاً عن والده بحكم فراغه له سنة 971هـ/1563م[2].

- طه بن صالح بن يحيى الدَيري: أخذ العلم من علماء بلده، وكانت له اليد الطولى في علوم الاصول والتفسير والنحو، وولي نيابة الحكم وكتابة الصكوك في القدس، ثم ولي نيابة الحكم بمكة، واخذ فيها الحديث عن علمائها ثم عاد إلى القدس واشتغل بالتدريس. توفي سنة 1071هـ/1660م[3].

- فتح الله بن طاهر الديري: تولى مشيخة المدرسة الفارسية بعد والده سنة 1077هـ/1666م، وأذن له الحاكم بالتصرف بالوظيفة والسُّكن في المدرسة سنة 1080هـ/1669م، وتوفي بعد سنة 1094هـ/1682م[4].

- خليل بن عفيف الديري: تولى نصف وظيفة التدريس بالمدرسة الفارسية سنة 1079هـ/1668م[5].

---

(1) خلاصة الأثر ج2 ص260وفي وثيقة صادرة عن السلطان المملوكي جقمق مؤرخة في سنة 851هـ اشارة إلى شيخ الإسلام الإمام العالم العلامة.. سعد الدين ابو السعادات بن شيخ الإسلام شمس الدين أبي عبد الله محمد الخالدي المعروف بابن الديري الحنفي. ونظر شجرة الأسرة وتفرعاتها الموقع الرسمي لعائلة الخالدي khalidi

(2) العسلي: مصدر سابق ص234

(3) خلاصة الأثر ج2 ض260

(4) العلي: مصدر سابق 253 عن سجلات المحكمة الشرعية في القدس.

(5) خلاصة ج2 ص260

• صُنع الله الديري: تولى النصف الآخر من الوظيفة المذكورة سنة 1049هـ/سنة 1682م[1].

• محمد بن عيسى بن عبد الرحمن الديري: مؤلف، له بعض الشروح. توفي سنة 1087هـ/ 1676م[2].

• محمد الخالدي الديري: طلب العلم، وتولى رياسة الكتابة بمحكمة القدس وهي وظيفة آبائه وأجداده، وتوفي سنة 1139هـ/1726م[3].

5- بنو الخَربيشي:

انحدروا إلى القدس من قرية تدعى (خَربيش) في جبل نابلس، وعمل أول أسلافها المعروفين، واسمه أحمد، في أعمال البناء، لكنه كان حسن تلاوة القرآن فتأثر به ولده محمد وطلب العلم، وواصل دراسته في الأزهر حيث أقام هناك مدة طويلة، تأهل بعدها للتدريس والفتوى، ثم عاد إلى مدينته القدس ليعمل إماما للحنابلة بالمجمع الذي تحت المدرسة القايتبائية، وتوفي سنة 1001هـ/1592م[4]. وقد اقتدى بسيرته إبنه اسحاق، فطلب العلم وأمَّ بالمسجد الاقصى، وكانت له مؤلفات جمة. وتوفي سنة 1035هـ/1625م[5].

وثمة أسر اخرى، يظهر انها كانت أقل شأناً في الحياة الثقافية لقلة من قدمتهم من أهل العلم، مثل أسرة الكَرَمي (نسبة إلى بلدة طول كَرَم)، ومنها الفقيه المؤرخ مرعي بن يوسف بن ابي بكر بن احمد الكرمي المتوفي سنة 1033هـ/1623م[6]. وأسرة العَسَلي التي نزحت من مصر في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)، وبرز منها علماء كبار منهم محمد بن موسى بن علاء الدين العسلي الذي برع في الفقه والحديث، وألف فيهما مؤلفات مهمة، وتوفي سنة 1031هـ/1621م[7]. وأسرة أولاد تامر، ومنها يحيى بن زكريا المعصراني، وكان فقيهاً نحوياً يقرئ بالخلوة النحوية

---

(1) العسلي ص234

(2) العسلي ص234

(3) خلاصة 2/260

(4) العسلي 234

(5) العسلي 234

(6) نفسه 234

(7) البغدادي، هدية العارفين 2/295

في سطح الصخرة القبلي، وقد أوصى بجميع كتبه إلى طلبته، وتوفي سنة 1083هـ/1672م[1]. وأسرة الشهواني التي ذكر المرادي أنها «من البيوت القديمة بالقدس»[2] وغيرها.

وتكشف دراسة عنوانات الكتب والرسائل التي وضعها العلماء المقادسة إبّان هذه الحقبة، عن جملة من الأمور المهمة، منها أن شيئاً من الفتور قد أصاب حركة التاليف، قياساً إلى ما كانت عليه هذه الحركة في العهدين الأيوبي والمملوكي، فلم تعد تراجم العلماء مكتظة بعناوين مؤلفاتهم، وإنما طغت على هذه التراجم الإشارات إلى وظائفهم، والشيوخ اللذين أخذوا عنهم، ويمكن أن تعزى هذه الظاهرة إلى الركود العام الذي ساد البلاد إبان العصر العثماني، وزوال دولة المماليك التي شهدت القدس، في أثناء حكمها، ذروة مجدها الثقافي. ويمكن القول أن التراث الفكري المتنوع الذي نتج عن علماء ذلك العهد، كان من الغنى والأهمية ما أغنى – إلى حد ما- عن مظاهاته بمؤلفات جديدة، ونرجِّح أن يكون التراث المذكور قد أصبح المعين لعلماء العصر العثماني، في التدريس والفتوى. لا سيما وأن ظروفاً جديدة لم تستدع وضع مؤلفات تلبي حاجة أبناء العصر المذكور.

ومن ناحية اخرى فإن لدراسة الأغلبية الساحقة من علماء القدس في القاهرة، وأخذهم العلم على أيدي كبار العلماء المصريين، جعلتهم يكتفون بنتاج أولئك العلماء الذين أخذوا عنهم، فتعددت نسخ الكتاب الواحد في خزائن المدينة ومدارسها، بينما ضعفت الرغبة في الإضافة اليه، أو تأليف كتب بديلة. وربما أدى انتشار المفاهيم الصوفية في هذا العهد انتشاراً واسعاً، سبباً آخر لعزوف بعض الصوفية عن الانشغال بالبحث والتأليف، والإنصراف، بدل ذلك، إلى حلقات الذكر والتربية الروحية خاصة.

بيد أن علينا ان لا نتصور بأن هذا الفتور النسبي كان يعني توقفاً لحركة التاليف، وانتهاءاً للبحث في شؤون المعرفة، إذ أن رصد النتاج الفكري لهذه الحقبة يكشف عن أن حركة التاليف والبحث لم تتوقف قط، رغم كل الظروف السائدة. وأن ترتيب اهتمامات المؤلفين كان، بحسب عنوانات مؤلفاتهم، يأخذ السياق الآتي: فروع الفقه، التفسير، اللغة والنحو، السيرة والتاريخ، التصوف، العلوم البحتة.

(1) خلاصة 340/3 سلك الدرر 123/4

(2) سلك الدرر 123/4

ففي الفقه كتب محمد بن يوسف بن ابي اللطف المقدسي الحنفي (المتوفى 1028هـ/1618م) شرحاً لكتاب (جواهر الذخائر في الكبائر والصغائر) لبدر الدين الحسن بن علي الغزي (المتوفى سنة 753هـ/1352م)[1]، ووضع مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (المتوفى سنة 1033هـ/1623م) عدداً من الكتب والرسائل الفقهية التي عالج أكثرها موضوعات محددة كانت تشغل أهل عصره، منها مثلاً (ازهار الفلاة في آية قصر الصلاة) و (ايقاظ العارفين على حكم أوقاف السلاطين) و (تهذيب الكلام في حكم أرض مصر والشام) و (تحقيق الرجَحَان بصوم يوم الشك من رمضان) و (الحجج المُبيِّنة في إبطال اليمين مع البيِّنة) و (دليل الطالب) في الفقه و (غاية المنتهى) في الفقه، و (اللفظ المُوطا في بيان الصلاة الوسطى) و (المسائل اللطيفة في فسخ الحجج إلى العمرة الشريفة) و (مقدمة الخائض في علم الفرائض)[2].

ووضع محمد بن صالح الدجاني الشافعي (المتوفى سنة 1071هـ/16660م) رسالة في حكم الأمرَد، وأخرى في فصل المساجد[3]. وكتب عبد الباقي بن عبد الرحمن الخزرجي (المتوفى سنة 1078هـ/1667) شرحاً سماه (الرمز) على كتاب (كنز الدقائق) لابي البركات النسفي (المتوفى سنة 710هـ/1310م)[4]، وجمع عبد الرحيم بن أبي اللطف المقدسي (المتوفى 1104هـ/1692م) فتاواه التي أفتى بها في كتابٍ سماه (الفتاوى الرحيمية في الواقعات الحنفية)، وكتب تعليقات على الفتاوى البزازية لحافظ الدين محمد بن البزاز الكردري (المتوفى سنة 827هـ/1423م) وعلى غيرها ايضاً، فجمعها ولده وسماها (الفوائد الرحيمية على كتب كثيرة من كتب السادة الحنفية).[5]

وفي التفسير كتب رضي الدين يوسف بن أبي اللطف المقدسي (المتوفى سنة 1006هـ/1574م) «تعليقة عظيمة» على تفسير أبي السعود العمادي (المتوفى سنة

---

(1) خلاصة الأثر 394/1

(2) نفسه 358/4 وهدية العارفين 426/2 وكحالة 218/12

(3) خلاصة الاثر 234/4

(4) نفسه 472/4

(5) سلك الدرر 2/ 104

982هـ/1574م) المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» وقد علقها إلى قريب النصف وأهداها إلى أحد القضاة الذين زاروا القدس يومذاك[1]. وكتب محمد بن يوسف بن أبي اللطف حاشية على «أنوار التنزيل» للبيضاوي[2]، بينما وضع مرعي بن يوسف الكرمي نحو عشرة كتب ورسائل في التفسير، منها تفسيره المسمى (البرهان في تفسير القرآن)، ورسائل متنوعة في تفسيرات آيات معينة مثل (اتحاف ذوي الالباب في قوله تعالى: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)، و (احكام الاساس «في قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...)، و الكلمات السَّنية في قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...)، و (بهجة الناظرين في آيات المستدلين) وكتاب في علم الناسخ والمنسوخ سماه (قلائد المرجان) وآخر في الآيات المحكمات والمتشابهات[3] وغير ذلك.

وعُني آخرون بالكتابة في التصوف والدفاع عن مبادئه، فكتب محمد بن علي العَلَمي (المتوفى سنة 1018هـ/1609م) (النصيحة المرضية إلى الطريقة المحمدية)[4]، ورد عبد الباقي الخزرجي (المتوفى سنة 1078هـ/1667م) على مُنكري كرامات الأولياء برسالة سماها (السيوف الصِّقال في رَقبة من يُنكر كرامات الاولياء بعد الانتقال)[5]، ووضع مرعي بن يوسف الكرمي رسالة في التربية الروحية سماها (تسليك المريدين)، ودافع عن الصوفية برسالة (الأدلة الوفية بتصويب قول الفقهاء الصوفية) وحاول التوفيق بين الفقه والتصوف برسالة عنوانها (سلوك الطريقة في الجمع بين كلام أهل الشريعة والحقيقة)، وبحث في مسألة الروح برسالة سماها (أرواح الاشباح في الكلام على الأرواح)، وتناول تحديد مصطلح الولاية في رسالته (تحقيق المقالة هل الأفضل في حق النبي (صلى الله عليه وسلم) الولاية او النبوة والرسالة)[6] وغير ذلك.

---

(1) هدية العارفين 2/271

(2) نفسه 2/427

(3) نفسه 2/488

(4) البغدادي: ايضاح المكنون 1/583

(5) هدية العارفين 1/564

(6) كشف الظنون 66

وفي العقائد وضع مرعي بن يوسف المذكور نحو اثني عشر كتابا ورسالة، بحث فيها مسألة نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان، ومسألة حياة الخضر وأخباره، وأوضح في بعض رسائله حقيقة الميزان، وتكلم في الفرق بين الاسلام والايمان، وفي الصفات الالهية، ورد على كل من كان يحتج على فعل المعاصي بالقدر في رسالته (دفع الشُبهة والغدر) وكتب في (تحقيق الخلاف في أصحاب الأعراف) و (توفيق الفريقين على خلود أهل الدارين)، ووَضَع رسالة بعنوان (رفع التلبيس عمن توقف فيما كفَرَ به إبليس) وغير ذلك[1].

وفي علوم العربية وضع محمد بن موسى العسيلي المقدسي (المتوفى سنة 1031هـ/1621م) حاشيتين، الاولى على (قطر الندى) لابن هشام النحوي، والاخرى على شرحه المعنون (مجيب الندا) لأحمد الفاكهي المكي (المتوفى سنة 1972هـ/1564م)، ثم نظم متن القطر المذكور[2]، وألف مرعي بن يوسف الكَرَمي (دليل الطالبين لكلام النحويين) وكتاباً سماه (قرة عين الودود بمعرفة المقصور والممدود)، وآخر في علم البديع سماه (القول البديع)[3]. وعُني أحمد بن مفرح بن عيسى المقدسي (المتوفى بعد 1093هـ/1681م) بالمنظومة النحوية التي وضعها عمر ابن الوردي (المتوفى سنة 749هـ/1348م) فشرحها بعنوان (الهدية الغريبة على التحفة الوردية)[4].

ووضع حسن بن محمود المقدسي (المتوفى سنة 1100هـ/1688م) عدة حواس على شرح (المفتاح في المعاني والبيان) للسكاكي[5]، بينما كتب عبد الرحيم بن أبي اللطف (المتوفى سنة 1104هـ/1692م) كتاباً في الاشتقاق سماه (دلالة الاشتقاق) ثم عاد فشرحه، ووضع آخرون رسائل أخرى في مثل هذه المباحث[6].

وشهدت الحقبة محاولات متفرقة في الكتابة التاريخية لم تبلغ بمجموعها ما

---

(1) هدية العارفين 427/2

(2) ايضاح المكنون 654/2 وهدية العارفين 496/1

(3) هدية العارفين 427/2 وايضاح المكنون 25/2 و 52/1 و 64

(4) هدية العارفين 427/2

(5) هدية العارفين 272/2

(6) هدية العارفين 427/2

بلغته هذه الكتابة من شأو على أيدي المؤرخين المقادسة في الحقب السابقة. ولعل من أبرز من عانوا كتابة التاريخ والسيرة مرعي بن يوسف الكرمي، فقد ألف كتاباً اشتمل على السيرة النبوية وسيرة الخلفاء من بعده وسماه (تلخيص أوصاف المصطفى وذكر من بعده من الخلفاء)، وأفرد كتابا آخر في (مناقب الأئمة المجتهدين)، وثالث في مناقب ابن تيمية بعنوان (الكواكب الدرية)، وكتب كتاباً في تاريخ مصر سماه (نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين)[1]. وعني محمد بن موسى العسيلي بالسيرة النبوية، فعمد إلى نظم كتاب (التقرب في خصائص الحبيب) وكتب حسن بن محمود المقدسي، رسالتين، يبدو أنهما تدخلان في فن الترجمة للمعاصرين، الأولى (حمد اللطيف الرؤوف في مدح القاضي عبد الرؤوف) والاخرى (قرة العين لمقدمة اوصاف الملا حسين)[2].

ويلاحظ في هذه الحقبة تدني العناية بالكتابة الأدبية المحضة، فلم نقف، على طول بحثنا، على أدباء وشعراء اختصوا بالكتابة في هذا الفن، وجميع ما وقفنا عليه هو نتاجات لفئة (العلماء)، من ذلك ما كتبه مرعي بن يو سف بعنوان (تسكين الأشواق بأخبار العشاق)[3]، والكتاب الذي وضعه عبد الباقي الخزرجي بعنوان (روضة الآداب) ويقع في أربعة مجلدات[4]، وبضعة دواوين شعرية لعلماء آخرين.

ولم تشهد القدس إبان هذا العهد اهتماماً يذكر في العلوم البَحتة، وأبرز ما وقفنا عليه في هذا الصدد رسالتان في الفلك والحساب لعبد الله بن أحمد بن يحيى المقدسي (كان حياً سنة 1078هـ/1667م) أولهما (تحفة الأحباب في بيان حكم ذوي الأذناب)، وهي تبحث عن المُذنّبات السماوية، بينما تبحث الأخرى في الهندسة المستوية، وعنوانها (تحفة اللبيب وبغية الأريب في رُبع الدائرة والجَيب)[5].

---

(1) هدية العارفين 479/1

(2) هدية العارفين 295/1

(3) هدية العارفين 564/1

(4) هدية العارفين ج2 ص496

(5) إيضلح المكنون ج2 ص237 وهدية العارفين ج1 ص479

وفضلاً عما تقدم فإن الحقبة لم تعدم ظهور مؤلفات متفرقة تناول فيها مؤلفوها موضوعات محددة كانت تفرضها مستجدات العصر، أو ظروفه العامة، فكتب محمد صالح بن محمد الدجاني مثلاً رسالة (في عمارة حُدوث المسجد الاقصى)[1]. ويظهر انها كانت بمناسبة القيام ببعض أعمال التعمير في المسجد. ووضع مرعي بن يوسف رسالة في (حكم السماع والأوتار والغناء والأشعار) دلت على عناية بعض معاصريه بفنون الموسيقى والغناء، كما كتب في (استعمال الذهب والحرير)، ووضع رسالة (في فضل السلطنة والوزارة) لعله كتبها على سبيل التهنئة لأحد معاصريه بنيله منصباً ما، وتناول إحدى أشد الكوارث التي كانت تهدد البلاد في رسالتين سماهما (تحقيق الظنون بأخبار الطاعون) و (ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون)، وحث أهل عصره على الجهاد في رسالة يظهر أنه ألفها بمناسبة بعض الحروب، ولم يفته ان يتناول ظاهرة التدخين التي أخذت ملامحها المبكرة تظهر عهد ذاك في رسالته (تحقيق البرهان في شأن الدخان الذي يستعمله الناس الآن)[2].

ومع أن أكثر هذه الكتب والرسائل لم يُطبع بعد، بل فُقد أكثر نسخها الخطية، فان عنواناتها تكشف عن طبيعة الاتجاهات الفكرية التي كانت تسود ذلك العهد، وهي اتجاهات تعد استمراراً لجهود الأجيال السابقة من العلماء العرب، وتمثل في الوقت نفسه جزءاً من النسيج الثقافي الواحد في المنطقة.

ملاحق البحث

مشجرات انساب الاسر العلمية في القدس في القرن 11هـ/17م

أ- بنو ابي اللطف

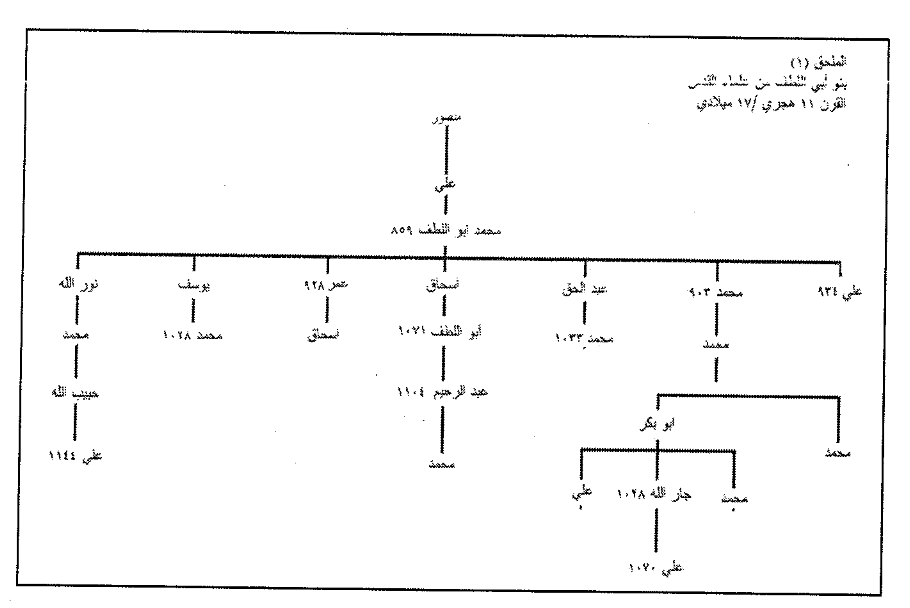
ب- بنو العلمي

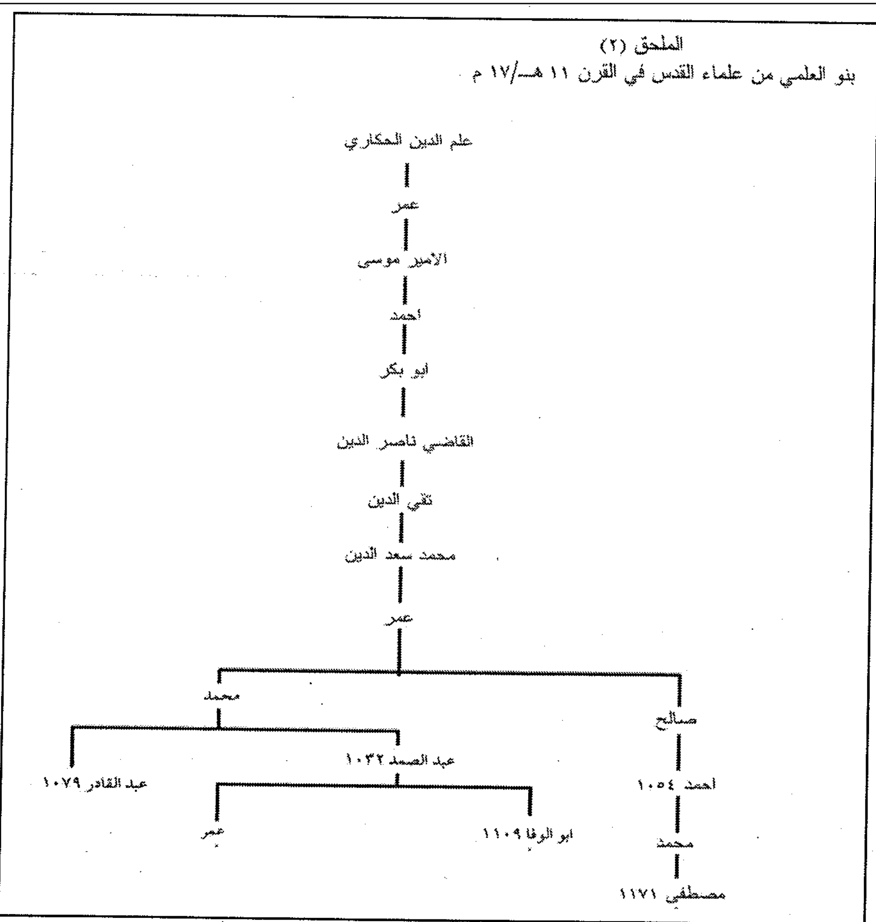
جـ- بنو الدجاني

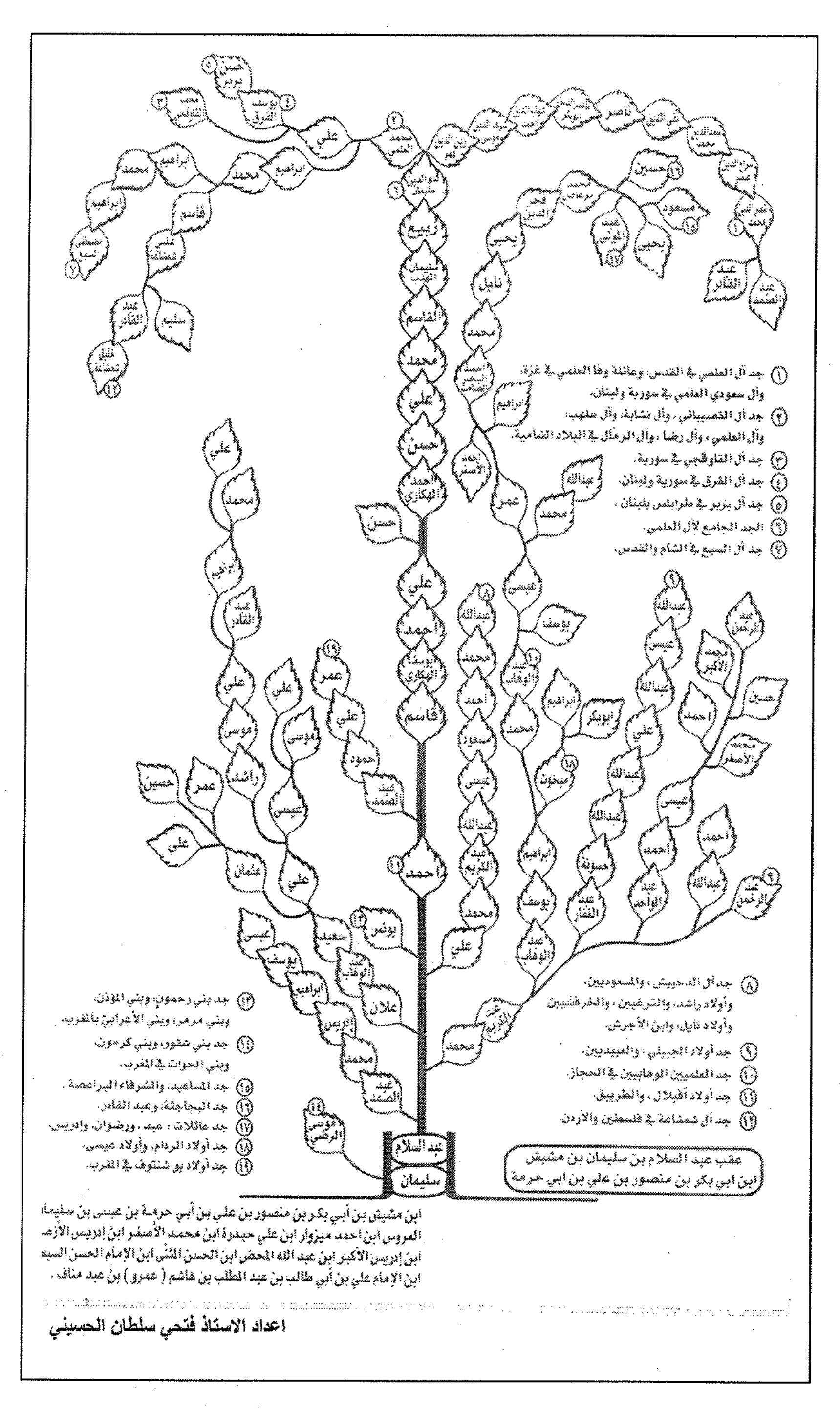
---

(1) هدية العارفين 2 ص288.

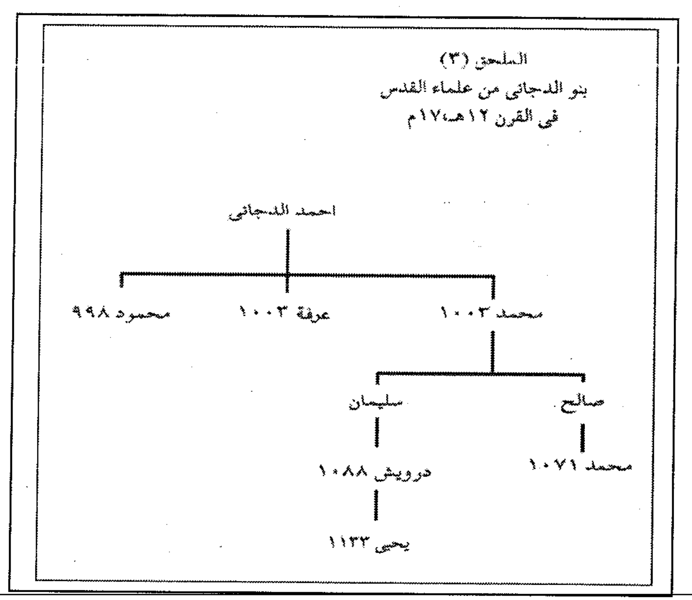
(2) نفسه ج 1 ص427 وإيضاح المكنون ج1 ص266 و264 وص321 وج2 ص478.

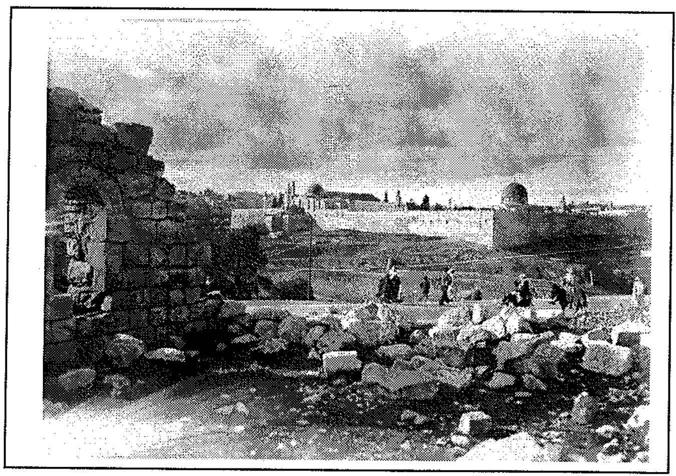

الملحق (١)
بنو أبي اللطف من علماء القدس
القرن ١١ هجري /١٧ ميلادي
منصور
علي
محمد ابو اللطف ٨٥٩
علي ٩٣٤
محمد ٩٠٣
عبد الحق
اسحاق
عمر ٩٢٨
يوسف
نور الله
محمد
محمد ١٠٣٣
ابو اللطف ١٠٧١
اسحاق
محمد ١٠٢٨
محمد
عبد الرحيم ١١٠٤
حبيب الله
ابو بكر
محمد
محمد
علي ١١٤٤
علي
جار الله ١٠٢٨
محمد
علي ١٠٧٠

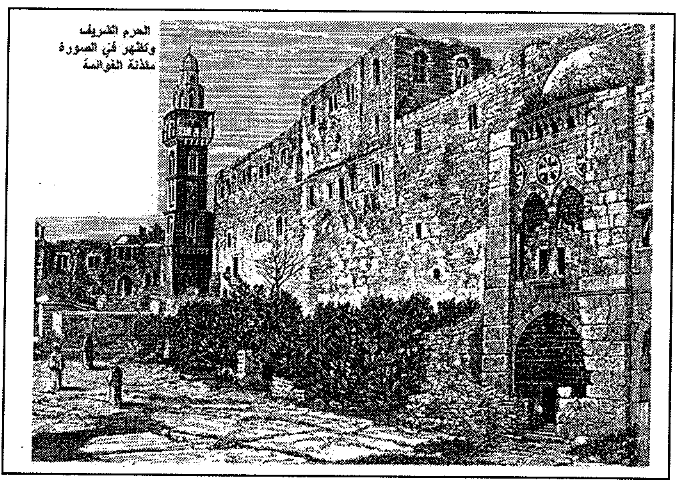

الملحق (٢)
بنو العلمي من علماء القدس في القرن ١١ هـ/١٧ م
علم الدين الحكاري
عمر
الامير موسى
احمد
ابو بكر
القاضي ناصر الدين
تقي الدين
محمد سعد الدين
عمر
محمد
صالح
عبد الصمد ١٠٣٢
عبد القادر ١٠٧٩
احمد ١٠٥٤
عمر
ابو الوفا ١١٠٩
محمد
مصطفى ١١٧١



شجرة آل العلمي كما في وثائق الأسرة ويظهر فيها أن نسبها يتصل بالأدارسة من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب (ع).

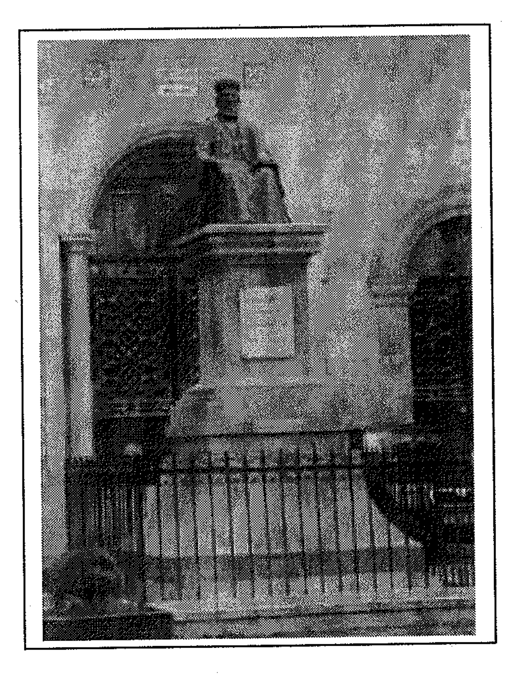






الحرم الشريف
وتظهر في الصورة
مئذنة الغوانمة

جرمانوس فرحات كما يتجلى في ديوانه



تمثال فرحات في مطرانية حلب

جبريل بن فرحات آل مَطَر، أو جَرمانوس فرحات كما سُمِّي فيما بعد، شخصية بارزة احتلت مكانة مهمة قي تاريخ الرهبنة المارونية في لبنان ثم في حلب، ولد في 20 نشرين الثاني سنة 1670، من أسرة قديمة انحدرت من بلدة (حَصرون) في جبل لبنان، واستقرت في حلب، وتلقى العلم في هذه المدينة على أيدي علماء مشاهير، ووجد طريقه إلى مدارس المدينة المعروفة، وشيوخها، فأتقن علوم العربية لا سيما علوم اللغة والأدب، ونَزَعت نفسه في سنة 1690 إلى الرهبنة، وترهَّب فعلا سنة 1693، ثم قصد لبنان، موطن أجداده، حيث انتمى إلي الرهبنة المارونية[1]، وتقلب في المناصب الدينية راهباً ورئيساً لأديرة عدة، فعمل على تنظيم قواعد الرهبنة، وتقويم السلوك الرهباني، كما انصرف أيضا إلى الدرس النحوي والصرفي، وألف غير كتابٍ لَقيَت إقبالا في عصره ، منها (الأجوبة الجلية في الأصول النحوية) و(إحكام باب الإعراب) و(المثلثات الدرية) و(المطالب

---

(1) ذكر بعض من ترجم له أنه دخل سلك الرهبنة في هذه السنة على يد البطريرك اسطيفان الدويهي الماروني والذي يظهر من ديوانه أنه كان راهبا حينما غادر حلب إلى لبنان.

في علم العربية) في النحو[1]، وجميعها طُبع، ووجد انتشاراً لا سيما بين المسيحيين في الشرق، ومن الكتب الاخرى (بستان الرهبان) في وجوب الصلاة وقد طبع، وتاريخ الرهبنة اللبنانية[2]، طبع، و(الرياضة الروحية أو الحاشية في تدبير رياضة المتروِّضين)، طبع[3]،.وكتاب في الأدب سماه (بلوغ الأرب في علم الأدب)[4]، طبع، وغير ذلك، فكان بذلك الأب الروحي لجيل من الأدباء واللغويين اللبنانين الذين سيلمع نجمهم في القرنين التاليين، أمثال إبراهيم اليازجي، وجرجي زيدان، وشبلي شميل، وبطرس البستاني، ويعقوب صروف، وغيرهم من أساطين النهضة الأدبية الحديثة. وتولى الأسقفية في حلب نحو عقد من الزمن حتى وفاته. وكان فضلا عن ذلك يجيد من اللغات العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية.



جرمانوس فرحات

ولفرحات شعر نظمه بين سنة 1690 اي منذ أن كان شاباً في العشرين من عمره وحتى سنة 1719، ولم يكن قد رتبه في ديوان فقُدِّر لأحد أصدقائه المعجبين بشعره أن يجمعه في ديوان مستقل، ولبث مخطوطاً حتى طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين سنة 1886، وقد شاء القدر أن نطَّلع على نسخة خطية نادرة من هذا الديوان محفوظة بين مجموعة المخطوطات التي أودعها الناشر توماس فيشر Thomas Fisher (ولد في يورك شاير سنة 1793 وتوفي في كندا سنة 1874م) في مكتبة جامعة تورنتو في كندا[5]،

---

(1) طبع في مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1995.

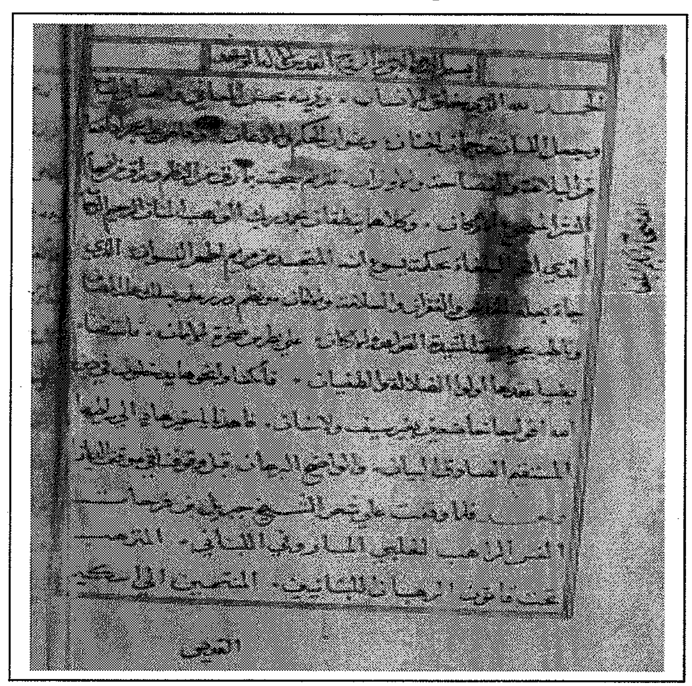
(2) طبع في جامعة الروح القدس، الكسليك، لبنان 1988

(3) طبع في دار المشرق في بيروت سنة 2001

(4) طبع في دار المشرق 1990

(5) تزايد عدد الكتب التي وصلت إلى هذه المكتبة، من المجموعات النفيسة المهداة، حتى بلغت نحو 700000 كتاب، عدا ما يقدر بثلاثة آلاف متر من المخطوطات.

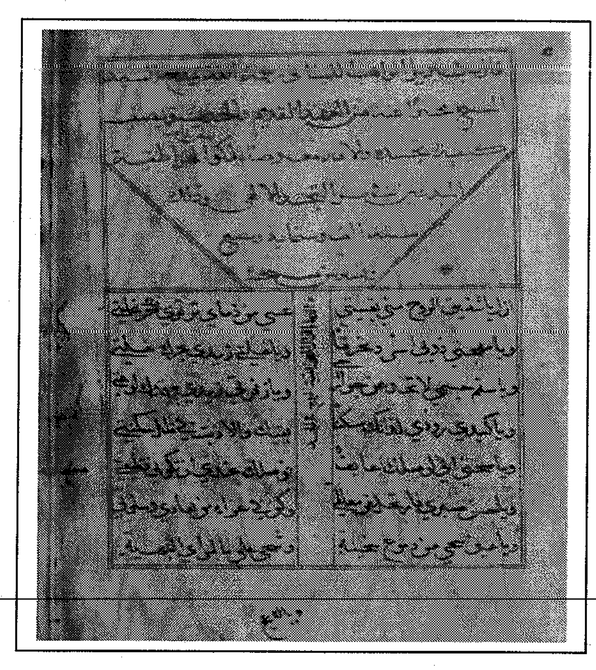
فتبين لنا أن هذه النسخة تمثل أصل الديوان، وأنها تضم من المقدمات التوضيحية للقصائد والتعليقات والحواشي ما يزيدها قيمة[1]، وتلقي أكثر من ضوءٍ على حياة هذا الراهب العالم، ومراحل من سيرته بما فيها من معاناة ومكابدات. وصحيح أن عددا من الدراسات والمقالات قد وضعت عن حياته، إلا أن الوقوف على نسخة الديوان الأصلية من شأنها أن تضيء ما سكتت عنه تلك المصادر، وتوضح زوايا جديرة بالاهتمام من حياته. ومما يؤكد أهمية هذه النسخة أن اسم الشاعر الذي وجد في مقدمته هو الاسم القديم الذي عُرف به قبل أن ينال منصب أسقفية حلب، وهو جبريل، بينما كتب على ديوانه المطبوع أنه (ديوان الحَبر الفاضل النبيل، و العالم العلامة الجليل، السيد جرمانوس بن فرحات مطر الماروني مطران حلب تغمده الله برحمته و أسكنه فسيح جناته و نفعنا بكثرة أتعابه و عدد مصنفاته).



الصفحة الاولى من مقدمة الديوان

---

(1) على الورقة الأولى من المخطوط عنوان كتبه أحد المتأخرين هو (ديوان السعيد الذكر المطران جرمانوس فرحات الماروني)، وعبارة غير واضحة تماما يقرأ منها (كتب.... في 15 شهر آذار سنة ألف وسبعمائة وتسعة وتسعي سنة 1799 مسيحية) ووقفية نصها (وقفاً مؤبداً وحبساً مخلداً برسم وتملك الرهبنة اللبنانية سنة 1828 مسيحية عربية.. وقد خصصنا هذا الكتاب بمكتبة دير... ولا نسمح أن يخرج من الدير تحت... غصب...)



الصفحة الاولى من الديوان

تقع المخطوطة في نحو 400 صفحة[1]، وهي مُجَدوَلة بمداد أحمر بعناية، وكتبت التعليقات التوضيحية على كل قصيدة في وسط اطار أفقي، أو مَعيني، باللون نفسه، ويبلغ عدد القصائد والمقطعات الشعرية فيه 375 قصيدة ومقطعة في مختلف الأغراض، كثير منها في مدح السيدة مريم، يليها في مدح السيد المسيح، وفي الاخلاق والحكمة، وفي الوعظ عامة، وفي أغراض أخرى متنوعة. ويلاحظ أن هذه القصائد والمقطعات لم تأت مرتبة على أي سياق، أما في النسخة التي طبعها الآباء اليسوعسن فهي مرتبة على حسب حروف القوافي، وقد تقدمت الديوان مقدمة في ثلاث صفحات كتبها جامع الديوان ومُهذبه، وهو – كما يقول- قريب الشاعر وصديقه، قال فيها ما نصه (الحمد لله الذي خلق الإنسان، وزيَّنه بحُسن المعاني وإحسان البيان، من البلاغة والفصاحة والأوزان. وبعد فلما وقفت على شعر الشيخ جبريل بن فرحات القس المترهب تحت قانون الرهبان اللبنانيين المنتمين إلى اسكيم[2] القديس انطونيوس الكبير، واخترت

(1) وهي محفوظة في المكتبة تحت العدد 1039

(2) الاسكيم حزام من الجلد فيه مجموعة من الصلبان يلبسه الراهب حين دخوله في الرهبنة، أو عند التقدم في الحياة الروحية، وللبسه طقس خاص، كما يتوجب على لابسه واجبات عدة، وفق قوانين خاصة، تزيد على ما يطالب به سائر الرهبان.

رقة منطقه وإنشاده، فرأيته قد أجاد في معرض الفصاحة، وغالى في وادي البلاغة، وقد ضمَّن قريحته معان مختلفة ومبان مؤتلفة..وقد غالت بعض أشعاره يد التحريف والسناد والخلل والزحاف، فاستعنت على تعبه، وتوجهت لنصبه، فاجتمعت به من حيث أنه أخي وصديقي وسَميري ورفيقي، وكلفت بمبان سيضم إليه أشعاره بمجملها ومفردها، ومثقف ميلها وأودها ويهذب ما كان أخل بنظمه ونقص.. ورسمه، من حركة تزيد ومن مبنى ركيك ووزن شارد ولفظ هجين، لأن من بعد موته لا أدري إن كان يوجد من يتمم له عرضه..»، فالجامع كان قريباً من الشاعر وهو الذي تحمل مسؤولية انتقاء قصائده، وتصحيح هفواتها النحوية والعروضية، ولكن الأهم فيها أنه قدَّم لمعظم القصائد بمقدمات قصيرة توضح الغرض من ورائها، وموضوعها، وسنة نظمها، معتمداً بلا شك على إفادات الشاعر نفسه، وهو ما يساعد الباحث في الوقوف على تفاصيل حياته في حقبة مهمة مرتبة على السنين.

والمحور الذي يدور حوله معظم الديوان هو الرهبانية والحياة النسكية، وإن كانت ثمة قصائد بعيدة ظاهراً عنها إلا أنها تعبر عن روحها غالباً، ونستطيع أن نفهم الرهبنة بحسب وصفه، بأنها تعني التقى والتورع عن السيئات، وكثرة الصلاة والعبادة، والسهر ليلا، وعدم الإسراف بالطعام، وعدم السُكر، والعِلم، والعمل به، والتواضع الجم، والطهارة الجسدية والروحية، وذم الدنيا، والتوبة.

ونستطيع أن نلمح تأثر الشاعر ببعض الشعراء القدماء، ذكر منهم ابن سينا وأبي العلاء، كما تأثر إلى حد كبير بابن الفارض في عشقه الإلهي، وبالبوصيري في أماديحه النبوية، وغيرهم.



ساحة فرحات في حلب

ويمكن ترتيب السياق التاريخي للقصائد المؤرخة على النحو الآتي:

سنة 1690

ثمة ثلاث قصائد، واحدة مؤرخة في هذا التاريخ، تتناول موضوعا دينياً تاريخياً استمده من الإنجيل مباشرة، وهو اصطباغ[1] السيد المسيح في نهر الأردن[2]، وربما كانت هذه القصيدة من أوائل ما نظمه في حياته، أو سجله في ديوانه هذا ، والأخرى قالها على البديهة «عندما تحرك قلبه نحو الرهبنة وأراد الدخول فيها»[3]، وقد صرح جامع ديوانه أنه «أول شعر قاله»:

ومطلعها

ما كلُ من يَهوى الصَّلاح مُوفقُ   ما كلُ ما يُعطى الولاء مُقلدُ

ويظهر من هذه القصيدة أن توجهه إلى الرهبنة سبق انتماءه إليها فعلياً بنحو ثلاث سنوات.

أما الثالثة فهي في مدح «مريم البتول وديرها المعروف بصدنا »، وهو يقصد دير السيدة العذراء في بلدة صيدنايا، وقد أمر بإنشائه الأنبراطور البيزنطي جستنيان (482-565م)، ويعد من أهم المواقع المسيحية في العالم.

سنة 1691

أثبت قصيدة واحدة تحمل تاريخ هذه السنة، وتتناول موضوعاً إنجيلياً كسابقتها، وهو سلاق (أي صعود) المسيح إلى السماء[4].

سنة 1694

ثمة ثلاث قصائد يحمل كل منها تاريخ هذه السنة، أولاهما في «توبيخ النفس» وهي في الوعظ ومعاتبة النفس وتخويفها بالموت[5]

وأولها

---

(1) الاصطباغ لغة: التلون بشيء

(2) ص145

(3) ص342

(4) ص193

(5) ص105

أوائل السُهد وآخر لذة الوسَن كالنطق أوله من آخر الفطنَ

كذا الشيبُ إذا ما حَلَّ في لمم أقصى الشبابَ وأوهى صحّة البدَن

ومنها

كأننا في أمانٍ من فجائعنا والفخ من شأنه للعين لم يَبن

والأخرى في قيامة المسيح من بين الأموات[1] ، والثالثة في التوبة[2]، والرابعة في مدح مريم البتول[3]، وقد نظمها في حلب. وأولها:

عج بالحمى يا راكبَ الوَجناء فعَساك تُحيي ميِّت الأحياء

واقرأ السلام أهَيل ذيَّاك الحمى مني فإني عن حماهم نائي

إن كنت تجهل مَربعي فامش إلى نار يَقدها تنفس الصُعداء

أو كنت تجهلُ في الحمى أرجاءهم يهديك منها تضوُع الأرجاء

وثمة قصيدة أخرى لا تحمل تاريخاً ولكنها مما نظمه في حلب، وقد وصف فيها نهرها (قويق) وجمال الطبيعة فيها، قائلا:

لله يومٌ في الرياض قطعتُه بحمى قُويق مثلَه لن أبصرا

والزَهـــرُ في تلك الرياض كأنه زُهر النجوم على بساط أخضرا

والريح في فَنَن الأراك مُشَبِّبٌ لما رأى الغُصنَ المجردَ مُزهــرا

والغصنُ يرقص تحت أذيال الصَبا فيكاد من طرب به أن يُكسَرا

والوَرق في أعلى الغصون كأنها همزاتُ قطع قد عَلونَ الأسطرا

والسُحبُ تبكي والبروقُ ضواحكٌ كالعسكر المنصور يَطردُ عسكرا

والمــاءُ في تلك الشِّـعاب كأنـه أيمٌ[4] جفـولٌ قد أُخيـف فأدبرا

ما زال يجمح من مَداه جارياً حتى هوى من شاهقِ فتكسرا

(1) ص85

(2) ص361

(3) ص176

(4) الأيم هنا: الحية

سنة 1695

توجد قصيدة مؤرخة في هذه السنة. موضوعها مدح السيد المسيح[1]. وفي دخول السيد المسيح اورشليم يوم الشعانين.

سنة1696

هناك ثلاث قصائد مؤرخة في هذه السنة، الأولى في حلول الروح القدس «معرضا بأنوار الرسل، ورياسة كرسي ماري بطرس في رومية الكبرى»[2]، وفي مولده[3]، وفي مدح السيدة مريم، وبشارتها[4].

سنة 1697

ثمة قصيدتان نظمهما في هذه السنة وأثبت في كل منها تاريخ السنة، وهما قصيدة في تجلي السيد المسيح من فوق جبل تابور[5]، ومطلعها

جلا مذ تجلَّى أعيناً فيك تدمعُ مسيحٌ بأعلى طوره النورُ يَلمعُ

يريك ذرى الطابور مبنلجَ الضيا كأن الدراري من أعاليه طُلَّع

وفي مدحه «مخبرا عنه في العهد القديم والحديث»[6] ومطلعها:

أزل يا شقيقَ الروح مني بَقيَّتي عسى من دمائي ترتوي فيكَ غَلتي

ويا مهجتي ذوبي أسىً وتحرُّقاً ويا زفرتي زيدي بوقدك لوعتي

وفي القصيدة إيماءات إلى أزمات نفسية قاسية كان يعيشها آنذاك، إذ تتكرر فيها ألفاظ مثل (مصاب) و(غوائل) و(علة) و(النكال)، وما أشبه ذلك.

سنة 1699

له قصيدة واحدة أرخها في هذه السنة، وهي مهمة لأنها تكشف عن أنه غادر حلب في تلك السنة إلى لبنان، حيث دخل دير (مَرت مُورا) الكائن في الجهة الجنوبية الغربية

(1) ص115
(2) ص65
(3) ص138
(4) ص93
(5) ص75
(6) ص6

من أهدِن على وادي قَزَحيا في لبنان[1]، ويذكر مترجموه[2] أنه غادر حلب قاصداً لبنان بعد أن دخل في سلك الرهبنة المارونية سنة 1693، مع أن القصيدة توضح أنه ظل يعيش في حلب حتى 1699، ومن ثم فإن دخوله هذا الدير جرى في التاريخ الأخير لا قبله. ومن الملاحظ أن الديوان خلا من قصيدة مؤرخة في سنة 1693 ومن ثم لا نجد ما يسجل دخوله الدير في هذه السنة؛ و«كان قد استنشده إياها حاكم البلاد، ويسمى عيسى، من آل حماده، وطلب إليه وطلب إليه أن يعارض أبياتاً لذلك المارق على الوزن والقافية»[3]، وكانت أسرة آل حمادة قد فرضت سيطرتها على منطقة عكار في الحقبة الممتدة من أواخر القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن الثامن عشر. وكان الآباء المُترهِّبون قد استأجروا بعض الأراضي الصالحة للزراعة لتدرَّ عليهم من المال ما يلزمهم لشؤون الحياة، فكان مما استأجروه مزرعة (عين بقرة) من الشيخ عيسى حمادة، وذلك بعشرة قروش في السنة، وتقع هذه المزرعة في شمالي بلدة أهدن، وظل الرهبان يعملون فيها ويستصلحونها حتى تملكوها فيما بعد[4].

1705

له قصيدة واحدة مؤرخة في هذه السنة، وهي في مدح مار جرجس الشهيد نظمها في حلب مما يدل على انه لم يكن قد غادرها حتى ذلك التاريخ[5]

وله في هذا التاريخ رسالة في المثلثات اللغوية في التصريف التي نظمها على غرار مثلثات قُطرُب، فاللفظة الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة، والثالثة مضمومة، وقد سماها المثلثات الدرية.

1706

له ثلاث قصائد مؤرخة في هذه السنة أولاها أرجوزة فيما يلزم كاهن الإعتراف[1]، قال في أولها:

---

(1) اشموني امرأة صالحة من صعيد مصر، صلبت في سنة 283م، أما الدير فبني سنة 1339م.

(2) تنظر ترجمته في لويس شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام، بيروت 1982، ويوسف داغر، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت 2000، ومارون عبود: رواد النهضة الحديثة، بيروت 1952، وجرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج4، ص13 والزركلي: الأعلام ج2 ص110 ومجلة المشرق، السنة 7، شباط 1904، العدد 3، ص105–111 وعيسى فتوح: الموسوعة العربية ج18 ص382.

(3) ص404

(4) ينظر ajdadalarab.wordpress.com

(5) ص249

يا أيها الأب المُكرَّم التقي — والكاهن الموسوم بالعلم النقي

إسمع نصيحةً تفيدك الرضا — في الإعتراف كأنها نور أضا

يا كاهناً مُعرّفاً قد اقتضى — أنتَ الصديق والطبيب والقضا

عليك أن تعرف نوع المعترف — كذا ورتبته ومهنته تصف

إن كنت ممنوعاً ولن تعرفا — فغير جائز لك أن تعرفا

وثانيها منظومة تضمنت المزامير الخمسة «التي رتبها القديس بنونتورا في مدح مريم العذراء، وهي على وفق لفظ ماريا في اليوناني، أي مريم في العبراني، والتزم في أول كل بيت وآخره بحرف من حروف ماريا، وهذا النوع يسمى في الصياغة البديع بمختوم الطرفين»[2]، مطلعها:

مريمٌ مدينة مولاها معظمة — في بيعة الله من ساعٍ على القدم

وثالثها منظومة تتناول العيوب الثمانية: الشراهة، الزنا، محبة الفضة، الغضب، الحزن، الضجر، المجد الباطل، الكبرياء[3].

سنة 1707

له قصيدتان في موضوع واحد، وهو الرهبنة، وأولى هاتين القصيدتين يمدح فيها «الرهبنة الشريفة»[4] ، والأخرى «في ابتغاء الرهبنة»[5]. ونجد في ديباجة الديوان تعليقة تفيد أنه انتقل إلى لبنان حيث انتمى إلى سلك الرهبنة الانطونيونية التي أسسها القديس انطونيوس الكبير، فأصبح، كما سمي، مترهبا «تحت قانون الرهبان اللبنانيين».

بُشراك بُشراك قد أدناكم النائي — وأومَضَ البرقُ من تلقاء عَذراء

فالجو مُنبَجسٌ بالنور مَفرقة — والأرضُ قد سَمَت عن ثغر لمياء

---

(1) ص38

(2) ص40

(3) ص54

(4) ص83

(5) ص151

وغرَّد الطائر السري من طَربِ | لما رأى القُضب ترقص رقص هيفاء
والريح تكتب فوق الماء أنملها | سطرا تحاكيه بين الدر والماء
ولاح شمس الهُدى في بُرج طالبه | بشارة قدّست أرحام حواء

سنة 1708- 1709

له في هذه السنتين أربع قصائد تحمل تاريخها، وهي تكشف عن الأماكن التي قصدها، أو نزل فيها في لبنان، فثمة قصيدة يمدح فيها أحد الكتاب جاء في مقدمتها أنه «كان مقيماً في دير مار انطونيوس قزحيا من جبل لبنان»[1] فهذا هو تاريخ نزوله في الدير وتأسيسه مع عدد من رفاقه الرهبنة الأنطونية فيه، ويعد هذا الدير، الواقع في شمال لبنان، أحد معاقل الطائفة المارونية، وقد أسسه القديس انطونيوس سنة 1584م، وأصبح تابعاً لأبرشية زغرتا للموارنة هناك، واشتهر بأنه شهد تأسيس أول مطبعة عربية في البلاد العربية سنة 1610. وكان يضم مدرسة رهبانية، كما توجد بقربه مجموعة من (المحابس) التي يقصدها المترهبون لغرض الاعتكاف والزهد.

مضت المدة الأولى من إقامته سعيدة بتأملاتها الروحية، إذ نجد له قصيدة في غاية الرقة مؤرخة في العام نفسه، موضوعها «في محبة الله للبشر»[2] كما نقرأ له في هذه السنة قصيدة رقيقة تدور حول محبة الله والعشق الإلهي[3]، منها قوله في أولها:

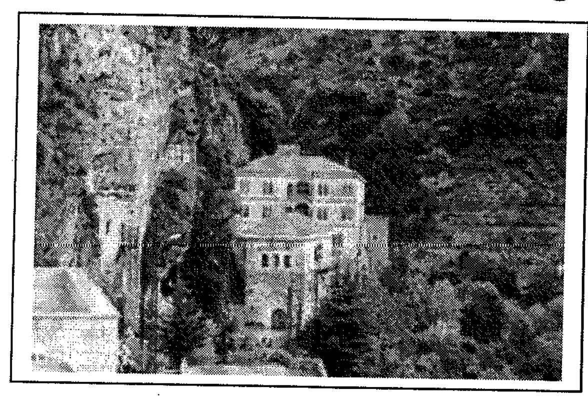
الله الله أنتَ السمعُ والبصَرُ | في العاشقين وأنت الفوز والوطرُ
هَويتُكم والهوى مني على صغرِ | يا حبَّذا وله قد زانه صغرُ
هجرتُ فيكم ربوع الوالدين وما | أهوى فليس له من دونكم أثر
سيروا الهوينا بقلب سائر بكم | فكأنه فلَكٌ وكأنكم قمر
الذكر صورتكم والقلب مركزها | والحب دائرة وشعاعها الفكر
كأن عينيَّ إذا صورتكم فلك | في أفقها قمر دانت له الصور

(1) ص91

(2) ص217

(3) ص100

وأخرى في مدح القربان المقدس[1] وكان قد نظمها راهباً «عند رجوعه من حلب».



دير قزحيا

على أن القصائد الأخرى التي نظمها في هذا العام تكشف عن أنه عاش في هذا الدير فترة حافلة بالمشاكل الاجتماعية والشخصية، فإننا نقرأ له أيضا قصيدة عن «شقاوة الهالك في جهنم»[2] يومئ فيها إلى بعض من كان يناصبه الخصومة، كما نقرأ قصيدة أخرى في «أمر عرض له»[3] ولم يوضح طبيعة ذلك الأمر، وصادف أن توفي له أخ يدعى أرسانيوس فأثر ذلك في نفسه حتى أنه رثاه بقصيدة مؤثرة، ثم وجدناه ينظم قصيدة «ينصح نفسه ويعنفها»[4]، وأخرى في «مناسك النساك القديسين»[5]، وثالثة «في الفقر الاختياري في الرهبنة»[6]، يظهر أنه كان يقارن فيها بين رهبانية النساك السابقين وبين سلوك بعض الرهبان المعاصرين له، وتشير مصادر ترجمته إلى أن خلافاً نشب بين رهبان الدير أدى إلى أن يترك الدير ويعتزل الرهبنة منزوياً في قرية (زغرتا) القريبة في شمالي لبنان ليعمل معلماً للأولاد هناك، وتوضح قصيدة مدى معاناته في هذه الفترة من حياته، حتى أنه قصد طرابلس مبتعدا عن بيئة الدير، حيث ورد في صدرها أنه نظمها في طرابلس وهو «يندب حاله بشدة نما دهمه من التجاريب

(1) ص169

(2) ص59

(3) ص87

(4) ص163

(5) ص69

(6) ص356

ثم يشجع نفسه على احتمالها، يؤنس نفسه ويلومها»[1]، وثمة قصيدة غير مؤرخة تكشف عن «إنفصاله عن جبل لبنان مغتاضاً»[2]، من المحتمل أن يكون لها تعلق بأزمة الدير المذكور. وقصيدة أخرى غير مؤرخة «مضمناً واقعة حدثت له مع أحد الخارجين وهو في طرابلس»[3]، وأخرى «يشكو من الدهر ويعاتب بعض إخوانه»[4]، وثمة قصيدة غير مؤرخة لكنها تتصل بسابقتها من حيث الموضوع، نظمها «في واقعة حدثت له مع واحد خان ما كان قد وعد به، ثم انفصل منه لخيانته، يقول فيها:

ذهب الناكث عنا فاصطلحنا واسترحنا

راح يشكونا ونشكو نحن ما يشكوه منا

ما كفاه من دَهاه قد رزئنا وافتضحنا

ليتنا ينسى فننسى فعله لفظاً ومعنى

ونواري باحتشام كل ما يفعل معنا

نشكر الله بأنا عن حماه قد نزحنا

ولكنه ما أن سمع بنبأ انتهاء ذلك الخلاف حتى عاد إلى الدير مرة أخرى، ثم تركه ليتولى رئاسة دير اليشع النبي، قرب زغرتا، حيث نظم قصيدة أخرى جاء في صدرها أنه نظمها «عند رجوعه إلى ديره المعروف بدير اليَشع النبي في قرية بشرى»[5]، ومطلعها:

لو كان للأفلاك نطقٌ أو فمُ لترنَّموا بمديحك يا مريمُ

وقصيدة يمدح القديس يوسف في ديره في قرية زغرتا، ويظهر أن مدة رئاسته لهذا الدير كانت حافلة بالنجاح، فإننا نجد قصيدة رابعة له «يمدح رهبنة اللبنانيين ويمدح ديرهم دير اليَشَع النبي في سفح الوادي المقدس من جبل لبنان في قرية بشرى»[6]، ويذكر إقامته في ذلك الدير»[1]

---

(1) ص239

(2) ص398

(3) ص430

(4) ص106

(5) ص118

(6) ص396

وكان مع ذلك كثير التردد إلى منطقة كسروان في لبنان، لأننا وجدناه فيها «يمدح ملته المارونية في كسروان»[2] سنة 1707، وله قصيدة يمدح فيها كسروان في السنة نفسها[3]، وثمة قصيدة مؤرخة في سنة 1718 موضوعها الحواس الخمس الباطنة، وهي الذكر والتصور والفكر والفهم والإرادة، نظمها «وهو في بلاد كسروان»[4].

سنة1710

ثمة ثلاث قصائد مؤرخات له في هذا العام، الأولى في مدح العذراء وذكر مولدها[5] وهو موضوع طالما تناوله في كثير من قصائده، ، والثانية يصف فيها «الضر الناشئ عن الخطيّة ويعاتب مرتكبها»[6] إلا أن القصيدة الثالثة منها تكشف عن متاعب اجتماعية أخرى و(تجارب) مؤلمة، وكان يشكو فيها «من أحد إخوانه ومن التجارب التي ألمت به»[7].

سنة 1711

سافر فرحات إلى روما، ومن هناك قام بجولة في بعض دول أوربا، ولذلك نجد له في السنة نحو تسع قصائد مهمة مؤرخة، أما الأولى فهي حين وصوله (بلاد النصارى) على حد تعبيره، وربما يقصد أوربا، وقد وصف فيها «غربته» في تلك البلاد، و«يذكر اخوته الرهبان الذين فارقهم في جبل لبنان»، وشرع يعاتب نفسه ويحاسبها قائلا:

نصحتكم واتخذت الغيَّ لي عَمَلاً	لذاك نُصحي لكم قولٌ بلا عمل
أنا المريضُ فلا تغررك عافيتي	ما أقبحَ القولَ من دَنْف لكَ اعتَدل
أدركت موتي وما أدركت غايته	من توبةِ عن طريق الإثم والزلل
خالفتُ شرعَ الذي بالشرع خلَّصني	أهنتُ عزَّته بالجند والجدل

(1) ص369
(2) ص128
(3) ص133
(4) ص430
(5) ص74
(6) ص183
(7) ص183

ثم عرج من ذلك إلى مديحه «السيد المسيح ووالدته»[1]، ثم نجده يصل روما، فينظم قصيدة ثانية «يمدح رومية الكبرى حين دخلها»[2]، قائلا

صخرةَ الإيمان صارت   وعَرَفتَ الصخرَ ماكن
فاتخذها لك أُسّاً   أبداً من غير لكن

وتأخذ المدينة التاريخية الكبيرة بلبه، فكان أن زار ضريح القديس بطرس ومدحه في قصيدة ثالثة[3]، وأثارت روما بجوها الروحي شجونه فشرع يعاتب نفسه، ويلومها على ما فعله في حياته، فنظم قصيدة رابعة «ينعى سوء سيرته»[4]، وكان كثيراً ما يتذكر «وطنه واخوته الذين فارقهم في جبل لبنان حين رحل عنهم إلى بلاد الغرب»، وقد نظم قصيدة رابعة له في ذلك المعنى أرسل بها «إلى أحد إخوانه في الديار المصرية»[5].

عَيني لتلك الناحيةً   لَفتاتُها متواليةً
تَذري الدموع سَخينةً   من جَفنها متتاليه
فتَظلُّ من أشواقها   تبكي بعينِ هاميه
تبغي ديار أحبةِ   كانت عليهم راضيه

وقد وصف فيها أيام له مضت بين الرهبان في أديرة لبنان حيث كانت له فيها ذكريات عزيزة، وفيها وصف طبيعة تلك الأماكن الخلابة

لهفي على زمنِ مضى   مع إخوةِ في الباديه
في ذلك الوادي الذي ال   أفراح فيه وافيه
فكأنه لي جنةٌ   وبه قطوفي دانيه
فيه النفوس أمينةٌ   وبه الملائك واقيه

(1) ص374
(2) ص386
(3) ص385
(4) ص390
(5) ص390

تهتز لي أغصانه فكأنها بي هازيه

والريح تنقل بيننا أخباره كالواشيه

فيه السواقي جاريةٌ ليس الجواري ساقيه

ورياضه كزهوره غضبى وأخرى راضيه

والورق إن ناحت بدت عين السحائب باكيه

يا أيها الوادي الذي فيه الفضائل راقيه

قد ضمَّ من رُهبانه من كل نفس غاليه

وفي قصيدة خامسة نجده يُذكر أخا له من والديه في حلب فنظم فيه مدحه قصيدة أرسلها إليه وهو مقيم في روما، وقد عبر فيها عن شوقه إلى مدينته حلب، فمدحها وأثنى على ربوعها.[1] ونظم قصيدة سادسة في وصف منطقة قزحيا حيث دير انطونيوس، فجاءت حافلة بالشوق «إلى الوادي المقدس وهو في رومية، ثم يمدحه ويصف حسن آثاره»[2]، و«لأمر ما» نجده بعد حين من ذلك العام، يغادر روما متجها إلى صقلية[3]، ومنها انتقل إلى مالطة حيث نظم قصيدة «لمّا حلَّ في جزيرة مالطا، وبلغ جزيرة ميس من بلاد الروم وقد اعتراه مرض»[4] ولا توضح سيرته نوع ذلك المرض الذي أصيب به، ولكننا نقرأ له قصيدة غير مؤرخة تشير إلى إصابته بمرض الاستسقاء[5]. وتقول مصادر سيرته أنه قصد بعد ذلك إسبانيا متفقدا ما فيها من اثار العرب، وقد حصل فيها على بعض المخطوطات ونقل عددا منها الى لبنان. بينما لا نجد في قصائد الديوان أي إشارة الى إقامته في اسبانيا أصلا.

سنة 1712

شهدت هذه السنة عودته الى بلده، ولذا فإننا نقرأ أربع قصائد مؤرخات في هذا العام، توضح أولاها «حاله لما رجع إلى بلاد الشرق»، وقد رثى فيها هذه

(1) ص400

(2) ص306

(3) ص309

(4) ص309 أيضا

(5) ص219

الحال، وأما الثانية فقد نظمها بعد أن استقر في دير اليَشَع النبي، وموضوعها في «نبوءات البتولات»[1]، ويظهر أنه انصرف بعد ذلك إلى العبادة، فدخل محبسة ماري بيشاي الكائنة قرب دير قزحيا[2]. ومكث عاكفا على حياة رهبانية فيها الكثير من شظف حياة الرهبان، فضلا عن التأمل والقراءة والدرس، وهو يقول في مطلع قصيدة نظمها هناك[3]:

ليسَ للرهبان عيدٌ يبتغونَ فيه الشراهة

والقصيدة الثالثة لا تتحدث إلا عن الصلاة[4]، والظاهر أنه رأى بعض الرهبان قد تركوا، أو توانوا، عن أداء هذه العبادة، فقال:

كفاك يا راهباً إن كنت تتوانى عن الصلاة وكنت لذاك كسلانا

إسعاف موكب رهبان وقد نهضوا ليلاً لناقوسهم والحينُ قد حانا

لا تشكُ ضيقاً بليل قُمته متَّشحاً ثوبَ الصلاة به إن كنتَ سهرانا

يسُرّ إبليس حين يراك منقبضاً ولا يزال يريك الربح حسرانا

يريك ضعفاً بجسم عاد منتصراً عن الصلاة وعن ما عاد خذلانا ..

وبعد عدة أشهر غادر مختاراً محبسه هذا، متجهاً إلى طرابلس، في جولة يتفقد فيها الأديرة هناك، حيث وجدنا في الديوان قصيدة رابعة مؤرخة في هذا العام يمدح فيها (كيراتناسيوس البطريرك الانطاكي) وذلك «حين دخل طرابلس يزور ديورتها»[5]. بينما تذكر سيرته أنه قصد، بعد أن غادر محبسته المذكورة، دير اليَشع حيث أقام مدة، لكن قصائد هذه السنة لا تشير إلى ذلك.

سنة 1713

ثمة خمس قصائد مؤرخات في هذا العام، يظهر من أولاها أنه ترك طرابلس، أو دير اليشع، قاصداً موطنه الأول حلب، وذلك للوعظ والتبشير، وكانت الحياة

---

(1) ص312

(2) ص338

(3) ص317

(4) ص321

(5) ص343

الرهبانية في حلب تعاني عهد ذاك من تردٍ لاحظه، فجاء في مقدمة إحدى هذه القصائد أنه نظمها «يصف حال المتكبرين عند دخوله حلب، يعظ للتبشير»[1] بينما كان موضوع القصيدة الثانية مدح مريم العذراء، لكنه عرَّج فيها إلى «ذكر ديره وأخوته الرهبان وهو في حلب»، فقال متشوقا إليهم:

يا ساكني لبنانَ دونكم امرءاً ... ما زالَ يَنشد فيكمُ ويقولُ

إن الخيام كما علمت خيامُهم ... لكن لها في النازحين ضليل

قفلَ الخليطُ وليس قلبي قافلاً ... عنكم وإني في الرحال قَفول

قد أقفرت مني الطلولُ وحقكم ... ما أقفرت مني رُباً وطلول

لكن لي قلباً إليكم شيِّقاً ... أبداً وطَرفي بالرضا مكحول

فالعينُ إن رَمقَت وإن دَفَقت معاً ... فبنَقدها كرُمت لدي أصول

ما حل ركبي في الرحال معرِّساً ... إلّا ولي في القاطنين حلول

عذَل العذولُ بكم ولم يك عالماً ... أني لديه عاذلٌ معذول

أوسعتُه عتباً فقال موارياً ... أنا عاذلٌ وجنابكم معذول

إن السماء ديارهم لكنني اس ... تسقيته ولشرحه تأويل

دعه ولُذ بحمى البتولة مريم ... مستعصماً فملاذها المأمول

إن الذي أضحى ومريم رشده ... م يغوه الشيطان وهي دليل

وفيها نجده «يتهدد الزنادقة على لسان المسيح»[2] وفي قصيدة ثالثة، نراه «يصف رؤيا يوحنا الحبيب»، ويمدح مواطنه الحلبي «مفسرها المار يوسف القس الحلبي الماروني»[3].

سنة1714

لم يغادر حلب، فإن له في هذه السنة قصيدة في «مدح صديقه نعمة الله الحلبي».

(1) ص346

(2) ص360

(3) ص376

سنة 1716

ثمة ثلاث قصائد تحمل تاريخ هذه السنة، الأولى في يوحنا الحبيب، ويحتمل أنه نظمها وهو لما يزل في حلب، أما القصيدة الثانية فواضح أنه نظمها بعد انتقاله إلى لبنان، لأنه مدح فيها «أحد الأمراء المسيحيين»[1]، وإن لم يذكر اسمه. وتكشف القصيدة الثالثة عن انتدابه «رئيساً عاماً على الرهبان اللبنانيين سنة ألف وسبعمائة وست عشرة بعد رجوعه عن حلب»[2]. ويظهر أن المسؤولية الجديدة كانت ثقيلة فعلاً، لأننا وجدناه «يشكو من ثقل الرياسات، ويبين عظم خطرها، ويوبخ راغبيها» وذلك في مقدمة لتلك القصيدة.

سنة 1717

له في هذه السنة ثلاث قصائد، إحداها يستنجد فيها بالسيدة العذراء، نظمها وهو «في دير لويزة من بلاد بيروت»[3]، وموضوع القصيدة «واقعة حدثت له مع أحد الظالمين، متوجعاً من جنونه وعدوانه»[4]، وليس في القصيدة ما يوضح تلك الواقعة وهوية من ناصبه فيها ذلك العداء. أما القصيدة الثانية فهي في «ختان السيد المسيح»[5]، وأما الثالثة فهي في وصف المرأة، وتتضمن هجوماً عجيبا عليها، ويظهر أن القصيدة جاءت على سياق موقف تقليدي تردد في كتابات «الآباء القديسين»[6] الذين كانوا يعمدون إلى تقديم صورة مُنفِّرة للمرأة في سعيهم لدفع الوقوع في علاقة محرمة، وليس لسبب لآخر.

سنة 1718

نجده في دير لويزة مرة أخرى زائراً، كما ورد في مقدمة إحدى خمس قصائد أرخها في هذه السنة، وموضوع القصيدة في وصف ما سماه «الحواس الخمس الظاهرة»[7]. وفي قصيدة ثانية نجده «يُوبِّخ الراهب الخبيث في رهبانيته»[8]، ولا ندري إن كان هذا الراهب هو نفسه من وصفه في السنة الماضية بالجنون والعداء. أو أنه شخص آخر

---

(1) ص306

(2) ص399

(3) لويزة هي بلدة جزين الكائنة إلى الجتوب من بيروت بنحو 88كم.

(4) ص398

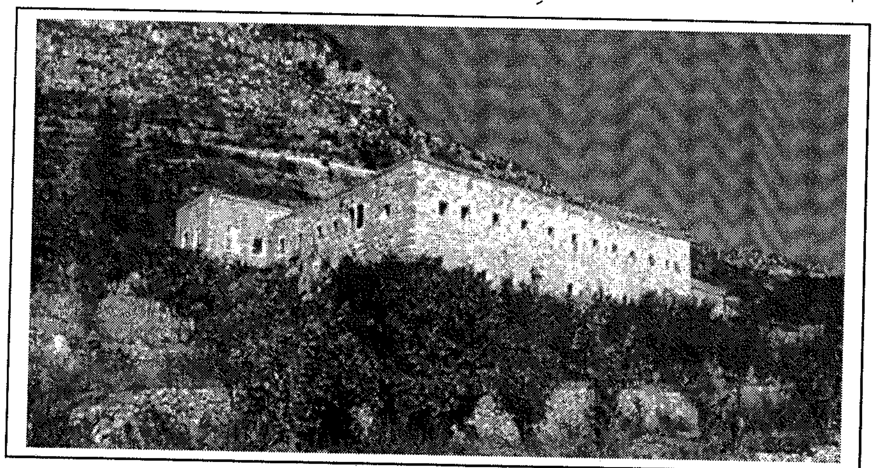
(5) ص393

(6) ص401

(7) ص411

(8) ص411

أشار إليه في مقدمة قصيدة لا تحمل تاريخاً ووصفه بأنه «كان يقدح بذوي الإيمان المستقيم» والظاهر أن دعاواه أدت إلى إثارة الجدل بين الرهبان إذ «كان المؤمنون يبغض بعضهم بعضاً من قبل الشكوك والهذيانات التي كان يوردها بافترائه على أهل الإيمان الكاثوليكي». وكان رئيس دير من أديرة رهبانيته قد طلب منه أن ينظم به قصيدة في مدح رُسل السيد المسيح الإثني عشر «ليكتبها تحت أيقونات الرسل القديسين في كنيسة جديدة على اسم السيدة مريم»، ففعل[1]، ونجد له قصيدة أخرى غير مؤرخة، في الدينونة، نظمها في غرض مشابه فقد «استشدها إياها راهب من إخوته المصوِّرين ليكتبها على صورة»[2]، وفي السنة نفسها نجده ينتقل للإقامة في دير مار يوحنا، ذلك أننا نقرأ في مقدمة القصيدة أنه نظمها «ينبه الآباء ويحضّهم على صيانة بنيهم من شر العشرة التي تُفسد عقول الصبيان وتُدنِّس أنفسهم وأجسادهم وحواسَّهم بالزنا وآباؤهم لا يعلمون»، وكان ذلك «في دير مار يوحنا من قرية رَشميا في بلاد الدروز، وقد أرسلها إلى أحد محبيه في مدينة حلب»[3]. ونقرأ في قصيدة أخرى، لكنها غير مؤرخة، أنه كان «في دير ماري يوحنا» رئيساً، وقد حث فيها على اقتران العلم بالعمل، حيث «وبَّخ فيها العالِم إذا كان لا يعمل»[4].



دير مار يوحنا في لبنان

---

(1) ص430

(2) ص403

(3) ص433

(4) ص435

ولا نجد في الديوان قصيدة تحمل تاريخاً بعد سنة 1718، ومن ثم فإننا لا نعلم، وفقاً للديوان، المراحل التالية من حياته، على أن مصادر سيرته تشير إلى أنه قصد في هذه السنة دمشق، بناء على طلب من رؤسائه، لأعمال الرسالة، وثمة بيتان في الديوان يذكر فيها دمشق فعلاً، لكنهما غير مؤرخين، هما:

بدمشق أبصرتُ النَمومَ مُجبراً   يشكو الورى يوماً ويوماً يشكر

تالله ما زالت دمشق مليحة   لكنها فيكم تُذم وتهجر

وفي البيتين تنويه بما واجهه من متاعب بسبب نميمة بعض من صادفهم هناك.

وعلى أية حال فإنه قام بوظيفته خير قيام، فكان أول من أجرى طريقة الوعظ في وقت الغروب من كل جمعة من الصيام الكبير. وتقديرا لأعماله فقد كافأه البطريرك يعقوب عواد بترقبته إلى درجة الأسقفية بتاريخ 29 تموز 1725، واتخذ اسم جرمانوس بدلا من جبريل، تيمناً بالقديس جرمانوس بطريرك الأسقفية، وفي 8 كانون الأول من السنة نفسها توجَّه إلى حلب حيث فقضى سنواته التالية مشغولا بمهامه الدينية، فضلا عن اهتمامه باللغة العربية، فنقل إليها المزامير والإنجيل والكتب الطقسية المارونية، وأبدى نشاطاً واسعاً في مَجال تعليم العربية، ولبث مشغولاً بأعباء منصبه حتى وفاته في التاسع من تموز من سنة 1732.

أدب الرحلات

نصوح السلاحي مطراقي زاده



مقدمة

نصُوح أفندي السّلاحي بن عبد الله قَرَه كُوز الشهير بمطراقي زاده، مؤرخ ورحّالة ورياضي ورسام، أصله من ولاية البُوسنة يوم كانت جزءاً من الدولة العثمانية. تقدّم في الوظائف العسكرية، ومَهَر في فنون الفروسية، وفي ألعاب الأسلحة، حتى اكتسب لقبه (المطراقي)، وهو الدرع المُغلَّف بالجلد الذي يستخدمه الفرسان في قتالهم، وفي ألعاب الميدان أيضاً. ولمهارته في فنون الكتاب والحساب، وثقافته التاريخية والجغرافية الواسعة، فقد ضُم إلى الخدمة في الديوان، وصاحَبَ السلطان سليم الأول في حملته على دولة المماليك في مصر والشام سنة 926- 927هـ/1516- 1517م، كما صاحَب السلطان سليمان القانوني في معظم حملاته العسكرية، ومنها حملته على الدولة الصفوية في إيران، وحملته على البُغدان (رومانيا)، وحملات أخرى.

ويظهر أن أمر براعته في التأليف والرسم قد اشتهر عهد ذاك حتى كُلِّف بمهمة تسجيل وقائع الحملات العسكرية التي شارك فيها، وتزيينها بالصور الملونة التي تمثل المدن والقصبات التي مر بها الجيش أو التي فتحها. وفي الواقع فإن

مواهب نصوح أفندي تنوعت تنوعاً مدهشاً، فهو مصور متقن، ومؤرخ واسع الإطلاع، وفارس ماهر، وجغرافي واسع المعرفة، وشاعر بليغ، ومترجم ضليع، ومهندس عسكري بارع، ورياضي مُصنِّف، ومن غير المحدد تاريخ وفاته، ولكن من المؤكد أنه كان حياً سنة 968هـ/1560م.[1]

ولعل أهم مؤلفاته[2]، وأعلاها قيمة، من الناحية الفنية في الأقل، كتابه الذي سماه (منازل العراقَيْن للسلطان سليمان خان)، ليكون سجلاً مفصلاً لوقائع حملة السلطان سليمان القانوني على إيران في خلال سنة 941هـ/1534- 1535م، فقد وصف بتدقيق مدهش منازل، أو مراحل، الطريق الذي سلكته الحملة بدءاً من مغادرتها أسكودار، في الجهة الآسيوية من إستانبول، في الأول من محرم سنة 941هـ12 تموز 1534م، وحتى وصولها إلى تبريز، عاصمة إيران الصفوية في ذلك العصر، في 12 ربيع الأول/20 أيلول، ومنها تقدمها إلى بغداد مارة بهمدان فخانقين، فدخولها مدينة السلام في غرة ربيع الآخر/7 كانون الأول. ثم خروج السلطان من بغداد، بعد أن وطد حكمه، في 9 رمضان941/1 آذار 1535م وزيارته مدن الحلة وكربلاء والنجف، ومسير الحملة إلى حلب، ثم ديار بكر، وصولاً إلى أسكودار ثانية في 3 رجب 942هـ/27 كانون الأول 1535م، فقدم بذلك تفاصيل جديدة، ومهمة، عن طرق المواصلات التي كانت تربط بين المدن الرئيسة في بلاد المشرق الإسلامي، وعيَّن أسماء عشرات القصبات والقرى والقلاع والجسور والقناطر والأنهار والجبال والتلال والصحارى الواقعة على تلك الطرق.

---

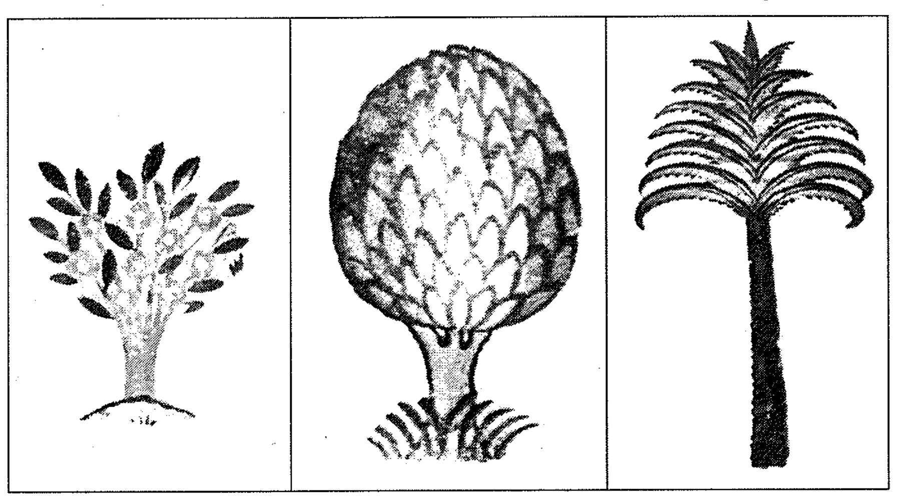
(1) ينظر:
Yurdaydin, Husyin, Beyan-I menazil- Sefer- I lrakeyn, Ankara 1976 p.7
ومقدمتنا للطبعة العربية، بعنوان (رحلة مطراقي زاده) ترجمة صبحي ناظم، وبتحقيقنا، المجمع الثقافي، ابو ظبي 2003 ص9-13

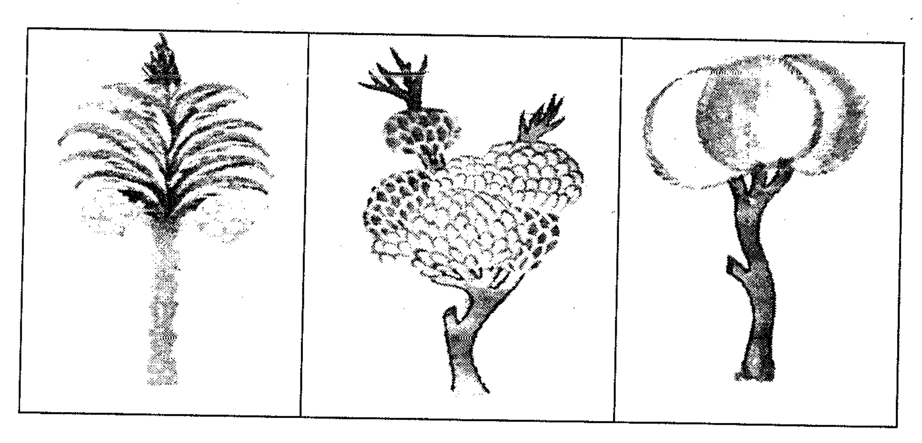
(2) من مؤلفاته التي وصلتنا، عدا هذا الكتاب،: 1- مجمع التواريخ، وهو ترجمة تركية لتاريخ الطبري، مع ذيل له ينتهي بحوادث سنة 958هـ/1551م 2- فتحنامه (قره بوغدان)، وصف فيه فتوحات السلطان سليمان القانوني لبلاد البغدان، وهي رومانيا 3- فتح شلقوش واسترغون وارسوف وبلغراد. في وصف حملة السلطان سليمان على هذه البلاد. 4- تواريخ آل عثمان، وصل به إلى حوادث سنة 968هـ/1568م. 5- تحفة الغزاة في فنون الفروسية والقتال. 5- عمدة الحساب 6- جمال الكتاب وكمال الحُسّاب. ينظر كشف الظنون 594، 1196 و1602 ومقدمتنا المشار إليها ص6-7.

ومما زاد في أهمية الرحلة إلى حدٍ كبير ضمها عدداً كبيراً من الصور الملونة التي أبدعتها ريشة المطراقي وفرشاته وألوانه الخلابة، رسم فيها المدن والقصبات والحصون والخرائب الأثرية والخانات والممرات الجبلية والمباني المختلفة، حتى يمكن القول أن هذه الصور تمثل وثائق عالية القيمة لا غنى عنها في دراسة تخطيط المدن الإسلامية والأبنية الرئيسة والدور العادية في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد).

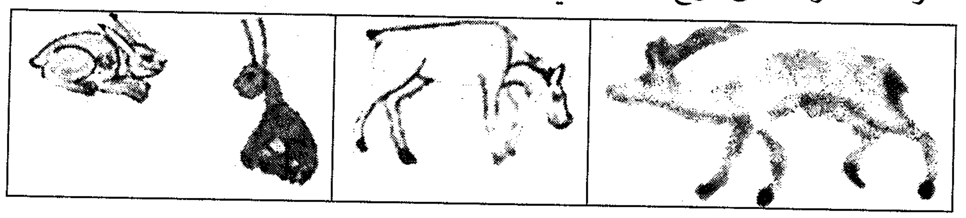
ولم يكتف المطراقي برسمه ما تقدم من المعالم، وإنما انساق وراء رغبته في التبرك بأضرحة الأولياء الموجودة في الطرق التي مرت بها الحملة، أو الموجودة في داخل المدن أو في جوارها، فرسم صوراً مستقلة لكل ضريح من تلك الأضرحة، وبخاصة في بغداد والنجف وكربلاء، ولا نشك في أن تصاوير كهذه تصلح أن تكون مادة مهمة لدارس فنون العمارة والبناء في العراق في الحقبة التالية لزوال الخلافة العباسية.

كما اهتم المطراقي على نحو خاص برسم عناصر البيئة الطبيعية، فبينما أبرز في مناطق الأناضول الغابات وأشجار السَرو، وأظهر في مناطق أخرى الحقول والأعشاب الطويلة على شواطئ الأنهار، فإنه أجاد في رسم البيئة في وسط العراق حيث الأرض المتروكة، والبراري القفر، وأشجار النخيل، كما أجاد أيضاً في رسم بيئة مناطق أخرى في شرقي بغداد، حيث البساتين والأشجار المتنوعة والأزهار والأنهار وسفوح الجبال.





ومن ناحية أخرى فإنه رسم أنواعاً من الحيوانات التي كانت تكثر في بيئة البلاد في ذلك العصر، كالغزلان والأسود والضباع والأرانب وغيرها، ويلاحظ أنه لم يرسم بشراً في رحلته، عملاً بالتقليد الإسلامي المعروف في هذا الشأن، وبذا فقد ضاعت فرصة التعرف على أنواع الأزياء التي كانت ترتديها شعوب المنطقة عهد ذاك[1].



اتبع المطراقي قواعد المدرسة العثمانية في فن التصوير، كما تبلورت في عصر السلطان سليمان القانوني، وقد تأثر فنانو هذه المدرسة بالفنون الإيرانية، لا سيما بعد هجرة كثير من الفنانين من المزخرفين والمصورين الإيرانيين إلى البلاط العثماني إثر الاضطرابات السياسية التي رافقت تأسيس الدولة الصفوية[2]. إلا أنه تبقى للمدرسة العثمانية خصوصية اهتمامها بالأشكال الهندسية لا سيما في رسم صور المدن والعمائر المهمة، وهو ما تجلى على نحو واضح في صور مطراقي زاده.

---

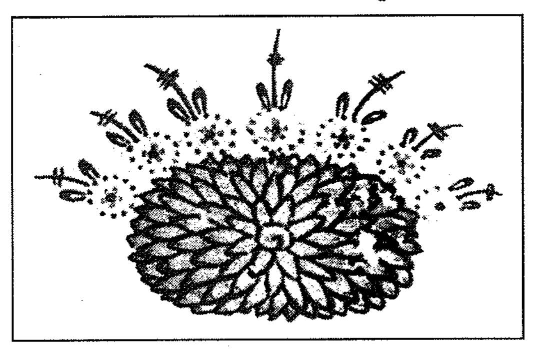
(1) من الرحلة نسخة فريدة محفوظة في مكتبة قصر يَلدز باستانبول، وقد نشرها بالتصوير الدكتور حسين يوردايدن (أنقره 1976) كما أعاد كتابة الرحلة نفسها بالحروف اللاتينية الحديثة، وكان الصديق فؤاد الكاظمي قد أهدانا إياها في 1996/6/26م، فطلبنا من صديقتا الدكتور صبحي ناظم أن ينقل هذه الرحلة إلى العربية ففعل، وقمنا بتحقيقها والتقديم لها والتعريف بأعلامها الجغرافية والتاريخية، وتولى المجمع الثقافي في أبو ظبي طبعها سنة 2003، وتقع في194ص.

(2) ينظر محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة 1974، ص78-80.

واتباعا لتقاليد الفن الإسلامي لا تراعي هذه المدرسة قواعد المنظور، وهو ما ألزم المطراقي به نفسه في تصاويره، إلاّ أننا يمكن أن نلمح بداية متواضعة للخروج عن صرامة تقاليد هذه المدرسة، لدى المطراقي، حيث رسم بعض الموضوعات على شيء من مراعاة قواعد المنظور، بل أنه رسم مبان بذاتها مراعياً فيها هذه القواعد، واضعاً إياها في صور لم يراعي فيها هذه القواعد أصلاً، كما سنلحظ في مطاوي البحث. ويتميز المطراقي بالدقة البالغة في التصوير، والقدرة على رسم أكثر التفاصيل المعمارية والزخرفية صغراً، مستعملا ألواناً رقيقة وفرشاة رسم دقيقة، حتى أننا اضطررنا إلى تكبير هذه الصور مرات عديدة لنقف على ما اختزنته من إبداع فني رفيع.

أما فيما يتعلق بالمدن الكبيرة، فقد بَدَت في صور المطراقي أقرب إلى الخرائط المصورة منها إلى الصور العادية، فهو يرسم أولاً أسوار المدينة ثم يملأ فضاءها الداخلي بأكثر ما كان يراه مهماً في نظره من مبان، لا سيما المساجد والأضرحة والقلاع وبعض القصور، أما الدور العادية فلم يكن يرسم منها إلا القليل الذي يملأ به الفراغات المتبقية في المدينة، بوصفها نماذج على ما كانت تكتظ به من المحلات السكنية.

ويمكننا هنا أن نسجل أن المطراقي كان نمَطياً في بعض ما كان يرسمه من مظاهر الطبيعة، فالأشجار والنخيل والزهور والكثبان جاءت متماثلة تماماً في كل ما رسمه في البيئة العراقية، وواضح أنه لم يكن مهتماً برسمها كما بدت في الواقع، وإنما كان يضيفها بوصفها نماذج نمطية إلى ما يرسمه من معالم للتعبير عن وجودها في بيئة الصور التي كان يرسمها.



ومن ناحية أخرى، كان المطراقي (مُلوِّناً) من الطراز الأول، فإنه بقدر حرصه الشديد على النقل الدقيق لتفاصيل المباني المختلفة وزخارفها، فإنه لم يكن دقيقاً تماماً في نقل الألوان الحقيقية لما كان يراه، وإنما كان يعطي لنفسه المرونة في أن

يُلوّن تلك المباني بالألوان المتنوعة، إضفاءً لجو من البهجة على صوره. وهكذا فإنه لوّن جدران الدور السكنية بالألوان العديدة مع أنه لم معروفاً صبغ الدور بالأصباغ الملونة في ذلك العصر.

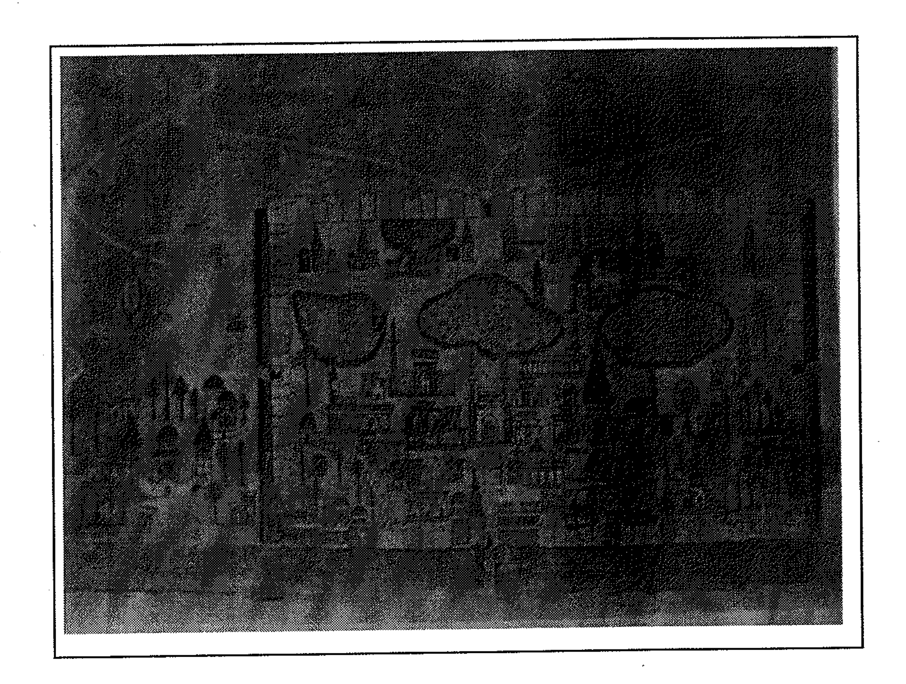
إن الألوان الغالب استعمالها هي الأخضر، لون الآجر المزجج الذي كسيت به الجدران والقباب والمآذن، والبني الفاتح المُغبَر الذي لونت به الأرض، والبُني الغامق الذي لُوِّنت به المباني غالباً. ولا يميل المطراقي، مثله في ذلك مثل المصورين العثمانيين في عصره، إلى مزج الألوان، وإنما هو يحافظ على استقلال كل لون عن الآخر دون امتزاج، ولكن بتماس دقيق، يوضحه بوضع خطوط دقيقة بالأسود تفصل بين المساحات الملونة. ومن ناحية أخرى، فإنه لجأ أحيانا إلى تعميق اللون بتظليله بالأسود، وذلك لايجاد درجة لونية جديدة تميز المبنى عن المباني التي تتقدمه أو تجاوره، وهو ما يمكن أن نلحظه في رسمه معالم المنشآت والدور في بغداد خاصة.

ومن نافلة القول، أن صُحبة المطراقي الدائمة للسلطان سليمان، ووجوده في جيشه، في حلّه وترحاله، فسح له الفرصة ليقضي من الوقت ما يكفي لرسم ما كان ينزل فيه هذا الجيش من مراحل الطريق، وما يمر به من المعالم، كالقرى والقلاع والأنهار والغابات وغيرها، فضلا عن أن إقامته في المدن والقصبات التي كان يقضي فيها الجيش وقتا طويلا نسبياً، ساعده على إتقان نقله لكثير من التفاصيل الدقيقة من العناصر العمارية والزخرفية التي استهوته.

وتحتل الصورتان اللتان رسمهما مطراقي زاده للجانبين الشرقي والغربي من بغداد، أهمية فائقة بين الرسوم التي رسمها هذا الفنان الكبير لمعالم العراق، البالغة خمسين رسماً، فهما يمثلان وثيقة فريدة تمثلان ما كانت عليه هذه المدينة في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد) من أسوار وقصور ومساجد وقباب وبساتين وفضاءات وغيرها[1]، وإذ نشرنا فيما يلي هاتين الصورتين المهمتين، فإننا أضفنا إليهما دراسة وصفية تناولت التفاصيل الفنية لا سيما الزخرفية، كما علقنا على كل صورة بتعليقات تاريخية موضحة لموضوعها. وذلك على النحو الآتي:

---

(1) نشرنا جميع هذه الصور مع دراسات تناولت الجوانب التاريخية والأثرية والفنية، في كتاب مستقل بعنوان (العراق كما رسمه المطراقي زاده سنة 951هـ/1534م)، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 2015.



بغداد: الجانب الشرقي

صورتان متقابلتان تمثلان بمجموعهما مدينة بغداد، وتختص كل صورة بأحد جانبيها، بينما يفصل بينهما نهر دجلة. وكتب في رقعة بيضاء في أعلى الصورة الأولى عبارة (محروسة بغداد).

سور بغداد

رسم المطراقي سور هذا الجانب على نحو أظهر فيه تفاصيل بنائه من الداخل، أما تفاصيله الخارجية فلم يكن لها نصيب من الظهور، باستثناء الجانب الذي كان يطل منه على نهر دجلة. ويبدو السور مكيناً محكماً، تدعمه أبراج كثيرة، وهو يأخذ شكل مستطيل كامل، حيث يبدأ من نقطة التقائه بشاطئ دجلة الشمالي ويمضي شرقاً مكوناً ثلاثة أضلاع حتى يلتقي به مرة أخرى في الجنوب، أي في الجهة اليمنى من الصورة[1].

وتظهر في السور من ضلعه الشمالية عشرة أبراج، ومثلها من ضلعه الجنوبية،

---

(1) كان الشروع بإنشاء هذا السور في سنة 488هـ /1095م وأكمل على مراحل آخرها على عهد الناصر لدين الله (575- 622هـ/1180-1225م).

بينما يصل عدد هذه الأبراج من الضلع الشرقية، وهي الأطول من السابقتين، إلى سبعة عشر برجاً، بينما لا يظهر في الضلع المطلة على النهر غير ثلاثة عشر برجاً، وذلك بسبب وجود منشآت أخرى تشغل جزءا من هذا الشاطئ، والمطراقي هو أول من رسم الجانب الشاطئي من السور.

ويحيط بالسور من أضلاعه الثلاث، عدا الشاطئية، خندق عريض، قد امتلأ بالماء، إلاّ أن القسم الذي يحاذي الضلع الشرقية من السور، لا يظهر للمشاهد، بسبب كونه يقع وراء السور نفسه، مراعاة لقواعد المنظور. ورسم من أبواب السور المطلة على الخندق ثلاثة أبواب، عيَّن مواضعها بدقة، ولكنه لم يرسم تفاصيلها، باستثناء القناطر التي على الخندق، وعددها – كما رسمها- ثلاثة قناطر، وتظهر القنطرة وقد أخذت شكلاً مُحدَّباً بعض الشيء، وفيها سلم بدرجات عديدة، له حافتان من جانبيه.

وأول هذه الأبواب يقع في منتصف الضلع الشمالي، وهو باب المعظم، المعروف في العصر العباسي بباب السلطان، ويقع بين برجين من أبراج السور. وثاني تلك الأبواب يقع في منتصف سور الضلع الشرقية، وهو في الغالب باب الطلسم، المعروف في ذلك العصر بباب الحَلبة، وله برج خاص به. وثالث أبواب بغداد، يقع في منتصف الضلع اليمنى للسور، وهو الباب الشرقي المعروف في العصر العثماني بـ(قرانلق قابي)، أي الباب الأظلم، وقديماً بباب البَصَلية أو بباب كلواذى، ويقع بين برجين.

والغريب أن المطراقي أغفل رسم موقع باب آخر، يقع قريباً من النهاية الشمالية للضلع الشرقية، وهو الباب الوسطاني المعروف في العصر العباسي بباب الظفرية مع أنه كان عامراً نافذاً في عصره. ولكنه كان أول من رسم باباً خامساً يقع في الضلع الشاطئية، وهو باب النهر المعروف في ذلك العصر بـ(صُو قابي)، أي باب الماء، ويسمى باب الجسر أيضاً، وهو المنفذ الوحيد للمدينة على دجلة، حيث جرى تسوير هذا الجانب في عصر سابق على المطراقي، بعد أن لم يكن له وجود في العصر العباسي بأية حال.

القسم المأهول

وبينما تقل كثافة السكن في المناطق البعيدة عن دجلة، حتى يظهر الفضاء القريب من السور الشرقي والجنوبي خالٍ من الدور عدا بعض الأضرحة كما

سنذكر، فإن هذه الكثافة تزداد كلما اقترينا من دجلة، حتى تبدو المنطقة مكتظة بالدور السكنية والمنشآت العامة.

ومن المنشآت التي تظهر أول مرة قلعة بغداد، المعروفة في العصر العثماني بإيج قلعة أي القلعة الداخلية لأنها تقع في داخل أسوارها[1]. وتشغل هذه المؤسسة الركن الشمالي الغربي من المدينة، يحدها من الشمال سور بغداد، ومن الغرب دجلة، ويفصلها عن دور المدينة نفسها سور خاص بها يتخذ شكل قوس، وهو سور منخفض وأقل ضخامة إذا قيس بالأسوار الخارجية، ولا تدعمه أبراج، وإنما توجد وراءه عقود غير نافذة تمنحه المتانة، رسم منها عشرة. ولا أبواب للقلعة إلا باب واحد يقع في أعلاها، أي في الجهة الشمالية القريبة من باب المعظم[2]، وهو باب ضيق له عقد، تعلوه رقبة فيها نوافذ معقودة، يظهر منها إثنتان، وفي أعلاها قبة على شكل نصف كرة، خضراء اللون، وفي أعلى السور مزاغل مكشوفة[3].

وللقلعة فناء واسع خال من المنشآت، في وسطه قبة منخفضة خضراء اللون، تستند إلى رقبة فيها نوافذ طولية، وتقوم هذه على دكة أو قاعدة من ثلاث طبقات ترتفع بها عن مستوى الأرض المجاورة. ومن الواضح أن هذه القبة لضريح إحدى الشخصيات المهمة[4]. كما تنتشر في هذا الفناء شجرات النخيل.

وتوجد على شاطئ القلعة منشآت تقوم بمهمة السور الذي يحميها من هذه الجهة، تبدأ من جهة الضلع الشمالية ببرج له نافذة مستطيلة كبيرة عليها مشبك من قضبان متعامدة، تطل على النهر، وتعلو البرج ظلة بيضاء بارزة إلى الخارج،

(1) كانت القلعة تضم مستودعات الأسلحة ومخزن للبارود والخزينة ومخازن للحبوب فضلا عن ثكنات الحامية العسكرية.

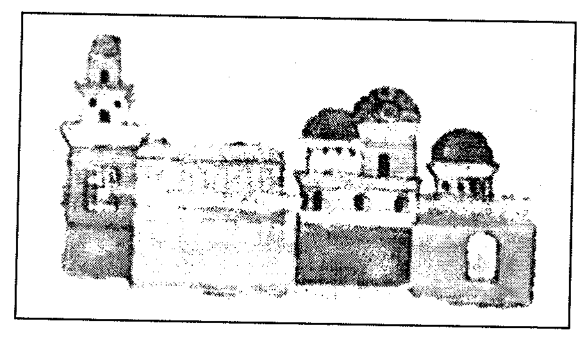
(2) وكان ثمة باب آخر، ربما في مكان الباب الجنوبي لوزارة الدفاع اليوم، يعرف بباب الخندق، لم يرسمه المطراقي، وقد عرف هذا الباب عند دخول السلطان مراد الرابع بغداد سنة 1048هـ/1638م باسم (اوغرون قابو) أي الباب المشؤوم وجرى أغلاقه.

(3) سمّينا المُسننات التي تعلو جدران القلاع ونحوها مزاغل مكشوفة، فهي كالمزاغل التي في سائر الجدران إلا أنها مكشوفة من جهتها العليا.

(4) أشار عبد الحميد عبادة إلى وجود ضريح في وسط فناء القلعة ينسب إلى (إبراهيم بن موسى الكاظم) كان قائماً حتى عهده، وعليه كتابة بالتركية. العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع، بتحقيقنا، بغداد 2005 ص139 و قد عفي أثره منذ عهد بعيد.

وتنهض من فوقه قبة صغيرة، على شكل نصف كرة، ملونة بالأخضر، وعلى جانبيها غرفتان أصغر لا قباب لها.

ويعقب هذا البرج مبنى مستطيل يقوم على شاطئ النهر مباشرة، وهو مسناة لما أنشئ فوقها. تحميه من تأثير الماء. ويزين المسناة شريط أفقي، يعلوه صف من مستطيلات بنائية متماثلة، ويوجد على المسناة مبنى طويل مكون من طابق واحد، فيه صف من ست نوافذ طولية معقودة، تعلوها ظلة أو سقيفة، ومن المؤكد أن هذا المبنى كان يؤدي مهاماً دفاعية، وربما كان يشتمل، من جهة فناء القلعة، على ثكنات لمبيت الجند (الشكل 1).

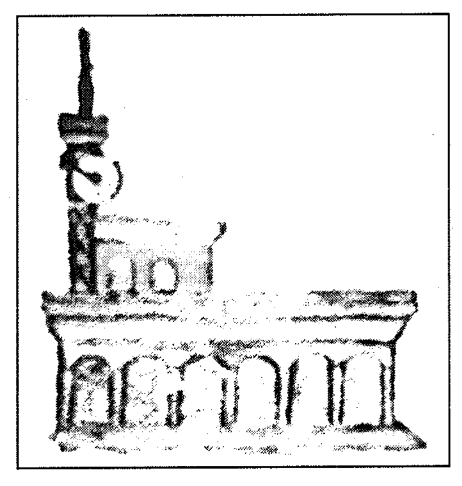


الشكل (1)

ويلي هذا المبنى مسناة أخرى، يعلوها إفريز أبيض، ويقوم عليها مبنى فيه صف من ثلاث نوافذ طولية معقودة، أو فتحات، يظهر أنها كانت تستخدم كمزاغل لرمي المقذوفات، وتعلو المبنى حافة بارزة إلى الخارج، وتنهض من على سقفه رقبتان، في إحداهما باب معقود، وفي الأخرى صف من نوافذ طولية، وتعلوهما قبتان كل منهما على شكل نصف كرة، إحداهما أعلى من الأخرى، وهما خضراوان، تزين اليمنى منهما زخرفة من دوائر متراصة، بينما تخلو اليسرى من أية زخرفة. ولا يمكن التكهن بوظيفة هذا المبنى على وجه التحديد، ولكنها وظيفة عسكرية على أية حال بحكم وجوده في القلعة.

وثمة مبنى مجاور آخر، يستند إلى مسناة عالية تتميز بوجود باب فيها، قريب من مستوى النهر، يظهر أنه كان يستغل باباً نهرياً للقلعة. وتعلو المسناة حافة بارزة إلى الخارج تظهر من ورائه رقبة فيها نوافذ معقودة، تقوم عليها قبة خضراء اللون على شكل نصف كرة.

وتحيط بالقلعة منشآت مهمة، ففي أعلاها، حيث بابها المذكور، مبنى مستطيل في واجهته المطلة على القلعة ستة عقود غير نافذة، يزينها شريط أصفر اللون، يمكن أنه يشتمل على كتابة ما، يعلوه شريط آخرأخضر اللون. وثمة حجرة فوق سطح المبنى، تقف إلى جانبها مئذنة عالية، قسمها السفلي أكثر بدانة من العلوي، على نحو يشبه المآذن العباسية في بغداد، فهذا المبنى إذاً كان جامعاً أو مدرسة إلا أنه من الصعب معرفة هويته بحسب مصادر خطط بغداد. ومما يلفت النظر وجود ساعة شمسية كبيرة على بدن المئذنة.



الشكل (2)

ويلي هذا المبنى من جهته اليمنى مبنى آخر يتسم بالضخامة، وهو يخلو من القباب والمآذن، مما يدل على أنه كان قصراً، ويتألف هذا القصر من طابقين، يتكون الأرضي منهما من صف من الأواوين والعمد، تنتهي من الأعلى بظلة بارزة إلى الخارج، قرميدية اللون، بطول المبنى كله، أما الطابق الثاني فهو بتألف من حجرات بمستويات ارتفاع مختلفة، لها أبواب معقودة، ونوافذ علوية، وتعلوها ظلات عريضة من النوع المتقدم، وفي وسطها برج قرميدي في أعلاه ظلة أيضاً.

وفي موقع قريب من هذا القصر، وراءه، يوجد مبنى كبير، يمكن أن يكون جامعا، فهو ذو واجهة طويلة، في أعلاها صف من النوافذ الطولية، إثنتان عن يمين وثلاث عن شمال، وفي وسط هذه الواجهة مدخل عال، يعلو على المبنى نفسه، في أعلاه شريط أصفر، ثم شرفة عريضة خضراء اللون. وتقف على الكتف

الأيمن للمبنى مئذنة بلون أخضر، زين بدنها الأسفل بزخرفة هندسية، بينما خلا بدنها العلوي منها، ولها حوض أصفر اللون.

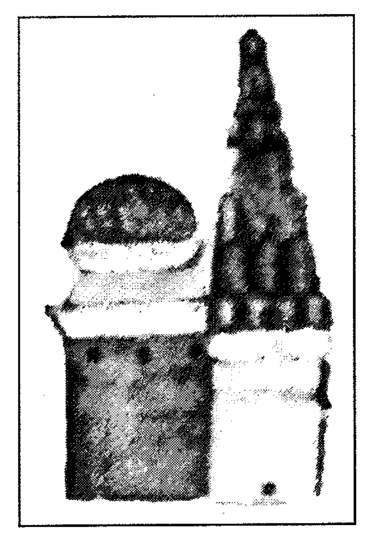
وثمة داران عاديان عن يسار المبنى للدلالة على وجود تجمع سكني، أو محلة، هناك. ويوجد في جوار القلعة، قرب النهر، مبنى آخر، يحجبه عنه السور الشاطئي، يظهر أنه مبنى عام، كأن يكون قصراً أو مدرسة، ومن المحتمل أن يكون المدرسة العلائية الشاطئية التي تحولت في القرن الثاني عشر الهجري (18م) إلى المدرسة العلية (بيت الحكمة اليوم)[1] أو أن تكون أحد المباني التي كانت مشيدة في الأرض التي شغلها السراي والقشلة فيما بعد.

ثمة برج إسطواني عال يطل على دجلة مباشرة، تعلوه رقبة، فظلة حمراء بارزة إلى الخارج، وتتدرج صعوداً من الجهة الأخرى حتى جوف البرج، وتستند إلى هذه الرقبة قبة خضراء على شكل نصف كرة، ويظهر أن جدار هذا البرج من المتانة ما جعله جزءا من السور الشاطئي، وبحسب تقديرنا فإن البرج يقع في موقع مدرسة الأمير سعادة الرسائلي ورباطه، المفتتحان في أواخر القرن الخامس للهجرة، حيث دفن، وقد تحول في العصر العثماني إلى مقر للدفترخانة، ثم أصبح في عهد الحكومة العراقية داراً للمحاكم المدنية. ومن المحتمل في هذه الحال أن تكون القبة ضريح هذا الأمير، أو أن يكون مبنى أقيم في موقع المدرسة التتشية، إحدى مدارس العصر العباسي، حيث أنشئ في أرضها فيما بعد جامع الوزير الحالي.

ويلي هذا البرج مباشرة برج آخر إسطواني الشكل، تعلوه قبة مخروطية مستدقة الرأس، وهو يسيطر على مدخل الجسر المجاور، وهذا البرج هو الذي عرفته مصادر القرن الثاني عشر (18م) ببرج الماء، لاكتنافه باب الجسر المذكور، وقد رسم الرحالة هيوبارد هذا البرج في أوائل القرن التاسع عشر، على الهيئة التي رسمها المطراقي، باستثناء فارق واحد، هو أنه بحسب ذلك الرحالة سداسي الأوجه لا اسطواني كما رآه رحالتنا. وللجسر باب معقود، يحيط به أفريز، وهو مزود من أعلاه بمزاغل مكشوفة (3).

---

(1) ينظر كتابنا: المدرسة العلية في بغداد، بغداد 1987.



الشكل (3)

وتخرج من كوّتين في أسفل برج الماء، ومن مسناة المستنصرية الآتية، سلسلتان ضخمتان، تحتضنان الجسر نفسه من جهتيه، ويطفو الجسر نفسه على زوارق مربوطة بهذه السلسلة (تسمى جساريّات)[١]، وله حافتان في جانبيه. إن الصورة التي رسمها المطراقي لجسر بغداد هذا، وهو الجسر الوحيد عهد ذاك، هي أول شاهد على وجود الجسر في هذا المكان (حيث جسر الشهداء الحالي) بعد أن كان في أسفل القلعة مباشرة. ويتصل بالجسر طريق سيأتي وصفه.

ويلي هذا الطريق، من الجهة المقابلة للجسر مبنى عريض له مسناة عالية تصل إلى النهر، وواضح أنه المدرسة المستنصرية[٢]، ويعلو هذه المسناة صفان من أواوين، تشير إلى أواوين هذه المدرسة وحجراتها الكثيرة. ولا وجود لمبان شاطئية تلي المستنصرية، إلا من برجين لونهما بلون قرميدي مختلف عن لون السور، دلالة على أنهما ليسا من أصل بنائه. ويغطي البرج الأول سقف عريض ، ذو لون بني

---

(1) رسم منها المطراقي أربعة زوارق، بينما يصل عددها في الواقع إلى 34 قارباً كما يذكر نيبور سنة 1766، رحلة نيبور إلى العراق، ترجمة محمود الأمين، بغداد1965، ص72، و29 زورقاً. كما يذكر دوبريه سنة 1807. رحلة دوبريه إلى العراق سنة 1807- 1809 ترجمة بطرس حداد، لندن 2011، ص127، وسبب هذا التباين في عدد الزوارق أنها تقل في حال انخفاض مستوى النهر وتزداد بارتفاعه.

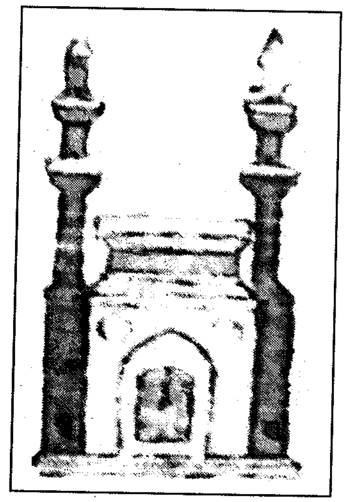
(2) أمر بإنشائها الخليفة المستنصر بالله سنة 631هـ/1234م.

غامق، بينما تغطي البرج التالي قبة مخروطية مستدقة الرأس، خضراء اللون. ويلتف حول بدنه شريط ربما كان يضم كتابة ما.

ويوجد في أقصى السور الشاطئي، من الجهة الجنوبية، برج عريض له كوى أو مزاغل مطلة على النهر، يحيط به سور عال فيه مزاغل أخرى ضيقة، ومن الواضح أن مهمة البرج حماية مدخل المدينة من جهة النهر.

يمثل الدرب النافذ من الجسر حداً للثلث الأعلى من المدينة، وهو الذي وصفنا منشآته الآن، أما الدرب نفسه، وكان يعرف في العصر العباسي بدرب دينار الكبير، فيمتد مبتعداً عن دجلة داخلاً في عمق المدينة، فيمر عن يمينه بمبنى طولاني فيه صف من خمسة أواوين، مما يظهر أنه سوق، وفي الواقع فأن هذه المنطقة تكتظ بالأسواق، منها سوق درب دينار، وهو شارع المأمون الحالي (مقابل المتحف البغدادي اليوم) ومنها سوق الريحانيين وما يتفرع منه من أسواق، وهو سوق الشورجة اليوم[1].

ثم يمضي هذا الدرب فيعترضه مبنى يتألف من مدخل فخم يشتمل على باب معقود كبير مذهب، في أعلاه من الجانبين دائرتان مفرغتان في الجدار. وفي أعلى المدخل إفريز أو شريط أصفر، ثم رقبة ضيقة، بلون قرميدي، تستند إليها قاعدة عريضة ولكن لا قبة عليها. وتوجد في جانبي المدخل مئذنتان عاليتان، بلون أخضر، وفي كل منهما حوضان مكشوفان، يزين سياج كل منها شريط أصفر، ولها قبة صفراء مخروطية مدببة الرأس (الشكل4).



(1) ينظر كتابنا: الأصول التاريخية لمحلات بغداد، بغداد 2004، ص18-47.

وواضح هنا أن المطراقي اختزل في هذا الموضع معالم كثيرة كانت تكتظ بها بغداد في عصره، واقتصر على عدد قليل من تلك المعالم، مرتباً إياها بحسب أهميتها لا بحسب موقعها من الدروب المؤدية إليها، فموقع هذا المبنى يوافق تقريباً المدرسة المرجانية[1] (جامع مرجان فيما بعد) الواقعة في مدخل سوق الريحانيين (الشورجة) على أن لهذه المدرسة مئذنة واحدة على كتف مدخلها لا اثنتان، ولهذه المئذنة حوض واحد لا حوضان.

وتوجد فيما عدا القلعة ومقترباتها، دور سكنية عادية، من طابق واحد، ترمز إلى المحلات السكنية التي كانت تحيط بها، لاسيما من جهتها الجنوبية، وهي التي عرفت في العصر العباسي بسوق السلطان وسوق الثلاثاء، وسميت في العصر العثماني بسوق الميدان ومحلة جديد حسن باشا. وتحفل المنطقة التي تقع في يمين الدرب النافذ إلى الجسر، بعدد من المنشآت والأسواق فضلاً عن الدور السكنية التي نستطيع أن نميزها ببساطة بنائها وكون أكثرها من طابق واحد وأحياناً من طابقين، وأبرز تلك المنشآت برج اسطواني، في أعلاه رقبة قصيرة تقوم عليها قبة منخفضة لا رأس لها، وهو ما يمكن أن يكون ضريحاً مهماً.

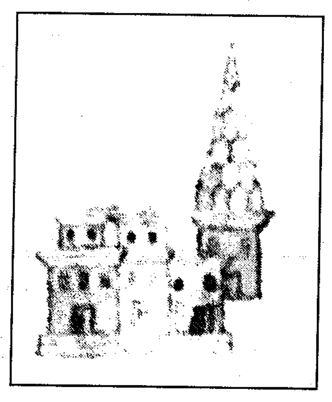
ويتصل بهذا البرج، من يمين، مبنى طويل في واجهته خمس عقود أو أواوين، يمكن أن تكون دكاكين في سوق هناك، ويعلو هذه العقود إفريز أصفر، بينما تنهض من فوقه رقبة فيها صف من نوافذ معقودة، تظهر منها في الصورة ثلاث، تعلوها قبة خضراء على شكل نصف كرة، ولا يمكن تعيين هوية هذا المَعلم أيضاً، بسبب عدم عناية المطراقي بتحديد مسافات الطرق واستقاماتها. ويوجد فيما يلي هذا المبنى، من يمينه، أي إلى الجنوب منه، مبنى عال، من طابقين، في كل منهما نافذتان، ولم تتحدد وظيفة هذا المبنى. وتتصل به، من يمينه وإزائه، مجموعة متراصة من الدور من طابقين في إشارة إلى اكتظاظ المنطقة بمثلها.

ويبدو وراء المبنى المذكور مبنى يتألف من عدة أقسام، الأول حجرة لها باب ذو اسكفة عليا مستقيمة، ومصراعان، تعلوها قبة مخروطية ذات رأس مستدق، تتكون من خمس طبقات من المقرنسات، على الطراز السلجوقي، ولها شريط كتابي أو زخرفي، لم تتوضح معالمه. ويتصل بهذه القبة مبنى، ثم مبنى آخر، على شكل متوازي مستطيلات منتظم الأبعاد، فيه باب ونوافذ علوية طولية، وسقف أفقي مستو، وتتصل به من يمينه

(1) أنشأها الخواجة أمين الدين بن عبد الله الأولجايتي حاكم العراق من طرف الجلائريين سنة 758هـ/1356م.

مئذنة رفيعة عالية، لها حوض في ربعها الأخير. ويلي هذا المبنى شجرة تشير إلى وجود أشجار أو بستان في هذه الأنحاء، يليها مبنى عال له باب ونافذة علوية، وفي أعلاه قبة خضراء منخفضة تستند إلى رقبة ذات صف من نوافذ ضيقة.

ويوجد في الشرق من هذا المبنى مبنى آخر، ملفت للنظر، يتألف من ثلاثة طوابق، بلون رمادي، في الطابق الأرضي باب، وفي كل طابق نوافذ، وإلى يمين المبنى، وبلصقه، توجد حجرة لها قبة مخروطية مستدقة الرأس، ذات مقرنسات، على الطراز السلجوقي (الشكل5)، ونعتقد أن هذا المبنى هو المدرسة القادرية التي تحولت قبل هذا العصر إلى جامع كبير، وأضيفت إليه هذه القبة المخروطية على ضريح مُدرِّسها الشيخ عبد القادر الكيلاني. وتكثر أشجار النخيل في الزاوية الجنوبية الغربية، فضلا عن أشجار فاكهة، ومن المعروف أن هذا الجزء من المدينة كان يشتمل مزارع للخضروات، مما تظلله تلك الأشجار، وقد عرف بالبصلية لهذا السبب.



الشكل (5)

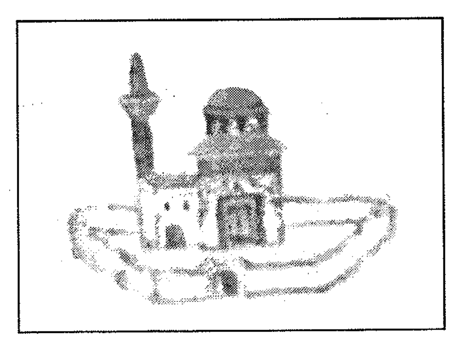
القسم غير المأهول

لا تتجاوز المساحة المأهولة من بغداد، بحسب المطراقي، نصف مساحتها الكلية، وهو تقدير قريب من معطيات خارطة لبغداد رسمها نيبور سنة 1767، مما دل على أن نموها لم يكن قد اضطرد حتى هذا التاريخ. أما المساحة غير المأهولة، أو القليلة الكثافة، فهي التي تمتد من نهاية الجزء المأهول حتى سور بغداد، وأهم ما يشغل هذا الجزء وجود مقابر واسعة تمتد بامتداد السور نفسه، وهي مقابر مفتوحة لا أسوار لها، ولكن تنتشر فيها الأضرحة وأكثرها ذات قباب مخروطية مستدقة الرأس، ومنها أضرحة ذات قباب مستديرة عادية.

وتفصل بين هذه المقابر والجزء المأهول من المدينة ثلاث أحواض غير منتظمة من أرض مزروعة مسورة بسياج من أغصان مثبتة بأوتاد إلى الأرض، وفي طرف كل مزرعة حجرة يظهر أنها خاصة بحارس الأرض أو المكلف بها. وثمة مزرعة تتصل بالسور نفسه، وعندها يوجد مبنى مرتفع في وسط فناء يحيط به سور، وفي ركني السور برجان اسطوانيان على إحداهما قبة منخفضة خضراء، وواضح أن مهمة المبنى دفاعية محضة.

ويوجد في مكان بين المزرعة التي في الجهة الجنوبية، والسور الشرقي للمدينة، مسجد كبير، يتألف من مبنيين، الأول، وهو الذي على اليمين، عبارة عن حجرة عالية على نحو واضح، في واجهتها باب كبير، تعلوه ثلاث كوى صغيرة، يليه في أعلاه شريط عريض يغلب أنه يضم كتابة ما، وتعلو هذا الشريط سقيفة عريضة تبرز إلى الخارج، وتتدرج ارتفاعاً من الجهة الأخرى حتى تنتهي في وسط الحجرة، حيث تقوم رقبة لها أربعة نوافذ معقودة، تستند إليها قبة على شكل نصف كرة زرقاء اللون. ومن المحتمل أن تضم هذه القبة ضريح أحد الصالحين، وهي تقع في الأرض التي شغلها ضريح الغزال المسمى محمد الغزالي ومقبرته.

وتتصل بهذه القبة حجرة آخرى، له باب مستقل، ويعلوها سقف منخفض ومستوٍ، باللون نفسه، ومن الواضح أن الحجرة الأخيرة تضم مسجداً بدلالة وجود مئذنة في ركنها الأيسرالأخير، ولها حوض مكشوف يستند إلى قاعدة من مقرنسات آجرية، وتغطي قمتها قبة صغيرة يعلوها ميل. ويحيط بالمبنى سورخارجي يأخذ شكلا معينياً من أربعة أضلاع غير متساوية الطول، وفي الضلع المقابل للمشاهد باب يزينه من أعلاه افريز(الشكل6).

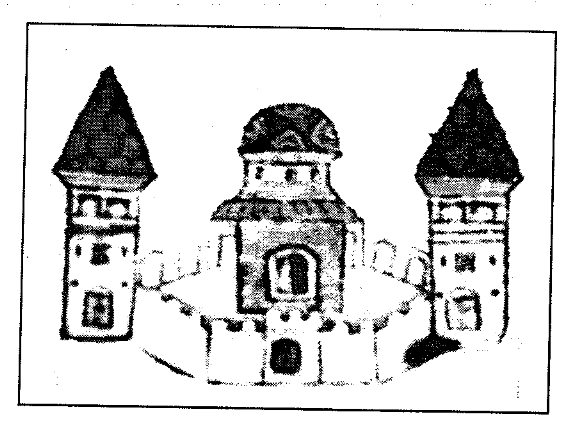


الشكل (6)

ويظهر في مكان قريب من الباب الجنوبي، وهو المسمى الشرقي، كتلة من ثلاثة دور متراصة، بطابقين، وإلى جانبها حجرة تعلوها قبة مخروطية لها ست طوابق من المقرنسات الآجرية. ويوجد في موضع قريب من الضلع الجنوبي للسور، مسجد آخر له باب بمصراعين، وأسكفة علوية مستقيمة، ونافذة مستديرة في أعلاه، وقبة زرقاء على هيئة نصف كرة، تقف على رقبة باللون نفسه، وتنهض إلى جانبها مئذنة ذات رأس مستدق.

ولا توجد ضواح للمدينة، فيما عدا ضاحية في خارج باب المعظم، تتألف من عدد من الدور العادية، بطابق واحد، يمكن أن تكون دور فلاحين.

ومما يلفت النظر في هذه الضاحية وجود مبنى يتكون من حجرة لها باب وتعلوها ظلة خضراء، تتدرج ارتفاعاً باتجاه وسط الحجرة، حيث تستقر رقبة فيها صف من النوافذ، تستند إليها قبة مزينة بدوائر مرسومة على خضراء على شكل نصف كرة. ويحيط بالمبنى سور يأخذ شكلاً سداسيا، فيه باب، وفي أعلاه مزاغل مكشوفة. ويوجد على طرفي هذا السور برجان عاليان في كل منهما باب، تعلوه نافذة مربعة، وتنهض من عليه قبة مخروطية مستدقة الرأس، مزينة بزخرفة على شكل مسدسات متراصة كخلايا النحل، على أرضية خضراء اللون (الشكل7).



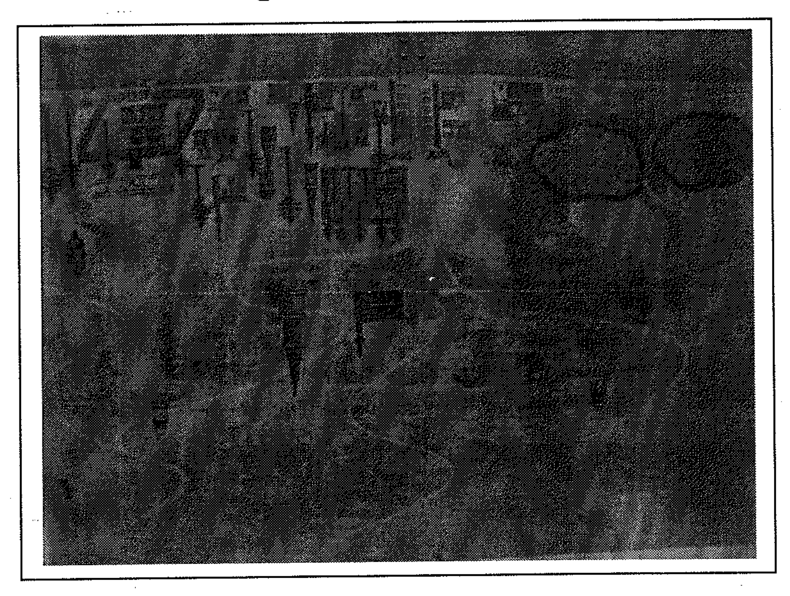
الشكل (7)

كما يوجد مبنى شبيه بهذا المبنى لا يبعد كثيراً عنه، ويقع في مكان قريب من باب المعظم، وهو يتألف من برجين متجاورين، على كل منها قبة خضراء على شكل نصف كرة. ويحيط بالمبنى سور يأخذ شكلا مسدساً، وواضح أن مهمة هذه

الأبراج المحصنة كانت دفاعية بالدرجة الأولى، والبرج الأول منهما يقرب أن يكون ربية عسكرية كاملة، وفي هذه الحال تكون مهمتها الدفاع عن باب المدينة وتحصيناتها الخارجية.

الفضاء المحيط

الفضاء المحيط بسور بغداد قفر، خال من العمران، باستثناء حجرة صغيرة عليها قبة مشيدة على الطريق الخارج من باب الطلسم، من أبواب بغداد الشرقية، وواضح أن القبة تضم ضريح أحد الصالحين. وثمة خطوط بيض تتلوى في الفضاء، ترمز إلى الطرق التي كانت تؤدي إلى المدينة. ولون الأرض بني مصفر، يحاكي لون التراب. وفيها أشواك ونباتات برية، وضبع وغزال.

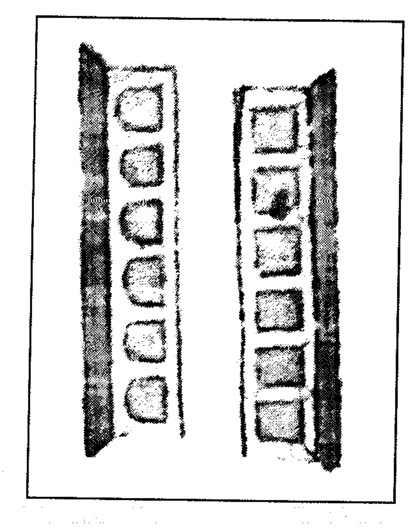


a48

بغداد: الجانب الغربي

تمثل هذه الصورة الجانب الغربي من مدينة بغداد، ويظهر هذا الجانب وهو خال من أي سور، لإن بناء سور للجانب الغربي لم يجر إلا في منتصف القرن الثاني عشر الهجري (18م). ويرتبط هذا الجانب بالجانب الشرقي بجسر عائم على زوارق، مربوطة بسلسلتين مثبتتين بوتدين كبيرين على جانبي الجسر. وبشكل عام فإن كثافة السكن في الجانب الغربي تبدو أقل بكثير منها في الشرقي.

يطل على جانبي الدرب النافذ من الجسر، صفان من العقود أو الإواوين، يظهر أنها دكاكين (الشكل8)

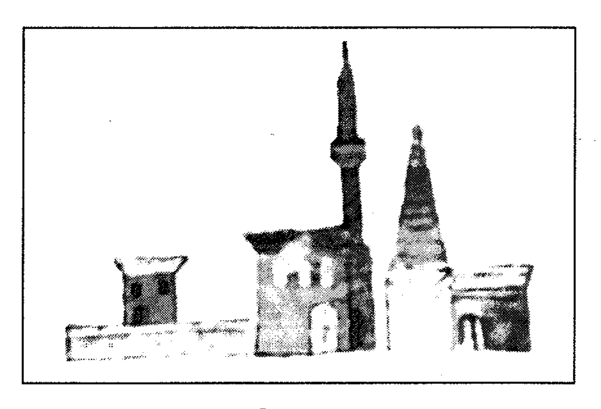


الشكل (8)

ويلي هذا الدرب، من الجهة اليمني، وهي الشمالية، بستان كبير مستطيل مسور بسور ملون بالبني الغامق، يظهر أنه من الطين، فيه صفان من نخيل مثمر، وتتوزع بينها خضروات. وفي الزاوية اليسرى من أدناه مسجد في واجهته باب بمصراعين، وعن يساره نافذتان بأسكفات مستقيمة، تعلوهما اثنتان معقودتان ، ويعلو الجدار افريز بارز إلى الخارج، وتتصل به من يمينه مئذنة لها حوض في منتصفها وقبة صغيرة في أعلاها. وتوجد عن يمين هذا البستان مباشرة حجرة تعلوها قبة مخروطية سلجوقية الطراز، لها عشر طبقات من المقرنسات الآجرية .

وتلي هذا المسجد دور سكنية عادية من طابق واحد، بينما يوجد برج عريض يحيط به سور على الشاطئ، وفي أعلاه ظلة بارزة، ويظهر أنه موقع دفاعي لحماية مدخل الجسر، ويتصل به، من الجهة نفسها مسجد له باب بأسكفة عليا مستقيمة، وثلاث نوافذ طولية، وفي أعلاه ظلة خضراء بارزة إلى الخارج، ولا قبة له، وثمة مئذنة عالية تقوم عنده، لها رأس مخروطي مدبب. ومن المحتمل أن يكون هذا المسجد هو مسجد قمرية الشهير الذي شيدة الخليفة المستنصر، حيث لا يوجد على شاطئ دجلة في هذا الموضع إلا المسجد المذكور، كما أن من ميزاته أن مئذنته تلاصق مبناه، كما رسمها المطراقي.

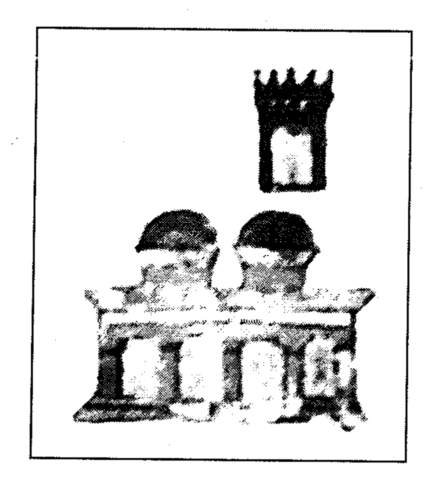
ويوجد في موقع يلي هذا المسجد مبنى آخر هو عبارة عن حجرة تعلوها قبة مخروطية على الطراز السلجوقي لها عشر طبقات من المقرنسات الآجرية، ملونة بالأحمر، ولا شك في أنها تضم ضريحاً ما. وتتصل بها مباشرة حجرة أخرى لا قبة لها، ولكن لها ظلة بارزة، ويصعب تعيين هوية هذا المبنى لقلة المعلومات المتاحة عن هذه الناحية عصر ذاك. ويمكن أن يكون رباط سلجوقى خاتون الأخلاطية زوجة الخليفة الناصر لدين الله، والذي عرف في عصر المطراقي باسم قليج ارسلان نسبة إلى أبيها، كما ذكر ذلك في موضع آخر من رحلته (الشكل9).



الشكل (9)

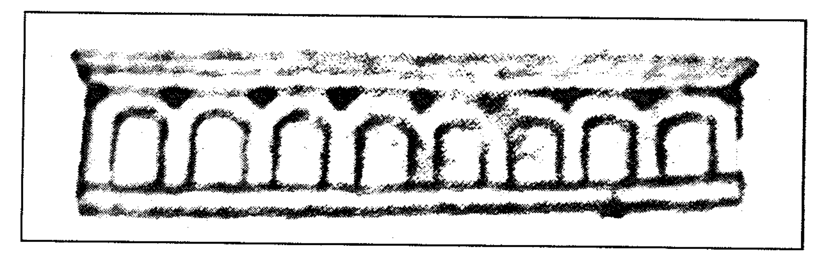
وتوجد في مكانين قريبين منه، لكنهما أبعد عن النهر، قبتان أخريان على الهيئة نفسها، يليهما مسجد في نهاية القسم المأهول، في واجهته باب معقود وثلاث نوافذ علوية، وتعلوه ظلة بارزة إلى الخارج بلون قرميدي، وباتصاله مئذنة عالية خضراء اللون، لها باب من مستوى الأرض، وفي منتصفها حوض، وفي أعلاها قبة مستدقة.

وفي أدنى المبنى المذكور كتلة من دور متراصة تشير إلى وجود محلة في هذا الموضع مكتظة بالدور السكنية، ومن المحتمل أنها المحلة التي عرفت في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) بسوق الجديد، يليها بالاتجاه نفسه مبنى له واجهة خضراء، تقوم على خمسة عقود تشغلها شبابيك كبيرة، وفي أعلاه إفريز أبيض، يليه حافة بارزة إلى الخارج، بلون قرميدي، وتعلو المبنى رقبتان باللون نفسه، يزينهما افريز أصفر، وتستند إليهما قبتان خضراوان بهيئة نصف كرة، وتحيط به ساحة مربعة مسورة بسور قرميدي له بابان متقابلان، احدهما يطل على النهر، والآخر على الفضاء المجاور(الشكل10).



الشكل (10)

وتقابل الباب الأولى مسناة بيضاء اللون ظهر قسم منها في دجلة. وهذه المسناة الغاطسة هي التي عرفت وما تزال بالسن[1]، وبمُسناة خضر الياس، وتقع مقابل مقام الخضر، وهو مشهد تنسب إليه محلة صغيرة هناك[2]، فهذا المبنى هو ذاك المقام بلا ريب. وثمة مبنى عند ذلك الفضاء يتألف من ثماني عقود، بلون أبيض، يظهر أنه سوق هناك (الشكل 11).



الشكل (11)

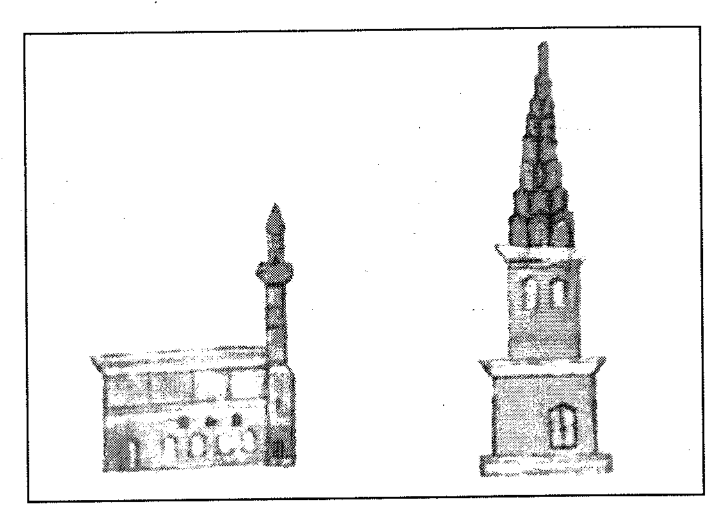
وينطلق من الجسر طريق آخر، يتجاوز القسم المأهول الذي وصفناه، ليمضي باتجاه الفضاء القفر الذي أمامه، ثم ينحرف يمنة ليمر بمبنيَين، الأول الذي على اليمين، عبارة عن حجرة منفردة، لها باب بمصراعين، وفوقها رقبة طويلة، يلتف

(1) مسناة ضخمة غاطسة مبنية بقطع كبيرة من الآجر كتب عليه اسم الملك نبوخذنصر (605-563 ق.م)، أحد ملوك الدولة البابلية الثانية.

(2) محلة على شاطئ دجلة تحدها من الجهات الاخرى محلات التكارتة والست نفيسة وسوق حمادة. كتابنا: الأصول التاريخية لمحلات بغداد، ص103-104.

حولها شريطان كتابيان، ولها نافذتان طوليتان معقودتان، وتستند إليها قبة مخروطية مقرنسة على الطراز السلجوقي، لها ثماني طبقات من المقرنسات، ونرجح أن تكون قبة السيدة زمرد خاتون السلجوقية، زوجة الخليفة الناصر لدين الله، وهي القبة المعروفة الآن بقبة السيدة زبيدة في مقبرة الشيخ معروف الكرخي.

وإلى اليسار من هذه القبة رسم المطراقي مسجداً له باب من جهته اليسرى، إلى يمينه أربع نوافذ طولية معقودة، وفي أعلاها ثلاث نوافذ مستديرة، ثم شريط كتابي، ويعلو هذا الشريط جدار خال من النوافذ، ينتهي بإفريز وظلة بارزة إلى الخارج. وتلاصقه مئذنة لها باب من أسفلها، وفي وسط بدنها نطاق زخرفي، وفي أعلاها حوض مكشوف[1]، ولها قبة مخروطية مستدقة. ومن المؤكد أنه جامع الشيخ معروف الكرخي في وسط مقبرته البعيدة يومذاك عن الجزء المأهول من محلات الكرخ (الشكل12).

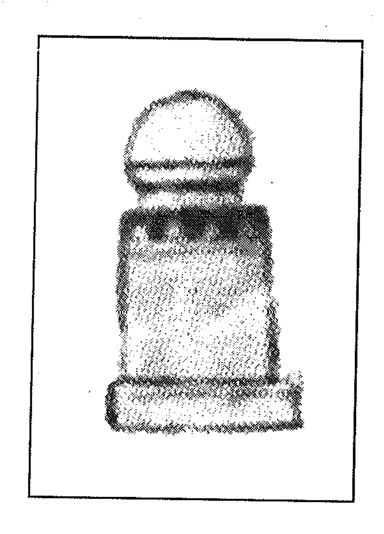


الشكل (12)

وإذا ما انحرف السائر في تلك النواحي باتجاه اليمين قابله ضريح في وسط الفضاء تعلوه قبة صغيرة غير ملونة، والراجح أنها قبة الشيخ جنيد البغدادي في وسط المقبرة المنسوبة إليه، والمعروفة في العصر العباسي بالمقبرة الشونيزية (الشكل13).

---

(1) أنشأها الخليفة الناصر لدين الله سنة 612هـ/1215م كما تشهد بذلك كتابة بالآجر على حوضها.



الشكل (13)

أما القسم العلوي من الصورة، فهو الأقل سكناً من القسم الذي ذكرناه، فلا يوجد فيه – بحسب المطراقي- غير مبنى منفرد على شاطئ دجلة، يتكون من برج مرتفع ينتهي من الأعلى بشرفة، أو رقبة، وتتصل بالبرج قاعة يتوسطها باب، ويعلوها افريز أخضر، وفي أعلى المبنى كله رقبتان، ولكن لا قباب لها، وربما نسي المطراقي رسمها.

الفضاء المحيط

يحيط بالمكان أرض قفر، تنتشر فيها الأشواك البرية، وتكثر فيها الحيوانات، منها أرانب، وأسود، وغزلان. وبعض الأسود يبدو قريباً جداً من عمران هذا الجانب. ويوجد في ناحية قريبة من دجلة، في أعلى الصورة، بستانان مسوران بالأغصان اليابسة[1]، من نوع البساتين التي رسمها في الجانب الشرقي من بغداد.

(1) قال نيبور: وجدتُ في ضواحي المدينة الغربية كثيراً من البساتين الخالية من السكان تقريباً. رحلة نيبور ص36. وقد لاحظنا أن هذين البستانين يخلوان من حجرة لحارس أوبستاني كما في بساتين الجانب الشرقي.

رحلة عالي بك الى بغداد
سنة 1301هـ/1885م

توجد بين مخطوطات المؤرخ العراقي عباس العزاوي (المتوفى سنة 1390هـ/ 1971م) اضمامة من اوراق حفظت في ملفة تضم موضوعات أخرى، كتب عليها أنها (رحلة مترجمة من التركية بقلم المحامي عباس العزاوي)، وقد كتبت الترجمة بخط عادي سريع بقلم الحبر، وتسرَّع مفهرس[1] فظن أنها بخط العزاوي، وعند مقارنتنا الخط الذي كتبت به بخط العزاوي تبين لنا على الفور أنه ليس له، بل أن الترجمة نفسها ليست من إنشائه، فاسلوبها يختلف عن أسلوبه تماماً، وفيها من الركة والأخطاء الإملائية ما لم يرتكبه في أي مما كتب، ثم أن أحدهم صحح مواضع من النص بقلم من الحبر الجاف، او بقلم الرصاص، ليس خط العزاوي أيضاً، وفي (تصحيحاته) أخطاء إملائية أخرى.

ولما كان عباس العزاوي معنياً في أثناء جمعه مواد كتبه العديدة، بالتقاط كل ما به علاقة بتاريخ العراق في القرون المتأخرة، فقد ضم هذه الترجمة الموجزة للرحلة إلى مكتبته الغنية بأفانين الكتب والمخطوطات عسى أن يفيد منها في دراسة مقبلة، إلا أنه لم يفعل، وبقيت الرحلة بعيدة عن اهتمام الباحثين.

المؤلف

كتب معرب الرحلة في الورقة الأولى من تعريبه ترجمة قصيرة لصاحب الرحلة عالي بك لا تتجاوز العشرة اسطر.

وخلاصة ما كتبه أنه كان والياً في طريزون فصار مدير ادارة الديون العامة، وأنه أوفد في مهمة تتعلق بتفتيش الأمور المالية لعدد من الولايات في الدولة العثمانية، فبدأت رحلته بأن غادر استنبول في يوم الخميس 3 كانون الثاني من سنة 1300 رومية (الموافقة 1301هـ/1884م)، ماراً بـ(مدللو) و(ابو النور) و(أزمير) و(مرسين) و(اسكندرونه) ومنها توجه الى (حلب) و(كليس) و(عينتاب) و(بيرجك) و(ديار بكر) و(سعرد) و(بتدليس) و(موش) وماردين) حيث كانت له صلات بعشيرة شمر، ومنها ركب (كلكاً) في 2 أيلول 1301 رومية (الموافقة 1302هـ/1885م)

---

(1) مجلة المورد، المجلد 12، العدد 4 (1410هـ/1989م) ص242

انحدر به في نهر الفرات فمر بـ(حصن كيفا)، و(جزيرة ابن عمر) التابعة لبلدة ماردين، ثم وصل إلى قرية (الحمدات)، ومن هناك غادر الكلك وذهب براً إلى الموصل، وبعد وصوله اليها ركب الكلك أيضاً فانحدر به إلى تكريت ثم سامراء، ومنها الى الاعظمية، ومنها الى بغداد، حيث اقام بها مدة من الوقت، وبعدها انحدر إلى البصرة، ومنها الى ابو شهر فبومباي في الهند، ومن الاخيرة الى عدن، ومنها السويس فالقاهرة ثم الاسكندرية، ومنها الى استانبول، وكانت عودته إليها في 1304 رومية (1305هـ/1888م)[1].

وواضح ان الرحلة امتدت لتشمل مدنا وقصبات ومعالم عديدة، الا ان المعرب اقتصر منها على ما له صلة بمدينة بغداد فحسب، وحتى هذا جاء مختصرا، بل انه سكت عن معلومات تخص اعمال بغداد نفسها، مكتفيا بالخطوط العريضة لاقامة صاحبها فيها ومشاهداته لملامح الحياة فيها. ومنهج المعرب في هذه الرحلة يتراوح بين ان يعرض كلام صاحبها منسوبا اليه، وحينذاك يكون الضمير للمؤلف، او ان يعرض بنفسه وقائع الرحلة وفي هذه الحال يكون الضمير للكاتب.

وتتمثل اهمية الرحلة بالجوانب الاتية:

1- انها رحلة غير معروفة للباحثين، فلم يفد منها باحث فيما نعلم، ومنهم مترجمها العزاوي نفسه.

2- انها رصدت اهم المعالم العمرانية التي انشئت في بغداد في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر، وتمثل هذه المعالم مؤسسات جديدة لم تعرفها المدينة من قبل، منها مثلا مدرسة عسكرية حديثة، ومستشفى عصرية، ومدرسة صناعية، ومعمل للحديد، فكانت هذه المؤسسات طليعة لمرحلة جديدة من تاريخ بغداد.

3- تناولت الرحلة صورة بغداد بجانبيها في عهده، والملامح الاساسية للبيت البغدادي، بحجراته وغرفه وفنائه وطارماته وسطحه، ومواد بنائه، وغير ذلك.

4- انها لم تقتصر على الجانب العمراني فحسب، وإنما تناولت الحياة الاجتماعية، فقدمت تقديرات للسكان، وطوائفهم، ولغاتهم، وأزياء الرجال منهم والنساء، بتفصيل جيد.

---

(1) طبعت الرحلة في استانبول سنة 1314 رومية/1898م، وتقع في 119 ص.

5- انها تطرّقت إلى الخدمات الأساسية في بغداد، لا سيما سُبل توفير مياه الشرب، وشؤون السقاية والسقائين، والبدايات الأولى لاستعمال المضخات في توصيل المياه الى الدور، وأحوال الحمامات العامة، وسُبل النقل البري، وأهمها الترامواي الذي أنشأه والي بغداد مدحت باشا، والنقل النهري المعروفة عهد ذاك. وغير ذلك.

والمخطوطة محفوظة في دار المخطوطات ببغداد تحت العدد 33325، ويبلغ عدد صفحاتها 25 صفحة، وعدد السطور في الصفحة الواحدة 17سطراً، وهي بمقياس28×21سم.

ونظرا لوجوه الأهمية التي ذكرناها، فقد قمنا بتحقيق هذه الرحلة الفريدة والتعليق عليها على النحو الذي يراه القارئ الكريم. ومن الواجب القول بأننا أبقينا على نص الترجمة كما أوردها كاتبها دونما تغيير يذكر، إلاّ أننا اضطررنا في حالات قليلة الى اعادة صياغة جملة بذاتها لتبدو مفهومة إذا كات ثمة ضرورة إلى ذلك، وأضفنا في بعض العبارات كلمات لاتمام السياق حصرناها بين معقوفين [..]. كما أضفنا عنوانات جانبية حصرناها بالمعقوفات ذاتها.

وأخيرا لابد لنا بهذه المناسبة ان نشكر الصديق الباحث السيد زين النقشبندي على توفيره نسخة مصورة من اصل الرحلة المحفوظ في دار المخطوطات ببغداد فور طلبنا اليه ذلك، جزاه الله خيرا. والله تعالى من وراء القصد.

[الرحلة]

بغداد

كان عالي بك قد وصل سامراء وزار مراقدها المباركة، ثم مضى في طريقه نهراً حتى وصل مصب نهر العُظيم، ويسميه الترك (شط أدهم) وهو غير صحيح[1]، ومنها تحرك الكلك ووجهته قرية السندية[2]، ثم وصل الى قرية (الجديدة)[3]، ومنها وصل

---

(1) ربما يكتبه غير الترك على هذا النحو، اما الترك فيكتبونه على وفق لفظه العربي.

(2) السندية قرية على دجلة من أعمال قضاء الخالص.

(3) اسم لقريتين من أعمال الخالص، عرفت أولاهما بجديدة الأغوات، وبالتركية (ينكيجة آغالر)، وعرفت الأخرى بجديدة الشط، وبالتركية (باش ينكيجة) أي الجديدة الرئيسة، وهي ما مر به المؤلف في رحلته هذه، وأغلب الظن أنها الاقدم عهداً، وقد عرفتها الوقفيات المبكرة بالجديدة (أو ينكيجة) مطلقاً، وأشار إليها، عرضاً، عبد الله الغياث البغدادي في حوادث سنة 874هـ/1469م. التاريخ الغياثي، تحقيق د. طارق نافع الحمداني، بغداد 1975، ص 334.

الى قصبة الاعظمية، وسميت بذلك لأن الإمام الأعظم أبا حنيفة قد توفي فيها ونسبت الى اسمه، وتقع في الجانب الايسر من دجلة، وفي الجانب الآخر بلدة الإمام موسى الكاظم، وقد شاهد التربة والجامع الشريف والقبة والمنارات من مسافة بعيدة.

[الأعظمية]

ولما وصل الى الأعظمية دخل دار نعمان افندي متولي وسادن حضرة الامام الأعظم، فرأى الدار مفتوحة، ورأى الناس يدخلون اليها، فاستقبله مَن في الدار من أعوان، فصعدوا الى الطابق الثاني، ورأى شيخاً هناك وعلى رأسه عمامة، وكان قد بشرّ به، وقد أبدى لطفاً وقال له: يظهر أنكم أتيتم من سفر فاستريحوا ثم توضأوا، وسنذهب معاً الى الجامع الشريف. وعلمت أن هذا المحل لم يكن خاناً ولا قهوة.

وأبدى المتولي اعتذاره، وبيَّن أنه سادن وأن هذا بيته، وأخذني الى غرفة أخرى فتوضأت، ونفضت الغبار عن أثوابي. ثم أن أعوانه قدَّموا لي طعاماً وافراً، مع أن المومى اليه لم يعلم مَن أنا ولا من أين أتيتُ، وكل ما عَلِمَه عني أني ضيف، فأكرمني وأعزَّني، ثم أذَّن المؤذن فذهبنا لأداء صلاة الجمعة، ففتح نعمان افندي التربة الشريفة ووفقنا لزيارة مرقد الإمام الأعظم، وأن الجامع ذو منارة واحدة جسيمة، وله جبهتان على الطريق والسوق، وله ساحة كبيرة، [وهو] ذو بابين.

وفي [هذه] الأثناء رأيت حفيد الوالي الأسبق مجيد باشا[1]، وهو مجيد بك من أحبائي، وكان معه بهجت بك ناظر الديون العمومية في بغداد، فأديت لهم شكري لما قاموا به من التفاتٍ نحوي، كما أني كرّرت شكري الخاص لنعمان أفندي لما أبداه من حُسن ضيافة، فودعته وركبت عربة مع نجيب بك وبهجت بك، فوصلت بعد نصف ساعة الى بغداد، وقضيت [النهار] في دار بهجت بك.

[سور بغداد]

ثم تطرق الى بغداد، وبين أنها معروفة بـ (الزوراء) و(دار السلام[2])، وأن القسم الاعظم من بغداد في يسار الشط، (وضمن سور)[1] (دجلة) او (الجانب

---

(1) يريد الوالي الأسبق لطرابزون وليس لبغداد.

(2) دار السلام هي الجنة وشبهت بها فصار يطلق عليها هذا الاسم واسمها الصحيح (مدينة السلام) (المترجم).

الشرقي)، والقسم الأصغر في القسم الأيمن من الشط، وأن الجسر المُتخذ من الخشب والمرتكز على جساريات[٢] يصل بين الجانبين، وأن الجانب الأيسر من المدينة، وهو القسم الأعظم، يقال له (الرصافة)[٣]، والقسم الايمن من المدينة يقال له (الكرخ)، وفي الرصافة دائرتا بلدية، وفي الكرخ دائرة ثالثة للبلدية، وقيل أن سور المدينة يمنع توسعها، ولذا اقتلع وهُدم، واليوم للسور بابان بشكل (بُرج)[٤]، وهما من بقايا ذلك السور.

هذا وقيل [أن] سور قلعة ديار بكر مانع من توسعها، ولذا بُنيَت دارٌ للحكومة خارج القلعة، في حين أن المدينة بقيت على حالها القديم، ومن ثم عادت الحكومة الى محلها القديم كما سبق ذكر ذلك. أما بغداد فإن سورها قد هدم منذ ثلاثين سنة[٥]، ولكن ذلك لم يُجد نفعاً في توسع المدينة، وإن المدينة بقيت مهددة بهجوم العشائر بسهولة وتسلطهم عليها، وكان [ذلك] قد ولد الخوف، ولكن زال الخوف في هذه الايام، إلاّ أن المدينة مهددة بمياه الفيضان، وكان السور مانعاً من دخوله الى المدينة، والآن خطر دخول المياه ملحوظ ومتوقع[٦]، كما أن توسع المدينة يتوقف

---

(1) هذه العبارة اقحمت على النص فأربكته، وإلا فالشط هو دجلة، ولا موقع للسور في السياق.

(2) مفردها جسارية وهي زوارق عريضة محكمة تصف الواحدة إلى الأخرى وتشد بالحبال المتينة أو سلاسل الحديد، وتمد من عليها ألواح الخشب لتيسر مرور المارة بين جانبي النهر.

(3) هذه هي التسمية التي شاعت في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، وإلا فإن الرصافة هي حي في شمال الجانب الشرقي، أنشأه المهدي العباسي في عهد تأسيس كدينة المنصور، ولا تتجاوز حدوده الجنوبية حدود راس الحواش، إحدى محلات الأعظمية اليوم. ثم جرى اطلاق اسم هذا الحي على الجانب الشرقي كله من باب اطلاق اسم الجزء على الكل، على ما يذكر المؤلف هنا. ينظر كتابنا: الأصول التاريخية لمحلات بغداد.

(4) كان لبغداد الشرقية سور أنشأه الخلفاء العباسيون المتأخرون، له اربعة ابواب هي باب السلطان (باب المعظم)، وباب الظفرية (الباب الوسطاني) وباب الحلبة (باب الطلسم) وباب البصلية أو باب كلواذى (الباب الشرقي)، وبينما لبث باب السلطان حتى ما بعد عهد المؤلف، ونسف باب الحلبة في اثناء الحرب العالمية الأولى سنة 1917، ونقض باب البصلية في ثلاثينات القرن الماضي، لبث باب االظفرية قائما حتى اليوم. ينظر بحثنا: الباب الوسطاني وما حوله، نشر على موقع الألوكة الغراء.

(5) هدم هذا السور في عهد واليها مدحت باشا (1286-1289هـ/1869-1872م).

(6) في الأصل: ملحوظاً ومتوقعاً. وقد تحقق ظن المؤلف، ففي محرم من سنة 1333هـ/تشرين الأول 1914 ارتفعت مناسيب نهر دجلة ارتفاعاً هائلا، فدخلت المياه بغداد من جهة الباب

على زيادة النفوس والإتصال بالخارج عن طريق وجود التجارة والصناعة وتكاثرهما، ومن جهة أخرى ان المدينة إذا زادت ثروتها تتوسع مطلقاً، وان سورها لا يمنع من هنا التوسع ابداً.

[من المعالم البارزة في بغداد]

1- وعندما يجيء المرء الى بغداد من طريق الشط من الرصافة يشاهد أولاً قصر النجيبية الذي أقام فيه المرحوم ناصر الدين شاه (وهو شاه ايران) سنة 1288 (رومية)[١] حينما ورد للسياحة في بغداد[٢].

2- مكتب الصنائع[٣].

الشرقي، فأحدثت من التدمير والتخريب والفوضى الكثير. عبد الكريم العلاف: بغداد القديمة، بغداد 1958، ص231.

(1) ويوافق دخوله بغداد يوم الإثنين 28 شعبان سنة 1278هـ/1870م.

(2) كانت تشغل ارض هذا القصر في العصر العثماني بساتين تملكها بعض وجهاء بغداد ومنهم قادة من المماليك الذين حكموها منذ منتصف القرن الثامن عشر وحتى الثلث الول من القرن التاسع عشر، بينما شغلت جزءا منها طابية مدفعية (ربية) للدفاع عن سور بغداد ومدخلها الشمالي، وقد اشترى والي بغداد سليمان باشا الكبير هذه البساتين ووقفها على مصالح المدرسة السليمانية التي انشأها، وبعد زوال حكم المماليك أهملت هذه الأرض فقام متوليها بإنمائها عن طريق "دفعها على وجه الاحتكار بأجرة المثل" إلى والي بغداد محمد نجيب، فاستنبتها هذا بالأشجار فعرفت البستان بالنجيبية نسبة اليه، ونظرا لموقع البستان المطل على شاطئ دجلة والقريب من باب المعظم فقد اتجهت اليها انظار والي بغداد مدحت باشا فاتخذها حديقة نزهة واسعة سميت رسميا بحديقة البلدية، كما عرفت باسم المجيدية نسبة الى السلطان عبد المجيد الذي انشئت في عهده، فكانت اول حديقة عامة انشئت ببغداد في العصر الحديث، وفي شطر منها جرى تشييد القصر الفخم الذي اقام فيه الشاه ناصر الدين شاه في اثناء زيارته لبغداد، ولا يعرف الى اي عهد لبث القصر قائما، إلا أن المؤلف ذكر في رحلته أنه أصبح مقراً لإقامة ولاة بغداد المتأخرين، وسماه الشيخ محمود شكري الآلوسي (القصر الناصري)، ووصفه بأنه «يعجب الناظرين». وفي سنة 1313هـ/1895م ادخلت مبانيه في ضمن ارض مستشفى عسكري شيد هناك، عرف بخسته خانه المجيدية، وكان يتخذ شكل مستطيل كبير تطل واجهته على دجلة، وفي عهد الدولة العراقية اصبحت المستشفى عامة للمدنيين ايضا، باسم المستشفى الملكي. الآلوسي: أخبار بغداد، بتحقيقنا، بيروت 2010، ص120 وكتابنا: معالم بغداد في القرون المتأخرة، بغداد 2000، ص342-343 والعلاف: بغدد القديمة ص29.

(3) المكتب هنا المدرسة، أنشأ مدرسة الصنائع في بغداد والي بغداد مدحت باشا سنة 1287هأ/1871م، وكانت تشغل مبناها قبل إذلك المدرسة العلية التي أنشأها والي بغداد علي

3- دار الحكومة[1] مع ادارة المشيرية[2].

4- القشلة الهمايونية[3].

باشا سنة 1176هـ/1761م، وكنا قد توصلنا إلى أن هذه الأخيرة شغلت، مبنى مدرسة قديمة سابقة هي المدرسة العلائية الشاطئية التي أنشأها الأمير علاء الدين علي بن عبد المؤمن المعروف بالسكرجي، أخو والي العراق شمس الدين السكرجي (693 إلى 694هـ/1293-1294م)، وابتدأ بإنشائها سنة 693. وقد ضمت مدرسة الصنائع مطبعة صدرت عنها أول جريدة عراقية، هي جريدة الزوراء سنة 1869، وقد تحولت الدار في عهد الاحتلال البريطاني إلى مرأب ومعمل لتصليح السيارات، وفي أوائل عهد الحكومة العراقية اعيد تأهيل الدار لتكون قصراً للملك فيصل الأول، فالملك غازي، وتحول منذ سنة 1938 ليكون مقراً للمجلس النيابي، حتى سقوط النظام الملكي، فمحكمة عسكرية خاصة بعده، ثم متحفاً عسكرياً سنة 1967، ثم جدد المبنى تماما سنة 1980 واتخذ قصراً كبيراً للثقافة والفنون، وأخيرا اتخذ مقراً لمؤسسة دار الحكمة، وهي مؤسسة ثقافية، ولما يزل كذلك حتى اليوم. ينظر كتابنا: المدرسة العلية في بغداد، بغداد 1986.

(1) هي سراي بغداد التاريخي، ويسمى أيضاً دار الإمارة ودار الحكم، أنشأه حاكم بغداد في عهد الصفويين بكتاش خان سنة 1041-1048هـ/1626-1638، وأنشأ أمامه حديقة، ثم جدده والي بغداد سليمان باشا الكبير (1193- 1217هـ/ 1779-1802م)وشهد توسيعات مختلفة، فكان اولا على شكل حوش من طابق واحد له فناء واسع، فيه حديقة غناء، تحيط به رواقات وحجرات عديدة، ثم اغلق الفناء واضيف غليه طابق علوي. وشغلته في عهد الحكومة العراقية مديرية الشرطة العامة ومعاونية شرطة السراي. واخلي من هذه الدوائر في ثمانينات القرن العشرين وانتقلت ملكيته الى الهيئة العامة للاثار بنية صيانته ضيانة شاملة، على ان هذه النية لم تتحقق الى الان، وهو اليوم مبنى مهجور. ينظر مرتضى نظمي زاده: كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس ص233، وعبد الحميد عبادة: العقد اللامع ص363

(2) بناية أنشئت في أرض القشلة، لتكون مقراً لقيادة الجيش العثماني في العراق، يذكر العزاوي أنها افتتحت سنة 1312هـ/1894م، تاريخ العراق بين احتلالين ج8 ص124، فالظاهر أن المؤلف يشير هنا إلى بناية سابقة حملت الاسم نفسه، يؤكد ذلك قوله فيما يأتي أن «أبنيتها من أخشاب عتيقة».

(3) القشلة لفظ مأخوذ من التركية: قشلاق، وتعني حرفياً مكان مبيت الجند، وهي الثكنة، وكانت ارضها في العصر العباسي تشغلها منشأت علمية منها مدارس ورُبط، وفي العصر العثماني اصبحت حياً تشغله القصور، ثم اتخذه ولاة بغداد من فئة المماليك مكانا لقصورهم التي انشأوها هناك، وكانت تفصل بينها الحدائق والمتنزهات، وبعد زوال حكمهم سنة 1247هـ/1831م تحولت تلك القصور الى ثكنات للجيش العثماني واتخذ والي بغداد علي رضا باشا من قصر يوسف بك مقرا مقراً مؤقتاً لحكمه، والدور المجاورة دوائر تابعة له. وهذه الاجراءات هي التي مهدت لوالي بغداد نامق باشا الكبير1278- 1284هـ/ 1861-

5- المكتب الإعدادي العسكري[1].

ثم يُشاهد الجسر الذي يصل بين الرصافة والكرخ[2]، ثم دائرة الكُمرك[3] التي هي تحت الجسر، والإدارة النهرية العثمانية بين بغداد والبصرة[4]، وشركة لَنج للمراكب البخارية.

وفي أسفل ذلك عدة بيوت وقهاوي.

وأما الجانب الآخر من الشط [حيث] محلة الكرخ، وتجاه دار الحكومة من الجانب الآخر من جهة الكرخ، تشاهد أبنية المستشفى، وهو مستشفى الغرباء،[5] ومعمل الحديد[1] ومحلات أخرى بين الجنان.

1867م لإزالة تلك القصور والدور جميعاً وإنشاء مبنى القشلة على أرضها، ثم أكمل مدحت باشا ذلك المبنى وغير فيه، فعرف بقشلة (البيادة) أي ثكنة المشاة، حيث أزال الجناح الشاطئي وزاد في الأجنحة الأخرى طابقاً علوياً، وشيد له بوابة كبيرة فخمة على الطراز الإسلامي، وسورا عاليا يزينه صف من الأبراج ذات مسننات علوية، فاتخذ المبنى بذلك شكله الأخير، وفي عهد الحكومة العراقية أصبح مقرا لعدد من الوزارات، فاتخذ مبنى حبس السراي مقرا لوزارة الداخلية، والجناح الجنوبي إلى مقر لوزارة العدلية، بينما شغلت دائرة الحرم، وهي القسم الشاطئي من السراي، وزارة المعارف، وأضيف في وسطه مبنى كبير أصبح مجلسا للوزراء، ثم أخلي المبنى من ذلك كله، ونقلت ملكيته إلى وزارة الثقافة والأعلام، وجرى تجديده، لبصبح مقرا للهيئة (المؤسسة) العامة للآثار والتراث حتى سنة 2004م. ينظر محمود شكري الآلوسي: أخبار بغداد، بتحقيقنا، ص366.

(1) اي المدرسة الاعدادية العسكرية، جرى انشاؤها سنة 1296هـ/1879م في عهد الوالي عبد الرحمن باشا، على أرض كانت تشغلها دائرة الدفترخانة، وهي مؤسسة مهمة تختص بضبط دفاتر الأراضي وشؤون الملكيات، ولما نقلت هذه المدرسة إلى حيث انشئت المدرسة الإعدادية (الثانوية المركزية اليوم) اتخد مبنى المدرسة مقرا للمحاكم المدنية والجزائية، ثم أخلي منها في الثمانينات من القرن الماضي، وتولت المؤسسة العامة للآثار والتراث تجديد هذه المدرسة تجديدا شاملا ويشغلها اليوم مركز ثقافي تابع لأمانة بغداد.

(2) هو جسر بغداد الوحيد الذي يصل بين جانبيها في العصر العثماني، وسيشير إليه المؤلف فيما يأتي من رحلته، وأنشئ في مكانه تقريبا جسر المأمون الذي سمي بجسر الشهداء أيضاً.

(3) كانت دائرة الكمرك تشغل جانباً من المبنى الأثري للمدرسة المستنصرية.

(4) هي المؤسسة المعروفة بشركة العُمان العثماني، وكانت تشغل جناحاً من مبنى المدرسة المستنصرية، وكان هذا الجناح قد أصبح قبل ذلك خاناً تجارياً عرف بخان المواصلة، اي الموصليين، وقد وقفه والي بغداد سليمان باشا الكبير على المدرسة التي أنشأها وعرفت بالسليمانية.

(5) ورد في هامش الأصل ما يأتي «في هذا المستشفى لايتجاوز [عدد] المرضى اكثر من خمسة عشر او عشرين مريضاً. ولذا فإن الوالي مصطفى عاصم باشا جعل مستشفى للبلدية

إن طول النهر على امتداد المدينة يبلغ نحو سبعة كيلو مترات، وما فوق المدينة وما تحتها بساتين النخيل تمتد ساعات. وفي أثناء ظهور الأزهار فيها يشاهد[2] رائحة طيبة ولطيفة جداً تنعش الإنسان برائحتها.

ولما دخلت بغداد من طريق البر آتياً من الأعظمية كانت باب الامام الاعظم متهدمة، ورأيت بقاياها[3]، ولما دخلت المدينة رأيت كثيراً من القهاوي في طريقي[4]، ثم وصلت الى محلة الميدان[5]، وهناك أول ما تعلق النظر به قبة جامع أحمد باشا[6] ومنارته النفيستين المنقوشتين بالكاشي الملون، وكانت القبة عظيمة

خارج باب الامام الاعظم، فنقل الى ما بناه هناك مستشفى الغرباء، وجعل مستشفى الغرباء مكتباً». قلنا: أما مستشفى الغرباء فقد أنشأها والي بغداد مدحت باشا سنة 1286هـ على أرض في الجانب الغربي من دجلة كانت من أوقاف الوالي سليمان باشا الكبير على مدرسته ايضا، وقد أهملت هذه المستشفى حيناً، فقام والي بغداد قدري باشا بتجديدها 1295هـ/1870م. وفي سنة 1925 اتخذت مقراً للمجلس التأسيسي العراقي الذي وضع الدستور العراقي الأول، ثم أعيدت مسنشفى مرة أخرى. بغداد القديمة ص29.

(1) وكان يعرف باسم (دمير خانه) أي دار الحديد (دمير لفظ تركي بمعنى الحديد). أنشأه والي بغداد رشيد باشا الكوزلكي لإصلاح المراكب البخارية وآلات الزراعة، ثم أهمل بعد حين، فجدده مدحت باشا سنة 1286هـ/1869م للعناية بإصلاح بنادق الجيش خاصة. عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج8 ص222.

(2) يريد: تشم.

(3) كان هذا الباب يعرف في العصر العباسي بباب السلطان، بسبب مقابلته دار السلطنة السلجوقية، وموقعها في أسفل محلة العلوازية الحالية، وقد هدم الباب سنة 1923 لتوسيع مدخل بغداد وبيعت انقاضه للأهلين، ونسنغرب قول المؤلف أنه رأى الباب مهدمة، وأنه أدرك بقاياها، لأننا نملك صوراً واضحة للباب كاملا في أثناء دخول قوات الاحتلال البريطاني بغداد سنة 1917. ينظر العقد اللامع ص113.

(4) عن مقاهي بغداد القديمة ينظر زين أحمد النقشبندي: تاريخ مقاهي بغداد القديمة، بغداد 2013.

(5) شغلت محلة الميدان جزءا من محلة سوق السلطان في العصر العباسي، وانما عرفت بهذا الاسم نسبة الى الميدان الذي نشأ بعد تأسيس قلعة بغداد في اواسط القرن التاسع للهجرة (15م) إذ كان الميدان يمثل ما يعرف اليوم بساحة العرضات حيث يجرى عرض قطعات الجيش.

(6) هو المعروف بجامع الاحمدية نسبة الى مؤسسه أحمد باشا، وبجامع الميدان، نظراً لموقعه المطل على هذا المعلم. وتعد قبته وقبة جامع الحيدرخانه التي أمر بإنشائها داود باشا انموذجين باذخين على ما بلغه فن العمارة والتزويق في عهد المماليك في بغداد. أما احمد باشا فهو من ضباط المماليك الجيورجيين الذين استقدموا إلى بغداد في القرن الثامن عشر، ترقى في المناصب حتى نال رتبة (مهردار) أي حامل اختام الوالي، ثم منح لقب (بك) في عهد

وجميلة، وفي يمين الداخل قبل وصول الجامع باب دائرة المدفعية(١)، ثم يأتي السوق(٢) والمحلات الأخرى، والأماكن الأميرية المذكورة، منها دار الحكومة ودائرة المشيرية، [و] كانت أبنيتها من أخشاب عتيقة وباقي الأبنية من أحجار الآجر.

[عناصر السكان وأزياؤهم]

إن سكان بغداد يبلغون نحو مئة ألف نسمة(٣)، والقسم الأعظم من المسلمين، ومنهم ستة آلاف بيت لليهود، وقسم منهم من الكلدان والكاثوليك، [و]عدا هؤلاء قد اختار الاقامة في بغداد قسم من التجار وبعض الزوار، وتكونت منهم مجموعة من الإيرانيين، وان الأهلين بالنظر لصنوفهم ومذاهبهم تختلف ألبستهم وقيافاتهم، فتظهر الفروق بين بعضها البعض الآخر، فالأشراف والأعيان مثلاً ممن يعيشون في ايران عقارهم(٤) يلبسون الزُّبُون(٥) والجُبَّة والمشلح(٦)، وبعضهم يلبس في رأسه العمامة، وبعضهم (الفيس)، وإن الموظفين في أشغال الحكومة يلبسون الزبون والمشلح، وفي رؤوسهم كَفيَّة من إبريسم أصفر، وقسم [من]العمال يلبسون الزبون من جتاري(٧)

ولاية سليمان باشا الكبير، ثم لثب (باشا) مما أثار حسد منافسيه، وزاد من بغضهم له ان اختاره سليمان باشا المذكور ليشغل منصب (كتخدا) وهو نائب الوالي ومساعده، واغتيل سنة 1210هـ/1795م، وكان قد شرع ببناء هذا الجامع فأكمل بناءه من بعده أخوه عبد الله بك سنة 1211هـ/1796م ووقف عليه أوقافاً جمة منها مقاه وخانات ودكاكين وبساتين في بغداد والحلة ومندليجين وكركوك، محمد سعيد الراوي: خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، بتحقيقنا، بغداد 2006، ص53-60

(1) عند الباب الجنوبي لقلعة بغداد، التي اتخذتها وزارة الدفاع بعد تأسيس الدولة العراقية مقرا لها، حيث كان يوجد المدفع الشهير بطوب ابو خزامة.

(2) يريد السوق الكبير المعروف بسوق الهرج، وكان في العصر العباسي جزء من بسوق السلطان، نسبة إلى باب السلطان (باب المعظم) وهي الباب الشمالي لبغداد الشرقية.

(3) هذا من تقدير المؤلف، وإلا فإن هناك تقديرات معاصرة له لأعداد السطان تختلف عن هذا التقدير، فبينما يرى الرحالة الهولندي اينهولت الذي أقام ببغداد في سنة 1867م أن عددهم يبلغ 85 الفا (رحلة اينهولت الهولندي الى العراق تحقيق د. طارق الحمداني، لندن 2012 ص40)، يذهب السيد محمود شكري الآلوسي يرى أنهم يبلغون نحو مائتي ألف نسمة، أخبار بغداد ص365.

(4) كذا في الأصل.

(5) الزبون رداء طويل له كمان طويلان، وهو مشقوق من تحت الرقبة على هيئة الرقم 7.

(6) سيذكر المؤلف فيما يلي انه العباءة.

(7) الجتاري هو الجادر اي الخيمة.

وأبيض رماني أو أحمر، وكفية من إبريسم أحمر شطرنجي[١]. وإن اليهود أيضاً يلبسون الزبون والمشلح[٢] وبرؤوسهم عمامة عليها نقوش. والنصارى يلبسون الزبون والمشلح وعلى رؤوسهم (الفيس)[٣]. ونساء المسلمين تلبس جَرجَف[٤] من حرير وكَلَبدُون[٥] حينما تخرج الى السوق، وتلبس في رأسها (بيجة) معمولة من قماش أسود، وتلبس في رجلها حذاء يقال له جدك[٦] (جيبك) أصفر وعالي. ونساء اليهود يلبسن جرجف معمول من تيل أصفر وفيه نقوش بيضاء ولارج وردية (لازوردية) وتضع على رأسها بيجة[٧] من القماش الأسود وحذاء أصفر. ونساء النصارى يلبسن جرجف كنساء المسلمين إلا أنهن يكشفن عن وجوههن، وبعضاً يضعن غشاء من تول رقيق او أسود فيتسترن به، وبأرجلهن يلبسن البوتين في الأكثر والغالوش (كالوش)[٨].

[لغة السكان ولهجاتهم]

إن لغة الأهلين بوجه عام اللغة العربية، وكثير منهم يتكلم التركية إلاّ أن اللغة العربية دخلتها ألفاظ أجنبية كثيرة [منها :] (يَواش)[٩] و (دَرد)[١٠] و (خوش)[١] و (جاريك)[٢]

(1) لم نقف على معنى هذه العبارة، أهو ضرب من اللون الاحمر، ام انه يتخذ شكل مربعات متساوية الأبعاد على هيئة رقعة الشطرنج.

(2) الظاهر انه يقصد به العباءة.

(3) الفيس هو الطربوش الأحمر.

(4) تركية بمعنى الملاءة والعباءة.

(5) الكلبدون القصب المذهب المكون من الخيوط الذهبية او الفضية، وتعمل منها الحواشي المذهبة للأقمشة لا سيما (العبي) الرجالية والملابس النسائية، ليث رؤوف حسن: المعجم للكلمات والألفاظ العراقية، دبي 2012، ص 371.

(6) ذكر الرحالة اينهولت أن النساء كن ينتعلن قبلا (الجدك) وهي نعال محلية الصنع لا تحتذيها الان غير التركيات. رحلة ص55.

(7) البيجة كما يفسرها الرحالة اينهولت (رحلة ص50) : نقاب منسوج من شعر الخيل ترى المرأة من ورائه دون أن تظهر ملامحها .

(8) كالوش: الحذاء المحاك من الخيوط وقيل هو نعال البيت الشتوي الرجالي. وفي قاموس المعاني يذكر: كالوش : خف مطاطي يلبس فوق الحذاء العادي ويدعى أيضا گيوة. ليث رؤوف: المعجم ص371.

(9) اي: تمهل.

(10) درد : هم وكدر.

وأمثالها من تركية وفارسية، عدا ذلك فإن الانكليز يقولون بدل قدح (كلاس)، فهو مستعمل. كما أنهم يتصرفون بالكلمات التركية فيقولون (مُجمَّر) أي اصابه، (جامور) وهو الطين، و (مجرك) من (جرك)[٣]، و(يوجالش) من (جاليشور)[٤].

[دور المدينة]

وبيوت بغداد مبنية من الآجر الأصفر، ولم يكن عندهم الجص وإنما يجعلون عوضه ما هو مركب من رمال وعلك أسود[٥]، ويطلون به الحيطان، وهذا ينوب مناب التبييض في الجص. وداخل الغرف يُطلى بالجص الذي يأتون به من هيت الواقعة على نهر الفرات، وهذا لايستعمله إلا الأغنياء في بيوتهم والباقون يطلون الحيطان بالطين ويبنون به. وإن أكثر الحيطان تتهدم في السنين التي يكون فيها المطر شديداً في الشتاء، وان هذه البيوت لم تكن كما في استنبول، وإنما تبنى بصورة سريعة، وإن الأبنية تكون من جهتين او في ثلاث منه او أربع جهاتها، وكلها ناظرة إلى الساحة، وأحياناً تبنى السراديب، ويعد البناء في طبقتين، وتكون أمام الغرف ممرات في ساحة يقال لها (طارمة)، وليس للدور طابق ثالث[٦]، وقد توجد غرفة أشبه بالصندوق وتقع

---

(1) خوش: حسن، جيد.

(2) جارك: ربع.

(3) جرك: وسخ، قذر.

(4) جالشديرمق: الجد والاجتهاد والاقدام.

(5) هذا ما يذكره المؤلف، والمشهور أن مواد البناء عند البغداديين كانت لا تتجاوز الجص والنورة، وهذه مكونة من خليط من الجير الحي والرماد.

(6) وصف السيد محمود شكري الالوسي الدور البغدادية وصفا شائقا نقتبس منه ما يأتي"ودور بغداد كانت قبل عصرنا تشتمل على طبقة واحدة، والجدران المحيطة بالمنازل ليست في غاية الآرتفاع، ثم تغيرت إلى ما تراها اليوم، ومشتملات الدور الدهاليز، ففي كل منزل دهليز ينفذ إلى الساحة ويقال له اليوم المجاز، وفي كل منزل إيوان أو ما يقوم مقامه، وفيها السراديب، وهي الأسراب التي تحفر تحت الأرض للقيلولة أيام الصيف وشدة الحر، وتكون في الغالب من جهة الجنوب لأن الشمس لا تشرق على هذه الجهة إلا يسيراً، وفي الدار المطبخ وهو موضع الطبخ، وربما اتخذوا له داراً منفردة، والمخبز يكون في الغالب مع المطبخ، وهو موضع التنور، وفي الدار البيوت، وهي الحجر، وربما اتخذوا فيها المخادع.. وهو البيت في البيت، وفي الدار الخزانة، وهي التي يحفظ فيها الأمتعة، وفي الدار المرقد وهو محل الرقاد والنوم، وفي الدار الصفة ويقال لها في بغداد الطلاء (الطرار) والطارمة ونحو ذلك.. وفي الدار محل لتبريد الماء يقول له الزنبور.. وفي الدار الكنيف.. وقد يتخذونه على السطح

بين الغرف يقال لها (كفشكان)، وهي غرفة صغيرة معلقة. وفي ليالي الصيف ينام السكان على السطوح، وهي من تراب[1] أو مفروشة بآجر.

وفي البيوت لا يوجد ماء جاري، وإنما توجد آبار إلا أن السقائين يأتون بماء الشرب من الشط، عدا ذلك فإن في إدارة البلدية الاولى مضخة ماء تمد بعض المحلات بماء الشط بواسطة أنابيب[2].

[الأزقة ببغداد]

إن أزقة بغداد كلها ليست مبلطة، ولذا لا تخلو من غبار في الهواء يابس، وفي المطر من طين لا يمكن ان يجتازه المرء بسهولة. إن المملكة التي ليس لها صخور لا يعمل فيها تبليط، حتى أن الحمامات في مجازاتها ومواطنها تبلط بالقير او الاسفلت[3]، فاذا مطرت فان الأزقة بسبب ما فيها من تراب لزج لا يستطيع الانسان ان يجتازها دون ان يزلق، او يقع في الطين بسبب لزوجته. ثم أنه ليس للمملكة ...[4]

بقناة إلى الأرض،.. وفي الدار المرحاض، وهو المغتسل، وقلما تجد دارا خالية منه، وفي دور الأغنياء والأوساط الحمامات الصغار، وفي الدار الفناء، وهو الموضع المعد لوضع الضروريات فيه كالحطب والزبل ونحو ذلك، وربما اتخذ في الدار الإسطبل لربط الدواب، وربما اتخذ جوار الدار. وأما الدور التي على طبقتين ففي الطبقة الأولى ما ذكرنا، وفي الطبقة الثانية الغرف والمشارف ذوات الأجنحة.." " أخبار بغداد ص122.

(1) الاصح انهم يفرشون على السطح طبقة سميكة من الطين المخمر الممزوج بالتبن.

(2) في عهد والي بغداد مدحت باشا بدأ التفكير جدياً بإنشاء مشروع دائم يربط دور بغداد وسقاياتها العامة بأنابيب، وتضخ إليها المياه بواسطة مكائن حديثة تنصب في أماكن مختلفة من شاطئ دجلة، وتكون تحت إدارة بلدية بغداد المنشأة حديثاً، وقد أوصي لهذا الغرض على خمس مكائن جيء بها من لندن قدرة كل منها 12 حصاناً، ووضعت واحدة منها في مشرعة (شريعة) الميدان على سبيل التجربة، والظاهر أن المشروع لم ينجز بكامله، وما أشار إليه الرحالة هنا هو تلك الماكنة الأولى فحسب. تنظر التفاصيل في كتابنا: تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد ص114-117.

(3) قال السيد محمود شكري الآلوسي واصفاً حمامات بغداد في عهده، وهو قريب من عهد المؤلف «وفيها من الحمامات نحو ثلاثين حماماً، وهي مطلية بالقار المجلوب من عَينه التي في هيت، والحمامات الكبيرة مشتملة على منزع، وهو المحل الذي تنزع فيها الملابس، ومسبح وهو الذي يغتسل فيه، وما بين ذلك، وربما كان في المسبح عدة بيوت صغار، وفيها حياض صغيرة يستقل كل سالح ومغتسل بحوض». أخبار بغداد ص126.

(4) هنا كلمة تشبه ان تكون لقم.

ولذا يستعملون (البالوعات) في الأزقة او في البيوت، فاذا أمطرت السماء تمتلىء البالوعات، وان الأزقة تعود الى حالة جيدة، وان البالوعات توضع في أفواهها طابوقة (آجرة) ذات ثقب ولم يدم استعمالها، بل في الغالب تكسر أو يوسع فمها، وأن المشاة او الفرسان العابرين والمارين يكون ذلك تهلكة عليهم[1].

[مياه الشرب]

إن مضرات السقائين الذين يحملون الماء الى بغداد ومزعجاتهم كثيرة، وهؤلاء يحملون أوعية من جلد المعز يسمونها قِربة، يحملونها على حميرهم، يأتون الى الشاطيء وينتهون بالشريعة، فيملؤن تلك القِرب ويضعونها على الحمير، وهذه ليس لها أجلة[2] ولا حبال وإنما يمسك السقائون القِرب على الحمير، ويمرون على الأزقة في جادة او جادتين، لا يسع المار منها فارساً، فهي ضيقة وتلوث المارة بطينها ورطوباتها، فتولد أوساخاً فيهم، وعدا ذلك فإن غالب القرب فيها ثقوب يظهر منها الماء فيبل المارة.

[النقل في بغداد]

إن ضيق الأزقة يمنع من مرور العربات واستعمالها، ولذا نرى أن للمرء عدة حيوانات في بيته تبعاً لما يملك من قدرة، ولا يوجد حصان او كديش للكراء، إلاّ أن حمير الكراء تكون بيضاء جميعها، وأن أصحابها هم الذين يسوقونها، ولا يستعملون عصا او مقرعة وانما يركضون خلفها ويقولون (خي) (دخي)، ومن ثم وبمجرد سماع ذلك فان الحمير تسرع في مشيها. ولما كانت الأزقة خالية من التبليط فلا يسمع لذلك جرس أو أجراس في رقبتها فتنبه الماشي في الطريق، أو أن ينادي أصحابها بلفظ (بالك)[3].

---

(1) في وصف مدام ديلافوا، الذي زارت بغداد في أثناء اقامة المؤلف بها، ما يؤيد كلامه عن الحالة المزرية التي كانت عليها أزقة المدينة. قالت "والأزقة هذه — أبعدك الله عنها– ضيقة معتمة قلما يصل إليها الهواء، وفي وقت الشتاء تنقلب إلى برك ومستنقعات مملوءة بماء الأمطار المتعفن وأوساخ هذه المياه تبقى في آبار غير عميقة هناك بعد أن تنزاح المياه وتتبخر بفعل أشعة الشمس المحرقة، وفي حالة المطر الغزير تمتلئ هذه الآبار وتفيض إلى المجاري المتصلة بها وتملأ أرض الأزقة بالماء والقاذورات بحيث لا يستطيع الرجال أن يسيروا خلالها إلا بمعونة فوانيس يحملونها بأيديهم". رحلة مدام ديلافوا، ترجمة علي البصري، بغداد 1958 ص59.

(2) الجل والآجلة والجلال (بكسر الجيم) الكسوة التي توضع على ظهر الدابة.

(3) اصلها دير بالك، اي اعرني انتباهك.

إن نقل الأثقال والأحمال في بغداد خاص بهذه الحمير، وعدا ذلك فإن الأكراد من أهل راوندوز وكركوك يكونون حمالين[1]. وإن الحمير وكذا الحمالين يوضع على ظهرهم [شيء] أشبه بجل الدابة يمنع تأثير الحمل على الظهر، وإن أحدهم يمسكها من جهة كقرب السقائين، وإذا كان الحمل كبيراً فمن جانبيه، يعتني كل واحد بجانبه، فيمسكونها. وإن أغلب الحمالين لا يضعون ما هو اشبه بالجل، وإنما يستخدمون (كونية)[2] تشبه العباءة فيضعون الأشياء فيها ويربطونها بظهورهم ورؤوسهم. وإن رؤوس هؤلاء الحمالين قوية جداً وتستدعي الحيرة، فانهم ينقلون نحو خمسين أو ستين قية من الأحمال ولا يبالون. وفي رؤوس الحمالين (كلاو)[3]، وفي ظهورهم سترة اعجمية تمتد الى ركبتهم، ويلبسون شيئاً اشبه بالعباءة، ولم يكن لهم حذاء ولا لباس، وبعضاً يمتدون وينامون في رؤوس الأزقة، وان الناظر يستتكره من لون سوقهم[4] لما فيها من منظر مستتكر وقبيح جداً، وكذا السقائون بهذه القيافة. وإن غالب الأهلين لا يلبسون اللباس الداخلي، ولم يكن الامر مقصوراً على الحمالين والسقائين.

فاذا أراد المرء أن يعبر من الشط الى الجانب الآخر [فإنه] يستخدم (القفة) او (الكَوفة)[5]، وهي حوض مدور، ونوع [من] زورق، وهذه القفف أشبه بالسبد (السبت)، او السلة للاثواب، وتتكون من السعف، وتطلى بالقير او الاسفلت، وليس لها رأس، وانما هي مدورة، وان القوّافين[6] يستخدمون الغرّافة[7] الى اي طرف أرادوا أن يسيروا بها. وإن الأهلين يستخدمونها [في] مقام الزورق والبلم[8] عدا المراكب البخارية [و] الكلكات[9].

---

(1) الاصح ان اكثر الحمالين الاشداء في بغداد كانوا من الكرد الفيلية.

(2) الكونية: الشوال.

(3) كلاو: غطاء للرأس من قماش أو الصوف الناعم أو القطن قسطرز عادة بأشكال هندسية وألوان مختلفة. ليث رؤوف: المعجم ص372.

(4) يريد: سيقانهم.

(5) الكاف فارسية، على وزن (درة)، وسيلة نقل نهرية وجدت في العراق القديم وقد وصفها هيرودت على نحو يطابق ما يصفه المؤلف، باستثناء أنها كانت تغطى بجلود الحيوان، لا تطلى بالقير. كما وجدت صورها في الآثار الآشورية المكتشفى في نينوى في حدود 800 قبل الميلاد. ينظر رحلة مدام ديلافوا، ص54-55.

(6) القواف هو مدبر القفة والعامل عليها.

(7) الغرافة ما يغرف به الماء، فهي ضرب من المجاذيف.

(8) البلم: ضرب من الزوارق الخفيفة.

(9) جمع كلك، وهو الرمث، احدى وسائل النقل النهري القديمة والشهيرة في العراق.

وبين بغداد من جانب الكرخ وبين [قصبة] حضرة الامام موسى الكاظم نحو ستة كيلو مترات من المسافة. وهناك خط الترامواي بين قصبة الكاظمية والكرخ، وهذا شيد قبل نحو خمسة وعشرين سنة [إذ] تأسست شركة مساهمة[1]، و[إلى] الآن يشتغل هذا الخط[2]، وان الزوار من الإيرانيين في مواسم الزيارة ينتفعون منه.

[دكاكين وموازين]

وان الدكاكين القديمة في بغداد أعلى من الارض بكثير، وإن كل دكان أمامه دكة، وهناك سلسلة في رأسها حلقة يستعين بها صاحب الدكان لصعوده ونزوله كالبقال وغيره، والباعة يمدحون سلعتهم بغزل وغناء يجذبون به المشتري. [و] في ديار بكر (الوقية) او (الكيلو) تعادل خمسمائة درهم، وفي حصن كيفا ستمائة واربعون درهم، هكذا رأينا، وكلما صرنا الى الجنوب يزيد مقدار الوقية، ففي بغداد (الوقية) ألف درهم وتسمى (قية)، وربعها يقال له ربع وقية، وإن القية ذات الأربعمائة درهم يقال لها (قية) استنبول، فإن الأوزان والأكيال في بغداد متنوعة، وأن هذه تتنوع بنوع المال وجنسه، وتتخالف في نوعها، وكذلك النقود، فكل عشرة متاليك (قرش) اي (غروش)، وعشرين متليك (قمري)، واربعون بارة (اربعة قروش). وإن الوارد جديداً في المدينة من المسافرين لايعرفون ان كل عشر بارات (غرش)، ولأول وهلة يرى الأشياء غالية جداً حتى أن خدامنا استغلوا هذا الغلط فضاعفوا مصرف الطبخ، فأخذوا منا أربعة اضعافه.

[شؤون بلدية]

إن حراس المحلات لم يكونوا مستقلين كما في استنبول، وإنما تقوم البلدية ليلاً بتنظيف الأضواء او (السُرُج) في الازقة وإشعالها، فيقموا[3] بذلك صنف من الحراس، وهؤلاء متعددون، وينبه كل واحد منهم الآخر بعد ان يكون بمسافة قريبة منهم فيعرف انه نائم أو يقضان، فينادونه بلفظ يا لله! ويناديه به.

ان شراء الأشياء القديمة خاص باليهود، فينادون في الطرقات (بَيِّع). وهنا كما في

(1) تأسست هذه الشركة بمساع بذلها والي بغداد مدحت باشا.

(2) استمر هذا المشروع حتى الغي سنة 1941.

(3) كذا في الاصل ولعل الصواب: فيقيمون، او فيقوم.

كل مكان توجد كلاب كثيرة في كثير من الأزقة، وانها تنام في وسط الطريق كأنها ميتة فتمنع المارة من المرور حذراً من أن يُداس عليها . وإن هذه الحيوانات في بغداد حالها رديء جداً وتستحق الرحمة، فانها في الغالب تلهث من العطش وتموت احياناً، بخلاف ما هو معلوم في المحلات العتيقة من استنبول، كما [يوجد] في كل زقاق محل ماء تستفيد منه هذه الحيوانات. وفي بغداد يهاجمون المياه التي تطرح من الناركيلة في القهاوي. وفي بعض الازقة ترش من قبل السقائين وإن الكلاب هناك تستفيد من ماء الرش، ومن ثم تقع بعض المشادة بين كلاب هذه الأزقة وبين الكلاب المحرومة من هذه المياه.

[طائر اللقلق]

يكثر في بغداد [في] ايام الصيف عدد اللقالق، وهذا الطائر يتحول من محله البارد الى الأماكن الحارة، وعند وروده يأتي جماعات من خمسة او عشرة او عشرين، وأن الصغار يصيحون من فم واحد (كع)! ومعناها اسقط الى الارض، ولما يسمع هذا الطائر اصواتهم تختل موازنته فيقع عدة منه الى الارض، وفي الحقيقة هذا من الغراب.

[العقارب]

إن عقرب بغداد لاتختلف عن الزنبور، وانما يتألم منها الملدوغ مدة اربع وعشرين ساعة فيشعر بالم ووجع شديدين، لكنه ليس بالمُهلك.

[التبغ]

ان التبغ في هذه المملكة الحارة إذا يبس كالبارود لايدخن، ولا يجنى فيحصد وهنا يستعمل نوع من التبغ يقال له (شاغور) او (شاور) يزرع في السليمانية وكركوك، وان الاهلين اكثر ما يدخنون الناركَيلة، كما أن النساء عامة يستعملن الناركَيلة، واذا زارت إحداهن الاخرى او ذهبت الى الحمام او الى المسيرة[1] تحمل معها الناركَيلة، وان الناركَيلة تبيعها النساء من العرب في الأزقة، وهي تعمل من جوز الهند، ويقال لها (غليان) او (غليون).

قضيت اول ليلة في بغداد في دار بهجت بك، وفي اليوم التالي 5 تشرين الاول من يوم الاثنين استأجرت قصراً خالياً لرزوق عبود[2]، وفيه حدائق برتقال ونخل،

---

(1) كذا في الاصل

(2) يغلب على الظن انه من آل عبود، من طائفة الروم الملكيين الحلبيي الأصل، وكانت أسرتهم تعد من سراة أسر النصارى في بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ينظر يعقوب

وهو في جهة الباب الشرقي من بغداد، فاتنقلت اليه، ثم التقيت بوالي الولاية تقي الدين باشا[١]، ومشير الفيلق السادس هداية باشا، ومتصرف المركز ناظم بك،[٢] ورأيت باقي الموظفين. أما تقي الدين باشا فقد كان ذا علم وفضل مع شدة ذكاء وصفاء ضمير مع شيخوخة، وهداية باشا ذو همة فائقة وحمية وغيرة.

[طوب ابو خزامة]

إن الوالي يقيم في قصر النجيبية المار الذكر، ولما مررت في ذهابي اليه بباب المدفعية رأيت مدفعاً من النحاس العتيق (برنج)[٣] مستقراً على دكة بعلو نصف ذراع، وفي اطرافه أمراس، وهذا المدفع كان قد استخدم ايام السلطان مراد الرابع حين فتح بغداد[٤]، فرأيت على الأمراس قد وضعت قطع من القماش بالية، وهذا مما جلب نظري وأدى الى تعجبي، فسألت بعض الأشخاص الذين كانوا بجانبي، فأجابوا: ان الخلق يقدسون هذا المدفع ويأتون لزيارته ويدعون!، حتى أن بعض النساء الذين[٥] ولد لهم اولاد جدد يأتون بهم اليه ويضعون اولادهم في فوهته، ويمررونه بين أطرافه، ويدعون له بطول العمر[٦].

سركيس: مباحث عراقية، ج1، بغداد 1948، ص46-47. وكانت الأرض الشاطئية في محلة السنك، وهي القريبة من الباب الشرقي موئلا لقصور هذه الأسر.

(1) تولى بغداد مرتين، الأولى بصفة (قائممقام) من 13 ربيع الأول 1284 إلى غرة ذي الحجة 1285هـ، والأخرى واليا من 28 محرم 1298 إلى 4 رجب 1304هـ، كتابنا: الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة، بغداد 1991، ص85-86.

(2) والي وان سابقا ناظم باشا.(هامش في الاصل).

(3) خليط من الصفر والنحاس الأصفر.

(4) هو المدفع الضخم الشهير لدى البغداديين باسم طوب ابو خزامة، لوجود خرق في فوهته، وقد حرر عليه تاريخ صنعه وهو سنة 1047هـ، اي قبل دحول السلطان مراد الرابع بغداد فاتحاً سنة 1048 بسنة واحدة، ويبلغ طوله 4 أمتار، و44 سم، وطول فوهته 48 سم، وقد نقل من موضعه ليوضع في مدخل المتحف العسكري (الذي كان يشغل الباب الوسطاني أحد أبواب بغداد العباسية) ثم أعيد إلى وسط ساحة الميدان، قريبا من موقعه السابق، ثم نقل مرة أخرى إلى المتحف العسكري (الذي شغل هذه المرة مبنى حديثا على نهر الخر في الحارثية).. ينظر عبد الحميد عبادة: العقد اللامع، بتحقيقنا، ص143-135، وكاظم الدجيلي في مجلة لغة العرب 3(بغداد 1914) ص406.

(5) الصواب. اللواتي.

(6) كتب الامام محمود شكري الالوسي رسالة في الرد على هذه البدعة الغريبة بعنوان (القول الأنفع في الرد على زيارة المدفع) منها نسخة مخطوطة في مكتبة الاوقاف المركزية ببغداد.

[تجارة الخيول]

ان من يقيم في بغداد مدة يحتاج مطلقاً الى حيوان يركبه، وعلى هذا أردت ان اقتني حصاناً عربياً ومعتبراً، فلم اتمكن، واذا كان هؤلاء الأهلون يجنون[1] اصائل الخيل واشتهروا بها، فلا يوجد الآن ما يصلح لقتنائه، فسألت عن سبب ذلك فكان الجواب:

«ان الخيل الاصيلة والنفيسة قد منع إخراجها وسوقها الى الهند، فقد كان يتاجر فيها جماعة من الأغنياء، فكانوا يضعونها في اسطبلاتهم، ففي كل سنة يشترون من عشيرة شمر مئآت من الخيل ويضعونها في تلك الاسطبلات، وإن من أراد أن يشتري يرجع الى هؤلاء، ويختار منها ما يريد شرائه.

والحاصل أن جانب الكرخ من بغداد فيه سوق جسيم للخيول، ولما مُنعت صار يتعاطى البيع والشراء فيها داخل المملكة، وهذا لا يكفي لإدارتهم، فباعوا ما عندهم وصاروا لا يشترون من شمّر. وهؤلاء ايضاً لم يجدوا لخيولهم أسواقاً ثم يأتوا بها بكثرة. وعلى ما يُروى أن العشائر صاروا لا يجنون سوى الإناث من الخيول، وأما الحُصُن منها فكانت تتلف، أما البدو فإنهم يستفيدون النقع من اناث خيولهم الاصيلة. وأما الخيول الفحول فانهم يبيعونها، فلما لم يتيسر لهم بيعها فيقال انهم لا يتحملون كلفتها فيهلكونها، وهل في هذا المنع نفع يرتجى؟ فالجواب:أنه لا خير في ذلك، فإن بعض الناس يذهبوا بها من طريق البر يشترونها بأبخس الاثمان، وينقلونها من الحدود الايرانية الى المُحمّرة، ويذهبون بها بالبواخر الى الهند، وبهذا ترتب على المملكة ثلاثة انواع من المضار:

1- انه صار العُربان لا يعتنون بأمر الخيل ورعاية جنسها.

2- ظهور الخلل في بيعها وشرائها في جانب الكرخ المشهور بخيوله.

3- حرمان الحكومة من رسومها الكثيرة.

هذا ما أجبتُ به، وقد رأيت عياناً الاسطبلات المعطلة في جانب الكرخ بسبب هذا المنع الذي لا مبرر له، كما فهمت ذلك. ثم أني علمت أن نقل الخيول الى الهند رُفع المنع عنه مع مراعاة بعض القيود والشروط، إلا أن التجار في هذه الخيول قد

---

(1) جنى ثمار ما غرس: قطفه، غنمه.

تفرقت أموالهم في معاملات تجارية أخرى وتركت الاسطبلات، وان عودتها ثانية وإحياء سوقها يحتاج الى وقت.

قطعت أملي من الحصول على حصان، فوجدت حصاناً في عنزة،[1] كان جميلاً إلا انه صغير البنية.

الكاظمية

وفي 7 تشرين الاول يوم عاشر المحرم كان الايرانيون يجرون مأتماً في صحن تربة الامام موسى الكاظم، فلرؤية ذلك ذهبت مع بعض الذوات الى قصبة الكاظمية، وكان مرقد الامام داخل الجامع فيه تربته وجامعه الشريف، وله اربعة من المنائر، وكان الجامع مزيناً، وهو مربع الشكل وواسع جداً ومبلط بالمرمر، وفيه تتجلى الصناعة المعمارية للعرب والعجم، فداخله مزين وخارجه كذلك بنقوش بديعة، وفي جوانبه في اطرافه الاربعة غرف خاصة لاقامة الزوار والخدم وغيرهم.

وان القبة مطلي اعلاها وكذا المنائر بالآجر المغطى بالذهب، وفيها اساطين في جوانب القبة، وعليها (صَجَغات)[٢]، وفي جوانبها مرايا دقيقة مزينة بها[٣]. وعلى شُرَف المنائر صَجَغات مُذَّهبة في اطرافها. قضينا تلك الليلة في الكاظمية وشاهدنا المآتم وقد اشترك فيه العرب من الشيعة والنساء فكانت كثرتهم تبهر ويتعجب المرء منها.

زيارات اخرى

في نفس بغداد من المزارات المشهورة تربة الشيخ عبد القادر الكيلاني[٤]، والشيخ عمر السهروردي[٥] في خارج البلد[1] وداخل السور المنهدم، والشيخ معروف

---

(1) يريد في بعض عشائر عنزة المقيمة ببغداد.

(2) الصجغ عامية بغدادية تعني السقف من الواح الرصاص غالبا.

(3) قطع من المرايا الصافية على اشكال هندسية منتظمة تثبت في دواخل القباب والجدران بواسطة الجص، تسمى (شغل العينة) وهي كلمة مأخوذة من الفارسية (آينده) بمعنى المرآة.

(4) دفن سنة 561هـ في تربة اعدت له في مدرسته في باب الازج، فشيد طلبته وعارفو فضله الى جانبها زاوية ومسجدا، ثم أنشأ عندها السلطان سليمان القانوني سنة 941هـ، 1534م عند دخوله بغداد، جامعا كبيرا عرف بقبته الواسعة، اصبح مقصد كثير من المسلمين على مر القرون.

(5) هو شهاب الدين عمر البكري السهروردي، توفي سنة 632 فدفن في المقيرة الوردة قرب باب الظفرية احد ابواب بغداد العباسية، وشيد محمد بن الرشيد، أحد وزراء الدولة الإيلخانية

الكرخي[٢]، وعدا هؤلاء الامام احمد بن حنبل[٣]، والشيخ شبلي[٤]، والسري السقطي[٥]، والسيد ابو الحسن علي[٦]، وكثير من مراقد مباركة، مثل تربة السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد[٧]. وإن اكثر هذه المزارات زينة وعمارة مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وجامعه الشريف، ويؤمه الهنود وأهل بخارا، ويقدمون [إليه] النقود والهدايا، ويقفون [عليه] الأوقاف والعقارات.

إقبال الدولة

من امراء الهند[٨]، هاجر الى بغداد منذ خمسين سنة، وهو مشهور، فأردت أن اراه وعددته من متفرعات سياحتي. ذهبت الى ملاقاته في داره في الباب الشرقي على

على قبره قبة مخروطية عالية سنة 735هـ، ثم أقيم عنده، في عصر تال، جامع كبير، شهد توسعات عدة، لما يزل قائما. العقد اللامع ص87

(1) الأصح أنه في خارج القسم المأهول من البلد عصر ذاك.

(2) توفي سنة 200 او 201هـ دفن في مقبرة كانت تعرف بباب الدير، فاصبحت مقبرة كبيرة واسعة تعرف بمقبرة معروف. وانشأ الخليفة الناصر بالله العباسي عنده جامعا بمئذنة تحمل تاريخ بنائها سنة 612هـ.

(3) لا نعلم أي قبر يقصد، فالإمام أحمد دفن في مقابر باب حرب (مقبرة الهبنة الداثرة في الشمال الغربي من قصبة الكاظمية)، وقد زال منذ عهد بعيد، ولكن وجد في القرون المتأخرة قبر ينسب إليه في مسجد قديم صغير في الجانب الشرقي من بغداد قريب من ساحة الميدان الحالية، كما تشهد بذلك كتابة أثرية على رخامة، قرأناها، ثم أزيلت عند تعميره الأخير.

(4) هو أبو بكر بن جحدر الشبلي، ولد في سامراء، وصحب الجنيد، وتوفي في سنة 334هـ، وهو اليوم عند مسجد قريب من جامع الإمام أبي حنيفة. العقد اللامع ص50.

(5) هو ابو الحسين السري بن المغلس السقطي، أحد الصوفية الكبار في عصره، تتلمذ على معروف الكرخي، وتوفي سنة 247 ودفن قرب قبر الجنيد البغدادي في المقبرة الشونيزية في الجانب الغربي من بغداد.

(6) الراجح أنه يقصد تربة وجامع السيد سلطان علي في المحلة المنسوبة إليه وهو مطل على دجلة، وهو أبو السيد أحمد الرفاعي، وفد إلى بغداد حيث توفي فدفن فيها وتحول قبره مزارا، وأقيم بقربه جامع كبير ما زال قائماً.

(7) يقصد تربة السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة الناصر لدين الله، الكائنة في القبة المخروطية القريبة من جامع الشيخ معروف الكرخي، وقد نسبت في القرون المتأخرة إلى السيدة زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد.

(8) هو (السير) اقبال الدولة بن النواب شمس الدين حيدر ابن سعادة علي خان، أحد نواب الهند في بغداد وأول من أقام منهم فيها، اشترى عقارات في راس القرية، وشيد في أرضها داراً

ساحل دجلة، وبرفقتي ناظم بك متصرف المركز، وحسن رضا الدفتري، فرأيته شيخاً تجاوز السبعين من عمره، وهو مع ذلك قوي الفكرة، لطيف الصحبة، وحسن اللطائف. ولا تقدر ثروته بحد، وإن في مخزنه صناديق مملوءة بالنقود والمجوهرات، وعدا ذلك فان له في انكلترا خمسة وعشرون مليون ليرة، ومشهور بالبخل وامساك اليد بصورة لا يستطاع تعريفها، لم يصرف مدة بقائه في بغداد من الخيرات والحسنات ما يستحق ان يذكر به[1]، الا انه لم يُقصر في البذل [على] الدعاوي[2] التي يقيمها، ولا الهدايا التي يعطيها، فانها لم تمنع بخله. في حين انه يصرف الثلاثمئة والخمسمئة ليرة بلا حساب، وفي بيته جوار كثيرة لا تخرج واحدة منها الى الطريق، ولا تتصل بنساء الآخرين اياً كانوا، وبعد مدة وأنا لا أزال في بغداد توفي بلا وارث، فوضع القنصل البريطاني يده على تركته باعتباره من تبعة هذه الدولة.

بغداد أطرافها وبعض ملحقاتها

في السابع عشر من تشرين الثاني سنة 1301 رومية ذهب الى كربلاء، ووصف المسيب وكربلاء والرزازة وشثاثة، ثم عاد الى طاق كسرى وبابل والكفل والكوفة، ثم النجف، وذكر الزراعة والتجارة والصناعة في بغداد.

كبيرة واسعة المساحة وشغلت دائرة الكهرباء الوطنية اليوم شطراً من أرضها، وداراً كبيرة في الكرخ، قريبة من اعدادية الكرخ للبنات. عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ج8 ص254.

(1) ومع ذلك ذكر له التاريخ أنه كان أحد المتبرعين لانشاء اول مدرسة للصنائع على عهد مدحت باشا. المصدر نفسه ج8 ص179.

(2) يريد الدعوات إلى الولائم التي كان يقيمها.

من الموصل الزاهرة إلى ديار بكر العامرة

من العلماء العراقيين الذين تركوا لنا وصفاً ممتعاً لبعض ما قاموا به من أسفار، السيد حسن حسني الموصلي، قاضي الموصل في تضاعيف القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، وصاحب التآليف المتنوعة، ومنها كتابه المخطوط الذي دون فيه أخبار رحلته إلى ديار بكر، وهي الرحلة التي اتخذناها موضوعا لبحثنا هذا.

سيرته

هو السيد حسن حسني القاضي بن السيد محمد بن إسماعيل بن محمد بن درويش بن عبد الله الفخري الأعرجي الموصلي.

ولد في الموصل سنة 1247هـ/1831م في أسرة عريقة[1]، شريفة النسب، تولت نقابة الأشراف في الموصل نحواً من تسعة قرون، وساعدت هذه البيئة التي جمعت بين العلم وشرافة النسب على تنشئته نشأة علمية رفيعة، حتى أنه لم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى لفت نبوغه في الأدب والتأليف والتدريس أنظار معاصريه وأثار اهتمامهم، وليس أدل على ذلك على ما ذكره العلامة السيد محمود أبي الثناء الآلوسي مفتي بغداد وعالمها وأديبها حين نزل الموصل سنة 1267هـ/1850م في طريق رحلته إلى استانبول، والتقى بالمترجم هناك، إذ قال «وأعجبني فتى ذو فطنة وقادة، يدعى (حسن أفندي قاضي زاده)، ولقد رأيته أحد الأفاضل الأكياس، الذين لهم من نقود الأدب دون الذهب أكياس، قد حلَّ من رتب المعارف المحل الأسمى، ودل عرفانه على أن الاسم عين المسمى، وهو من سادة لاشك في صحَّة نَسبَهم، وقادة لا شُبهَة لأحد في سمو مرتبتهم، بهم يفخر الفخر، وبنورهم يكتحل طَرف الفجر، قد عَرَّجوا إلى سماء انحط عنها زُحَل، وتبوأوا مقاعد صدق ما نال غيرهم من تبوأها.. ودأب هذا الفتى من بينهم التأليف والتدريس والإستغناء بحُمَيّاهما عن حُمَيّا منادمة الجليس، ولا

---

(1) آل القاضي فرع من أسرة نقباء الموصل العلويين أبناء النقيب الزاهد محمد أبي البركات الأعرجي الحسيني الذي استوطن الموصل وعين نقيباً لأشرافها سنة 431هـ/1039م وبقيت نقابة العلويين تتقل بين أولاده وأحفاده أكثر من تسعة قرون، وهم اليوم في الموصل: آل المفتي وآل الفخري وآل العبيدي وآل النقيب وآل الحافظ وآل العريبي. حازم المفتي: نقباء الموصل العلويون (مطبوع على الاستنسل). وقد فصل السيد وليد النقيب في تاريخ هذه الدوحة وتفرعاتها وترجم لأعلامها في كتابه (نقباء الموصل غصن الإباء) في خمسة مجلدات كبار، بغداد 2012.

يزال يمد إلى اكتساب الفضل ذراعاً، ويطول كل يوم على من يروم مطاولته باعاً، ويلوح من أسارير جبين فضله إنه سيكون رأس قومه وأهله، وأنه ستنتهي إليه رئاسة العلماء، ويتقوَّم به أود الطلبة في الموصل الحدباء»[1].

وكان تفاؤل السيد الآلوسي بمستقبل جليسه السيد حسن حسني في موضعه تماماً، إذ سرعان ما ذاع خبر نبوغه وعلمه، فقُلِّد المناصب الشرعية، وتنقل قاضياً بين الموصل وديار بكر والسليمانية والمدينة المنورة والشام. ثم عُهد إليه بمنصب (مفتش الأوقاف الهمايونية) في استانبول، ونال درجة (قاضي العسكر)، وأنعم عليه السلطان العثماني برتبة (صدور عظام) وهي لا تمنح إلا لكبار العلماء في الدولة، ورشح لمنصب (شيخ الإسلام)، وهو في السبعين من عمره، إلا أنه توفي قبل نيله هذا المنصب الرفيع، وذلك سنة 1317هـ/1899م فدفن في استانبول رحمه الله تعالى[2].

وأثنى عليه السيد عبد الرزاق البيطار في ترجمته إذ قال «عالم الأوان ومُصنِّفه، ومُقرِّط البيان ومشنِّفه، بتآليف كأنها الخرائد، وتصانيف أبهى من القلائد، حلّى بها من الزمان جيداً عاطلاً، وأرسل بها غمام الإحسان هاطلاً، ووضعها في فنون مختلفة وأنواع، وأقطعها ما شاء من إتقان وإبداع، واستوى من الأدب على عُلاه، وخاض لججه حتى وصل إلى منتهاه، فلا غرو أنه قطب مدار العلوم، وفلك إشراق المنطوق والمفهوم».

آثاره:

من مؤلفاته التي وصلتنا، أو وصلنا خبرها، ما يأتي:

1- تنوير البرهان في علم المنطق، وهو شرح كتاب (البرهان في علم الميزان) تأليف أبي الفتح إسماعيل بن مصطفى الكلنبوي الرومي الحنفي (المتوفى سنة 1205هـ/1790م)، فرغ من شرحه والتعليق عليه سنة 1295هـ/1878م، وذلك استجابة لبعض طلبته وزملائه، وقد أهداه إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وطبع في مطبعة الشركة المرتبية لأرتين أصادوريان سنة 1317هـ، مذيلاً بتقاريض عدد من العلماء العراقيين آنذاك، معظمهم من الموصليين، هم:

---

(1) غرائب الإغتراب، بغداد 1327، ص63.

(2) سليمان الصائغ: تاريخ الموصل ج2 ص269- 270 وحازم المفتي: نقباء الموصل العلويون، مطبوع على الإستنسل.

- عبد الله أفندي العمري
- الحاج يونس أفندي المكنى بكمال الدين مفتي الموصل
- شيخ الطريقة القادرية في الموصل السيد محمد أفندي الشهير بالقادري
- صالح أفندي الموصلي الشهير بدباغ زاده، رئيس التجارة في الموصل الحدباء
- مفتي الشام محمود أفندي الشهير بحمزاوي زاده
- سليم أفندي الدمشقي الشهير بعطار زاده
- محمد أفندي شعار زاده الموصلي

ويقع الكتاب المهم في 278 صفحة من القطع الكبير، مع 10 صفحات للتقاريض.

2- شرح الرائية في الحضرة الطائية. لم بطبع.

3- فتح الرحمن في تفسير القرآن. في مجلدين، وصل فيه إلى تفسير سورة الأنعام، أظهر فيه علماً غزيراً، واطلاعاً واسعاً، وقد قرَّضه كبار علماء زمانه، منهم الشيخ عبد الرزاق البيطار، ووصفه بقوله «إنه التفسير الوحيد [الذي] يحق له أن يكون من منظوم التفاسير بيت القصيد». لم يطبع[1].

4- ديوان شعر. لم يطبع[2].

5- من الموصل الزاهرة إلى ديار بكر العامرة. في وصف رحلته إلى ديار بكر. وهو موضوع بحثنا هذا.

شعره:

أشاد المطران سليمان الصائغ[3] بشعره في الترجمة الموجزة التي أوردها له، فقال «كان له يد طولي في النظم»[4]، ولكنه ذكر بأنه لم يعثر على شيء من شعره. وقد عثرنا على نماذج منه أوردها الشيخ عبد الرزاق البيطار[5]، كما وردت نماذج منه في آخر كتاب رحلته الذي نعرف به الآن.

---

(1) حلية البشر ص527

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ الموصل ج2 ص269- 270

(4) المصدر نفسه ج2 ص270

(5) حلية البشر ص527

فمن شعره يمدح القسطنطينية:

قلوص تخب البيد من أرض موصل — إلى موصل الآمال نبغي هجوعها
وتسكن إن وافت بروجاً ترفعت — بإبصار قصر شاد سمكاً تروعها
فيحلو بها مر الفيافي لراكب — وثيق بمهطال يروي ربوعها
وتذهله النعماء عن حب موطن — تصورها يهدي إليه بديعها
بقسطنطينية الدنيا وسرة أرضها — يضيء لها قصد السرى ولموعها

وقوله في الشيب

وقائلة: هل علاك الشيب من كبر — أم من هموم توالت مالها طب
أجبتها من بني الأوغاد ما حملت — أكبادنا من كلام أسرع شيب

وقوله في الحكمة[1]

دع الحوادث تجري كيفما قدرت — ولا تباين محروماً من الوسن
ولا تنم طاوياً منها على أمل — فالحال باق على ما مر من زمن
ما دام تسمو لئام الطبع في رتب — ولا تمايز بين القبح والحسن

المخطوطة

تقع مخطوطة الرحلة في 63 ورقة، متوسطة المساحة، في كل ورقة منها 14- 15 سطرا، مكتوبة بخط المؤلف نفسه، وهو خط نسخ معتاد.

وأول المخطوط «لما لعبت بمجمتع محكم شملي، وفرقته يد حوادث الدهر الخوان، وحالت المنية دون المنية..».

وآخره «فليكن هذا آخر ما أردناه فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما وقع لنا فيها من نقص أو زيادة أو زلل، ويجعلها من نافع العمل، ويعصمنا من الخطأ في أقوالنا وأفعالنا، ومن شوائب الخلل».

وفي آخر المخطوط جملة من تقريضات لبعض علماء الموصل وأدبائها، تشمل الأوراق 64- 68. هي على الترتيب/

---

(1) مخطوطة الرحلة.

- عبد الله العمري الموصلي في 17 صفر سنة 1286هـ.
- السيد مصطفى كامل القاضي بالموصل.
- السيد محمد نوري الموصلي خادم الطريقة العلية القادرية.
- محمد شاكر الآمدي.
- داود النقشبندي الخالدي وختمه المؤرخ في سنة 1255.
- مصطفى وفي جميل زاده.

يلي ذلك منتخبات شعرية بخط المؤلف، تشغل الأوراق 69-71، وقصيدة لـ (السيد شهاب) أرسل بها إلى المؤلف بمناسبة توليه نيابة لواء السليمانية. مطلعها:

إن الهُمام الذي كُنّا نلوذُ به ... إذا أحاطت بنا الأرزاءُ والمحن

وافى وأقبلَ والإقبالُ يَقدمُه ... في يوم يمن به قد سالم الزمن

فخريُ أصلِ به قطر العراق حوى ... فخراً به حسدته الشام واليمن

وكانت هذه النسخة الفريدة محفوظة في خزانة الأستاذ المحامي حازم[1] بن فؤاد المفتي – رحمه الله تعالى- في داره في شارع طه ببغداد، وقد أطلعني عليها سنة 1978مشكوراً بناء على طلبي، لإعداد هذا البحث. ولا أدري مصيرها الآن.

الرحلة

ليس في الرحلة ما يحدد وقت القيام بها، لكننا نرى أنها حدثت قبل عام 1286هـ/1869م، بدليل أن ثمة تقريضاً في آخر مخطوطتها، كتبه عبد الله العمري الموصلي، أحد معاصري المؤلف، تاريخه 17 صفر سنة 68 (أي 1286هـ). وقد ذكر المؤلف أثناء سفره إلى ديار بكر أنه مرَّ في طريقه بموكب نامق باشا، ونامق باشا هذا من الولاة العثمانيين الذين تكرر شغلهم منصب ولاية بغداد غير مرة، إذ تولاها سنة 1286هـ/1851م وعزل عنها في السنة نفسها، ثم تولاها سنة 1278هـ/1861م حتى عزله سنة 1284هـ/1867م، فيكون المؤلف قد قام برحلته هذه في أحد هذه التواريخ، ولعل ذلك في آخرها، حين كان الوالي المذكور يغادر أرض العراق في طريقه إلى القسطنطينية.

---

(1) توفي في 1 أيلول سنة 1985م.

ويفهم مما أورده المؤلف في صدر كتاب رحلته أنه غادر الموصل إلى ديار بكر على إثر تكليفه بشغل وظيفة نائب القاضي هناك، ويبدو أن تكليفه هذا جاء موافقاً لحالته النفسية الصعبة، حيث كان يمر بأزمة حادة إثر وفاة أخ له. كما أن حياته في الموصل لم تكن تخلو من منغصات بعض الخصوم والحاسدين، وهو ما كان يزيد من آلامه واكتئابه ويقوي رغبته في مغادرتها.

وصف المؤلف شروعه في رحلته فذكر أنه ترك أهله وعياله وولده، ولم يصطحب معه إلا قلة من خلصائه، يقول «فشددتُ حزام العزم ممتطياً متن فرسي، مستصحباً بعض إخواني وخدامي، وجعلت الرضاء بالقضاء مطيتي والتوكل على ربي إمامي».

وبعد أن عبروا دجلة على بعض السفن، أخذوا يحثون السير حتى وصلوا إلى قرية تَلكيف[1]، إحدى أكبر القرى في سهل الموصل الشرقي، فقال يصف هذه البلدة عند نزوله بها «فبينما نحن سائرون، ونحث بالمسير الخيل مُجدّين، إذ ظللتنا سحابة كادت تُغرقني بها طلُ وبَلها مع الأصحاب، فجعلنا المنزل، ولم تكن النية ذلك، قرية تلكيف، وأنَخنا بها الركاب. وهي أعظم قرية في الموصل، محكمة عالية البنيان، تنوف على ألف بيت[2]، وأهلها نصارى وغالبهم كلدان، هواؤها لطيف بالغاية، وماؤها بدرجة النهاية، وهي من الأوقاف الراجعة إلى الحضرة الجرجيسية[3]، وليس لأهلها من الزراعة إلا الحبوبات الدَيمية، لعدم وجود ماء يجري فيها من نهر وعَين، بل قلة مائها هو من عَيبها المزري بها الشين، وإلا لكانت لقلادة قرى الموصل بمنزلة العَين، وأبنيتها من الجص والمرمر والحجارة نظير بلدتنا الموصل، وشبهُها شكلا وإدارة. نزلنا عند كبيرهم وهو مختار القرية منصور،

---

(1) بلدة قديمة عامرة في شمال الموصل، أهلها من النصارى الكلدان، وهي مركز ناحية باسمها، ويذهب باحثون إلى أن معنى اسمها (تل الحجارة) لوقوعها عند تل أثري جوانبه مرصوفة بحجارة ضخمة، ربما كان من حصون الآشوريين. كوركيس عواد: قرى شرق الموصل، مجلة سومر العدد 15 السنة 1961.

(2) يشير المنشي البغدادي، وكان قد زار تلكيف في مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (19م)، إلى أن بيوتها كانت تبلغ ثلاثة آلاف بيت من النصارى. رحلة المنشي البغدادي، ترجمها عن الفارسية عباس العزاوي، ص80.

(3) أي أنها كانت وقفاً على جامع النبي جرجيس، أحد أقدم جوامع الموصل وأشهرها. ينظر كتابنا: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، النجف 1975، ص75.

فرحب بنا وسُرَّ غاية السرور، وأكرمنا إكراماً ما فيه من قُصور، غير أني بتُ فيها- لأنها أول ليلة في الغُربة- بليلة أرِق، وقلب خفِق، كقلب الفطيم قلِق، والليلة بأنواع المزن والغيوم مظلمة، ولمع بروقها يكاد أن يشق القلب ويكلمه»



تلكيف

ثم انطلقوا مع صباح اليوم التالي مُجدِّين السَّير وسط أراض موحلة كالأنهار، وطرق وعرة، حتى وصلوا بعد عشر ساعات إلى قرية (سُمّيل)[1]، ومنها قصدوا قصبة زاخو، حيث وصلوها قريب المغرب. ونزلوا في بيت الآغا شَمدين[2]، وكان هذا من كِرام أعيانها ووجهائها، وبعد أن قضوا الليل في ضيافته توجهوا في صباح اليوم التالي لإكمال طريق رحلتهم، مُودَّعين من قبل مفتي البلدة وجماعة من أهلها، إلى «ما وراء الكُبري[3] عند الفصيل».

وكان سَيرُهم بعد تلك الرحلة محفوفاً بالمخاطر والمتاعب، حيث كان عليهم عبور النهرين المسمى أحدهما بالهيزل والآخر بالخابور، ولما لم تكن فيه سفينة لعبورهم لارتفاع مناسيب مياههما في فصل الربيع، اضطروا إلى خوضهما أو

(1) قرية قديمة نشأت عند تل أثري، ذكرها ياقوت الحموي باسم (سمويل)، تبعد عن مدينة دهوك بنحو 16 كم، وهي اليوم بلدة كبيرة نامية، وتعد مركز قضاء باسمها.

(2) هو جد الأسرة المعروفة بآل شمدين آغا في زاخو، وقد نال ابنه يوسف رتبة (باشا) وخلفه في أسرته حازم بك الذي شغل عدة مناصب في الحكومة العراقية، فصار نائبا ثم عيناً ثم وزيراً، وتوفي سنة 1954.

(3) الكُبري تركية بمعنى الجسر، يريد به جسر زاخو الحجري الشهير المسمى أيضاً بالجسر العباسي، واليوم يعرف بجسر دلال.

السباحة فيهما. وكان وصولهم إلى قرية (الدَيرونة[1]) في وقت العشاء من ذلك اليوم، فباتوا ليلتهم في بيت كبير القرية، وأهلها من النصارى.



زاخو (صورة قديمة)

وقبل طلوع الشمس من اليوم التالي، ركب القوم خيولهم مُيمِّمين شطر الجزيرة، أي جزيرة ابن عمر، وهي المنزل الخامس من منازل الطريق، ويبعد عن الدَيرونة زهاء إثنتي عشر ساعة، وفي أثناء سيرهم، التقوا صدفة بقائممقام زاخو يقود أتباعه متوجهين إلى قصبة زاخو لاستقبال «رأس العساكر العثمانية الشاهانية نامق باشا،» وقد أُصلح لأجله وعر الطريق «فصار لطيفاً بعابري السبيل». ودعا القائممقام المؤلف وصحبه للنزول في داره عند مرورهم بالجزيرة.

ونظراً لارتفاع مناسيب دجلة آنذاك، وعدم وجود جسر عليه، فقد عبر القوم النهر بواسطة (الظروف) وهي القِرب المنفوخة، وعند نزولهم في القصبة نزلوا في دار القائممقام الكائنة في مكان مرتفع من سراي الحكومة، وبعد ليلة لقي فيها الجميع من كرم الضيافة ما أراحهم وأرضاهم، انطلقوا قاصدين المنزل السادس من منازل الطريق، وهي قرية لم يذكر إسمها في رحلته. ويصف المؤلف هذا الطريق وصفاً ممتعاً، فذكر أنه يسمى (الدَيربون) ، وأن اجتيازه استغرق اثنتي عشر ساعة بسير الخيل، وهو طريق وعر، يصعب السير فيه بسبب غزارة مياه

(1) قرية أخذ اسمها من (دير داوون). وعن العلاقة بينها وبين ديرأبون، التي سيرد ذكرها فيما يأتي، وتقع في النهاية العربية من جبل بيخير، على بعد 6 كم من دجلة، ينظر جان فييه: آشور المسيحية، ترجمة نافع توسا، بغداد 2023، ج2 ص778.

الأمطار، ورخاوة الأرض، وكثرة الحجارة. ولم يكن نزول المؤلف ورفاقه في المنزل المذكور مريحاً بأي حال، ولكنهم اصطروا إلى قضاء الليل هناك اضطرارا.

قال يصف البلدة «بعد أن عبرنا الماء على ظروف، مملوءة من الخوف، لأنه قد زاد وقتئذ وامتلأ فيضاً، ولم يقدروا أن يشدوا عليه نطاق جسره لذلك ورفضوه رفضاً، لكن سلامة العبور بعناية القدير تغني عن محكم الجسور، فنزلنا المنزل المذكور، وهو في محل مرتفع من سراي الحكومة.. والجزيرة المذكورة بلدة وخيمة الهواء، لكنها لكونها تشرب من دجلة وعليها عذبة الماء، وهي على غربتها[1] بموضعها القديم، لكونه قد تلاشى يحتاج إلى عمارة وترميم، وهي هلالية الشكل، وأكثر أبنيتها من الحجارة، وسرايها كبير لكن أكثره خال من العمارة، يسكن فيه القائم مقام ومن معه من العساكر، وهو أثر عظيم من آثار الملوك الإول، يدل على عظيم هممهم وقوتهم في ذلك العمل».



العبور على الرمث (الكلك) في منطقة الجزيرة
(صورة قديمة)

وفي اليوم التالي توجهوا قاصدين المنزل السابع، وهو قرية تبعد عن المنزل السابق بنحو اثنتي عشر ساعة بسير الخيل أيضاً، تدعى (عموط).

ومن عموط توجه الركب إلى ماردين، فمروا في طريقهم بموضع يسمى (العقبة). وحينما وصلوا ماردين نزلوا في خان هناك، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى دار

(1) كذا في الأصل.

بعض أعيان البلدة، حيث التقى المؤلف برجل عالم أديب يدعى الملا مسعود، وهو – كما وصفه– فاضل عالم له نظم ونثر يشهدان له بحسن اطلاعه، وقد قرَّض المؤلف إحدى منظوماته، ونقل شيئاً منها في رحلته.

وبعد قضاء يومين في ماردين، ارتحل الركب إلى ديار بكر، حيث استقبلهم هناك وفدٌ يتقدمه (سلامي أفندي) من كبار موظفي المدينة، وأنزلهم في داره حيث قام بضيافتهم وخدمتهم، وشُغل المؤلف في الأيام الأولى من إقامته باستقبال علماء ديار بكر ووجهائها، وذكر أسماء طائفة منهم، وترجم لبعضهم، منهم المفتي عبد الغني أفتدي، ومحمد أفندي الشهير بعرب زاده، وخوجه عباس، وهو من العلماء الصلحاء، وبهرام مخدوم متصرف شهرزور عمر باشا، وهو من أعضاء مجلس إدارة الولاية، وينتمي إلى بيت عريق في ديار بكر، يدعى (كوراني زاده)، ومنهم أيضاً محمد آغا بن حاجي جرجيس الحامل لرتبة (سَر بوابين الركاب)، رئيس مجلس التجارة في الولاية، وجميل باشا عضو مجلس إدارة الولاية، وسعيد أفندي مكتوبي (كاتب الإنشاء) في الولاية، ومعاونه عزة بك الدفتردار.

وفي وصف المؤلف لمدينة ديار بكر فوائد متنوعة، فهو يشير إلى واليها السابق ويثني على واليها المعاصر له، وبصف عمرانها متطرقاً إلى الحديث عن أسوارها وموقعها والمواد المستعملة في بنائها، ومورد أهلها، ونبذة عن تاريخها، ومعنى اسمها، وارتباطاتها الإدارية، ومدى اتساعها، وجامعها الكبير وتاريخه، وقبور بعض الصحابة والأولياء المدفونين فيها ومواقعها.

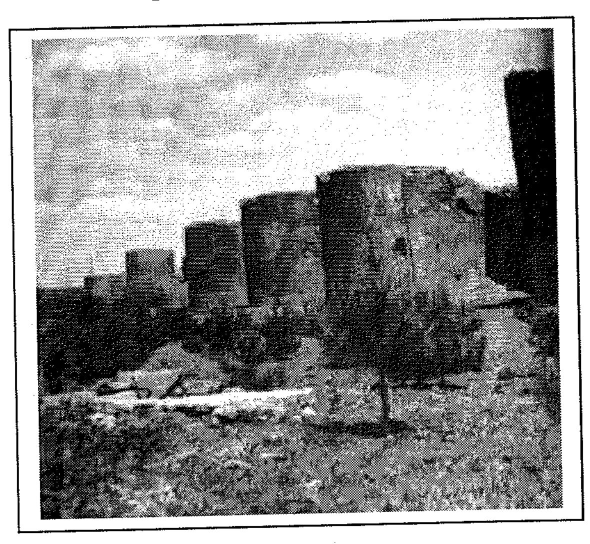
قال يصف مدينة ديار بكر[1] «وأما البلدة فسورها شامخ حصين، وبناؤها محكم بصخور الحجارة متين، والمياه تجري في غالب منازلها وأزقتها، والطيور تغرد على أشجارها، وتشدو بأنواع الألحان على لعتها، وهي حسنة المبنى والموقع، على أكَمَة في محل مرتفع، قد طفح من مياهها الحياض، ودجلة في الجانب الشرقي منها في انخفاض، غير أن الحجر فيها كقلب الغريب أسود[2]، وفيما يشربون من مائها نوع ما

---

(1) هي آمد القديمة (Amida) عند الرومان، وقد عرفت باسم ديار بكر نسبة للإقليم الذي تقع فيه. ينظر ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص140.

(2) كذا هي العبارة في الأصل، وقد اشتهرت آمد أو ديار بكر بحجارتها السود، حتى عرفها الأتراك باسم (قره آمد) أي آمد السوداء.

من ثقل يوجد[1]، وكأنهم رفضوا عذب مائها ولم يشربوه، ورجّحوا ما عندهم من ماء الحموات مع معرفتهم خِفة ذلك وشربوه، لوقوع النهر المذكور من دجلة في خفض، وفي جره ونقله إليهم نَصَب، وفي الرفع تَعَب، أوجبهم إلى الرفض، مع أن نقله على ذي الطبع السليم والعقل المستقيم يكاد يكون بمنزلة الفَرض.



سور آمد (ديار بكر)

وسورها الموجود على ما يقال من بناء الرومانيين[2]، وأهلها اليوم أكثرهم إسلام، وقريب من أن تتصفهم النصارى[3]، على تعدد مذاهبهم وتنوع رؤسائهم، من المطارين والقسيسين، وفيهم بيوت قليلة من اليهود ينقصون عن سبعين[4]، لكنهم كما هو حالهم المنصوص عليه المعلوم منه الذلة والمسكنة، لا يُعدّون، وطبعهم

(1) كذا هي العبارة في الأصل، وقد أشار عدد من السياح والرحالين إلى عذوبة المياه المتدفقة من عيون المدينة. ينظر ليسترنج ص141.

(2) من المرجح أن الإمبراطور قسطنطين هو أول من سورها سنة 349م، ثم جدد سورها وأحكم استحكاماتها الأمبراطور جستنيان . شمس الدين سامي: قاموس الأعلام ص 3023.

(3) نقل هذا من كتاب (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية) تأليف رفاعة رافع الطهطاوي، وقد نقل أبو الثناء الآلوسي هذا النص في (غرائب الإغتراب) ص92 ونص الأصل « وأهلها أربعون ألفاً منهم نحو عشرين ألفاً نصارى».

(4) كان عدد سكان ديار بكر، في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة (19م) نحو (25000 نسمة)، منهم (20000) من المسيحيين، و(850 من الأرمن، والباقون من السريان والكلدان واليهود. سامي: قاموس الأعلام ص2202.

سقيم مذموم، واشتهارها في هذه الأزمان بديار بكر، وفي الحقيقة هو اسم للقطر التي هي فيه، وسببه أنه كان ينزله بكر بن وائل بن قاسط بقومه وتابعيه، وفي التعريبات[1]: ربما سميت إيالت ديار بكر باشوية بغداد[2]، وكانت إيالة الجزيرة وديار بكر، وهي ما بين دجلة والفرات، تسمى عند اليونانيين[3] ميسوبوتاميا، والآن من فضل المولى المنان ضمَّ إليها السلطان، أعني سلطاننا الموفق عبد العزيز[4]، لما صدرت إرادته بجعلها ولاية معمورة العزيز، وسماعا مع المعمورة المذكورة ومتعلقاً بها ولاية ديار بكر[5]، وهي من نهاية المعمورة إلى حدود الموصل طولاً من ذلك القطر، وجعل عليها ذا الدرجة[6] درويش باشا».

وبعد أن أثنى على الوالي المذكور الثناء الجميل، قال واصفاً المدينة «وأما جوامعها فمحكمة عامرة، وبالجماعات مُنغصَّة[7]، وبتسبيحهم نائرة، منائرها تسر الناظرين من بعيد، وتأخذ لحسنها لنظر القريب والبعيد، ومن أكبرها وأجملها للشعار جامعها الكبير الشبيه بالجامع النوري[8]، وياله [من] جامع شهير، وهو حافل بالمصلين، وللجماعة في الأوقات الخمس يكاد قبل أن يُرى تعشقه أذن السامع، فيه سرٌ يحس الداخل فيه من تفريج ونشاط وخشوع لمصليه، منارته

---

(1) يقصد كتاب (التعريبات الشافية) للطهطاوي وقد تقدم.

(2) كانت ولاية بغداد تشمل في العصر العثماني، لا سيما منذ منتصف القرن الثاني عشر (18م) ماردين ونصيبين، أما ديار بكر فلم يؤثر أنها ضمت لإدارة ولاية بغداد.

(3) في الأصل (البوتيين) وما أثبتناه من (التعريبات الشافية) الذي ينقل منه.

(4) حكم من 1277 إلى 1293هـ/ 1861- 1876م.

(5) كانت ديار بكر تتألف من ثلاثة سناجق هي ديار بكر نفسها، وماردين، وأرغني، في حين كانت معمورة العزيز تتألف من ثلاثة سناجق هي خربوت، وملاطية، ودرسيم، وقد ربطت الولايتان ببعضهما في عهد السلطان عبد العزيز.

(6) كأنه أراد: ذا الدرجة الرفيعة أو نحو ذاك.

(7) يريد: غاصة.

(8) أشهر جوامع الموصل، أنشأه نور الدين زنكى في المدة من 566 إلى 568هـ، وشيد فيه مئذنة عالية اشتهرت بالحدباء لانحناء فيها نحو الشرق، ما تزال قائمة، وأضاف إليه مدرسة، ووقف عليه أوقافا، منها قرية العقر وقسيارية عند الجامع وأرض خيرات الخمس في الموصل، حدده ووسعه والى الموصل الحاج حسين باشا الجليلى سنة 1146هـ. وأضيفت إليه سنة 1963 أربع مآذن صغيرة في أركانه الأربعة، ينظر سعيد الديوه جى: جوامع الموصل في مختلف العصور، بغداد 1963، ص3.

لحسن هيئتها شاسعة جداً، وقد بلغت من الحسن والإحكام حداً، وبانيه – جزاه ربُّه- أحكم في وقته بنيانه وأرصَن، وأسس قواعده وشيَّد قواعده وأتقن، وصحنُ حوشه في السعة من جانب مفروش بالحجارة، محاطاً بعالي الأبنية من كل جانب، فيه بركة تتدفق بزلال الماء كبيرة، أما حوضه فحفيرة عمقه تزيد على ذراعين، وماؤه يجري لصفائه كاللجين، وسطوحه مطلية بالرصاص، عالية مشيدة، وموقعها معجبة للنواظر قريبة كانت أو بعيدة. ويُنقل متواتراً طبق ما ذكر بعض المؤرخين، إنه كان قبل الفتح كنيسة[1]، وبدلت هيئته بعده بالجامع، عناية من الناصر المعين، ويا له من أثر باق مدى الأزمان . وفاتحها- على الأصح- هو أبو عبيدة، رضي الله عنه[2] وعمَّن تبعه، وفيها قبور كثير من الصحابة ممن تبعه وأتى معه، ومنهم الذين لم يألوا جهداً في خدمة من وجب بالنص له بالسمع والطاعة[3]، ومرقده في جوار الجامع الواقع في رأس السوق[4]، تزوره الخاصة والعامة ويتبركون به ويقصده من فج مشوق، .. ومنهم سليمان بن خالد، رضي الله عنه[5] وعن أبيه، ومرقده- رضي الله عنه- متصل بسراي الحكومة عند الجامع الشهير بجامع سليمان. وفي الجامع الكبير المذكور، مدرسة عالية لطيفة ريقة سامية، وفيها من الكتب شيء كثير من آلة[6] وحديث وفقه وتفسير، ومدرسها الذي مر ذكره الخواجة

(1) هذا هو الجامع الكبير في ديار بكر، ويعد من أقدم المساجد في الأناضول، كان أصله معبداً رومانياً، ثم تحول إلى كنيسة، ثم أقام المسلمون بعد فتحهم المدينة في جزء من هذه الكنيسة مسجداً صغيراً، وفي سنة 483هـ/ 1091 أمر السلطان ملكشاه السلجوقي بإعادة بنائه ليكون مسجداً جامعاً، وهو يشبه المسجد الأموي بدمشق، وأعيد بناؤه سنة 510هـ/ 1117م بعد أن أصابه الخراب بسبب الزلزال الذي داهم المدينة سنة 508هـ/ 1115م وما زال عامراً.

(2) الصحيح أن الذي فتحها صلحاً هو الصحابي عياض بن غنم وذلك في أوائل سنة 20 هـ.

(3) يشير المؤلف هنا إلى المقبرة المعروفة بمقبرة الصحابة الكائنة قرب جامع سليمان بن خالد بن الوليد رضي الله عنه في محلة السور، حيث تتفق المأثورات المتواترة على أنها تضم سبعة وعشرين من قبور الصحابة.

(4) هو من القبور المُدّعاة، وقد دفن أبو عبيدة في عمواس، قرب بيت المقدس، على أرجح الروايات، وقيل أن قبره في (فحل) أو في (بيسان) وكلاهما في تواحي الأردن. ينظر: الإصابة ج4 ص13 وأسد الغابة ج3 ص86.

(5) استشهد سليمان بن خالد بن الوليد في أثناء فتح آمد (ديار بكر).

(6) اي الكتب المعروفة بكتب الجادة، وهي المسماة اليوم بالكتب المنهجية.

عرب زاده، وله اعتبار بالتدريس يفوق على أمثاله بالزيادة، وأما غيرها من المدارس فأكثرها عن التدريس أفئدتها في خلاء، ووجود من يشار إليه بالبنان في هذه الأطراف قليل من صف العلماء».

وقد تناول المؤلف، في رحلته، نُبذ من إجاباته على استفسارات لبعض العلماء، ونماذج من الرسائل المتبادلة بينه وبين أصدقاته في الموصل، وفيها ما يوضّح طبيعة العلاقات الأدبية بين مثقفي ذلك العصر وأدبائه، ويبين سعة علم المؤلف وثقافته وحسن ترسله وجمال عبارته، ومن أولئك العلماء: الشيخ محمد القادري النوري، ومحمد أفندي النقشبندي الخالدي، وعبد الحافظ أفندي بصيري زاده، وغيرهم. وفي تلك المراسلات مواعظ وحكم واستطرادات أدبية.

وأسلوب المؤلف في كتابة رحلته هذه أدبي ممتع، فيه من وضوح العبارة وحسن التصوير، ما يستحق التقدير، ولا يخلو أسلوبه، بوجه عام، من عبارات مسجوعة، وأشعار قليلة مختارة.

رحلات فضل الله المحبي الى الديار الرومية والمصرية

هو فضل الله بن مُحب الله بن محمد محب الدين بن أبي بكر تقي الدين أبي الفضل العَلواني الحَمَوي الدمشقي، عالمٌ نابه من أهل القرن الحادي عشر للهجرة، ولد من أسرة مثقفة جمعت بين العلم والأدب، وبين الفقه والشعر، وورثت مع ذلك روح دعابة مُحبَّبة، ورغبة في السفر والسياحة، ووَجاهة بين الناس.

فأما جدُّه، محمد محب الدين، فهو أول من قدم من حماة إلى دمشق، وكان عالماً واسع المعرفة، أتقن علوم التفسير والفقه والنحو والمعاني والفرائض والحساب والمنطق والحكمة والفنون الغريبة، وهي التي تتعلق بمعرفة المُغيَّبات، هذا إلى عذوبة في اللفظ والنثر، ومهارة في فنون الخط، كما ألف كتباً في التفسير والمعاني والبيان، فضلاً عن تسجيله وقائع رحلاته فيما سماه (الرحلة المصرية والرومية والتبريزية)، وإذ نفهم أسباب رحلاته إلى مصر والروم، فإننا لا نعرف سبب رحلته إلى تبريز، عاصمة الصفويين عصر ذاك، إلا أن يكون في صُحبة احدى الحملات العسكرية العثمانية المتوجهة إلى هناك. وعلى أية حال فإنه تولى القضاء في مصر، ثم وليه في حمص وحصن الأكراد ومَعَرَّة النعمان ومعرَّة نسرين وكلس وعزاز، قبل أن يستقر في دمشق سنة 993هـ/1585م، حيث تولى نيابة القضاء، وقضاء العسكر فيها، كما تولى التدريس في عدد من مدارسها الشهيرة، إضافة إلى توليه الإفتاء، وكانت وفاته سنة 1016هـ/1607م[1].

وأما أبوه فكان عالماً عُرف بوجاهته وثروته أيضاً، فهو «صدر الشام في زمنه ومرجع خاصتها وعامتها، وقد أوصله الله تعالى بين علماء دمشق إلى مرتبة لم يصل إليها أحد فيما تقدمه منهم، وأقبلت عليه الدنيا اقبالاً عظيماً، وتوفرت له دواعي المعالي، وملك من الذخائر والتحف ما لا يضبط بالإحصاء، ورُزق [من] الأبناء الكثير»، وكان قد توصل عن طريق ملازمته لشيخ الإسلام يحيى بن زكريا إلى أن يلي قضاء الحج وقضاء العسكر في صحبة الوزير أحمد باشا كوجك في أثناء حملته على الأمير فخر الدين المعني في بلاد الشام، ثم تولى التدريس في بعض مدارس دمشق، وأعطي رتبة القدس، وتولى التدريس في عدد من مدارس دمشق،

---

(1) محمد أمين المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة 1305، ج2 ص122.

وكان مما تولاه من المناصب التصرف بنيابة الشام وقسمتها العسكرية مدة ست عشرة سنة، حتى وفاته بدمشق سنة 1047هـ/1637م[1].

ولد فضل الله في دمشق في 7 محرم من سنة 1031هـ/21 تشرين الثاني 1621م ، في جو مثقف مترف، ووسط أسرة تورثت التقاليد العلمية، والمكانة الاجتماعية، أباً عن جد، فتلقى العلم والأدب على علماء مدينته وأدبائها، ومالت نفسُه إلى الأدب، فقرأ الكثير من الكتب الأدبية بتوجيه من الشيخ أحمد بن شمس الدين الصفوري، حتى «تفتحت له أبواب الشعر»، وصار «حسن المعرفة بفنون الأدب»، وتدرب على فنون الخط صبياً، لا سيما خط التعليق، حتى أثار اعجاب شيوخه، ونظم الشعر وهو شاب غض فلفت نظرهم إلى مواهبه المبكرة، وتعلم اللغتين التركية والفارسية، كشأن أدباء ذلك العصر. وعلى الرغم من ميوله الأدبية فإنه توجه إلى الدرس العلمي، على وفق تقاليد أسرته، فأخذ الفقه على الشيخ عبد اللطيف الجالقي، كما أخذ الحديث عن العلامة نجم الدين الغزي، حتى منحه هذا (إجازة عامة) في العلم سنة 1048هـ/1638م وهو في السابعة عشر من عمره. وكان أبوه قد توفي قبل هذا التاريخ بعام، مما دفعه إلى ملازمة أستاذ أبيه العلامة عبد الرحمن العمادي، يأخذ منه ويتأثر به، حتى «تخرج بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، وراض نفسه على أخذ نمطه في الإنشاء».

ومثلما ورث الفتى عن أسرته الرغبة في العلم، فأنه ورث عنها أيضاً طموحها الدائم إلى المناصب العليا، وصادف أن قصد شيخ الإسلام يحيى بن زكريا مدينة حلب مصاحباً للحملة العسكرية الكبرى التي قادها السلطان مراد الرابع لاسترجاع بغداد من الصفويين سنة 1048هـ/1638م، فما كان منه إلاّ أن سافر إلى هذه المدينة ليلتقي به، ولا ندري ما إذا كان قد نجح في اللقاء به في خلال المدة القصيرة التي أقام فيها الشيخ في حلب، لكننا وجدناه يسعى سنة 1051هـ/1641م إلى القسطنطينية ليكون واحداً من طلبة هذا الشيخ الملازمين له، كما أنه ولي في الوقت نفسه التدريس في مدرسة الأربعين هناك، وامتدت اقامته في العاصمة العثمانية نحو سنة ونصف، إلاّ أن ملازمته لشيخ الإسلام لم تؤد إلى أن يتولى منصباً رفيعاً، على نحو ما جرى لأبيه من قبل، لأنه اضطر إلى مغادرة القسطنطينية والعودة إلى دمشق حيث «أقام مشتغلاً فيها بالتأليف»، فكتب، وهو لم يبلغ العشرين من العمر، شرحاً مطولاً على

---

(1) خلاصة الأثر ج3 ص308.

متن الآجرومية في النحو وكتباً أخرى، وتولى التدريس في المدرسة الدرويشية، التي كان يتولاها أبوه، فضلاً عن دروس كان يلقيها في المدرسة الأمينية .

وفي سنة 1059هـ/1649م غادر دمشق مرة أخرى، إلاّ أنه قصد هذه المرة القاهرة، ليلتقي بقاضيها محمد بن عبد الحليم البُورْسَوي، وهو أحد من تعرف عليهم في أثناء اقامته في القسطنطينية، فما كان من هذا إلاّ أن ولاه نيابة قضاء المحكمة الصالحية «ممتعاً بالتفاته وحظي عنده». وأفاد فضل الله من وجوده في مصر بأن واصل دراسته على أيدي كبار علمائها، وأهمهم العلامة الأديب شهاب الدين الخفاجي[1]، فأخذ يتردد على مجلسه، يأخذ عنه، ويحاوره، وسعى بعض حساده لتكدير صفو صلته بالقاضي البُورءسَوي، بأن أخبروه بأن سبب وجود فضل الله في مجلس الشهاب الخفاجي هو الاساءة إليه وهجوه، ولم تكن صلة الشهاب بالبورسوي حسنة، فما كان من الأخير إلاّ أن «غضّ نظره عنه»، ولم يعد يلتفت إليه، والظاهر أن هذا التوتر نجح في تكدير حياة فضل الله، لأن حياته لم تستقر في القاهرة إلاّ بعد أن عزل البورسوي عن منصبه.

شرع فضل الله في أخذ العلم على كبار علماء الجامع الأزهر، منهم علي الأجهوري شيخ المالكية في عصره في القاهرة، المتوفى سنة 1066هـ/1655م ، وعلي الشبراملسي، المدرس في الجامع الأزهر، المتوفى سنة 1087هـ/1676م، وشهاب الدين محمد بن أحمد الشويري، المفتي بالأزهر، المتوفى سنة 1069هـ/1659م وغيرهم، ولم يمنعه عن مواصلة سيرته العلمية هذه إلاّ اصابته بالمرض، فقرر أن يعود إلى دمشق، بعد معاناة التشوق إلى مرابع طفولته وصباه فيها . والظاهر أن مرضه حال وهو في دمشق من أن يتولى منصباً ما، فانصرف بكُلّيته إلى التأليف، حيث جمع منتخبات من الشعر في مختلف الأغراض التي يحتاجها كتاب الرسائل. ودفعه مرضه الشديد إلى الاهتمام بالطب، فشرع يتدارس كتبه، ويراجع الأطباء، «حتى تمهرَّ في علم الطب جداً». وكان يشجعه على ذلك ما أصابه من الوسواس بسبب المرض المذكور. وذكر ابنه

(1) شهاب الدين محمود بن محمد بن عمر الخفاجي، الأديب المصنف، ولد في القاهرة في نحو سنة 975هـ، وأخذ عن علمائها، ثم رحل غلى الحرمين شابا حيث أخذ عن بعض علمائها، ورحل إلى القسطنطينية فدرس الرياضيات فيها، وقلد القضاء في بلاد الروم ايلي، ثم في سلانيك، وأعطي بعدها قضاء مصر وعزل، فرجع إلى الروم ومر بدمشق، ودخل حلب، ثم نفي منها- لخلاف مع بعض علمائها- إلى مصر، وأعطي قضاء فيها، فاستقر بمصر يؤلف حتى وفاته سنة 1069هـ/1658م. له مؤلفات جمة، منها ريحانة الألبا، وطراز المجالس، وشفاء الغليل. وترجم لنفسه في ريحانة الألبا ص272-309 وينظر خلاصة الأثر ج1 ص332-343

محمد أمين أنه انقطع بسبب وسواسه هذا عن أكل العنب والمشمش مدة سبعة عشر عاماً، وهو ما يبعث إلى الظن بانه كان يعاني من مرض (السّكري)، وربما كان هذا الداء سبب موته فيما بعد.

عاش فضل الله سنوات اقامته بدمشق مشغولاً بمداراة صحته المتعبة، بعيداً عن المناصب العلمية والشرعية، فلما تولي قضاء دمشق الشيخ محمد عزّتي التفت إليه، واقترح أن يعود إلى شغل بعض المناصب القضائية، فكتب إلى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية أبي سعيد أسعد زاده يطلب إليه أن يولي فضل الله القضاء في آمد (ديار بكر)، وكان هذا قد تولى القضاء من قبل في مدينة دمشق، فما كان منه إلاّ أن ولاه ذلك المنصب. والظاهر أن نفسه كانت تطمح إلى ما هو أكبر من ذلك، إذ قرر مطلع سنة 1073هـ/ آب1662م أن يسافر مرة أخرى إلى القسطنطينية، حيث أقام هناك مدة أربع سنوات، وقعت له في أثنائها «ماجريات وأشعار وترسلات»، ولما يئس من تحقيق أمانيه ومل الإقامة أشار إليه بعض أصدقائه أن ينظم قصيدة يعرض فيها طلبه ويرفعها إلى الوزير أحمد باشا، ووجدت القصيدة استجابة من أرسلت إليه، إذ «نالته شفاعة الوزير» فولي قضاء بيروت، وحينذاك غادر القسطنطينية مسرعاً عائداً إلى دمشق، فلبث فيها ثلاثة أشهر، ثم غادرها، مستصحباً ابنه محمد أمين معه إلى مقر عمله الجديد، وبعد مضي سنة وعشرة أشهر، ترك منصبه وعاد إلى دمشق حيث تفرغ لكتابة كتاب ضم تراجم علماء عصره وأدبائه ليكون ذيلاً لكتاب (تراجم الأعيان من أبناء الزمان) للحسن البُوريني، المتوفى سنة 1024هـ- 1615م، وبالغاية والأسلوب نفسه، كما جمع أشعاره في ديوان.

ولم تصبو نفسه بعدها إلى شغل من قضاء وتدريس، أو أنها صَبَت لكنها لم تجد إلاّ إهمالاً من المسؤولين، فضلاً عما كان يعانيه من مرض مُمض. وقد جمع كل هذه الآلام والمُحبِطات في رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه يقول فيها «قد طالت العلة، وطابت العُزلة، فليس في الحركة هذا الآن بَركة، والإنقطاع أربح متاع، والاَجتماع جالبٌ للصداع.. فهو زمان السُكوت، وملازمة البيوت!». وكشف عن ضيق نفسه ويأسه من أصحاب السلطة ومن الناس معاً، بأبيات منها:

لزوم البيت أرْوَحُ في زمان ... عَدمنا فيه فائدة البُروز

فلا السُلطان يرفع من مَحلّي ... ولستُ على الرعيَّة بالعزيز

وكتب إلى طبيب له اسمه منصور الغزواني:

أنا أصبحتُ لا أطيق حراكاً   كيف أصبحتَ أنتَ يا منصور!

وكان مما زاد حالته سوءاً اصابته بوسواس شديد أقضّ مضجعه وزاد من اضطرابه.

وليس أجمل من تقديمه نفسه في رحلته المصرية بهذه العبارات المؤثرة التي تدل على رقة في الطبع، واعتزاز بالوطن، ورغبة بالإطلاع، إذ قال «إني فرع نما في دوحة الشام، وغصن سما بين الأراك والبشام، من فتية ارتدوا أردية المجد، وحازوا قصب السبق في مضمار العُلى عن أبٍ وجد، فمذ زالت عنه قائمه، وتفتحت من أزاهير الشباب كمائمه، لم يزل مغرماً برؤية المدائن والأمصار، وإيداع الأوراق طرائف ثمار الأخبار، مستنشدا غرر الأشعار، من كل قائل، وسائلاً عن أحوال الاقطار كل قافل، وكأني كرة لعبت بها صوالج الأقدار، أو باقة نرجس تقاذفت بها أمواج الأسفار»[1].

وكانت وفاته في نهار الثلاثاء 13 جمادي الآخرة سنة 1082هـ/16 تشرين الأول 1671م، عن عمر ناهز الواحد والخمسين عاماً، وصُلّي عليه في جامع بني أمية، ثم دفن في قبر جده ووالده بمدفن الأسرة قبالة جامع جرّاح[2] بدمشق[3].

وكان من توفيقه أن رُزق بولد صالح، أحسن تربيته وتأديبه، يصطحبه معه في رحلاته، ويوجهه في كل خطواته، فأخذ هذا بمنهجه وزاد، وهو المؤرخ الشهير محمد أمين المُحبّي الذي ذاع صيته من خلال مُؤلّفيَه النافعَين (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، و(نفحة الرَّيحانة ورشحة طلاءِ الحانة) اللذين يُعدّان مرجعاً أصيلاً لتاريخ الحركة الفكرية والاجتماعية في المشرق العربي الحديث.

رحلاته

للمحبي أربع رحلات مهمة سجلها بنفسه، أولاهما إلى حلب، واثنتان منها الى القسطنطينية، والرابعة إلى القاهرة، وهي كالآتي:

---

(1) المخطوط، الورقة 185.

(2) تقع مقبرة الأسرة على عتبات مقبرة باب الصغير في جادة جراح حالياً، ومقابلاً للمدرسة الصابونية، أما مسجد الجراح فقد كان في أصله مسجداً صغيراً، ثم أصبح جامعاً كبيراً في عهد الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل في سنة 631هـ.

(3) اعتمدنا في عرضنا لحياته وتاريخ أسرته على ما كتبه ابنه المؤرخ محمد أمين في خلاصة الأثر ج3 ص275. وقد كتبت الدكتورة ليلي الصباغ دراسة مسهبة عن عصر المحبي، وأسرته، وبيئته، في كتابها (محمد أمين المحبي المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)، دمشق 1986.

1- الرحلة الحلبية. وصف فيها وقائع رحلته إلى حلب سنة 1048هـ/1638م، وكان إذ ذاك في السابعة عشر من عمره.

2- الرحلة الرومية. وصف فيها وقائع رحلته إلى القسطنطينية سنة 1051هـ/ 1641م واقامته فيها ثم عودته منها إلى دمشق.

3- الرحلة المصرية. وصف فيها مدة إقامته في القاهرة سنة 1059هـ

4- الرحلة الرومية الثانية. وعد بها في رحلته الرومية الأولى إذ قال «وتعليق الأمل بالسعي في رحلة أخرى»[1]، وقد وصف فيها وقائع رحلته الأخيرة إلى القسطنطينية سنة 1073هـ/1662م . قال ابنه محمد أمين أنه «وقع له في بلاد الروم ماجريات وأشعار وترسلات أثبت منها كثيراً في رحلته الأخيرة، وهي أحسن آثاره». ولم تصل إلينا هذه الرحلة.

وجميع هذه الرحلات لم يعرف، وقد وقفنا على رحلتين مخطوطتين منها،

1- الرحلة الرومية، وهي الأولى من رحلتيه الى بلاد الروم. وفيها وصف لمراحل الطريق الذي قطعه منذ مغادرته دمشق وحتى وصوله إلى القسطنطينية، وقد سجل المؤلف تاريخ شروعه بالسفر بكلمة (غنا) وهو ما قيمته على وفق حساب الجمل سنة 1051، وحدد ذلك بالأيام فذكر أنه كان في 15 شعبان من ذلك العام، فوافق هذا اليوم التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة 1641م[2]، ولم يكن عمره قد تجاوز آنذاك العشرين عاماً. وقد ذكر سبب تسجيله لوقائع هذه الرحلة فقال«فلم أرَ لي مُشغلاً في هذه البطالة، ولا مُسلياً في كل حالة، سوى التسلي بترويح النفوس، ونقشَ السطور في الطُروس، وتحبير وجوه هذه الصحائف، بذكر بعض الوقائع واللطائف، فكان ذلك باعثاً لي على تحرير هذه الرحلة، وسائقاً إلى هذه الطريقة السهلة، وقد جمعت فيها أسماء الطرقات والمنازل، وذكر ما لاقيته من الأماكن والمناهل، متكلاً في ذلك على فهمي، وقانعاً بحظي[3] وإن قل سَهمي، فإن النفس تهوى أن تضرب في كل فن بسهم ونصيب، ولا عليها أن تخطئ الغرض أو تصيب، سالكاً طريق الإيجاز، في الحقيقة لا المجاز،

---

(1) المخطوط، الورقة 183.

(2) الورقة 129.

(3) في الأصل (بخطي).

وهو تاريخ وقائع، ومجموع أدب جامع، لأن الكتابة قيد العلوم، وحفظ ما أفاده المنطوق والمفهوم، والنظم الرقيق عروس الآداب»[1].

وصف مراحل الطريق من القرى والخانات والمدن التي نزل فيها، وقد بلغت أربعين مرحلة، تبلغ المسافة بين كل مرحلة وأخرى نحو أربعين كيلومترا، وقد تزيد أو تنقص بحسب وعورة الطريق أو وعورته، وجاء وصفه لما مر به من تلك المعالم حياً معبراً عن حالها من العمارة، فقال عن بلدة القصير قرب دمشق أنها «قرية غرّاء، ذات أرض خضراء، واسعة الأرجاء، حسنة الأنحاء،بها نهر عذب الماء، وخان متداعي البناء»[2]، ووصف قرية القطيفة بأنها «ظريفة عالية، بها تكية لطيفة سامية، وخان حسن وجامع ذو بناء مستحسن وحمام ، صحيحة الهواء، وسوق حسن البناء، رحب الفناء»[3] ووصف حماة بقوله «من أحسن البلاد وألطفها وأنزهها وأترفها، ذات قلعة شامخة، عالية باذخة، مليحة الأبراج والأبواب، لكنها الآن مُشرفة على الخراب، وبها جوامع ومساجد ومآثر ومعاهد، حاوية للبهاء والرَّونق، ومنقوشة البناء بالحجر الأبلق، مستدير بها العاصي على غالبها من الشرق والشمال»[4] ووصف خان قلعة المضيق بأنه «خان منازله واسعة، وقبابه شاسعة»[5]، ومثله حديثه عن قرية جسر الشغور، إذ قال أنها «قرية بلا شك ولا مرية، وليس فيها سوى هذا الخان، وهو مهدوم الجدران، وبالي الأطلال والأركان»[6]. ووصف خان كان قد شيده بيرام باشا، الوزير الأعظم، بأنه «خان معد لأبناء السبيل، لطيف البنيان»[7]، ووصف خان بيري باشا «وهو خان قديم، لكن بنيانه غير رميم، فرحم الله تعالى بانيه على بنيانه، فإنه أحكم أساس جدرانه»[8]، وعين تاريخ إنشاء خان محمد باشا، من محطات الطريق، إذ قال «وهو خان وأي خان، محكم المباني، عظيم البنيان، لم يُعمَّر على مثاله، ولا بُني على

---

(1) المخطوط، الورقة 130.
(2) المخطوط الورقة 128.
(3) الورقة 129.
(4) الورقة 134.
(5) الورقة 134.
(6) الورقة نفسها.
(7) الورقة 146
(8) الورقة 138.

منواله، وهو حصين متين، حادث في سنة سبع وعشرين [وألف][1]»، ووصف بلدة أركلي بقوله «هي قصبة صغيرة، وأشجار بساتينها كثيرة، وبها جامع لطيف فريد، وخارجه منارة عالية ذات طول مديد، مفردة ترى من نحو نصف بريد»[2]، وغير ذلك كثير.

وبَهَرته إستانبول بجوامعها ومدارسها الكبيرة والكثيرة، وسجل إعجابه بها بقوله أنها «تعجز عن وصفها الألسُن، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعيُن، لا زالت دار السلام والإيمان، ومُستقر الأمن والأمان»[3]. ووصف ما ضمته من المنشآت، ومنها جامع آيا صوفيه، وجامع السلطان سليم، وجامع السليمانية، وجامع شهزاده، وجامع السلطان أحمد الثالث، ووضح مزاياها، فمما قاله في جامع آيا صوفيه مثلاً أنه «الجامع الكبير المشهور، فهو أعظم معاهدها وأجل مشاهدها، يَحار النظر فيه ويتحيَّر دون تصور قوادمه وخوافيه، ذو أبنية غريبة جميلة، وأعمدة عجيبة جليلة، وقبة مُحيِّرة للعقل في التدوير والتقويس[4]، والتربيع والتدليس، فكم من بناء داخل بناء، وقوس داخل آخر، وكم من إحكام مرتفع وتحريف مصطنع، كأنه بذلك إرَم ذات العماد، وفاخر فلا يحيطه نظر ولا تفكر ولا يحكيه عقل ولا تصور، فلما تأملت قبتها العالية، ورأيت أبنيتها الهائلة، تذكرت قبة النسْر بجامع بني أميَّة، بدمشق المحميَّة»[5]. كما أشار إلى معالم القسطنطينية الأخرى، منها مدرسة المنلا الكوراني[6]، والكاغد

(1) وتقابل سنة 1617م .

(2) الورقة 139.

(3) المخطوط الورقة 150.

(4) في الأصل (والتقديس).

(5) المخطوط 166.

(6) تنسب هذه المدرسة إلى المولى أحمد بن اسماعيل الكوراني الكردي وكان عالماً فقيها مفسرا محدثا بارعاً في العلوم، ولد سنة 813هـ/ 1410م وعاش في مصر، وذاع صيت فضله وعلمه، ثم قصد الدولة العثمانية، فتولى تعليم السلطان محمد قبل توليه السلطنة، ولما تولاها منحه تدريس هذه المدرسة، التي هي في الأصل من انشاء جده السلطان مراد، وقلده منصب الفتوى ومهام أخرى، صنف مؤلفات عدة منها : 1-غاية الأماني في تفسير السبع المثاني وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم 2- الكوثر الجاري في رياض البخاري وهو كتاب لطيف أجاد فيه شرح أحاديث البخاري في عدة مجلدات 3- الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع وهو كتاب للسبكي في الأصول 4- شرح الكافية لأبن الحاجب في النحو 5- الشافية في علم العروض والقافية وقد أهدى كتابه الشعري هذا المتضمن ستمائة بيت للسلطان محمد

خانه (معمل الورق)، وروميلي حصار، ومدرسة السكبانية، ومدرسة القلندرخانه، وغير ذلك من المعالم. وتحدث عن مراسم المولد النبوي فيها تفصيلاً، وتطرق إلى من التقى بهم من العلماء الكبار، ومنهم شيوخ الإسلام، ومفتون، وقضاة، ومدرسون. وعاد إلى دمشق، ماراً بحلب ثم حمص، واصفاً كلا منهما على عادته. ووصل دمشق في سنة 1052هـ/1642م، وذكر هو أنه فرغ من تحرير رحلته في مستهل جمادى الأولى من تلك السنة[1].

اعتمد المؤلف في كتابه على مشاهداته العيانية لما مر به من معالم، لكننا وجدناه في بعض المواضع يقتبس عبارات في وصف بعض المراحل من كتاب بدر الدين محمد بن رضي الدين الغزي الدمشقي (المتوفى سنة 984هـ/1577م) المعنون (المطالع البدرية في المنازل الرومية)[2]، وهو كتاب يقترب منه موضوعاً وأسلوباً.

2- الرحلة المصرية. وصف فيها وقائع رحلته إلى مصر وإقامته في القاهرة، وذكر أنه دخل القاهرة في 16 رمضان، ولم يُعيِّن سنة ذلك، لكن ابنه محمد أمين عيَّن حدوثها في سنة 1059هـ/23 أيلول 1649م، وذكر هو أنه قام بها اقتداءً بجده فضل الله الحموي الدمشقي، حين قصدها ملازماً للعلامة الشيخ محمد الشهير بجوي زاده، وصرح أن «العلة الغائية والفاعلية» لرحلته هي طلب تعيينه في بعض المناصب الشرعية، لما تناهى إلى علمه من تعيين محمد بن عبد الحليم البورسوي قاضياً لقضاتها، وكان هذا زميلاً له في التلمذة على شيخ الإسلام يحيى بن زكريا حينما أقام بالقسطنطينية قبل ثماني سنوات، فكان يرجو أن يكون ما بينهما «من الحقوق القديمة» سبباً في تحقيق مطلبه، وقد حقق له القاضي طلبه بأن عينه نائباً له في بعض محاكم القاهرة.

وتختلف رحلته هذه عن رحلته الرومية بعض الإختلاف، فهو لم يذكر المراحل التي قطعها في طريقه من دمشق إلى القاهرة، وإنما انتقل فجأة لوصف انطباعاته الأولى عن القاهرة بعد أن دخلها، مسمياً إياها «المدينة العظيمة»، مسجلاً دهشته لاتساع

الفاتح 6- حواشي على شرح الجعبري للشاطبية 7- فرائد الدرر في نصيحة الملوك . توفي عام 893 هـ/1489م ينظر طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية ص56 ومحمد علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن مصر 1348هـ .

(1) المخطوط الورقة 184.

(2) وقد تولى المهدي عيد الرواضية تحقيقه، أبو ظبي- بيروت 2004.

مساحتها، وارتفاع مبانيها، وأناقة ما دخل إليه من منازلها، وكثرة الزحام في طرقها، وعذوبة نيلها، كما أنه سجل اعجابه بمتنزهاتها، لا سيما بركة الفيل، وقد سحره منظرها فقال «وأما بركة الفيل فيحق بها المقام والمَقيل، لاسيما إذا جرى على لُجَين الماء ذهب الأصيل، وأشرقت من أفقها كواكب النيل، وهي كالبدر والمناظر فوقها تسر النواظر، وإذا قابلتها الشمس فلها بذلك منظر عجيب، ومرأى حسن ورونق غريب»[1].

وذهب إلى أهرام الجيزة، فوصفها بقوله «وأما الأهرام فقد كنا شغفنا بأخبارها في الشام، فلم يتيسر رؤيا الا من بعيد، لعدم رفقة في تلك الايام. وقد هالنا أبو الهَول، وضاق في وصفه مجال القول، واستصغرنا في جنب الهَرَمين كل ما استعظمناه، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه، فكلٌ يأتي في وصفها بما نقله لا بما عقله، وحارت العقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توَهُم حدوده، فيا له من مولود للدهر قبل الطوفان، انقرضت القرون الخالية في آبائه وجدوده، وسُمّار الأخبار تذكر حديث أحداث عاده وثمودُه، ويَدلّ إحكامه وعلوه على علو همة بانيه في بأسه وجوده...وهما كالطودَين الراسخين، وكالجبلين الشامخين، قد فنيت الدهور وهما باقيان»[2].

وأبدى تقديره للجامع الإزهر، في كثرة أوقافه، وسعته، وكثرة طلبته، فقال «هو أشهر من أن يُذكر، فكل بَركة في هذه الديار، فمن بَركة ما يُتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار، من تلاوة القرآن العظيم، وإملاء حديث النبي النبيه الكريم، وأصول الدين وبقية العلوم، كما هو مشهور معلوم، به من الرَّونق والرِّواقات، وانبساط النفس في جميع الساعات، ما لا يوجد في غيره من الجوامع، مع كمال نظافتها وتزخرفها بأنواع النقوشات، وذلك سرٌ مُودَع فيه، وهو أكبر دليل على خلوص نيَّة بانيه، ولا غَرْوَ فإن لله خواص، في الأزمنة والأمكنة والأشخاص. وقد وجدت فيه من الأنس ما لا يمكن عنه وصف، وبه من أهل الله الواصلين الى رَبِّه الكشف، لو اقسموا على الله لأبرَّهم، ولو سألوا منه دوام السرور لمنحهم ما سَرَّهم، وبه جم غفير لا يعلم بعددهم إلاّ العليم الخبير»[3]. ثم أنه انتقل إلى ذكر من التقى بهم من علماء القاهرة في مختلف العلوم، ومن زارهم من أحفاد العلماء الذين قرأ لهم، وأرباب الأسر النبيلة.

---

(1) المخطوط الورقة 191

(2) المخطوط 192

(3) المخطوط 196.

ومن الرحلتين نسخة في ضمن مجموع يحتفظ به المركز الوطني للمخطوطات في بغداد[1]، وتشغل الرحلة الرومية الأوراق 126-183، بينما تشغل الرحلة المصرية الأوراق 184-223، ويبلغ عدد السطور في كل ورقة 27 سطراً، وقد كتبت بخط نسخ متقن. وتتقدم الرحلة الرومية مجموعة من الرسائل التي كتبها بعض علماء دمشق من معاصري المؤلف، لأغراض مختلفة، ومن الواضح أنها من جمعه، وهي تشغل الأوراق 110-125[2].

وفي آخر النسخة تعليقة لناسخ الرحلتين، وهو قاضي سلانيك السابق عبد الله الشهير بسعدي، تشير إلى أنه فرغ منها في شهر ربيع الأول سنة 1073هـ/1662م.

وفي آخر هاتين الرحلتين رسائل لعدد من علماء القرن الحادي عشر

1- من عبد الرحمن العمادي إلى كمال الدين طاشكبري زاده

2- من أحدهم إلى قاضي حلب

3- من عبد الكريم المصري إلى قاضي حلب

4- من عبد المعين إلى قاضي حلب

5- من عمر الفرضي إلى قاضي حلب

6- دفع علماء دمشق لتهم ألحقت بقاضيها حسن أفندي

7- من أمير لواء سَلَمية إلى العالم كمال الدين طاشكُبري زاده

8- من بدر الدين القرافي إلى كمال الدين.

9- من بدر الدين القرافي إلى كمال الدين أيضاً.

10- تقريض لمحمد نجم الدين الأنصاري على كتاب (الرحلة الرومية) للمؤلف سنة 1052هـ.

---

(1) وقد أخطأ أحد الموظفين في المركز الوطني للمخطوطات ببغداد في نسبة (الرحلة الرومية) إلى عبد الرحمن العمادي، وذلك بسبب ورود اسمه في آخر قائمة المقرضين للرحلة، فظنها من تأليفه. اسامة النقشبندي مجلة المورد، العدد4، المجلد 18، 1989

(2) حققنا هاتين الرحلتين، وعلقنا عليهما، وجمعنا بينهما في في كتاب واحد، بعنوان (الرحلتان الرومية والمصرية)، وصدر عن دار الزمان بدمشق ومكتب التفسير في اربيل سنة 2012 ويقع في 264 ص من القطع الكبير.

11- تقريض لمحمد سري الدين على كتاب (الرحلة الرومية) للمؤلف

12- تقريض لعمادين وشهاب الدين وابراهيم العماديين على كتاب (الرحلة المصرية) للمؤلف سنة 1059هـ.

على أن هاتين الرحلتين ومرفقاتهما من الرسائل لم تصلنا بخط الناسخ المذكور، وإنما بخط ناسخ متأخر، نقل ما وجده بأمانة، وأضاف إليها رسائل أخرى لا علاقة لها بمضمون الرحلتين، ونرى أنه بغدادي عاش في منتصف القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) لأن أكثر تلك الرسائل هي لعلماء بغداديين عاشوا في تلك الحقبة. وعلى الرغم من دقة الناسخ الأخير في نسخ الأصل، إلاّ أن ما نسخه لم يخلو من أخطاء إملائية قليلة هنا وهناك.

مؤلفاته

ويفهم مما أورده ابنه محمد أمين في ترجمته أنه ألف، عدا كتب رحلاته المتقدمة، كتباً ورسائل ومجاميع ، ذكر منها:

5- شرح على متن الآجرومية في النحو. قال عنه ابنه «أطال الكلام فيه، وذكر أشياء لطيفة».

6- جمع وصنف كتاباً طريفاً جمع فيه مفردات الأبيات التي يحتاجها كتاب الرسائل للإستشهاد بها في رسائلهم، ورتبها على أبواب بحسب الأغراض التي قيلت فيها. منه نسخة في مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد[1].

7- ديوان جمع فيه ما تفرّق من أشعاره.

8- مجموعات ضمت نماذج من رسائله الأدبية.

9- مجموعات ضمت تراجم أدباء عصره ضمت نماذج من قصائدهم ورسائلهم أراد أن يُذيِّل بها على كتاب (تراجم الأعيان) للحسن البُوريني، وقد أدرَجَ ابنه محمد أمين مادتها في كتابه (خلاصة الأثر).

أسلوبه:

أكد ابنه محمد أمين أن أسلوبه النثري كان أفضل من شعره، وأثنى على هذا الأسلوب

---

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط5، بيروت 2002، ج5 ص153.

فقال «وبالجملة فنثره – كما تراه- مُفرَغ في قالب السلاسة، خالٍ من وصمة التعقيد، وفيه معان عذبة وألفاظ رائعة». وفي الواقع فإن القطع النثرية التي أوردها إبنه في ترجمته، وما قرأناه في رحلتيه الرومية والمصرية، تدل على أن أسلوبه كان يُعد نموذجاً متقدماً لأساليب أدباء عصره، فهو يعتمد على السَّجع دائماً، وعلى بعض المُحسِّنات البلاغية، والاستشهاد بأبيات من الشعر بحسب ما تقتضيه الغاية من الكتابة، وعباراته في وجه عام تميل إلى القصَر، إلاّ أنه يضطر إلى تطويلها نزولاً عند متطلبات السجع، ومع ذلك فنثره يميل إلى الوضوح التام، فلا يستخدم ألفاظاً حوشية ماتت في عصره، أو قلَّ استخدامها حتى لم تعد تفهم، وإنما كان يختار من كلمه ما رَقَّ لفظه، وسهل على المتلقي فهمه.

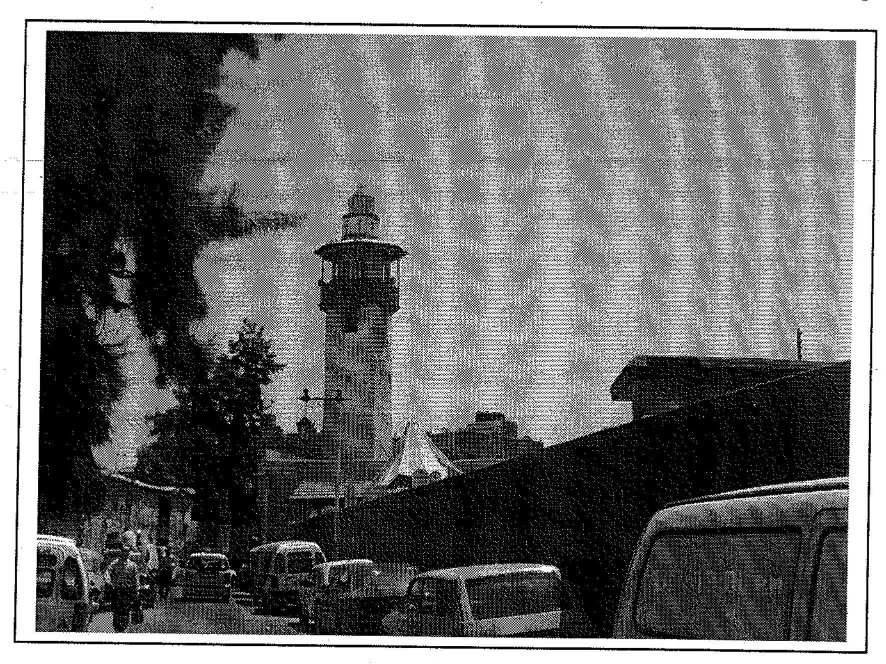
وكان قاضي سالونيك، الذي نسخ رحلتيه الرومية والمصرية قد انتقد أسلوبه انتقاداً لاذعاً فقال أنهما «لا يخلوان من سقطات من جهة اللفظ والمعنى، لا يرتضيها كل عالم مُهذَّب كما لا يخفى، لكنني كتبتهما على ما فيهما من عوَج، ومع ما يوجد في تضاعيفهما مما يُعاف ويُمَج، لأن غالبها عند ذوي الإنصاف يليق بالإستجادة والإستظراف، ولا يترك اللبيب النبيل الخير الكثير لأجل الشر القليل، ولا يُهجَر الوَرد بلا شك لما يقارنه من الشَوك. هذا وقد أصلحت عند الكتابة، بعدما عدم فيه الإصابة، مما لا يحتاج الى تكرير النظر، قلَّ أو كثر، وأما الهنات التي تحتاج الى كثير من المحو والاثبات، فتركتها على تلك الحالات، إذ ما أنا بانشاء أثر من لسانه بضَمين، وما أنا باصلاح ما أفسد قبل سؤاله بقمين، ولو التمس ذلك مني لوجدني غير ضنين»[1]. ونحن لم نجد لأسلوب هذا الناسخ ميزة على أسلوب فضل الله، فكلاهما مسجوع، ويميل إلى المُحسِّنات اللفظية، ولا يبعد أن يكون كلامه محمولاً على نوع من المنافسة، أو الموقف الشخصي، فهو معاصر له، وتولى المناصب القضائية مثله، وبينهما معرفة يؤكدها قوله أنه لم يكن ليَبخَل عليه بإصلاح لغة كتابه لو كان قد عرض عليه ذلك، وفي هذه العبارة ما ينطوي على شيء من التعالي كما هو واضح.

وعَمَد إلى تزيين أسلوبه بذكر أبيات من الشعر توافق المعنى وتؤكده، وهي مما عُني باختياره من دواوين الشعراء ومصادر الأدب، وتخريج هذه الأبيات يكشف عن

(1) الورقة 224.

تنوع قراءاته الأدبية، وذوقه الرفيع، وحسن استشهاده بالشعر في مواضعه، لكنه لم يذكر أسماء الشعراء الذين استشهد بشعرهم إلاّ نادراً، ثم أنه استشهد أيضاً بأبيات مفردة، ومتفرقة، إنتقاها من قصائد نظمها هو في مناسبات مختلفة، دون أن يطيل في النقل خشية من إدخال الملل على القارئ، لكنه أشار إلى عدد أبيات القصيدة التي انتقى منها ما أراد.

وأخيراً فهذا نص جديد في أدب الرحلات، يساهم في إكمال صورة هذا الأدب في العصر العثماني، الذي نعتقد أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من البحث عن نصوصه ووثائقه لتكون معيناً للدارسين.



جامع الجراح بدمشق حيث مدفن آل المحبي

رحلة من نابلس إلى اسلامبول

سنة 1257هـ/1841م

لأدب الرحلات أهمية متميزة في التعرف على كثير من تفاصيل الحياة العادية التي يغفل عن ذكرها المؤرخون، فهذه الحياة بما تتضمنه من ملبس ومأكل، وخدمات عامة، وتقاليد مرعية في بلد ما ، من شأنها أن تلفت نظر الرحالة الغريب عن ذلك البلد، بينما لا يجد فيها المؤرخ – غالباً– ما يستحق الذكر، لا لسبب إلا لأنها عادية في نظره، مألوفة لديه تماماً، ومن ثم لا يجد فيها من الجِدَّة ما يستحق أن يُسجِّله لقارئه.

وهذه الرحلة التي نُعرِّف بها الآن واحدة من الرحلات المهمة التي كتبت في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، كتبها أديبٌ شاب، من أسرة مَقدسيّة معروفة، ووصف فيها وقائع سفره من نابلس في فلسطين، إلى استانبول، نقدمها للقارئ اليوم، راجين أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى ما تتضمنه أمثالها من كتب الرحلات من فوائد حضارية جمة.

ليس على مخطوطة الرحلة اسم مؤلفها، كما خلت من عنوان، ربما لسقوط الورقة الأولى منها، وقد اكتفى مفهرسها بالقول أنها «م يُعلم مؤلفها»[1]، بيد أننا توصلنا إلى أن اسمه (عبد القادر) بدلالة ما ذكره في آخر قصيدة لامية له يمتدح فيها أسرته ويُنوِّه بأقاربه:

وما أنشدَ الوَلهانُ عبد القادرِ

فهذا مديحى فيكم وتغزُّلى

وليس في الرحلة بعد هذا ما يكشف عن حياته، إلا أنه يُفهم منها أنه من أسرة مقدسية عريقة تعرف بآل أبي السعود، وقد عَبَّر هو عن اعتزازه بها وبتراثها الروحي والثقافي. وكان مصطفى مراد الدباغ قد ذكر في كتابه (بلادنا فلسطين)[2][2] أن آل أبي السعود من أقدم العائلات المقدسية حيث تقطن القدس

---

(1) فهرس دار الكتب المصرية، قسم الجغرافية ص38.

(2) ج10 ق2 ص330، دار الهدى ، مفر قرع 1990.

منذ نيِّف وسبعة قرون، وأن لها أملاك كثيرة فيها، منها الزاوية الفخرية التي تضم احدى أهم المكتبات في بيت المقدس المعروفة بالمكتبة الفخرية[1]، وكانت الزاوية الفخرية تعرف كذلك باسم الزاوية الرفاعية، وتقع داخل الحَرَم المقدسي الشريف، ويتولى عليها شيوخ من عائلة أبي السعود. ومن أعلام الأسرة صوفية ومفتون، منهم محمد أبو السعود، الذي تولى إفتاء الشافعية في القدس، وتولى الخطابة التدريس وتوليته الأوقاف المهمة للحرمين القدسي والإبراهيمي، وتوفي في اسلامبول سنة 1228هـ/1813م[2]. ومنهم ولداه أحمد ومصطفى فإنهما تقلدا إفتاء الشافعية ونيابة الشرع على المذهب الشافعي، ويبدو أن الإحترام الكبير الذي حظي به الشيخ أبو السعود في إسطنبول كان سبباً لتعيين حفيده محمد تاج الدين بن مصطفى نقيباً على أشراف القدس في سنة 1228هـ/1813م، وفي العهود التالية تولى أفرادٌ من هذه الأسرة مهام تدريسية في المدارس والمساجد فضلاً عن إقامة حلقات الذكر في زوايا المدينة[3].

ويظهر أنه كان شاباً حينما قام برحلته هذه، وإن أمه كانت يومذاك على قيد الحياة، لأنه استأذنها للقيام بالرحلة، ولكنه لم يُشر إلى أبيه مطلقاً مما دَلَّ على أنه كان متوفياً. أما أخوته فقد ذكر منهم الشيخ حامد، ونعمان، ومن أعمامه الشيخ محمد أبو السعود، وذكر أولاد عم له هم خليل أفندي وأحمد أفندي وعلي أفندي. ولا توضح الرحلة شيئاً عن سيرته الشخصية، إلاّ أنه كان يقطن مدينة نابلس مع أمه في وقت قيامه بالرحلة، بينما كانت أسرته، ومنهم عمه وأخوه، مستقرةً في موطنها

(1) ضمت هذه المكتبة نحو عشرة آلاف كتاب.

(2) جاء في تاريخ جودت أن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية دُرِّي زاده طلب من الشيخ موسى الخالدي قاضي العسكر أن يُحضر أبا السعود إلى استانبول تقديرا لمكانته وعلمه، فسافر هذا إليه وأحضره مع خَدَمه وأولاده وأحفاده «وأنزل في دار تجاه شيخ الإسلام قرب جامع الفاتح، وأحسن إليه ولجماعته بعطايا من قبل السلطان محمود خان، وكان الشيخ أبو السعود هَرِماً قد بلغ مائة وإثنتي عشرة سنة فلم يقدر أن يتوجه لسراي السلطان، ورعاية للقاعدة (القَادم يزار) عزم السلطان محمود بعد يومين على الزيارة، ثم عدل لأن الشيخ كان مُغمى عليه، وأحضر في اليوم الثاني لسراي السلطان ثم أعيد لداره لمرضه، ومات الشيخ أبو السعود في تلك السنة [يقصد سنة 1228هـ] ودفن في تربة أبي أيوب الأنصاري». تاريخ جودت ج10 ص123 نقلا عن الدباغ: بلادنا فلسطين ج10 ق2 ص356.

(3) موقع (القدس الآن) وموقع (هوية) ومواقع أخرى.

القدس. ومن ناحية أخرى فإنه كان شاعراً لأنه سجل فيها نماذج مما كان ينظمه من الشعر في مختلف المناسبات، وشعره على أية حال ضعيف، وفيه من الخلل في الوزن الكثير، كما أن نثره نفسه لا يخلو من ركّة أحياناً، أو نزول إلى العامية كما سنرى، ولم نقف على تاريخ وفاته بسبب أن لم يترجم له أحد[1].

الرحلة:

ذكر المؤلف سبب قيامه برحلته، وهو زيارته لضريح جده الأكبر محمد أبي السعود في استانبول، والسبب كما يبدو غير مُقنِع، فهل يمكن أن نتصور أن يقضي شاب شهرين كاملين في سفر مستمر، مع ما يكتنف ذلك من متاعب وأخطار، ليزور قبر جدِّه، مهما بلغ حبه لذلك الجد، والأقرب إلى التصور أنه قصد المدينة طلباً لوظيفة، فهذا كان السبب في زيارة أمثاله لها في ذلك العصر، لا سيما وأن لجده معارف في العاصمة يمكن أن يكونوا مفيدين في تحقيق مثل ذلك الطلب، وقد سبق أن تعيَّن ابن عم له، هو محمد تاج الدين، في منصب قاضي القدس.

وعلى الرغم من حِرص الرحّالة على ذكر تواريخ الرحلة بالأيام والشهور، إلا أنه فاته أن يذكر تاريخ السنة، ومن ثم لم يعد ممكناً معرفة زمن قيامه بها على وجه التحديد، على أنه يمكن التوصل إلى ذلك على سبيل التقريب، فهو حين أشار إلى السلطان محمود الثاني قال «رحمة الله عليه»، وقد توفي هذا السلطان في 19 ربيع الآخر 1255 هـ/2 تموز- يوليو 1839م، فيكون قد قام برحلته بعد هذا التاريخ حتماً، وكان قد شاهد قصراً بناه هذا السلطان في استانبول، وهذا القصر هو الذي أنشأ عنده السلطان عبد المجيد قصر (دولمه بقجه) سنة 1257هـ/ 1842، وإذ لم يذكر الأخير، فيكون ما شاهده قد سبق إنشاءه في ذلك التاريخ، وعليه يمكننا القول أن قيامه برحلته كان في سنة 1256هـ أو 1257م/ 1840 أو 1841م في أكثر تقدير، ونحن نرجح التاريخ الأول لأنه ذكر أن مغادرته نابلس كانت في يوم الاثنين 6 جمادى الأولى، ويوافق هذا التاريخ من أيام الأسبوع - بحسب محول التواريخ لبرنامج كوكل - يوم الثلاثاء، ووجود اختلاف بمقدار يوم واحد أمر محتمل إلى حد كبير.

---

(1) أشار الدباغ إلى اسمه (عبد القادر أبو السعود المقدسي) فحسب ضمن عدد من أعلام بيت المقدس، ولم يزد على ذلك شيئاً. كتابه: بلادنا فلسطين ج10 ق2 ص358.

تناهى إلى سَمع عبد القادر أن عَمَّه محمد قد غادر مدينة القدس متوجهاً إلى يافا في طريقه إلى استانبول، فأثار ذلك رغبته في السفر إليها صُحبة العم المذكور، فكان أن استأذن أمه في الإلتحاق به، ثم غادر نابلس ليبدأ رحلة طويلة[1]، بعُرف تلك الأيام، قاصداً الحاضرة العثمانية. فقصد أولا الرَّملة، فيافا حيث التقى بعَمِّه، ومن هناك مضت قافلتهما عبر وادي عزون إلى جَلجُولية، ومنها إلى يافا، ومن هناك ركب البحر إلى أرسُوف ومنها إلى بيروت، حيث مكث ثمانية أيام، ثم ركب سفينة بخارية إلى احد موانئ قبرص الجنوبية، ومنه إلى ميناء علايا (العلائية) على الساحل الجنوبي للأناضول، ولبث في هذه المدينة الساحلية عشرة أيام، ومنها، في السفينة نفسها إلى أضاليا (أنطاليا) حيث لبث فيها أربعة أيام، ومن هناك توجه براً، في قافلة صغيرة، إلى كوتاهية، ماراً ببلدات بُردل (بردر) والسندقلي وقرى أخرى، واستغرقت إقامته في كوتاهية أربعة ايام، ومنها إلى يني شهر، فأزنيق، وتقدم، صحبة قافلته، بمحاذاة الشاطئ الشمالي بحيرة أزنيق ماضين صُعداً إلى بحر مرمرة، حيث عبروا البحر على ظهر سفينة هناك، ومضوا براً إلى مدينة، أو بلدة، تدعى كيبزه، ومنها اتجهوا إلى أسكدار، حيث زار قبر الجد أبو السعود، وهذا هدف الرحلة، وبعدها انطلق في استانبول يزور معالمها من الجوامع والقصور والأسواق والخانات، ويمضي في رحلة بحرية في بحر مرمرة يزور معالمها الأخرى. وهكذا فقد استغرقت الرحلة كلها شهرين كاملين، قضى منها 29 يوماً في الإقامة في المدن التي مرَّ بها، و14 يوماً في السفر بحراً، و17 يوما في السفر براً. ولم يذكر المؤلف مقدار المدة التي قضاها في استانبول، ولا طبيعة ما قام به من عمل، كما لم يتحدث عن طريق عودته إلى وطنه.

تضمنت الرحلة فوائد جمة، أبرزها أن المؤلف وصف فيها المدن والقصبات والقرى التي كان يمر بها، بما يمكن أن يمثل ملاحظات مهمة في مجال الجغرافية الحضرية، وذلك على النحو الآتي:

1- وصف المدن والقرى

تناول الرحالة الأحوال التي كانت عليها المدن والقرى يوم مرَّ بها بإشارات فيها

(1) وصف مفهرس دار الكتب المصرية موضوع الرحلة بأنها «رحلة من مصر إلى اسلامبول عن طريق الشام» ، مع أنها تبدأ من نابلس وتنتهي باستانبول.

نباهة ظاهرة، فقرية رفيدة الواقعة قرب نابلس، مثلا، «سكانها غالبهم نصارى»[1]، وقرية الفندق، «هي خربانة، وأهلُها قد خَرَجت منها من جَوْر الحكام»[2]، وقيسارية «هذه المدينة خَربة، قد هدمها الملك صلاح الدين حين فتحها. وأهل يافه يأخذون منها الحجارة لبنائهم»[3]، أما أضالية فهي «في سفح جبل شاهق، ممتدة من أسفله إلى أعلاه، وجميع بيوتها من الخشب، وعليها ثلاثة أسوار من الحجر وخندقان، وأهلها أتراك، وهم أهل مروءة ودين وعقل، ولهم أطباع حسنة، فمنها أن أسواقهم خارج المدينة، وبيعَهم وشراءهم كذلك، وإذا أتاهم غريب لا يُمكِّنونه من الدخول إليها، بل لهم محلات مُعدَّة خارجها، وكذلك العسكر. ومنها أن القاضي والحاكم والمفتي لا يكونون إلاّ من أهلها خوفاً أن يوقع غيرهم الفساد في مدينتهم، ومنها أن الصبي من أهلها إذا بلغ الحلم ولم يُزوِّجه والده لفَقره مثلاً، يُخرجونه منها إلى الخارج. وهي رَخيّة يعيش فيها الفقير، فإن أقة اللحم بأربعين فضة، وفيها الليمون الحامض وغيره من الفواكه»[4]، فهذا الوصف تجاوز الجانب المادي للمدينة إلى وصف عادات أهلها وأخلاقهم أيضاً، بل وأسعار المواد التي تباع في سوقها.

ومثل هذا ما نوَّه به في كلامه على مدينة البَردر إذ قال «وهذه المدينة غزيرة المياه، كثيرة الفواكه، رخيصة الأسعار»[5]. ووصف نوعاً من القرى المتواضعة التي تسمى (يُرُك) فقال أن هذا الاسم يطلق على بيوت للتركمان «بعضها من القش، وبعضها من الشَّعر». ولم يقتصر على الوصف العام للمدن والقرى التي مر بها، وإنما تحدث عما تضمه من مرافق عمرانية، مثل:

أ- وصف المساجد:

كان الرحالة - كما هو واضح تماماً- متديناً تقياً، ولذلك فإنه كان حريصاً على أداء فروض صلاته في كل أيام رحلته، مهما كانت الظروف الصعبة التي مرَّ بها أحياناً، كما كان حريصاً أيضاً على أن لا تفوته بركة الصلاة في مساجد المدن والقصبات

---

(1) الورقة 3أ.

(2) الورقة نفسها.

(3) الورقة 10 ب.

(4) الورقة 36 ب.

(5) الورقة 23 أ.

والقرى حيثما مكنته الظروف من الإقامة فيها، وقد جاء وصفه لبعض هذه المساجد دقيقاً. من ذلك مثلاً كلامه على جامع الرملة الكبير إذ قال «وجدته جامعاً محكم البناء، وله صحن واسع، وفي وسط الصحن قبة شاهقة، وهو ثلاثة أكوار ممتدة من المغرب إلى المشرق، وأما الكور الأوسط فإنه أعلى من اللذين من جانبيه، والمنبر من الرخام، وهو مقابل للباب، وفوق الباب سُدّة المؤذنين»[1]. ولم يفته أن يقارن بينه وبين جامع آخر في مدينة نابلس، من حيث التصميم، فقال «وهذا الجامع يشبه جامع النصر الذي هو في مدينة نابلس في جميع بنائه وأكواره وإحكامه، لأنهما كانا كنيستين في زمن الإفرنج، ولما فتح المسلمون بلادنا عملوا غالب الكنائس جوامع». ومثل ذلك وصفه لجامع يافا بأنه «مربع الأركان، وعلى دائر الصحن أروقة من كل الجهات، وفي كل رواق من الجهة الغربية حجرة لطلبة العلم، وفي وسط الصحن مِزوَلة تُعرف منها الأوقات»[2]، بل أنه نصَّ على هوية مؤسسه، وما كان عليه قبل عمارته، فقال «وكان قد عمَّره وشيَّده محمد باشا أبو نبُوت، وكان قبل عمارته آل إلى الخراب، ولما عمَّره المذكور زاد في صحنه وأوقف عليه أوقافاً». كما أنه أورد قائمة بجوامع استانبول الكبيرة، ولم يصفها تفصيلاً، ربما بسبب كثرتها وشهرتها.

ب- وصف الأضرحة والمقامات:

وكأكثر رحالي عصره، فإنه عُني بالإشارة إلى أضرحة الأولياء ومقامات الصالحين بوصفها معالم على طريق رحلته، من ذلك تنويهه بمقامي الخضر وأبي العباس قرب مدينة نابلس، وبالمقام المنسوب إلى الشيخ الجنيد في «جبل شاهق»[3] قربها أيضاً، ومقام للإمام علي رضي الله عنه قرب الرملة، وهو «محل فيه أبنية وقبب كثيرة»[4]، ومن تلك المقامات مقام علي بن عليل، و«هو على ساحل البحر في أرض أرسوف»[5]، وأشار إلى كراماته ، كما نوه بضريح أبي أيوب الأنصاري في اسكدار، حيث ضريح جده أبي السعود.

---

(1) الورقة 22 أ

(2) الورقة 9 أ.

(3) الورقة 3 أ.

(4) الورقة 3أ.

(5) الورقة 10أ.

ج – وصف الجسور والقناطر

في الرحلة إشارات مهمة إلى بعض الجسور والقناطر التي لفتت نظر رحالتنا، من ذلك أنه وصف جسراً خشبياً يقوم على قناطر، في نواحي اسكدار، فجاء وصفه مستوعباً لموضوعه، تناول فيه مواد بنائه، وهوية منشئه، وتصميمه العام، وما إلى ذلك. قال «ولم نَزَل حتى وصلنا إلى جسر من الخشب المقيَّر الممتد على البحر من الشرق إلى الغرب، ومسافة إمتداده نحو عشر دقائق، وهو في غاية من الإتقان، والذي أمر باقامته الملك الأعظم والخاقان المعظم المكرم السلطان محمود رحمه الله رحمة واسعة، وهو من العجائب العجيبة، والخوارق الغريبة، لم يسبق على أحد من الملوك الذين قبله، وله قنطرتان، واحدة تذهب منها القَوايق (ضرب من الزوارق)، وواحدة تأتي منها، خوفاً أن تتلاحم مع بعضها فيحصل الغرق، وفي كل قنطرة أوضتان (أي حجرتان)، واحدة على اليمين وواحدة على اليسار، وفيها إناس من العسكر يحرسون خوفاً من الحريق، وهو رحمة للفقير والغني». ووصف جسراً قرب الدَروَند بأنه «جسر منيع نحو عشر قناطر، والماء يجري من بعض القناطر، وهذا النهر كأنه النيل»[1].

د- وصف خانات المسافرين

أشار إلى عدد من الخانات التي نزل فيها في طريق رحلته هذه، ووصف بعضها وصفاً جيداً، فقال عن خان قديم قرب جلجولية أنه «كبير محكم البناء قديم، من آثار الإفرنج، والظاهر أنه كان كنيسة»[2]، فهذه الملاحظة ذكية كما ترى وتدل على فهم لا بأس به لتطور العمارة في هذه البلاد. كما نوه بخانات أخرى نزل بها مثل خان اللد، وخان السندقلي، وخان يني شهر.

هـ- وصف القصور

أثارت القصور الفخمة التي شاهدها في استانبول دهشته، فتحدَّث عن القصور التي على ساحل مضيق البوسفور، وما أنفق عليها من أموال، فقال أن الناس «يُزخرفونها بأنواع الزينة، ويُذهبون عليها الأموال الجسيمة بحيث تبلغ كلفة

---

(1) الورقة 24أ.

(2) الورقة 5 أ.

الواحد خمسمائة ألف غرش»[1] هذا مع أنها لا تُسكَن إلا في الصيف فحسب، وأعدَّ قائمة بأسماء سرايات إستانبول الكبيرة وضواحيها ، منها «سراي هَمَيون، وتسمى يَني سَراية، وأسكي سراية أي السراية القديمة، و سَراية أسماء سلطان أخت السلطان محمود، وسَراية بشكطاش، وسراي شراق يالسي، التي بناها السلطان محمود، وأنفق عليها نحو خمسة وستين ألف ألف غرش، ومات قبل أن يسكنها» ، وسراية بيلَر بَيه وهي للسلطان محمود أيضاً. ويقول أخيراً «وأما القصورالتي في المحلات المنزهات داخلاً وخارجاً فلا أعلم لها عدداً لكثرتها»[2]. ووصف موكب خروج السلطان عبد المجيد لصلاة العيد وصفاً جيداً، كما تحدث عن زيارته لآثار النبوة المحفوظة في بعض القصور السلطانية.

و- معالم أخرى

ولا تخلو الرحلة من إشارات مهمة إلى معالم مختلفة أخرى، منها مثلا وصفه لدير أندريه (دير القديس أندرياس) في قُبرُس، وقد اضطر ورفاقُه في الرحلة إلى النزول فيه برهة من الوقت. كما أشار إلى قلعة قديمة على قمة جبل مَرَّ به قرب نابلس، فلاحظ أنها «كانت قلعة حصينة قد تهدمت من كثرة فتَن الفلاحين مع أهالي مدينة نابلس»[3]. ووصف لقرائه أحوال (الكرنتينة) وهي دور الحجر الصحي التي مر بها في الموانئ المختلفة، لا سيما في بيروت، وقبرس، والعلايا، وأضاليا، وبازَرجَك، وقرطل، وهي أحوال لم تكن إلا بائسة، وقد أعلن هو كرهه لها وعدَّها لا تتوافق مع روح الايمان بالقضاء كما كان يفهمه معاصروه. وفي الواقع فإن هذه المؤسسات لم يكن قد مضى على تأسيسها إلا مدة قليلة، وكانت ظروف عملها والنقص في خدماتها سبباً في ضيق المسافرين الذين كانوا يضطرون إلى الإحتجاز فيها مدة قد تصل إلى أسبوعين أو يزيد.

3- وصف البيئة الطبيعية

اهتم الرحَّالة بالبيئة الطبيعية التي كان يمرّ بها في أثناء رحلته، من المروج والبساتين والينابيع والأنهار والبحار، وما كان تنتجه تلك البيئة من ثمار متنوعة.

---

(1) الورقة 42أ.

(2) الورقة 45 أ.

(3) الورقة 45 أ.

وأكثر هذه الملاحظات يدخل في مجال الجغرافية الإقتصادية، مثال ذلك إشارته إلى البساتين التي كانت تجاور قرية رفيدة[1]، ووصفه لبيئة بلدة الفندق إذ قال أنه وجدها «أرضاً مُخضرَّة النبات، كثيرة الأعشاب». وأشاد بإنتاج بساتين غزَّة من التفاح الفاخر قائلا «يسمى جنس هذا التفاح بياري، وهو مشهور في جميع أوصافه طعماً ولوناً ورائحة، ولا يصير هذا الجنس إلاّ في هذه المدينة المذكورة»[2]. وأشاد ببساتين أضالية وكونها تحفل «بأنواع الفواكه» الرخيصة، ومنها التفاح، ووصف واد خصيب قرب كوتاهية بأنه «واد ظريف لطيف كثير الأشجار، وفيه نهر كبير يدير أرحية نحو العشرة، وماؤه عذب».

كما أنه وصف السفر في البحر، ودواره، وعواصفه، وقطاع الطرق فيه من القراصنة، وما إلى ذلك من شؤون.

والرحلة بعد هذا تقدم تعبر عن روح عصرها تماماً، فهي تتضمن ألفاظاً من حضارة البلاد التي جرت فيها، من ملبوس ومأكول وسفن وزوارق وعادات اجتماعية وغير ذلك.

وأسلوب الرحالة في كتابة وقائع رحلته اسلوب عادي تماماً، فلا سجع، ولا محسنات بديعية، بل هو يميل إلى استعمال تعابير وألفاظ عامية، وفي تقديرنا فإن هذا الأمر زاد من أهمية الرحلة، لأنه ابتعد بها عن التكلف البلاغي الذي اعتاد عليه الرحّالون السابقون في وصف مشاهداتهم، والذي كان يبخس النص شيئاً من صِدقه ودِقته وعفويته، كما أن استعماله بعض المصطلحات العامية سجل للقارئ لغة ذلك العصر، على أنه أورد أشعاراً كثيرة من نظمه، نظمها توافقاً مع مناسبات رحلته، وهذه الأشعار تميل إلى الضعف الشديد، ما يمكن أن يلحظه القارئ بسهولة، لكنه أورد أيضا أبيات لشعراء آخرين، ومنها ما اقتبسه من كتاب ألف ليلة وليلة غير منسوبٍ لأحد.

من الرحلة نسخة يتيمة بخط مؤلفها، وهو خط عادي لا يلتزم بقواعد الخط المعروفة، والنسخة غير مؤرخة، وقد سقطت الورقة الأولى منها، وتقع في 46 ورقة،

---

(1) الورقة نفسها.

(2) الورقة 5أ.

في كل صفحة منها 17 سطراً، وهي محفوظة في دار الكتب المصرية في القاهرة تحت العدد 755[1].

(1) حققنا هذه الرحلة وصدرت عن دار الزمان بدمشق سنة 2014

الرحلات العربية مصدراً لدراسة العمارة العثمانية في بلاد الشام

شهد أدب الرحلات العربية إزدهاراً ملحوظاً في العصر العثماني، بوصفه يمثل الجانب العملي الذي ظل حياً ومستمراً من جوانب علم الجغرافيا العربية، وكان من ملامح ذلك الازدهار أنه شمل مختلف أنواع الجغرافيا، الطبيعية والبشرية والاقتصادية والثقافية، بل والعمرانية، فتكلموا في مجال الجغرافيا الطبيعية على أشكال الأرض التي كانوا يمرّون بها وما كانوا يجتازونه من الجبال والهضاب والوديان والسهول، ولفتت أنظارهم ألوان التربة وطبيعة الصخور والحجارة، كما شمل إهتمامهم بالجغرافية البشرية ما كانوا يمرّون به من مجتمعات، حَضَريّة وريفية وبَدَوية، وخصائص كل منها من العادات، وعبّروا عن إهتمامهم بالجغرافيا الإقتصادية من خلال ملاحظات ذكية عن درجة خصوبة الأرض وما ينبت فيها من نباتات مختلفة ووفرة مواردها المائية أو قلتها من الأنهار والجداول والآبار، فضلا عن الأسواق وطرق التجارة والقوافل، كما انهم أبدوا اهتماماً شديداً، بحُكم كون معظمهم من العلماء، بالحياة الثقافية والعلمية في المدن التي كانوا ينزلون فيها، فنوّهوا بمن كانوا يلتقون به من العلماء أمثالهم، وأشاروا إلى ما اطلعوا عليه من مؤلفاتهم، وما منحوه لهم، أو أخذوه منهم، من الإجازات العلمية.

ومن المهم أن نذكر أن ملاحظات أولئك الرحالين لم تكن اعتباطيةِ، تخلو من منهج ينتظمها، وتقاليد تتبعها، وإنما كانت تتبع قواعد عامة أو تقاليد كتابية أرسيت عبر العديد من كتب الرحلات السابقة، حتى أصبح تسجيل عالم ما لوقائع رحلته يعد من مكملات الغاية التي توخاها من رحلته نفسها، إن كانت لاداء مناسك الحج، أو لطلب العلم ولقاء العلماء، أو غير ذلك من شؤون. وصار اطلاع العلماء على رحلات سابقة قبل قيامهم برحلاتهم هم تقليداً يمكن أن نلمحه لدى عدد من هؤلاء.

وصار من ثوابت تلك القواعد والتقاليد العناية بوصف ما يمر به الرحالة من المدن والقرى، وما تضمّه من المنشآت المختلفة، وما يصادفه في طريقه من منشآت خدمية أخرى، بوصفها تمثل شواخص أثرية ملفتة للنظر من ناحية، ومثيرة لنزعة

الحنين إلى الماضي من ناحية أخرى، ولأنها تقدم من ناحية ثالثة فائدة عملية لمن تقع في أيديهم هذه الرحلة من القراء، لا سيما الرحالين التالين.

ويتناول البحث الذي نقوم به عرضاً تحليلياً ومقارناً لما احتوته نماذج من كتب الرحلات العربية قام بها أصحابها في فترات مختلفة من العصر العثماني، ولغايات متنوعة، وهذه النماذج هي:

1- رحلة بدر الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي (المتوفى سنة 984هـ/ 1499م)

2- رحلة محمد كبريت المدني (المتوفى سنة 1070هـ/1659م)

3- رحلة فضل الله بن محب الله المحبي (المتوفى سنة 1082هـ/1671م)

4- رحلة إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري (المتوفى سنة 1083هـ/1672م)

5- رحلة عبد الغني النابلسي (المتوفى سنة 1143هـ/1730م)

6- رحلتان لمصطفى بن كمال الدين البكري الدمشقي (المتوفى سنة 1162هـ/1748م)

7- رحلة عبد الله السويدي (المتوفى سنة 1174هـ/1760م)

8- رحلة طه الباليساني (المتوفى سنة 1204هـ/1778).

9- رحلة عبد القادر آل ابو السعود المقدسي (النصف الأول من القرن 13هـ/19م)

والملاحظ أن جميع هذه الرحلات هي لفئة العلماء، وأن تقاليد الكتابة فيها تستجيب لاهتماماتهم العلمية أصلاً.

فمحمد الغزّي كان من كبار علماء دمشق، تلقى العلم على أيدي علمائها صغيراً، وانتقل إلى القاهرة حيث واصل دراسته فيها، ثم عاد إلى دمشق ليتولى فيها مشيخة القراء في الجامع الأموي، والتدريس في كثير من مدارسها، وألفّ عدداً من الكتب المهمة، منها كتاب وَصَف فيها وقائع رحلته في بلاد الشام وبلاد الروم سماها (المطالع البدرية في المنازل الرومية)[1]

ومحمد كبريت المدني كان عالماً له كتاب في وصف المدينة المنورة وتاريخها، وقد

(1) حققها المهدي عبد الرواضية، دار السويدي، ابو ظبي، 2004.ورمزنا لها في هذا تالحث باسم (الغزي) التماسا للإختصار.

مكنته خبرته في هذا المجال في تسجيل ما شاهده من معالم في أثناء رحلته من المدينة إلى استانبول سنة 1032هـ/1622م سماها (رحلة الشتاء والصيف)[1].

والمحبي كان قد ورث هذه تقاليد أدب الرحلات عن رجال أسرته، فجدُه، وأبوه كانا قد سجلا وقائع رحلتيهما في كتب اطلع عليها هو وأفاد منها في تسجيل رحلته التي قام بها سنة 1051هـ/1641م، حيث كانت معه في أثناء قيامه بها. وقد أطلق على رحلته عنوان (الرحلة الرومية) تمييزاً لها عن رحلة أخرى له سماها (الرحلة المصرية)[2].

وإبراهيم بن عبد الرحمن الخياري من أسرة علمية، وتولى الخطابة في المسجد النبوي، ثم سافر إلى استانبول ساعياً لاستعادة منصبه الذي فقده، ووصف في طريق ذهابه وإيابه وقائع رحلته التي سماها (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء)[3].

ومصطفى البكري الدمشقي (المتوفى سنة 1162هـ)، كان صوفياً شاعراً مرهف الحس، تأثر بشيخه عبد الغني النابلسي، في فهمه لمؤلفات إبن عربي، وقام برحلات عديدة إلى القسطنطينية والعراق وحلب وبلاد الشام ومصر والحجاز، منها رحلته إلى القدس التي سماها (الخمرة الحسيِّة في الرحلة القدسية)[4]، ورحلة أخرى إلى العراق سماها (كشط الصدَا وغسل العراق وما جاورها من البلدان)[5].

وأما عبد الله السويدي فقد كان علامة عصره في العراق ورائداً في بعض مجالات التأليف[6]، أراد أن يحيي هذا النوع من الأدب فيما سجله من وقائع في

(1) حققه محمد سعيد الطنطاوي، 1385. ورمزنا لها في هذا البحث باسم (كبريت).

(2) حققنا الرحلتين وجمعنا بينهما في كتاب واحد سميناه (الرحلتان الرومية والمصرية)، دمشق 2012. ورمزنا لها في هذا البحث باسم (المحبي).

(3) المحبي: خلاصة الأثر ج1 ص21 ونفحة الريحانة ج4 ص366. حققها د. رجاء محمود السامرائي في ثلاثة أجزاء، بغداد، 1979–1982. ورمزنا لها في هذا البحث باسم (الخياري).

(4) حققها د. محمد الحزماوي، ونشر مقتبسات منها على موقع (دهشة) سنة 2007، وهي ما اعتمدناه في هذا البحث، ولم يثبت المحقق أرقام صفحات المخطوط لنشير إليها، ورمزنا لها في هوامش هذا البحث باسم (البكري).

(5) منه نسخة فريدة في مكتبة جامعة كمبردج، منها نسخة مصورة في المجمع العلمي العراقي برقم 8 جغرافيا، وهي التي اعتمدناها.

(6) إن أفضل ترجمة له هي ما كتبه في مقدمة كتابه (النفحة المسكية)، وينظر أيضا محمد خليل المرادي: سلك الدرر ج3 ص86 وفصلنا القول في ترجمته في مقدمتنا لكتابه هذا.

أثناء رحلة انطلق فيها من بغداد لغرض أداء الحج عن طريق بلاد الشام سنة 1157هـ/1744م، وأطلق عليها اسم (النفحة المسكية في الرحلة المكية)[1].

وعبد الغني النابلسي الدمشقي كان من الفئة نفسها، عالماً أديباً شاعراً، قصد إستانبول في شأن من شؤونه فمَرَّ ببلاد الشام وأولى اللقاء بالعلماء فيها إهتماماً كبيراً، لكنه تناول أيضاً وصف ما نزل به أو رآه من منشآت، وسمى رحلته (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز)[2].

وطه الباليساني شيخ صوفي، أخذ الطريقة القادرية عن رجالها في قريته في كردستان، ولأسباب لم يوضِّحها قام بعددٍ من الرحلات الطويلة في العراق والأناضول وبلاد الشام ومصر والحجاز، استغرقت ثلاثة عقود ونيِّف، حتى استقر في دمشق ليكتب مختصراً لوقائع تلك الرحلات[3].

ويُعد أبو السعود المقدسي أنموذجا آخر على تلك الفئة، فهو من أسرة علمية معروفة في القدس، ومع أنه لم يكن أديباً بارزاً، لكنه أراد أن يتأسَّى بمن سَبَقه من الأدباء الذين قاموا برحلات سابقة، فكتب في أثناء رحلة قصد بها إستانبول سنة 1858 ما شاهده من منشآت مختلفة، وقد سقط أول هذه الرحلة فضاع بذلك عنوانها الذي إختاره لها مؤلفها[4].

ومن أولئك الرحالين من قدم ملاحظات لا يُستهان بأهميتها عن الجغرافيا الحضرية، فتكلم عن المدن والقصبات والقرى، وميَّز بينها تمييزاً حسناً، وتحدث عما رآه فيها، أو في الطرق المؤدية إليها، من المنشآت الدينية والعسكرية والخدمية المختلفة، وهي:

(1) حققنا هذه الرحلة، الطبعة الأولى ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001، والطبعة الثانية، بيروت، الدار العربية للموسوعات، بيروت 2012، وقد رمزنا لها في هوامش هذا البحث باسم (السويدي).

(2) حققها رياض عبد الحميد مراد، دار المعرفة، دمشق 1989، ورمزنا لها باسم (النابلسي).

(3) حققنا هذه الرحلة ونشرناها باسم (رحلة طه الكردي الباليساني في العراق وبلاد الشام والأناضول ومصر والحجاز) الطبعة الأولى، مديرية الثقافية الكردية، بغداد 2001، ودار مؤكرياني، أربيل 2008، واعتمدنا الطبعة الأخيرة في احالاتنا إليها، وقد رمزنا لها في الهوامش باسم (الباليساني).

(4) حققنا هذه الرحلة وسميناها (رحلة من نابلس إلى اسلامبول)، حيث لم يكن لها عنوان، وصدرت عن دار الزمان في دمشق ومكتب التفسير في أربيل سنة 2015.

1- الخانات

2- الجوامع والمساجد

3- المدارس والتكايا

4- الأضرحة والمشاهد

5- الحمامات

6- البرك والأحواض والسبيلخانات

7- القلاع والحصون

الخانات

تعد الخانات الواقعة على الطرق التجارية، أو تلك التي في المدن، أكثر المعالم التي اهتم بها الرحالون في ذلك العصر، ففيها يجد الرحالة المأوى الآمن والمثوى المريح نسبياً فضلا عن الطعام والماء، كما يجد الكلأ لدابته، وتقدم تلك الخانات خدماتها بصفة مجانية غالبا، حيث ينفق عليها من أوقاف يرصدها عليها واقفوها من المحسنين، وأكثرهم من الولاة وأمثالهم من المسؤولين[1]، وفي الغالب فإنها تنشأ في آخر كل مرحلة من مراحل الطريق، فتكون بذلك محطات ضرورية لسالكي تلك الطرق تمكنهم من مواصلة رحلتهم من مدينة إلى أخرى.

ويمكن أن نعد محمد الغزّي من أوائل الرحالين الذين أولوا مثل هذه المنشآت اهتمامهم، فذكر مثلاً أن خان شيخون «مكان موحش مُعطش يُسقى فيه من بئر على بعير»[2]، ونوّه وهو في عقبة بقراص بنواحي حلب بأن «في آخرها خان ومَقيل»[1].

---

(1) كان الاهتمام بتأمين الطرق التجارية، يمثل في العصر العثماني، ضرورة سياسية فضلا عن ضرورتها الاقتصادية، ذلك أن تهديد تلك الطرق المستمر من قبل قطاع الطرق كان يمثل مساً بهيبة الدولة ويضر بمصالحها، فكان (تطبيع) الوضع على الأرض في مثل هذه الطرق المقفرة يعني استقرار النظام السياسي برمته، ولذا فقد اتجه كثير من الواقفين، من الولاة والأمراء والقادة، إلى انشاء الخانات الحصينة على طول تلك الطرق. وفي الغالب فإن تلك الخانات كانت تقترن ببناء وحدات خدمية متكاملة، تشمل: ثكنة لمبيت الجند، جامعاً، ومدرسة، وحماماً، ومنشآت أخرى. وهذا أدى إلى تحول تلك المحطات إلى نوى عمرانية أخذت بالتحول إلى حواضر سكنية مزدهرة. ينظر محمد الأرناؤوط: الوقف في العالم الإسلامي، بيروت 2011، ص82-101.

(2) الغزي ص52

وأشاد محمد كبريت المدني بالأبنية التي شاهدها في قرية سَراقب ومنها خانها[2]، ووصف خان مَرعي بأنه «بُنيان عظيم، وحوله زراعات»[3]، وسجل إعجابه بخان القطيفة فقال«بها الخان الذي هو للواردين وقاية وجُنَّة، وهو الخان الذي لا يُرى له عديل، ولا يدانيه في محاسنه مثيل.. »[4].

وسجل المحبي ملاحظات مهمة تلك الخانات، من ذلك قوله عن خان القطيفة الواقع على مفترق طريقي دمشق- حلب، ودمشق – الرحبة، بأنه واحد من جملة من المنشآت الخيرية التي أنشأها في هذه البلدة والي دمشق سنان باشا (تولاها من سنة 994 إلى 997هـ/1585- 1588م) فقال «وباني هذه الخيرات ومُرتِّب تلك المبرّات، المرحوم المغفور له سنان باشا، الوزير الأعظم- رحمه الله تعالى- على ما أحسن في وضع بنيانه وأحكم، وهو صاحب الخيرات المأثورة في أكثر البلاد، وحاوي المساعي المشكورة بين العباد، من رائح وغاد». ووصف ارتياحه خلال مكوثه في هذا الخان فقال «ولما نزلنا في هذا الخان المذكور، حصل لنا فيه كمال السرور، وترحَّمتُ على من سنَّ الخير في ذلك المكان، ودعوت للنظر فيه بخير وإحسان»[5].

ووصف الخان الذي نزل فيه في قلعة المضيق إلى الشمال الغربي من مدينة حماة فقال «فنزلت في خانها الحسن، وتأملت بناءه المستحسن، وهو خان منازله واسعة، وقبابه شاسعة، بناه صاحب المساعي الخيرية، والإحسانات المرضية، المرحوم مصطفى آغا آغاة دار السعادة، رزقه الله الحسنى وزيادة»[6]. ووصف خان الشغور بأنها قرية ليس فيها إلا هذا الخان، وهو مهدوم الجدران، وبالي الأطلال والأركان.. فنزلت على جانبه وزالت أتعاب أكداري»[7]. وحينما مرَّ بقرية الزنبقية

---

(1) الغزي ص82

(2) كبريت ص203

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه ص210

(5) المحبي ص33 و34

(6) المحبي ص42 وكان مصطفى أغا الشهير بآغا دار السعادة أحد (مراكز القوى) في عهد السلطان مصطفى الأول، وهو الذي تولى عزله سنة 1027هـ/1618م، وله أعمال عمرانية في استانبول وفي القاهرة. ينظر علي مبارك: الخطط التوفيقية ج2 ص182.

(7) المحبي ص43

على الضفة الشرقية لنهر العاصي وصف خانها بأنه «مبني لأبناء السبيل من الترك والعرب، قيل أن بانيه المرحوم سنان باشا عليه من الرحمة ما يشاء»[1].

ونوه إبراهيم الخياري ببعض ما مر به من الخانات فوصف القنيطرة بأن فيها «خان متسع الأكناف أتم اتساع، يشتمل على بركة ماء في وسطه، وخانات تسكن في جهاته، وأماكن حسنة جداً»، وأنه[2] «خان قائم البناء، ظاهر السناء»، وأشاد بسعة رحابه[3]، ومثل هذا ما سجله عن خان رآه في مرحلة على طريق طبرية إذ قال أنه «الخان القائم البناء، المشرق السناء»، ومع ذلك فإنه لاحظ أن«فيه أماكن خربة»[4]. وكانت بعض الخانات من السعة بحيث ضمَّت جوامع تُلقى فيها الخطبة أيام الجمع، ففي عيون التجار صلى الخياري في جامع وسط الخان مع خطيبه[5]. وقدم ملاحظات مفيدة عن خانات أخرى، فخان بلدة قاقون قرب الرملة «كبير الوضع» يقابل قلعتها، وبلدة بيت جبرين لها «خان خرب»[6]، ووصف خان القصير بأنه خان شتوي، إشارة إلى أن فناءه كان مُغطى[7]، فقال «خان كبير ينزله المسافرون أيام الشتاء.»[8]، وقال عن خان النبك أنه يضم في وسطه على مسجد «لطيف جدا» فهو خان متسع إذاً، عامر بمن حوله من أهل قريته[9]. ولفتت نظره الوظيفة العسكرية للخانات الواقعة على طريق الحاج، فقال عن خان الحسيا أنه «جرت عادتهم بأن العسكر الشامي الذي يخرج للحرس إذا وصل إليها سقط عنه ذلك، قام به عسكرها فتسلم عسكرها الحاج للغفر وعاد الأولون إلى وطنهم»[10]. وتحدث عن خان في حمص «معد للمسافرين، عجيب بناؤه»[11]، وذكر أن بقرب قلعة

---

(1) المحبي ص43

(2) الخياري ج1 ص177.

(3) الخياري ج2 ص163

(4) الخياري ج2 ص163

(5) الخياري ج2 ص164

(6) الخياري ج2 ص168 و201

(7) إن كون هذا الخان مغطى الفناء، هو الذي شجع السلطات السورية إلى التفكير باتخاذه مستشفى لذوي الامراض العقلية. الخياري، هامش 177.

(8) الخياري ج1 ص177

(9) الخياري ج1 ص178.

(10) الخياري ج1 ص180

(11) الخياري ج1 ص182.

المضيق «خان جديد عمره وجدده محمد آغا قزلار»[1]. أما خان الشغر الواقعة على نهر العاصي فهو «الخان العظيم الوضع الذي لم نَرَ إلى الآن أعظم منه وصفاً ولا أتقن صُنعاً، فيه أماكن كثيرة للمسافرين معدة لنزولهم»، وأشار إلى ما يشتمل عليه هذا الخان من منشآت فقال «وفي وسط الخان مخل مرفع على أركان أربعة تحته بحرة ماء بهار فوار عظيم وتخت من خشب يجلس عليه، وفوقه مسجد مربع به طاقات ومحراب يصعد إليه بدرج، وفي مقابل باب الخان بصدره تكية عامرة البناء ظاهرة السناء مشتملة على أماكن متعددة»، وأبدى اعجابه بمطبخه.

وتحدث عبد الغني النابلسي عن خان نزل به عند باب مدينة حمص، فإذا به يشبه أن يكون مجمعاً من خانات عدة، ومرافق متنوعة، فقال «هو خان كبير مشتمل على خانات، فإذا دخلت بابه رأيت صحناً كبيرا واسعاً في أطرافه حجر لأبناء السبيل، وعن يمين الصحن باب كبير فيه خان فيه أواوين وحجر أيضا، وجدول ماء صغير متشعب من العاصي، وهو يساره صحن طويل يشقه جدول من العاصي عليه ناعورة صغيرة»[2].

ووصف خاناً في قرية النبك فذكر اسم مؤسسه وتاريخ تأسيسه، إذ قال أنه «الخان الذي بناه صالح باشا الوزير الأعظم، تغمده الله برحمته ورضوانه في سنة أربع وسبعين بعد الألف»، يريد به صالح باشا الموستاري وكان نائب الشام (توفي سنة 1076هـ/1665م) ووصف مشملاته، ووظائفه، وما ينفق عليه، وإدارته، ثم قال «وعليه أوقاف كثيرة في دمشق الشام، وفيه وظائف وأجزاء تُقرأ، وله ناظر بجميع أوقافه»[3].

وتحدث مصطفى البكري الدمشقي عن خان وحيد يظهر أنه نزل فيه، وهو خان جُب يوسف، ووصفه بأنه «خان ضيق»[4]، وسكت عن الخانات العديدة التي لابد أنه نزل بها في أثناء رحلاته، ويمكن تفسير ذلك الموقف بسبب مروره بها في رحلات سابقة فلم يعد فيها ما يلفت نظره.

وعلى الضد من هذا، نالت الخانات، لاسيما الضخمة منها، اهتمام عبد الله السويدي البغدادي، فهذا النوع من المنشآت لا وجود له في بلاده في عصره، لذا

---

(1) الخياري ج1 ص186.

(2) السويدي ص275

(3) النابلسي 101

(4) البكري ، غير مرقم الصفحات.

جاء وصفه إياها أكثر دقة وتفصيلا، فحينما تحدث عن خان تُومان حدد موقعه بأنه على ثلاثة فراسخ من حلب، ونوه بمتانة بنيانه بأنه «خان محكم رفيع»، وبسبب تسميته بأن «إمرأة إسمها تومان بنته»[1].

ولم يفته أن يتطرق إلى المواد التي بُنيَت بها الخانات، فذكر عند حديثه عن خان في معرة النعمان أنه «من أحسن الخانات، رفيع البناء، محكمةٌ سُطوحه، مغشية بصفائح الرصاص»، وسر التفاتته هذه أن الرصاص لم يكن من المواد الداخلة في البناء في العراق، وتطرّق إلى ما يضمه الخان من منشآت أخرى فقال «في وسطه قسطل ماء لأبناء السبيل، وفي وسطه مسجد ذو قبة شاهقة مطلية أيضاً بالرصاص» وأن للخان نفسه «طاقات ورُواقات في جميع دُوره لأبناء السبيل»، وسجل كتابة تذكارية على بابه فيها اسم باني الخان[2]، فقال «وله باب رفيعة ملبسة بالحديد، مكتوب على طاقها في الحجر:

هذا ما بنى حامي الدفاتر السلطانية مراد جلبي

وقد ذكر عند دخوله حماة أن «في الجانب الغربي خان كبير وقفه الوزير أسعد باشا ابن اسماعيل باشا والي دمشق الشام المعروف بابن العظم لأبناء السبيل»، ونقل نص كتابة تذكارية على الخان تتضمن ثلاثة أبيات تؤرخ لبنائه، هي:

نورُ هذا الخان قد أشرق من ... نور ربي ليس يطفيه العدا

دامَ وجهُ الحقِّ مَن إنشـــائه ... للورى مأوى فوفى المقصَدا

وبشرى ســـَعده قد أرخـوا ... أسعد خان بمجد شـيدا

وأسعد باشا هذا تولى حماة قبل أن يتولى دمشق، ويعد هذا الخان من أهم منشآته، ويحمل الشطر الأخير تاريخ تأسيسه وهو سنة 1150هـ/1737م. ووصف خاناً قريباً من بلدة الرستن، فقال أنه «خان قديم في وسطه جامع له قبة»[3].

ونزل في خان عند باب حمص فوصف مخطط بنائه بقوله أنه «خان كبير مشتمل على خانات، فإذا دَخلتَ بابه رأيت صحناً كبيراً واسعاً في أطرافه حُجَر

(1) السويدي ص254

(2) فاته أن يذكر تاريخ التأسيس المثبت في اللوحة المذكورة وهو سنة 971هـ، وقد تحول هذا الخان منذ سنة 1987 إلى متحف خاص بمدينة المعرة.

(3) السويدي ص460

لأبناء السبيل، وعن يمين الصحن باب كبير فيه خان فيه أواوين وحجر واصطبل، ومقابل الوجه باب كبير أيضاً فيه أواوين وحجر أيضاً، وجدول ماء صغير متشعب من العاصي، وعن يساره صحن طويل يشقه جدول من العاصي، وعليه ناعورة صغيرة»[1]. ومثل هذا قوله أن في قرية حسية، على الرغم من صغرها، «خان كبير لأبناء السبيل» وأن هذا الخان من السعة بحيث يشتمل على خان يخطب فيه، وأنه يضم فضلا عن ذلك بركة ماء كبيرة[2]. ووصف خاناً في قرية النبك فقال «في داخله خانان للشتاء، وفيه جامع خطبة»[3].

وحينما نزل في القطيفة نزل في خانها، فأعجب بسعته وفخامة بنائه فقال «هو كبير واسع، وفي باطنه خان آخر.. وفيه أيضا خان آخر للشتاء»، وأن في الخان «جامع كبير يخطب فيه» وذكر أن لهذا الجامع منارة، ولاحظ أن الخان يضم «قلعة صغيرة وخانقاه»، بل أنه لم يتردد بتسجيل اعجابه بطهارة مرافق الخان الصحية، فقال «وفيه مراحيض يجري الماء إليها بسواقي فيسوق النجاسات» ولاحظ وجود بركة للماء فيه وقدَّر مساحتها بعشر في عشر أذرع ، وأن في صحن المراحيض بركتا ماء حار[4]، فهو هنا لا يتحدث عن خان طريق، وإنما على مؤسسة خدميَّة كبيرة تضم عدداً من الخانات ومرافق دفاعية ودينية مختلفة. ومما ذكره في رحلته خان يسمى خان الزَّبيب إلى الجنوب من عمان، وقال «لعله كان يوضع فيه الزبيب»، وهذا الخان والقلعة إلى جواره هي من إنشاء السلطان مصطفى الثالث 1171-1187هـ/1757-1773م.

وشغلت الخانات اهتمام طه الكردي الباليساني فنوَّه بعدد منها، وكان مما ذكره خان قديم مر به في طريقه إلى بلدة البيرة، فوصفه بأنه «كبير واسع في فَلاة من الأرض» وأن «على بابه مسجد مهجور بعضه خراب وبعضه عامر، ومنارة محكمة البناء بالحجارة». وأثارت هيأته رغبته في معرفة تاريخه وهوية مؤسسه، فقال «دخلته وتأملت بناءه، ورأيت على حجارته ومنارته تاريخ عمارته واسم من

---

(1) السويدي ص275

(2) السويدي ص277

(3) السويدي ص278

(4) السويدي ص279

عمره – رحمه الله- كان وزيراً من وزراء آل عثمان مرَّ في زمانه بهذه الأرض فأمر بعمارة هذا الخان والمسجد جزاه الله تعالى عن الناس خيراً وشكر سعيه»[1].

وأشار إلى خان على باب الشط في البيرة، وآخر بعيد عن الشط[2]، ولاحظ مدى التشابه بين عمارة الخان وعمارة القلعة، فقال في حديثه عن معرة النعمان أن فيها «خان عامر كالقلعة على الطريق وفيه الناس»[3]، وقال في أثناء حديثه عن قرية عيشة أن بناءه «كالقلعة نصفه للمسافرين ونصفه لأهلها وكبيرهم، وفي نصف المسافرين مسجد صغير وله منارة صغيرة، وبجنب جدار المسجد حوض ماء عذب واسع، وأخبرونا أن الماء هذا بعيد نبعه ساقه إلى هذا المكان المرحوم جناب سليمان آغا هو للناس الساكنين في هذا الخان، وهو عمَّر المسجد الذي فيه، وحوض الماء، وله قصر فوق باب الخان، وله مخادع وشبابيك تطل على الطريق إلى جهة الشام»[4].

ووصف خان قطيفة بأنه «كناية عن قلعة واسعة به برّاني وجوّاني»، وتحدَّث عن مشتملات الخان فقال أن فيه «مسجد وحوض ماء، وفي دهليز الخان دكاكين يبيعون الشعير والخبز واللبن والبيض والدبس وغير ذلك على المسافرين»[5]، وأبدى اعجابه بخانين في سَرمين أحدهما مقابل للآخر، وقال «وهذان الخانان في غاية الإتقان والبناء» وأنهما «على طرف البلد»[6]، وأشار إلى خان في قلعة بريج، وآخر في قرية حسة، وأثنى على دورهما في استتباب الأمن في الطريق، وقال أن بسبب رئيس خان بريج «ما أحد من الناس يخاف من العرب إن كان رائح إلى الشام أو جاي إلى الشام»[7]، وذكر أن في قرية قارة خانيَن «الواحد خراب باقي منه بعض الجدران، والواحد مُلصق بالقرية»، وحينما مرَّ بقرية النَبك لاحظ أن «بجانبها خان عظيم واسع محكم البناء، وفيه مسجد صغير وله منارة صغيرة، ويجري تحت ذلك الخان نهر ماء معين صافي كالزلال بارد حلو يُدوِّر حجر الطاحون»[8].

---

(1) الباليساني ص60

(2) الباليساني ص61

(3) الباليساني ص65

(4) الباليساني ص70

(5) الباليساني ص75

(6) الباليساني ص66

(7) الباليساني ص72

(8) الباليساني ص74

وأشار عبد القادر المقدسي إلى عددٍ من الخانات التي نَزَل فيها في طريق رحلته من نابلس إلى اسلامبول، ووصف بعضها وصفاً جيداً، فقال عن خان قديم قرب جَلجولية أنه «كبير محكم البناء قديم، من آثار الإفرنج، والظاهر أنه كان كنيسة[1]» فهذه الملاحظة ذكية كما ترى وتدل على فهم لا بأس به لتطور العمارة في هذه البلاد. كما نوَّه بخانات أخرى نزل بها مثل خان اللِّد.

الجوامع والمساجد

اهتم الرحالون بالجوامع والمساجد التي يمرون بها في أثناء رحلاتهم، ليس بوصفها أماكن عبادة فحسب، وإنما لما توفره من جو مريح للتطهر وللتأمل وقضاء بعض الوقت متمتعين بدفئ رواقاتها شتاءاً، ومتفيئين ظل سقائفها صيفاً، وكان (الإعتكاف) فيها سُنة محببة حَرص كثير من الرحالين على اتباعها، وهو الأمر الذي أتاح لهم الاطلاع على عمارة هذه المنشآت، وتأمل ما تضمه من عناصر جمالية، بل قراءة ما سجله منشؤها عليها من كتابات تذكارية تسجل تواريخ انشائهم إياها. من ذلك أن الرحالة الغزي إشار إلى جامع البحر، أحد جوامع دمشق، وقال أنه «يشقه نهر لطيف»[2]، ونوه عند مروره عقبة بقراص بأن «هناك مسجد قديم البنيان»[3].

ولم يفت المحبي في أثناء نزوله في القطيفة أن يشيد بما تضمه من مؤسسات خيرية أنشأها والي دمشق الشهير سنان باشا، من بينها «جامع ذو بناء مستحسن»[4]، ونوه بالجوامع التي دخلها في المدن التي على طريقه، ومنها جامع راس العين، فوصفه بأنه كبير رحيب، كما نوه بجامع حمص الكبير[5]، ولفت نظره منبره الأثري فوصف ما انتهى إليه في عهده، فقال «وقد رأيت أنا بجامع حمص منبراً معظماً قديماً حسنا مطعماً، وكأنه تخلخل وتضعضع وتقلقل وتقنع، فسُمِّرت بعرضه دفة بيضاء ثقيلة خشنة عريضة طويلة غير مجلوة ولا مصقولة»[6].

---

(1) المقدسي الورقة 5

(2) الغزي ص222

(3) الغزي ص82

(4) المحبي ص33.

(5) الغزي ص39

(6) الغزي ص47

ونوه ابراهيم الخياري بالمساجد التي مر بها، من ذلك أنه حينما وصف خان القطيفة أشار إلى وجود مسجد إلى جانبه «حسن قائم بناؤهما فائق وضعهما» وهما من إنشاء والي دمشق سنان باشا[1]. ولاحظ أنه يوجد إلى بلصق الخان الكائن على طريق القنيطرة «مسجد لطيف»[2]، وأن في عيون التجار «جامع حسن بمنارة مرتفعة».

وتطرق عبد الغني النابلسي إلى بعض المساجد المقامة عند الأضرحة التي كان يقصدها بالزيارة، وسكت عن غيرها، فقال في وصف الجامع الذي أمر بإنشائه السلطان سليم الأول عند قبر الشيخ الصوفي محيي الدين ابن عربي، بقوله «ودخلنا إلى جامع السلطان الملك المنصور المؤيد سليم خان عليه الرحمة والغفران، ونزلنا إلى حضرة الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر الشيخ محيي الدين بن عربي..»[3].

وذكر أن بالقرب من مزار الشيخ قُسَيم «مسجد لطيف»[4]، وأن في قرية النبك «مسجد يقال أن أبا العباس الخضر رؤي فيه»[5]، وأن عند ضريح كعب الأحبار «مسجد لطيف، وقبره تحت حائط ذلك المسجد القبلي»، وأن قبري الصحابيين وحشي وثوبان في حمص هما في «جامع كبير فيه منبر ومنارة، يسمى جامع السر، أحدهما بجانب الآخر وعليهما قبة واحدة صغيرة»[6]. وأنه وجد قبر من يدعى مسعود المغربي في «مسجد هناك لطيف»[7].

وتحدث عن جامع الشرفاء حيث دُفن أحد الصالحين، وصرَّح بتسميته الأولى، فقال هو «جامع يسمى سابقاً جامع الأكراد، وهو الآن مشهور بين أهل حمص بجامع الشرفاء، وفيه منبر ومنارة، وفيه قبر يقولون أنه دفن فيه الشيخ عمرو»[8]، وأن قبر أبي موسى الأشعري في «مسجد صغير هناك»، وأن قبر عكاشة بن مُحصن في «مسجد

(1) الخياري ج2 ص162
(2) الخياري ج2 ص163
(3) النابلسي ص74
(4) النابلسي ص81
(5) النابلسي ص102
(6) النابلسي ص114 و121
(7) النابلسي ص122
(8) النابلسي ص122

صغير فيه محراب»[1] وقبر أبي يزيد البسطامي في «جامع بمحراب ورواقات وعمارات للخدام والمجاورين»[2]، وأن جامع ابراهيم بن أدهم «من أعظم الجوامع.. وله منبر ومنارة»[3]، وأن قبر الشيخ العليمي «في جامع هناك له مبارك، وعليه قبة وعنده منارة»، وتطرق إلى عمارة حديثة جرت عليه، فقال «وقد كان انهدم جامعه فعمّره الشيخ محمد والد الشيخ أبي الهدى المذكور وعمّر له منبراً للخطبة»[4]، ووصف مَزار الفضل بن العباس بأن «عنده جامع فيه قبة»، وأن «الجامع المبارك المسمى بالجامع الأبيض وهو جامع كبير متهدم .. يقال أن تحته خال كالمسجد الأقصى، ويقال أن نبي الله صالح عليه السلام مدفون هناك»[5].

ووصف مسجداً مطلاً على نهر الغضبان وصفاً جميلا، حدد فيه موقعه من النهر، وشكله العام، فقال أنه «لطيف البناء، ظريف الفناء، فيه رواق مطل على نهر جار فيه ماؤه سلسال، عذب رائق زلال يسمى بنهر الغضبان، وهو تارة ناقص وتارة ملآن، وذلك المسجد مُكتَنف بجسرين عاليَين مبنيين بالحجارة يدخل الداخل من كل جسر منهما في باب من ابواب المدينة إلى جهة ذات عمارة»[6].

وحينما دخل مسجداً في قلعة حسية لاحظ وجود كتابات على الحائط القبلي «بخط بعض الناس» وأن في آخر تعليقة منها عبارة تقول «كتبه عطاء الله القاضي بدمشق الشام»[7]. ولفت نظره تصميم الجامع الكبير في غزة، وتوصل إلى «أن أصله كان كنيسة»[8]، وقال أن جامع شهاب الدين أحمد بن عثمان «جامع مبارك عظيم الجوانب والبُنيان»[9]، وتوقف عند جامع الجاولي في غزة، فوصفه بأنه «جامع كبير واسع، جميعه مبني بألواح الرخام وأحجار السُمّاقي في أول الزمان،

---

(1) النابلسي ص123

(2) النابلسي ص138

(3) النابلسي ص173

(4) النابلسي ص399

(5) النابلسي ص400

(6) النابلسي ص206

(7) النابلسي ص105

(8) النابلسي ص434

(9) النابلسي ص437

وهو خراب الآن، والرخام ساقط حول جدرانه وفي صحنه الخارج من عدم تقيد النظار عليه بعمارته ومَرمَّته.. وأنه خرب اليوم، وهو منفصل عن العمران، وقد رَدَموا بابه واستغنى الناس عن الصلاة فيه»[1]، وذكر أنه في خارج قلعة القدموس «جامع واسع عظيم فيه محراب ومنبر ومنارة»[2].

وعني عبد الله السويدي بذكر المساجد والجوامع التي مر بها في أثناء رحلته، فأظهر إعجابه الشديد بجامع السليمانية في دمشق، الذي «بناه المرحوم السلطان سليمان»، وعدَّه من عجائب دمشق، بل «من عجائب الدنيا». ووصفه بقوله «هو جامع جليل تحيط به البساتين من جوانبه الأربعة، في وسط صحنه بركة ماء واسعة فيها خمس فوّارات، وفيه مطبخ يُطبخ فيه الطعام، وله حجر متعددة، سقوف قبابها مطلية بالرصاص، وكذا قبة الجامع، وله منارتان حسنتان.. إلا أن مصلاه صغير»[3].

وكان عبد القادر المقدسي حريصاً أيضاً على أن لا تفوته بَركة الصلاة في مساجد المدن والقصبات والقرى حيثما مكنته الظروف من الإقامة فيها، وقد جاء وصفه لبعض هذه المساجد دقيقاً. من ذلك مثلاً كلامه على جامع الرَّملة الكبير إذ قال «وجدتُه جامعاً محكم البناء، وله صحن واسع، وفي وسط الصحن قبة شاهقة، وهو ثلاثة أكوار ممتدة من المغرب إلى المشرق، وأما الكور الأوسط فإنه أعلى من اللذين من جانبيه، والمنبر من الرخام، وهو مقابل للباب، وفوق الباب سُدّة المؤذنين»[4] ولم يفته أن يقارن بينه وبين جامع آخر في مدينة نابلس، من حيث التصميم، فقال «وهذا الجامع يشبه جامع النصر الذي هو في مدينة نابلس في جميع بنائه وأكواره وإحكامه، لأنهما كانا كنيستين في زمن الإفرنج، ولما فتح المسلمون بلادنا عملوا غالب الكنائس جوامع». ومثل ذلك وصفه لجامع يافا الكبير الكائن في شمالي المدينة القديمة بأنه «مربع الأركان، وعلى دائر الصحن أروقة من كل الجهات، وفي كل رواق من الجهة الغربية حُجرة لطلبة العلم، وفي وسط الصحن مزولة تعرف منها الأوقات»[5] بل أنه نصَّ على هوية مؤسسه، وما كان عليه قبل عمارته، فقال «وكان قد

---

(1) النابلسي ص437

(2) النابلسي ص168

(3) السويدي ص319

(4) المقدسي الورقة 6

(5) المقدسي الورقة 9

عمَّره وشيَّده محمد باشا أبو نبُوت، وكان قبل عمارته آل إلى الخراب، ولما عمَّره المذكور زاد في صحنه وأوقف عليه أوقافاً». وهذه إشارة إلى قيام محمد ابو نبوت بإزالة سجن المحمودية الذي كان قائماً شمال المسجد وإدخال أرضه في صحنه.

المدارس والتكايا

لم تمثل المدرسة أولوية تذكر لدى الرحالين الأوائل الذين مروا بالمدن في بلاد الشام، ربما لغلبة اهتماماتهم الصوفية على وجدانهم، فلم يشر محمد الغزي إلا إلى مدرسة واحدة من مدارس حلب الكثيرة هي المدرسة الشرفية، وهي إشارة عابرة، ومثله مصطفى البكري في رحلته إلى القدس، إذ لم يذكر من مدارس هذه المدينة إلا المدرسة الأسعدية التي بناها أسعد أفندي مفتي ديار الروم. أما في رحلته (كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما ولاها من البلدان) فقد أشار في أثناء مكوثه في حلب إلى المدرسة الخسروية، وهي أول مدرسة عثمانية أنشئت في هذه المدينة، إذ أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني وعَهد إلى المعمار سنان باشا بوضع تصميمها وأشرف على إنشائها والي حلب خسرو باشا سنة 951هـ/1546م[1] وكانت هذه المدرسة تشمل عدداً من الحجرات أعدَّت لنزول الزائرين، فقال «ونزلنا في الخُسرَوية رحم الله بانيها وأسكنه المنازل العُلوية»[2]، ونوه بأسماء عدد كبير من العلماء والصوفية الذين قصدوا زيارته في هذا المكان، مما يمكن القول بأن المدرسة كانت تمثل المأوى المناسب والهادئ للعلماء الذين يمرون بالمدينة، أمثال البكري، ليبيتوا فيه مدة مكوثهم فيها، حيث جرى الحصول على الإجازات من الشيوخ، واستنساخ ما ألفوه من الرسائل التي يتسع الوقت لنسخها.

وبالمقابل، فإننا وجدنا عبد الله السويدي، الذي كان كبير مدرسي بغداد، يظهر إهتماما شديدا بالمدارس ومستوى ما كان يُدرَّس فيها وبأوقافها المرصدة للأنفاق عليها، فقال عن المدرسة الملحقة بجامع السليمانية بدمشق أنها «ذات حُجَر كثيرة، في صحنها بركة ماء، عشر في عشر، ذات فوارات خمس، وموضع التدريس قبة واسعة تفتح شبابيكها على البساتين من الجوانب الأربعة، وجميع قباب الحجر وسطوحها مصفحة بصفائح الرصاص، بحيث أن الرصاص الذي فيها يقاوم مالا عظيماً لا

---

(1) موقع (جواهر حلب) وموقع (وزارة الأوقاف السورية).

(2) كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من بلدان، الورقة 3.

يحصى، وسمعت ممن جاب البلاد أنه قال: ما في مملكة آل عثمان مثل هذه المدرسة» ولكنه انتقد إدارتها بقوله «لا عَيبَ فيها سوى أن أصوات العلم فيها خامدة، ولا يُصرف عشر العشر من أوقافها، وإنما يأكله الجهلة، نعوذ بالله من ذلك»[1].

وفضلا عن المدارس، فقد عُني العثمانيون بإنشاء التكايا في عدد من المدن التي امتدت إليها سلطتهم، لا سيما تكايا البكتاشية الخاصة بالضباط والجنود المنتسبين إلى أورطات الينكجرية، وتكايا المولوية، وكلاهما وجد انتشاره في الشام منذ دخول العثمانيين إليها، وقد أشار الرحالة الغزي إلى تكية المولوية في دمشق[2]، وذكر المحبي أن مما أنشأه والي دمشق الوزير سنان باشا في قرية القطيفة في شمالي دمشق «تكية لطيفة سامية»[3]. كما أشار إلى «زاوية القطب الرباني سيدي وملاذي حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني.. وفيها الآن جماعة من ذريته وولده»[4].

ووصف الرحالة ابراهيم الخياري التكية التي في قرية سَعسَع الواقعة على الطريق بين دمشق والقُنيطرة فقال أنها عامرة «جار لها بعض المُرتَّب، ويتبطن المنزل نهر عذب»[5]، وكان الغزي قد ذكر أن هذه التكية هي من إنشاء سنان باشا والي دمشق المتقدم. وأعجب بالمطبخ الملحق بالتكية الملحقة بخان الشغر، وقال أنه «محل الطبخ به قدران عظيمان يُطبخ فيهما كل يوم طعام ويوزع في طياس[6] من النحاس للفقراء المَقيمين والواردين»[7]. ووصف خان بيلان بأنه «خان كبير ينزله المسافرون شتاء» وأنه والمسجد المقابل «كلاهما من إنشاء مولانا السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان»[8].

وذكر عبد الغني النابلسي أن في قرية النبك «تكية للمسافرين»[9]، أنشأها صالح باشا الموستاري نائب الشام، وهو مصطلح جديد، ربما كان يعني داراً مخصصة للإقامة والتعبد فترات أطول مما تتيحه الخانات عادة. ونوَّه بالزاوية

---

(1) السويدي ص319

(2) كبريت ص222

(3) المحبي ص33.

(4) المحبي ص40

(5) الخياري ج2 ص162

(6) جمع طاس.

(7) الخياري ج1 ص187.

(8) الخياري ج1 ص192

(9) النابلسي ص101

القادرية في حماة، وذكر أنها «مُطلة على نهر العاصي»[1]، كما أشار إلى زاوية المغاربة في جنوب طرسوس، حيث دَفن أحد صلحائهم[2].

وأشار طه الكردي الباليساني إلى الزاوية التي عمرها والي دمشق أسعد باشا العظم، وكانت «قبة قهوته الكائنة خارج باب الفراديس على نهر الشام المسمى بَرَدَه».

الأضرحة والمشاهد

كانت قبور الأولياء والصالحين تمثل قيمة روحية وأخلاقية عالية في مجتمع ذلك العصر، فهي تقصد لزيارتها أولا، وقراءة سورة الفاتحة على أرواح أصحابها، والدعاء عندها، تبركاً بقدر أولئك المدفونين فيها، وكان الرحّالون يقصدونها لكل تلك الأسباب، بل كانت هي سبباً لرحلاتهم أحياناً، أمثال مصطفى بن كمال الدين البكري وعبد الغني النابلسي.

ويعد الأخير أنموذجاً لأولئك الرحالين، فهو قد صرح في مقدمته أن هدف رحلته هو التبرك بزيارة أصحاب الأضرحة ليس إلاّ، وحقق هذا الهدف فعلا ، فقد أحصى كل قبر في البلاد التي مر بها، وتجشم العناء الكبير في زيارتها، والتبرك بها، حتى لو استقر عنده أن منها ما لم يكن لأصحابها، وإنما هي منسوبة إليهم، وهكذا فإنه وصف غالباً تلك الأضرحة، وبدأ بقبر جده إسماعيل، فعيَّن أن من عمَّرها هو «المرحوم درويش باشا صاحب الجامع العظيم المشهور في دمشق الشام»، يريد به والي دمشق درويش باشا بن رستم باشا، الذي تولاها من 979 إلى 983هـ/1571-1575م، ولما يزل جامعه هذا من أهم الجوامع العثمانية في دمشق. وقال أن جَدّه المذكور كان «أول من دفن فيها في القبر الكبير الذي له شباك من الحجر المنحوت مُطِل على الطريق»[3]، وذكر أن قبر عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق «عُمِّرت عليه عمارة مشهورة عند أهل الشام».

وسجَّل اعجابه الشديد بالعمارة التي أقامها السلطان سليم الأول على قبر الصوفي الشيخ ابن عربي، ووصف هيئة هذا القبر من تلك العمارة فكشف عن أن للشيخ قبرين «قبر مسامت لأرض الجامع المذكور، يدخل إليه من باب في داخل الجامع معقود عليه القبة الشريفة، وعليه هَيبَة وجلالة منيفة، وقليل من الناس من

---

(1) النابلسي ص154

(2) النابلسي ص204.

(3) النابلسي ص49

يَعرفه ويزوره منه، وكان الناس قديماً يزورونه منه، ثم رأوا في ذلك حَرَجاً من غلق الأبواب التي في داخل الجامع، فعَدَلوا عنه إلى القبر الثاني الذي هو الآن مشهور به على مسامتة ذلك القبر الذي في المكان الحالي، والقبر الثاني يُنزل إليه بدرج من خارج الجامع المذكور، وعليه قبة معقود بالأحجار يسامت أرض الجامع»[1]، وذكر أن مزار الشيخ قسيم «عليه قبة قد بنيت»[2]، وأن مزار الشيخ حابس «عليه عمارة لطيفة الطول والعرض، وليس له في داخل قبته قبر معين على وجه الأرض»[3]، وأن سعد بن أبي وقاص «مدفون في داخل جامع صغير، عليه قبة صغيرة»[4]، وأن قبر مسعود المغربي «عليه قبة معقودة»، وأن قبر الشيخ محمد السَّرجاوي «عليه قبة صغيرة»، وأن قبر السيدة تاجة «قبر متهدم عليه بعض عمارة»، وأن قبر والدة ابراهيم بن أدهم «قبالتها محراب كبير عال، وعليها عمارة أصلاً»، وأن مزار عبد الله المغاوري «مزار على شط البحر وعليه قبة صغيرة»، وعند حديثه عن مزار الشيخ الأوزاعي ذكر أن من عمَّرته «امرأة من بيت سيفا»، ووصف داخله بأن «عليه قبة وفيه محراب.. وعلى الجانب الأيسر من المحراب طاقة صغيرة تدل على قبر الشيخ، ومدفون تحت الحائط القبلي وقبره ظاهر إلى الخارج»[5]، وذكر أن قبر عثمان الكردي في «قبة بيضاء عظيمة»[6]، وأن مقام صَيدون «فيه قبره، وعليه قبة مبنية»[7]، وأن على قبر نبي الله صالح «قبة مبنية تطاطئ من خلالها الرؤوس»[8]، وأن قبر الشيخ محمد العَلَمي «في داخل قبة، وعنده عمارة عظيمة، وجامع شريف، بمنارة عالية فوق الجبل»[9]، وأن قبر الشيخ ريحان «في داخل قبة بناها الشيخ خير الدين المفتي»[10]، ووصف مقام علي بن عليم في «في ساحة واسعة تحيط بها جدران أربع، ولها باب مقفل في غير أيام الزوار»

---

(1) النابلسي ص74
(2) النابلسي ص89
(3) النابلسي ص100
(4) النابلسي ص114
(5) النابلسي ص245
(6) النابلسي ص254
(7) النابلسي ص258
(8) النابلسي ص295
(9) النابلسي ص340
(10) النابلسي ص400

وقال أن «القبر الشريف مبني بالرخام وحوله تأزير مُنيف في جانب من تلك الساحة السماوية، وفي قبلتها عقد من القبو غرباً يشرق فيه المحراب»[1] ومثل ذلك كثير[2].

الحمامات

تعد الحمامات التي كان ينشؤها المحسنون في المدن، أو في الخانات التي في الطرق التجارية، من المنشآت المهمة التي أفاد منها الرحالون في أثناء انتقالهم بين المدن والقرى والمفاوز، ففيها يمكن للرحالة أن ينفض عنه وعثاء الطرق وغبارها، بل أن يجد فيها المياه المُسَخَّنة في الشتاء، وما يحتاجه من راحة في الصيف، وكان إنشاء مثل هذه المرافق الخدمية يجري غالباً ملحقاً بالخانات الكبيرة في الطرق، حيث يؤمها الرحالون مجاناً، أو مستقلة في المدن التي يمكن التمتع بخدماتها لقاء شيء من المال. من ذلك أن الرحالة محمد كبريت المدني أشاد بحمام مصطفى باشا في دمشق، فعدَّه من محاسن الشام، وقال «إنه لا نظير له في تلك الأقطار ولا مُداني، وذلك لما اشتمل عليه من حُسن الصنعة ومحاسن المباني»[3]. وأبدى إعجابه بما في بلدة سَراقِب من الحمامات[4].

ووصف عبد الغني النابلسي حماماً دَخَله في حماة فقال أنه بقرب الجسر، وقال «تنعَّمنا بأنواع الأنعام، ولم تخل من طرائف التلاحين»[5]، وأن في قلعة طرابلس «حمام لطيف، عذب الماء، نقي نظيف»[6].

وأظهر عبد القادر المقدسي إعجابه الشديد بحمام السراي في بيروت، وكان قد دخله واغتسل فيه، فقال «وجدناه في غاية التنظيم، وفي دائره التُخوت الخشب، وعلى كل تخت طرّاحة، ومن فوقها سجادة .. ودخلنا بيت الحرارة فوجدناه فرجة للناظرين، وفي وسطه مصطبة مربعة الأركان نحو خمسة أذرع في

---

(1) النابلسي ص411

(2) تنظرمثلا الصفحات 419 و420 و443 و424 و425 و428 و434 و435 و436 و451 و453 و4555 و468 و468.

(3) كبريت ص224

(4) كبريت ص203

(5) النابلسي ص154

(6) النابلسي ص220

خمسة أذرع، وارتفاعها ذراع، يجلس عليها من يشرب الدخان والتنباك والقهوة.. وسائر بلاطه من الرخام، وهو في غاية الإتقان»[1].

البُرك والأحواض والسقايات

توفر البُرك وأحواض المياه والسقايات للمسافرين الماء الصالح للشرب، أو للحفظ في أوان خاصة ليُنقل على ظهور الدواب، ولما كان إسقاء الماء يُعد أكثر الأعمال ثواباً، فقد حرص كثير من المحسنين على إنشاء مشاريع الشرب الأنيقة على الطرق الخارجية، كما حرص بعضهم على تخليد ذكراهم بكتابات تذكارية تُدون في أماكن ظاهرة من سقايات الشرب طلباً لترحم الشاربين.

ذكر محمد الغزي أن بظاهر حمص على نحو ميل «بركتها المعظمة التي تُصاد منها السمك الكبار»[2].

والتفت الرحّالة ابراهيم الخياري إلى بعض تلك المشاريع، فقال عن منطقة تقع على الطريق بين القنيطرة وعين التجار بأنها تضم الجُب الذي ألقي فيه النبي يوسف، ووصف هذا الجُب بأنه «مبني بالحجارة المنحوتة.. وفي أعلاه قبة مرتفعة ذات أركان أربعة وأبواب كذلك، والقبة فوق الجب تمنع سقوط المطر ونحوه بها».[3] ووصف البركة التي بالقرب من بيت لحم بأنها «بركة عظيمة، ويقال أن قريباً منها بركتان أخرتان، وأن ماء بيت المقدس ينصرف إليه من هذه»[4].

ووصف مصطفى البكري هذه البرك بقوله أن عددها ثلاث برك، كل واحدة عليا أكبر من أختها السفلى، وثمة بركة بجانب جب يوسف، ووصفها بأنها «بركة واسعة الجوانب»[5].

وكان المؤسسون حريصين على تزويد الخانات والقلاع بمصادر المياه، وفي هذا ذكر الخياري أن القلعة الكائنة في ناحية عيون التجار يحيط به سور يضم منشآت

---

(1) المقدسي الورقة 12

(2) الغزي ص44

(3) الخياري ج2 ص164

(4) الخياري ج2 ص196

(5) البكري

خدمية وبيوت «وماء عذب يستقي النازلون منه»[1]، وأنه يوجد في مدينة الرملة «بركة عظيمة عند منزل الحجاج تمتلئ من ماء المطر »[2]. وأضاف عبد الغني النابلسي أن الماء يجري «في طريق له بين تلك الجبال والأودية مغطى بالبنيان عليه، حتى يصل إلى حَرَم بيت المقدس، ويخرج من الكأس الرخام الذي هو لديه»[3]، ووصف النابلسي بركة في جنوب طرسوس تسمى بُركة البدّاوي بأنها «بركة كبيرة فيها أسماك كثيرة، وقد أخبرنا أن سمكها لا يصاد، وكل من صاده وأكل منه يمرض وذلك ببركة الشيخ البداوي المدفون هناك على حافة البركة»[4]، وأشار إلى بركة عند تكية المولوية في جبل لبنان «يجري إليها الماء في نهر هناك عال في ذيل ذلك الجبل يمر في الجهة العالية من تلك التكية.. وفي ذلك الوادي طواحين على تلك الأنهار دائرة»[5]، وحينما زار مدرسة الأوزاعي رأى هناك «الحمام الذي مات فيه الأوزاعي»، واستدرك قائلا «وهو الآن خراب وقد تهدم بعضه»[6].

وعني عبد الله السويدي بقراءة ما كان يكتب على السقايات، أو السبيلخانات، من كتابات تؤرخ لها، من ذلك أنه حينما دخل خان أسعد باشا العظم في حماة سجل كتابة على طاقها تتمثل بثلاثة أبيات من الشعر يحمل آخرها تاريخ التأسيس، وهي:

خليليَّ قف جَنْب السبيل فقد ندا   واشرَب بماء السلسبيل مُبرَّدا

وادعُ لمن أنشأه دَعوةَ صالحٍ   بدوام مُلكٍ لا يزالُ مؤبّدا

بالسعدِ والأفراح قد أرختهِ   فالأجر يبقى والثواب الأسعدا

كما أنه نوه بعيون للماء وبرك، منها عين الزرقاء وبركة القطراني، وقد قال فيها أنها «بركة عظيمة مشرفة على الخراب تمتلئ من ماء المطر»[7].

---

(1) الخياري ج2 ص164

(2) الخياري ج2 ص170

(3) النابلسي ص353

(4) النابلسي ص21

(5) النابلسي ص206

(6) النابلسي ص235

(7) السويدي ص357

القلاع والحصون

تغيرت وظائف القلاع والحصون في بلاد الشام في العصر العثماني عنها في العصور السابقة، فلم تعد مهمتها الدفاع عن البلاد ضد غزو خارجي محتمل، وإنما لحماية الداخل من أخطار قطاع الطرق والخارجين عن القانون من زعامات القبائل الثائرة، ومن هنا فقد تداخلت مهامها مع خانات الطريق، فباتت تمثل محطات يأوي إليها المسافرون من تجار ورحالين، لما توفره من أمن قوامه حصانة المكان من جهة ووجود قوى عسكرية وُظفت لهذا الغرض، وقد عُنيت الدولة العثمانية بتأسيس هذه القلاع في الفَلَوات الموحشة لا سيما على طريق الحج، وتجهيزها بالجنود اللازمين لحمايتها وما يحيط بها، وإبدالهم بغيرهم في أوقات دورية منتظمة.

وقد عبر المحبي عن شعوره بالأمن حين قدم إلى قلعة حسية بقوله «فقدمناها ونحن من اللصوص في خشية»[1]، وذكر أن في مكان يسمى عيون التجار «قلعة عامرة على تل مرتفع»[2]، وأن في قاقون قرب الرملة «قلعة على تل عال»[3]، وقال عن القلنسوة أنها «قلعة .. بها واقعة مشهورة»[4].

وإذا لم تكن القلعة تتخذ وظيفة الخان، ففي الأقل تبنى الخانات قريبة منها لتكون في حماها. وفي هذا يذكر الخياري في وصفه منطقة قاقون أنه على يسار المار فيها قلعة، وعلى يمينه خان، وأن بيت جبرين بها «قلعة وخان خَرِب»، مما أكد اقتران القلعة بالخان في مهمة إيواء المسافرين وحمايتهم. ووصف قلعة معان بأنها «قائمة البناء يسكنها جماعة من أهل البلاد لا طائفة من العسكر كغيرها من القلاع لعدم الاعتناء»[5]. وذكر أن قلعة القطراني«قلعة عظيمة البناء لائحة الإشراق والسناء.. بها جماعة من أهلها مقيمون بها يبيعون منها التبن وما يناسبه من أعلاه»[6].

ووضَّح عبد الله السويدي مهام هذه القلاع حين ذكر وهو في طريقه إلى الحج منطقة المزاريب فقال أن «قلعتها حول عَين منخفض واديها تجري فيه السيول»

(1) المحبي ص35

(2) الخياري ج2 ص164.

(3) الخياري ج2 ص168

(4) الخياري ج2 ص165.

(5) الخياري ج1 ص81.

(6) الخياري ج1 ص85.

وذكر أنه أقام فيها أياما، وقال عن القطراني أن «فيها قلعة صغيرة، فيها حُرّاس، وعادة الحجاج يضعون أمتعتهم من زاد وغيره فيها ليأخذوها إذا رجعوا»[1]، وكانت هذه القلعة قد أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني سنة 967هـ/1559م لحماية الحجاج. وذكر مثل ذلك عن قلعة عنزة إذ قال أنها «قلعة ينزلها الحاج الشامي، وفيها حرس وبركة تمتلئ من المطر، وعادة الحجاج [أنهم] يودعون بعض أمتعتهم فيها ليأخذوها إذا رجعوا»[2]. ويدل هذا الصنيع على مبلغ ثقة الحجاج بنزاهة الحراس والجنود الموكلين بحفظ ذلك المتاع من أن تمتد أيديهم إلى ما ائتمنوا عليه.

وقد تسمى القلعة قصراً، فقد ذكر السويدي أن حول عين الزرقاء «قلعة صغيرة تسمى بقصر شبيب وفيها حُراس يتعاقبون كل عام»[3]. وهذه القلعة يعود بناؤها إلى العصر العثماني.

خاتمة

قدم الرحالون المسلمون الذين سافروا عبر بلاد الشام معلومات مهمة، عبرت عن اختلاف ثقافتهم، والغايات المتنوعة من رحلاتهم، وتشمل هذه المعلومات:

1- تعيين مواقع المنشآت في المدن، أو في الطرق الخارجية.

2- تسجيل النصوص التذكارية التي دوَّنها المؤسسون على تلك المنشآت تخليداً لما قاموا به من محاسن الأعمال النافعة. وبعض هذه النصوص قد زال فيما بعد.

3- الوصف العام لشكل المنشآت الخارجي، ارتفاعها وفخامة مظهرها وما أضيف إليها من القباب والمآذن.

4- وصف دواخل تلك المنشآت من الحجر والأواوين والقباب والأعمدة وغير ذلك.

5- ما كانت تقدمه تلك المنشآت من خدمات عامة، لا سيما الخانات والسقايات، وطبيعة ادارتها من خلال سلوك متولي أوقافها والقائمين عليها.

---

(1) السويدي ص357

(2) السويدي ص359

(3) السويدي ص355

6- تعيين مؤسسي تلك المنشآت من الوزراء والأمراء والسلاطين والصدور العظام.

7- حالة المنشأ في وقت زيارته، إن كان عامراً أو خرباً، آهلاً أو متروكاً.

8- أصل المنشأ إن كان مقاماً أم كنيسة أو غير ذلك، وما أحيط به من كرامات وبركات.

وهكذا فإن أدب الرحلات العربية يقدم مادة غنية عن المعالم العمرانية في بلاد الشام إبان العصر العثماني، فيه من التوثيق، والوصف، والملاحظة، ما من شأنه أن يكون موضع عناية الباحثين في هذا الضرب من فنون الأدب.

الألفاظ الدخيلة والعامية

في رحلة الموصلي الكلداني الى القارة الأمريكية 1668م

معلوماتنا عن صاحب هذه الرحلة الحافلة شحيحة على الرغم من أهميتها وريادتها المطلقة في أدب الرحلات التي قام بها المشارقة إلى العالم الجديد، وغاية ما نعلمه عنه أنه يدعى إلياس بن حنا، وأنه كلداني من أهل الموصل، إلا أن أسرته المعروفة ببيت عَمّون كانت تمت بأصلها الى أسرة الأب (العشيرة الأبوية) أيام كانت تقيم في بغداد وقبل أن تنتقل الى الموصل وقراها في سهل نينوى.

ولم تذكر المصادر أي معلومة عن مكان ولادته، والغالب أنها في الموصل، حيث استقرت أسرته، او في بغداد ومنها أصولها الأولى، فقد سجل اسمه في مقدمة رحلته على أنه (إلياس حنا الموصلي)، ولكن لا يبعد أنه ولد في بعداد، بدلالة عبارة وَرَدت على لسان احد من تعرَّف عليهم في رحلته إذ وصفه انه «خوري جاءنا من بلد بغداد»[1].

وتساءل باحثون إن كان الياس قد ولد كلدانياً أم نسطورياً، فأسرته نسطورية لا شبهة في ذلك، الا ان جولاته في مناطق مختلفة من الشرق تجعل من اعتناقه الكثلكة أمرا محتملا، وثمة دلائل عدة تشير الى أنه أقام مدة من حياته في سوريا أو لبنان، وأن بعض أفراد من أسرته عاش في حلب حتى عرف بالحلبي[2]، ففي لغته التي دوّن فيها رحلته ألفاظ لبنانية وسورية لم تكن متداولة في وطنه العراق، فإن كان عاش في هذه البلاد يكون قد اعتنق الكثلكة على أيدي بعض المبشرين من الموارنة الذين سبقوا الى اعتناقها منذ عهد بعيد. وكان الأب جوزييه سبستياني الكرملي قد صرح في رحلته التي صحبه فيها بأنه «كان نسطورياً فتكثلك».

---

(1) الرحلة ص 107

(2) كان للخوري الياس ابن أخ اسمه إسحاق توسط له عمه فشغل وظيفة مترجم لدولة إسبانيا في روما، ثم عاد إلى الموصل، فتزوج من مريم بنت طربوش، وقصد حلب فعرفت أسرته لهذا السبب بآل الحلبي، وولد لإسحاق ولدان، أولهما سماه إلياس ، وثانيهما سماه يوسف، وقد عادا إلى الموصل، حيث عين واليها الحاج حسين باشا الجليلي الياساً صرافاً له، واشتريا البيت المعروف ببيت الحلبي، وتناسبا مع بيت رسام، وسعيا لنشر الكثلكة . وقد كافأ الآباء الدومنيكان في الموصل آل الحلبي في سعيهم في نجاح البعثة الدومنيكية، بأن أنعم البابا بيوس السادس (1775-1799م) على إلياس ويوسف برتبة الخيالة. ينظر حبابة: رحلة أول عراقي دخل الأراضي الأمريكية، Chaldean Detroit Times Vol.21,NO. 472.october 15.2011

ويزيد هذا الأمر تأكيداً أن لإلياس ابن أخ شماس، اسمه يونان سبقه الى الإيمان بالكثلكة[1]، كما أن رتبة الخوري التي نالها والثقة التي حازها من البابا نفسه لا تدلان على أنه كان حديث عهد بهذا الايمان.

وعلى أية حال فإن إشارات أخرى دلت على أن جانباً من حياته ظل مطوياً، منها ان له رحلة سابقة على هذه الرحلة قام بها من بغداد قاصداً بها روما في سنة 1658[2]، ولكن لا نملك تفاصيلها وما مر به من الحواضر والبقاع في أثنائها، وأن في رحلته نفسها ما يدل على أنه كان على معرفة حسنة بأرض مصر ولهجة أهلها، ولكننا لا نعلم الباعث على زيارته لها ومدة مكوثه فيها.

ثم ما سر هذه الثقة المطلقة التي أولاه إياها البابا، وما طبيعة المهمة، أو المهام التي كلفه بها، على الرغم من إمكان البابا أن يكلف أياً من الكهنة الإسبان او الفرنسيين او غيرهم من الأوربيين أن يقوم بها بدلا عنه، وهو الشرقي الكلداني العراقي البعيد لغةً وموطناً، ومن الراجح أن ذلك التكليف البابوي كان سرياً، لان الياس لم ينوه به في طول رحلته وهي التي استغرقت عشر سنوات كاملة، والظاهر ان البابا قد فوَّضه سلطة واسعة تمكنه من فرض ارادته على الحكام الاسبان في المدن التي زارها، وحينما ذكَّره أحدهم بأن المدة التي حدّدها البابا لرحلته وهي أربع سنوات قد ازفت بالانتهاء، لم يأبه له وتحداه إن استطاع أن يحول دون تمديدها ما شاء له ان يمددها حتى بلغت زيادة على الضعف. وذكر هو أسماء الأوسمة الشرفية التي نالها في حياته فكانت (أرخدياقون كنيسة بغداد) و(رئيس المحررين المرسلين) و(حامل صليب مار بطرس) و(كونت القصر الملوكي) و(كاهن كنيسة سلطان إسبانيا)[3].

ومما يلفت النظر اتقانه الكامل للغة الإسبانية حتى بدا من أهلها، وهنا نتساءل أين تعلم هذه اللغة على هذا النحو المدهش، ومن أين له تلك الصلات

---

(1) الرحلة ص 41.

(2) صحب في رحلته هذه الأب جوزييه سبستياني الكرملي، وقد عين هذا قيامه برحلته في 10 تشرين الأول سنة 1258، ينظر رحلة سبستياني، ترجمة بطرس حداد، بيروت 2006، ص64 ص64 بينما ذكر هو أنه قصد روما سنة 1259، على ما أورده في كتابه (بستان الحياة) وهو التاريخ الذي يعتمده يعقوب سركيس: مباحث عراقية ج1 ص333، وبهنام حبابة: رحلة أول عراقي دخل الأراضي الأمريكية، مصدر سابق.

(3) حبابة: المصدر السابق، نقلا من (بستان الحياة).

القوية التي ربطت بينه وبين كهنة كبار، منهم أعضاء في مجمع انتشار الايمان، وملوك وأمراء وحكام كثيرون، حتى قبل أن تطأ قدماه البلاد الأمريكية. ومع ذلك كله كان إلياس معتزاً بشخصيته الكلدانية المميزة، فإنه كان يختار أن يقيم بعض قداديسه في الكنائس المهمة باللغة الكلدانية دون غيرها، رغم انه كان على يقين بأن أحداً من الحاضرين لم يكن يَفهم منها حرفاً واحداً، وكان هذا يبعث على «إنشراح زائد»[1] من سامعيه وتقديرهم أينما فعل ذلك، وفي تقديرنا فإن سر هذا الإعجاب يكمن في تقديرهم للغة الكلدانية (وهي الامتداد للغة الارامية) بوصفها الاقرب الى اللغة التي تحدث بها السيد المسيح من أي لغة أخرى[2].

وفي وسع المتأمل للرحلة أن يكتشف، بيُسر، مدى ما كان يميز الياس الكلداني من نباهة ظاهرة، وذكاء ملحوظ، فهو الشرقي الوحيد الذي ملك الشجاعة ليعبر المحيط الاطلسي الى عالم جديد لم يسبق اليه احد من مواطنيه، وقد تمكن من العيش في بيئات غريبة، وسط مجتمعات مختلفة غير متجانسة لا يعرفها، تتألف من الاسبان والهنود المسيحيين والهنود الوثنيين، مدة طويلة كالتي قضاها بين ظهرانيهم، يتنقل بين البر والبحر، وبين مدينة وأخرى، كما أنه كان طبيباً او عارفاً بالطب، فقد عالج – بثقة- مرضى آيسوا من الشفاء فكان شفاؤهم على يديه[3].

غادر الياس بغداد سنة 1668 ومرَّ بالقدس ثم حلب فالاسكندرونة فالبندقية فروما، حيث قابل البابا كليمنت التاسع، ثم قصد باريس فاستقبله فيها الملك لويس الرابع عشر (1643- 1715)، فاسبانيا حيث حظي بحفاوة الملكة حنَّه الوصية على عرش ابنها كارلوس الثاني، ثم عاد الى فرنسا فإيطاليا، ثم البرتغال، فاسبانيا، ومن ميناء قادس في جنوب إسبانيا أبحر، على ظهر أسطول إسباني الى أمريكا، فمرّ بأجزاء من فنزويلا، وبَنَما، وكولومبيا، وبيرو، وكوبا، و بوليفيا، وشيلي، ثم المكسيك، فغواتيمالا، فالمكسيك ثانية، فكوبا أيضا، وبعد تنقلات دائبة، وإقامات طويلة في كل هذه البلاد، قفل إلى روما سنة 1683 حيث حظي بلقاء البابا انوسينت الحادي عشر الذي كلّفه «بوظائف لم أكن لائقاً بها» على حد تعبيره

---

(1) الرحلة ص 72

(2) يتفق الباحثون على ان اللغة السائدة في فلسطين، في القرن الأول الميلادي، كانت الارامية المتأثرة بشيء من العبرية.

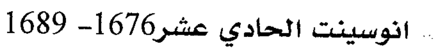
(3) الرحلة ص61

المتواضع[1]. ولا يُعرف تاريخ وفاته، لكنه كان حياً في روما سنة 1693 ففي هذا التاريخ طبع كتاباً دينياً تحت عنوان (بستان الحياة) من تأليفه بالعربية[2].



كليمنت التاسع 1667- 1669





انوسينت الحادي عشر1676- 1689

وعلى الرغم من أهمية رحلته من النواحي التاريخية والجغرافية والاثنوغرافية فإنها لم تنل ما تستحقه من دراسات الباحثين، بل أنها لم تُكتشف إلا في مطلع القرن العشرين، إذ نشرها أنطوان رباط في مجلة المشرق سنة 1905 مزودة بهوامش توضيحية قليلة، ومقدمة تُعرِّف بالرحّالة وكتابه بشيء كثير من الاقتضاب، ثم ظهرت مُجمَّعة ومستقلة سنة 1906. وفي العقود التالية جرى العثور على نسخ أخرى من الرحلة، في مكتب الهند بلندن، وفي المتحف البريطاني، وفي الموصل، ولكن ذلك لم يشجع أحداً على تحقيقها تحقيقاً علمياً بمقارنة المطبوع على تلك النسخ المكتشفة.

وأعادت ابتهاج الراضي نشرها على ضوء المطبوع نفسه في مجلة المورد التراثية التي تصدر ببغداد، بعنوان (رحلة المواطن العراقي الياس الموصلي، أول سائح عربي يصل الأمريكتين) وقام زوجها الصديق المرحوم الدكتور سامي سعيد الأحمد بترجمة نص الرحلة الى الإنكليزية ونشرت هذه الترجمة في بغداد سنة 1982، ولم تصل منها الى الولايات المتحدة ودول أمريكا الوسطى إلا نسخ قليلة كما أخبرني في حينه[3].

---

(1) الرحلة ص 123

(2) يعقوب سركيس: مباحث عراقية ج1 ص333

(3) تنظر مصادر ترجمة الياس الموصلي الكلداني في أنطون رباط: أثر جديد لأول رحالة شرقي إلى أميركه، مجلة المشرق 9 (بيروت **1906**) ص470- 474 (المشرق 12 [1909] ، وبطرس

وأخيرا أعاد نوري الجراح نشر الرحلة كما هي، عدا مقدمة واضافة شروح قليلة لبعض الكلمات غير المألوفة حاصراً إياها بين أقواس في المتن نفسه، معتمدا طبعة أنطون رباط نفسها[1]، وصدرت عن دار السويدي في ابو ظبي، والدار العربية للدراسات والنشر في بيروت سنة 2001 وهي الطبعة التي اعتمدنا أرقام صفحاتها في هذا البحث. ثم قام جون جاك شميدت بترجمتها الى الفرنسية فصدرت في باريس سنة 2012 بعنوان Un Irakien en Amerique au XVII e Siecle ضمن سلسلة (مختارات عربية- نصوص كلاسيكية) وقد اعتمدت الطبعة الفرنسية على النسخة التي نشرها نوري الجراح نفسها.

وهكذا ظلت الرحلة من ثم في حاجة الى دراسات جديدة تستظهر مكامن الجدة في معلوماتها وتبين جوانب الاهمية فيها.

وكنا قد قرأنا هذه الرحلة غير مرة منذ سبعينات القرن الماضي، ولاحظنا أنها تضم، فيما تضم، ثروة من الألفاظ والمصطلحات المحلية والمستجدَّة لم تلفت نظر الباحثين قط، إلا في إشارة سجلها المستشرق الروسي كراتشكوفسكي إذ قال

نصري الكلداني: ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، ج2 ص97 ويعقوب سركيس: مباحث عراقية، ج1 ص311- 334، وكراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة 1965) ص701- 706 ولويس شيخو: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، المشرق 22 (1924) ص335، ويوسف بابانا: ألقوش في التاريخ ص144، وبهنام سليم حبابة: رحلة أول عراقي دخل الأراضي الأمريكية، في Chaldean Detroit Times Vol.21,NO. 472.october 15.2011 وكتابنا: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، ط2، لندن 2009، ص136- 138.

(1) على الرغم من ان الجراح صرح في مقدمة طبعته أنه اعتمد على الطبعة التي قام بها الاب انطون رباط بصفة وحيدة، وأن هذه الطبعة اعتمدت على نسخة خطية في مطرانية السريان في حلب، إلا أن كاتباً غير معروف كتب على شبكة الانترنيت أن الجراح اعتمد على "نسخة محفوظة في المتحف البريطاني وهي مخطوطة نسخت في سانتا ماريا مقابل ميناء قادش بخط يد اندراوس ابن مقدسي عبد الله الكلداني في الأول من آذار(مارس) عام1699م. وهي مكتوبة بخط ركيك لكنه مقروء، وليس فيها خروق أو طمس. ويقع نص الرحلة في هذه النسخة في 123 صفحة وتحتوي الصفحة على 18 سطرا". وهذا الوصف كله لم يرد في مقدمة الجراح مطلقا، بل انه اشار الى ان النسخة الخطية التي اعتمدها رباط كتبت سنة 1817، والمحفوظة في مطرانية السريان في حلب. والصحيح ان النص هو وصف لنسخة اخرى من الرحلة محفوظة في مكتب الهند نقله يعقوب سركيس بحرفه في مباحث عراقية ج1 ص332، فلا ندري كيف قفز وصف نسخة مكتب الهند ليكون وصفا لنسخة المطرانية التي اعتمدها رباط!

«ورغماً من أنه جَهَد في استعمال اللغة الأدبية فكثيراً ما وجدت طريقها إليه الالفاظ المحلية والكلمات التركية، بل وحتى أساليب لغة المخاطبة اليومية»[1].

فكانت تلك الاشارة باعثاً على أن تكون موضوعاً لدراسة لغوية مستقلة، ثم أننا عكفنا منذ مدة على استخراج تلك الألفاظ والمصطلحات وتحليل دلالاتها وبيآتها وأصولها ما أمكن ذلك، فخرج من نتاج ذلك الجهد معجم لغوي صغير، رتبنا مُفرداته على الحروف، ونظنه لا يخلو من فائدة للمتتبعين والباحثين.

*　*　*

- أ -

إجازة

اللفظ فصيح وله معان شتى، وورد في الرحلة بمعنى الرُخصة في أي أمر. قال في ص72 «طلبت اجازة من الوزير لأروح إلى جبال الفضة والذهب»، وفي ص92 «فأرسل اليَّ المطران دستوراً حتى أعبر أعالجها لأن بغير اجازة لا يقدر ان يجتاز باب الدير».

أجزاء

مصطلح يقصد به أجزاء من المواد الداخلة في مجال الأدوية المفردة يحفظها الصيدلي او الطبيب لاستعمالها عند الحاجة او الطلب. وقد استعملها بهذا السياق في قوله في ص91 «فرحت زرتها وعالجتها ببعض أجزاء مناسبة لعلتها»، قلنا : ومن لفظ أجزاء ركبت كلمة (أجزاخانه) التركية بمعنى بيت الأدوية.

أحشى

عامية، تعني بحسب الرحلة (أوغر صدر) و(حرّض) . جاء في ص117 «فبسبب هذا أحشوا عليه قضاة البلد». أي حشوا قلوبهم بغضا. بينما فسَّرها نوري الجراح بأنها تعني (قام) ولا وجه لهذا التفسير لأنه يخرج عن السياق.

أرمغانات

هي لفظة مأخوذة من التركية armagan بمعنى الهبة والهدية والعطية. قال في ص122 «اشتريت حمِلَي بصل يابس وصندوقي تفاح لأجل أرمغانات»، أي

---

(1) تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج1 ص701.

ليقدمها على سبيل الهدية. وعلق انطون رباط على هذه اللفظة أنها مما جرى استعماله في حلب وما بين النهرين.

استأنى

اللفظ من العامي الفصيح في مصر، قال في ص 51 «فبقينا نَستنّاهم نحو شهرين»، وهو مرادف للفظ (استنظر) الذي استعمله بالمعنى نفسه في ص 53، حيث قال «فلما وصلنا إلى هناك رَسونا في هذا الميناء مستنظرين المراكب». وهذا اللفظ من العامي الفصيح في العراق، ويلفظ الظاء فيه دالاً مفخمة.

استهَمَّ

يظهر أنها بمعنى «استجمع همته» حيث ورد ت في ص121 «حينئذ استَهَمَّيت وركبت في ذلك المركب الصغير».

الأسْكلة

اللفظ مأخوذ في الأصل من (صقالة) العربية، وهي اللوح الصقيل الذي يتخذ واسطة صعود الملاحين وأرباب السفن وحماليها من الرصيف إلى سفنهم، ثم أطلق على الموانئ حيث مراسي السفن نفسها، وبهذا المعنى عرفها صاحب الرحلة فقال في ص 50 «الأسكلة حيث ترسي الغلايين» (تنظر مادة غليون) وربما اطلق اسم أسكلة على البلدات الواقعة على ساحل البحر، فقال في ص92 عن أسكلة بوناس آيرس «وهذه البلدة على البحر المحيط قريبة من بلاد البرازيل»، وقد يكون للأسكلة سور أو لا يكون فقال في ص 112 واصفاً إحدى الإسكلات «ليس للأسكلة سور». ولبعض الأسكلات أهمية إدارية فضلا عن أهميتها التجارية، فقال عن واحدة منها ص46 «وفي هذه الأسكلة يقام ديوان مدبري المملكة». ص46

إعتازه

عامية عراقية بمعنى احتاج اليه، حيث ورد في الرحلة ص46 «فجهَّزني كل ما أعتازه في السفر»، وورد في المعنى نفسه ص96 «أساعدك في جميع صالحك بكل ما تعتاز». وقال في ص 67 «ما بالك لابسا هذه الملابس الدنية؟ فأجابها قائلاً لشدة فقري وعازتي».

اكتسب

مصطلح فصيح له معان مختلفة، لكنه أراد به معنى آخر هو الضم والاحتلال. قال في ص113 «ورأوا جزيرة واكتسبوها وجعلوا اسمها فيليبيناس».

أكّد

في اللغة أكده تعني اوثقه وأثبته، وفي الرحلة تعني تعيين موقع موضع ما على الخارطة. يفهم ذلك من قوله في ص101 «أرادوا الرجوع الى الجزيرة فما استطاعوا لأنهم لم يكونوا أكدوها ولا وزنوا قيراطات الشمس».

آلة القداس

وضح معنى هذا المصطلح في ص90 بقوله «وكان عندي آلة القدّاس يعني البَدلة وغير أشياء (يريد: أشياء غيرها) كان أنعم عليَّ بها البابا اكليمنضوس التاسع».

ألقش

عامية، قال في ص110«اروح ألقش عند الوزير» وفسر ناشر الرحلة نوري الجراح هذا اللفظ بـ(أتحدث). مع أنها بالتركية تعني: ابارك، أهنئ. أمين خوري: رفيق العثماني، بيروت 1894 ص15

أوضه

كلمة تركية بمعنى (حُجرة)، كانت مستعملة في العاميات العربية في العراق والشام ومصر، وتلفظ (أوده) بدال مضخمة. قال في ص46 «فأدخلت حوائجي في الأوضة وقفلت الباب». وفي ص 121 «إن قوانين هذه المراكب أنهم يكرون الاوضة ذراعين وعرضها ذراع وثلث، وعلوها ذراع ونصف».

أولاق

كامة تركية تعني ساعي البريد، ناقل الرسائل. قال صاحب الرحلة في ص50 «جاءت المكاتيب مع الأولاق».

آيات

آية فصيحة من معانيها الشخص والجماعة، وقال في ص72 «صنعوا ديواناً بآياتهم»، وعلق ناشر الرحلة نوري الجراح على هذا اللفظ بأنه يعني (مع بعضهم)، أي أنهم أقاموا لهم حكومة ذاتية كما يقال اليوم.

- ب -

باره

بالباء المثلثة، لفظة فارسية بمعنى القطعة من أي شيء، ووردت في الرحلة على أنها القطعة من الفضة المتخذة سكة نقد. قال في ص83 «يأتون بالفضة ويذيبونها ويسكبونها ويستعملونها بارات ويدمغونها بختم الملك».

ويظهر أن قيمة هذا النقد كانت مرتفعة، حيث ذكر في ص83 «فلما حصل ذلك المسكين في الخزينة أخذ اثني عشر بارة، وكل بارة تسوى ألف وثلاثمائة غرش».

باس، يبوس

عامية بمعنى قبَّل. قال في ص106 «كان يبرك على ركبتيه ويبوس يدي».

بخش

لفظ ورد في الرحلة بمعنى الثغرة والمنفذ، وهو شائع في سوريا ولبنان خاصة، ولا ذكر لهذا المعنى في المعاجم. قال في ص73 واصفاً احد البيوت «وهذا البيت له سقف مغطى لكن قوي عالي وفيه أبخاش لأجل منفذ الدخان».

بَرَكة

اللفظ فصيح واستعمله هو إصطلاحا للدلالة على الخبز الذي يباركه الكاهن. قال في ص66 «وبعد خلوص القدّاس جلستُ على كرسي وعملت بَرَكة، أعني خبزاً مباركاً، فبقي الناس يجيئون ويبُوسون يَدي ويأخذون البركة ويرمون النذر في الصينية».

بُربُخ

لفظ آرامي الأصل[1]، يطلق على أسطوانات من فخار مفتوحة من الطرفين، توصل واحدة بأخرى فتكون أنبوباً . ورد اللفظ مصحفاً إلى برنج، بمعنى النحاس، ولا معنى له، لأن السياق يدل على أنه أوانٍ من الفخار، قال في الرحلة ص73

---

(1) كان يعقوب سركيس (مباحث عراقية ج1 ص335) قد سأل الأب أنستاس الكرملي عن أصل هذه الكلمة فأجابه الأخير كالآتي: انها مأخوذة من الآرامية لا من المصرية كما في اللسان والتاج، وهي من بربوعا، ويقال فيها أيضاً بربوقا.

«فأدخلوني إلى بيت جعلوا أرضه ثقوباً ملصوقة ببعضها، موضوعاً في كل منها بربخ، والبرابخ مصفوفة ومنصوبة صفوفاً صفوفاً، ولها فم واحد، منصوب إلى فوق، والفم الأسفل مسدود، وغير مفتوح كمثل أجران، فيضعون حجارة الزئبق بصنعة مصطفة فوق البُربخ، كمثل عمل الفاخوري في أفران الخشف (الخزف) وأيضا يضعون الخحارة على البرابخ».

بَشكاس

وردت بمعنى الإحسان والهبة، وجمعها بشاكيش. قال في ص74 «وقدم لي أصحاب المعادن بشكاس مقدار خمسين قنطار من الزئبق»، وقال في ص122 «جاءني بشاكيش عوض البصل والتفاح». وقال رباط : لعلها باش كاس. ويظهر من القرينة أن معناها الهدية او البخشيش، من الفارسية بخشبون بمعنى أعطى.

بَصَّة

عامية لا أصل بها في الكلم الفصيح، وجاءت في الرحلة بمعنى الجمرة من النار. قال في ص51 يصف طريقة قتل دويبة ضارة «ويحطونها على بصَّة نار فتطق مثل الفرقوعة».

بُوزة

عامية مصرية بمعنى الجَعَّة. إلا أنها بحسب قوله في ص 80 تصنع من الذُرَة. جاء في الرحلة «يجعلون من هذه الدرر [يقصد الذرة] بوزة ويشربونها فتُسكِرهم كالعَرق».

بيت التطهير

اصطلاح وضعه مقابلا للفظ الأيطالي (نارزيت) أي المحجر الصحي. قال في ص35 «أخرجونا من المركب وجعلونا في بيت التطهير الذي يسمى نارزيت باللسان الطلياني ثم وصف هذا البيت بقوله «وهذا النارزيت هو خارج عن المدينة، وتلك عادة في بلاد النصارى خوفاً من الطاعون». قلنا: وقد عرف المحجر فيما بعد باسم (كرنتينة)، وهو اسم ايطالي أيضاً بالمعنى نفسه، دخل إلى اللغة العثمانية وشاع في البلاد العربية في القرن التاسع عشر.

- ت -

تبان

عامية، فصيحها تبين، قال في ص59 «ما بقي تِبان أي لم تعد ترى السماء ولا الشمس مقدار ساعتين».

تجَوَّز

عامية في مصر والشام، بمعنى تزوَّج. قال في ص78 «وهذا الحاكم لما وصلنا الى ليما تجوَّز من بنت أعطته نقداً ماية وخمسين ألف غرش».

تَخَّ

تخ لغة: لانَ واسترخى لكثرة الماء فيه. قال عن البصل ص122 «وإذا تركوه حتى يكبر يتِخ وييبس»، وفي العامية العراقية اليوم: تختَخ. وذهب رباط الى أن معناها اهترأ وهو معنى بعيد.

تخاوى

عامية فصيحها تآخى. قال في ص 55 «فصار لي معه صداقة عظيمة حتى تخاوَينا مع بعضنا البعض».

تَخترِوان

كلمة فارسية شائعة في العراق تعني حرفياً (سرير السفر) واصطلاحاً الهَودَج الذي يوضع على ظهر الدابة في السفر. قال قي ص 66 «طلبتُ إلى حاكم بلد بيوره أن يرسل إليّ تختروان، الذي يسمى بلسان السبنيولي ليتيرا».

وقال في ص 68 «وانا راكب في ليتيرا، أعني تختروانا».

ترحَّب

عامية وفصيحها رحَّب. قال في ص93 «فترحَّب [الأسقف] بي واستقبلني كأخ له».

تَفَرفَط

عامية من فرَّط، وصحيحها انفرَط . قال ص88 عن مزيج من الفضة والزئبق «فإذا تفرفط فهو سخن»

تلاقى

عامية وفصيحها التقى. قال في ص69 «ورحتُ عند الوزير وتلاقيت معه ثاني مرة»، وقال في ص73 «فتلاقيت مع رئيس رهبان مار فرنسيس» ، وفي ص93 «تلاقيت مع الأسقف المذكور الذي كان في باناما».

تودَّع

عامية وفصيحها توادَعوا او ودَّع بعضهم بعضاً. قال في ص46 «فتودعوا من الأسكلة».

وفي ص106 «فتودعت منهم وتودعوا مني ورجعوا الى المدينة».

- ج -

جابَ

ص93

عامية، من : جاء ب. قال في ص93 «كان عندي صورة رأس ووجه المسيح كنت قد جبتها معي من رومة».

جاووش

لفظ تركي بمعنى العريف في الجيش. قال في ص106 «خرجت من هذه البلدة ورافقني اثنان من جواويش الديوان وأربعة من الخوارنة».

جكترية

ضرب من السفن. قال في ص 41 «سافرت منها في البحر مع جكتريات ملك إسبانية». وقال رباط أنها قد تسمى جكدرية، وهي كلمة تركية معناها السفن.

الجلالية

وردت بمعنيين هما :

1- قطاع الطرق ومخوفي السبل. قال في ص 49 «خوفهم من الجنود الجلالية» وقال في ص107 «وبالقرب من هذه البلدة جبل فيه جلالية يشلحون بعض الاوقات وينهبون عابري الطريق».

وذكر رباط انه ربما كانت كلمة Guerilas ومعناها العصابات التي تقاتل قتالا غير قانوني.

2- القراصنة: ومجالهم في البحر دون غيره. قال في ص98 «قرصان البحر يعني اللصوص الجللية الذين في البحر القبلي»، وفي ص112 «وكان عدد هؤلاء القرصان الجلالية ستمائة نفر».

جلفالية

اسم لتجار من الأرمن يُنسبون الى جلفا، وهو حي في جوار أصبهان اختص بسكنى الأرمن الكاثوليك.

قال في ص114 «يجيء مركب إلى هذه الجزيرة سوى المركب الذي للجلفالية فقط».

جَنزير

هي السلسلة، وتسمى في عامية العراق زنجيل. قال في ص 83 «إن الهنود ألقوا في هذه البحيرة جنزيراً من الذهب كان يخص الملك».

جُنفاص

هو الخيش الذي تُحاك به الأكياس الكبيرة عادة.. قال «ثم يجعلونه (وهو خليط من الفضة والزئبق) في أكياس من جُنفاص يعلقونها.

جَوجَح

عامية، فصيحها يتأرجح. قال في وصفه جسراً معلقاً من الحبال ص 76 «ان الجسر يَتَجَوجَح ويهتز كالمهد لما يدوس الانسان عليه».

جيكولاته

لفظ جديد لم يكن معروفاً في بلاده، عرفه عند حديثه عن الكاكاو، فقال في ص53 «ومن دسامته يصير مثل العجين ويضيفون إليه من السكر على قدر الحاجة.. ويجعلونه أقراصاً وينشفونه بالفيء، ومن هذه الأقراص يعملون الجيكولاتا ويشربونها مثل القهوة»، وقال في ص106 «وفي هذه القصبة المذكورة يصير الكاكاو الذي يصفونه جيكولاته وأشجاره كثيرة العدد».

- ح -

حاش

وردت بمعنى جمع أو التقط. قال في ص 102 «قلت لعسكر المركب أن يحوشوا لي من البحر صَفداً (صدفاً) فأتوا بتسع صَفدات ففتحتها واحدة واحدة لنأكل ما فيها».

حَبَّ

عامية، بمعنى أحب . قال في ص46 «فحبَّني واستقبلني بكرامة عظيمة».

حَدَف

عامية فصيحها حذف، بمعنى قذف

قال في ص71 «مقاليع لحَدف الحجارة»، وفي ص64 تحدث عن بركان ينطلق منه نار «أصعدت هذه النار بعزم قوتها حجارة».

حرّاقات

الحرّاقة ضرب من الزوارق السريعة. ولكنها وردت في الرحلة بما يدل على أنها سلاح ناري يطلق نوعاً من القذائف. قال في ص97 «صار ذلك اليوم عظيما بضرب المدافع والحراقات».

حَرَش

حَرَشه لغة خَدَشه، أو صاده. واستعملها صاحب الرحلة بمعنى ألقى القبض عليه. قال في ص 112 «فأرسل خلفه جنوداً ليحرشوه فوجدوه».

حَركَش

وردت بمعنى حرَّك أو قلَّب . قال في ص 102 «طبخ بهم الطباخ مثل العادة فأراد أن يحركش النار فرأى الرمل كالحجر فقلعه فإذا هو قرص ذهب».

حكيم

بمعنى طبيب . قال في ص109 «فبقي يرسل اليّ حكمائه ليشرفوا عليَّ، وبعد عشرة أيام تعافيت»

حلاويات

عامية وفصيحها حلوى. قال في ص70 «أحمال من الحلاويات الفاخرة».

حيك

لفظ ورد في الرحلة بمعنى حائك ص56 قلنا : ولعله من قبيل الامالة المعروفة في عامية الموصل، المتأثرة بالارامية. قال في ص56 «ثخن القصبة أغلض من مطواية نول الحيك»

-خ-

خائف الله

تعبير عامي فصيحه (الخائف من الله) . قال في ص 108 «رجل عالم وخائف الله وله معبور في كل سنة ثمانون الف غرش». (تنظر مادة معبور).

خبط

لفظ عامي بمعنى ارتطم. قال في ص122 «لئلا يخبط مركب بمركب وينكسروا».

خربوت

لفظ عامي لا وجود له في المعاجم، يظهر أنه الحلقة أو العُقلة من الحبل في آخره ترمى على حيوان او انسان بهدف قنصه. جاء في ص 58 «ويرمي خربوته (كرة) الحبل على نصف ظهره».

خَرَج

عامية، أصلها أخرج بمعنى أنفق. قال في ص81 «هذا القسيس غني جداً فخرج على عمارة تلك الكنيسة مايتي ألف غرش».

خَرجيّة

عامية، بمعنى مصروف جيب. قال في ص108 «وأنا كان معي خرجية مقدار ثمانمائة غرش».

خزندار

مصطلح عثماني بمعنى الخازن، وأمين الصندوق. ويظهر أنه كان يُكلف بمهام أخرى. قال في ص70 «ولما كنت مريضاً كان[الوزير] يرسل عندي خزنداره يزورني»

خشف

لعلها محرفة عن الخزف

قال في ص 73 «كمثل عمل الفاخوري في أفران الخشف». قلنا : والفاخوري هو صانع الفخار.

خلّى

عامية، بمعنى يَدَع ويترك. قال في ص53 «والحاكم ما أراد يخليني أن أروح وحدي». وقال في ص60

«فخلى سَرايه وجاء سريعاً زارني».

خلوص

عامية بمعنى انتهاء، او الفراغ من. قال في ص66 «وبعد خلوص القداس جلست على كرسي».

خندكاري

مصطلح عثماني، أصله خداوندكار، بمعنى السلطان، ورد صفة لضرب من الأوزان يسمى (مناً). قال في ص74 «وقنطار هذه البلاد هو ستة أمنان خندكاري»، وفي ص 76 «ويخرجون منها (مزرعة القصب) كل سنة ثلاثين ألف خندكاري من السكر».

خوان

الخوان هو القدر الكبير، قال في ص64 «يضعون خوانات شيئاً فوق شيء، يعني كمثل الدرج، ويجتمع الناس ويجلسون فوق هذه الخوانات، ويستكرون كل واحد منهم لأجل الفرجة [في عيد الثور]»

- د -

دار باله

تعبير عامي عراقي بمعني انتبه الى أمر ما . قال في ص95 «وكان الوزير لما ودعته أمرني أن أدير بالي على بيته وعلى امرأته لخوفه من الأعداء أن يسقوها سماً». قلنا : وربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها هذا التعبير العراقي الصميم.

دُرر مصر

هي الذرة، كتبها كما يلفظها أهل مصر بالدال المهملة. قال في ص80 «وما يوجد عندهم لا قمح ولا شعير سوى دُرر مصر» .

دُستور

فارسية بمعنى العهد والميثاق والقانون، واستعملها صاحب الرحلة بمعنى الرخصة. قال في ص92 «فأرسل اليَّ المطران دستوراً حتى أعبر [الباب] أعالجها لأن بغير اجازة لا يقدر ان يجتاز باب الدير».

وفي ص 114 «ولا يُعطى دستور لغير طوائف».

دَقّ

لفظ عامي يراد به العزف والنفخ بحسب نوع الآلة المستعملة. قال «ضرب المدافع ودَق البوق»، يعني : ونفخ في البوق.

دَقَر

عامية عراقية بمعنى لَكز، وهو الدفع في الصدر بالكف، قال في ص54 عن نوع من الحشيش أنه «يشبه الخيزران الرفيع.. يرتفع من الأرض مثل عود السهام ويدقر الإنسان، ولا يشفى المصاب بهذه الدَقرة إلى الموت..».

ديّن

لفظ عامي بمعنى أقرض. قال في ص86 «كنت ديّنته ألفي غرش في بلدة ليما».

- ر -

رستاق

لفظة فارسية الأصل تعني السطر من النخيل والصف من الناس، ولكنه استعملها بمعنى النظام أو الترتيب. جاء في ص78 «ووجدنا هناك من الحجارة المنحوتة من الهنود القدماء بغير آلة الحجّارين الحديدية، وهي مشغولة بغاية الرستاق»

رَسَخ

رسخ في الأرض بمعنى ثبت في موضعه وتمكن منه، ولكنه استعملها بمعنى (رَسب)، فقال في ص81 «والفضة ترسَّخ إلى أسفل» وفي ص88 «فالفضة مع الزئبق يرسخان الى أسفل».

رُوح

لفظ معروف استعمله بمعنى ذات الانسان، وهو استعمال عامي،. قال في ص56 «فأنا لما نظرت روحي في الماء فخبطت وتعلقت بالكلك»

وفي ص65 «وبقيت متحذراً على روحي» .

- ز -

زعق

زعق لغةً صاح، ولكنه استعملها بمعنى (دعا). فقد ورد في ص82 «تحنن عليه وزعق وكيل ماله وأعطاه مفاتيح الخزنة».

زلط

لفظ عامي من معانيه زحلق وبَلع. وورد في الرحلة بمعنى نزع عنه. جاء في ص76 «وأما البغال فيزلطونها (ينزعون عنها) من جلالاتها ويجيزونها الجسر». قلنا : والجلالات جمع جل وجلل وهو الغطاء، ويقصد به هنا البردعة.

زياح

الزياح عند المسيحيين طواف بأشياء مقدسة، كالايقونات أو القربان، داخل الكنيسة أو خارجها. قال صاحب الرحلة في ص50 «تشرفنا بالزياحات المقامة يومئذ لآلام المسيح»، وتحدث عن اكتشاف أحدهم ايقونة للعذراء في أرضه فقال في ص61 «واستقبلها [الأسقف] بإكرام وأخزها بزياح إلى مكان قريب من البلد، وبنى لها كنيسة شريفة، وأسكنها هناك، ولما يحدث في هذه البلدة طاعون يأخذون هذه الصورة ويخرجون بالزياح إلى بلد كيتو ، فتبقى عندهم تسعة أيام بكل إكرام ووقار»، وقال في ص72 «زارني جميع رفقة الكهنة ...من حيث اخذوني في الرفقة بالزياح»، وفي ص 111 «ثم شلح المطران الرداء المذكور بزياح»، وفي ص122 «بقينا في بكاء وعويل مع صلوات وزياحات في المراكب ونذورة».

- س -

ساوي

عامية بمعنى مستوية. قال في ص54 «رأيت أغصاناً ساوية معدلة من غير ورق».

سبيق

ص121

عامية بمعنى مسرع، أو الرجل الذي يجري إرساله على جناح السرعة لإيصال خبر جلل. قال في ص 121 «وأرسلوه قبلهم سبيقاً إلى اسبانية».

السِّكتخانه

مصطلح عثماني يعني دار سك النقود، من سكة العربية بمعنى النقد، وخانه بمعنى دار، قال في ص87

هو «البيت الذي يضربون فيه سكة الدنانير من غروش وأنصاف وأرباع»، وقال في ص 89 «هولاء هم الذين يشغلون السكتخانه لقطع الدنانير».

سنابك

السنبك، وجمعها سنابك، اسم لضرب من السفن الصغيرة الشائعة في الخليج العربي منذ عهد بعيد، كانت تستغل في صيد اللؤلؤ، وقد أطلقه صاحب الرحلة على سفن صغيرة شاهدها في البلاد التي مر بها في رحلته، وكان يستعملها الاسبان وأبناء البلاد الأصليون على حد سواء، قال في ص 63 «ففي هذا النهر يوجد نهر منحدر من الجبال.. كان أولئك الهنود قد عملوا لهم خمسة سنابك صغار وركبوا فيها وانحدروا إلى أن وصلوا إلى الدرب الذي يمر به التجار السبنيولية»، وقال في ص104«كنت انتظر سنبكا الذي يسمى كانوه لنجوز هناك في مضيق البحر»، وفي ص124 «أتانا أصحاب من البلد في سنابك طالعونا إلى البر».

- ش -

شبقة

هي نوع من القبعات، يسمى في العراق (الشفقة)، واطلقها صاحب الرحلة على ما سماه (البرنيطة)، وهي القبعة ذات الحوافي العالية التي تظلل جوانب الوجه. قال في ص 76 «وصوفها ناعم كالحرير يصنعون منه البرانيط اي الشبقات».

شَختور

اسم ضرب من السفن الشائع استعمالها في الخليج العربي، أطلقه على سفن مشابهة لها شاهدها في بعض الموانئ التي مر بها.. قال في ص 113 «يوجد نهر صغير يقطعون بشختورات يسمونها كتاوس موسوقة إلى بورتو بلو».

شفعية

عامية وفصيحها شفاعة. قال ﭬ ص 61 «وبواسطة هذه الشفعية ينقطع الطاعون عن البلد».

شقفة

عامية بمعنى القطعة، وجمعها شقفة . قال ﭬ ص56 «وكانوا يظنون أن الفرس وراكبها شقفة واحدة»، وقال ﭬ ص58 «حينئذ يقطعونه شقفا»، وﭬ ص88 «يأخذون منه ﭬ شقف فخار»، وﭬ ص 103 «وانكسر صاري الركب (الصحيح المركب) ثلاث شقف».

شكاوة

عامية، وفصيحها شكاية وشكوى. قال ﭬ ص71 «لما يريدون أن يقدموا عرض حال الى ملكهم كانوا يصورون تصاوير ﭬ منديل على حسب شكاوتهم».

شلح

لفظ من العامي الفصيح، بمعنى خلع وعرى. قال ﭬ ص 112 «ثم شلح المطران الرداء المذكور».

- ص -

صَفد

هكذا كتبها ﭬ مواضع عديدة من الرحلة، وهو يقصد: صدف، فالظاهر ان هذا القلب كان شائعاً ﭬ عهده. قال ﭬ ص48 «وﭬ ص48 وكانوا يخرجون صفد اللؤلؤ البليغ ﭬ الكبر»، وقال ﭬ ص 102 «قلت لعسكر المركب ان يحوشوا لي من البحر صفداً فأتوا بتسع صفدات ففتحتها واحدة واحدة لنأكل ما فيها».

- ط -

طابة

الطابة هي الكرة، ومنها كانت كلمة (طوبة) العصرية. قال ﭬ ص105 «فيأخذون ﭬ أياديهم تلك الزبدة مثل الطابات [أي يكورونها بأيديهم] وينشرونها ﭬ الشمس».

طاع

عامية، وفصيحها أطاع. قال في ص 95 «فطاع أمر الملك وخرج».

طاف

عامية، يقال طاف النهر بمعنى ارتفع منسوب مياهه فأغرق ما حوله. قال هو «وخارج هذه البلدة بحيرة ماء ذكروا ان في بعض السنين طافت على البلدة وهدمت بيوتاً كثيرة».

طاف

عامية فصيحها طفا، أي ارتفع على وجه الماء. قال في ص82 «وأما المعدن الذي كان يخرج منه حجارة الفضة فطاف بالماء وغرق وعَدَموه».

طالع

لفظ عامي فصيحه أطلَع، بمعنى أخرج. قال في ص73 «ويطالعون الزئيق من تلك البرابخ وردت في الأصل برانج خطأ] ص124 «فدخلنا الميناء ورسينا فثاني يوم أتانا أصحاب من البلد في سنابك طالعونا إلى البر».

طعمة

لفظ عامي مستعمل في البلاد السورية خاصة، أصله من طعم بمعنى المذاق. قال في ص 59 «فتراه كالقهوة في اللون والطعمة والريحة».

طف

طفَّ عليه لفظ فصيح له معان عدة، منها هوى عليه ليرميه، واستعمل صاحب الرحلة هذا المعنى تقريباً، فقال في ص57 «فإذا جاء فرس أو ثور يشرب ماء من النهر فيطفّ عليه ويسحبه من مناخيره ويوديه».

طلس

لفظ فصيح له معان متعددة، منها محا واغبرَّ وشوَّه، ولكن صاحب الرحلة استعمله بمعنى مختلف وهو لصق.

قال عن مزيج من الفضة والزئبق في ص88 «وإذا انطلس (لصق) فهو بارد »

عتاق

العتاق هي الفدية التي يفتدي بها الأسير أو العبد نفسه من آسِره أو مالكه. وبهذا المعنى ذكرها في ص112 حيث قال عن أهل بعض البلدات يفتدون أنفسهم من آسِريهم القراصنة «فأرسل هؤلاء المساكين من جانبهم إلى مدينة البوبلا المذكورة ليحضروا عتاقهم».

عرباني

لفظ من التركية (آرَبه) وهي بالعربية (عجلة)، وعُربت بـ(عربة) و عرفت في عامية العراق بـ(عربانه) وعلى هذا النحو وردت في الرحلة مرة بشكل عرباني ، حيث ورد في ص72 «وأنا كان لي عجلة يعني عرباني بأربعة بغال مع عبد اسود خادمها»، وفي ص78 «خرجت انا واثنان من الرهبان اليسوعية في عرباني»، وفي الصفحة نفسها «اعطاني عرباني لأخرج الى خارج البلد»، ومرة بشكل (عربانة). حيث ورد في ص 94 «ودخلنا إلى بلد ليما في عربانة»، وفي ص 110 «واشتريت لي عربانة وبغال بستمائة وخمسين غرشاً».

عرض حال

تركيب تركي من لفظين عربيين، ظل شائعاً في العاميات العربية. اتخذ بديلا لما كان يعرف في العهود الاسلامية باسم (شكاية) و(ظلامة) ونحو ذلك . قال في ص71 «لما يريدون أن يقدموا عرض حال الى ملكهم كانوا يصورون تصاوير في منديل على حسب شكاوتهم»، وفي ص 116 «جاء معه راهبان من رهبان مار عبد الأحد ومعهما عرض حالات إلى سيدنا البابا».

عزَّ

عامية، فصيحها أعز . قال في ص72 «وكتب لي مكاتيب إلى جميع حكام البلاد وأبرشية القرى التي تحت حكمه وصية علي بأن يُعِزوني ويكرموني».

عزم

عامية بمعنى دعا، ومنها عزيمة أي دعوة وتأتي بمعنى الوليمة غالباً . قال في ص 75 «وعَزَمَني الى داره حتى أتغدى ذلك اليوم معاه»، وفي ص80 «ولما يكون

عندهم عيد أم عزيمة يذبحون واحدا من السبنيولية»، وفي ص107 «ورحنا الى دار الاسقف معزومين الى الغذاء».

عقاريق

قال رباط : لفظ سرياني بمعنى الضفادع، قلنا : وهذا اللفظ هو المنتشر في عامية العراق. قال صاحب الرحلة في ص91 «وسقيتها درهماً من رماد العقاريق».

علايف

جمع عُلوفة، وتعني لغة ما يجري تخصيصه للدابة لتعلفه، ووردت في الرحلة بوصفها رواتب مخصصة لأصحاب الوظائف، قال في ص 53 «فأما هذه الخزنة ما تجيء كلها إلى اسبانية بل يقسمونها علايف على أرباب الوظايف وإلى الجنود الحارسين الجزائر والقلاع الكائنة في بلاد الهند»

عَلك

لفظ عامي، يقرب من معنى مضغ، قال في ص 80 غن نوع من الحشيش المسكر «وعند هؤلاء الهنود جنس حشيش إذا عَلَكوه يُسكِرهم ويعطيهم شجاعة وقوة كشراب الخمر، يسمى ذلك الحشيش كوكا Coca».

- غ -

غرش

نقد عثماني من الفضة، أخذ اسمه من الألمانية Groschen وهو على نوعين، غرش صاغ وغرش رائج، والأول أربعة أضعاف الأخير، أطلقه صاحب الرحلة على نوع من النقود الاسبانية المتداولة في عصره. قال مثلاً في ص 53 «فاستكريت ثلاثة بغال بتسعين غرشاً» ، وقال في ص66 «اجتمع من النذر مقدار مائتين وخمسين غرشاً».

وفي ص72 «وهذه البلدة غالية المعاش بهذا المقدار حتى أن الدجاجة تساوي غرشاً ونصف الغرش»، وفي ص 117 «فطلب مني كروة ألف غرش مع الأكل والشرب».

غليون

لفظ معرب من Guilin يعني ضرب من السفن الكبيرة، والغالب ان تكون عسكرية أو مسلحة، وجمعها غلايين، قال في ص46 «وهذا الغليون هو الرئيس

على يسار الفلايين» ، وقال في ص 47 «التجار يوسقون الغلايين من كل أجناس البضائع.. صادفنا مركباً موسوقاً من العبيد السود».

وفي الصفحة نفسها «وهذه الغلايين تعود بالغنايم الفضة والذهب».

غَنمة

عامية يراد بها الخروف. قال في ص97 «الغنمة تسوى خمسة غروش».

غوشة

عامية بمعنى الاضطراب. قال في ص 91 «فصارت غوشة عظيمة في البلد». قلنا : ومن المحتمل ان تكون الكلمة من التركية غوش güç بمعنى العسرة والمشكلة والمشقة.

- ف -

فرقوعة

عامية فصيحها فرقعة، ولها في المعاجم معان شتى، استعمل منها صاحب الرحلة ما معناه صوت انفجار الشيء. قال في ص51 يصف طريقة قتل دُوَيبة ضارة «ويحطونها على بصَّة نار فتطق مثل الفرقوعة».

فقعان

عامية من فقع بمعنى انفجر بعد نفخ . قال في ص116 «ومات فقعان لحزنه».

فيَّقه

عامية سورية، فصيحها أفاقه. قال قي ص65 «فأسرع الصبي مرتعشاً وفيَّقني وأعلمني»

- ق -

قرَّ

عامية فصيحها (أقرّ). قال في ص 82 «وأنا أي جميع ما قرّيت فيه».

قلع

القلع هو الشراع، وجمعه قلوع، وحَمَعها صاحب الرحلة بأقلاع. قال في ص 46 «قلعنا ونصبنا الأقلاع وسَرَحنا». وقال في ص 92 «وينصبون لهم أقلاع فالريح يودِّيهم».

قناق

قناق وتلفظ قوناق، وقوناغ، لفظ تركي بمعنى المرحلة من السفر، قال في ص60 «إن الرهبان خرجوا لملاقاتي قناقين (أي من مرحلتين) وأتوا بي إلى ديرهم». وتقدر هذه المرحلة بأربعة فراسخ، وهي مسيرة يوم كامل، فقال في ص 69 «وكل يوم قناقه أربعة فراسخ».

قنصر

قال في ص 51 «وفي ذلك الحين جاء المركب الفرنساوي السابق ذكره وقنصر». وعلق رباط على اللفظ بقوله أن الكلمة ancer أي أرسى.

- ك -

كاروز

هو المبشر، مأخوذ من السريانية كرز بمعنى بشر. قال في ص115 «كان بعض الكاروزين يذهبون من هذه الجزيرة إلى بلاد الصين الجوّاني ليتلمذوا إناسهم ويرجعونهم من الوثنية إلى إيمان المسيح ... الرهبان الذين يكرزون هناك».

كاكاو

مشروب كان معروفا في البلاد التي زارها[1]، لكنه لم يكن كذلك في بلاده، لذلك اضطر إلى تعريفه بقوله ص53 «الذي يشبه القهوة بالرائحة والطعم لكنه زائد الدسم»، ووصف صناعته تفصيلاً في ص59 بقوله «يوجد هناك بساتين، فيها جنس أشجار كأشجار التوت تحمل ثمرة تسمى كاكاو يعملون منها الجيكولاتا، وهذا الثمر تراه مثل البطيخ متعلقاً وملتصقاً على جسم الشجرة، فلما يبلغ ويصفر يأخذونه ويقطعونه ففي داخله يخرج الثمر، وهو حبوب أخشن من الفستق، ثم ييبسونه حتى ينشف، وبعد ذلك يقلونه فتراه كالقهوة في اللون والطعمة والريحة لكنه كثير الدهن».

---

(1) الكاكاو cacao شجرة صغيرة من فصيلة الأستركونية، مهدها الأصلي أمريكا الجنوبية حيث رآها صاحب الرحلة، لها أوراق عريضة وأزهار ضغيرة وثمر كبيرة، يستخرج من بذورها حبات الكاكاو، التي يصنع منها شراب بعد أن تحمر وتحمص وتطحن.

كبَّ

من العامي الفصيح، بمعنى دلق وألقى. قال في ص73 «وبعده يرفعون الحجارة والرماد ويكبُّونه [يعني الزئبق] خارجاً».

كرة

كتلة من المال كانت تساوي مائة ألف غرش. قال في ص 38 «في كل سنة تربح مليونين، أي عشرين كرة من المال»، وقال في ص 53 «وخزنة الملك كان عددها خمسة وعشرين مليونا، وكل مليون عشر كرات، وكل كرة ماية ألف غرش». قلنا: ويوافق هذا المصطلح لفظ (صرة) بحسب المصطلحات العثمانية السائدة عهد ذاك.

الكَرخانه

مصطلح فارسي، وأصله (كار) بمعنى عمل، و(خانه) بمعنى دار، فمعناه مكان العمل او المعمل. قال في ص89 «هولاء هم الذين يشغلون السكتخانه لقطع الدنانير، وكل جمعة يُشغل أحدهم الكرخانه». ومع عذا فإنه استعمل لفظ (معمل) بالمعنى نفسه، فقال في ص 69 «المعامل التي فيها يشتغلون الجوخ».

كَروة

عامية عراقية، فصيحها كراء، ويقصد بها الأجرة عن النقل او الحمل حصراً. قال في ص 52 «كَرُّوه بمعنى الأجرة». قال «ويأخذون الكروة ثلاثين غرشاً على كل بغل»، وفي ص87 «وكنت أغرم الكروة كما يغرم الملك».

كلك

اسم شائع في العراق للرمث او الطوف، وهو أن تُصَف مجموعة من جذوع الأشجار المستوية على عدد كبير من القِرَب (معَد الخراف المدبوغة)، وتستعمل وسيلة انتقال ونقل على دجلة بين الموصل وبغداد . أطلق صاحب الرحلة هذا الاسم على نوع مشابه لهذا الطوف شاهده في بعض البلاد التي مر بها، ، إلا أنه يطغو على قرع يابس لا على قرب فقال في 69 «إن الهنود اخترعوا شيئاً للمجاز يسمى بالصا (BALSA) يعني كلكاً فيجمعون قرعات يابسات ويربطونها ببعضها مثل كلك ثم يجعلون عليها خشباً وفوق الخشب حشيشاً مثل عروق

الشجر» ، وقال في ص 84 «وعملوا أربعين كلكاً .. وجازوا في البحيرة على الكلك». وكان قد ذكر أنه شاهد كلكاً صغيراً مكون من خمس خشبات. قال في ص56 «ونزلنا على كلك صغير حتى نطلع للبر، وهذا الكلك هو خمس خشبات، فلما اقتربنا من المركب قاصدين الأرض، انقلب الكلك».

وأشار إلى ما سماه (كلكات البر) وهو اسم غريب لأن الكلك لا يمضي على بر، فلعل تحريفاً أصاب الكلمة، لا سيما وأنه ذكر أن لهذا الكلك أشرعة. قال في ص 91 «ويروح في هذا الدرب كلكات البر وينصبون لهم أقلاع فالريح يوديهم».

كوميدية

لفظ جديد لم يكن معروفاً في بلاده، نقله من الاسبانية Kumydya مباشرة، في وقت قريب من عصر انتشار معناه في أوربا اللاتينية، ويقصد به ضرب من التمثيل الساخرغالباً، لكن ما شاهده كان تمثيلا دينيا تماماً. وقد شرحه تفصيلاً بقوله ص 75 «ورسم هذا الأسقف أن يعملوا كوميدية يعني تقليد القديس رجل الله الروماني الذي يسمى باللسان الفرنجي سان ايليسوا وفي العربي مار ريشا، وهذه الكوميدية هي تشخيص ما عمل هذا القديس».

كوكا

نبات مخدر لم يكن معروفاً في بلاده، فوصفه، وكان يستخرج منه شراب مُسكِر، قال في ص80 «وعند هؤلاء الهنود جنس حشيش إذا علكوه يسكرهم ويعطيهم شجاعة وقوة كشراب الخمر، يسمى ذلك الحشيش كوكا[1] Coca».

- ل -

لُك

بضم اللام، لفظ هندي كان شائعاً في العامية العراقية، يساوي مائة ألف، وورد في الرحلة ص51 «وأحضروا معهم من الفضة والذهب خمسة وعشرين لكاً». وقال رباط أن اللك كناية عن عشرة ملايين.

---

(1) شجرة صغيرة معمرة من الفصيلة الكتانية، تستخرج من أوراقها بعد تجفيفها مادة قلوية مخدرة تسمى الكوكانين او الكوكايين.

- م -

مارستان

كلمة فارسية بمعنى دار المرضى، وانتشر استعمالها في الحضارة الإسلامية على نحو واسع، واستعملها صاحب الرحلة مقابلاً لكلمة (اسبيتال). ولكنه قرنها بما وصفه دبر(لمداواة المرضى والفقراء) وهو المارستان بعينه. قال في ص71 «وفي ليما ..ديران باسم مار يوحنا لمداواة المرضى اي الغرباء والفقراء، واسبيتال يعني مارستاناً كبيرا على اسم الملك، لأن الملك يصرف عليه»، وفي ص110 «ومارستانات لمداواة المرضى». قلنا: وقد عرب المارستان في القرن الرابع عشر الميلادي بـ (دار الشفاء) وفي القرن العشرين بالمشفى والمستشفى.

مال النهيبة

النهيب لفظ فصيح هو اسم المفعول من نَهب، ومال النهيبة مصطلح عامي أراد به المال المنهوب . قال في ص112 «أخرجو الناس من الكنيسة وحملوهم مال النهيبة وساقوهم إلى حيث كانت المراكب راسية».

محاسبة

اللفظ فصيح، ولكنه أراد به معنى اصطلاحياً مختلفاً، إذ اراد به مالاً يصادره الملك من موظفيه بعد عزلهم . قال في ص90 «جاء أمر من الملك الى هذا الرجل المبارك أن يروح الى ليما ويأخذ محاسبة من الوزير المعزول»، وقال في ص 93 «القاضي دون خوان المرقوم ليروح يأخذ المحاسبة من الوزير صاحبي المعزول». قلنا: وكان هذا المال يسمى في العهود الاسلامية مال المصادرة.

مرطبان

ويلفظ أيضا برطمان وهو إناء بعنق عريض وغطاء محكم تحفظ فيه المربيات والأدوية، ويغلب ان يكون من الزجاج. أشار صاحب الرحلة في ص122 الى «مرطبانات المربى».

مسبك

سَبك المعدن عربية بمعنى صبّه في قالب. ولكن صاحب الرحلة أخذ منه مصطلحاً جديداً هو (بيت المسبك) أي المكان او الدار الذي توضع فيه آلة

السبك. قال ﴿ ص83 «وإذا حمل أحد حمل فضة رملية ما دخلت بيت المسبك بضبط (لعلها تضبط) وتودع ﴿ بيت الملك».

معبور

عامية بمعنى المُرَتب الدائم. قال ﴿ ص90 «وفيها مطران له معبور ﴿ كل سنة ماية وعشرين ألف غرش»، و﴿ ص108 «رجل عالم وخائف الله وله معبور ﴿ كل سنة ثمانون الف غرش».

مطواية

من أجزاء نول الحائك، مأخوذ من مطوى، وهي شيء يُلف عليه الغزل ونحوه. قال ﴿ ص56 «ثخن القصبة أغلض من مطواية نول الحيك»

مُفترج

مصطلح اشتقه من فُرجة، وأطلقه على عيد اختص به الإسبان يصارعون فيه الثيران ﴿ يوم معلوم. فقال ﴿ ص64 «فأراد [حاكم تلك البلدة] أن يعمل لي فرجة لأجل إنشراحي، وهذا المفترج يسمونه ﴿ بلاد إسبانية عيد الثور... وهذا العيد والمفترج ﴿ كل مُلك إسبانية، يصنعونه ﴿ موسمه كل عام».

ملس

ملّس شيئا جعله ليّناً ناعماً، والأملس هوالناعم . قال ﴿ ص88 «حتى يروح الطين فتبقى الفضة والزيبق فيملسه بأصبعه على شِقف الفخار المذكور».

- ن -

نيل التختة

النيل نبات يعرف بورد النيل او زهرة النيل، نسبة الى احد أماكن وجوده وهو نهر النيل، مع أنه موجود ايضاً ﴿ أمريكا الوسطى كما شاهد صاحب الرحلة، تستخرج منه، بعد عصره، مادة بروتينية تستخدم علفا. قال أنه يزرع كما يزرع القمح، ويوضع ﴿ حوض من الماء فيزبد، فيدعك شيء من الزبد تدعك او تفرش على لوح خشب منبسط. قال ﴿ ص105 «والاسفل يعملونه نيل التختة».

كما ﴿ ص105

نيل قروتي

مصطلح عامي لكرات من الزبد المشار اليه تُكوَّر باليد. قال في ص105 «فهذا الذي يسمونه في بلادنا نيل قروتي».

النواخذه

لفظ عامي، مأخوذ من الفارسية، وجمعه نواخذة، وهو مُركَّب من (نوا) اي سفينة، وخُدا اي رب، فيكون معناها رب السفينة[1]. وكان هذا اللفظ شائعاً في الخليج العربي، فأطلقه صاحب الرحلة على من شاهدهم من أرباب السفن كما في ص47.

- هـ -

هَجّج

هج فصيحة بمعنى فرَّ بعيداً، وهجَّج عامية بمعنى طرد. قال في «ص112 فاحتقره أيضاً المطران وأمر بتهجيجه.. فلما نظره الخدام وعرفوه هجَّجوه وطردوه».

- و -

واقع

عامية عراقية تطلق على الانسان إذا أصابه فقر مدقع وإفلاس. قال في ص96 «إن في بلادنا وعوائدنا يحامون عن الإنسان الواقع وساعدونه».

وجَّب

لفظ عامي عراقي، وجَّب الطعام تناول منه شيئاً أداء لواجب اكرام المضيف لضيفه. قال في 60 «وكلما كانوا يضيفوني في المركب من الطعام المفتخر كنت أوجِّبه».

وَدّى

لفظة عامية، فصيحها أدى، ويراد بها (ذهب به). قال في ص80 «والماء يأخذ التراب ويودّيه»، وفي ص92 «وينصبون لهم أقلاع فالريح يوديهم»، أي يذهب بهم.

---

(1) جورج حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، مكتبة الانجلو المصرية، ص 199

وَسق

الوَسق لغة هو حِمل الجمل ونحوه، ووسق تعني ضم وحمَّل، واستعملها صاحب الرحلة بوصفها حمولة السفن لا الدواب، فقال في ص47 «إن التجار يوسقون الغلايين من كل أجناس البضائع» أي أنهم يحملونها من تلك البضائع. وقال «.. صادفنا مركباً موسوقاً من العبيد السود»، وفي ص49 «فأخذت مركبنا المركب فرأيناه موسوقاً زلاحف مملحة». وقال «لأن مراكبه كانت موسوقة بضائع».

- ي -

يَدك

كلمة تركية بمعنى مقود. قال في ص68 «وكان لي حصان وبغلة يدك».

يَسق

تعريب ياسا، وهو لفظ مغولي الأصل بمعنى المنع، وصار يعني القانون، او ما يصدره الملك من أوامر لها قوة القانون. وبهذا المعنى استعمله صاحب الرحلة. قال في ص74 «لكن عليه يسق من الملك أن لا أحد من اصحاب المعادن يقدر يبيع زئبقاً ولا أحد يقدر يشتريه».

ينكي دُنيا

مصطلح تركي بمعنى الدنيا الجديدة، او العالم الجديد، (ينكي وتلفظ يني بمعنى جديد) أطلقه العثمانيون على الأمريكتين، ولكن يفهم من الرحلة أنه لم يكن يطلق إلا على بلاد المكسيك فحسب. قال مثلا في ص47 بلاد «ينكي دنيا (المكسيك)»، وقال في ص98 «جنود اسبنيولية جاءوا من ينكي دنيا ليفتشوا عن قرصان البحر»، وتنظر ص98 و101.

ألفاظ دخيلة وعامية

في رحلة القس خدر الكلداني إلى رومة

في سنة 1909 قصد الأب لويس شيخو مصر، في رحلة لم يعين غرضها، على أنها لم تكن بعيدة عن الأهداف الثقافية التي نذر مجلته (المشرق) من أجلها، فكان أن زار كنيسة الكلدان في القاهرة، حيث التقى بخادمها صديقه الخوري بطرس عابد، فأطلعه هذا على مخطوطة نادرة بخط مؤلفها، هو القس خدر الكلداني الموصلي، تتضمن وقائع رحلة شيِّقة قام بها في شتاء سنة 1719 من مدينته الموصل إلى روما، ووصف فيها باختصار ما شاهده في طريقه إليها، ثم فصَّل القول في مشاهداته في روما نفسها، وعلى الفور قدّر الأب شيخو أهمية هذه الرحلة من النواحي التاريخية والإجتماعية والعمرانية، فعكف على نسخ نسخة منها لنفسه، بغية نشرها في مجلته العتيدة (المشرق).

وما أن عاد إلى وطنه بيروت، حتى عكف على دراسة ما نسخه بتأن، فما كان منه إلا أن أرسل إلى كل من البطريرك عبد يشوع خياط ، والمطران أدي صليبا (العلامة الذي عرف باسم أدي شير) رئيس أساقفة سعرت آنذاك، والقس بطرس نصري الكلداني الموصلي، وكلهم كان مؤرخاً معنياً بتتبع تاريخ كنيسته، له باع طويل في عالم المخطوطات والوثائق، فضلا عن علماء آخرين لم يُسمِّهم، يسألهم أن يتفضلوا عليه بما لديهم من معلومات عن صاحب هذه الرحلة، فلم يكن من هؤلاء الفضلاء إلا أن كتبوا له، منفردين، معلومات مهمة بهذا الشأن. ومن المؤسف أنه لم ينشر نصوص تلك الرسائل، ولو فعل لكانت وثائق عالية القيمة من علماء كبار من ذلك العصر، إلا أنه فضَّل أن يُلخِّص مضامينها في نبذة واحدة يُدرجها في صدر تلك الرحلة، وهكذا فإننا لا نعلم طبيعة ما اعتمده أولئك الفضلاء من مصادر وروايات في كتابة تلك الترجمات التي أوردوها في رسائلهم الى الأب شيخو، لا سيما وأن نحو قرنين مضيا منذ ان سجل وقائعها صاحبها، وإن كان يظهر أنها جاءت متفقة في خطوطها الرئيسة، بدلالة أنه لم يشر إلى اختلاف ما في مصادرها، كما أنه لم يشر إلى هويات الأشخاص الآخرين الذين بعثوا برسائلهم ، وما هي أهمية ما أضافوه إليها من تفاصيل مكملة. وعلى أية حال، شجعت تلك

الرسائل الأب شيخو على العناية بالرحلة نفسها ونشرها في مجلته، فنشرها تباعاً على أربعة اقسام من المجلد الصادر في سنة 1910 فبلغ عدد صفحاتها 34 صفحة على النحو الآتي

القسم الأول ويشغل الصفحات من 581 إلى 592 منها صفحتان ونيف في ترجمة المؤلف ووصف المخطوطة.

القسم الثاني ويشغل الصفحات من 656 إلى 668

الفصل الثالث ويشغل الصفحات من 735 إلى 744

الفصل الرابع ويشغل الصفحات من 835 إلى 843

والرحلة بخط مؤلفها نفسه، ومن المؤسف أنه لم يُكملها لسبب لا نعلمه، فلبثت ناقصة بل مبتورة، مما دعا بناشرها شيخو إلى أن يعلن لقرائه في آخرها عن أمله في أن يجد أحد من كلدان الموصل نسخة أخرى منها في مكتبة البطريركية الكلدانية في الموصل «فيها تتمة هذه الرواية»[1] هذا مع أن المخطوطة التي نقل منها هي بخط المؤلف نفسه، أي أنه هو المسؤول عن نقصها لا غيره من الناسخين.

ولبثت رحلة القس خدر حبيسة هذه النشرة أكثر من قرن كامل، لم يُعثر على ما يكمل نصها المفقود، أما ترجمة مؤلفها فقد أضاف كتاب فضلاء اليها معلومات جديدة، من واقع ما وقفوا عليه من مؤلفاته، لا سيما تلك الخاتمة التي دونها في نهاية معجمه اللغوي، فبدت أكثر وضوحاً وتكاملا مما بدت لقراء المشرق قبل نحو قرن. وخلاصة ما يستفاد من مصادر ترجمته[2] أنه ولد في تشرين الثاني سنة

---

(1) المشرق، السنة 10، ص843

(2) مجلة المشرق، المجلد 3 السنة 1901، ص852 و السنة 1910، ص581- 583 وبطرس نصري الكلداني: ذخيرة الأذهان، الموصل 1913، ج2 ص315- 316 وبطرس نصري وأدي صليبا إبراهيم: نبذة تاريخية عن بعض مشاهير الكلدان الكاثوليك، مجلة المشرق المجلد 4، بيروت 1901 ص847 – 855 وشيخو: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، مجلة المشرق 21، 1923، ص16، ويعقوب سركيس: مباحث عراقية، بغداد ج1، 1948، ص396، وكراتشكوفسكي: الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة 1963، 762-763، وألبير أبونا: أدب اللغة الآرامية ص533- 537 وسليمان الصائغ: تاريخ الموصل 2 ص120 ومجلة النجم الموصلية سنة 1936 ص288 ورفائيل بابو إسحاق: تاريخ نصارى العراق ص146 وبهنام فضيل عفاص: القس خدر، مجلة بين النهرين، العدد 17، السنة 7،

1679[1] في محلة مار ايشوعياب التي تسمى أيضاً (مار عوديشو) من محلات الموصل القديمة، ولا نعرف شيئا عن أسرته، ألا أن اسم أبيه (المقدسي هرمز البناء الموصلي) يكشف عن أنه ولد لأب كان يعمل في صنف البنائين في الموصل، ، وهي حرفة اختص بها العديد من مسيحيي مدينته، وكان عدد منهم يعيش في محلته. وتذكر المصادر أنه رسم قسيساً في تلك المحلة ، وأنه أنصرف إلى دراسة لغات عدة، حتى تضلع من اللغة العربية والكلدانية والتركية، ولكنها لا تذكر أين دَرَسها، إذ لم تكن ثمة مدارس تُعلِّمها في مدينته عهد ذاك، فلا يبق إلا أن نذهب إلى أنه تعلمها إلى حد الإتقان بجهوده الذاتية وحدها، وبالدرس على أهل العلم أينما وجدهم، حيث كان «مغرماً بالمطالعة والتعليم»[2]. ومن الواضح أنه استهواه العلم لأننا نجده، بعد أن بلغ مبلغاً منه، يقوم بخطوة جريئة وجديدة، وهي افتتاح مدرسة يكون هو مديرها ومدرسها، ولما كنا لم نسمع عن وجود مدرسة سابقة عليه في الموصل تختص بأولاد المسيحيين، فيمكننا القول أنها كانت الرائدة في مجالها، ولم تشهد الموصل مثلها حتى افتتح الآباء الدومنيكان مدرستهم فيها بعد نحو نصف قرن تقريباً، وبتشجيع منه أيضاً. وعلى الرغم من أهمية هذه التجربة في تاريخ التعليم، وريادتها المطلقة في مجالها، إلا اننا لا نعلم طبيعة الدروس التي كان يُدرِّسها فيها، والفئة العُمرية التي كانت تتعلم فيها، ويظهر من قائمة خطية أثبت فيها أسماء طلبتها، أنها كانت تضم في آخر العهد بها 56 طالباً، وأن عدداً منهم كانوا من الشمامسة، مما دل على أنهم لم يكونوا صغاراً، وهو ما يعني أن مناهج الدرس كانت على مستوى عال نسبياً.

وتفيدنا قائمة أخرى سجَّل فيها عنوانات الكتب التي كانت عنده في الموصل، قبل أن يغادرها بصفة نهائية إلى روما كما سيأتي، بأنها تضم ثلاثين كتاباً مخطوطاً، منها كتب في النحو العربي وعلم الصرف بالعربية، وكتب أدبية، منها كليلة ودمنة لابن المقفع، وكتب سريانية وكرشونية، منها أسفار مقدسة، وكتب رهبانية، وقصص ديني

1989، ص18- 27 وكتابنا: التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، ط2، لندن 2009، ص150- 131

(1) لم يعين المطران ادي شير تاريخها إلا بأنها جرت "في مبادئ القرن الثامن عشر". المشرق المجلد 3 السنة 1901، ص852

(2) المشرق 581

وغير ذلك، فهذه هي الموضوعات الرئيسة التي كانت تُدرَّس فيها، فلم يكن غريباً أن يتقاطر الطلبة للإنتظام في سلكها من الموصل وكركوك وحتى بغداد.

وعمد هو إلى اختيار أحد الشمامسة النابهين من طلبته ليكون «الرئيس والخليفة عليهم»، ولا يبعد أن يكون قد اقتبس هذا النظام مما درجت عليه تنظيمات الحرفيين المعروفة بالأصناف، حيث يكون لرئيس الصنف (خليفة) أو (خلفة) يساعده في إدارة شؤون الصنف. لقد أدرك خدر مدى مدى حاجة المجتمع إلى وجود تعليم بهذا المستوى من التنظيم، ولا أدلّ على نجاح مدرسته في مهمتها واضطراد الإقبال عليها من استمرارها في أداء مهمتها مدة ثلاثين عاماً متواصلة[1]، على الرغم من أنها كانت تقوم على جهده وحده.

قدَّر المجتمع الموصلي، التواق دوماً الى المعرفة، هذه التجربة الرائدة، فلم تثر اعتراضاً أو نقداً من أحد، بل قبولاً وترحيباً، وكان يمكن أن تستمر مدة أطول لولا ما أخذ يواجه مؤسسها من نقد وتجريح في شخصه، لا في مدرسته، ويعود ذلك إلى ذيوع أمر تردده على بعثة الآباء الكبُوشيين، التي اتخذت من الموصل مقرا لها سنة 1700، وصارت تسعى الى نشر الكثلكة بين ظهراني النساطرة من أهلها، فاتهم بمَيله الى الكثلكة، وهي تهمة خطيرة لمن كان في موقعه الديني والتعليمي، ومما أدى إلى توتر العلاقات بينه وبين البطريرك النسطوري إيليا مروكي، أن قساً لبنانياً مارونياً يدعى أندراوس إسكندر قدم الى الموصل في كانون الأول من سنة 1719 موفداً من البابا كليمنتوس الحادي عشر (1700- 1721م) بهدف شراء الكتب المخطوطة كيما يرسلها إلى الفاتيكان تعزيزاً لخزانة كتبها هناك، وكان قد تجوّل في مصر والشام للغرض نفسه، ونظرا لما عُرف به القس خدر من معرفة بعالم المخطوطات، فإنه قصده طالبا مساعدته في الحصول على بُغيته، فما كان من الأخير إلاّ أن وضع كل خبرته في خدمة هذا المُوفد، مقدراً أهمية عمله، مما مكن الأخير من شراء «كل ما اشتهى من الكتب العربية والسريانية والكلدانية»، ولم يكتفِ بهذا فحسب، وانما استضافه، وخادم له يدعى الشماس ميخائيل بن حوا

---

(1) نحن لا نشك في تعيين سنة ولادته لأنه أدرجها بنفسه في رحلته، كما لا نشك أيضاً في سنة مغادرته الموصل سنة 1723، فقد عينه هو بالدقة، وقد ذكر أنه غادرها وله 45 سنة، ولكن ما يثر الشك، ما ذكره شيخو أنه درس في مدرسته مدة 30 سنة، لأنه إذا طرحنا هذا الرقم من سنة 1724 يكون عمره يوم افتتح مدرسته 15 سنة.

الحلبي، ضيافة كاملة في بيته مدة شهرين، اعتنق هو خلالها الكثلكة بصفة كاملة. وحثه ضيفه الماروني على الجَهر بإيمانه الجديد، فشرع في توجيه طلبة مدرسته إلى الكثلكة، بل أرسل الى بطريرك آمد الكلداني يوسف الثاني يعلن له عن ذلك، وأرسل الى البابا رسالة بيد مُوفده المذكور يطلب تعيين كاهن كاثوليكي للموصل، فما كان من بطريرك آمد إلا أن رشح القس خدر ليكون أسقفاً على الموصل.

أثار هذا الترشيح حفيظة أتباع البطريرك النسطوري إيليا العاشر، لا سيما من الفلاحين في ألقوش، مما أدى إلى هياجهم عليه، وعلى موفد بطريرك آمد، مطرانها باسيليوس، فما كان من الأخير إلاّ أن غادر الموصل بسرعة، بينما أضطر القس خدر إلى الإختباء لدى بعض معارفه ثم الإقامة الجبرية في بيته، مدة عام كامل لا يخرج منه، في الوقت الذي صادر فيه البطريرك إيليا مدرسته[1]. ولما لم تجد محاولته للتصالح مع البطريرك في دير هرمزد، فإنه عمد إلى الفرار من الموصل، وهو في الخامسة والأربعين من العمر، خوفاً على حياته، او تخلصاً من اضطهاد خصومه، فغادرها خِفية في آب سنة 1724 و قصد ماردين، بنيّة زيارة بيت المقدس، إلا أنه انصرف عن نيته تلك، واتجه الى إسكندرونة، ومن هناك اتجه إلى روما بحراً، فاستغرقت رحلته، منذ مغادرته وطنه وحتى دخوله إليها، عاماً تقريباً.

رحلته الى روما

سجل القس خدر وقائع هذه الرحلة بايجازشديد، مقتصراً فيها على ذكر أسماء، ونبذ قصيرة، عما كان يمر به من مراحل الطريق، حتى وصوله الى روما، في رسالة وضع لها العنوان المطول الآتي

(قصة أحوال القس خدر والمصيبة التي جرت على رأسه، وبسببها هرب من الموصل، وانطلق إلى مدينة رومية ليحتمي بها لأجل الإيمان الكاثوليكي)

ويبلغ عدد المراحل التي مر بها 40 مرحلة، منها 27 في البر و 13 في البحر، وهي:

الموصل – خان إسماعيليات – أسكي موصل- تلموز- قلعة عين ماء- تختكان – دمير قابي- الجراحية – نصيبين- ماردين – مغارة الفرس – دعيمي – ددا قرقين – مغارة أوران – مغارة العسلي – الجلاب – الرها (اورفه)- خان جار ملك

(1) رحلته ص585

- البيرة - المزار - جمغورلي مغارة - تخترين - حلب- حوار - شيخ مندو - جسر مراديس - الإسكندرونة - قبرس - قرمان - جزيرة رودس - جزيرة كنديا - كوجك درمالي - جزيرة مورا - جزيرة لمبيدوزي - بلد البربر - جزيرة سردينيا - كورسكا - أليكورنه - بيزا- جبده فيكه - رومية (روما)

وبهرته المدينة بكنائسها القديمة وتماثيلها وذخائرها وآثارها ومعالمها التاريخية واحتفالاتها، وقدر له أن يحضر وفاة البابا بندكتوس الثالث عشر (1724- 1730) وانتخاب خلفه كليمنت الثاني عشر (1730- 1740)، وكانت حياته في روما مجالاً مناسباً له للتأليف والدرس فضلاً عن نشاطاته في سبيل نشر الكثلكة في بلاده عن طريق إرسال الرسائل.

ولعل أهم ثمرات ذلك النشاط أنه نجح في إقناع البابا بندكتس الرابع عشر بإرسال بعثة من الآباء الكرمليين إلى الموصل، ليكملوا ما كان قد بدأ به في مجال التعليم والخدمة العامة، فضلا عن التبشير بالكثلكة، وهي البعثة التي سيكون لنشاطاتها أكبر الاثر في تاريخ الموصل الثقافي والاجتماعي منذ وصولها الى هذه المدينة وحتى عهد قريب[1].

وتوفي هو في 30 كانون الأول سنة 1571 مُوصياً لصديقه القس يوسف بهنام الموصلي بما كان يقتنيه من مخطوطات، يظهر أنها كانت تمثل كل ما خرج به من هذه الدنيا.

مؤلفاته

تنوعت آثار القس خدر بين اللغة، والتاريخ الكنسي، والشعر الديني والوجداني، فكان منها:

1- معجمه الكبير الذي سماه (معدن الكنوز في كشف الرموز) في ثلاث لغات هي العربية والكلدانية والتركية، ويظهر أنه أراد به تيسير تعليم الكلدان الذين لا يعرفون غير العربية، لغتهم الأم، فضلا عن التركية لغة الدولة والحكم. ويقع المعجم في مجلدين كبيرين، ويبلغ عدد الكلمات المشروحة 1240 كلمة، وتوجد منه خمس

---

(1) ينظر بهنام سليم حبابه: الاباء الدومنيكان في الموصل اخبارهم وخدماتهم 1750م، الموصل2005

نسخ، إحداها في البطريركية الكلدانية في العراق، وأخرى، في مجلدين، في دير الشرفة في لبنان تحت الأرقام 14/4 و14/5، والثالثة في المكتبة الفاتيكانية برقم 1885. وكان القس سليمان الصائغ قد وقف على النسخة الأولى فعرَّف بها في مجلته النجم سنة 1936، واطلع بهنام فضيل عفاص على نسخة الشرفة فعرَّف بها تعريفاً حسناً، تناول فيه منهجه وأهميته، كما نقل شيئا من مقدمته. وثمة نسخة رابعة في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين في بيروت برقم 149 ونسخة خامسة في ديار بكر نوه بها أدي شير سنة 1901[1]، ثم أنه انصرف بعد ذلك الى وضع تكملة للمعجم المذكور (عربي- سرياني)[2]، ومن هذه التكملة ثلاث نسخ، الأولى في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 256، والأخريان في المكتبة الفاتيكانية[3] تحت رقم 493 عربي، و195 سرياني.

بذل خدر الموصلي في تأليف معجمه الضخم هذا، الثلاثي اللغات، جهوداً مُضنية استغرقت عدة سنوات، وحين أدرك انه لن يمتد به العمر لكي يتولى طبعه بنفسه، وقف مبلغاً جسيماً من المال يكفي غيره لطبعه بعد وفاته[4]، وعلى الرغم من ذلك كله، فإن أحداً لم يهتم بتنفيذ هذه الوصية، وبقيت رغبته التي أراد بها «خدمة بني جنسه» على حد قول ادي شير، لا تجد من يغار على تحقيقها منذ وفاة صاحبها، مدة تزيد على القرنين ونصف القرن وحتى اليوم. فلا أقل من أن ندعو إحدى المؤسسات العلمية المعنية بالتراث السرياني في بلادنا الى العمل على نشر هذا المعجم غير المسبوق، وأن يتخذه أحد الباحثين موضوعاً لرسالة أكاديمية، فريادته تستحق ذلك بلا ريب، أو في أقل تقدير تصوير نسخه من العالم تيسيراً لمراجعيه.

2- تاريخ كنسي موجز، محفوظ في مخطوطة في مكتبة برمنكهام (كما في فهرس منكنا 246).

3- مجموعة الصلوات الختامية المسماة (حونامات) مرتبة على الحروف. في مكتبة الرهبانية الكلدانية في العراق.

(1) مجلة المشرق ، بيروت المجلد 3 السنة 1901، ص852

(2) قال شيخو انه سرياني عربي.المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، المشرق 21، 1923، ص16.

(3) ينظر شيخو: المصدر السابق.

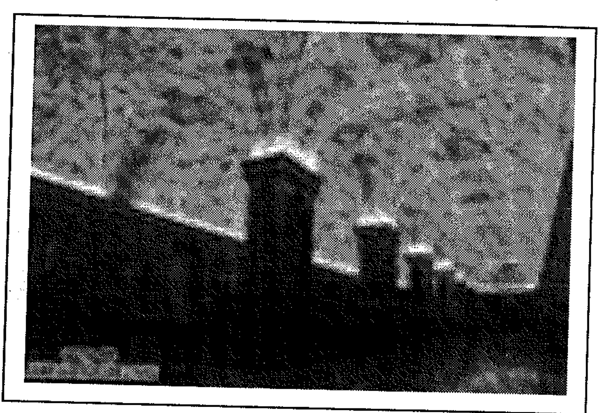
(4) أدي شير: البحث السابق.

4- تسبيحات وصلوات بالعربية (وتسمى ميامر ومداريش) كانت محفوظة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ببغداد (وقد آلت هذه المكتبة إلى دار المخطوطات العراقية).

5- ميامر أخرى بالخط السرياني الشرقي. أشار اليها ألفونس منكنا، على ما ذكره ألبير أبونا في كتابه (أدب اللغة الآرامية ص537).

6- قصائد بالعربية والكلدانية نظمها في مدح السيدة العذراء، نشرها لويس شيخو في مجلة المشرق (المجلد 7، السنة 1904، العدد 23).

هذا إضافة إلى ترجمته عدداً من الكتب من العربية إلى الكلدانية، ومن الأخيرة إلى العربية، ومن الإيطالية إلى اللغتين معاً، وكلها يتناول موضوعات تعليمية دينية وأخلاقية وإرشادية . وقد عَرّف بها بهنام فضيل عفاص مشكورا.



مكتبة الفاتيكان

رحلته الى روما

أما رحلته الى روما، فإن مما زاد من أهميتها، فضلا عما تقدم، أنها ضمّت أيضاً معلومات استقاها الرحالة من مشاهدات قس يدعى دون جورجو، كان قد قام برحلة تبشيرية مع راهب آخر إلى الهند، وبلاد جين وماجين (الصين ومنغوليا)، وبلاد المليار، وبلاد الهند الشرقية.

كتب القس خدر رحلته هذه بلغة عربية سليمة، ومع ذلك فإنها انطوت على عشرات من الألفاظ العامية والدخيلة التي كانت متداولة في عصره، واضطر أن يضعها مقابلاً لألفاظ ايطالية لم يجد سواها ليعرِّبها به. وقد استخرجنا هذه

الالفاظ، ورتبناها على حروف المعجم، وحاولنا التعريف بأصولها، لتكون مما يستدرك به على المعاجم العربية[1]، وذلك على النحو الاتي:

* * *

أباطور

معرب Emperor وعرَّبه هو بسلطان، وهو مصطلح اسلامي محض استعمله السلاجقة والمغول والعثمانيون وغيرهم. قال في ص842 «يجيء سلطان أباطور أي سلطان» كما انه استعمله بمعنى ملك، مثل سلطان إسبانيا، وسلطان النمسا كما في ص744، وبمعنى زعيم، حتى لو كان زعيما للطلبة، كما في ص713، يقول «فالذي يغلب بينهم يملك السلطنة».

اخترط

لفظ استعمله بمعنى سلَّ، مأخوذ من الفعل خَرَط، وهو فصيح له معان شتى أقربها : خرط العود، أي قشره وسوّاه، وانتزعه.. فاخترط السيف سَلَّه من غِمده، قال في ص744 «ويقوم ويخترط سَيفه ويُمسكه بيده مسلولاً».

أرماح

جمع عامي لكلمة رمح، وصحيحها رماح، وقال في ص739 أنها من الأسلحة التي يُزوَّد بها «زمرة العسكر» إذ أن «زمرة العساكر مزودة بالحديد والزلوخ والأرماح».

أساوير

جمع عامي لكلمة سِوار، وهو ما تزين به المرأة رسغها، وفصيحه أساوِر. قال في ص836 «الفتيات يلبسون (يلبسن) أساوير الذهب».

اسكوت

عُملة رومانية. قال في ص667 «تكلّف على ما سمعنا لهذه الحفلة خمسين ألف اسكوت Scude روماني، وسماه قرشاً» فقال في ص839 «قرشاً أسكوت

---

(1) سبق أن أعددنا دراسة عن مثل هذه الألفاظ مما ورد في رحلة الياس بن حنا الموصلي الكلداني سنة 1668 بعنوان (الفاظ دخيلة وعامية في رحلة الموصلي الكلداني للقارة الامريكية)، ونشرت في هذه المجلة العدد 54، تشرين الاول 2016 ص36- 51.

روماني» وقال «كل اسكوت عشر جوليات، والجُوليّة هي البغدادية السالِكة في الموصل» (تنظر مادة بغدادية)

أسكول

استعملها مقابلة لكلمة مدرسة. قال في ص584 «كَونك صاحب إسكُول، ولك جاه بين الناس» وقال في ص585 «ضبطوا الأسكول من يده» وقال أيضاً «يمكن أولاد الأسكول أن يأتوا باطمئنان ويتعلموا في مدرستي» . وقال في ص741 «والبنات لهن معلمات نساء أصحاب أسكول. كما استعملها أيضا مقابلة لكلمة مَكتَب، قال في ص581 «أراد أن ينشئ أسكولاً أي مكتباً». وقال «القس خدر صاحب الأسكول»

أطلع

عامية بمعنى (أخرج). قال في ص588 «أطلعوا لنا التذاكر الجدد».

آغا

فارسية بمعنى السيد والضابط في الجيش الانكشاري، جاء اللفظ مقترناً بالسباهية (تنظر هذه المادة) فقال في ص730 «السباهية والأغوات».

أرواق

الرواق هو السقيفة في مقدمة البيت، يجمع على أروقة ورُوق، وجمعها هو جمعاً عاميا على أرواق. قال في ص657 «خلق عظيم في الهيكل والأرواق وحوش الكنيسة» وفي ص738 «الشباك الذي على أرواق مار بطرس»، كما جمعها أيضاً على رواقات فقال في ص660 «وذلك البستان حوله رواقات».

أوضة

كلمة تركية بمعنى (حُجرة)، كانت مستعملة في العاميات العربية في العراق والشام ومصر، وتلفظ (أوده) بدال مضخمة ولذلك فإنها تكتب أخياناً بشكل (أوضة). قال في ص737 «وبنوا فيها أوضات من خشب وقماش للكردينالية» .

ايش

عامية فصيحها (أي شيء). قال في ص584 «أقضي لك ايش ما تريد».

باطرية

لفظ أخذه من الايطالية Padre بمعنى الأب، وكتبها بالطاء وبالدال. قال في ص589 «قدسنا خمسين قداساً عند الباطرية في كنائسهم». وقال «ونزلنا في كنيسة الإفرنج عند البادري» وقال أيضاً «وفي الكنيسة الواحدة التي هي للبادرية الكبوشية».

بَخشَش

فعل عامي من بخشيش، فارسية، بمعنى الإنعام، والعطية، والهبة. قال في ص665 : «والذي يغسلون رجليه يُبَخشِشونه نصف قرش» و «يجيء البابا ويغسل أرجلهم ويُبخششهم كل واحد ذهبا».

برّا

عامية عربية مأخوذة من بر، وتعني خارج. يقول في ص585 «ما يقدر يطلع برا بيته».

بَردَه

كلمة تركية بمعنى الستار والحجاب. استعملها بهذا المعنى بقوله في ص742 «وينصبون في الكنيسة بَرده أي بين البنين والبنات»

برنجبية

صنف من الأغوات، اي من ضباط الجيش. قال في ص731 «والبرنجبية أعني الأغوات»

برنير

رداء يشبه الروب. قال في ص744 «حاجب يمسك ذيل البرنير الذي عليه».

البغدادية

ضرب من القروش المتداولة في الموصل، يساوي قرشا صاغاً[1] وثلث القرش تقريباً، وهو ما يعدل 55 بارة[2]، سمى بها عملة إيطالية كانت تعرف بالجولية،

(1) القرش الصاغ يتألف من 40 بارة.

(2) كتابنا: الموصل في العهد العثماني، النجف 1975، ص557.

فقال في ص659 «وقد صرفوا على هذه الحراقة أي برج الورق خمسة عشر ألف قرش اسكوت روماني، وكل اسكوت عشر جوليات، والجولية هي البغدادية السالكة في الموصل».

بوسطة

أخذها من الايطالية posta أي البريد. قال «وتعشينا ونمنا في لوستريا البوسطة» ص840 يعني الدار المعدة لاستراحة المسافرين في محطة البريد (وتنظر مادة لوستريا). قلنا: ولعله اول من استعمل هذا اللفظ بالعربية.

بَيرق

لفظ تركي بمعنى الراية والعلم، وهو قريب من معنى السنجق إلا أنه أكبر، ولذا فإنه ينصب في الميدان، اما السنجق فهو أصغر، يرفعه قادة الصنوف. قال في ص637 «وينصبون بيارق وتبقى العساكر مسلحة».

تَبَعية

لفظ عامي يعني به: بالتتابع. قال «وهكذا يفتحون كل مكتوب بالتبعية»

تفريش

لفظ عامي اطلقه على ضرب من البلاط، الذي تفرش به أرضيات الحجرات والقاعات عادة، يظهر انه يشبه البلاط المعروف في العراق بالفرشي،. قال في ص 664 «وثقبت أماكن كثيرة من الهيكل من بلاط تفريشه. قلنا: وعُرب اللفظ بالبلاط مطلقاً».

تُفنك

لفظ تركي بمعنى البندقية، وقد تُخفَّف إلى تُفك، قال في ص742 «والأجناد ماشين وبأيديهم التفنكات».

تقاعد

تقاعَدَ لغةً التقاعس والتكاسل، ولكنه استعملها بمعنى مختلف هو الالتزام، فقال في ص584 «تقاعد بخرجيتها» أي التزم بنفقتها

تنشّط

عامي وفصيحه نَشَط أي عمل بجد وحيوية فقال ﭬ ص744 «ويتنشطوا بمثله على الدرس» أي يتخذون مثالا لهم ﭬ الدرس.

جاب

اللفظ فصيح وله معان شتى ليس منها المعنى العامي ولا من أصله، فجاب هذه من (اجي به أجي بـ)ء. قال ﭬ ص584 «أن أجيب ولَدَين» ، وقال ﭬ ص658 «فالملوك المسيحيون قلعوا الدرجات من أورشليم وجابُوها إلى رومة». وﭬ ص 137 «وجابوا لهم معلمين».

جريمة

فصيحها ما يقترفه الانسان من جُرم، وهو الذنب والجناية، ولكنه يستعملها بمعنى (الغرامة) التي يفرضها الحاكم على المجرمين، أو المقترفين ذنباً، وهذا مأخوذ من جَرَم بمعنى قطع، ومنه ﭬ العامية البغدادية: جَرَمني أي قطع مني، او كلفني ما لا أطيق. فيقول ﭬ ص584 «أن يسلموه بيد حاكم الموصل ليحبسه ويعذبه ويأخذ منه جريمة كبيرة»، وقال ﭬ ص485 «فطلب مني البَطرَك ستين قرشاً جريمة فرضيت»، وقال ﭬ ص589 «أعطت طائفة الموارنة جريمة نحو أربعة آلاف قرش».

جَنزير

هي السلسلة، وتسمى ﭬ عامية العراق زنجيل. قال ﭬ ص689 «وحبسَ منهم كثيراً ﭬ الجنازير» أي حبسهم مقيدين بها .

جواويش

جمع جاووش، لفظ عسكري تركي يقابل بالعربية عريف. قال ﭬ ص742 «خلف البابا أولاً الجواويش لابسين الأحمر وعلى رؤوسهم الريش وكانوا راكبين الخيل».

جَوقة

هي الجماعة، واستعملها بأنها الجماعة من الجنود، فقال ﭬ ص743 «والأجناد ماشين وبأيديهم التفنكات، كل جوقة بجوقتها».

جيرنا

عامية، فصيحها أجرنا، من أجار أي أغاث وأنقذ. قال في ص659 «جيرنا وخلصنا منه بحولك وقوتك».

حرَّاقة

لفظ عامي فسَّره هو بقوله «الحرَّاقة أي برج الورق» ووضَّح معناه فقال في ص659 «ركَّبه من ورق» «وملأ الورق باروداً وزيَّنه بحلي الذهب كلها ورق» . قلنا : ويُسمّى اليوم: ألعاب نارية، وفي العراق: صعّاديات[1]. وقد وردت في رحلة الياس الموصلي الكلداني بما يدل على أنها سلاح ناري يطلق نوعاً من القذائف.

حلينا

عامية، وأصلها حللنا، بمعنى نزلنا .. قال «حلينا في خان إسماعيليات» و«حلينا في تختكان» و قال «حلينا في الجراحية» (ص587) وهكذا في مواضع عدة (ص587)

الخَراج الجديد

الخَراج ضريبة تؤخذ على الأرض الزراعية. ولكنه استعملها بمعنى (الضريبة) مطلقاً، أو (رسم الدخول إلى مكان ما). قال في ص588 «فمسكونا فيها على الخراج الجديد وتعوّقنا خمسة عشر يوماً».

حُنفاء

جمع حنيف، وهو – لغة- لفظ فصيح له معان شتى، منها المائل عن الباطل الى الدين الحق، واستعملها هو بمعنى مخالف، قريب من الهَرطقي والكافر . قال في ص731 «ويرتد في أيام رئاسته الهَراطقة إلى الإيمان المستقيم والحنفاء والكفرة إلى أيمان المسيح».

خَرجيَّة

عامية من خرج، المأخوذة من أخرج، أي أنفق، فهي النفقة. قال في ص584 «ولم يدعهما يخرجا شيئاً» أي يُنفقا شيئا من المال. وينظر معناها في رحلة الياس الموصلي (بحثنا السابق)، وهي هناك بمعنى مصروف جيب.

---

(1) ظن رحالتنا انها تملأ بارودا، والصحيح أنها تملأ بمواد كيماوية فتحدث عن استعمالها دوياً وضياء

دَرابزين

الحاجز على جانب السلم يمنع الصاعد عليه من السقوط، واستعمله هو بمعنى السلم نفسه. قال في ص657 «وصَعَد على درابزين في مكان عال في الكنيسة»، وقال في ص659 و«وجعل حول البرج درابزينات».

دَستور

فارسية بمعنى العهد. قال في ص592 «وهناك جددنا اعتقادنا وأخذنا ورقة دستورنا لتُقدّس في جميع الكنائس»، ويقارن برحلة الياس الكلداني ص114 حيث وردت اللفظة بمعنى قريب.

رَبوات

الرَبوة لغة الزيادة، واصطلاحاً الجماعة من نحو عشرة آلاف. قال في ص665 «يَصرِفون على الزوار ألوفاً وربوات».

رَحاة

عامية فصيحها رَحى، وهي آلة طحن الحبوب. قال «وفيها رحاتين وبساتين ومياه كثيرة» (ص588)

زلوخ

لفظ فصيح بمعنى الطريق البعيد، ولا صلة لهذا بسياقه في الرحلة، فسره لويس شيخو بأنه الدروع التي يرتديها العساكر، فهو يقابل كلمة (زرد) قال في ص736 «عساكر مسلحة مزودة بالزلوخ والحديد يحرسونه»، وفي ص739 «زمرة العساكر مزودة بالحديد والزلوخ والأرماح».

زَنبيل

لفظ من العامي الفصيح، أصله: الوعاء، والقفة الكبيرة، قال في ص637 «ويأتون بزَنبيل مُغطّى بحرير».

زياح

الزياح عند المسيحيين طواف بأشياء مقدسة، كالأيقونات أو القربان، داخل الكنيسة أو خارجها. قال في ص652 «وأبصرت في رومية الزياحات التي عملوها

كل يوم»، وقال في ص652 «عملوا له زياحاً لا يصير مثله في الدنيا» و «ونزلوه من سَرايَته بهذا الزياح» و «وطلعوا أمامهم بالزياح والسناجق والصلبان» وفي ص663 «في أول ساعة من النهار يعملون زياحاً عظيماً» وفي ص770 «وهذا الزياح الأخير يصير مثل زياح السلاطين»، والمصدر «تزييح» (ص743). ويقارن برحلة الياس الكلداني ص50.

سالِك

استعمله بمعنى مُتداوَل، او رائج، فقال في ص659 «والجولية هي البغدادية السالكة في الموصل»

سِباهية

فارسية من سباهي، وهو الفارس، وفي المصطلح العثماني الفارس الاقطاعي الذي يخرج الى القِتال مقابل منحه قطعة معينة من الأرض، تسمى (تيمار)، والسباهية هم الفرسان. وورد ذكرهم في الرحلة مقترنين بالأغوات، وهم الضباط عامة، فقال «السباهية والأغوات» وفي موضع آخر ما يُفهم منه أنهم داخلون ضمن مصطلح الأغوات نفسه، الذي يضم انواعاً من الأصناف العسكرية الأخرى.. قال في ص731 «وكان البابا جالساً على كرسي ذهب يحمله حصانان أبيضان والسباهية والكوليزية والبرنجبية أعني الأغوات».

سَكبانية

جمع سَكبان، لفظ فارسي لصنف من الجيش العثماني، من (سَك) بمعنى كلب، و(بان) بمعنى حافظ أو مراقب، أطلق هذا الاسم في أول عهد الدولة العثمانية على الذين يحرسون كلاب السلطان، ويحملون له البنادق، ويلحقون الطرائد، ثم أدمجوا في الجيش الإنكشاري، وصار قائدهم (سَكمَن باشي) أكبر مساعدي قائد الانكشارية، ونظراً لمهارتهم في الإصابة بالبنادق صار السكماني هو الهداف، واشتق العامة من اسمه الفعل (سقّم، سكم) أي هدَّف، وأصاب الهدف. وجعله رحالتنا مقابلاً لكلمة soldat فقال في ص742 «وخلفهم السُولدات أي السَكمانية» وقال أيضاً «احتاجوا إلى أن يجيبوا أجناداً من السولدات وفي أيديهم الحَربات». والسُولدات كلمة فرنسية تعني الجندي.

سَنجَق

لفظ تركي بمعنى الراية، قال «والشمامسة في أيديهم العلامات والسناجق والصُلبان» (ص657). وقال «ولكل رهبنة سنجقها» (ص663) وقال أيضاً «اجتمع له جميع الرهبانيات بسناجقهم» (ص730)

شاطر

الشاطر كلمة عربية فصيحة تعني الداهية والماكر، لكنه استعملها بمعنى النابه، وهو المعنى الشائع في العاميات العربية الحديثة، فقال في ص742 «ويجمعون الأولاد الشاطرين غاية ما يمكن من كل مدينة»، وقال في ص 743. «ويُدخلون الأولاد الذين اشتهروا بشطارتهم»

شال

عامية بمعنى حَمَل، أي حَمَل أمتعته، كناية عن الإنتقال من مكان إلى آخر. قال في ص588 «تعشينا وقمنا شِلنا ودخلنا مدينة الرُها».

شِقفة

بمعنى القطعة. قال في ص585 «ولوا قطَّعت جسمي شِقفاً شِقفاً»، وقال في ص652 «أرانا شِقفة من عِكاز هارون الكاهن».

شلموث

سريانية بمعنى اعتراف، أو شهادة. قال في ص585 «أكتب له شلموثاً».

شيخ مشايخ

مصطلح عربي يطلق على زعيم عام لمجموعة من القبائل المتحالفة او المتحدة، لكنه عده مرادفاً لمصطلح الوزير الأعظم، فالشيخ هنا هو الوزير. قال «شيخ مشايخ رومية أعني الوزير الأعظم» (ص732)

صريخ

من العامي الفصيح، بمعنى صِراخ. قال في ص739 «وصل صَريخهم إلى السماء».

الصُفرة

لفظ عامي، فصيحه سُفرة، وهي مائدة الطعام أو الطاولة. قال في ص637 «طاولة مثل الصفرة» .

صَلبوت

لفظ سرياني بمعنى الصليب. قال في ص662 «ويكشفون فيها صلبوتاً من خشب».

صلّح، يصلح

الكلمة فصيحة ولكنه استعملها بمعنى يصطلح، ويصالح. قال في ص585 «أرادوا أن يصلحوني مع البطرك».

طبلخانة

مصطلح عثماني ، من طبل العربية وخانه الفارسية بمعنى المكان والدار، وهو مصطلح معناه فوج الموسيقى العسكرية التي تختص بالضرب على الطبول في اثناء توجه الجيش الى ساحة القتال، وقد تسمى في الجيش العثماني (مهترخانه) . قال في ص730 «ويمشي بالزياح والهلاي والطبلخانة»، وقال في ص743 «وفي تلك الساعة تضرب الطبلخانة ويهتفون بالأبواق»

طشت

من الفارسية، وهو الإناء المعد للغسيل ونحوه، معربه طست، قال في ص677 «والكلس كان في طشت من الفضة».

عرضحال

تركيب تركي من لفظين عربيين، ظل شائعاً في العاميات العربية. أتخذ بديلا لما كان يعرف في العهود الاسلامية باسم (شكاية) و(ظلامة) ونحو ذلك . قال في ص591 «وقدّمنا عرضحال للمجمع المقدس».

عيَّد

عامية بمعنى (احتفل بالعيد). قال «وعَيَّدنا عيد القيامة».

غُراب

سفينة حربية تتميز بالطول، يظهر انها كانت تختص بالقراصنة. قال في ص510 «وجاء علينا غراب من القرصان».

طُغمة

لفظ فصيح بمعنى الجماعة، ولكنه استعمله بمعنى آخر بوصفه عنصر بنائي يشبه ان يكون جزءاً علويا من مذبح الكنيسة أو قبر لقديس. قال «رأس طغمة المذبح، وهو من حديد مزخرف بالذهب» (ص660) «وعلى طغمة رأس قبر مار بطرس ثلاث ذخائر» (ص661).

طوب

هو المدفع لكنه استخدمه دلالة على أنه غيره. قال «والطوبات والمدافع محشوة بالبارود» (ص637).

العَرَبانات

جمع عربه، عامية دخيلة، وأصلها من التركية (آربة) قال في ص591 «وركبنا على عربانة وسافرنا»:

وقال «يجيء خدام الكردينالية راكبين على الكروسات والعربانات وحاملين طعام الكردينالية» (ص638 و839)

فاتول

لفظ عامي، أصله من فتل أي التف على نفسه، واستعملها للدلالة على ضرب من الابواب التي تدور على محور عمودي، قال في ص638 «فيجيئون إلى الدواليب الفاتولة ويدخلونه منها» «وعلى كل فاتول يجلس واحد من حكام البلد ومطران وعساكر» . قلنا: وقد عرب هذا الاسم بالباب الدوار[1].

فورطنة

عامية، وفي عامية العراق (فَرطَنة)، وأصلها من الفصحى: فرتنة، وهو هياج

(1) كوركيس عواد: الذخائر الشرقية، ج5 ص 366 ،الفاظ الحضارة.

البحر من عصف الرياح ، واستعملها بهذا المعنى فقال في ص590 : ثم جئنا إلى كورسيكا وصارت علينا فورطنة».

فرمان

لفظ تركي يعني الامر، واصطلاحا الامر الصادر عن السلطان حصراً، على خلاف (البيورلدي) الذي يصدر عن الولاة خاصة، قال في ص743 «ويعطيه البابا فرماناً يجعله شريفاً».

فِشك

لفظ تركي بمعنى الإطلاقة التي تندفع من البندقية بفعل إلهاب البارود . قال في ص667 «وأحاطها بالفشك والبارود». قلنا : ما يزال اللفظ معروفاً في العامية العراقية للدلالة على اطلاقات البنادق القديمة، وفي العامية المصرية ان الفِشَنك هي الإطلاقات المزيفة التي تقتصر على إحداث صوت عال دون أثر.

فلَّش

عامية عراقية بمعنى نقض ولكنه استعملها بمعنى فكّ وفكّك، فحينما تحدّث عن مَيِّت لُفلف بالكتان والقماش قال «وأخيراً فلشوه» ص736.

قَرمُط

لفظ عامي فصيح، مستعمل في عامية العراق بمعنى ضيَّق، وأصله : قارَبَ، ومُقرمَط بمعنى متقارب. قال «وفيه دعائم معرومة مفتولة مقرمطة مزخرفة تخطف بصر الناظرين» (ص665)

قوناغ

كلمة تركية تعني المحطة في الطريق، حيث تنزل القوافل بين مرحلة وأخرى، ثم تطور معناها إلى المرحلة مطلقاً، قال في ص584 «قرية ألقوش البعيدة مقدار قوناغ واحد عن الموصل»

قاثوليق

هكذا يكتب كلمة (كاثوليك). يقول في ص589 «وما قدر أحد من القاثوليقيين أن يساعده» (ص583) و«قام بعض الشبان من القاثوليقيين».

كاروز

كامة كلدانية تعني المبشر، مأخوذة من الفعل (كرَّز) بمعنى بَشر. قال في ص542 «كان كاهناً معلماً كاروزاً قديساً».

كرز

كرز لفظ ارامي بمعنى بشر، ولكنه استعمله بمعنى (تكرَّس) أي جلس على كرسي مؤسسة ما،.واستقر في رئاستها. قال في ص584 عن بطريرك النساطرة «وتكرز بطريركاً في دير الربان هورميز» (وهو دير الربان هرمزد).

كروان

لفظ فارسي بمعنى القافلة، عُرِّب قديما بقيروان. قال في ص587 «حلّينا في الجراحية وخلّينا هنا الكروان».

كروسة

كلمة أخذها من الايطالية، وفسَّرها بأنها الهَودَج نفسه، فقال في ص743 «ويركب على كروسة أي على الهودج»، وقال في ص730 «والوزير الأعظم قدام كروسته وتمشي حوله العساكر» (ص730) وقال في ص743 «ويجيء هو راكباً على الكروسة ويدخل الكنيسة».

كليس

أخذها من الإيطالية Calessi ولم يجد لها ما يقابلها إلا (عربانات). قال «فاستكرَينا كَليسين» ص839

كِليج

أخذها من اللغة الإيطالية Collegiu، والظاهر أنه فعل ذلك لأنه لم يجد ما يقابلها بالعربية، قال في ذكره أحد القسس الوافدين إلى روما أنه «سكن في كليج بونطي ستيتو» ص835، وقد عُرِّبت الكلمة في أواخر القرن التاسع عشر بكلمة (كُليّة) القريبة منها لفظاً ومعنى.

كوليزية

اسم لأحد صنوف الجيش، قال في ص731 «وكان البابا جالساً على كرسي ذهب يحمله حصانان أبيضان والسباهية والكوليزية والبرنجبية أعني الأغوات»

لوستريا

أخذها من الايطالية Osteria بمعنى حانة. وعدها مرادفة لكلمة مَيخانه الفارسية المستعملة في بلاده. قال في النص السابق «لوستريا البوسطة التي هي الميخانه» ص840 (وتنظر مادة ميخانه)

مارستان، بيمارستان

كلمة فارسية مركبة من مار المخففة من بيمار بمغنى مريض، وستان بمعنى مكان، فهي دار المرضى، حيث يستشفون، ، وانتشر استعمالها في الحضارة الإسلامية على نحو واسع. وقد استعملها بهذا المعنى فقال في ص659 «المارستانات أعني بيوت المرضى» وفي ص665 «وفي هذه الكنيسة بيمارستان فيه خير كثير».

مالج

أداة مكونة من سطح مستو له مقبض، يستعمله البناؤون في صقل الجدران المبيضة بالكلس. قال في ص657 «الطشت من فضة والمالج من ذهب»، و«صقلها بمالج الذهب في الكلس».

مَحرُمَة

هي المنديل كما يعرف في عاميات الشام، ولا يعرف في العراق. قال في ص661 «صورة وجه المسيح على مَحرَمَة».

مَر، مَرّينا

عامية فصيحها (مررنا) قال في ص590. «ثم مرينا على جزيرة سردينيا»

معروم

لفظ عامي، أصله من الفصيح عَرِم، اي قوي وعظيم . قال في ص665 «وفيه دعائم معرومة مفتولة»

مغاوِر

جمع عامي لمغارة بمعنى الكهف، وفصيحه: مغاور.

ملا، مَلَينا

عامية، فصيحها (ملأنا). قال «وملينا أوعيتنا منها ماء»

مُنغّم

مصطلح اتخذه للدلالة على أداء المرتل حين ينغم كَلِماً دينياً. قال في ص739 «وكان المُنغمُون يرتلون أنغاماً تقية».

مَيخانه

عامية دخيلة من الفارسية والتركية، ميوان بمعنى الضيوف، وخانه بمعنى الدار، فهي دار الضيافة، وانحدر معناها في العامية العراقية الى حانة الخمور. واستعملها هو بمعنى دار الاستراحة المعدة للمسافرين، حيث يجدون فيها الطعام والشراب والمبيت. قال «تغدينا في مَيخانه» ص839 وقال «وتعشينا ونمنا في لوستريا البوسطة التي هي المَيخانه» ص840

نزريت

كلمة إيطالية بمعنى المَحجَر الصحي. قال في ص591 «ونَزلنا في النزريت وفيه صلينا صلاة رمش الأحد» و «ثم في النزريت عشرين يوماً». ووضع إلياس الكلداني مصطلح (بيت التطهير) مقابلا له، كما ورد في رحلته ص35، وهو المعروف اليوم بالكرنتينه، وهذا مصطلح ايطالي أيضاً شاع في بعض العاميات العربية في القرن التاسع عشر.

هلاي

لفظ مأخوذ من الكلمة العبرانية (هليلويا) بمعنى سَبِّحوا، أذكروا اللهَ! وقال لويس شيخو في تفسير اللفظ أنه كلمة فارسية يُراد بها التهلل وصوت الفرح. وورد في الرحلة مقترناً بالزياح (انظر هذه المادة) قال في ص710 «ويمشي بالزياح والهلاي»، وفي ص730 «ثم يطلع بزياح وهلاي»، وفي الصفحة نفسها «يصير هلاي أكبر».

ودّى

عامية بمعنى (ذهب به)، ، أصلها أدّى، أي دفع وأعطى، قال في ص584 «أوَدِّيه معي ليتعلم العلوم».

يازجي

كلمة تركية تعني الكاتب. قال في ص637 «وجَنبُهم يازَجي يُدَوِّن الأسماء»

يحُوط

عامية فصيحها يحيط. قال في ص657 «خَلقٌ لا يحُوط به إحصاء».

محتويات الكتاب

الاعلام

الامكنة والبلدان

مصطلحات عسكرية وحضارية